

أبحاث ومقالات (1)  
من قديم ما ألف وكتب

الكتاب: أبحاث ومقالات (1) "من قديم ما ألف وكتب"

الكاتب: د. برهان زريق

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة لورثة الكاتب

الكتاب صدر بعد وفاة الكاتب يرحمه الله

لذا لم يحظ بالتدقيق من قبله

يرجى موافاتنا بملاحظاتكم واقتراحاتكم

على البريد الإلكتروني:

[Burhan\\_zraik@yahoo.com](mailto:Burhan_zraik@yahoo.com)

موافقة وزارة الاعلام السورية على الطباعة

رقم /116768/ تاريخ 2019/3/14

د. برهان زريق

أبحاث ومقالات (1)  
من قديم ما ألف وكتب

أعيش... لأكتب

الحاج الدكتور  
مهدي زريق



## الجزء الأول

المفالات والأبيات خات الطالب العربي والسياسي



### الأصالة والمعاصرة بين المحاكاة والتقليد<sup>1</sup>

**تواجه** أمتنا العربية مسألة المحاكاة والتقليد من جهة، ووعينا بالعلاقة التضامنية، بين الإصلاح الثقافي والتنمية الاجتماعية، من جهة أخرى، وهذا ما يعبر عنه بغياب الرؤية الأصيلة في التعامل مع الأشياء وتناولها ومعالجة مسائل الأمة، وذلك بالاعتراب عن جوهرها ومعدنها الأصيل.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، هو ما قيمة هذه الرؤية إذا كانت الأمة هشة صغراً أصغر لا تقوى على الانطلاق، ألسنا إذاً حيال وعي غير مطابق معاند يصعب عليه التجاوب مع هذه الأفكار.

بيد أنه يمكننا القول إن جميع الانطلاقات والمخاضات الإنسانية الكبرى انطلقت من الأمة وجذورها العميقة الصلبة، كما حصل ذلك حديثاً في ثورة اليابان والهند والصين، فهذه الثورات انطلقت من أصالة الأمة وتراثها وأصالتها وشخصيتها..

---

<sup>1</sup> - نشر المقال على موقع المجلس الأعلى الإسلامي العراقي بتاريخ 2012/2/23.

وهذا البحث قد يضطرنا إلى الحفر في تفاصيل وتلايف معقدة، بيد أننا سنحاول الإيجاز.. في الموضوع حسبما تمليه طبيعة البحث وظروفه.

الأصالة بإيجاز تعني التزام ثقافة الأمة بأصول تشكل بنيتها الداخلية الهيكلية التي يلتفت حولها، ويرتكز إليها الجسم الثقافي العام، وتتعين هذه الأصول بجملة من المفاهيم المحورية والقيم الأساسية التي تميز ثقافة ما من غيرها من الثقافات، أما أصالة الوعي، فتعني أن الإنسان ينطلق في فهمه وتحليله للأشياء من رؤية تعبر عن ذاته وهويته وتجربته العلمية، بدلاً من تبني أطروحات لا ترتبط بهويته وتجربته وخبرته وتراثه.

والأصالة بهذا المعنى تناقض الاغتراب والاستلاب الفكري، قال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ ﴿175﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف/175-176.

الأصالة في سياق الثقافة العربية تعني البحث عن أصول هذه الثقافة التي أعطتها وجهتها وبنيتها المتميزة واعتماد تلك الأصول لتحديد مواضع القصور والانحراف في السلوك الثقافي.

إنّ طرح الأصالة في سياقها العربي سياقها العربي سيقودنا حتماً إلى تلمس القيم الكلية التي دفعت العربي من صحرائه النائية في مسار خارجي نحو شعوب وأقاليم مغايرة حاملاً إليهم رسالة توحيد في مجتمع مدني عالمي ووحدتهم على اختلاف عروقهم ومللهم ونحلهم في ميثاق أخلاقي يؤكد كرامة الإنسان وحرّيته وفاعليته في المجتمع والتاريخ.



الأصالة العربية تعني ضرورة الانطلاق من قيم الإسلام الكلية وتصوراته الإنسانية وتوجهاته العالمية، في جهد لإصلاح المجتمع العربي وتنمية قدراته الإبداعية، وإعادة ترتيب بيته السياسي ليستوي في ذلك المسلم وغير المسلم.

فالمعاني الكلية الثابوة في رسالة الإسلام «ورثة الرسالات السماوية ورائدة التيارات الإنسانية والتحررية اللاحقة» تتطلب التزاماً عقدياً لاعتمادها في عملية التنظيم الاجتماعي في المجتمع الإنساني.

بيد أن أصالة المثقف لا تقف عند التزامه بالأصول الإسلامية للوعي الحضاري التاريخي للشعوب المسلمة بدءاً بالشعوب العربية، بل تتبع أمتنا في ارتباط الوعي بالتجربة التاريخية للذات، أو بوعي المثقف للسياق التاريخي والجغرافي الذي يعيشه.

فعلى المثقف أن يعي حدوده الزمانية والمكانية، وعليه أن ينطلق في تحليله لمشكلات مجتمعه وجيله من الظرف التاريخي الذي يعيشه هو، وتعيشه أُمَّته، فالمثقف الذي يعتمد حلولاً جاهزة يسترجعها في فترة تاريخية سابقة، أو يستعيرها من تجربة مجتمع مغاير، مثقف لم يرتق بعد إلى مستوى الأصالة الفكرية والثقافية، لذلك فهو عاجز عن الإسهام في نهوض جماعته وأُمَّته.

الأصالة الثقافية تتطلب إذاً استحضار العناصر الكلية في التراث الثقافي والمثقف الأصيل قادر من خلال هذا الاستحضار لتلك الطلبات على تجاوز خصوصيات ثقافية، وإعادة تشكيلها وفق الكليات العربية الإسلامية، وبالتالي تحديدها دون إضاعة هويتها أو إنكار تاريخها وتراثها المميز لها وبالتالي فإن الأصالة والتجديد ليسا مفهوميين متقابلين، بل هما مفهومان متكاملان، فلا تجديد دون أصالة تربط الحاضر بالماضي، وتبني المستقبل على إنجازات السلف.

إنَّ المهمة الأساسية التي تواجه المثقف «وهو يسعى إلى النهوض بأمته» تتحدد بتمييز العام من الخاص، والكلي من الجزئي، وإعادة بناء المستقبل على أساس الكليات المعيارية التي تتبع من الإطار التصوري الإسلامي الذي شكل الأصول الثقافية للمجتمع العربي، وإنَّ تَعَثُّر جهود الإصلاح والتنمية في العالمين العربي والإسلامي ناجم عن إصرار شريحة كبيرة من المثقفين إسلاميين وحدائين على استعادة نماذج ناجمة من ماضٍ إسلامي عربي وحاضر غربي.

وهذه الصورة المرسومة للأصالة تميزها من التقليد، ومع هذا فإننا نرى مفكراً عربياً مرموقاً كرس قدراته الفكرية لدراسة التراث الإسلامي يساوي بين التقليدي والأصيل في سياق تحليله الأزواج الثقافيتين في المجتمعات النامية، فيقول أصبحت مجتمعاتنا تعاني من ازدواجية على مختلف المستويات العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والثقافية، وتتمثل في وجود قطاعين أحدهما عصري مستنسخ من النموذج الغربي ومرتبط به ارتباطاً تبعية وثانيهما تقليدي أو أصلي أو أصيل.

وهكذا انتهى الحاضر إلى ما انتهى إليه طه حسين في القول بأنه يجب الاعتراف بأننا لا نملك اليوم حرية الاختيار بين أن نأخذ وبين أن نترك النموذج الغربي الذي فرض نفسه كنموذج عالمي حضاري جديد للعالم كله يقوم على جملة من المقومات لم تكن موجودة في النماذج الحضارية السابقة له قبل التنظيم العقلاني لشؤون الاقتصاد وأجهزة الدولة واعتماد العلم والصناعة والتبشير بقيم جديدة تماماً، قيم الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية... إلخ.

نعم يمتلك المثقف العربي الإسلامي الخيار في تطوير نموذج اجتماعي حضاري ينطلق من قيم الإسلام الكلية، ويعيد بناء مستقبل حضاري بتنزيل تلك القيم على الواقع الاجتماعي المستجد مستفيداً من تجارب وخبرات الحضارة الغربية الحديثة.

لقد أصبحت الحضارة الغربية اليوم عاجزة عن إعادة توليد الأشكال الثقافية التي أدت إلى نهوضها، لذلك فإن المجتمع المدني العالمي الذي ينطوي على سر هيمنة الحضارة الغربية مهدد بالسقوط بعد ما تمكنت جهوده العلمية الطويلة من زعزعة أساسه الديني ما لم يتقدم المثقف المسلم بأطروحات ورؤى جديدة تعيد ربط العقل الحضاري بأساسه الأخلاقي والتجربة الإنسانية بأساسها المعياري.

بعد هذه المقدمة نقول إنّ التجديد الثقافي والفكري على الصعيد المعرفي العربي والإسلامي، لا يعني استجذاب قيم جديدة لا أصول لها، أو لا تتناغم والأصول الفكرية والعقائدية لذلك الفضاء، بل إنّ التجديد الثقافي الذي نبعيه ليس مفصلاً عن المشروع الإسلامي في الحقل الثقافي والفكري:

تجديد الفهم للدين بثوابته ومتغيراته، فالتجديد لا يتجه إلى الدين ككُتبت من العقائد والأخلاق، وإنما يتجه بفهم جديد ومعاصر إلى الأصول والقيم الكبرى التي صنعت الحقب التاريخية المجيدة والتي تحوّلت إلى حقب أنموذجية.

وبمعنى أوضح إعادة تفسير مفاهيم النموذج الأصلي على ضوء معطيات العصر القائم وتفجير وإظهار ما يحتويه من إمكانات وتنوعات وطاقات.

يقول الدكتور "برهان غليون": ((لا يعني التجدد حصول تغيرات إيجابية على المنظومة الفكرية أو الاجتماعية، بل يعني تبدل فاعليتها))، ويشمل التنظيم ثلاثة مستويات من ضمنها:

تنظيم القيم والأفكار والمعاني، أي موضوعات التبادل والتداول بين الناس، وتنظيم السلطة المعنوية الداخلية التي تشكل أساس القواعد التي تضبط حركة تداول القيم من معانٍ ومفاهيم ورموز، وتنظيم إدارة أو تجسيد القواعد في مؤسسات

فاعلة، أي مناسبة لتحقيق الأهداف التي وضعت من أجلها المنظومة، فالمؤسسة تستند إلى ركيزتين: القاعدة، أي قاعدة العمل والهدف.

وبهذا فإن عمل التجديد الثقافي تقدم ربحاً فكرياً ومعنوياً إلى الإنسان، لأنها تبلور أمامه طرق النمو وآفاق التطور من دون أن تحدث له مشاكل نفسية أو تاريخية، وإلى هذا كان الواقع التاريخي لحياة المجتمعات العربية والإسلامية قاطبة، مليء بعمليات الاجتهاد والتجديد.

ولذلك فهو واقع تاريخي تضمن الكثير من المدارس الاجتهادية والتجديدية، وقد لاحظ الفيلسوف إقبال في كتابه تجديد الفكر الديني أنه وجد في القرن الأوّل وحتى القرن الرابع الهجري ما لا يقل عن تسع عشرة مدرسة فقهية كانت ثمرة لجهود جديدة، اتجهت إلى الإجابة عن تطورات الزمن انطلاقاً من القاعدة الإسلامية.

ولهذا ينبغي أن يرتبط مفهوم التجديد الثقافي ارتباطاً عضوياً بمفهوم الإبداع الفكري أي بما يسمح لمنظومة فكرية أن تستعيد فاعليتها وقدراتها على الإنتاج المبدع للمعاني الجديدة.

التجديد الثقافي شرط البعث الحضاري: إن الخروج من دائرة التخلق التي تلف العالم العربي والإسلامي، لا يتحقق دون التجديد في النظام الثقافي والفكري السائد في العالم العربي والإسلامي، لأنّ التخلّف أصاب هذا النظام، وأصبحت هناك أنماط ثقافية وفكرية تحول دون النهضة والتجديد.

فالجُمود الثقافي وضعف الحيوية الفكرية واضطراب المنهجية الفكرية وتوافر عوامل وأدوات الاغتراب الثقافي في كلها عوامل متوفرة في الحياة الثقافية للعالم العربي، ومن هنا فإن تطورات النهضة الحضارية تبقى آمالاً جوفاء لأنّ التجديد

لم يطل الحياة الثقافية، وأنه لا خروج من دائرة التخلف دون الخروج من دائرة الجمود والترهل والاتكالية.

ولا يمكن أن تتحقق تطلعات الأمة في الوثوب الحضاري دون التجديد، وإذا أردنا أن نكون أمةً رقمياً صعباً ومؤثراً، فنحن بحاجة للتجديد الذي يصقل المواهب ويبلور الطاقات، ويستوعب الإمكانيات ويوظفها بشكل حسن وسليم.

فالاستلاب الثقافي والمسح الفكري أقسى وأوَعَر عقبة أمام النهوض الحضاري، لأنه يلغي مقاليد كل فكرة، ويمنع عملية التفاعل الخلاق، وأخطر أثر يصنعه الاستلاب الثقافي أنه يزيل القدرة الذاتية التي تدافع عن قيم الأمة وأصالتها، وبالتالي تصبح الأمة عرضة لكل تيار ومدرسة، والأرضية الحقيقية التي تثري حالة الجمود والتكلس الفكري والرتابة العقلية.

المحامي الدكتور برهان زريق



## العنف السياسي<sup>1</sup>

**الإنسان** «كما يقال» حيوان مقوم، ويتجلى نشاطه التقويمي عفواً في أنماط سلوكه اليومي ووعياً في أقواله وأرائه..

ولسنا نبالغ القول أنه في البدء كانت القيمة، وسندنا في ذلك المأساة الإنسانية الأولى التي ذهب ضحيتها هابيل على يد أخيه قابيل، والتي أرست حجر الأساس في مذهب ابن آدم الأول في العنف، وكما يتضح من قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>27</sup> لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين<sup>28</sup> إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين<sup>29</sup> فطوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ<sup>30-27</sup>.

ذلك أن الخلاف بين الأخوين «وكما يتضح من النص القرآني» كان في حد ذاته صراع قيمي، يتجلى في القرين الذي تقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل.

<sup>1</sup> - قام الدكتور برهان زريق يرحمه الله بإعادة صياغة البحث ليصبح جزءاً من كتاب العنف السياسي الذي يحمل الرقم/26/ضمن سلسلة الكتب المنشورة بعد الرحيل، على موقعه الإلكتروني: [WWW.Zraik.info](http://WWW.Zraik.info).

وحقيقة الأمر أن الاستبصار بظاهرة العنف السياسي أو غيرها من ظواهر العنف، ومن ثم تفكيك بنيتها والحفر على طبقاتها ومعرفة آلية حركتها لا يمكن أن يتم من خلال القيمة واستكناه ماهيتها والقبض على طبيعتها الذاتية. ولا حاجة للتأكيد بأن القيمة في المقام الأول حقيقة اجتماعية، ومن ثم فالمجتمع هو أصل القيم كافة ولا يوجد هنالك طراز خاص بالتفكير والحكم في مجال الوجود الفردي ومن ثم فالقيمة هي علاقة بين أنا وأنت في إطار نحن. والسمة الثانية للقيمة أنها قطبية أي ذات مفهوم مزدوج، بمعنى أن أحدنا لا يستطيع أن يفكر في الخير إلا من خلال صلته بالشر، وهذا الشر الذي يمثل السمة السلبية في الخير هو نفي القيمة أو اللا قيمة أو القيمة السلبية. والقيمة إبداع متعال فاعل متحرك تفضيلي مرجح لنفي المعطى وتحقيق ما يجب أن يكون. والقيمة بهذا المعنى نظام إرادي يقوم على البذل والتضحية واقتحام المصاعب، قال تعالى:

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾11﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾12﴿ فَكُ رَقَبَةً﴾

البلد/11-12.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾10﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ الواقعة/10-11.

وعلى الرغم من الطبيعة الاجتماعية للقيمة فهي ذات بعد ذاتي وأحكام القيمة تتصل على الدوام بالحساسية الخاصة وبالإرادة اتصالها بالذكاء. وإذا كان المجال لا يتسع للكلام عن أحكام القيمة إلا أن هنالك سمتين أساسيتين تسمان هذه الظاهرة وتتصل بموضوعنا ألا وهي سمة التضامن والولاء. فالتضامن قيمة اجتماعية تركيبية تضم إلى التنظيم مفهوم العدالة وهي الحد الأدنى من السلوك الأخلاقي الذي لا مندوحة عنه في استمرار وجود الحياة الاجتماعية وتقدمها.

وبالطبع فالتنظيم هو كفالة اتساق غايات أفراد الجماعة الاجتماعية كافة وبالتالي فالتضامن عدالة وتنظيم وهو عدالة في التنظيم وتنظيم في العدالة، بحيث لا تكون الطاعة والتجديدات الضرورية إرضاخاً للشخصية، بل قناعة تجعل



الشخصية قادرة على أن تجد في إخلاص الآخرين فيما تضحي هي به في سبيلهم.

وفي إطار التضامن يتصور الناس طراً بأنهم متساوون ولا متساوون، مساواتهم هي المساواة التي تتطلبها العدالة ولا مساواتهم هي اللامساواة التي تتطلبها التنظيم. أما الولاء فهو «كما يقول جوزييار ويس» إخلاص شخص لقضية إخلاصاً طوعياً وعملياً غير مشروط، إنه إخلاص تام موصول لقضية، وفي إخلاص الولاء يجثم النظام والسيطرة على الذات وإخضاع ميول الطبيعة والرغبات لموضوع الولاء، وبهذا المعنى فالولاء قيمة اجتماعية شاملة تصل الغاية أو القضية بأصحابها وترسم السبيل إلى إخراج ما ينبغي أن يكون إلى حيز الواقع بالقواعد التي يمنحها الفاعلون من معين القضية ذاتها.

ومما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية أياً كان مظهرها تحفل بضروب الصراع والتنازع من جهة وضروب التعاون والتآزر من ناحية أخرى، والمجتمع السليم هو ذلك المجتمع الذي يقيم جسر اتصال بين الضمائر والإرادات بدل جشع الاستغلال وسادية السيطرة والطمع.

وعلى هذا فإننا نعتبر ظلامية تلك الفلسفة التي دلت بها "أرتور شوبنهاور" والمتضمنة أن كل كائن حي يميل إلى اعتبار نفسه أنه إرادة الحياة كلها ويؤكد نفسه على حساب الآخرين.

والسؤال المطروح هو: كيف تتصور الحياة إذا كانت قائمة على إرادة تأكيد الذات المتضخمة التي لا حدود لرغباتها، ثم كيف بنا نتصور هذه الحياة إذا كانت قائمة «كما يقول نيتشه» على التنازع التعس من أجل البقاء أي على إرادة القتال، إرادة القوة والسيطرة.

ألا تفودنا تلك النزعة إلى الفوضوية وإلى ربيتها الفاشية والنازية - اللتين عانت منهما الإنسانية الحروب والويلات.

هذه مقدمة كان لا بد منها للتأكيد بأن القيمة قوة تركيبية وتكاملية تصهر الأفراد أو الجماعات في بوتقة التوحيد والاتساق، وبالمقابل فقد تكون القيم

متعارضة تعارضاً قطبياً، وهنا تنبثق شرارة الصراع لا سيما أن القيمة «كما ذكرنا وبانطوائها على التعالي» تحتضن قوة جبارة وطاقات هائلة من أجل التحقق. ومما لا شك فيه أن التناقض الشديد قد يقع على صعيد الأفراد أو بين الفرد والجماعة أو بين جماعات اجتماعية أو سياسية، وبهذا المعنى فالتناقض العميق نظرية عامة تتغلغل كافة أضراب الحياة الاجتماعية والسياسية، هذا فضلاً عن تغلغلها في حقل القانون والسياسية والاقتصاد والفكر وغير ذلك من ضروب النشاط الإنساني.

وعلى هذا فإننا لا نقر الحوار الذي جرى بين "تشومسكي" وسفير الولايات المتحدة السابق في إسرائيل، وذلك الحوار الذي جرى في إذاعة لندن بتاريخ 1995/3/18م الساعة الثالثة والنصف مساءً، حيث تم التعريف بالإرهاب تعريفاً مضيقاً *strieto-sensu* يقصد منه توجيه العنف ضد المدنيين، إذ بهذا التعريف أراد المتحاوران الانطلاق من فرضية مسلّم بها وهي أن إسرائيل حقيقة مطلقة وإن كافة تصرفاتها مسربة بالشرعية ومن ثم فإن الاعتداء على مكانتها حتى من جماعات منظمة تدخل في أعمال العنف.

ذلك أن العدو إسرائيل ملأت الدنيا تخريباً فكرياً ونفسياً واقتصادياً وقانونياً، وهي تشن حرباً لا هوادة فيها تستخدم بها كافة من منجزات العلم وهو أمر صادر عن طبائع الأشياء أي كونها جسماً غريباً زرعه الشمال في قلب أمتنا من أجل تحقيق مصالحه العليا.

وعلى هذا فلا يمكن الأخذ إلا بالمدلول الموسع للإرهاب، بحيث يمكن القول مبدئياً بأنه اللا معنى أو اللا قيمة أو نفي القيمة والمعنى واستغراقهما كلياً.

وعلى هذا فالإقطاع الفكري الذي يقطع الطريق على أي مفكر آخر عن طريق هيمنته على بعض المؤسسات الثقافية أو عن طريق فرض الرأي والمعتقد هذا الإقطاع عنف فكري.

والأمر نفسه بالنسبة للعنف الاقتصادي عندما تمت السلطة معارضتها مدينياً فتسد أمامهم كل سبل الحياة والارتزاق وبالمقابل تتركس نظام الاسلاب والغنائم لصالح مؤيديها .

وعلى هذا فإن أي نشاط مهما كان نوعه إذا استتر وراء الفكر أو القانون أو السياسية، ثم انسلخ نهائياً عن المعنى بصورة واضحة وفاضحة **flagrant** وجسيمة **grosser**، ففي هذه الحال يكون هذا الفعل «ونحن نقول فعلاً وعملاً» عنفاً وإن اكتسى أشكالاً أخرى .

فعلى صعيد القانون يعتبر خروج التصرف كلياً ونهائياً عن معنى القانون، يعتبر ذلك بطلاناً مطلقاً أو اعتداء عليها **voie de fu'it** .

والأمثلة كثيرة في مجال القانون كأن يقوم شخص بتصرف قانوني مبني على الإكراه أو الغش أو التدليس فعمله هذا يهبط إلى حضيض العمل المادي المنسلخ عن أية قيمة والقانون نفسه إذا تجرد من الوسيلة ولو استهدف غاية سليمة فهو يدخل في باب العنف وهكذا قيل عن "روبير" بأنه أراد أن يقيم الفضيلة فأقام الرعب ذلك أن القانون تنظيم والأمثلة التي عرضنا لها تخرج عن إطار التنظيم خروجاً كلياً لذلك فهي تهبط إلى مهاوي القوة أو الفعل المادي، ومن جهة أخرى فهي ترتب لصاحبها مقاومة طغيانها .

وبالطبع فنحن لن نتكلم عن الخروج عن معاني القانون بالمعنى الموسع وإنما سنتكلم عن معلم واحد يمس الجانب السياسي ألا وهو اعتداء السلطة على الحرية أو العكس .

ولعلنا لا نعدو الواقع والتاريخ الدستوري إذا قلنا أن كافة الضمانات التي ينظمها القانون الوضعي للحرية الفردية إن هي إلا تهذيب للضمانة البدائية الأولى ألا وهي مقاومة الطغيان **la resitance a l'oppression** وإدخالها في مجال التنظيمات القانونية للحاجات الاجتماعية منوهين استطراداً بأن تعبير مقاومة الطغيان من المصطلحات القانونية التي لا يخلو منها مجال من مجالات الفكر الدستوري .

على أن مقاومة الطغيان بصورة بدائية كضمان للحرية تبقى كامنة خلف تنظيمات القانون الوضعي، بحيث إذ قدر وأعمل الحاكم البتر والاجتثاث في الضمانات الوضعية لدرجة ما يمكن تسميته بالانسداد الاجتماعي عادت مقاومة الطغيان إلى الظهور لتكون الضمانة الأولى والأخيرة تجاه الحاكم المستبد ومن ثم فمقاومة الطغيان هي الجزء الذي يترتب على الإخلال الجسيم المستمر بالحرية الفردية إخلالاً لا تجد معه الحرية منفذاً للتنفس عن نفسها إلا بالانفجار. وفعل الحاكم المستبد هو عين الحال البدائية الفظة التي وصفها "هوبز" بأنها تمثل التناحر الذي لا نهاية له، إنها حالة العنف الذي يقتضي فيها كل لنفسه بنفسه. ومقاومة الطغيان قد تكون إيجابية وقد تصل إلى حدا المقاومة المسلحة insurrection وقد تكون سلبية كمقاومة المهاتما غاندي للحكومة الاستعمارية في بلاده.

ولقد تطورت فكرة مقاومة الطغيان تطوراً وصل إلى مرتقى الضمانات القضائية حيث يتاح للفرد الالتجاء إلى القضاء لرد اعتداء السلطات على حرياته. فهذه الضمانات تمثل تبلور هذه الظاهرة وتطورها تطوراً نزع عنها طابع العنف وأحالتها إلى تلك الوسائل المنظمة التي يرد بها الفرد عن السلطات العامة عن حقوقه على اعتبار أن فكرة القوة تتنافى مع القانون الذي هو في جوهره فكرة تنظيم وبالتالي فالقوة تضمحل في مجال الروابط الاجتماعية أو التنظيم القانوني إذ من القواعد الأصولية في القانون أنه ليس لأحد أن يقضي لنفسه بنفسه. وعلى هذا الأساس فمن الخطأ القول بأن قواعد الحرية الفردية معدومة الجزاء، بل إن الإخلال بها يحتل مقاماً علياً في صرح القواعد القانونية، وقواعد الحرية الفردية ذات جزاء سياسي يتولاه القانون الوضعي بالتنظيم.

وتجدر الإشارة إلى أنه لا محل لذكر مقاومة الطغيان ضمن الدستور الوضعي لأن هذه النصوص تهدف إلى أن تحيل مقاومة الطغيان من ظاهرة قوة وعنف إلى وسائل وإجراءات وضعية معترف بها حتى تتفادى بلوغ المجتمع مرحلة الانسداد التي تقضي إلى ظهور مقاومة الطغيان كظاهرة قوية، لذلك فإن تسجيل

الدستور لمقاومة الطغيان كضمان معترف به وضعياً ينطوي على مصادرة للمطلوب، إذ بحسب غايته يسعى إلى تقرير السبل التي تغني عن حدوث مقاومة الطغيان فكيف يعترف بذلك في نصوصه؟؟؟ وإن كان هذا لا يمنع قط من وجوب الاعتراف بأن مقاومة الطغيان إنما هي وسيلة واقعية ومجدية في بعض الأحيان، بل ويتعذر تفاديها دوماً إلا بتجاهل التاريخ.

ولقد سجل إعلان الحقوق الصادر عام 1789م مقاومة الطغيان ضمن الحقوق الطبيعية للأفراد كما أن إعلان الحقوق الصادر عام 1793م كان أكثر إفاضة في الحديث عن ذلك، حيث جاء فيه ما يلي: ((إن مقاومة الاستبداد هي نتيجة لضياح حقوق الإنسان، ويعتبر الاستبداد بفرد واحد من أعضاء الجماعة استبداداً بكل عضو من أعضائها، وعندما تخل الحكومة بحقوق الشعب فإن العصيان بالنسبة للشعب وبالنسبة لكل جزء منه هو أقدس الحقوق وألزم الواجبات)).

ولقد وردت مقاومة الطغيان في إعلانات الحقوق الأمريكية وعلى الأخص إعلان ولاية فيرجينيا في مادته الثالثة وفي إعلان استقلال الولايات المتحدة. ولقد أوجز أحد أعضاء الهيئة التشريعية الفرنسية نظرية مقاومة الطغيان بقوله: ((إن المقاومة هي حق مقدس غير جائز التخلي عنه ويعلو على التشريع، ولا يعرف هذا الحق عند ممارسته من ضوابط سوى ما يكون عليه المعتدى عليهم من فضائل وتفانيهم السامي الكريم في سبيل المحافظة على الحرية العامة)). ويرى "الدكتور نعيم عطية" أن توفير الوسائل الوضعية لتمكين المواطن الذي مست حريته من الاعتراض على السلطة العامة هو البديل السلمي لمقاومة الطغيان، وهو يمكن من الحكم على المجتمع بأن الحرية مكفولة فيه أم لا.

وتتأزم مشكلة الحرية عندما تثير القيود القانونية من جانب الحاكمين الشعور لدى المواطنين بضرورة مقاومة الطغيان حين يصل الضمير القانوني للجماعة إلى حد الإحساس الدفين بوجوب معارضة إرادة الحاكم بالقوة لأنها تمثل صالح مشترك حق التمثيل وفي الوقت ذاته ليس ثمة سبل وضعية مقررة لمحاولة زحزحة الحاكم عن موقعه الخاطئ في فهم الصالح المشترك، وبالطبع فلا يسلم

المؤيدون لمشروعية مقاومة الطغيان بهذه المقاومة إلا عند انعدام أية وسيلة أخرى قانونية، وبالتالي فإن اتخاذ أية وسيلة وضعية من جانب الدولة لفتح الطريق العام أمام أية معارضة للقانون بكيفية منظمة وسلمية هذا الاتخاذ يعتبر خدمة حكومية لقضية الحرية كما هو خدمة حكومية للصالح المشترك.

ولقد تساءل بعضهم متشككاً عن منحه هذا الضمان الذي يلجأ إليه في كل مرة تنتهك فيها الحرية، إذ ليس من المؤكد أن يتمرد الرأي العام عند كل إخلال بالحرية الفردية هذا فضلاً عن أن مقاومة القوة العسكرية أو البوليسية لا تؤدي إلى إراقة الدماء.

ومع وجاهة هذا الرأي إلا أنه لا يمكن التطفيف من أهمية هذا المبدأ وأن إنكاره لا يعني إلا إنكار حقائق التاريخ السياسي والدستوري والدور الذي لعبته تلك المقاومة في توجيه مجرى الحياة والسياسية وعلى الأخص مجرى ارتقاء القانون.

ولقد درس الفقيه الفرنسي "بيرد" وفكرة ومقاومة الطغيان تحت ما يسمى بالجزاء المترتبة على إخلال الحاكمين بالقانون، حيث أكد أن خضوع الدولة للقانون لا يمكن تحقيقه إلا في الحدود التي يستمد فيها هؤلاء سلطاتهم، من فكرة القانون *l'idee le driot* ولهذا كان من الواجب حماية المواطنين من خروجهم على تلك الفكرة، وتشمل تلك الجزاءات بعض القواعد الوضعية التي نظمها القانون، كما تشمل بعض الجزاءات التي تظهر في صورة رد فعل تلقائي للخروج على فكرة القانون دون أن يحكمها شكل يقرر ابتداء ما يجب تقريره وهذه الجزاءات لا تنقصها الصفة القانونية طالما أنها ترتبط بفكرة ضمانة القانون، ولا تختلف عن الجزاءات الأولى إلا بالتنظيم.

ويمضي "جورج بوردو" مؤكداً أن الجزاءات المنظمة غير كافية فهي أولاً تقف عاجزة أمام إرادة الحاكمين المبيته على اتباع سياسة خارج فكرة القانون. ومن جهة ثانية فهذه الإجراءات المنظمة عرضة لإلغائها وتعديلها من قبل الحاكمين بما يفقدها قيمتها.

ومن جهة ثالثة ففكرة القانون قد تخضع لتطور مما يجعل فهمها من قبل السلطة في واد وفهمها من قبل القوى المعنوية في واد آخر، وهكذا يحدث الصراع وكثيراً ما يتكلم الأمر برد فعل اجتماعي عندما يريد الحاكمون فرضه، وقد أثبت التاريخ مراراً حاجة القانون إلى ضمان لحمايته وخلاف الضمانات الوضعية، ورد الفعل كثيراً ما يكون تلقائياً مضطرباً وغير مهذب وذو صور متعددة، فهناك مقاومة الطغيان وهنالك الثورة.

ويخلص "بورديو" للقول بأن الحاجة ملحة إلى ضمانات تتجاوز الضمانات الوضعية فهي الكفيل النهائي للقانون.

هذا ما يتعلق باعتداء السلطة على الحرية ولكن ما الأمر بالنسبة للصورة المعاكسة ألا وهي الاعتداء على السلطة.

مما لا شك فيه أن نظم الحكم تستعين بالأسلوب الجنائي لحماية الأسس السياسية والاجتماعية ضد ما يعتبر عنفاً أو دعوة إلى العنف مهما كانت مظاهر ذلك.

على أن التشريع الجنائي للدولة الديمقراطية في عقابه على هذه الصور يظل في حدود فكرة الأمن والنظام العام بالمعنى القانوني لهذه الكلمة، إذ كان هدف هذه القيود حماية الأوضاع القائمة من العدوان المادي عليها ولم يتوسع فيها أو يتعسف في معانيها أو يخرج في فرضها على الأصول العامة للتجريم، فعندئذ تجد هذه القيود - وإن كانت ذات صفة سياسية واجتماعية - تبريرها في النظام العام بمعناه القانوني المحدد، إذ هو يتسع هنا لنظام عام سياسي أو اجتماعي يحمي من العدوان المادي عليه أيأ كانت دوافعه أسوة بكافة القيم الأخرى التي تحميها الدولة الديمقراطية من العنف، ومثل هذه الحماية ولو كانت سياسية ليس شأنها المساس بالحرريات أو الانتقاص منها، أو الانتقاص منها، إذ ليست هنالك حرية أو حق في الثورة أو إثارة الفتنة بين أفراد القوات المسلحة أو الخيانة أو حمل السلاح، وإن كان لا يجوز المضي بعيداً في نفي الصلة بين هذه الإجراءات وبين الحرريات العامة إذ يحتمل أن تمس هذه الإجراءات التشريعية في مداها أو في تفسيرها - حرية من الحرريات.

على أن بعض الجرائم التي تتصرف إلى حماية السلطة العامة تبدو من التحليل الدقيق أنها منقطعة الصلة بالأمن والنظام العام بحدوده المادية ولا يمكن تبرير العقاب عليها إلا بالسعي لحماية قيم سياسية واجتماعية بغض النظر عن وقوع أو عدم وقوع إخلال بالأمن، ومن ثم فالحماية هنا ليست للنظام العام مفهوماً بأنه أمن الجماعة بقدر حماية النظام السياسي.

وهذا ما يميز النظام الديمقراطي عن الدكتاتورية ومن ثم فإذا كان من السائغ أن تحارب الدكتاتورية المعارضة في كافة صورها حتى ولو كانت منظومة في تلافيف الفكر فإنه مما لا يتفق مع أصول الديمقراطية الحرة أن تحارب الرأي المعارض للسلطة لأن هذا الرأي لا يخل بالنظام العام بمعناه المادي.

ولقد كان من أهم الأسباب التي تساق لتبرير عقاب التعبير عن الرأي هو أن هذا التعبير قد يعرض للخطر مصالح الدولة أو سلطة الحكم إما بسبب ما يتضمنه من دعوة إلى مبادئ مغايرة لما استقرت عليه نظم الحكم، أو بسبب ما يحرض طوائف من الجماعة على أحداث هذا التغيير.

غير أن هذا الضرر الذي يقال أنه يقع على الدولة لا يمكن الجزم بوقوعه لا بسبب اختلاف المعايير التي قد يلجأ إليها القضاء في تحديده فحسب، بل بسبب التفاوت في تقرير ما يعد من المصالح العليا للجماعة إذ أن هنالك أموراً في السياسية لا يمكن الإجماع على أنها تعد مصلحة عليا للجماعة حتى يعاقب الداعي إلى المساس بها أو تغييرها ولربما اعتبرت السلطة الحكم مصلحة عليا للجماعة ما هو في حقيقته مصلحتها الشخصية.

ولئن بدا طبيعياً صدور قانون يعاقب الدعوة إلى القوة والعنف إلا أن تطبيق هذا القانون قد يكون دقيقاً لأن القضايا الواضحة التي يستطيع المرء أن يقرر فيها باطمئنان أن الأقوال تتضمن دعوة إلى القوة والعنف قضايا قليلة للغاية، وهي ليست بحاجة إلى تشريع يؤتمها، وإنما يحتاج التشريع لإسكات ما تعده الحكومة أوجه الإشارة الملتوية.



على هذا الأساس طالب النائب العام الأمريكي " بالمر" بإصدار قانون لحبس محرري الجرائد المتطرفة الذين يلجؤون بطريقة ماهرة في صياغة دعايتهم للقراء لقلب الحكومة بطريقة يفهم القراء مقصودها .

وإذا كان هم المشرع تأثير الأسلوب الملتوي، فإن المشكلة هي العثور على أشخاص ملهمين ومعضومين يميزون الانتقاد الطبيعي من التهجم المسيء الذي يظهر في مظهر طيب .

كما أن إحالة الموضوع إلى القضاء لن يحل القضية لأن القضاء في مثل هذه الحال سيبحث عن النوايا أي يغوص في التخمينات والنتيجة الحتمية لذلك أن العقاب لن ينصرف إلى الكلمات الصريحة في عنفها والمحرضة على القتل والثورة بل سينصب على اللغة المعادية إذا استعملت في الإهانة السياسية، إذ قدر القضاء أن هذه الألفاظ البريئة، قد قصد منها قائلوها أحداث العنف .

ولقد كان هذا هو منطق الإدانة الصارم الذي التزم به القضاء الأمريكي ضد اليساريين فعلى الرغم من أنه لم توجد كلمة واحدة في المنشور «موضوع المحاكمة في قضية أبرام وزملائه» تظهر العنف أو تدعو على استعمال الضغط السياسي أو الاقتصادي إلا أن المستشار "كلارك" أعلن أن (هذه الدعوى واضحة لعمال هذا البلد بأن يثوروا ويقبلوا حكومة الولايات المتحدة بالقوة).

ويقول الفقيه "hafe'e" أن رأي هذا المستشار لو اعتبر صائباً لغدت اللغة التقليدية في الأدب الاشتراكي دعوة إلى القوة والعنف، ولغدت التشريعات الصادرة بهذا الشأن شبكة تصطاد أية صورة من صور التطرف، و لأدى ذلك إلى البعد كثيراً عن عالم الوقائع الملموسة، ولغدا التقدير الشخصي الذي يختلف باختلاف الأفهام والأهواء هو المسيطر والنتيجة الحتمية هي خروج القضاء عن النطاق المادي للتجريم المعتمد على الوقائع الملموسة إلى نطاق يغدو فيه الركن المعنوي هو الأول والأخير .

ولقد دافع الرئيس الأمريكي "ويلسون" عن هذا الاتجاه في رسالته التي وجهها إلى الكونجرس في تبرير إصدار تشريع التمرد سنة 1919 قال: ((يجب ألا يكون هنالك أي تدخل في حرية التعبير عن الرأي والدعوة إلى التغيير السياسي ولو كان جوهرياً، ولكن يجب ألا يكون هناك أي تهاون نحو العاطفة والقصد السيء التي تميل إلى التحريض على الجريمة والثورة تحت قناع التطور السياسي)). ولقد رد "تشاف" على ذلك بقوله: ((لم تخرع حتى الآن بندقية لقتل الذئب في ثوب الحمل وكذلك من غير الشائع قيام قانون ينص على أن يحبس الذين يوصفون بأنهم سيئون)).

ولقد أكد "الدكتور أحمد راشد" ضرورة صدور قانون يعاقب على الإخلال بالنظام العام أو الآداب العامة أو ما فيه مساس بشرف الأفراد شريطة تحديد المقصود بالنظام العام والآداب العامة وحصر حقوق الأفراد، ويترتب على ذلك إلزام الشارع بتعريف كل جريمة تعريفاً يزيل كل غموض وإلا أدى الغموض في تعريف جرائم الصحافة (الرأي) إلى مصادرة حرية الصحافة، وإذا عجز الشارع عن تحري الوضوح التام في تحديد الجريمة فأحرى به ألا يجرم.

ويشير "الدكتور راشد" إلى ضرورة إعادة النظر في قانون العقوبات المصري الذي يعاقب على جريمة التحريض على كراهية نظام الحكومة أو الازدراء بها وجريمة تحبيذ أو ترويج المذاهب التي ترقى إلى تغيير النظم السياسية.

ويتساءل "الدكتور راشد" عن المقصود بكراهية نظام الحكم والازدراء به إذ كيف يمكن التمييز بين هذه المعاني وبين ما هو مباح من نقد أعمال الحكومة خدمة للمصالح العام؟؟؟.

فما يمنع القاضي إذا شاء الاعتساف في التطبيق من أن يأخذ بحكم الكراهية أو الازدراء كل منتقد للحكومة وأعمالها .

ويتابع "الدكتور راشد" قوله: ((من الواضح أن لكل إنسان الحرية في نقد النظم الأساسية للدولة بشرط أن يكون الغرض الحقيقي إصلاح هذه النظم ولكن إذا كان ينشأ عن النقد التحريض على كراهية نظام الحكومة أو الازدراء به ويترتب

عليه وضع عشرات تعوق الحكومة عن إنجاز الأعمال المنوطة بها، وذلك بإلقاء الاضطراب في النفوس أو بتحريض الشعب على بغض الحكومة والازدراء بها فحينئذ يقع التجاوز لحدود النقد المباح)).

على أن ما يعاب على جريمة الرأي من الناحية الجزائية ليس الغموض الذي يشوب ما يعتبره المشرع تهماً على النظم أو دعوة للانقلاب، وإنما يعيبها صعوبة التفرقة بين شرح الفكرة المباح والتحريض عليها المؤثم عليه.

هكذا أكد المستشار الأمريكي "فرانكفورتز" أنه لا يوجد معيار حاسم نستطيع أن نحدد بموجبه ماهية التحريض، فعرض الأفكار يتمخض تحريضاً، بل إن كل فكرة تعد تحريضاً.

وهذا ما أكده "freund" بقوله: ((إن عرضاً للخطأ أو للظلم الاجتماعي يجب أن يسمح به كما يجب أن لا تهدر حرية الإثارة الضرورية بسبب مخاطبتها للشعور أكثر من مخاطبتها للعقل ذلك أنه إذا قيل بأنه دعوة الشعور هي دعوة للعاطفة وأن هذا يؤدي حتماً إلى الفوضى والعنف، فيجب أن يرد على ذلك بأن هذه الحجة كانت من قبل دائماً ذريعة لقمع الإثارة السياسية، وحتى إذا ارتكب أحد أتباع المذهب الذي يروج له جريمة ما، فلا يمكن أن يعني ذلك أن تعليم المذهب يرقى إلى درجة التحريض إذ قد يكون الدافع ارتكاب الجريمة التفكير في الظروف التي تعد سبباً للسخط الاجتماعي إلا وأن الضمان الدستوري لحريات القول والصحافة والاجتماع قد كفل الحق في معارضة كل حكومة بل والحق في المجادلة بأن قلب الحكومة لا يمكن أن يتم لغير القوة، ولذلك ربما كان من المحتمل أنه لا يمكن القضاء على الفوضوية كمذهب دون إهدار حقوق دستورية قيمة)).

وعلى الرغم من التسليم بصعوبة التفريق بين التحريض وشرح الفكرة، فالاتجاه الغالب يؤكد هذه التفرقة، ولا يرى مبرراً للتخلي عن أداة نافعة بسبب إمكان استعمالها وخصوصاً في مناهضة الشيوعية لأنه إذا كان من الممكن أن يسيء المتمتعون بالسلطة استخدام هذه التفرقة ضد الآراء المعادية لهم فإن ذلك لا ينفي أنها قد تستعمل بالفعل على وجه معقول ضد منظمة تستعمل سلطة الحركة

الشيوعية الدولية المسيطر عليها مركزياً وهذا ما اعتنقته أغلبية المحكمة الأمريكية العليا وعبرت عنه بقولها: ((إن موضوع المؤامرة المعروض على المحكمة من الوضوح بحيث أن فرصة الخطأ ضئيلة في القول بأن المتهمين يحرضون أكثر من أن يعبروا عن آراء وإذا كان حقاً ما يقرره المستشار دوجلاس من أن المؤامرة المطروح أمرها على المحكمة ليست مؤامرة لقلب الحكومة فمن الخطأ أن تقابل على أنها حلقة في النظرية السياسية)).

وواضح مما قدمناه أن العقاب في الديمقراطيات لم يقتصر على الأقوال المتينة بذاتها التي تخل بالأمن أو تهدد بالإخلال به نظراً لطبيعتها التي تقترب من الأفعال، وإنما امتد إلى أقوال هي من صور التعبير عن الرأي التي كان يجب أن تحتمي بالضمانات الدستورية.

غير أن المشرع الديمقراطي انتهك ضمانات الحريات وكان سنده القانوني في العقاب على الرأي ما قيل من أن هنالك صوراً من الرأي تخل بالنظام والأمن العام وقد عبر عن ذلك رئيس القضاء الأمريكي "هيوز" بقوله: ((إن الحريات المدنية كما يكفلها الدستور تفترض وجود جماعة منظمة تحافظ على النظام العام الذي بغيره تفقد الحرية ذاتها في غمار تزايد إساءة الاستعمال الذي لا جد له)).

ولكن هذا الأمن والنظام الذي يحتمي من ورائه لإهدار حرية - الرأي يحتاج إلى تحديد إذ ما هو وجه الإخلال بالأمن الذي يحدثه الرأي، وأي أمن يعتدي عليه إذا انصب الانتقاد على نظم سياسية أو اجتماعية، أو إذا وعي إلى تغيير هذه النظم وإحلال نظم أخرى غيرها؟؟؟.

وما هو الانتهاك أو العدوان المادي الذي يقع جراء هذا الانتقاد؟؟؟. وفي الحقيقة لا يوجد نظام قانوني يخلو من نصوص تحمي الدولة من العنف أو الدعوة إليه وهذه النصوص من الاتساع بحيث يصعب تصور أن يفلت منها أي فعل من أفعال العنف أو الشرع فيه أو التحريض على ارتكابه.. ولذلك إذا كانت الديمقراطية تريد أن تتوقى العنف أو الإخلال بالنظام العام لما كان هناك محل لأفراد نصوص خاصة للعقاب على الرأي، لأن الرأي إذا بلغ درجة الإخلال المادي بالنظام دخل حكماً تحت طائلة العقاب بالنصوص الأخرى.

ولكن الغالب أن الأفكار أو المذاهب التي يروج لها أو الفلسفة السياسية أو الاجتماعية التي يدعى إليها لا تبلغ مرتبة الدعوة الصريحة إلى العنف أو حمل السلاح أو اغتيال الأفراد، ولو بلغت الدعوة المذهبية أو السياسية هذا الحد لكان في قوانين الدولة الأخرى التي تحمي كل جماعة منظمة نصيب من النصوص المنشئة لجرائم الرأي، ولذلك لن يكون المقصود من وضع هذه النصوص سوى إرهاب العقول والعقاب على مجرد دعوات مذهبية لا يمكن أن تبلغ مرتبة الأفعال المكونة لجرائم القانون العام.

وإذا كان من حق الديمقراطية أن تدافع عن نفسها فهي مقيدة بأن لا تختار الأساليب التي تهدم الأسس التي تركز عليها أو الغايات التي تدعو إليها، ولذلك فهي لا تستطيع «في حدود فلسفتها التي تؤمن بالمناقشة والمعارضة» معاقبة الآراء المناهضة لمبادئها بحجة أنها جرائم رأي أخذاً بأساليب الحكم القديمة التي كانت تعاقب على الرأي الفاسد أو الفكر الشرير..

ولعل تعبيراً قانونياً لا يبلغ في غرائبه وتناقضه «في نظام ديمقراطي» مبلغ التعبير بعبارة (جرائم الرأي) فإنه لأمر متناقض أن تعتبر حرية الرأي حقاً دستورياً ودعامة النظام الديمقراطي، وأن تكون ممارستها في بعض الأحيان جرائم غير واضحة المعالم والأركان في حين أنها ليست سوى صورة التعبير عن الرأي وكان من الواجب أن تحمي بضمانات الدستور حتى لو انصرفت إلى المطالبة بتغيير النظام السياسي والاجتماعي، فمثل هذه الإشارة السياسية والاجتماعية صورة من صور التعبير عن الرأي التي كان يتحتم أن يحميها النظام الديمقراطي طالما أنها لم تبلغ مرتبة الإخلال المادي بالأمن، ومن ثم فلا نرى أي إخلال بالأمن أو عدوان على الجماعة أو قيمها بانتقاد النظم السياسية القائمة أو الدعوة إلى تغييرها إلا إذا وسعت فكرة الأمن توسيعاً منكرًا ونظرًا إلى النظم السياسية على أنها مقدسة، وإلا إذ خول الحكام سلطة وصف آراء بأنها شريرة ومن ثم فإذا سلمنا بذلك وجب أن نسلم بخروجنا على الأصول الديمقراطية.

وفضلاً عن ذلك فالدعوة المذهبية لا يمكن أن تعد جريمة بالمعنى القانوني الدقيق طالما لم تهاجم شرف شخص معين، بل تغيير نظاماً بذاته، لهذا فإن جرائم

الرأي «التي هي مجرد أفكار تغاير أفكار الحكام» هي أقرب إلى أن تكون من صنع المستفيد من النظام السياسي، وهي بهذا المعنى من أنكر صور العدوان على الفكر والرأي لأنها لا تهدد أمن الجماعة بل تهدد أمن الحكام بأن يحكموا بصورة كيفية، وفي الوقت نفسه تعطل حقاً أساسياً هو حق النقد السياسي.

والخلاصة أن ما تقرره النظرية الديمقراطية من أن قيود الحريات لا تستوجب من الاعتبارات إلا ما اتصل بأمن الجماعة هذا الأمر تكذبه التشريعات الديمقراطية المعاصرة التي أخذت تعاقب على النقد غير المؤدي إلى الإخلال بأمن الجماعة، وبيّرت ذلك بصفة خاصة بالنسبة لرأي المعارضة الذي يؤتم عليه حتى لو لم يرق إلى الفعل الجرمي، بل بقي في حدود افتراض انطوائه على الانقلاب.

هذا ويمتد نظام العنف إلى مجال الوظيفة العامة حيث أكثر ما تصطبغ قوانين التوظيف بالصيغة السياسية التي تستبعد توظيف بعض الأفراد باسم النظام العام وهكذا فقد حكم مجلس الدولة الفرنسي بأنه في حال عدم وجود نص يضع الحزب الشيوعي في وضع استثنائي فإن استبعاد أحد المرشحين من التقدم للمسابقة في المدرسة الوطنية بسبب آرائه الشيوعية يكون قراراً غير قانوني.

ويزداد الأمر تعقيداً عند تحديد المقصود من انقلابي *subverif* أو داعيه للانشقاق *fa'etieur*، تحديداً يؤدي إلى التحكم.

لذلك فإن ثمة احتمالاً قوياً أن يطلق وصف داعية للانشقاق على كل مواطن يفكر في السياسية بطريقة مغايرة لرأي من يطلق هذا الوصف على من يختلف معه في التفكير.

وبالتأكيد فلا يجوز أن يكون القاضي في خدمة الحكومة بل عليه أن ينزل حكم القانون، والمشرع هو الذي يملك أن يصدر القوانين الضرورية لكفالة حماية النظم إذ من الطبيعي أن يرفض القضاء المغامرة على أرض السياسية لكي يظل راعياً للشرعية.

هذا ولا بد من التدليل بنقطة هامة وهي أن أي فرد لا يمكن أن يكون خطراً على الأمن العام لسبب بسيط هو أن هذا الفرد بقدراته المحددة لا يمكن أن

يواجه سلطات الدولة المدعومة بالبوليس والجيش وهذا ما قضى به مجلس الدولة المصري في قضية فؤاد سراج الدين الذي اتهم بأنه معارض للثورة وأنه خطر على الأمن العام.

لنعد إلى سؤالنا السابق ألا وهو حق الثورة وهل يرتكز على أسس قانونية؟؟. الجواب طبعاً بالنفي لسبب بسيط هو أن أي نظام قانوني لا يمكن أن يدمر نفسه ويسمح بالخروج عليه لا سيما أن عالم القانون هو عالم سكوني محافظ يقوم على احترام ضوابط محددة، أما عالم السياسية «فهو على النقيض» عالم الحركة والقيم المترعة بالفعالية والتناقض والرنو إلى التغيير والإبداع هذا فضلاً عن أن هذا العالم غير مقيد بالضوابط أو الإجراءات والتقنيات التي يتحلى بها عالم القانون.

واستناداً إلى آلية القيمة فالثوار يحللون لأنفسهم الخروج على عالم القانون من أجل بناء عالم آخر أكثر سموً في رأيهم وعلواً.

وإذا انتقلنا إلى مجال القانون الدولي اتسعت رقعة المسائل المتعلقة بالعنف، وإن كانت هذه المسائل لما تحسم على صعيد هذا القانون بسبب حدائته، وبسبب عدم نضج الضمير القانوني الدولي.

وليس المجال هنا للغوص في أمهات مسائل العنف في هذا القانون، وإن كان من المفروض بنا أن نتعامل مع مسألة أساسية تنقض ظهرنا وتقتض مضاجعنا وتمسك أنفاسنا ألا وهي مسألة اتهام العمل الفدائي الفلسطيني بالإرهاب وبالذات على لسان هذا المؤتمر الذي سمي بمؤتمر شرم الشيخ.

والمؤسف حقاً أن يهرع من هرع ليقف تحت مظلة أمريكا والعدو الصهيوني وليسربل بالطهارة ترسانة الاتياب والأظافر التي يتجسدها الوحش الصهيوني.

والمؤسف جداً أن إسرائيل تتنفس بالإرهاب وتمارسه يوماً ساعة فساعة والغرب يصم أذنيه عن سجلها الأسود بل يغرقها بالدعم في حين يسمى نضالنا الوطني إرهاباً بل لا يخجل أن يسوغ لنفسه إصاق الإرهاب بالمسلمين، مع العلم أن الغرب هو الذي صدر هذه الظاهرة وأنتجها بمركزيته وشوفينيته واستكباره وسيطرته وابتزازه لأموال العالم بحركة الاستعمار التي لا يزال يقطف ثمارها.

وبيان ذلك أن العرب والمسلمين لم يجيشوا الجيوش ويرسلوها إلى الغرب ليحتلوا أراضيه ولم يشرّدوا شعباً من شعوبه ولم نسمع أنهم تدخلوا مرة واحدة في شؤونه الداخلية وليس في سجل التاريخ عبارة الرجل المريض الذي يستولي على شركته ولا المسألة الشرقية كذريعة للتدخل كما أننا لا نجد ذلك البترول الذي يسوغ لأحد رؤساء الولايات المتحدة القول بأنه سيضحي بقطرة دم من أجل كل قطرة بترول. ماذا تعني مجزرة الحرم الإبراهيمي ثم ماذا يعني إغلاق الضفة الغربية ومحاصرة الشعب الفلسطيني بكامله ومنع تجواله الذي يتكرر كجواب على حدث فردي. ثم ماذا يعني خرق الجنوب اللبناني الشقيق وإغراقه يومياً بالقنابل الحارقة. إن "حماس" المتهمه بالإرهاب حتى من الرؤساء والملوك العرب المؤتمرين في شرم الشيخ "حماس" هذه تشتت في فعاليتها ونضالها الوطني خروج المستعمرات من الضفة الغربية، فهل هذا عمل إرهابي.

إن هذه المستعمرات نشأت بعد الاعتداء الإسرائيلي عام 1967 والاحتلال في القانون الدولي لا يعني إلا إعطاء المحتل تسيير الشؤون الإدارية دون أن يستطيع التناول للمساس بكيان الدولة المحتلة أو بتشريعيها. هذا هو معنى الاحتلال في حين أن إسرائيل لم تغادر صغيرة وكبيرة إلا نهبتها من الثروات والآثار وغير ذلك.

إذاً فكيف لا يحق لحماس في نظر رؤساء ملوك العرب أن يناضلون من أجل إخراج المستعمرات المتعارضة في وجودها مع القانون الدولي وهل سمعنا كلمة واحدة من رؤساء العرب وملوكها حول هذه المستعمرات لماذا لم يتعهد هذا المؤتمر بتطبيق القانون الدولي واعتبار ما حدث بعد حرب 1967 عملاً عدوانياً كشرط للسلام المزعوم.

وأبعد من ذلك ففي اللحظة التي كان بها المؤتمر منعقداً كانت الطائرات الإسرائيلية تحرق الأخضر واليابس في جنوب لبنان فلماذا لم يسم ذلك إرهاباً؟



أضف إلى ذلك فلقد أغلقت إسرائيل الضفة الغربية بعد المؤتمر وهو حصار جماعي يفرض الإقامة الجبرية ويمنع العامل اليومي من الحصول على لقمة عيشه أي في النتيجة يفرض بالعنف الجوع والحرمان.

إن "حماس" كما هو معلوم فئة سياسية تخضع لنظام ترابي أي أنها جهاز في خدمة فكرة وطنية مشروعة ولا تخضع لحركة الدوافع الذاتية، بل إن الجود بالنفس هو أقصى غاية الجود لا سيما إذا كان لمصلحة عامة.

زد على ذلك فهل يمكن أن نبرئ الشعب الإسرائيلي من إجرامه وأكثر من ثلثه يؤيد الليكود ذلك الحزب المجرم الذي يرى في إسرائيل وطناً يمتد من النيل إلى الفرات. ثم لنا أن نتساءل أليس الشعب الإسرائيلي يفص بالمنظمات الارهابية الأصولية الدينية والتي قامت هي بإنشاء المستعمرات.

هل نعيد ونكرر القول في اغتصاب الصهيوني وآليات العداة التي تحكمت به وعدم شرعية هذا الاغتصاب حتى لجهة قيامه ووجوده، وهذا ما نجده في مظان متعددة.

من ذلك تصريح "ابن جوريون" رئيس وزراء إسرائيل في أول يوم لقيامها عام 1948م وقوله: ((ليست هذه هي نهاية كفاحنا قيام إسرائيل بل إننا اليوم قد بدأنا وعلينا أن نمضي لتحقيق الدولة التي جاهدنا في سبيلها من النيل إلى الفرات)).

وقول المذكور في أكتوبر 1951م: ((إن المحافظة على الوضع الراهن لا يعتبر مجدياً لقد أقمنا دولة ديناميكية تقوم على التوسع)).

كما جاء في خطاب له عام 1952م في بئر سبع: ((اتفقنا قبل تشكيل الحكومة الإسرائيلية أن أستخدم كل الوسائل الممكنة للتوسع جنوباً، وليفهم الجميع أن إسرائيل قامت بالحرب وأنها لن تقنع بما بلغته حدودها الآن: إن الامبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من النيل إلى الفرات)).

ولقد صرح "اشكول" في 12/6/1967م على أثر العدوان الإسرائيلي: ((إذا احتلت أراضي جديدة فلن تعود أبداً إلى الحدود السابقة)).

هل نذكر بأن هذا العدو الغاشم اغتصب الأراضي حتى بعد صدور قرار التقسيم؟؟.

هل نذكر بالاعتداء الصهيوني عام 1956م ثم عام 1967م، ثم آثار هذا الاعتداء الأخير التي لا تزال جاثمة على صدورنا؟؟.

هل نذكر بالسياسية العنصرية التي تمارسها إسرائيل على السكان العرب في الأراضي المحتلة ونجد مصداقاً لذلك ما قاله "يعقوب حزان" النائب عن حزب المابام: ((لقد عمل الحكم العسكري على عزل المواطنين العرب بوساطة التمييز ضدهم في مختلف مجالات الحياة وتحولهم عملياً إلى مواطنين من الدرجة الثانية.. إن الحكم العسكري يصنع بيديه، من الأقلية العربية قلعة من الشعور بالإهانة القومية والتمييز والغربة)).

ثم هل نذكر بسياسة التهجير والتشريد وإبادة الممتلكات التي مارسها العدو المغتصب، أم نذكر بقانون الغائبين الصادر عام 1950م الذي يهيئ الجو لمصادرة أراضي العرب، وذلك بأن اعتبر غائباً كل إنسان غادر محل سكنه العادي بعد 1948/11/29م أو غادر البلاد خارج أرض إسرائيل قبل 1948/9/1م، مشيرين إلى أنه من أجل إعطاء هذا القانون غايته القصوى فقد أجري تنسيق بينه وبين المادة/125/ من قانون الدفاع رقم/945/ حيث أصبح القائد العسكري يستند إلى الصلاحيات الممنوحة له بموجب هذه المادة كي يغلق مناطق عربية معينة بشكل تمتع معه عودة أهلها إليها .

ولم يكتف هذا العدو بالمصادرة الفردية بل تعدى ذلك إلى التهجير الإلزامي أي إخراج السكان العرب بالقوة من قراهم ومنعهم من العودة إليها تمهيداً لمصادرة أراضيها بالاستناد إلى أحكام قانون الغائبين أو بحجة عدم زراعة الأراضي المتروكة أو سوى ذلك من المبررات القانونية الفاسدة.

هذه بعض الأسطر نقلناها حرفياً عن كتاب الوضع القانوني للمقاومة العربية في الأرض المحتلة الصادر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير

الفلسطينية بقلم السياسي "حنا" وقد اكتفينا بهذه الأسطر البسيطة لعلنا أن ذلك أمراً معادياً ومكروراً ولا فائدة من إعادة التكرار أو التعامل مع هذا العدو بالكلمة والمنطق والقيمة الإنسانية.

لكن كلامنا هذا نزجيه إلى الملوك والرؤساء العرب الذين حضروا مؤتمر شرم الشيخ لمن «نسوا أو تناسوا» السجل الحالك لإسرائيل في الإجرام والعنف والإرهاب.

كيف نغمض أعيننا عن أفعال هذا العدو لنتهم بالإرهاب شعباً يدافع عن أرضه وكرامته وحياته.

لنفكر قليلاً بهذا الذي يسمونه التطبيع ويكرسون من أجله الخطط والمؤتمرات وعلماء النفس والاجتماع والاقتصاد لتنفيذه رغماً عن إرادة شعبنا العربي. ألا يعني التطبيع خلق دورة الحياة الواحدة والأخلاق الواحدة والاقتصاد الواحد والفكر الواحد.

والسؤال المطروح هو: كيف يمكن إجراء التطبيع بين الذئب والغنم بين الحق والباطل؟؟؟.

دعنا نتذكر قانون هذا التطبيع القائم على العقل الإسرائيلي المتفوق مقابل الأيدي العاملة العربية الرخيصة حسب معادلة "بيريز"....

هل هذا تطبيع أم بازار سياسي تباع فيه القيم والذمم والأرزاق والهوية والتراث؟؟؟ إن قضيتنا مع إسرائيل ليست فحسب قضية عنصر غريب لا يقبل العيش مع الجسم بل هو سرطان يريد أن يتغول على كامل الجسم، ويبتلعه، بل أبعد من ذلك هو جسم غريب استتبت بأيدي خبيثة هي أيدي الشمال ليقوم هذا الجسم بدور مزدوج لصالح الفارس والمغروس.

ونختم هذا الأمر بالتأكيد بكلمة الادعاء العام أمام المحكمة العسكرية الدولية الجالسة في نورمبرغ لمحاكمة كبار مجرمي الحرب، قال القاضي الأمريكي "جاكسون": ((يجب علينا أن لا ننسى أن السجل الذي يحكم على المدعى عليهم على أساسه اليوم هو السجل الذي سيحكم علينا على أساسه غدًا)).

وهذا ما سيقال لمؤتمري شرم الشيخ ولكن هذا القول سيكون هذه المرة من أحرار الأمة الذين سيدونون تاريخها بمداد من الكرامة والعزة والاستقلال. لقد شكلت الأمم المتحدة لجنة لتحديد المقصود من العدوان، حيث اقترحت هذه اللجنة الأمور الآتية التي تعتبر عدواناً:

- إعلان الحرب على دولة أخرى.
- غزو إقليم دولة أخرى واحتلالها أو إعلانها، ضم إقليم هذه الدولة أو جزء منها.
- الاعتداء المسلح على الإقليم البري أو المياه الإقليمية أو فضاء دولة أخرى.
- قيام دولة بفرض حصار على شواطئ أو موانئ دولة أخرى.
- استخدام الأسلحة المدمرة ضد دولة أخرى أو شعبها.
- منع أي استخدام للقوة ضد الشعوب غير المستقلة لمنعها من ممارسة حقها في تقرير المصير.

ونظرة بسيطة على هذه الشروط ترى أن إسرائيل استعملتها جميعاً ضد شعبنا الفلسطيني، بل وضد الدول العربية.

بيد أن العنف ليس مسألة قانونية صرف، بل هو دراما إنسانية باهظة لمسيرة التاريخ وهذه الظاهرة معقدة تخضع لأسباب لا حصر لها، وهذا ما يقتضي إخراجها من دائرة القانون للبحث عن مبرراتها وأسبابها والعوامل العميقة التي تنتجها، فما هي هذه المبررات؟؟.

هذا السؤال يجيب عنه "هندوريتش" في كتابه **العنف السياسي** ومن خلال المفاهيم الآتية: ((المشاعر حيال التفاوت والعنف - وجود محظورات أخلاقية على بعض أنواع الأفعال - اللامعقولية المفترضة في العنف)).

ماذا يقصد المذكور من وجود المشاعر؟؟  
يدلل هذا الكاتب بالتفاوت في متوسط العمر بين البلاد المتطورة اقتصادياً وغير المتطورة كمظهر من مظاهر التفاوت.

على هذا الأساس يؤكد الكاتب بأن أحكامنا الأخلاقية تتوجه من خلال مشاعرنا ثم بلفت الانتباه إلى تأثير التفاوت على مواقفنا الأخلاقية من العنف، ومع ذلك

فإن شعورنا حيال العنف على علاقة كبيرة جداً بعوامله في حين أن شعورنا حيال التفاوت ليس له تلك العلاقة القوية بعوامله، هذا فضلاً عن أن المشاعر الهادئة التي يثيرها التفاوت خاضعة للتأويل وقد تكون مألوفة نفسياً والأمر على خلافه بالنسبة للمشاعر التي يثيرها العنف فلا تخضع للتأويل وهي غير مألوفة نسبياً ونجد الدليل على ذلك إبان الحرب حين يصبح العنف أمراً مألوفاً..

وفي نظرنا أن المشاعر عاجزة عن تأسيس نظرية العنف هذا فضلاً عن شجبنا العنف، يجب أن لا يكون على حساب التفاوت الذي قد يكون سبباً لإنتاج العنف.

أما بشأن المحظورات فيقرر "هندوريتش" مسألة تتعلق بفلسفة الأخلاق هي وجود أنواع من الأفعال محظورة لذاتها بشكل مطلق.

ويضرب مثلاً على ذلك بصيدلي عاطل عن العمل وقد عرض عليه أحدهم العمل في مخبر تدور بحوثه حول شؤون الحرب الكيميائية والبيولوجية، لكنه رفض العمل في هذا المخبر مع إدراكه أن البحوث سوف تتقدم حتى في حال رفضه للعمل.

ويحلل "هندوريتش" موقف الصيدلي مؤسساً إياه على مبدئين أساسيين أولهما الصدق مع النفس أي التكامل الداخلي العميق في ضمير الصيدلي إلى درجة الهوس بالحشمة الذاتية والانطواء على الذات وتانيهما المبدأ الذي يملي علينا أن نتصرف بطريقة تفضي إلى أدنى حد ممكن من شقاء المجموع، ومن ثم فالصيدلي في رفضه للعمل يجعل التفاوت والشقاء أكثر احتمالاً.

وينتهي المفكر السالف الذكر للتساؤل الآتي: ((هل يجب على الصيدلي أن ينصرف بالضرورة عن التصرف وللوهلة الأولى منطلقاً من الطبيعة الذاتية للتصرف أم يجب أن يحسب حساباً لنتائج تصرفه)).

وفي نظرنا أن الإسلام ذهب شوطاً بعيداً في التوفيق بين مبدأ التأثيم الذاتي للعنف ومبدأ المسؤولية التاريخية، وعلى هذا الأساس، فقد أثم أموراً لذاتها كالتعذيب والتمثيل، ولكنه أفسح المجال للقيمة (الجهاد)، قال الرسول ﷺ: ﴿لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَأَسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَانَّبِتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ﴾.

ذلك أن الحديد يخضع للبينات في الإسلام، واللقاء مع العدو أمر استثنائي ولكن إذا تم ذلك وجب الابتعاد عنه وتقليله.

أما بشأن اللامعقولية فهذا المفكر يؤكد ما يلي: ((إني إنسان عقلائي لأنني أرى في موقف التعقل البديل الحيد للعنف فالعقل هو النقيض المباشر لأية وسيلة من وسائل القوة والعنف، ومن ثم فالتعقل الذي يعني البحث الودي هو وحده الموقف العقلائي، والخيار الوحيد أمام إنسان عقلائي، ولذلك فإنه أسمى من العنف الذي ما كان أبداً ولن يكون عقلائياً)).

ذلك أن العنف «والكلام لهندروريتش» شيء غير معقول لأنه نتيجة حلم يدور حول المثالية حول مجتمع مقلوب رأساً على عقب، وبما أن هذا الحلم ليس إلا مادة هزيلة فالنشاط الذي ينجم عنه يقوم على أساس ضعيف وأن مرتكبي العنف هو رموز العقلائية.

ولكن ألا يجب أن ندخل في الحسابان قيم القائمين بالعنف، وهل صحيح أن العنف دائماً لا عقلائي وأن ممارسيه دائماً مخدوعون، ثم كيف نطف من أهمية التفاوت وعلى أساس أنها لا تثير الأحاسيس والمشاعر بقوة أو أن أسبابها بعيدة؟؟؟ وفي نظرنا أن النظرية الأخلاقية أو الفلسفية منفردة عاجزة عن تأسيس العنف وبناء نظريته اللهم إلا إذا عم دحضه ونكرانه وأصبح أمراً مرفوضاً من جماع المجتمع الإنساني.

ولهذا السبب أمكن القول أن هذه الظاهرة قانونية وسياسية لسبب بسيط هو أن منشأ الأخلاق هو أحاسيس الضمير فهي إذاً حرية وفردية وآليتها مع الآخرين التبادل، وقد لا يتحقق كما قلنا هذا التبادل ويبقى في إطار الخلافات بسبب اختلاف القيم والإيديولوجيات وفي إطار هذا التنوع تأتي السياسية والقانون لتستخلص الأعم والأغلب ثم تفرضه محددة نطاق العنف وشروطه وتضبط حالاته بالإلزام عند الضرورة.

وبالتبع فهذا لا يعني قيام طلاق نهائي بين الأخلاق والسياسية، فقد كان هذا الأمر قائماً وكانت السياسية تقوم على جدلية عدو/صديق، ولكن السياسية أخذت تمتاح من الأخلاق جرعات محددة لا سيما بعد تأسيس السلطة وقيامها

على فكرة المشروع النابع من الجماعة، ومن ثم في إطار هذا التأسيس ظهرت ولأول مرة في التاريخ فكرة السلطة القائمة على القيمة أو ما يسمونه مبدأ التحديد السلطوي للقيمة authoritative vlloestion of values.

وحقيقة الأمر أن السياسية تتميز باحتمال وجود الأشرار أي احتمال الصراع واستعمال القوة في حين أن التبادل أحد مطالب الأخلاق ومع ذلك فالسياسية ليست مجرد تقنية العنف الذي لا يستهدف سوى نجاحها، بل الوضع السياسي الذي لا يستند إلى غير العنف هو على العكس وضع لا يمكن البتة أن يدوم، حتى عندما يعمد إلى الذود عن نفسه بالطريقة الحديثة الماثلة في تنظيم الإرهاب تنظيمياً شاملاً مستهداً ومن ثم فالنظرية السياسية نظرية حياة مشتركة يكفلها ويحققها استعمال القوة، ويجب عليها أن تفرض قواعد مشتركة، ومعايير يطبقها الجميع، من أجل أن تستجيب لمطلبها الأساس في النجوع أن عليها أن ترقى إلى نظرية مشتركة، وأن تحظى باعتراف الجميع بها، وهي إذا تطبق التوفيق بطريقة التنازلات لا تطبيق الاختلافات التي قد تتهدد وجودها بالخطر.

ذلك أن نظام الوقائع الذي تنتمي إليه القوة لا ينحل إلى نظام القيم وأن أحداً لا يستطيع تسوية حاد وواقع، ولذا نجد القوة هي التي تسعى إلى أن تلبس رداء مبدأ تسوية أنها تتجح أكثر ما تتجح في رفض ذاتها على أنها وسيلة تسوية سواء تناول الأمر عنفاً فيزيائياً مذلاً أم عنفاً روحياً مشوهاً أو باعثاً على الحمق والتبدل، ولو جرى ذلك على حسب التطلع المعقولة.

إن الأخلاق والسياسية ماهيتان لا تنحل إحداها إلى الأخرى ولم يكن من الممكن اكتشاف وإقامة علاقات تحليلية قادرة على كفالة وحدة جملة منطقية تخضع إحداها للأخرى، ومع ذلك إن هذين النظامين، مهما امتنع ارجاع أحدهما إلى الآخر يندمجان في منظومة عمل متبادل منظومة "فوسان" وبالتالي لا يمكن أن تنفصل إحداها عن الأخرى، لأنها تنزعان إلى أن تنتج إحداها عن الأخرى بالتناوب.

ذلك أن جلب القبول حتى ولو تناول الرضا بسياسية معينة يطرح مشكلة الطاعة السياسية بحدود أخلاقية، أي باستخدام الإقناع والرهان والمناقشة وإن صنع ضروب القسر والعنف سواء أكانت جسدية أم معنوية صريحة أم ضمنية تنتشر بالواقع ارتكاسات مبهمة واهية غير مستقرة.

وخلاصة ما يمكن قوله في هذا المقام بأن الأخلاق لا تكفي بفاعليتها وناهضها لحل مسألة العنف ولا بد من أن ترفدها فاعلية السياسية والقانون وبقية العلوم الإنسانية من أجل خلق التكامل في الإنسان والمجتمع.

وهذا ما يتضح من موقف الإسلام، إذ وقف حيال الآخر «من الناحية الإيمانية الأخلاقية» موقف الأسى والحزن، والتكامل معه كبأس وهذا ما يتضح من قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف/6. وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ التوبة/129.

ولكن هذا الموقف الأخلاقي لم يحل دون الفاعلية السياسية المتمثلة بمكابدة الباطل (الجهاد والأمر بالمعروف).

وفي نظرنا إن تعاون الأخلاق والسياسية يقدم نجوعاً باهراً، وهذا ما فطنت إليه الديمقراطية لكن كيف ولماذا؟؟؟.

الأخلاق كما قلنا تقوم على آلية الحرية والتبادل والتنوع، في حين أن القانون والسياسية يقومان على آلية الدمج والتوحيد، ومن ثم إذا تلمسنا هاتين الآليتين وجدناهما في الديمقراطية.

فالديمقراطية تفترض قيام المجتمع المدني المحمول على المساواة بين أفراد المجتمع والمحمول أيضاً على الحرية سواء للأفراد أم للجماعات.

في هذا المجتمع المدني يقوم كل فرد وكل فئة «بآلية التمثيل» بتقديم

طلباته، حسب قوله ﷺ: ﴿لِكُلِّ ذِي مَصْلَحَةٍ مَقَالٌ﴾.

ونتيجة للتفاعل والحوار والغربة والاتساق تتبثق الأغلبية، وتولد المواطنة كحقيقة سياسية جوهرها التوحيد انطلاقاً من الحقيقة المجتمعية التي جوهرها التنوع.



ولكن قرار الأغلبية ليس مطلقاً فهو يخضع للحقوق الأساسية للأفراد وحررياتهم كحاجز في وجه قرارات التمثيل كما أن هذه القرارات هي أغلبية آراء ليس إلا ومن الممكن أن تلغى بقرارات أخرى مماثلة في الطبيعة والجوهر وهذا هو معنى القول بأن السلطة حيز فارغ قابل للإملاء.

وبهذه الآلية لم تعد الأقلية راسباً من رواسب المجتمع وإنما جزء فاعل في تكوين الإرادة العامة ومن خيوط الحياة ومساراتها. وبالتالي فلا مجال هنا للعنف لأن الأقلية لم تعد تجد نفسها في مأزق مسدود محبوس الأنفاس.

أما إذا انتقلنا خطوة جديدة إلى إطار الأسباب المؤدية إلى العنف فإننا نجدها في جماع العوامل المادية والمعنوية التي تشكل بنية المجتمع. وعلى سبيل المثال فالمواطن الذي يعاني الظلم من القاضي والموظف والشرطي والبائع والتاجر هذا المواطن لا محال يعتمد العنف في تصرفاته. ولقد درس "موريس دوفرجه" هذه الظاهرة من خلال استعراض الأزمات التاريخية الكبرى، حيث اتضح له أن مردها يكمن في الخلل العميق لبنية المجتمع. وفي نظر المذكور إن عوامل الصراع البشري متعددة: عرقية (النازية والفاشية) - ديمقراطية اجتماعية اقتصادية وثقافية.

ولا مجال هنا لدراسة تأثير هذه العوامل في إنتاج العنف لكننا سنقتصر على دراسة معلم واحد ألا وهو المعلم النفسي وفي هذا الخصوص سنعمل على أبحاث المفكر الفرنسي "روكيش" حول ظاهرة الدوغمائية وبالذات الأرثوذكسية الدينية.

لقد انطلق "روكيش" من مفهوم الصرامة العقلية *la rigidite mentle* قبل أن يتوصل إلى البلورة النهائية لمفهوم الدوغمائية ووظائفها العقلية أو آلية اشتغالها وقد عرف الصرامة العقلية بقوله: ((عدم قدرة الشخص على تغيير جهازه الفكري والعقلي عندما تتطلب الشروط الموضوعية ذلك، وعدم القدرة على إعادة ترتيب أو تركيب حقل ما تتواجد فيه عدة حلول لمشكلة واحدة وذلك بهدف حل هذه المشكلة بفاعلية أكبر)).

ويتحدث "روكيش" عن الروح المغلقة ويربط ذلك بالعقلية الدوغمائية ثم يدرس علاقة الأنظمة الإيديولوجية بالروح المغلقة والعقلية الدوغمائية تركز أساساً على ثنائية ضدية حادة هي: نظام من الإيمان أو العقائد ونظام من اللا إيمان واللا عقائد .

فالعقلية الدوغمائية ترتبط بشدة وصرامة بمجموعة من المبادئ العقائدية وترفض بنفس الشدة والصرامة مجموعة أخرى وتعتبرها لاغية لأمعنى لها، وتدخل في قراءة الممنوع أو المستحيل.

ويؤكد "روكيش" أن الدوغمائية متمحورة حول لعبة مركزية من القاعات (أو الإيمانات اليقينية) ذات الخصوصية الخاصة والأهمية المطلقة. ويحدد "روكيش" خصائص هذه الدوغمائية:

- الحواجز الكثيفة التي تفصلها عن نظم اللا إيمان واللا عقائد الأخرى.
  - التنديد على أهمية الخلافات مع الغير.
  - التأكيد على عدم صحة رأي الغير.
  - انكار واحتقار الوقائع التي تناقض الرأي.
  - المقدرة على قبول التعايش والتناقض داخل الدوغمائية.
  - الرفض المستمر والدائم لكل محاولة توفيق ومصالحة.
  - اليقين الدائم والمتزايد بامتلاك الحقيقة.
  - تركيز المنظور الزمني نحو نقطة بؤرية أو محرقية أي اختفاء الحاضر لصالح الماضي.
- إن مضمون الأرثوذكسية الدينية لا يمكن تفسيره عن طريق العقل لأنه لا منطقي ولا عقلاني ولكن انتظام المؤمنين في مجموعة محددة والروابط السيكولوجية والسوسولوجية القوية، التي تصهرهم وتربط بينهم كالإسمنت المسلح يخلع على هذه المقولات صفة المعلومات الصحيحة والحقيقة المطلقة.
- ويؤكد "روكيش" بأنه لم يهتم بمضمون المقولات والصيغات الدينية بقدر اهتمامه ببنيتها التركيبية وطريقة أشغالها الوظيفية التي تطبق على كافة الكنائس والأرثوذكسيات العالمية.

وهكذا تصدى "غارودي" في كتابه الأصوليات المعاصرة لتحليل مضمون هذه الأرثوذكسية معتبراً إياها ظاهرة عالمية.

وعلى هذا الأساس ينبري "غارودي" للكلام عن هذه الأصوليات في العالم والتي هي: الأصولية الستالينية- الإيرانية- الجزائرية - الإسرائيلية- أصولية الإخوان المسلمين - الأصولية السعودية- أصولية le pen في فرنسا .

ويكشف "غارودي" النقاب عن منشأ هذه الظاهرة، إذ الأصولية في نظرة تضرب جذورها في الاقتصاد والسياسية ومن ثم فهي قرحة روحية آكلة تتهدد الحضارة بكاملها، وللخلاص منها لا يحتاج العالم إلى قيصر أو نابليون، بل إلى نهوض ملايين الرجال والنساء تلبية لنداء لوثريين وغانديين جدد، ومع ذلك فهو لا ينسى ضرورة الحوار الذي تفتقده الأصولية، ولكنه يستبعد ذلك الحوار بين السيد والعبد .

ويرى "غارودي" مذهب التفوق العلمي أو العلموية الغربية المبنية على فلسفة كونت الوضعية، هو الذي نصب الغرب كمسؤول عن استعمار العالم بأسره، وقد بات هذا الغرب العلموي منتجاً لأصوليات بعضها ديني كالأصولية الفاتيكانية، وبعضها سياسي ملتبس كالرأسمالية المتوحشة التي تقتل جوعاً خمسين مليوناً في السنة من أبناء العوالم الثالثة، أي تقصف شعوب الجنوب العالمي بقنبلة نووية يومياً، وكاننازية التي زجت أوروبا ومعها العالم في حرو ذهب ضحيتها أكثر من خمسين مليوناً، وأخيراً وليس آخراً الستالينية التي جردت الفكر الاشتراكي من كل جدلية وحوار وتحريز.

ويقرع "غارودي" ناقوس لخطر انطلاقاً من فرنسا حيث حركة le pen تستفيد من أصوليات الغرب والشرق معاً، فتطرد المهاجرين، أي تطرد العالم الثالث من أوروبا بدلاً من السعي لحل مشاكل المجتمع نفسها، وهذه هي لوثة الولايات المتحدة، حيث تستشري فيها إيديولوجيا التوحش الرأسمالي بقوة التفوق التقني العسكري كما حدث في فيتنام وعدد من جمهوريات أمريكا اللاتينية وأخيراً في الخليج العربي.

## من الصراع إلى التكامل

تتكلم الموارد اليونانية عن أسطورة جانوس ذي الوجهين، الوجه الأول مضمع بالقنامة والقوة، والآخر بالنور والتكامل.

وحقيقة الأمر أن التصارع والتكامل لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ومن الصعب في كثير من الأحيان التمييز بينهما، إذ أن ضبط قواعد الصراع، وتحديد إطاره يخفف من حدة هذه الظاهرة، بل إن بعض الإيديولوجيات كالماركسية - ترى أن الصراع يولد التكامل وهذا يتأكد من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الحج/40.

وإذا كان الغربيون يعتقدون أنهم أنهوا الصراع في مجتمع الوفرة وبالمقابل كان الماركسيون يرون أن العنف ينتهي في المرحلة الشيوعية العليا، وإذا كان "فوكوياما" أنهى التاريخ بانتصار الامبريالية، إذا كان الأمر كذلك، فالنزاع لم ينته ولن ينتهي على هذه الأرض، وما إن ينقضي نزاع حتى يظهر آخر، وهو ما نجده حالياً في استشراء الشمال ضد الجنوب، وخاصة شراسة الهجوم على أمتنا العربية تحت غطاء نغمة جديدة هي الأصولية الإسلامية، لا بل المؤرخ الأمريكي الكبير "هنتنغتون" يؤكد أن جوهر الصراع في المستقبل سيكون بين الحضارات.

وفي نظرنا أن القضية أولاً وأخيراً هي كيفية إدارة دفة الصراع، وبالمقابل فالصراع الدموي موجه سيء للسياسية لا سيما على الصعيد الداخلي. سئل المفكر الانكليزي "برتراند راسل" عن سر هدوء الرجل الانكليزي، وهل مرد ذلك إلى طبيعة المناخ؟؟؟.

أجاب هذا المفكر بالنفي، وفي الوقت نفسه رد ذلك إلى تاريخ انكلترا الذي يعمد بالدم واستطرد القول بأن أحد أجداده قدم من تلقاء نفسه مشروع قانون بإعطاء العمال بعض حقوقهم في حين أن دوقاً فرنسياً خيّر بين إعدامه أو إعطاء بعض الحقوق للعمال فاختر الحل الأول.

وقريب من ذلك ما أكده الأستاذ "فضل شلق" في مقال نشره في مجلة الاجتهاد حول النتائج الوخيمة للفتنة الكبرى في تاريخنا وما خلفته من صدع كبير في وجداننا وضميرنا الجمعي، حيث بقي هذا الجرح الغائر ثاوياً منتصباً في خيال أمتنا وكان له تأثير على الطبيعة المحافظة لحركتنا الاجتماعية تجاه السلطة خشية الفتنة وبالمقابل فقد تميز تاريخنا بالاندماج الاجتماعي ولعب المسجد الدور الكبير في ذلك وعلى مسرح هذا المسجد حدثت بلورات هائلة وانتصر ما انتصر من المذاهب الفكرية بألية الحوار والرأي بل كاد المذهب الشيعي - والرأي للأستاذ شلق أن يصبح مذهباً خامساً لولا الصراع الأبخاني المملوكي.

وفي هذا الصدد يتكلم عالم الانثربولوجيا "ايبهارت" عن حضارات تضع الصدارة للفرد في حين نجد حضارات أخرى تأخذ في الحسبان أهمية التماسك بين الجماعات، وفي مطلع هذه الحضارات الأخيرة الحضارة العربية الإسلامية. وحقيقة الأمر أن الإسلام حسم المر حول موقعه من الآخر (أهل الكتاب) فهم لا يختلفون مع المسلمين إلا في الوسيلة أو الطريق، أما الدين فهو واحد وهو الأمر الذي نجده في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ المائدة/48.

وقوله أيضاً: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى/13.

فإقامة الدين تعني التوحيد والمسلم ملزم في إقامة المجتمعية مع أهل الكتاب إذا ما رغبوا في ذلك، بل وفي إعطاء عقد الذمة سمة أبدية تتصرف أيضاً إلى أبنائه.

وعلى هذا يمكن التأكيد أن لحضارتنا إنجازات ضخمة في طريق الاندماج الوطني في القرون الوسطى عندما كان الغرب يغط في جهله وتمزقه، بل إن تاريخنا أبدع فكرة المواطنة وأقامها على أرسخ ما يمكن إقامته من صلابة وقوة اندماج وتأسيس.

وعلى ضوء ذلك، فقد سمعنا أكثر من صوت يتكلم عن ضعف الحديث النبوي حول الفرقة الناجية إذ أن هذا الحديث يتعارض مع روح الإسلام التي تحض على الرأي حتى ولو أخطأ صاحبه، هذا فضلاً عن أن علم الفقه هو علم الحركة والخلافيات.

نحن لا ننكر أن هنالك بعض صور العطالة في تاريخنا لا سيما تلك العطالة التي كانت وليدة العنف وأن هنالك جراحات غائرة في ضميرنا مردها بعض المواقف الدموية التي ما زلنا نحصد آثارها كما أن تاريخنا المذكور يحتوي أيضاً على جوانب من الفقه الظلامي الذي يدعو إلى الفرقة والمثال على ذلك كما قال المفكر الكبير "حسن حنفي" كتاب **الفرق بين الفرق**.

والخلاصة أن الدم موجه سيء للسياسية بين الأخوة وهو معول كبير للهدم، وإن على المؤتمر القومي في أولويات اهتماماته تنمية الوعي الاندماجي وبلورة خيوط الضوء في تاريخنا التي عبرت عن وعي أمتنا في حقيقتها وهويتها ورسالتها من خلال الاستبصار بقانون الدمج والاستهزاء بالدم والعنف كضريبة كبيرة لمسيرة التاريخ والتقدم.

وإذا كان الظلام هو انعدام الضوء وكان المرض انعدام الصحة، فإن العنف هو وليد نقص التكامل في الأمة وانحسار الهدف الاجتماعي الذي تتجذر حوله الأمة. ما هي عوامل هذا التكامل، وما هي نظرية التكامل؟

يجيب عن ذلك المعجم الفلسفي **معجم لالاند** معرفاً التكامل بما يلي: ((قيام ترابط متبادل بين الأجزاء التي يتألف منها كائن حي أو بين الأعضاء التي يتألف منها المجتمع)).

فالتكامل كسبب رافع للعنف، عملية توحد المجتمع وتجذره واتساقه على نظام يحس فيه أعضاء المجتمع أنه نظام حقاً، وبالمقابل فالتكامل السياسي هو ما ينوب السلطة المنظمة من نصيب في هذه العملية.

وللتكامل جانبان، أحدهما سلبي والآخر إيجابي، ذلك أن توحيد المجتمع هو إزالة الصراعات التي تقسمه وبالمقابل فالمجتمع الذي لا صراع فيه لا يكون متكاملماً إذا

كان الأفراد مضاف بعضهم إلى بعض متجاوز بعضهم مع بعض، ومن ثم فالتكامل لا يعني زوال التنازع فحسب، بل يعني إقامة التضامن والاندماج ساعة فساعة.

وفي هذا الصدد يقدم المفكر الفرنسي "موريس دوفرجيه" مشروعاً للتكامل الاجتماعي، نجتزئ الحديث عنه، وفيما يلي بعض عناصره:

#### الحد من القتال:

وفي نظر هذا المفكر أن الصراعات السياسية تميل للتعبير عن نفسها بالعنف باعتبارها تتعامل مع مسائل أساسية، كأن يكافح بعضهم للخلاص من وضع بائس ملؤه العوز والحرمان.

ومع هذا «والقول لدوفرجيه» فالسياسية جهد دائم من أجل إزالة العنف الجسمي، وتزويد التعارضات بوسائل أخرى من وسائل التعبير أقل قساوة ووحشية.

فالسياسية هي استمرار الحرب الأهلية بوسائل أخرى، إنها نفي الحرب الأهلية لأن الحرب تعرف بوسائلها، واستناداً إلى هذا التحديد فلا يمكن الحديث عن حرب باردة، لأن الحرب هي استعمال العنف المادي لحسم النزاعات أما السياسية، فهي استعمال وسائل غير عنيفة، أي تميل إلى أن تحل محل الأيدي والخناجر والحرب وسائل أخرى من وسائل القتال.

ويميز "دوفرجيه" ثلاث مراحل لإزالة العنف:

#### 1- المرحلة الأولى : هنا تكون المجابهة الجسمية قائمة وإنما تخضع لقواعد

وضوابط، مثل نظام الثأر الخاص المشروع، والمقاتلات الفردية....

#### 2- المرحلة الثانية : هنا تحل وسائل متمدنة محل الوسائل الوحشية

كالإضراب محل السلب، وإغلاق أبواب المصانع محل الإكراه على العمل.

3- المرحلة الثالثة : في هذه المرحلة يزول العنف المادي نهائياً لتحل محله المعارك الانتخابية والمجادلات البرلمانية، ومناقشات اللجان، وهذه هي مرحلة الديمقراطية حيث قوة العدد بدل قانون العضلات أو المدفع.

وحقيقة الأمر، فالحد من القتال على هذه الصورة بإبعاد العنف لا يستغرق التكامل، إذ حيث ينحصر التعبير عن النزاع بين الخصوم في المجادلات الصحفية والمناقشات البرلمانية بدلاً من الاقتتال في حرب أهلية، فإننا نظل ندعوهم إلى أن يتجاهلوا، ونبقيهم على أرض الصراع السياسي، ومع ذلك فهذه المجابهة تنزلق بالأطراف نحو التكامل.

ذلك أن تغيير وسائل الكفاح يعني تغيير طبيعته أيضاً، إذ العنف يجعل الصراع أمراً لا خلاص منه، لأنه ينمي الكره وروح الانتقام اللذين يفاقمان النزاع، بل وأبعد من ذلك، فقد تزول الأسباب التي ولدت النزاع، ولكن العنف يضيف سبباً جديداً هو حب الثأر وذكرى العنف، ورواسبه النفسية.

وحقيقة الأمر أن السياسية جهد لإزالة العنف، لكنها لا تظفر به دفعة واحدة، بل قد تبقى بعض مظاهره حتى في أكثر الدول تمدناً، وأشدّها ديمقراطية، إذ قد يبقى هنالك عنف كامن، حيث الطبقات والفئات تستعمل وسائل قانونية، ما بقيت هذه الوسائل تسمح لهم بالتعبير عن أنفسهم حقاً، وإلا كان الانفجار.

والدولة تمارس العنف لمنع العنف الأكبر، وهنا يخضع العنف للهدف الاجتماعي متمثلاً في القانون، ولكن الدولة قد تحتكر العنف لصالحها الخاص، وهذا هو إرهاب الدولة.

ومع ذلك فهذا النوع الأخير للعنف يقلل من استعمال العنف، وهذا ما عبر عنه "لينين" بقوله: ((إن الدولة جهاز سيطرة طبقه جهاز اضطهاد تستعمله طبقة ضد طبقة أخرى، إنها - خلق نظام يجعل هذا الاضطهاد مشروعاً، ويعزز به بتحقيق النزاع بين الطبقات إذ يجعله شرعياً رسمياً أقل وحشية، وأبعد عن العنف، وأكثر



اعتدالاً وتعريف السياسة بأنها قصر وسائل القتال والميل إلى إزالة العنف المادي يتصف إذاً بأنه تعريف إجمالي فليس الأمر إزالة العنف بمعنى الإزالة وإنما هو التقليل من العنف إلى مستوى آخر، إنه إحلال عنف شرعي قانوني محل العنف المادي)).

### إقامة التسويات

إن حذف العنف يفترض تسوية أولى تتعلق بقواعد القتال حتى إذا وصلنا إلى تسوية تتناول جوهر الأمر لا شكله دخلنا حقاً في إطار التكامل. إذاً لا يكون المقصود عندئذ تنظيم مجرى الصراع السياسي، وإنما انتهاء هذا الصراع بتسوية المصالح المتعارضة وبالتالي فإن إقامة التسويات هي من الوظائف الأساسية السياسة والديمقراطية مهيأة لذلك، وإن إجراءاتها لا تعني التعبير عن النزاعات بوسائل غير عنيفة فحسب وإنما هي مهيأة لانتهاء هذه النزاعات بالتسويات وبالتالي فإن آلية المناقشات واللجان والمجادلات تضمن «إلى جانب حجج كل فريق» التعرف على المشكلة، وإيجاد حل لها. وهناك نوعان هامين من أساليبهما: المفاوضة والتحكيم، ففي المفاوضة يجتمع الأطراف المتنازعون حول مائدة وتوضع تسوية تراعي مصالح كل منهما بتنازلات متبادلة أما في التحكيم فيلجأ الأطراف إلى شخص ثالث ذو منزلة معنوية ورمزية كما كان يفعل العرب في الجاهلية.

وقد تزعم الحكومات الأوتوقراطية أنها هي الحكم فوق الأحزاب والفئات، وهذا أمر باطل بل هي رهينة طبقة أو حزب أو فئة. والتسويات السياسية محدودة بطبيعتها، وإن مبدأ التسوية هو أن تقسم التفاحة إلى نصفين، وأن يعطى كل طرف نصفاً، أما التسوية المثالية، التسوية الكاملة فهي التسوية التي توازن بين المنافع التي يجنيها كل فرد، وبين التضحيات التي يقدمها في المجتمع فهي تقوم على مبدأ العدالة، ومن ثم فالتسويات تكون سليمة بقدر ما تكون عادلة، وبذلك فالتكامل مؤسس على العدالة.

وهذا ما عبر عنه الشاعر العربي في مدح الخليفة الراشد عمر بن الخطاب:

## أمنت ما أقت العدل بينهم فتمت فيها قير العيه هاتيها

ومع ذلك فالتسوية لا تقوم على العدالة بقدر ما تقوم على تقابل القوى، فإذا كان الخصمان متساويين في القوة، وكانا يتفاوضان ببراعة واحدة، كان من الممكن أن تكون التسوية مطابقة للعدل، أو العكس.

والتسوية ليست نهاية القتال، وإنما هي هدنة يمزقها تبدل موازين القوى. ويختلف التعامل مع التسوية في الدول الديمقراطية عنه في الدول الأوتوقراطية، فالديمقراطية تكون أعمق إحاطة وفهماً وتعاملاً مع الديمقراطية على أساس موازين القوى، والأمر على خلافه بالنسبة للدول الأوتوقراطية، ففي هذه الدول يكون تطور نسب القوى بطيئاً جداً، وهذا ما يطيل عمر التسويات.

لهذا فمن أجل ألا تؤجل الصراعات السياسية، بل أن تزول إزالة كاملة، يجب تحطيم الأسباب التي ولدتها، ومن ثم إذا ضاقت شقة الصراعات كانت التسويات أكثر رسوخاً وأعمق جذوراً، والتخوم بين الهدنة والسلم ليست قاطعة أبداً ورب هدنة طويلة أشبه بسلم، لكن أحداً لا يستطيع أن يقطع بأنه سلم دائم، وهذا هو عين شأننا مع الصهيونية التي تريد أن تفرض سلماً غير محمول على العدل وموازن القوى، وفي الوقت نفسه ينذر بالانفجار وإنتاج العنف.

## تنمية التضامات

وبداهة إن مجتمعاً لا صراع فيه أو تعارض لا يعني بالضرورة أنه متكامل تكاملاً تاماً، إذا ظل جميع أفراده - متناثرين منعزلين.

ذلك أن التضامن ولبد الحياة المشتركة، حيث تسود المجتمع شبكة من التبادلات المتقاطعة، ومن ثم فإن تقسيم العمل «حسب رأي إميل داركهايم» هو المنبع الثر للتضامن وبالتالي فالتضامن يكون قليل النجوع في الأحوال الاقتصادية البدائية المغلقة.

ومن جهة أخرى، فالتضامن يأخذ مظهراً مادياً صرفاً في الاقتصاد الرأسمالي، وهو على أقله بالنسبة للتضامن النفسي، لأن هذا الاقتصاد مؤسس على سعار المصلحة الخاصة.

ويؤكد "داركهايم" أن التضامن من يزداد بازدياد التشابه في مظاهر الحياة المختلفة كاللغة والدين والعادات والأساطير والقيم والثقافة.

ويؤكد "دوفرليه" أن تصورات الجماعة عن ماضيها ومستقبلها تلعب دوراً كبيراً يفوق تشابهها المادي، وهنا يظهر دور الذاكرة التاريخية سواء أكانت حقيقية أم أسطورية وللصور التي تمثل النماذج القومية وترسم ملامح المواطن المتوسط، ويرى فيها أعضاء المجتمع أنفسهم قليلاً أو كثيراً - جاك الفرنسي، ميشيل الألماني، العم سام الأمريكي - أثر لا يهمل.

ولعل صورة المشروع الجماعي الكبير الذي ستحققه الجماعة أن يكون عاملاً من عوامل التكامل أخطر شأنًا، هكذا قال أحد المفكرين، يهلك الشعب ما لم تكن له رؤيا...

وعلى هذا الأساس فأنا متفائل جداً بالنسبة لتحقيق وحدة الأمة العربية بسبب تكوينها الثقافي والعقلي وعمق روحها الوطنية، وذاكرتها التاريخية، ومنطقها العام، واعتزازها الروحي، ونظرتها العامة للحياة.

ويتحدث "دوفرليه" عن تكتيك التكامل، فيرد ذلك إلى الآليات الآتية:

#### القواعد والأصول:

وهنا يلعب القانون الدور الكبير في الحد من التعبير عن الصراع بالعنف ويقصد بالقانون هنا الأعراض، والتعاقدات والتحكيم الإجماعي والاختياري والاتفاقات العامة والتسويات الإجبارية.

وقد تسمح السلطة ببعض مظاهر العنف المخفف كالإضراب وإغلاق المصانع، وقد تحاول التقليل من اللجوء إلى هذه التعبيرات العنيفة عن طريق فرض محاولات تمهيدية كالمصالحة والتحكيم.

ومن هذه الآليات أيضاً التسويات الإجبارية، حيث تتولى السلطة بنفسها التوفيق بين المصالح المتعارضة، وذلك بتعيين حدود التسوية، وفرض تطبيقها، مع التنويه بأن التسويات العامة الإجبارية تتصف بعموميتها وانطباقها على الوقائع المستجدة.

والتقيد في الأشكال من أهم عوامل التكامل، فهو وسيلة كظم العنف الاجتماعي والحيلولة دون عودة الوحشية إلى الظهور، وتكبح جماح العنف الفردي. ويلفت "دوفرجية" الانتباه إلى الدور الذي تلعبه الدول المتقدمة في التكامل وذلك بسبب نشاطها الحاني والمتدخل في تنظيم النشاط الخاص، واجتراح مشاريع عامة ذات نفع عام خلافاً للمجتمعات قليلة النمو التكنيكي، المؤلفة من جماعات منفصلة بعضها عن بعض، ومنطوية على نفسها كالاقتصاد الزراعي المغلق.

وفضلاً عن ذلك فتمو هذه الوظيفة التنظيمية له آثاره على بناء الدولة، إذ يؤدي إلى قوة السلطة التنفيذية، وضعف السلطة التشريعية، إذ تصحح الحكومة مركز اندماج وتقرير سياسي، ومن ثم فإن الضعف الذي أصاب المجالس النيابية، ونمو الأجهزة التنفيذية «وهما صفتان يشتركان فيهما التطور المعاصر في جميع البلدان الديمقراطية» هما نتيجتان سياسيتان للتحول الذي طرأ على البنى الاجتماعية الاقتصادية، والذي نشأ هو نفسه عن التقدم التكنيكي.

ولا يتوقف التكامل على بنى المجتمع فحسب، بل على سيكولوجيا أعضائه، وهنا تستطيع التربية أن تفعل التكامل بأشكال شتى، وذلك يجعل المواطنين يعون ضرورة تقليل حدة الصراعات التي تسود حياتهم.

وللتكامل بالتربية شكلان في الأمم الحديثة أولها التكامل عن طريق التعليم المباشر لأنواع التضامن التي تربط الفرد بالمجتمع، وهذه هي التربية المدنية، فبعض المدنيات يلح على الجانب الأخلاقي من هذا التضامن، وبعضها الآخر يبرز الجانب النفعي موضعاً الفوائد التي يجنيها المرء من حياته في الجماعة. ويلقي "دوفرليه" الضوء على دور التقدم التكنيكي في شارع التنمية، ويحدد هذا الدور الأمور الآتية:

- تقليل التوترات الناشئة عن العوز، حيث يضرب مثلاً على ذلك في قطعة الحلوى الصغيرة التي تقسم حصصاً بين عدة أشخاص، إذ من الطبيعي أن ينشب شجار عنيف إذا جاءت الحصص متفاوتة، وبالعكس إذا كانت قطعة الحلوى كبيرة.
- انحصار الصراع حول الرفاه والفراغ والثقافة، وهذا أقل ضراوة من الصراع حول الخبز حيث صرح عمال نسيج مدينة ليون: ((الموت أو الخبز)).
- والتقدم التكنيكي يحول العمال إلى عبيد ميكانيكيين، ولكن ذلك يمحو الوحشية من اضطهاد الإنسان للإنسان.
- والتقدم التكنيكي لا يتجه إلى التكامل السلبي فحسب بتقليل الصراعات، بل يتجه إلى زيادة التكامل الإيجابي باتجاه الاتصالات والتفاهم والتضامن بين البشر، وينتهي الانعزال والانغلاق، كما هو قائم في دول أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا، حيث لا يزال أكثر الناس يعيش في اقتصاد شبه مغلق لا ينال من الدولة إلا قليلاً جداً من المنافع.

ومما لا ريب فيه إنه في مجتمعات الغرب الكثيرة النمو نرى التكامل أكثر عمقاً ونمواً، وهذا ما يؤدي إلى التقليل من الصراعات، وبالمقابل يزيد من التفاعل الاجتماعي.

ومع ذلك يدل "دوفرليه" بنقطة هامة هي أن مجتمع الوفرة لا يزيل نهائياً التناقضات بل أن بلوغ الوفرة يشبه قليلاً السياق بين الخيل والسلفاء وبالتالي فكم هي الحاجات المستجدة التي تظهر، وهذا ما أكده "كوستلر" بأنه كان يحلم

بالولاء كحلّمه بالنساء عندما كان سجيناً يتألم من الجوع، وهكذا فقد ظهر في إطار علم الاجتماع تعبير الثورة الجنسية مع ما يمكن أن تطالبه هذه الثورة من أوجه جديدة للحرية.

وفضلاً عن ذلك فالنمو الاجتماعي يؤدي إلى توسع بني السلطة واستشراء طغيانها وانتقال الصراع بين المواطنين إلى صراع بين السلطة والشعب، كما أن هذه المجتمعات إذا ما تجاوزت الحرية بمعنى المشاركة واجهت الحرية بمعنى التفتح. أجل إن محو العوز تحرير ومحو الضياع تحرير، ولكن المجتمعات الإنسانية مطالبة بأن يستطيع كل إنسان أن ينمو وفقاً لطبيعته الخاصة، وأن يملك الوسائل اللازمة لذلك.

ويختتم "دوفرجه" بحثه عن الصراع بين الأمم البرجوازية والأمم البرولينارية وأحد مظاهر هذا الصراع الأرباح التي تجنيها الدول الصناعية من ارتفاع صناعاتها وانخفاض أسعار المواد الأولية، وغير ذلك من صور النزاع.

المحامي الدكتور برهان زريق

## السلطة السياسية في الوطن العربي<sup>1</sup> «مسألة المشروع العربي الشعبي للسلطة»

**السلطة** ظاهرة أولية في كل جماعة اجتماعية مهما كانت بساطتها، وقد نشأت هذه السلطة بصورة تلقائية كحدث مادي واقعي إلا أنها مع الزمن أخذت تتشكل بالعمق والجوهر، وهي الآن بمنظور العالم المتمدن إطار الجماعة، وصورتها الحالية ومستقبلها المرتجى، فهي مركز إنضاج كافة القرارات والسياسات المتعلقة بجوانب المجتمع ومركز تربيته وديناميته وآلية تنظيمه، وهي داخلية ومرجع هويته، والمبدأ المقوم والمحرك له وحيز ماهيته وتقدمه ووجوده. هذا هو الوجه المشرق لأسطورة جالينوس اليونانية من السلطة، وإن كان الوجه الآخر ترهقه القترة وتتغشاه قطع الظلام والعتمة.

---

<sup>1</sup> - قام الدكتور برهان زريق يرحمه الله بإعادة صياغة البحث ليصبح جزءاً من كتاب السلطة السياسية ومسألة الحكم الصالح "الرشيد"، الذي يحمل الرقم/03/ضمن سلسلة الكتب المنشورة بعد الرحيل، على موقعه الإلكتروني: [WWW.Zraik.info](http://WWW.Zraik.info)

هذه الأهمية المتزايدة للسلطة حدت العلوم الإنسانية لتحديد ماهيتها وآلية عملها ووظائفها ومجالاتها وأساليب ممارستها عملها انطلاقاً من مبدأ أن العلم استشراف والاستشراف قدرة.

على هذا الأساس سنحاول بعجالة معانقة تلك الظاهرة بالقدر المتيقن الذي يتيح تشريح جنتها، وتفكيك بنيتها والحفر على طبقاتها تمكيناً لوضع يدنا على مسارب الحياة وخيوط القدرة التي تسوسها هذه الظاهرة في وطننا العربي.

وحقيقة الأمر أن السلطة ظهرت تاريخياً بأشكال متعددة، وما يهمنا هنا الكلام بقدر محدود عن الشخصية ثم التركيز على السلطة المؤسسة قاصدين بالسلطة الشخصية ذوبان السلطة بشخص الحاكم وممارسته لها على أنها امتياز لما اكتسبها بمواهبه وتختلط بشخصيته وهي رهينة إرادته ونزواته.

هكذا كان قلق الروح الحرة يرنو إلى الأمن والأمان من أجل إسناد السلطة إلى شخص مجرد ودائم يقي من الهزات، وكان هذا الحل عقلنة التفسير السحري للسلطة في فكرة التأسيس- المشروع، المعنى، الجهاز في خدمة فكرة، الدولة كتشخيص للشعب، إنها صاحبة السلطة والحاكم يمارسها لصالحها، وأساس الخضوع، هو الواجب الهدف الاجتماعي، والقوة غدت للفكرة، والكفاءة والثقة هما سند الأمر والنهي، تماماً كخضوع التلميذ للمدرس أو المريض للطبيب، والحديد للبيئات، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ الحديد/25.



على ضوء ذلك يصف "بوردو" الزعيم بقوله: ((إذا كنت أقبل أن أرى فيه رجلاً أنحني أمامه وأقبل توجيهاته برضا واحترام، فذلك لأنني أستشف عبره مشروعاً يهمله كما يهمني، ولكنه يتجاوزه كما يتجاوزني)).<sup>1</sup>

والتأسيس ليس على جذر الحق فحسب، وإنما على الخيار الحضاري، يقول "ريمون بولان" موضحاً ذلك: ((الدولة حضارة بأسرها، وقد استجمعت قواها وأفصحت عن نفسها في مؤسسة، أو مجموعة من المؤسسات)).

شرعية الأصول هذه دفعت "بوتول" للقول: ((سوسيولوجيا اليوم هي سياسة الغد))، ودفعت "العروي" لاعتبار دستور الحياة الضمني أساس الدستور الشكلي، كما اعتبر "ابن خلدون" نسبة الدولة إلى العمران كنسبة الصورة إلى المادة، واعتبر البعض أن السياسة تقنية الاجتماع وفيزيائيته، فهي الابرة المغناطيسية التي تتحرك في الساحة المغناطيسية وهي هنا تموجات الحياة.

يقول "بوردو": ((السلطة هي الطاقة المحركة لفكرة الحق الذي تجده، إنها تفقد فقط وجهها الجسدي بتمييزها عن الشخصيات التي تمارسها، ولكن قوتها تستمر تحت أدق شكل لها، ألا وهي ضغط الفكرة باتجاه تحقيقها)).

والفقيه "هوريو" يصور آلية التأسيس بلعبة شطرنج كتب على أحجارها ما يلي:  
الحرية - السلطة - الأمة، ورهان هذه اللعبة العقلية الجدليات الآتية:  
شعب/سلطة - ضرورة/حرية - استقرار/تطور - حركة/سكون...

هذا هو الرهان الذي تكلم عنه "مونتسكيو" فيما يتعلق بنسبية الحقائق الإنسانية وضرورة إجراء الموازنة بينهما.

---

<sup>1</sup> جورج بوردو: الدولة.

والدكتور نعيم عطية" يتكلم عن هذا التوازن على صعيد السيادة فهذه السيادة في نظره تتحلل إلى سيادة الولاء (الشعب)، سيادة الأمر (السلطة) - سيادة الفكرة، وهي السيادة الأهم المهيمنة المنسقة الموحدة للسيادتين. السلطة هنا هي القوة الديناميكية أو قوة الحركة والشعب هو القوة الستاتيكية أو قوة الاستقرار والإقرار والتصديق المروضة المهذبة للتمادي في الحركة. السلطة لم تعد إرادة واحدة في ذاتها، إنها انعكاس لتطلعات الجماعة في تماسها الدائم مع الأشكال المتغيرة للعدالة، ومع وجود السعادة، إنها تصميم تتطور صلابته مع تموجات الجماعة وتضاعيف الوعي ويتحدد توازنه في حركة الحياة لا في العلب القانونية المنحطة، إنها السلطة المتفتحة جامعة النظام والحركة، والدولة هنا عامل ضبط جدلية النظام والحركة، بآلة النظام يدافع عن نفسه بامتصاص الحركة أو هو حركة ثم هضمها، وبالمقابل فالحركة تنشط لتستقر في نظام، وهذه الآلية ذات الاتجاهين المتناقضين ظاهرياً تصنع من الدينامية السياسية جدلية يحل فيها التجاوز محل المواجهة والتدمير، ومن ثم فإذا ما بدا النظام على أنه من صنع الحركة، فالحركة بدورها تزكو بالنظام والدولة في النهاية محرك وكابح، إنها ضابط إيقاع التنافس بين سلطات الواقع، وهذه السلطات تدمر المجتمع إذا استمرت دون تنسيق، والأمر نفسه إذا فرضت إحداها الصمت على الآخرين. وعلم السياسة نظام متحرك، وما نسميه استقراراً ليس في حقيقته سوى توازن قوى الجماعة الذي يجدد الحيوية والشباب، وسلطات الأمر الواقع قد تتصادم، ولكن الدولة هي التي تنظم الإيقاع لتجعل منه نظاماً، أي لتصنع الواحد من المتعدد.

هذا هو المفهوم العمراني الحضاري للتوازن أو نظرة التوازن، وهو توازن اجتماعي سياسي مؤسسي نجده أيضاً في علم العمران والموسيقا وغير ذلك من العلوم.

هذا التوازن نجده في الحقيقة الدستورية:

- رفض الجمود المطلق للدستور.
- القانون البرلماني يخضع لرقابة المحكمة الدستورية.
- مبدأ فضل السلطات ليس جامداً rigid، بل يقيم نوعاً من التعاون والتأثير المتبادل (مثلاً رئيس الجمهورية يحل مجلس الشعب في حالات معينة، وهذا المجلس يستجوب الوزراء).
- السلطة التنفيذية تضطلع بمهمة التشريع في حالات الضرورة.
- تعاقب الأكتورية والمعارضة في الحكم.
- الموازنة بين السلطة المركزية والسلطات المحلية.
- تعاقب الانتخاب.
- التوازن بين السيادة الشخصية وسيادة الدولة.
- التوازن بين الحقوق السياسية والاجتماعية.
- مبدأ التعدد الحزبي.
- حرية الصحافة في مواجهة السلطة التنفيذية.
- مبدأ الاستفتاء الدستوري كوازن لنظام التمثيل.
- مبدأ حقوق الأفراد كوازن لسلطة الأغلبية.

هذا التوازن في فعاليات الحياة من أجل أن تنتصب قامة الإنسان التي أنقضها عبء صخرة السلطة.

هذه المقدمة الطويلة نسبياً لم تكن سرفاً أو ترفاً عقلياً بقدر ما هي معانقة لتلك الميكانيزمات والروافع التي هي سبب انطلاق مركبة الحضارة الغربية التي تقود حالياً قطار العالم، كل ذلك من أجل أن تضع يدنا على مفاصل السقوط

والانطلاق في آلية عمل جهاز السلطة في وطننا العربي، يرفد ذلك تصور للدور الحضاري الذي يمكن أن تلعبه السلطة في المشروع العربي النهضوي.

ونوه استطراداً بأنه كان بودنا أن نعرض لتوازن فعاليات الحضارة الإسلامية وبالأخص جدلية، حرية/سلطة، لا سيما أن هنالك من يدلل بمقولة الاستبداد الشرقي كجذر للاجتماع العربي.

وفي هذا الصدد نشير إلى رأي "الدكتور فهمي جدعان" المدلل بأن الفكر الإسلامي بقي محتفظاً بتوازنه في أقطاب الحياة حتى مشروع "الماوردي" في كتابه أدب الدين والدنيا الذي جسد بدقة هذا التوازن، وبعد ذلك أخذت الدنيا تميل إلى الآخرة كما يتضح مثلاً من فكر الغزالي<sup>1</sup>.

أما اختلال التوازن لصالح السلطة فقد ابتداءً على يد الخليفة معاوية، ثم تفاقم هذا الخلل شيئاً فشيئاً وانعكس ذلك على هياكل المجتمع وبدأ التمايز بعد أن كان الدين يؤسس السياسة وكان الأمراء هم أنفسهم علماء.

إذاً حدث الخلل في المنظومة لصالح السلطة على حساب الحرية، أو بمعنى أدق على حساب خليفة الله الإنسان العادي لصالح الخليفة الحاكم، خلافاً للمشروعية القرآنية التي تعول على الإنسان العادي المؤمن الذي يضطلع بمسؤولية الحقيقة - الوحي.

وإذا كان اختلال التوازن في منظومة حرية/سلطة، هو الذي أدى إلى نضوب الحياة في عروق حضارتنا، فالسؤال يطرح نفسه عن هذه العاصفة الهوج التي توشك أن تقتلعنا من جذورنا، وتحدث انقلاباً في قوانين الطبيعة، وتحولاً في نظام طبائع الأشياء حسب تعبير "الجبرتي".

---

<sup>1</sup> د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في الفكر العربي الحديث، بيروت، 1972، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

هذه المرة سأستعين بالعقل التاريخي لا سيما أن هذا العقل يتعامل مع الحياة في صلابتها وما صدقها، وتبعاً لذلك سأعرض باختصار للسلطة في دولة "محمد علي باشا"، ودولة الاستقلال، والدولة التقدمية، فدولة الانفتاح، كل ذلك لاستشفاف آليات السقوط والقبض على السياق الاجتماعي السياسي الذي أرهص للسلطة الشخصية الراهنة التي تتحرك منفردة على رقعة الشطرنج في الوطن العربي، على أن أقفي ذلك باستشراف واستشفاف الحل المرتجى لعلاج هذه الظاهرة.

باختصار يمكن القول أن دولة الباشا هي دولة التقنية والإفتان بالعقلية البيروقراطية والتنظيم والمركزة والسيطرة على المجتمع والعلمنة حتى أن أحفاده اعتبروا مصر قطعة من أوروبا، وليست بلداً عربياً إسلامياً. هذه الدولة لم تعتق الأسس العميقة للتمدن والمبادئ الكبيرة المعنوية والخلقية للدولة، لذلك كان شأنها شأن الجسم الكبير الذي يتحرك على أرجل دقيقة، أو كما قيل عنها للنفس عينان عقل ووجدان، أما هي فكانت ذات عين واحدة.

لقد كانت السممة الأساسية للدولة المذكورة الهجنة والخلط بين مسارين مسار التقليد ومسار الإصلاح، وهي «على حد رأي المفكر العربي د. عبد الله العروي» نواة الدولة الوطنية الحديثة، إذاً فما هي سمات هذه الدولة الأخيرة؟.

كان من المفروض بالضرورة وطبائع الأشياء أن تكون هذه الدولة انقطاعاً في الطبيعة والجوهر عن سلطة الاستعمار، وهو ما يمليه صك ولادتها ومشروطية تأسيسها المحمولة على إعادة الإقليم المقتطع إلى حضن الأم، والقائمة على بلسمه الجراحات والعاهات والتشوّهات والتمزقات التي خلفها المستعمر، وبالمقابل توزيع خيرات الوطن بالكفاية والعدل على الجميع وتوجيه مسارات القدرة وخيوط الحياة

وعروق الازدهار في دورة دموية تتسرب في كامل جسم الوطن يشمل ذلك تداول السلطة والثروة الثقافية والرمزية وخلق الحراك الاجتماعي على أوسع نطاق، ثم ترميم الصدوع وبناء شبكات التضامن والروابط الممزقة وإعادة التوازن الوطني والاجتماعي.

وتعميق الإحساس الوطني يعني تصور الجماعة لذاتها وإحاطتها بتاريخيتها ومبادراتها الذاتية، وبناء الإرادة والكرامة دون الارتهان لأية سلطة خارجية. فهل تم ذلك على يد هذه السلطة، أم أن الاستقلال فهم على أنه عملية تسليم واستلام ومكاسب؟.

لا أحد ينكر أن الاستعمار دمر وكسر وحطم وقضى على ثقافة الشعب وخلق روحاً وجروحاً غائرة نازفة، وخلق مؤسسات مهمشة وذات عطالة تقليدية وتاريخية، ولم تكن هنالك قوى اجتماعية حية قادرة على التصدي لتحمل مسؤولية هذه المرحلة، بل إن الاستعمار خلق مجتمعاً مهمشاً منعزلاً من الفلاحين وشبه الإقطاعيين وهيئة متخلفة من رجال الدين ونخبات عمالية هزيلة وطبقة تجارية مرابية؟ و"كومبرا دوريين" ملتصقين بالسوق الخارجية، كل هذا دون بلورة مركز ثقل حي، قوة اجتماعية كبرى تحمل على مسؤوليتها بناء الشأن العام.

لقد افتتنت هذه الدولة بالغرب فجاءت نسخة تحمل بعض رائحة ومظاهر وعناصر الديمقراطية الغربية، ولكنها ديمقراطية صورية اقتصادية فارغة المضمون الخلقى والمعنوي والقومي متغربة ثقافياً هذا فضلاً عن أن بعضها ينفي وجود الأمة العربية كالفرعونية والفينيقية وغيرهما.

لقد غرقت هذه الدولة في التفسير السياسي الضيق للسلطة، فأضعفت سبل المبادرة لديها، مقتصرة على التسيير الإداري والخدماتي والتراكم الاقتصادي لصالح الفئات الطفيلية والطائفية والقبلية وجماعات الضغط دون أن تكون مركز

ولاء عام، إنها باختصار دولة قطرية لا وطنية تستلهم تاريخ القطر ومبادراته ومعطيته وتبني شخصيته، تحركها هموم الانخراط في المسار القومي. ثم جاءت نكبة العرب الكبرى في فلسطين، فكانت ابتلاء كبيراً لهذه الدولة أظهرت هشاشتها وتهافتها، وعجلت في تأكلها وسقوطها.

وجاءت الدولة التقدمية، وكانت هذه الدولة تحمل في طياتها بعض ردود الفعل على الدولة الحارسة السابقة.

وبيان ذلك أن الدولة الأخيرة التزمت بالحرية السياسية كتقدم، وقد آل هذا التقدم كما قلنا إلى دورة دموية فاسدة ضيقة تحركت من خلال مخانق ومحابس، وقد قادت هذه المخانق إلى عدم إيمانها بالمشروع الوطني بالمفهوم الإنساني والأخلاقي والإبداعي.

وقد وجدت الدولة التقدمية نفسها ملزمة بإجراء التغيير وإصلاح الفساد ليس بطريق الصيرورة، وإنما عن طريق شرعية الأهداف التي تعني تحديد سقف للدولة وغايات للمجتمع أكثر رحابة وسعة، ثم حشد كافة الطاقات وتعبئتها للوصول إلى هذه الغايات دون الالتزام بالوسائل حتى ولو كان على حساب بعض الحريات.

هذه السلطة العربية الحانية أرادت أن تنقل الدولة إلى مواقع جديدة كل الجدة وتضع لها بالعمق أهدافاً اجتماعية واقتصادية وتحملها رسالة وعقيدة هي عقيدة الحرية والوحدة والاشتراكية وتدفعها بفعالية إلى الساحة الدولية والاندرج بعمق بالقيم الحضارية الإنسانية وفي الصيرورة العالمية كنقيض للإمبريالية، حيث حركت مداً عربياً طال إشعاعه محيط الأمة ولم تعد المسألة القومية تدور في الفلك الفكري بل أصبحت حقيقة سياسية عقيدية كبرى وهذا ما أدى إلى قيام تضامن عربي ملموس أظهر أمتنا على الصعيد الدولي كقوة موحدة.

ولقد وصل الأمر إلى ذروته بتحقيق الوحدة بين مصر وسوريا ولاح في الأفق مبدأ تحقيق وحدة الأمة وأخذت الأرض تهتز من تحت الأنظمة الموالية للغرب. وعلى صعيد القوى الاجتماعية فقد تعاضم دور الطبقة الوسطى والشعبية وخرجت لأول مرة هذه الطبقة الأخيرة عن عزلتها تمارس دورها على الصعيد السياسي بعد أن ارتقت طموحاتها وتطلعاتها وآمالها. بيد أن التزامها بالأهداف البعيدة طرح مسؤولية ديناميتها وحركيتها لتسريع الحركة التاريخية والاجتماعية والأخلاقية من أجل النهوض، وهو الأمر الذي تطلب منها حرية المبادرة وملكة الإبداع والمبادهة وسرعة الحركة، وهكذا فقد أعطت لنفسها صكاً مفتوحاً حررها من آلية القانون وحقوق الإنسان، فكان ذلك القتل.

لقد وضعت هذه السلطة نفسها في قلب المجتمع، واعتبرت نواته النووية وجهازه العصبي وهذا ما جعلها تمتد إلى كل مكان وتسيطر على كل شيء، وتتمتع بسلطات واسعة، مما قادها إلى الاستعلاء والتحكم وقيادة المجتمع بزمام من رأسه بل وتجاوزه.

لقد جاءت هذه السلطة عن طريق الشرعية الثورية لذلك فقد وقر في ذهنها أن شرعيتها غير الانبثاقية تحتاج إلى الانجاز بعد الانجاز، وعلى هذا فكثيراً ما أدخلها هذا الشعور في دائرة هوس التغيير ومغامرة قلب الأوضاع حتى خارج الضرورة.

زد على ذلك فالموقعية التي تحركت به كانت خارج الجسم الاجتماعي، بل وأحياناً من فوقه حيث طبع موقعهم هذا بشيء من الاستكبار والاستعلاء فسقطوا في البيروقراطية، وهم يحملون أعلام النخبة والطليلة.



لا أحد ينكر أن المد الشعبي احتل موقعية هامة في حقل الخدمات وكمصدر فاعل للقوة السياسية، ولكن هذه الشرعية بقيت في حدود الحماس ولم تؤطر في إطار قانوني ومؤسساتي أو في منظومة سياسية فاعلة بل اقتصر على التصديق لا المبادرة، وهذا يفسر سهولة اختراق هذا المد في مصر على يد السادات.

زد على ذلك فالخطاب الثقافى لم يكن واضحاً وأحياناً غير مطابق، إذ بينما نرى نظاماً تقدماً يؤسس العروبة على العصر الجاهلي، نرى نظاماً ما آخر يقع في الاستلاب لصالح الشيوعية العالمية دون أن يعطي تفسيراً عربياً لذلك فضلاً عن أن نظاماً ثالثاً يعطي العروبة مفهوماً رومانسياً مجرداً غير حجاجي وغير مشخص وتاريخي وفي علاقة استحياء واتضاد في بعض الأحيان مع الإسلام والتماهي مع العلماني التغريبية لا الإنسانية خلافاً للتماهي التاريخي بين العروبة والإسلام.

ولكن المهم في هذه السلطة التقدمية أن انفصالها عن الجماهير قاد حركة التقدم إلى توجيه مسارب الحياة ومسعاها وخطوط القدرة فيها، وخيوط الدولة والمجتمع ضمن فلك المصالح الشخصية، وهذا ما لمسناه في هزيمة حزيران، إذ هي في المقام الأول هزيمة هؤلاء البيروقراطيين العسكريين المترهلين الذين انصرفوا إلى جمع الأموال على حساب المواهب العسكرية فسقطوا تحت ركاب مصالحهم الذاتية وأسقطوا الأمة التي كانوا يقودونها، وهذا هو إحساس الراحل العظيم جمال عبد الناصر الذي أدرك عبثهم بالأمانة وأحس بأن مشروع التقدم يتواءم مع الديمقراطية ومصدق ذلك بيان الثلاثين من مارس الذي صدر على أثر هبة طلابية حية وصادقة كرد على الهزيمة.

وإذا تابعنا النقد الموجه للمشروع الثقافى أمكننا القول إن دولة التقدم لم تحدث تغييراً عميقاً في القيم الثقافية النابعة من حركة الأمة وتاريخها وتراثها، بل إن هذا المشروع كان تماثياً وشعاراتياً وضمناً في قسم كبير منه.

نحن لا ننكر أن هذه الدولة أنفقت الأموال الطائلة من أجل ديمقراطية الكتاب والثقافة والمسرح والفن، ومع ذلك، فالتغير الثقافي كان محددًا لأنه ملك الأمة ولا يمكن أن يوتي أكله إلا من خلال حركة المجتمع، ومن ثم فالدولة تعجز منفردة من إبداع هذا المشروع وإنتاجه، هذا فضلاً عن الأمة فهمت لدى التقدميين فهماً تقليدياً ثابتاً فهي أمة خالدة وثاوية في أعماق التاريخ انسلت من الملأ الأعلى جوهرائية ماهوية لا تستجيب للصيرورة والتغيير، وهذا الفهم الفلسفي له انعكاساته على الاندراج المتحجر للأمة في التاريخ والحياة.

وهذه الدولة التي أمسكت بالمجتمع حاملة مبضع الجراح أخذت تعمل هذا المبضع في جسم المجتمع المدني من أجل تغيير عطالة بناءه، ولكن هذه العملية أخذت في جزء منها تقطع بعض الأعضاء السليمة، مثلها في ذلك مثل الطبيب الذي أُعطي الأمانة، ولكنه خانها أو جهلها واستخف بها، وأخذ يقطع الدماغ من أجل إصلاح القلب.

لقد قاد هوس التغيير إلى مراكمة الآلات على حساب هضم هذه الانجازات المادية ومعنياتها وإعطائها منظومتها القيمية كما أن التوسع في أجهزة الدولة أدى إلى نمو أجهزة الأمن والمخابرات التي تغولت على الحريات العامة.

وفي نظرنا إن حرية الإنسان هي منبع كافة طاقاته الروحية والوجدانية والأخلاقية وهي أم القيم والهدف الأساس في هذه الحياة، والمواطن الحر هو أساس المجتمع الحر.

وعلى هذا فإذا كان المشروع الناصري أو غيره قد تمتع بالمشروعية الموضوعية أو الشرعية الوحودية التي أكسبته بحق المزيد من التألق والحيوية في نظر الجماهير والدرع الذي وقاه في نكبة حزيران، ومع ذلك فقد كان على هذا النظام أن يتوج

رأسه بتاج الحرية مع العلم بأنه لم يجر أي انقلاب في توازن المؤسسات القانونية التقليدية كمجلس الشعب وفصل السلطات أو غير ذلك من مؤسسات الدولة. ومع ذلك لقد كان اللعب على مسألة الحريات مطعناً غائراً وكان على هذه الثورة العظيمة أن تتأبى الوقوع في أبسط شكل له وهي دولة الشعب، وهو الأمر الذي جعل المادية تلعب على وتر هذه المسألة بذكاء وخبث وفهمتها على أنها الرصيد الوحيد لتدشين دولة الانفتاح والخروج على ثورة ذات تقاليد نضالية عظيمة.

ونحن الآن أمام دولة الانفتاح كنمط جديد للدولة العربية يقوم على فكرة أساسية هي إلغاء القيود على ميدانين أساسيين أولهما السوق الخارجية كرد على الحماية الذاتية واقتصاد الخطة في المرحلة السابقة، والميدان الثقافي هو تحرير الدولة من الالتزامات والمطالب القومية والتضامانات العربية.

أما الحرية لدى هذا النظام، فلا تعني بناء المواطن وحرية الضمير وقديسية الحريات الشخصية وتعزيز الفرد وفهمه كمواطن للحرية وحامل لمبدأ المسؤولية والمشاركة الوطنية الإنسانية، وكل ما تعنيه هي تحرير علاقات التجارة والاقتصاد، ورفع القيود القانونية والأخلاقية والاجتماعية لصالح الرأسماليين المحليين والأجانب في سبيل دفعهم إلى المشاركة والاستثمار وتعظيم الفوائد الاقتصادية، وهذا يعني أن الحداثة تعني هنا التخلي عن الالتزامات والمبادئ الوطنية والاندماج الوهمي في العالمية والاقتصادية والشركات المتعددة الأجناس.

وهكذا لم تثر دهشة النظام التدهور المتواصل للقوة الشرائية، وتهميش الفئات الشعبية وإخراجهم من دائرة الفكرة الوطنية إلى دائرة العدم الاجتماعي، طالما تحقق الهدف المزعوم ألا وهو الفعالية الاقتصادية.

لقد مارس هذا النظام العنف في الاقتصاد إضافة إلى العنف الروحي والأخلاقي والثقافي ضد الشعب ومبادئه الوطنية، لذلك نما إرهاب الدولة وبصورة على الطبقات الشعبية والقومية والقوى الاشتراكية. لقد وضعت هذه الدولة في خدمة القطط السمان، وهكذا تكونت تحت سقفها طبقة السماسرة ونمت وتكاثرت رأسمالية المضاربة غير المنتجة القائمة على تجميع الثروات بالطرق غير القانونية وتوسعت دائرة العمل الطفيلي وغير المنهج، وهذا ما يفسر نمو اقتصاد الحرشفة والتجارة الصغيرة وعلاقات التبادل الجزأ الذي يهدف إلى خلق آلية توزيع بسيط للثروة القليلة التداول وفي الأوساط الشعبية، وفي موازاة هذا الاقتصاد الكفاف نما برنامج توزيع المنافع والخدمات كوسيلة رئيسية لتوسيع القاعدة الاجتماعية للحكم ورشوة النخب الوطنية وشق الطبقات الشعبية من خلال بناء هامش من الربائية كجذب عناصر المعارضة النشطة وتأمين التحالفات الطائفية والفئوية والعائلية في مواجهة بحر الفقر المتزايد.

وفي الحقيقة إذا كان الفكر السياسي العربي أجرى تصنيفاته السابقة على السلطة العربية المعاصرة، منطلقاً في ذلك من الخصائص الذاتية لكل سلطة، إذا كان الأمر كذلك فالمعطيات القائمة تملي على العقل المعرفي الحديث عن ظاهرة للسلطة العربية الراهنة واحدة ووحيدة مظهراً وجوهراً، بعد أن تحللت هذه السلطة من مشروعية الأهداف والمشروعية القانونية، وأن مبرر وجودها هو حفظ الأمن مفهوماً على إنه أمنها وسلامتها لا أمن الجماعة ومستقبلها، ولعل هذا السبب هو الذي حدانا للاقتصاد في الأعمال الوصفية السردية لعاهات وتشوهات هذه الظاهرة والجراحات اليومية التي تنتجها والغصات التي يتجرعها على يدها شعبنا العربي ساعة فساعة.

ويمكن القول إن تلك الظاهرة انكفأت إلى مرحلة السلطة الشخصية التي تدوب في شخص الحاكم، وتتوقف على إرادته وتعبر عن نزواته بعيداً عن الإحاطة بالمعطيات الموضوعية لتأسيس السلطة، وهذا ما يفسر إنتاجها للشعارات الدينية وضروب الشعوذة وتفنها بالرموز، من أجل إيجاد قناعة ميكانيكية بقيمتها المزيفة البعيدة عن العقلنة الموضوعية المعرفية للحقائق الإنسانية والقومية والاجتماعية. على هذا الأساس فنحن حيال أكثر من إشكالية وليدة فعل هذه السلطة، وهذه الإشكاليات تنتظر حلاً حاسماً، ونحن معنون بالتعامل معها، هكذا يقتضي السؤال عن أسباب أزمة السلطة العربية والشرط التاريخي الذي أنتجها ...

وحقيقة الأمر أن هنالك أكثر من سبب من ذلك الحديث عن الفاعل الانثربولوجي المتمثل في عطالة البنى والنظم المعرفية والثقافية القديمة وسلبيتها ومقاومتها للتحديث وعقلنة الحياة.

ومن ذلك القول يتصدر التغريب، وتحكم قيمه في بعض النخب الاجتماعية التي احتكرت بالقوة والخديعة مراكز السلطة وتآكل استقلالها الروحي وتخليها عن الهوية والذات.

وفي الحقيقة يمكن الحديث عن بعض المقاومة لفكرة التحديث من البنى التاريخية، ولكن من الصعب التأكيد بأن إخفاق السلطة العربية مرده مقاومة تلك البنى، وبالعكس فالتقدم الحقيقي كان دائماً موضع تأييد الشعب، وكان ذلك الرهان التاريخي للخروج من هوة التخلف والجمود والذل، ومن ثم فإن حظ التحديث من التأييد كان على قدر حظه من المصادقية والفعالية، وإن جميع صور الاحتجاج على السلطة دفاعاً عن الهوية لم ينصب على التحديث الحقيقي، وإنما

على التغريب والتفريق الباهت الفاسد البعيد عن جوهر الحياة في العدالة  
والمساواة والتقدم والكرامة الإنسانية.

ولقد رد بعضهم أزمة السلطة إلى نمو قوى الاحتجاج الاجتماعية  
والسياسية، ولكن أليست الدولة كمهمة تاريخية هي الكابح والمحرك لتحقيق هذا  
التوازن في الحياة والمجتمع عن طريق امتياح جرعات وأفعال جديدة من المعارضة  
وحقنها في نسيج السلطة.

ولقد شدد بعضهم على فاعل الاستتباع العالمية الكبرى، والمشكلة الأساسية  
المطروحة بالنسبة لمصر في إطار هذه التبعية هي أن الدولة أخذت على عاتقها  
تدول البرجوازية الوطنية، وأن أزمة السلطة فيها لا تختلف عن تلك التي في دول  
أمريكا اللاتينية.

ولكن ما هو مصدر هذه الهشاشة التي تعانيتها السلطة تجاه التغريب وسطوة  
الفاعل الخارجي، وما هو منشأ هذه الإرادة التي تدفع الدولة للاندماج في النظام  
الرأسمالي العالمي، ثم ما هو أصل فقدانها لتوازنها وهويتها وهل هذه الظواهر علة  
أم نتيجة؟؟.

إن أزمة السلطة في نظرنا هي أزمة المشروع التاريخي العربي لتحقيق التقدم سواء  
من خلال استراتيجيات قومية أم وطنية، أي أزمة الحداثة بمعناها الموسع من حيث  
قراءتها للتاريخ العربي والعالمي، ثم ترجمة ذلك إلى وعي نهضوي فعال دون  
السقوط في الحداثة الحثالة التي عجزت عن توفير حاجات التنمية والسعادة  
والحرية وقيم التقدم والعقل.

لقد بينت الدولة شرعيتها على أساس التقدم التاريخي وإدماج مجتمعا في دورة  
الحضارة الإنسانية وليس السقوط في دولة الطبقة والحزب والمصلحة الخاصة.

ذلك أن السلطة التي تفتقر إلى المبدأ المعنوي تفقد روحها وتهبط إلى مستوى الآلة الصماء، وتتحول إلى ميكانيك مفترس متوحش ولا تستطيع أن تفرض نفسها بالطاعة والولاء، بل بالقوة والعطالة التاريخية.

إذاً فالتقدم وصنع الحياة هما مبرر قيام الدولة والاجتماع الوطني، وإن إخفاق السلطة العربية في تحقيق المواطنة بمقومها المادي والمعنوي هو الذي أدى إلى انهيار مشروعيتها وقضى على تحولها إلى مركز تمام وانخراط اجتماعي ومسؤولية عامة، وليس مصادرة نتائج التحديث من قبل الشرازم إلا الحادثة المسخ التي أنتجت الدولة المسخ.

لقد ضخمت السلطة العربية أجهزة القمع ووسائله وكرست المفهوم السوقي والاستهلاكي للمشروع التحديثي مما أدى إلى هدمها كمفهوم قانوني وسياسي عام، وحولها من إطار انضاج السياسات الوطنية العقلانية، وتنمية مفهوم المسؤولية والخدمة الاجتماعية، وتسهيل التواصل الإنساني، حولهما إلى الاستتباع الشخصي الذي ينخر مفهوم السياسية وينسف دعائم التجذر الحضاري.

وحقيقة الأمر أنه لا بد في كل سلطة من التمييز بين شرعية الأهداف وشرعية الوسائل، فقد تكون الوسيلة غير مشروعة، ولكنها تستهدف أهدافاً كبيرة كما حدث في نهضة اليابان، ولكن الأمر على خطورته عندما تفتقر الدولة إلى الشرعيتين، عندئذ يأخذ استخفافها بشعبها طابعاً مضاعفاً وسيلة وغاية، وهذا ما يفسر لنا كيف أن الشعور الشديد بالقطيعة بين السلطة العربية والمجتمع لم تبرز في مرحلة النهوض الوطني والقومي عندما كانت أهداف الجماهير تتواكب مع أهداف السلطة.

وما ساهم في عدم مصداقية هذه السلطة طابعها القطري، فقد نظرت إليها الجماهير على أنها خطوة لتحقيق دولة الأمة، وهكذا فإن إخفاقها في المصير

الوحدوي أضعف الولاء الروحي بها والثقة في مصداقيتها وصار ينظر إليها على أنها دولة إدارية ووظيفية واقتصادية أكثر منها سياسية.

لقد فهمت على أنها الثأر من الماضي والانعكاس الصادق لإرادة الأمة في التحرر والاستقلال والوحدة، ولكن هذه النظرة تغيرت فإذا بها العقبة الرئيسية أمام التقدم والوحش الذي يفتال الحريات.

وقد فاقم في إفلاسها وانحطاط مفهومها أنها أصبحت الأداة العمياء لسياسات تملى عليها من قبل مجموعات المصالح أو مجموعات الضغط من خارج الدولة ذاتها.

وعلى هذا فإن تفاقم علل السلطة السياسية هو وليد عطالتها وانهايار مشروعها الوطني المجسد لحركة التقدم والتحديث العام وربط الجماعات المهمشة بالحضارة والتاريخ وتعليه القيم الإنسانية المحركة والدافعة للمبادرة والعمل، وإن ما طرأ على فكرة التنظيم من انحطاط جعل الرقابة المخبراتية والسيطرة العسكرية يحلان محل مفهوم تنظيم الإرادات الفردية وتنسيق نشاطاتها كما جعل البيروقراطية أداة استنزاف وتدمير بدلاً من توليد المصلحة العامة وتركيز مفهومها وأولويتها...

نقول أداة تدمير المصلحة العامة لتحقيق المصالح الخاصة وتعظيم القوة التبذيرية مجارة للتغريب.

لقد أصبح التقدم تدميراً واستلاباً اجتماعياً وحضارياً بدل أن يكون حافزاً للتعبئة الجماعية وخلق الروح التفاؤلية والإيجابية توحيد الرؤية الإنسانية وإحياء التربية الأخلاقية.



كذلك فإن تدويل المصير الوطني وتقويمه بفعل تعاضم الاستراتيجية العالمية أدى إلى تلغيم السلطة الوطنية وتفكيك استقلالها الذاتي، وتجويها سياسياً وثقافياً وحرمانها من القدرة على بناء تاريخيتها وتسريع وتيرة سير حركتها .  
وحقيقة الأمر أن انهيار المشروع الوطني في قسم كبير منه ولید تناقضات الدول الصناعية الكبرى وسيطرتها المطلقة على مقررات العالم ورفضها تعديل الخريطة الراهنة لتقسيم العمل الدولي، ومن ثم فهذا التفوق المطلق هو مصدر عام لتعثر التنمية إن لم نقل للاختناق المهم الذي يعانيه العالم الثالث، يضاف إلى ذلك الإفساد المنظم للنخبات الاجتماعية الحاكمة في تعويق التنمية واستنزاف ثروات الوطن عن طريق تصدير الرساميل وتهريبها، وبالطبع فهذا العامل الخارجي ما كان له أن يحدث آثاره السلبية لولا ضعف الروح الوطنية وهشاشة بنى السلطة وأجهزتها .

وعلينا أن لا ننسى الدور الذي لعبه العدو الصهيوني في استنزاف اقتصادنا لصالح شراء السلاح، وما يتفرع على ذلك من نتائج عميقة على حياة أمتنا، وإن إخفاق الدول العربية في إيجاد حل للمسألة الفلسطينية حط من هيبة هذه الدول وأضعف شرعيتها، هذا فضلاً عن انهيار التوازن في العلاقات العربية، وما نجم عن ذلك من نمو خطير للصراعات العربية، ونحن لا نجد تفسيراً لهذه النزوات من قبل بعد الدول العربية من أجل تقبيل أقلام العدو الصهيوني، لا نجد تفسيراً لذلك إلا في آية الانسلاخ القرآنية التي تصور الانسلاخ عن آيات الله وهي هنا حقوق الأمة كالكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

وهناك الدور السلبي المدمر التخريبي للربيع النفطي أخلاقياً واقتصادياً وسياسياً وحضارياً وانعكاساته على آليات السوق ونوعية الاستثمارات والشهرة الاستهلاكي والاعتماد بكثافة على التقنيات المستوردة بعيداً عن الإبداع والبحث عن الأبهة

وتبني المشاريع الضخمة المطلقة المرتبطة بمشاعر جنون العظمة لا بالمردود الاقتصادي وانعكاس ذلك على منظومة القيم وتكوين العقلية، وتبديل سلوك الأفراد وتوجهاتهم، وتعديل القوى داخل المجتمع لصالح السلطة المتحكمة بالريع والمعاملة على توزيعه، ولقد زاد الطين بلة الشراء الضخم للأسلحة وتكديسها، وليس ذلك من أجل الأمن العربي، وإنما استجابة لقلق السلطة على أمتها الخاص. وهناك العامل المدمر لتحول الدولة في اتجاه خدمة المصالح الخاصة بصفته التجسيد الرئيس لكل انحراف، وانحطاط هياكلها وخلق القطيعة بينها وبين المجتمع وهنا نجد العصبية الجزئية المنبثقة من رقادها، تجد في هذا الإفساد المعين الذي لا ينضب لمصالحها وأنانيتها، ومن جهة أخرى فإن غياب الفاعل السياسي كحمة ثقافية واجتماعية يفسح المجال لإعادة الاعتبار لأنماط التنظيم الثانوية ولشحنة العصبية والتضامات التقليدية التي تقود إلى انتشار الفوضى العامة وزعزعة أمن الجماعة والسلطة نفسها.

وبصورة عامة فالسبب الأعمق لفساد القيم وانهايار المشروع المرتبط بها، هو إرهاب السلطة بمصدره البنيوي والتاريخي والمظهر الواضح لذلك نمو السلطان الكلي للدولة وافتراسها لآليات المجتمع المدني متموضعة في قلب العملية التاريخية، بحيث أصبحت مبرر وجود الجماعة، وتمتلك كافة تلايبب المجتمع، فإذا بني المجتمع المدني وتوازنته تتفكك، لتنمو مقابل ذلك أجهزتها المفرغة من أية عقيدة أو ثقافة اجتماعية وطنية أو قومية، وإذا بالمجتمع يتماهى في الدولة وينتسب إليها خلافاً للأصل العام لطبائع الأشياء، وإذا بهذه الدولة تعجز عن إنتاج المجتمع لتنتج نفسها وتستمد شرعيتها من ذاتها، وإذا بالسلطة تتهرب من أية مشاركة فعلية بالحكم وتفسر أي اقتراع أو شورى بأنه مناورة واعتداء على سلطانها.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل يجب أن تواجه العقيدة المغلقة للسلطة، بالعقيدة التمردية للمعارضة؟

لا ريب أن قوة الدولة في قوة المجتمع، وأن سوسولوجيا اليوم هي سياسة الغد، وأن الماء المهيمن لا بد له من قرار مكين، وأن الشجرة التي فرعها في السماء يجب أن يكون لها أصل ثابت في الأرض.

وعلى هذا فالمجتمع المدني يجب أن يكون صلب المراس ومصدر قوته الاندماج والحركة والتفاعل وتنظيمه لنفسه بنفسه.

ونعتقد أن عدم نضج المجتمع المدني يفسر عدم نضج المعارضة السياسية وعدم قدرتها على الإجابة عن سؤال هام هو كيف أجمع لا أطرح كيف أءتلف لا أءتلف، وعلى هذا يجب أن تستوحي من تاريخنا المشرق التضامن في الوطن الحي، وليس الحديث عن فكرة الفرقة الناجية أو الفرق بين الفرق وغير ذلك من مظاهر المرذمة والتناثر.

وفي ضوء ما تقدم لا يجوز أن يكون هم المعارضة بناء الاستراتيجيات النقيضة من أجل إفشال الدولة وإحباط إرادتها والتقنن في تخريب عملها وضرب مصداقيتها، لا سيما أن أي سلب ينعكس في النتيجة على الأمة ذاتها وعلى السلطة.

ذلك أن السياسية هي المكوك الذي ينسج ما هو مشترك والاسمنت الذي يجمع الشتات ولا مبرر للمعارضة بأن تعرض عن كلمة السواء على الأقل فيما بينهما. ويجب أن لا ننسى افتقارنا إلى المثقفين العضويين الملتحمين بآمال تطلعات الأمة، وبالمقابل الدور السلبي للمثقف في حرق البخور للسلطان والرقص على أنغام طبوله وتبرير تصرفاته.

هكذا يمكن القول إنه من الصعوبة تجاوز أزمنا الراهنة دون تحليل التحولات العميقة للحركة الاجتماعية التي ساهمت في بلورة روح الدولة ومنطقها وخلق القطيعة بينها وبين المجتمع.

ومع ذلك فهذا لا يعني أننا نحمل المجتمع والمعارضة كل مسؤولية، بل إن هذا التناقض بين المجتمع والدولة ما كان له أن يكون كذلك لو لم تحتل السلطة هذه المكانة الاستثنائية في عملية التوازنات الاجتماعية، وفي مقدمة ذلك التوازن المادي الذي يمس صميم حياة الفرد.

ومن الطبيعي إذاً أن يقود هذا الخلل الاقتصادي والمعنوي والثقافي في حياة الفرد إلى عتالة عمليات الدمج والانصهار الوطنية واضطراب اتخاذ القرارات على كافة المستويات، وبالتالي فإن مسألة التماهي بين الأمة والدولة هي أحد الوجوه البارزة لأزمة السلطة السياسية بوصفها مبدأ تنظيم وعقلنة وعقيدة استراتيجية لصالح المجتمع، لا سيما أن هذه السلطة تغولت على كافة العمليات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وبالمقابل فإن افتقار المجتمع المدني لاستقلاله الذاتي لا يفسح المجال لبناء منطلق الأمة العام وتصورها للوجود وفلسفة حياتها وتراثها وقيمها العامة ومنظومة سلوكها.

وفي الحقيقة إن ضيق حقل المبادرة المفتوح أمام القوة المجتمعية العربية الفاعلة وضائلة رهاناتها وفرصتها لمصوغ استراتيجيات التعبير وفك حصار السلطة لها،

هذا الأمر هو الرهان الأول لأي مشروع عربي نهضوي منشود لا سيما أن هنالك أموراً من صميم فاعلية القوة المجتمعية كالقيم الثقافية والروحية والأدبية والجمالية التي تشكل الهوية والذات، وهذه الروافع الحضارية هي القلعة الحصينة لمقاومة التغريب والتطبيع والغزو الثقافى الذي يحاصر الأمة ويمسك بتلابيبها .

وتأسيساً على كل ما ذكرناه، فمن الصعب فهم فساد السلطة العربية دون تحليل مسارين متميزين هما مسار تطور الدولة القيمي والتنظيمي المتكون تاريخياً، ثم مسار تطور القوة السياسية والنخبة الفاعلة المتحكمة بأساليب استخدام الدولة وتوظيفها .

ومما لا شك فيه أن البنية العميقة للسلطة العربية يجسد استعدادها للاستبداد، ومن جهة أخرى فالقوة السياسية الاجتماعية التي تناوبت عليها وعقيدتها وطبيعتها علاقاتها بالمجتمع ومصالحها الخاصة هي التي تحدد وجهة عملها ويفسر التغيير العميق الذي طرأ على توجهها .

وإذا ما تأملنا في هذه السلطة وجدنا أنها لم تتبدل في مستوى تجهيزاتها وبنيتها التقنية والتنظيمية منذ قيامها، كما أنها لم تتغير في مستوى أخلاقيتها والقيم التي تستمد منها وعبئها لذاتها وتوجهها التاريخي، والذي تغير هو البرامج السياسية التي تنفذها والمتراوحة بين النهوض الاقتصادي الشامل أو الاقتصاد على تقديم بعض الخدمات .

وعلى هذا فإذا كانت القوة المحركة التي تجسدها أجهزة الجيش والمخابرات تشكل الأساس الأعمق الذي يضمن شروط بقائها واستمرارها فإن التجربة الخاصة والعوامل المحلية في كل قطر لا تعدو أن تكون مظهراً خاصاً لا يرقى إلى مرقى الماهية والجوهر، ومن ثم فإن بنيتها الأساسية لا تتغير مع تغير النظام وسواء أعلق الأمر بالنظم الملكية أم الجمهورية...

وهذا المبدأ باختصار هو: لا مكان لحقل متميز وخاص للعمل السياسي ولا مكان للمعارضة وتداول السلطة، وما الواجهات المتعددة الشكل في بعض النظم إلا مناورة ومحاولة لإرضاء الرأي العام الدولي أكثر منها توسيعاً فعلياً للمشاركة السياسية .

إن السياسة هي معانقة الأمور عند المنبع، والسؤال المطروح هو: هل يحق للمعارضة أن تتعامل مع السياسة عند المنبع وفي سقفها الأعلى؟<sup>٩٩</sup>. وهكذا فالحل العميق الذي ينتاب هذا السلطة يكمن في تكوينها وبنيتها، إنها سلطة كليانية مطلقة وتعسفية حتى ولو أرادت أن تكون غير ذلك، وما تكابده اليوم وليد أزمة تلك السلطة، ومن الطبيعي أن تكشف هذه الأزمة فساد بنيتها التي كانت تطغى عليها الخطابات العقائدية والآمال والأوهام الاجتماعية العديدة، وإن معالم عجزها عن الانجاز وافتقارها إلى الآليات التي تسمح لها بتعديل نمط اشتغالها من تلقاء نفسها قد دمر الإيمان بها، وجعل من كل إجراء تتخذه قهراً لا مبرر له، وهذا هو مأزق تلك السلطة والانسداد والانحباس الذي ولدته على صعيد الصيرورة الاجتماعية الراهنة.

هكذا أكد "عبد الباقي الهرماسي" أن الدولة العربية الغربية على تعددها محكومة بنسق خاص، إذ نجد الزعيم أو الحاكم الفردي يحتل مكاناً فردياً فالحكم أوتوقراطي وكل شيء بما في ذلك النخب والتمثيل والفعالية - نابع ومرتبطة بهذه الظاهرة- أما السمة الثانية فهي أن تشريك النخب السياسية يقع على قاعدة الجلب، أو ما يسمى بالتزكية التي تنطبق على أهل الولاء أكثر مما تنطبق على أهل الكفاءة، أما السمة الثالثة فهي تدور حول طبيعة الانتخابات التي كثيراً ما تأخذ شكل الاستفتاء، إن تنظيم طريقة تقنن بها تزكية القرارات المتخذة من القمة.

وخلاصة ما يمكن قوله في هذه السلطة إنها تعسفية، ولكن ليس لخدمة العدل والاستقرار كما في الدولة الاستبدادية التقليدية بل لأن التعسف دستورها وجوهرها، وهذا ما يتضح من تعليقها للدستور أو تجاهله، بل إن انهيار التوازنات الداخلية والتضامانات الوطنية ناجمة عن إخفاق تلك السلطة ذاتها في إنتاج الأمة وعجزها عن السيطرة على واقعها والتحكم بالمجتمع، وهذا ما يفسر إضاعتها للمكتسبات العديدة التي حققها المجتمع في كافة الميادين في العقود الأخيرة بعد فشل مشروع التنمية كمحور للبناء الوطني، وها نحن نسمع بين الفينة والأخرى استهتارها بالقطاع العام وتصفيته.

والخلاصة إن إخفاق إنجاز الأمة - بما هي مطابقة بين السلطة والجماعة، بين الهياكل والمؤسسات السياسية من جهة والقيم الاجتماعية من جهة أخرى، بين السلطة المعنوية والسلطة المادية، بين الشخصية الطامحة لتجسيد آمال المستقبل والهوية المعبرة عن عطالة الماضي على المستوى العربي الشامل، وداخل كل قطر-، كل ذلك ليس إلا أحد مظاهر الاستلاب الثقافى والحضارى الأعمق الذي أنتجته حادثة هزيلة وغير متمكنة من أهدافها وآلياتها .

كذلك فإن ضعف الفكر السياسى العربى سلطة ومعارضة، هو سبب هجر الجمهور للسياسة التى لم تعد تشكل رهاناً حقيقياً وجذاباً للأجيال الشابة، وبالطبع دون أن يعنى ذلك افتقار الجمهور العربى للروح المدنية أو الاهتمام بالشأن العام، لطالما أن تلك السياسية لم تعد تشكل استثماراً عقلانياً مجدياً، ورهاناً حضارياً واعداً .

ويمكن القول إن السياسة العربية سلطة ومعارضة أخفقت فى بلورة استراتيجيات بناء الذات الإنسانية أى المواطن العربى كحامل حضارى وناهض ودينامو لتفجير طاقات الأمة .

ومن الواضح إن هذا البناء ليس من التماسك والتوازن والعمق المطلوب الذى يسمح للفرد العادى فى الاضطلاع بالمشروع النهضوى العربى، وهذا هو سر تفشى ظاهرة الاستلاب والانحلال، لا سيما بين ظهراى العناصر الشابة، واقتران ذلك بظواهر العنف التى تملأ فضاء وطننا العربى، والتى مردها الخلل العميق فى النسيج الاجتماعى، ومن ثم الافتقار إلى أواليات الدمج وعرى الاتصال وعروق التوحد وشرايين الصهر واحترام الإنسان كقيمة عليا وغاية فى ذاتها لا كوسيلة ومطية يمتطئها الحاكم لمصلحته الخاصة، وهذا ما يفسر لنا أيضاً مراجعة مسائل الهوية والخصوصية التاريخية كعامل تميز وإثراء لمفهوم العالمية .

ولا يغيب عن الذهن أن تصور الجماعة لنفسها وذاتها والصورة التى تصوغها عن عالمها وجدلها مع الطبيعة والسلطة والحياة، ووتيرة حركتها النظرية والعملية العميقة وارثها الحضارى، ومخيلتها التاريخية والقيم الإنسانية التى تجسد ماضيها وحاضرها ومنطقها العام وصيغتها الشعبية ومناطقها وشرفها الروحي

وحماستها، وجزائها الأخلاقي وتكاملتها المهيبة وأساس عزائها وتبريرها الشامل وعبيرها الروحي، كل ذلك يشكل الميكانزمات التي لا غنى لنا عنها في مصيرنا الحضاري، وهي في الوقت نفسه أمور لا يمكن التخلي عنها أو عولمتها، ولا بد من إنجازها، وهي تشكل رهانات السلطة الثقافية التي يجب أن تتجزها بعيداً عن عنفات الإيديولوجيا وصراعات القوى، والأنايات الخاصة استشرافاً واستبصاراً ينسق خاص وماهية معينة تتصل جوهرياً بالأمة وبديمومتها واستمرارها ومقوماتها الأساسية، وهذه الأمور تشكل حقلاً خاصاً من متعلقات المثقفين العضويين وسلطتهم المعنوية التي تتأبى السقوط في دوامة الصراع حول السلطة.

وفضلاً عن ذلك فإن ما نعانیه من عجز وإفلاس وتجاهل مقصود من قبل السلطة العربية في هذا المجال هو الذي يفسر لنا إحساس المواطن العربي الساحق بالألم الميرير والشعور بالعار والذل والبؤس، وهو في الوقت نفسه يولد شعوراً جياشاً بالثار من الكرامة المطعونة والشرف المهان.

## وعينا للسلطة

### مشروع ميثاق عربي للسلطة

مما لا ريب فيه أنه لا قيمة للعلم إذا لم ينتج وعياً يحيط بمبادرات الأمة وحقائقها، ويعاني همومها وآلامها وتطلعاتها مصداقاً لقول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب: ((ماذا يعنيني من أمر هذه الأمة إذا كان لا يهمني ما يهمها)).

لذلك فالعلم يجب أن يقودنا إلى الاستشراف (الوعي)، والاستشراف يقودنا إلى تكوين الإرادة السياسية، وتكوين هذه الإرادة المحمولة على المعرفة، يجعلنا نمتلك القدرة وناصية المستقبل.

وفي نظرنا أن السلطة تمثل ذروة شاهقة من ذرى حياتنا العربية، وبالمقابل فالنظرية السياسية العربية تفتقر إلى الكثير من الأدبيات التي تفكك عرى هذه



السلطة، وتحفر طبقاتها وتحث حقلها من أجل الاستبصار بآلياتها إرهاساً لتوجيهها والسيطرة عليها وامتلاك قدرتها .

ومن جهة أخرى فهذه الأدبيات تكثر الحديث عن الديمقراطية والحرية، مع العلم أنه لا يمكن استقصاء هاتين الظاهرتين إلا من خلال جدلهما مع السلطة .

لجماع ما تقدم فعلى العقل العربي أن يبني قناعته على أرض صلبة رصينة هي عدم الثقة بالسلطة الراهنة في تدبير أوضاعنا من أجل القيام بدور إنهاضي وحضاري مرتجى، ومصدر عدم الثقة هذا هو ركافة تلك السلطة وانحطاطها وفشلها في إبداع الأمة وحماية الأرض والعرض وتحقيق خيارنا الحضاري وتوطيد هوية الأمة وإنجاز الوحدة الوطنية، وتوطين الذات الإنسانية وتعزيزها وازدهارها، بل على النقيض من ذلك، فقد خلقت من هذه المطالب العريضة إشكالات حادة وعميقة في منظومة حياتنا .

وإذا كانت السلطة المذكورة قد تعاملت «إبان نهضتنا» منهجياً من النظام كأساس للتقدم متعددة في ذلك على الفاعل القاعدي الشكلي النظري المجرد، وبالمقابل إذا اعتبرت التقدم أساس النظام منطلقة في ذلك من اعتبارات سياسية صرف متحللة من الفاعل القاعدي (القانون)، إذا كان الأمر كذلك فالسلطة العربية الراهنة خرجت عن حدود واجبها العام خروجاً جسيماً *grossier* وفاضحاً *flagrant* الأمر الذي يخرجها من دائرة أي منهج معرفي إنساني أو مبدأ سياسي يتيح لها أن تنتج المعنى والقيمة، وبالمقابل فإن رهاناتها هبطت بها إلى مهاوي المصالح الذاتية الصرف بصورة يتعذر معها وزن تصرفاتها بأي معيار أدبي أو خلقي أو إنساني أو وطني، وبالتالي يجعلنا نثمنها على أنها لا تعدو أن تكون فعلاً مادياً *soie de fuit* منسلخاً متحللاً من القيمة، وفي الوقت نفسه يدخلها عبثياً في مسرح اللامعقول واللامنطق .

لقد ألحقت هذه السلطة العمل السياسي بمبدأ غير سياسي، واستتبعته بكفيل أو ضامن ميتاسياسي، وإحاطته بسياج دوغمائي كلياني، قاصرة إياه على نفسها، جاعلة منه شيئاً متعالياً مخصوصاً محرماً على الشعب، في حين أنه ليس للسياسة معنى سوى وضع الاختيار الإرادي الحر للحياة المجتمعية فوق كل اعتبار مقصوداً من ذلك إرادة كل إنسان عربي وحق كل إنسان عربي.

وفي نظرنا إن هذا الحرمان التحريم هو لب مشكلة السلطة العربية وجوهرها، وإنه من المتعذر الحديث عن أزمة سلطة إلا من خلال جدليته مع الشعب بألية الأواني المستطرقة، وبالتالي فأى هبوط في قطب الشعب يقابله بالقدر المتيقن المماثل صعود قطب السلطة والعكس، والمسألة أولاً وأخيراً هي إعادة التوازن المفقود لنظرية التوازن في الفعاليات وتأسيس منظومة حياتنا وانساقها تأسيساً جديداً بحيث يحتل الشعب دوره المفقود في قلب هذه المنظومة ونواتها النووية، وبحيث يعاد بناء علاقات الحياة على هذا التأسيس الجديد.

ولا حاجة للتأكيد أن مبدأ الأمة ومذهبها إذا كان يفترض به أن يقوم على أساس وعي جماهيري عام برهانات حضارية باذخة، إذا كان الأمر كذلك، فهو في الوقت نفسه مسألة حركية ماثلة كلما كان هنالك حقوق واعترافات بها، وكلما كان هنالك سعي للحرية واعتراف بها.

وبالطبع فإننا هنا لا نؤصل هنا لنظرية مشروع إنهاضي للأمة العربية يقوم على الحقوق الأساسية للمواطن وحياته العامة، ويستشرف خيارنا الحضاري، ويؤسس لفاعليته، ويبني مجتمع المؤسسات، ويوطد المجتمع المدني وحيثته وحركيته ووحدته، ويدلل بدينامو الشرارة الإلاهية والمحورية الأخلاقية.

أجل نحن لا نؤصل لهذا المشروع، وإن كنا نعانق ذروة هامة من ذرى هذا المشروع النهضوي الا وهي ذروة السلطة وتأسيسها وإعادتها إلى حضن حقيقتها، وفي هذا الصدد فلا محيص لنا من نظرية التأسيس التي ألمحنا إليها في مقدمة هذه المداخلة، بحيث لا يمكن فهم السلطة العربية ومعانة شؤونها إلا في إطار ميثاق عربي اجتماعي تتحدد عناصره فيما يلي:

## الحقوق الأساسية للفرد

لقد مضى على المواطن العربي حين من الدهر وصخرة السلطة تنقض ظهره وتبهظ حياته بالقهر والظلم والحرمان، لذلك فلا محيص من تمتعه بكافة الحقوق الأساسية المرتبطة بآدميته والتي هي جزء ماهيته، وبالتالي فإن تجريدَه منها تعطيل لهذه الآدمية والحيولة دون مساهمتها في التقدم والحياة. وتشمل هذه الحقوق، حقه في الحياة وصونها واحترام كرامتها، وصونه في سره وأمنه وحرية العامة كأساس لإبداعه وإطلاق طاقاته.

زد على ذلك بالفقر والجهل والعوز تشب أظفارها في جسم المواطن العربي، نتيجة لظروف تاريخية واجتماعية معينة، لذلك فالعدل يدعو إلى مساعدة هذا الإنسان حتى يستطيع أن يرفع رأسه ويساهم في بناء هذا الوطن، ويكون التقدم حينها عمل سياسي إرادي نهضوي كفاحي لتحقيق انتصارات قانونية في حقل الحقوق الاجتماعية.

إن إطلاق يد السلطة وعدم تأطيرها بالفاعلية القانونية، يجعلها تنزلق إلى مهاوي الاستعلاء والمركزية والاستبداد والوقوع في هوة الذات، لا سيما إن التقدم عنصر من عناصر الخبير العام على ما هو مقرر في فقه القانون العام، ومع التحفظ بأن هذا التقدم ليس بالضرورة أن يكون وليداً لإرادة السياسية النخبة أو الكاريزما، بل هو كفاح شعبي من أجل القانون، وكم هي القوانين العظيمة التي تحققت بانتصارات شعبية عظيمة، لا سيما أن المقدس الوحيد هو الشعب ولا كاريزما إله، لا سيما أن الحقوق التي جاءت على يد انتصارات قانونية شعبية كانت أكثر رسوخاً وتجذراً من الحقوق التي جاءت من الأعلى بفعل عمل سلطوي.

تأسيساً على ما تقدم فإن أي تأسيس قانوني في مجتمعنا العربي إنما يجب أن يستهدف فلسفة الذات الإنسانية بحيث تتجه كتلة التشريع إلى احترام هذه الذات وتعليتها وبلورتها وتوطيدها وتوطينها وإعطائها حقوقها الأساسية النابعة من ماهيتها الإنسانية ومن سر وجودها وتقدمها مقصوداً من ذلك الحقوق الملتصقة بآدمية الإنسان إضافة إلى تحقيق العدل التوزيعي لتجذير الإنسان كوحدة أدبية ومقولة مجتمعية واقتصادية (هومو ايكونوميسست)، وليس كإنسان سياسي

فحسب، وذلك بأن يكون لهذا الإنسان حق معلوم متيقن في اقتصاد وطنه تمكيناً له بأن يمارس الحقوق السياسية ويساهم في الشأن العام والقوة بغير ذلك يعني أننا حيال مجرد مكناات قانونية عامة مجردة شكلية وباهتمام أو بمعنى أوضح كيف نزجه في سباق ماراتوني ونطلب منه الفوز، وهو مهشم العظام هزيل الجسم. وبالطبع فهذا يقودنا إلى السؤال الثاني وهو: كيف يمكن للإنسان العربي أن يكون ذات فاعلية مبدعة أصلية خلاقة إذا لم يتح له السيطرة على جهاز السلطة لإصلاح عطبها وأوجاعها وعاهاتها؟<sup>1</sup>

هكذا نكون في هذه المقدمة أرهصنا لنظريتنا موضوع الدراسة والتحليل ببعض الإرهاصات والاستشفافات كي نلتمس ونتلمس ونستشرق هذه الظاهرة ونقترح أبوابها وتحريث تربتها تمهيداً للقبض عليها ومعرفة جوهرها ووظيفتها ودورها في حياة الشعوب.

على أنه تجدر الإشارة إلى أننا نولي أهمية خاصة إلى السلطة السياسية المؤسسة في مجتمع حضاري مشروع منظم في ظل الشرعية وسيادة القانون، دون السلطة السياسية الفردية التي تندمج في شخص الحاكم وتندمج في إرادته وتتوقف على بقائه.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران/144.

وبيان ذلك أننا ندرس السلطة<sup>1</sup> كعنصر في المشروع الحضاري الانهاضي وهذا يكفي لتفسير اختبارنا للسلطة السياسية المشروعة، فهي خليفة رائدة حركية،

---

<sup>1</sup> - لا نكر أننا استعملنا في هذه المقدمة مفهوم سلطة ودولة بالمعنى الدارج والمتداول والعرفي لكن ليس بالمعنى القانوني المفهومي المحدد على صعيد العلوم، وسنرى أن الضبط والتحديد المفهومي سيجرد كثيراً من الدول العربية من معنى الدولة وشرحها في مفهوم الحكومة، فضلاً عن ذلك فإن هذه المقدمة إلى الخواطر السياسية النضالية، منها إلى التحديدات العلمية القاطعة والدقيقة والحاسمة.

تشق الصفوف كي تفصح عن إرادة الأمة وأهدافها وإبداعاتها، كل ذلك بألية القانون وشرفه ووسيلته، رائدها في ظل ذلك أن الوسيلة لا تقل أهميته عن الغاية، فهي تتكافأ شرفاً معها، وهي الوسيلة الأكفأ لبلوغ هذه الغاية.

هذه صورة مبسطة عن الحرية كجوهر وقيمة إنسانية ولكن الإنسانية استطاعت عبر الدموع والآلام أن تنقل الحرية من عالم المفاهيم والفكر إلى عالم القانون وأن تصوغ المبادئ العامة كثيرة من ذلك:

- الحرية علاقة اجتماعية.
- هذا العصر هو عصر الإنسان السيد بعد أن كان عصر الملك السيد.
- مشكلات السلطة والحرية معنى يتحدد بالسلطة.
- تجريد الإنسان من حريته يعني تجريده من أخلاقيته.
- يمتلك الإنسان الحرية عندما يمتلك حقوقه.
- للإنسان حقوق طبيعية وحرية طبيعية.
- استبعاد الفهم العضوي للمجتمع لصالح الرؤية الفردوية.
- الطبيعة تضع على الإنسان مسؤولية أن يدافع عن حريته.
- على كل إنسان أن يحافظ على حريته ومركزه الأدبي والإنساني.
- الأساسي العقلي لحقوق الإنسان وحرياته.
- الحرية تحدد واقعياً وجوهرياً.

القواعد التي تضبط الحرية تصدر عن الطبيعة الجوهرية للإنسان وهي تنظيم الحرية وتعلنها ولا تستطيع تعطيلها، وهذه القواعد تأخذ صفة القانون المجرد، ولا تتحقق الحرية إلا بقانون مجرد:

- عندما ينتهي القانون يبدأ الطغيان.
- النظرية الحرة تقوم على الحقوق الطبيعية.
- الديمقراطية أداة فنية للحرية فهي مجموعة الوسائل للتوفيق بين حرية الفرد والنظام السياسي.

- النظام الديمقراطي يعلن أن الحرية مثله الأعلى وأن الفرد أسمى قيمة لديه والسلطة وسيلة لحفظ حقوق الإنسان وحياته.
- ازدهار شخصية الإنسان أساس النظام الديمقراطي الحر.
- فكرة الحرية كامنة في الديمقراطية.
- الديمقراطية عقيدة المجتمع الحر وتفترض كرامة الإنسان.
- استحالة قيام نظام حر دون ديمقراطية واستحالة قيام نظام ديمقراطي دون مجتمع حر.
- لا يكفي القول بأن السيادة للشعب أو للأمة وإنما يجب أن يدرج ذلك في عداد حقوق الفرد وحياته.
- مصير الحرية يتوقف على قيام نظام ديمقراطي.
- كفالة الحرية ليست أساس نظام ديمقراطي شعبي حر، بل لاستمراره حراً.
- الفكر الديمقراطي يعتبر الحرية أساس النظام.
- المبدأ الديمقراطي ينظر إلى الحرية من زاوية الحرية.
- الحرية تعني استقلال الإنسان في وجوده المادي والروحي.
- السلطة تابعة للحرية والحرية تحولت من فكرة إلى حق.
- شروط إقامة الحرية: العقيدة السياسية - القوة المادية.
- النظام السياسي الديمقراطي - القاعدة القانونية.
- القاعدة القانونية حصن الحرية.
- الحريات بدون تنظيم وعود.
- النظام العام جزء ماهية الحرية والمقابلة بين الحرية والسلطة وليس بين الحرية والنظام العام، وهذا النظام العام شرط ممارسة الحرية والضامن لهذه الممارسة، وبالمقابل فإن تحديد النظام العام يعتمد على معنى الحرية.
- التفسير الاقتصادي المعاصر للحرية أما المفهوم الليبرالي فيقتصر على تحرير الإنسان من السلطة.
- الفكر الفوضوي ينكر كل سلطة.

- المفهوم الغاشي يقدر السلطة.
- حرية المعارضة هي الجانب الأصيل في الديمقراطية.
- الديمقراطية الاجتماعية تعتبر الحرية الاقتصادية الأساس ويتحقق ذلك بإخضاع النشاط الاجتماعي للحكام، وهذه الحرية لا تتحقق إلا بالكفاح، والاسم الحقيقي لهذه الحرية هو الخلاص liberation.
- الحقوق الاجتماعية تعني التهدة الاجتماعية وظهور مفهوم الأمن الاقتصادي.
- مبدأ الملاذ هو مبدأ لصالح المحكومين للدفاع عن حرياتهم وحقوقهم والحفاظ عليها.
- مبدأ أسبقية الحرية على الدولة ثم أولوية الحرية.
- يجب على الإنسان أن يبحث عن حريتين: تحرره من الدولة والتحرر من الانتماءات المجتمعية الضيقة.
- تنازع الحرية مع الأيديولوجيا.
- التطور ينقلنا من المجتمعات التراتبية الجماعية إلى المجتمعات الفردية.
- الثورة الفرنسية طرحت المبادئ الآتية: حرية- مساواة- إخاء.
- النفعية تعول على حرية الفرد.
- الديمقراطية هي التوفيق بين وحدة القانون، والتنوع الثقافي والحرية الشخصية.
- الديمقراطية هي الشروط المؤسساتية لحرية الذات.
- الحرية هي درع الديمقراطية، والديمقراطية هي شكل التعبير عن الحرية.
- الديمقراطية تقوم على خلق الذات رغم أسوأ الظروف.
- الديمقراطية تقوم على الهوية والادماج وتضع فوق ذلك الحرية والابداع والحقوق الشخصية.
- الديمقراطية تصل بين الفعالية التقنية والحرية السياسية والتسامح الثقافي والسعادة الشخصية وتصنع من ذلك كلاً واحداً.

- الديمقراطية هي التوفيق بين العقل الواسطي وتنوع الذاكرات الجمعية والتبادل والحرية.
- الديمقراطية لا تعني السلبية أي الضمانات الدستورية فحسب وإنما تعني خلق الذات والكينونة.
- الذات الفاعلة شرط الديمقراطية وهي حرية وتراث.
- حرية الذات في أوروبا هي حرية السوق.
- المؤمنون بالحرية الايجابية لا يؤمنون بالمفهوم المؤسسي للديمقراطية.
- العدالة هي التوفيق بين الحرية والمساواة.
- لا وجود للديمقراطية بدون حرية المجتمع وقواه الفاعلة.
- هدف المدنية انتصار الإنسان لا المواطن.

### حقوق الجماعات

لقد عانت أمتنا العربية من تمزيق الأوصال وتكسير العظام مما جعلها كثيرة التشردم والتناثر، وهي بالتالي في طور إعادة اللحم ومد العروق والشرايين والتخلق في إطار التعدد الثقافي، وبالتالي فإن أي تأسيس ديمقراطي إنما يجب أن يفسح المجال لهذه الثقافات لن تعانق الشأن العام من خلالها، والقول بغير ذلك يعني الوقوف في وجه النمو والتخلق وابتسار الأمة واختزالها باسم الإحالة إلى المقولات العامة وإلى الإرادة الكلية وإلى الشخص التاريخي والكائن الجماعي وغير ذلك من المقولات العامة مثل نظرية سيادة الأمة ككائن جوهري ماهياتي فوق التاريخ ويعلو على كل إرادة ويتجه في صيرورة فولاذية حتمية، ويتأبى الرضوخ لتموجات الحياة وتمتماتها.

وفي الواقع إذا كان في التوحيد قوة ففي التنوع قوة أخرى تضاف إلى قوة التوحيد وبالتالي فالقوة في الواقع وطبائع الأشياء ومعطيات الحياة، والخروج على طبائع الأشياء يعني الاصطدام مع قوتها وفي النتيجة الارتكاس في الفوت والموت والعدمية من خلال وعي متعثر وغير مطابق.



زد على ذلك فتقرير حقوق للجماعات أمر متفق مع مبادئ تاريخنا وينطلق من ضميرنا الجمعي، فهذا الضمير مؤسس قبل الإسلام وبعده على احترام الغير وثقافته وحقه في الوجود والحضارة العربية الإسلامية ليست إلا البوتقة التي صهرت وتفاعلت مع ثقافات القرون الوسطى في أخصب عملية انفتاح ثقافي على رياح الغير في حدود المحافظة على الذات.

وفي هذا الصدد فقد أبرز الأنثروبولوجي الفرنسي المرموق "لويس دومون" تمييزاً عميقاً بين حضارات كالمسيحية الغربية والهندوسية ميالة لإعطاء موقع أساس للفرد بين حضارات أخرى كالعربية الإسلامية توضح تماسك الجماعة في الصدارة، ومن ثم جاء استمرار الجماعات الطائفية والمذهبية والاثنية في ظل الدول الإسلامية المتعاقبة.

وعلى ضوء ما تقدم فالشرعية الدستورية العربية لا يفترض بها أن تقوم بالضرورة على أساس نظام الأكثرية الانتخابية لجسم سياسي موحد كالذي عرفته بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة، بل يمكن الأخذ بالديمقراطية التوافقية التي دلت بها العالم السياسي الهولندي "أرنندت ليبهارت" في عدد من الكتب الشيقة التي أسست لمدرسة أصبحت ذات شأن في العلوم السياسية.

وبداية إن الاعتراف للأقليات بحقوقهم يستتبع اعتراف الأقليات بقانون الأكثرية أولاً وبوحدة التربة وسلامة الوطن ثانياً وبالتالي فلا يجوز لهذه الأقليات أن تكون مفتونة بتأكيد هويتها والراديكالية الثقافية تتعارض مع الانتماء إلى أمة ومجتمع.

وفي هذا الصدد يقول "آلان تورين": ((إذا عمد الأفارقة الأمريكيون إلى تحديد أنفسهم قبل كل شيء بما هم كاثنون عليه، فكيف تحافظ الديمقراطية على نفسها ما دام هؤلاء لا يرون في المؤسسات إلا وسائل لخدمة نخبة مهيمنة))، هذه السياسة الثقافية تلتقي مع سلوكات القطيعة التي تنتهجها اليسارية السياسية - الانتخابات فخ لاصطياد المغفلين كما قال بعض الماويين والتروتسكيين عام 1968... إن هذا الشعار لم يعبر في فرنسا بشكل عام إلا عن الخوف اليساروي

من أكثرية محافظة عظيمة الحجم لكنه دفع البعض في ألمانيا وخاصة في إيطاليا إلى النشاط الإرهابي الذي لم يطاول الولايات المتحدة وفرنسا إلا جزئياً على كل حال فقد كانت هذه القطعية مع أكثرية معتبرة بمثابة المستلبة والمتلاعب بها خطراً يتهدد الديمقراطية التي تفترض ثقة معينة بتصويت الأكثرية... فالديمقراطية لا تتلاءم مع رفض الأقليات، لكنها لا تتلاءم أيضاً مع رفض الأكثرية من جانب الأقليات، ولا مع التأكيد على الثقافات المضادة والمجتمعات البديلة، التي لا تعود تجدد نفسها بموقفها التنازعي من المجتمع، بل برفضها لهذا المجتمع باعتباره مقولة الهيمنة... ينبغي للمرء إذاً أن يطرح بالقوة نفسها كلاً من الفهم اليعقوبي للمواطنة والتعددية الثقافية المتطرفة التي ترفض كل أشكال المواطنة..... ذلك أنه لا وجود للديمقراطية دون الاعتراف بحقل سياسي تعبر فيه التنازعات المجتمعية وتتخذ فيه «عبر تصويت الأكثرية» قرارات يفترض شرعيتها من جانب المجتمع ككل... إن الديمقراطية تستند إلى فكرة التنازع المجتمعي لكنها لا تتفق مع النقد الراديكالي للمجتمع بأسره ولا مع التعددية الثقافية المتطرفة ناهيك بالثورية التي كانت ترفض باسم نظرية متطرفة في التبعية كل نشاط جماهيري، ولا تؤمن إلا بالعنف ضد الدولة القومية المزيفة عميلة الامبريالية.

لقد حدد أحد المفكرين وظيفة الدولة بثلاث: الاندماج - التبادل -

الحماية.

والمقصود بالحماية بالطبع حماية المجتمع من الأخطار الخارجية أو الانشقاق الداخلي، أما الاندماج فهي وظيفة خلق ما هو مشترك من خلال المواطنة، وأخيراً فالتبادل يسوده الحرية والدولة هنا تقوم بالوظيفة الحارسة.

وحقيقة الأمر أن هنالك تنوع للمشكلات الاجتماعية ولا يجوز النظر إلى نشاطات المجتمع ككل أي أن هنالك حقولاً لا تستطيع الدولة أن تطأها فهي متروكة للمبادرات الفردية وتقوم على التعاقد الحر، من ذلك ملكوت السوق وأوالياته وتدخل الدولة في ذلك يعني التغول والتوحيد القسري للحياة بما يقود ذلك إلى الدولة التوتاليتارية.

على هذا الأساس يعتبر "آلان تورين" التمثيل ركناً أساسياً من الديمقراطية إذ يتساءل أليست الديمقراطية في جزء منها تنظيم القوة المجتمعية لنفسها وتحديد مطالبها ثم اختيار فاعلية السياسيين للدفاع عن هذه المطالب، هذا فضلاً عن أن التقدم الإنساني يقود إلى خلق تموجات وتضاعيف لا حصر لها للحياة الإنسانية، وهذا ما حدا الأمريكيين للتعريف بمجتمعهم بأنه أقرب إلى السيمفونية التاسعة لبتهوفن تعبيراً عن هذا الثراء المجتمعي وقد أحصى علماء الاجتماع عدد القوى الاجتماعية الفاعلة في أمريكا فوجدوا ما يزيد عن الستة آلاف من هذه البنى الوسيطة.

ولقد ظهر هذا الأمر أيضاً في بريطانيا وهو أساس ما سمي بالديمقراطية الصناعية أي تلك الديمقراطية القائمة على الاتفاق والتضامن والتفاوض بين أرباب العمل والعمال وهذا ما قاد إلى نشوء حزب العمال الذراع اليمنى للنقابات العمالية.

على هذا الأساس يدل الفقيه الفرنسي بوردو بانتصار الإنسان ذي الموقع المجتمعي المحدد، وليس ذلك الإنسان الكلي فحسب، بل الإنسان الملتصق كل الالتصاق بالواقع والذي تستجيب تطلعاته بأسرها للشروط التي هي شروطه بالذات ضمن المحيط الذي ينخرط فيه.... إنه إنسان ذو موقع محدد، وهذا ما أدى إلى طرح العلاقة بقوة بين الشأن السياسي والشأن المجتمعي.

أجل لقد رفع أحد المفكرين العرب عقيرته ضد من يندد بالوطنية، قال: ((شعاري الأخضر هو وطني جدار بيتي الحي الذي أسكن فيه مكتبي)).

وعلى هذا الأساس يؤكد "بوردو" مرة ثانية أن الديمقراطية السياسية أخذت في الآونة الأخيرة تتراجع لتحل محلها الديمقراطية المجتمعية وبالتالي فلا تستطيع المناذاة بجامعية حقوق الإنسان في وجه خصوصية الحقوق المجتمعية.

ومن ذلك يجب أن لا ننسى أن قوى السوق والقوة المجتمعية يسعيان إلى دفع طلباتهما إلى الحد الأقصى من خلال بلورة معاني وقيم خاصة تصل لهذه القوى الفاعلة، ومن ثم قسر المواطن وقولبته بنمط استهلاكي محدد، وهذا ما يؤدي

بالضرورة في حال التطرف إلى ضعفة المجتمع وتناثره وتشظيته إذا لم يوازن ذلك بروح المواطنة.

وهكذا يتضح أن الحدث السياسي يسمو على الحدث المجتمعي، وهذا الحدث الأخير يزود السياسي بمادته ولكنه يخضع للحدث الأول، والحدث السياسي يصب عليه عصارته الهاضمة ويخضعه إلى عملية انتقال لا تقل ميكانيكي آلي كما تعكس المرآة الضوء.

ولعل قوة المجتمع في تلك الصلة النابضة الحية بين المجتمع الاجتماعي والمجتمع السياسي.

فالمجتمع الاجتماعي المدني هو مجتمع الأهداف والقيم على حسب رأي "هيجل"، فهو يمثل حقل الانطلاق والتنافس والصراع، ولكن هذه الطلبات تتعامل وتلتقي وفي النهاية تتسق بفاعلية الآلية السياسية.

وعلى هذا الأساس فتقيد النائب بطلبات الناخبين، هذا التقيد لا يعتبر عملاً سياسياً وبالعكس عندما يستمع إلى هذه الطلبات ولكنه يصب عليه عصارته الهاضمة ليحولها إلى مادة جديدة تكون متأثرة بنقطة الانطلاق، ففي هذه الحال تكون حيال تمثيل انتخابي أي عمل سياسي.

وحقيقة الأمر أن البناء الفوقي (السياسية) ذات طبيعة مستقلة نسبياً عن الحقيقة الاجتماعية، أو بمعنى أدق أنها متميزة منها ولكنها غير منفصلة عنها.

وهكذا تتحدد حركة المجتمع بالآلية الآتية: المجتمع المدني يثور بالحركة، ويقذف هذه الحركة إلى المجال السياسي حيث يقوم هذا الحقل بإجراء التنسيق والاتساق فيما بينهما لينتهي إلى التوحيد أي لصنع الواحد من المتعدد وفي هذه اللحظة ينقلها إلى عالم القانون، وهذا العالم يتشوق بين الحين والآخر لجرعات الحركة يستقيها بالطريقة ذاتها من عالم السياسية، هذا العالم الذي يتحرك بالفاعلية المجتمعية وهذه هي جدلية الحركة والسكون التي ميزت العالم الديمقراطي الحر وحققت له الانتصار على عدوه عالم السوفييت الذي افترض تصوراً واحداً للحياة.

والخلاصة أن الديمقراطية في ثوبها القشيب أصبحت ذات مضمون ثقافي، صحيح أنها لا تتماهى في الاثنية أو المجتمعية ولا تقبل اختزال الجماعة السياسية إلى ملكوت السوق أو القوى الاجتماعية ولكنها سعي دؤوب للتوفيق بين دعاوى التعددية الثقافية والمذهب التوحيدي اليعقوبي.

بهذا المعنى نفهم الديمقراطية على أنها ليست ذوباناً في مجلول السوق، ومع ذلك فهي في حال تماس وتواصل دائم مع كل القوى الفاعلة، ومع ذلك كل صور العدالة. وبهذا المعنى نقول إن مبدأ السيادة الشعبية يرهص للديمقراطية شريطة ألا يفرض الصمت على أحد وإلا فهذا يقودنا إلى اليعقوبية وحمام الأغلبية.

وعلى هذا الأساس يحدد "آلان تورين" أبعاد الديمقراطية بما يلي: الحقوق الفردية+ الصفة التمثيلية + المواطنة + عدم جوهرية السلطة.

فالسمة التمثيلية نعبر عن المصالح الخاصة أما المواطنة فهي التعبير عن وحدة المجتمع.

فالديمقراطية إذاً تفترض وجود مسافة بين الحياة الخاصة وبين السلطة وصلة الوصل بين المجتمعين السياسي والمدني يتم عن طريق التمثيل، والمجتمع المدني أسبق من المجتمع السياسي أو هو الحامل له والذي يمهده بالميكانيزمات والنواهض، وهو الأمر الذي يتعامل مع فكرة الحق بمحمل الجد والأهمية وإعادة طرحها مرة بعد مرة من خلال القوى الاجتماعية التي تتمسك بها، وفي النتيجة فالدولة خادمة للمجتمع وليس العكس.

بهذا المعنى يعرف "آلان تورين" النظام السياسي بأنه الوسيط بين الدولة والمجتمع ومهمته بلورة وحدة المجتمع منطلقاً في ذلك من التنوع أي خلق الواحد من المتعدد. ذلك أن المجتمع المدني يحتوي على القوى الاقتصادية والاجتماعية التي تحركها قيم ثقافية وصلات مجتمعية، وهذه القيم كثيراً ما تكون في تنازع مفتوح وهنا يأتي النظام السياسي ليقوم بهذا الدور الموجه ومن ثم فالاعتراف باستقلال المجتمع المدني هو شرط قيام الديمقراطية وبهذا المعنى فالنظام السياسي لا يعدو أن يلعب دور السمسار أو الوسيط في عملية توحيد المجتمع، وهذا هو معنى

قبولهم بالأساس المجتمعي للسياسة ومعنى قبولهم إن الفرد لا يكون ديمقراطياً إلا آمن بالنمو الديمقراطي.

على هذا الأساس سقط المذهب الليبرالي في أوروبا بسبب مغالاته بحق كل جماعة بتحديد مصلحتها، وفي الوقت نفسه فقد سقط المذهب اليعقوبي والجمهوري ومذهب سيادة الشعب بسبب النقيض الذي اتخذه من مبدأ الليبرالية. أما مظاهر جدلية الديمقراطية وحركتها فتأخذ الأشكال الآتية: تنازع مفتوح - معارضة - تضامن - تسوية - توحيد.

وبهذه الآلية فالطلبات المتعددة والمتنازعة والمفككة والغامضة والواهنة تغدو كلاً واحداً صلب المراس والتماسك.

وهذا يعني أن هنالك حقلاً سياسياً معترفاً به من الجميع وفي هذا الحقل يتم اتخاذ القرارات وإنضاجها لصالح المجموع، وبموافقتهم واعترافهم، وبهذا المعنى فالديمقراطية تناقض المذهب القومي الذي يفترض مجالاً سياسياً موحداً تحيله إلى كائن جماعي أو تاريخي سواء أكان هذا الشخص الجماعي ثقافياً (الأمّة) أم الشعب أو تغير أو مبدأ.

وبهذه الآلية تستطيع الديمقراطية أن تحول الطائفة إلى مجتمع محكوم بقوانين، وتجعل الدولة ممثلة للشعب، أي تحول الشعب إلى مواطنين، والأمير إلى حاكم حسب تعبير أرسطو.

أما سبب الخلاف بين الديمقراطية ومبدأ سيادة الشعب فهذا المبدأ يقوم على الإطلاق والأمر على خلافه بالنسبة للديمقراطية التي تؤمن بكافة وجهات النظر بما في ذلك رأي الأقليات.

وهذه السمة النسبية للديمقراطية تظهر في محاولة التوحيد بين حقوق الإنسان الجامعة وبين تعبئة الجماعات فالديمقراطية لا تختزل الجماعة في السوق، وفي الوقت نفسه لا تخضع لحكم الدولة التوحيدية والمتجانسة.

ذلك أن القوى الاقتصادية تسعى إلى قولبة الحياة في الاستهلاك ولكن المواطنة تعني أولاً البناء الإرادي الحر لتنظيم المجتمع ولكنها تعتمد آلية أخرى هي آلية التوحيد، وهكذا فالمواطنة هي: وحدة القانون وتنوع المصالح واحترام الحقوق

الأصلية للإنسان، وبهذا المعنى فالمواطنة لا تعني أن يكون المجال السياسي دولياً ولا سوقياً.

وهكذا فالديمقراطية تجد من غلواء السلطة وتوازن ذلك بالقوى المستقلة ذات الإبداع الإرادي والنزعة الجمهورية والمذهب الذي ساد في فرنسا إبان الثورة لا تؤدي إلى الديمقراطية عندما يتماهى الفرد بالدولة ويذوب في إرادتها، وهكذا فالديمقراطية محكومة في أحد جوانبها بالفكر النفعي، وهنا تلتقي الفردوية مع حكم العقل، وانتصار الجماهير هو انتصار عصر الجموع وهو أمر ترفضه الديمقراطية التي تترك حيزاً للفرد، وتميز بين الإنسان والمواطن لسبب بسيط هو أن الإنسان يطرح الأمور المتعلقة بشخصه والعكس بالنسبة للأمور الأخرى. هكذا قيل أنه لا يجوز أن تختزل الليبرالية بمصلحة البرجوازية ولا الاشتراكية بمصلحة الطبقات الشعبية لأن ذلك يقودنا إلى الفكر المجتمعي الخالص. على هذا الأساس فالكليانية (التوتاليتارية) مرفوضة لأنها تتغول على المجتمع المدني وتسد مسام جلده.

وهذا لا يعني أن الديمقراطية تنتصر عندما يتغلب العمل السياسي على النضال المجتمعي بل بالعكس عندما تكون القوة الطبقيّة الفاعلة محددة بصور إيجابية تمكنها من قيادة العمل السياسي ومن إضفاء الشرعية على عملها بناء على حقوق أساسية وعلى استجذاب مواطنة جديدة.

إن إحداث أنظمة الضمان المجتمعي الكبرى الذي يميز المجتمع الأوربي أكثر مما يميزه أي قرار سياسي آخر كان تعبيراً مركزياً عن الديمقراطية الصناعية الذي شمل حقل الاقتصاد عن طريق إعطاء النقابات وضع الشريك المجتمعي للحكم ومساواتها في ذلك مع أرباب العمل واستحداث مواطنيه اقتصادية.

أما اليوم فإن النقاشات التي تشكل منها رهانات العمل الديمقراطي إنما تتم في دنيا وسائل الإعلام الواسعة وأكثر ما تدور هذه النقاشات حول مشكلة العناية الطبية ابتداء من الحملات المتعلقة بالإجهاض وبأساليب منع الحمل وصولاً إلى النقاشات حول العلاج الجيني وحول مختلف أشكال الإخصاب المدعومة وحول القتل المرحوم والعناية بمرض السيدا(الايذز).

وقد أثرت هذه النقاشات بمعزل عن الأحزاب السياسية والنقابات إذ أثارها جمعيات وروابط معينة وحركات رأي وأحياناً كان تثيرها حركات مجتمعية أو ثقافية.

ولكن ما تشكو منه هذه النقاشات انفصالها أكثر فأكثر عن بلورة السياسات الاقتصادية فتجد من جهة أن الحكومات تمنع في استغراقها في مشكلات الاقتصاد الدولي سواء أكانت بلدتها تنتمي إلى الجنوب أم إلى الشمال كما نجد أن أوساط الرأي العام تولي أهمية متزايدة لمشكلات الحياة الشخصية ومن ثم لمشكلات البيئة والمحيط وخاصة بقاء هذه البشرية المهددة بعواقب تحكمها المتزايد بالطبيعة التي لم تعد إلا مادة أولية للتعاظم الاقتصادي.

فإذا نحن اتبعنا السبيل الأول الذي يبدو أشد انفتاحاً فمن الصعب أن نتجنب مسألة انحطاط السياسة... هكذا يعرب "كارلو مونغارديتي" عن قلقه عندما يرى أن انحطاط الإرادية السياسية التي تتطوي على جوانب تحريرية فعلية يكاد هو الآخر يختزل السياسة إلى مجرد المصالح، وينزع عنها بعدها الطائفي الذي يسعى إلى بلورة صالح مشترك... ولكن ألسنا نرى أن هذه الإيديولوجيا الطائفية قد تقهقرت؟ ألم يتحول الاهتمام بالصالح المشترك إلى هاجس الهوية؟؟.

ألا يجدر بنا أن نعمل بعيداً عن الاستدماج الطائفي ثم تقرير الضمانات المؤسساتية المتعلقة بالحرية الفردية واحترام حقوق الإنسان.

وتأسيساً على ما ذكرناه فالديمقراطية تنمو كلما كان هنالك تنوع في الثقافات ونضج في الطبقات والديمقراطية هي عملية ترتيب لهذا التنوع.

### المواطنة وحق الأكثرية

وهذا هو العنصر الثالث في تكوين الديمقراطية كما حدده "آلان تورين" في رائعته الذائعة الصيت ما هي الديمقراطية.

فهذا المفكر يؤكد أن الديمقراطية حالة من حالات المجتمع وبالتالي فهي وسط مؤسساتي لتشكيل الفرد وازدهاره واتخاذ القرارات العامة باسم المجموع وبآلية



القانون، أو هي مجموعة القواعد التي تحدد من هو المخول باتخاذ القرار باسم الأمة.

واستناداً إلى هذا التعريف فالديمقراطية ضد السياسية الاستيعابية سواء أقامت على ديكتاتورية طائفة أم على انتصار الجموع. "السيادة الشعبية المطلقة القائمة على حمام المشاعر الشعبية التي لا تؤمن بالأقليات"

فالديمقراطية بهذا الوصف ديمقراطية قائمة على التنوع وليست ديمقراطية قائمة على المساواة (أومواكواليس).

صحيح أن الديمقراطية تقوم على الاستدماج، ولكن هذا التوحيد من أجل الخير المشترك، ويقوم على نسبية الحقائق الإنسانية ومواجهة بعضها ببعض من أجل تحقيق التوازن.

فالديمقراطية ساحة تتهاهبها التوترات والنزاعات والصراعات وتتلاطم بها المصالح ولكن هذا الديالكتيك يستهدف نقطة وصول واحدة.

ولكن قانون الأكثرية لا يعتبر وسيلة للديمقراطية إلا إذا نحن سلمنا بأن الأكثرية لا تمثل شيئاً آخر سوى نصف الناخبين زائد واحد منهم، وإنما تتبدل إذاً باستمرار بل إنه قد يكون هناك وجود (لأكثرية أفكار) متغيرة بتغير المشكلات التي تفرض حلولاً لها.

وهذه الأكثرية ليست استبدادية كلية القدرة بل يعلو عليها في العالم السياسي الحقوق المكتسبة وفي العالم المعنوي العدالة والعقل.

وحقيقة الأمر إن الديمقراطية لا تقوم على مبدأ مركزي كما اتضح لنا بالنسبة لحقوق الجماعات، والأمر نفسه بالنسبة لحقوق الأكثرية فهذه الحقوق ليست مركزية مطلقة تتغول على الأقلية أو المعارضة، بل إن هذه المعارضة لا تختلف في الطبيعة والجوهر عن السلطة طالما أن الفريقين لا يعدوان أن يقوموا على أفكار.

وهكذا تتجاوز وتتراصف وتتوازن وتتضامن عناصر هذا الشعار: حرية - مساواة - إخاء (مواطنة).

فهذا الشعار يعترف بأن لا وجود لمبدأ مركزي للديمقراطية، لأنه يعرفها بمزيج من هذه المبادئ الثلاثة.

وهذا ما عرض ذلك الشعار الشهير لانتقادات تظهر بمظهر الواقعية لكنها تجانب الصواب، وهذا ما عرض ذلك الشعار الشهير لانتقادات تظهر بمظهر الواقعية لكنها تجانب المسألة الجوهرية.

صحيح أن النظام الذي يخص الحرية بهذا القدر من الامتياز قد يترك مجالاً لازدهار اللا مساواة، كما أن السعي إلى تحقيق المساواة قد يتم بالعكس على حساب التخلي عن الحرية لكن من الأصح أيضاً أن لاوجود للديمقراطية ما لم تكن مزيجاً من هذين الهدفين وما لم تربطهما معاً بفكرة الإخاء أي المواطنة والانتماء إلى الأمة.

وحقيقة الأمر أن هذا الشعار يقدم لنا أفضل تعريف بالديمقراطية لأنه يوجد عناصر سياسية بالمعنى العقلي مع عناصر أخرى ذات طبيعة مجتمعية معنوية... إنه يتم بوضوح عن أن الديمقراطية إذا كانت بالفعل نمطاً من أنماط «السيستم السياسي» لا نمطاً من أنماط المجتمع فإنها تتحدد بالعلاقات التي تقيمها بين الأفراد والتنظيم المجتمعي والسلطة السياسية.

والخلاصة أن النظام الديمقراطي هو صيغة الحياة السياسية التي تزود العدد الأكثر بأكثر قسط من الحرية أنه الصيغة التي تحمي أوسع تنوع ممكن وتعترف به، إنه المجال الدائم بين الوحدة والتنوع فهو يدور حوله الحدود الفاصلة بينهما رغم حركتها الدائمة وحول أفضل الوسائل الآيلة إلى تعزيز ارتباطها.

هذا ونوه بأن للمواطنة مدلولاً خاصاً على صعيد وطننا العربي، وإلا فهي ترسفت في قيود القطرية وأول مقوم لها أن تكون جامعة سياسية على الأفق القطري كأفق تمهيدي باتجاه الوحدة العربية وبالطبع فذلك يتم بألية التجاوز والاستيعاب وليس التجاهل ولا سيما أننا نعيش في واقع دولي معترف من قبل الجماعة الدولية.

وبيان ذلك أن على كل دولة عربية أن توحد بنيتها الداخلية لا أن تقوم العواطف الجياشة بتحطيم وخلخلة البنى الوطنية القائمة على حساب طوبى قد لا تستطيع تحقيقها دفعة واحدة.

ومع ذلك فهناك بعض الدول العربية تميل إلى استعمال الشعور الوطني إزاء دول أخرى لتوطيد شرعيتها، وهذا ما يقود إلى **شوب** الوطنية بألوان انعزالية متناسين أن الروح الوطنية هي ظاهرة إيجابية وخطوة أولى ضرورية نحو بناء قومي أعظم شأناً في المستقبل.

### الفكرة العربية

ونوه استطراداً بأن هذا الميثاق المقترح هو ميثاق شعبي الأصل والطبيعة والمحتد والمنبت ولا علاقة للسلطات الرسمية به، بل هو وليد إرادات القوى المجتمعية العربية الفاعلة، هذا فضلاً عن أن أي تأسيس يتم خارج فعل السلطة بل إن عمل السيادة الشعبي هو الذي يقوم بالتأسيس بما في ذلك السلطة كجزء من المشروع.

ولا عجب فشرعية الأمة وحققها في تقرير مصيرها أصبحت من المبادئ العامة للقانون الدولي وهي قاعدة الأساس لكل شرعية داخلية دستورية، ومن المفروض بأية شرعية مهما كان مبررها وسندها ومناطقها أن تستهدف تحقيق هذه الوحدة الغالية.

وفي هذا الصدد ندلل برأي ريمون بولان المتضمن: أن الدولة حضارة بأسرها وقد استجمعت قواها لتفصح عن نفسها في مؤسسة أو مجموعة من المؤسسات. كما نذكر برأي "هوريو" المدلل بلعبة الشطرنج العقلية ووجود بعد الأمة في هذه اللعبة.

وحقيقة الأمر أن أي تأسيس لأية سلطة شعبية أو رسمية يخرج عن سقف شرعية الأمة إنما هو تأسيس يقوم على الخطأ والخطر.

على الخطأ لأنه يتنافى مع حق الأمة في تقرير مصيرها، وخطر لأنه هذه السلطة ستعاني آلام الرفض وهو في الوقت نفسه حرب على نظام طبائع الأشياء ونقض لدستور الحياة الضمني ولأن هذا الدستور الضمني هو أساس كل شرعية شكلية أو رسمية.

بقول المفكر العربي "عبد الله العروي": ((إن التاريخ لا يتوقف منتظراً دستوراً مكتوباً فالتاريخ يحمل دائماً في طياته دستوراً ضمناً والمهمة الأولى تقضي باستشفاف هذه البنية العضوية الضمنية)).

فالوحدة هي الدستور الضمني الذي نعيشه في حياتنا اليومية ونغذيه بنبضات قلوبنا وحبوات عيوننا وضميرنا، وهي قابضة في أعماق خيالنا الجمعي ووجداننا العام، وهي تتأبى أن تحتاج للإثبات لأنها حقيقة وجودنا وأن أي استفتاء عام في أية لحظة كاف لتأكيد التناف الشعب العربي حول هذا الأمل المرتجى الذي يرقى إلى مستوى الدين السياسي للجماهير، بل إن ما يدعم هذا الدين السياسي أنه والدين العقيدي (الإسلام) مظهران لحقيقة واحدة، وهذا هو فحوى قول المطران "جورج خضر": ((هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية ونحن ننتمي إليها))، وقول المفكر العربي "أمين نخلة": ((الإسلام إسلامان إسلام بالعقيدة وإسلام بالتراث ونحن مسلمون بالتراث كلفاً بمحمد واتباعاً للغة)).

وفي نظرنا أن على هذا المؤتمر «الذي هو نواة الميثاق العربي الاجتماعي المنشود» أن يؤصل لفكرة الوحدة العربية تأصيلاً يحررها من المشاريع السياسية التي استولت عليها، ومن السجلات التي تبتعد عن جوهرها، ويبلور مفهومها في الوعي العربي بما يتفق مع كونها نهر ينبع تاريخياً من وجدان كل إنسان عربي ويعبر أقطار حياتنا اليومية وفي مطلع هذا التأصيل إن الأمة العربية بألية الإسلام بنت ثقافتها وأدبها وتقاليدها وحسها الشعبي واعتزازها الروحي ومنطقها العام ومناطق شرفها وكرامتها وحماسها ونظرتها إلى الحياة كل ذلك على أن لا يخل بقاعدة المساواة وبن لكل عربي مهما كان موقعه الثقافى الحق الكامل في المواطنة وإمتلاك جزء من الإرادة العامة.

ونحن مع "الدكتور غسان سلامة" بأن عروبة المصلحة ليست دنيئة وإن شرعية العقلانية المؤسسية لا تأنف عن دراسة المصلحة، بل هي تضع تحديد المصالح الوطنية في صلب اهتمامها ومع ذلك فإننا نضيف بأن تحقيق الوحدة في أي مظهر من مظاهرها هو بذاته وماهيته وطبيعته الذاتية مصلحة عليا بل مصلحة المصالح وأن مجرد تحققها يجر علينا المصلحة واليمن والازدهار.

ومن جهة أخرى فإن ميكانزم المصلحة لا يكفي ببعاطلته أن يحقق منفرداً الوحدة لسبب بسيط هو أن القوى الفاعلة الاجتماعية قد تختلف في تحديد المصالح لا سيما أن المجتمع المدني هو مجتمع الأهداف والتنافس والتعارض كما سبق تحديده، ولا بد إذاً من فعل سياسي حضاري ينطلق من حقيقة أن هذه الأمة هي شخص تاريخي له سقف حضاري محدد وأن التضليل والضلال عن هذه الحقيقة يوقعنا في اغتراب واستلاب ووعي مزيف وغير مطابق.

وإذا كان المثقفون العضويون هم القادرون على إنجاز رهانات وهي هذه الأمة، فهذا المؤتمر يجب أن يكون له طموح الوعي بذاته وبالأمة وأن يكون بمثابة نجم قطب فكري وأخلاقي وضميري، وبوصلة رمزية معنوية لهذه الأمة بحيث تسترشد به القوى الاجتماعية الفاعلة في صوغ وجدانها وحركة ضميرها وبحيث ترى فيه الأب الذي تستشف وقارة وجلالة وصدق منطقة وتأجج وجدانه ونبضات قلبه المرجع الروحي.

وإذا كان ليس من حقي أن أحدد آلية عمل هذا الدور الجديد لهذا المؤتمر، فإن عليه وفي أضيق الحدود أن يقيم جسراً عبر الضمائر والإرادات أي يمد عروقه وشرائبه إلى الجماهير العربية وإلى القوى المجتمعية الفاعلة على أرض هذا الوطن بحيث يضح في هذه الشرايين الوعي المعرفي الجذري لا سيما في حياتنا الراهنة المحاط من كل حذب وصوب بقطع الظلام وفي مطلع ذلك مشروع الشرق الأوسط بآلياته المختلفة نخس منها بالذكر مشروع التطبيع والتغريب والاقتلاع من الجذور.

بقيت كلمة أخيرة، ولعلها الجواب على سؤال ملخصه: ما الحاجة إلى مشروع التأسيس والدساتير العربية تقدم لنا مؤونة ذلك؟؟؟

الجواب عن ذلك بسيط بالنسبة للدول العربية التي لما تتخذ حتى تاريخه دستوراً تحت ذريعة أنها محكومة بالقرآن الكريم.

وفي نظرنا أن هذه المواقف محمولة على التضليل لسبب بسيط هو أنه لو كان واجباً، «والرأي للمفكر الإسلامي محمد سليم العوا» على الحكام المسلمين ألا يتخذوا مع القرآن الكريم دستوراً مكتوباً يحدد تفاصيل الحقوق والواجبات التي أجملها القرآن الكريم أو التي لم تتناولها نصوصه لكان أول من صنع ذلك واقتصر على نصوص القرآن في تنظيم الدولة وإدارتها رسول الله ﷺ.

أما لجهة الدول العربية التي اتخذت لها دستوراً مكتوباً فنعتقد أن هذه الدساتير لا تقوم على الأسس والمبادئ الدستورية لسبب بسيط هو أن هذه الدساتير صنعت من زاوية السلطة ليس إلا وجاءت نسخة مشوهة عن دساتير الأمم الديمقراطية الحرة المتمدنة بحيث اختل التوازن في فعاليات المبادئ الدستورية، وقامت على ترتيبات لصالح السلطة وضد الشعب وحرية وإرادته.

ولا مجال هنا لنقد هذه الدساتير وإن كنا نقدم بعض الملاحظات حول ذلك:

- بالنسبة لمنصب رئيس الجمهورية أو الدولة، ففي اعتقادي أن هذا الرئيس العربي يتمتع بصلاحيات تفوق صلاحيات الامبراطور يوليوس قيصر، هذا فضلاً عن أن انتخابه يتجدد أكثر من مرة خلافاً لكل دساتير العالم، وكلنا يتذكر موقف الشعب من الولايات المتحدة من انتخاب الرئيس روزفلت على ما قدمه المذكور لأتمته من انجازات.
- لم يحترم مبدأ الفصل بين السلطات والرجحان لصالح السلطة التنفيذية التي تغولت على السلطة القضائية (الاعتداء على صلاحيات مجلس القضاء الأعلى)، ثم على السلطة التشريعية وإننا نرى أن معظم القوانين تصدر عن السلطة التنفيذية خلافاً للأصل.
- لم تنظم هذه الدساتير رقابة على السلطة التشريعية وفي حال وجود مثل ذلك فهذه الرقابة واهنة والمحاكم الدستورية تصدر توصيات لأحكامها.

- وجود ترسانة من التشريعات الاستثنائية التي تتغول على الحقوق الأساسية للمواطن وحرياته العامة لا سيما في حالة الطوارئ المعممة زماناً ومكاناً وموضوعاً رغم أن إعلان حالة الطوارئ استثنائية.
  - جمود الدساتير لجهة التعديل حيث أن هذه الدساتير صيغت لمصلحة السلطة الحاكمة.
  - قصور التشريع في تنظيم المعارضة في التعبير عن نفسها.
  - قصور التشريع عن بلورة صورة صادقة عن نظم الحكم (البرلماني - الرئاسي - المجلسي).
  - بحيث أن نظم الحكم جاءت رقيقاً مدججاً لصالح السلطة التنفيذية وغير محكومة بالأسس المعرفية الدستورية لنظم الحكم هذا فضلاً عن جمود نظم الحكم وعدم قابليتها للتغيير وانفرادها بإعطاء تصور محدد من لدنها للصالح العام خلافاً لمبدأ الحركة والسكون الذي سبق الإشارة إليه.
  - افتقار الدساتير إلى المبادئ المتعلقة بالأمة واكتفائها بالنص على الانتماء إليها دون وجود مبادئ قانونية تقرر حقوقاً إيجابية حركية لصالح الأمة أي تفرض على السلطات التزامات إيجابية بهذا الخصوص، بحيث أصبح النص المتعلق بالأمة لغواً لا طائل منه.
  - الأخذ بتطبيقات سيئة لنموذج النظام الرئاسي بحيث أضعف معه دور البرلمان لا سيما الدور السياسي له هذا فضلاً عن ضعفه في وظيفة من القوانين.
- إن أمام هذه الأمة عقبة كؤوداً لا يقطعها إلا المخفون وزماناً صعباً تسلط به الفسقه وتملك به الظلمة، ولا مخرج لنا من هذا الانسداد الاجتماعي إلا بمشروع نهضوي متكامل بحيث يكون إنتاج السلطة وإنجازها وترويضها جزءاً أساسياً في منظومة هذا المشروع.

اللاذقية- سوريا

المحامي الدكتور برهان زريق





## عبد الناصر ومشروع الأمة<sup>1</sup> «مسألة ابن آدم- خليفة الله- والخليفة الحاكم»

هذه الروافع الحضرية والأوليات الدافعة. هذه العلاقة «وهي علاقة برميل البارود بالشرارة المفجرة» تأخذ المظهرين الآتيين:

- ✓ أن يكون الحاكم مشروعاً خاصاً لذاته وهنا يذيب الجماعة بمصلحته ويمجها بشخصيته ويستحوذ عليها بنزواته.
  - ✓ أن يكون جباراً في خدمة فكرة على حد تعبير الفقيه الدستوري جورج بوردو<sup>2</sup> وفي هذه الحال تكون أمام مشروع تاريخي عام تضعه الإدارة العامة للشعب ثم يأتي الحاكم لينفذ المشروع.
- يقول "جورج بوردو" واصفاً الزعيم: ((إنني أنحني إليه يا كبار لأنني أجد عبره مشروعاً يهمني كما يهمله ولكن يتجاوزه كما يتجاوزني)).<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - نشر هذا المقال في إحدى المجلات العربية ضمن صفحة (قضايا ومواقف).

<sup>2</sup> - جورج بوردو: الدولة، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 985، ص70.

في الحال الأول يقوم الحاكم بتفجير برمبل البارود (الامة) عبثاً فتخترق الامة ويخترق هو نفسه ويحترق كل شيء... ما حول الامة وأمامها ووراءها . في الحال الثانية تتجيش الامة وتعباً في قنوات منضبطة واضحة كالشمس وعندئذ يشعل برمبل البارود- بأواليات الاشتعال الطبيعية وقوانينه، فيضاء طريق الامة وما حوله وتضاء حياة الحاكم نفسه .

ما هو موقف تراثنا من علاقة الحاكم بالامة؟

لا شك أن مشروعية الامة العليا-الخطاب الثقافى الأعظم (القرآن) لم يتكلم إلا لماماً عن الحاكم (إطاعة أولي الأمر) ولكنه تكلم باستفاضة عن الامة: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» آل عمران/110 .

وتكلم باستقامة أعظم عن الإنسان العالمى (المؤمن) خليفة الله هذا القطب يتعاقد مع الله في الميثاق الأعظم: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» الأعراف/172 .

وهو موضع تكريم الله:

«وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» الإسراء/70 .

وموضع استخلافه لإعمار الأرض وهو مستودع الأمانة:

«إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» الأحزاب/72 .

ويقف الله سبحانه وتعالى في الملاء الأعلى ليخاطب الملائكة قائلاً: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» البقرة/30 .

<sup>1</sup> - كتابه، الدولة السالف الذكر، ص22.

هكذا يستشرف الإسلام ما يسمونها اللحظة التي تقوم - في ماهيتها وجوهرها على الأنسنة على العقل الإنساني عقل الانسان العالمي. وإذا كان الأمر هكذا في القرآن الكريم فهل أن الأمر كذلك في التجربة التدشينية النبوية؟<sup>١</sup>

كيف يكون الجواب إلا بالإيجاب والمشروع النبوي قرآن متحرك مجسد على أرض الواقع<sup>١</sup>.

حسبنا التأكيد ولفت الانتباه إلى ميثاق الرسول ﷺ قاصدين من ذلك الصحيفة المتضمنة ذلك التعاهد بين الرسول ﷺ وأمة المؤمنين المتضمنة: ((هذا كتاب من محمد بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب)).

هكذا يؤسس الرسول ﷺ المشروع السياسي ليس على سلطة لدنية مستمدة من السماء وإنما على الإرادة العامة للأمة - الوجدان الجمعي وسار مشروع الأمة في الحقبة الراشدية رخيلاً في بحران الأمة.

ما هو مصير مشروع الأمة بعد الحقبة الراشدية؟

يلخص أحد المفكرين المعاصرين هذا المشروع من خلال بنية الأمة فيقول: إن مجتمع دولة الدعوة المحمدية زمن الخلفاء الراشدين كان يتألف من منزلتين فقط: كان الأفراد والعلماء فريقاً والجند والرعية فريقاً آخر وعندما قامت دولة السياسة مع معاوية أصبح الأمراء فريقاً والعلماء فريقاً آخر (في القمة) وأصبح الجند فريقاً والرعية فريقاً آخر (في القاعدة).

ويتطور الوضع خلال العصر الأموي في اتجاه قيام انقسام عمودي لهرم المجتمع يجعل من الأمراء والجند فريقاً (المجتمع السياسي) ومن العلماء والرعية (المجتمع المدني فريقاً آخر)<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> - وصفت عائشة أم المؤمنين الرسول ﷺ بأن خُلِقَ القرآن.

<sup>٢</sup> - د. محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1990، ص330.

هكذا وجدنا الخليفة الحاكم معاوية بن أبي سفيان يدعي لنفسه الحق والحرية في التصرف بمال المسلمين بـ المنع والمنح يقول: ((الأرض لله وأنا خليفة الله فما أحدث علي وما تركته للناس فيا لفضل مني))<sup>1</sup>. وعلى هذا الأساس انتفض ابن آدم خليفة الله أبو ذر الغفاري ليقول: ((كلا إن هذا المال هو مال الناس))<sup>2</sup>.

وعلى هذا الأساس يتبرى الخليفة الحاكم أبو جعفر المنصور «ومثله معه الكثير من الخلفاء» ليقول: ((إنما أنا سلطان الله في أرضه))<sup>3</sup>. ويستمر التهميش والاستحواذ والإقصاء والمحاصرة لخليفة الله -ابن آدم من قبل الخليفة الحاكم ويضيق الحبل حول العنق وتكثر الأكبال والأغلاق والقيود في الرأس حتى الأذقان وعلى القلب كالصخرة فإذا ابن آدم دمية في يد الخليفة الحاكم وعليه إطاعته إلا في حالة واحدة ألا وهي إذا نهى عنه الفرائض<sup>4</sup>. وتكثر نعوت ابن آدم فإذا عم الغوغاء والدهماء والعيارون والشطارون والصعاليك والعامية.

هكذا ينقلب التوازن وينتسكس المشروع العام فإذا الأمة تذوب في شخص الحاكم وإذا المشروع الخاص صار يلف جلد الأمة ويسد منافذها ويحول دون تنفسها وإذا النهر الأعظم «على حد رأي الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز» يشقق منه جدول فجداول المشتق معاوية وعبد الملك وغيره وغيره، ويؤول الأمر إلى هذا الخليفة وقد يبس هذا النهر وجفت مياهه وعلى الخليفة المذكور «الذي هو خليفة

---

<sup>1</sup> - د. محمد عمارة: الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984، ط2، ص20.

<sup>2</sup> - د. محمد عمارة: مسلمون ثوار، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط12، 1974، ص44.

<sup>3</sup> - د. محمد عمارة: الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، ص21.

<sup>4</sup> - هذا هو رأي ابن المقفع، انظر في ذلك د. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 1990، ص349.

اللَّهُ قبل أن يكون خليفة حاكم» أن يعيد النهر الأعظم إلى تدفقه وكما قال الشيخ العلامة "محمد مهدي شمس الدين": ((إن مشروع الدولة في الإسلام مشروع غير مقدس لأنه مرفوض ولكن المطلق المقدس والأساس من وضع له الشرع والشريعة أي الأمة))<sup>1</sup>.

فالمقابلة بين المقدس وغير المقدس هي المقابلة بين الأمة والدولة بالشأن التنظيمي العام للمجتمع فالأمة هي مقدس والدولة هي مؤسسة ذات وظيفة من مؤسسات الأمة وليست المؤسسة الوحيدة للأمة وقد تتأسس حالات تكون فيها الدولة هي الدرجة الثانية من مؤسسات الأمة وليست من الدرجة الأولى وقد لا تكون من مؤسسات الأمة وهذا ما تحدده درجة نجاح الدولة في أداء وظائفها المكلفة بها للمجتمع الذي تقوم فيه من جهة وللأمة من جهة أخرى<sup>2</sup>.

ويتابع "الشيخ شمس الدين" قوله: ((لقد فشلت الدولة في كل شيء حتى في حفظ النظام... إذ أن شعارها إما نحن أو الفوضى... أما أن تشترك معاً في إقرار النظام في المشروع التاريخي في المشروع السياسي العام في المشروع السياسي العالمي في المشروع الحضاري فلم تعد الأمة تطلبه من الدولة إنما تمارسه بطريقتها الخاصة أو لا تمارسه نتيجة لفخرها أما المشروع الخاص الذي يتناول الحياة المادية اليومية للمواطن فقد فشلت فيه الدولة أيضاً ويشمل هذا الفشل في العصر الحديث المشروع القومي - المشروع الوطني - المشروع التنموي - المشروع التحديتي))<sup>3</sup>.

الصراع بين مشروع الدولة في الاستحواذ على الإسلام والظهور بمظهر الرعاية وشرعية تسلطها على الأمة ومشروع الأمة في أن تضع يدها على الدولة وتحولها

<sup>1</sup> - الشيخ محمد مهدي شمس الدين: الأمة والدولة والحركة الإسلامية، بيروت، المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، ط1، 1994.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص23.

<sup>3</sup> - الشيخ محمد مهدي شمس الدين: الأمة والدولة والحركة الإسلامية، ص29.

إلى طبيعتها الأساسية وكونها مؤسسة لها وليست مؤسسة مفروضة عليها لا يزال مفتوحاً<sup>١</sup>.

وعلى هذا الأساس فإن مصطلح حكام الجور وولاية الجور هو مصطلح مشترك بين جميع المذاهب الفقهية والإسلام<sup>٢</sup>.

وحقيقة الأمر إذا استثنينا مشروع الأمة في حقبة صلاح الدين الأيوبي (مشروع طرد الصليبيين) لم تجد بعد ذلك إلا المشاريع الخاصة التي تدور حول إرادة الحاكم ونزواته ومصالحه.

أما في تاريخنا المعاصر فلا نعتقد أن هنالك مشروعاً عاماً للأمة إلا مشروع التقاف الجماهير حول عبد الناصر فهذا الالتفاف هو الذي يفسر الانجازات الضخمة التي تحققت على يديه وما كان للزعيم الراحل أو لغيره أن يحقق هذه الانجازات إلا بكتافة حضور الأمة ولعلنا نجد مصداقاً لهذه النظرة في الشهادة الثمينة لسماحة الإمام شمس الدين بقوله: ((استخدمت الأمة دولتها في بعض الحالات ولكنه كان انجازها والذي كان سيئاً غالباً هو انجاز دولتها... ألمع فترة في العصر الحديث كانت فترة عبد الناصر))<sup>٣</sup>.

وعلى هذا الأساس إذا أردنا أن نكيف ماهوياً مشروع عبد الناصر أمكننا القول أنه مشروع عام بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى وما تحمل من دلالات. وبمعنى أوضح يمكننا أن نسلم مع هذا الشخص أو ذاك بوجود بعض الأخطاء في هذا المشروع لأن ذلك يتفق مع نسبية الحقائق الإنسانية ولكننا نرفض «ومعنا الجماهير الساحقة» أن تتهم هذا المشروع بخصوصيته وعدم صدقه. ويمكننا الذهاب مع "الفضل شلق" للقول بأن الأيديولوجية القومية لم تؤدي إلى قيام الدولة العربية الواحدة بل ثبت الأقطار وجودها وتحولت إلى كيانات تؤيد نفسها.

<sup>١</sup> - المرجع السابق، ص 35.

<sup>٢</sup> - المرجع السابق، ص 35.

<sup>٣</sup> - المرجع السابق، ص 38.

لم يكن ذلك نتيجة مؤامرة وحسب بل حدث ذلك لأن تلك الأيديولوجيا القومية كانت على تناقض مع تراث الأمة وتاريخها وقد فهمت الجماهير العربية ذلك وكانت تتعاطف مع عبد الناصر صاحب فكرة الدوائر الثلاث (العربية والإفريقية والإسلامية) أكثر بكثير مما كانت تتعاطف مع الحركات القومية<sup>1</sup>. ((إن العرب يرون في الوحدة مثلاً أعلى ويرون في الفتنة والتجزئة الشر الأكبر لذلك كان تعبير الإجماع في الفقه أساساً من الأسس الأربعة والجماعة في الدين والسياسة لا يستقيم أي منهما بدون الإجماع)). إن أهمية مسألة الوحدة ومغزاها الكوني بالنسبة للعرب هي التي تفسر علاقة عبد الناصر بالجماهير العربية.

((وكانت انطلاقة عبد الناصر الكبرى بنظر العرب في مؤتمر باندونغ تعبيراً عن الخروج من المحلي إلى الكوني جعلهم يشعرون مرة أخرى بمعنى لوجودهم وبمغزى له)).<sup>2</sup>

لقد أدركت الجماهير العربية أن سلطة عبد الناصر جهاز من أجهزة الأمة وإن علاقته بالجماهير لم تكن علاقة استحواذ واستتباع وحذر وعداء إنما علاقة فداء وتضحية.

وبصورة عامة يمكن أن نسجل على تلك العلاقة ما يلي:

- 1- ابتدأت هذه العلاقة بالترقب والاكتشاف واستقرت في تأميم القناة وحرب السويس ثم أخذت تتدعم على هذه القاعدة الرصينة لتتحول إلى يقين.
- 2- تميزت هذه الحقبة بصمود جماهيري ساحق وحضور كثيف وثقل عريض في صنع الحدث وتوجيهه ودعمه وتفعيله الأمر الذي يمكن تأكيده أن الجماهير أصبحت ركناً أساسياً من أركان الحياة السياسية في المنطقة<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - الفضل شلق: مقاله الموسوم بعنوان، الانخراط في العالم- مشروع الأمة غير قومية، مجلة الاجتهاد، بيروت، دار الاجتهاد، السنة السابعة، العددان 26 و27، ص18.

<sup>2</sup> - الفضل شلق: أفكار حول الأمة والوحدة والدولة، مجلة الاجتهاد، السنة 3، العدد12، ص10.

- 3- كانت الجماهير تقوم بمبادرتها وفاعليتها الذاتية المستقلة.
- يحكى أن عبد الناصر كان يتفاوض مع أحد الوزراء البريطانيين فإذا بالمفاوض يتلقى برقية من سفير بريطانيا في البحرين بقيام مظاهرات ضد بريطانيا .
- انفجر المفاوض قائلاً لعبد الناصر: (( هكذا أعطيت الأوامر بتلك المظاهرة وبيتسم القائد بينه وبين نفسه ابتسامة دهشة وثقة وسرور مصدرها عدم علاقته بذلك)).
- 4- لقد أتت حرب حزيران على كل شيء ولكن الجماهير العربية أبت الهزيمة وأصررت على الاستمرار بقيادة عبد الناصر وهكذا كانت الانتفاضة بعد الاستقالة تجديداً للبيعة للعقد الاجتماعي مع القائد .
- 5- استطاعت هذه الجماهير أن تضع أس الحياة السياسية للأمة في مؤتمر الخرطوم من خلال اللوات الثلاث مفوتة الفرصة على الرجعية العربية.
- 6- استطاعت الجماهير أن تجدد روح الثورة وشبابها بانتفاضة الطلاب والعمال في مصر حيث تتوج ذلك بصدور بيان الثلاثين من مارس تأكيداً لهذه الوشيجة الصلبة بين القائد والجماهير وفهماً وإدراكاً لهذه الجدلية الفاعلة.
- تبقى كلمة أخيرة جديرة بالتنويه هي أن هذا الالتفاف حول عبد الناصر لم يكن أمراً طارئاً أو حدثاً عارضاً بل هو حقيقة موضوعية وقانون تاريخي عميق وبوح ترجمة تلجأ إليه الجماهير أثناء المنعطفات الحادة أو هذه هي ظاهرة شخصية السلطة (الكارزما).

حيث القائد كالتفاف يعكس آمال الجماهير وإذا كانت القيادة الفذة تظهر في التحولات التاريخية الكبرى فليس أمام الجماهير العربية سوى الثقة بالذات وثورة الذات والتعويل على الذات ودعم الذات في مشروع عربي نهضوي كبير يمثل زحفاً ضخماً تحقق من خلاله ثورتها الثقافية وخيارها الحضاري من خلال

---

<sup>1</sup> - د. علي علي منصور: نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1974، ص103.



فاعلية الديمقراطية وحرية المواطن والمحورية الأخلاقية والشرارة الإلهية وتحقيق  
العدالة للجماهير العربية.

المحامي الدكتور برهان زريق  
اللاذقية- سوريا



## حول نظرية عامة تقديمية

### للدين قراءة في الفكر الناصري<sup>1</sup>

**منذ** أن فتح الإنسان ناظره على هذا الكوكب، وهو مشدود إلى السماء، يرنو بتشوف إليها، يفكر فيها، يمتطعها، يفض مكوناتها، يقدها، يجلها، يخاف منها...

وإذا كانت هذه المغامرة الكبرى للروح البشرية استقرت نسبياً على قاعدة رصينة، هي الإيمان بالواحد العزيز المقتدر، فهذه الجدلية لا زالت بانطلاقتها واندفاعها، تحيل التمزق والقلق استواءً وتكاملاً ووجداً ومحبةً وخشوعاً. وليس ذلك عجباً، فهذا البعد المتعالي في الإنسان جزء من تكوينه، وهذه هي البراءة الأولى، فطرة الله التي فطر الله الناس عليها.

وهذه الشرارة الإلهية لم تقتصر على تفجير طاقات الفرد، بل هي قوة دافعة انخرطت في صميم الفعل التاريخي والاجتماعي، لتصبح جزءاً من تكوين الحياة ونسيج المجتمع، ولتصيغ منطق الجماعة البشرية وتراثها ونظرتها إلى الوجود.

زد على ذلك أن لهذه الظاهرة خصوصيتها على صعيد تراب وطننا العربي الكبير، إذ في رحم الحضارة الإسلامية ومشتلها وتحت شمسها الدافئة تم تخلق الأمة العربية ونموها واطراد نشوئها، وفي الوقت نفسه، كان الإسلام هو الدرقة

<sup>1</sup> - نشر هذا البحث في مجلة المستقبل العربي، إصدار مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 210، آب 1996.

التي صدت عن العروبة ضربات أعدائها، والقلعة التي صانت ذخائر تراثها وكنز ثقافتها .

هذا التماهي بين العروبة والإسلام تفاعلاً وتبادل تأثير، لم يتوقف دوره وأهمية تأثيره عبر تاريخ أمتنا، تعزيزاً للهوية الشخصية، وتمجيداً لمعاقد العزة والكرامة، وترسيخاً للثقافة والتراث.

تلك هي مقدمة أبرزناها لنلفت الانتباه إلى الدور الذي تلعبه الظاهرة الدينية في وجداننا الجمعي، والموقعية التي تحتلها في قائمة الأوليات والإشكاليات التي نعانيها، ولاسيما بعد أن ذر قرن المحاولات التي تناهض الإسلام بالعروبة، والعروبة بالإسلام، وبعد أن كثرت صور التناوب وصيغ التناجز والتهميش والإقصاء والمحاصرة المتبادلة بين القوى القومية والدينية.

وفي نظرنا، أن الخطاب السياسي العربي تميز بغلبة الإيديولوجيا على المعرفة في معالجة هذه الظاهرة، وكانت مقارباته لها إنشائية لفظية عاطفية صاخبة.

وهكذا فقد كثر لعن الظلام، وكثرت الخطابات الإيديولوجية المبسطة المبتسرة المفسرة للظاهرة الدينية، والتي أحجمت قصداً عن استكناه عمقها في الوجدان الشعبي، وبالمقابل فقد تعددت التفاسير السلبية<sup>1</sup>: التفسير السيكولوجي العصابي - نظام التعليم التقليدي - انحطاط البرجوازية - هزيمة حزيران - الوعي الزائف - غياب العلمنة - غياب الطبقة العاملة - سيادة الفكر الإقطاعي.

ولكن هل يكفي لعن الظلام والتحدير السالب والداحض من دون الحرص والتفكيك والتمحيص عن الأسباب العميقة للظاهرة المذكورة؟ وأين ذلك الخطاب المعرفي الذي يعمق وجودها؟ ثم ماذا قدمت إلينا الإيديولوجيا العربية على صعيد نظرية المعرفة من دراسات لظواهر الوطن العربي ومعطياته غير المتناهية؟.

---

<sup>1</sup> - أنظر: محمد حافظ يعقوب: الخديعة والكلمات: دراسة في مفهوم الاستبداد العادل، مجلة الاجتهاد، السنة 4، العددان 15 - 16، ربيع/صيف 1992، ص68 وما بعدها.

يقول "كولومبل": ((لكي نمارس العمل السياسي، علينا أن نعرف أولاً، وبعدئذ أن نريد، وأخيراً أن نستطيع التنفيذ))<sup>1</sup>.

وفي نظرنا، لا يمكن الحديث عن أي مظهر من مظاهر التقدم في حياتنا العربية إلا من خلال تراكم معرفي وثورة ثقافية شبيهة بفلسفة الأنوار في أوروبا، بل شبيهة بالثورة الفكرية التي تفجرت على صعيد المدينة المنورة، قاصدين بالتتوير ليس التبريك والتقديس بقدر ما هو فلسفة الأنوار الإسلامية الثقافية المعرفية التي سبقت فلسفة الأنوار الأوروبية.

لقد كثر الكلام على المشروع النهضوي العربي المرتجى، وكانت هنالك مواقف وأنظار سديدة وعميقة، ولكن هل فتح هذا المشروع صدره لنظرية عامة تقدمية في الدين، أي لذلك البعد المتعالي في الإنسان، الشرارة والشحنة الإلهية، بحسب تعبير المفكر "غارودي"، ذلك المفكر الكبير الذي كان حريصاً على البحث والحفر الدائب من أجل العثور على هذا البعد، والاهتداء إليه.

هذا النقص والتقصير في صفوف دعاة الحل التقدمي لا ينسبنا الظلامية والانكفائية وراء جدران الماضي، والتفكير اللا تاريخي في صفوف بعض السلفيين. لكن هل يصدق هذا النعت على كل متدين؟.

الجواب لا يمكن أن يكون بالإيجاب، وإلا كيف نفسر وجود رجال محدثين من دعاة الأنوار، أمثال الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وخالد محمد خالد ود. حسن حنفي ود. محمد عمارة وغيرهم.

ثم لنا أن نتساءل: هل تردد "غيلان الدمشقي وواصل بن عطاء والحسن البصري وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل ومالك بن أنس"، هل تردد هؤلاء على قصور الخلفاء، وكانوا فقهاء بلاط، أم كانوا انتليجنسيا عضوية بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى

---

<sup>1</sup> - د. محمد أركون: الإسلام: الأخلاق والسياسة، ترجمة هاشم صالح، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1986، ص226.

بحسب تعبير "غرامشي"، أي طليعة ارتبطت عضويًا بالأمة، وعبرت عن تطلعاتها وآلامها<sup>١</sup>.

لقد خضع التفسير العربي التقدمي للتدين، لميكانيكية المركزية الأوروبية Euro centrism، وبخاصة أفقها الماركسوي الرسمي، المتضمن أن الدين أفيون الشعوب.

لقد اختار هذا الموقف من التراث الماركسي ما يؤيد وجهة نظر إيديولوجية لا معرفية منهجية جدلية، وإلا كيف نفسر تثمان "ماركس" للدين بقوله: ((الدين عند الكثيرين هو النظرية العامة لهذا العالم، وهو مجموعة معارفهم الموسوعية، وهو منطقتهم الذي يتخذ شكلاً شعبياً، وهو موضوع اعتزازهم الروحي، وموقع حماسهم، وهو أداة قصاصهم، ومنهجهم الأخلاقي))<sup>٢</sup>.

وعلى رغم دقة هذا التقويم، وقيامه على أسس علمية نقدية صائبة، إلا أن التقويم المذكور يمكن وصفه بأنه ستاتيكي ساكن، وفضلاً عن ذلك، فالنص الأنف الذكر يؤكد لنا أن "ماركس" يكتفي هنا بإعلان وتقدير ما حدث ويحدث لدى الغير، من دون أن يكون الدين موضع اهتمامه وهاجسه.

وفي الحقيقة، يمكن القول إن الماركسية لا تعير الدين الأهمية بصفته وضعاً إلهياً، خلافاً لوضعه البشري التاريخي، المتمثل في واندراجه وانغراسه وتغلغله في المجتمع والحياة، وصيرورته جزءاً من نسيج الجماعة وحياتها وثقافتها ومنطقها، واعتزازها ومعقد رجائها وعزتها، ففي هذه الحال الأخيرة نحن هنا أمام ضمير الجماعة وروحها ووجدانها، ولا محيص، بالتالي، التعامل مع ذلك.

---

<sup>1</sup> - قريب من ذلك أنظر: الفضل شلق: الاجتهاد وأزمة الحضارة العربية، مجلة الاجتهاد، السنة 2، العدد 8، صيف 1990، ص 10.

<sup>2</sup> - رفعت السعيد: الإسلام السياسي، مجلة قضايا فكرية، الكتاب الثامن 1989، ص 15.

وخلافاً للماركسية، فالثورة العربية الناصرية تعطي الدين دوراً إنسانياً تقدماً دينامياً معراجياً ارتقائياً، فضلاً عن حقيقته الدائمة الخالدة، خلود المقدس المطلق: الله.

وعلاوة على ذلك، فالثورة الناصرية تقرر حقيقة تاريخية خاصة بالنسبة إلى الأمة العربية، وهي الدور الذي لعبه الدين الإسلامي في صياغة الحياة على الأرض العربية، وفي صون هذه الأمة في وجودها وثقافتها وتراثها.

وبالطبع، يصعب علينا رسم إطار نظرية متكاملة عن موقف الناصرية من الدين، فهذا يرتب علينا مسؤولية الحفر والبحث عن النصوص كافة المتعلقة بذلك في مظانها: فلسفة الثورة - الميثاق - خطب عبد الناصر.

وبصورة عامة، يمكن القول إن الناصرية ترى أن الدين لعب ويلعب الأدوار الآتية:

- 1- الدور التاريخي في نشأة الأمة العربية وحمايتها، والذود عنها.
- 2- تعزيز كرامة الفرد، وترسيخ ذاته، ونماء شخصيته، والارتقاء به.
- 3- الدين كعنصر في المنظومة السياسية (أولية للتقدم، وأولية في يد المرجعية والانكفاء)...

وفي الحقيقة، كان الدين مصدر القوة وموئلاً التي استند إليها شعبنا العربي العظيم في اجتراح تجاربه التاريخية الثرة، وكان المسجد هو الجامعة التي يلجأ إليها في التعليم والعبادة، والحصن الذي تخرج منه جموع المناضلين ضد الاستعمار وأعداء الأمة العربية.

يقول "عبد الناصر" في الميثاق: ((ثم كان قد تحمل المسؤولية الأدبية في حفظ التراث الحضاري العربي، وذخائره الحافلة، وجعل من أزهره الشريف حصناً للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت التي فرضتها الخلافة العثمانية استعماراً ورجعية باسم الدين، والدين منه براء)).

ويشير "عبد الناصر" في الميثاق عن دور الدين في الدفاع عن حرية البلاد بقوله: ((ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هي التي صنعت اليقظة المصرية في ذلك الوقت، كما يقول بعض المؤرخين، فإن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانها إلى الحياة في مصر كلها، كما وجدت أن الشعب المصري يرفض الاستعمار العثماني المقنع بالخلافة، والذي كان يفرض عليه دون ما مبرر حقيقي تصادماً بين الإيمان الديني الأصيل في هذا الشعب، وبين إرادة الحياة التي ترفض الاستيلاء)).

ويسجل "عبد الناصر" عمق الدين في وجداننا الجمعي ودوره في صياغة ضميرنا الشعبي: ((إن شعبنا يعتقد في رسالة الأديان، وهو يعيش في المنطقة التي هبطت عليها رسالات السماء)).

ويؤكد "عبد الناصر" أن إيمان شعبنا برسالة الأديان هو المنطق لإبداعات هذا الشعب في دروب الحياة والتقدم والارتقاء الحضاري: ((إن رسالات السماء كلها في جوهرها كانت ثورات إنسانية استهدفت شرف الإنسان وسعادته)).

والقيم الروحية هي الموثل الذي لا ينضب لطاقات الإنسان وقدراته: ((إن القيم الروحية النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان، وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان، وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة)).

والدين هو مهماز الإنسان في حصوله على حق الحياة والحرية: ((إن الإنسان يحصل على حقه في الحياة والحرية بأمر من الدين)).

((إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان في الحياة والحرية، بل إن أساس الثواب والعقاب في الدين هو فرصة متكافئة لكل إنسان.

والدين لا يرضى بطبقية تورث الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس... إن بشراً يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر،



ولا يرضى الدين بطبقية تورث عقاب الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس،  
وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم)).

((إن الله - جلّت حكمته - وضع الفرصة المتكافئة أمام البشر أساساً للعمل في  
الدنيا وللحساب في الآخر)).

ويحذر "عبد الناصر" من تسخير الدين لعرقلة الحياة: ((لقد كانت جميع الأديان  
ذات رسالة تقدمية، ولكن الرجعية التي أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها  
وحدها أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين، وراحت تلتمس فيه ما يتعارض  
مع روحه ذاتها لكي توقف تيار التقدم)).

ويؤكد "عبد الناصر" مرة ثانية التفسير الرجعي للدين للوقوف في طريق التقدم:  
((إن جوهر الرسائل الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة، وإنما ينتج التصادم في  
بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة  
التقدم، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية)).

### نظرية الدين عن عبد الناصر

أولاً: إذا استطعنا أن ننسق الأفكار الأنفة الذكر تنسيقاً زمنياً وموضوعياً، أمكننا  
القول إن عبد الناصر استشفها ليستشرف أفقاً أنتولوجياً كونياً للإنسان.

وهذا المدخل الفلسفي الانتولوجي هو مفتاح اندراج البشر في التاريخ والمجتمع...  
وبالطبع فعبد الناصر ينبري هنا لتوظيف هذه الأفكار توظيفاً تقدمياً، مناطه  
ووجهته وأساسه عدم الوقوع في شرك الجبرية الدينية، ولاسيما أفقها السياسي  
البغيض الذي يبرر ويسوغ تصرفات الحكام وأعمالهم، بردها ونسبتها إلى الإرادة  
الإلهية.

والأمر نفسه بالنسبة إلى توظيف الدين توظيفاً رجعياً يبرر قيام الفقر  
والجهل والمرض، ويسوغ الخير لقلة من الناس.

فالأديان، بلا استثناء «في جوهرها» ثورات إنسانية، جاءت لتكفكف دموع الإنسان، وتفجر فيه طاقات لا نهائية من التقدم والشرف والسعادة والخير والصلاح.

وهذا المصدر الثر للطاقة الدين لا يزال دوره التقدمي قائماً، والقيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وإضاءة حياته بنور الإيمان ومنحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة.

وبذلك تسقط كل محاولة رجعية للسيطرة على هذه الآلية التقدمية وتفسيرها بما يتصادم مع حقائق الحياة في التقدم والفلاح، وذلك بافتعال تفسيرات للدين تتصادم مع الحكمة الإلهية السامية.

وينبري عبد الناصر مستخدماً هذا المنهج التقدمي في تفسير أحداث تاريخنا العربي، كاشفاً عن الدول الذي لعبه الإسلام في حفظ التراث الحضاري العربي وذخائره الحافلة، ثم قيام الأزهر الشريف بدور الحصن المنيع لمقاومة عوامل التفتت والضعف الناجمين عن الخلافة العثمانية، وقيامه أيضاً في وجه الحملة الفرنسية في مطلع القرن التاسع عشر، واضعاً أي الأزهر حجر الأساس في صرح النهضة العربية المعاصرة.

والخلاصة، لقد أسس منهج عبد الناصر علاقة فذة بين العروبة والإسلام، علاقة ترقى إلى مستوى التكوين والتماهي المتبادل<sup>1</sup>، وتكون بمثابة نقطة انطلاق لأية تجربة تاريخية حضارية لهذه الأمة، أو لأي تعبير سياسي يجسد آمالها وآلامها.

هذه الحضارة العربية الإسلامية، كنقطة انطلاق، حقيقية موضوعية، ومعطى تاريخي يفرض نفسه على كل ذي بصيرة، وفي هذا الصدد نذكر بقول

---

<sup>1</sup> - أنظر في الكلام على التماهي بين العروبة والإسلام: المرجع السابق، ص34

المطران "جورج خضر": ((إن هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية، ونحن ننتمي إليها))<sup>1</sup>.

وكذلك قول المفكر العربي "أمين نخلة": ((كأن الإسلام إسلامان: واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة، وكأنما العرب جميعاً مسلمون حين يكون الإسلام اهتداءً بمحمد وتمسكاً وكلفاً بلغته))<sup>2</sup>.

وكذلك قول "مصطفى السباعي": ((إن كل أمة من الأمم المتحضرة وكل قومية من قوميات العالم الحديث، لها فلسفتها الخاصة بها، فللروس فلسفتهم الشيوعية، وللغربيين فلسفتهم الديمقراطية أو الرأسمالية، ونحن العرب من مسلمين ومسيحيين لنا فلسفتنا التي طبعتها في التاريخ طبعاً خاصاً، وجعلتنا في تاريخ العالم شيئاً مذكوراً، والتي يجب أن تميزنا اليوم من غيرنا من الأمم... إن فلسفتنا القومية هي الإسلام، لا الإسلام بمفهومه الديني الكنسي، ولا الإسلام بمفهومه العبادي الذي يقتصر على المسلمين فحسب، بل الإسلام بمفهومه الواسع وفلسفته الشاملة للحياة، ومبادئه العامة في الأخلاق وتشريعه المدني العالمي، هذه هي فلسفتنا نحن العرب))<sup>3</sup>.

هذا المنهج الناصري لا يعتبر الدين آلة في متحف التاريخ، وقد انتهى دورها بحسب تعبير "إنجلز" المشهور، بل إن هذه الآلة كان ولا تزال تلعب دورها الكبير في التقدم والفلاح والصلاح، ومن ثم فالقيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان، وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان، وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة.

<sup>1</sup> -غالي شكري: لويس عوض ومراوغة التاريخ، مجلة الناقد، السنة 3، العدد 25 تموز/يوليو 1990، ص18.

<sup>2</sup> - الحوار القومي - الديني: أوراق عمل ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، المركز، 1989، ص123.

<sup>3</sup> - د. مصطفى السباعي: اشتراكية الإسلام، ط2، دمشق، 1960، ص20.

والناصرية بهذا المعنى لا يمكن اعتبارها دعوة علمانية بالمفهوم العربي للعلمانية<sup>١</sup>، فهذه الظاهرة «كسياق ونتاج تاريخي معين، ويحمل لواءها طبقة اجتماعية معينة» تسعى لأن (تستبدل بالشرائع والقواعد والآداب التي جاء بها الإسلام شرائع وقواعد وآداباً وضعية)، وهي (ركن من نظام شامل متكامل للحياة الدنيا، علماني في وقفة من الدين، فردي في موقفه من المجتمع، ليبرالي في موقفه من الدولة، رأسمالي في موقفه من الاقتصاد)<sup>٢</sup>.

فهذه العلمانية وافد غربي استلهمها نفر من مصلحينا عندما ظنوا أن الإسلام هو ما قدمته إليهم المؤسسات التراثية التقليدية التي عاشت وماتت في إطار التصورات الفكرية لعصر المماليك والعثمانيين<sup>٣</sup>.

وهذه العلمانية «كما تبلورت في الحضارية الغربية» تضع العلم مقابلاً، بل نقيضاً للدين، وذلك لنشأتها وتبلورها في بيئة حضارية شهدت صراعاً شهيماً ومريراً بين الدين كما قدمه اللاهوت الكنسي الكاثوليكي في أوروبا، وبين العلم الذي تأسست على قواعده النهضة الأوروبية الحديثة.

وفي الحقيقة أن عدااء الدين للعلم هو خاصية (كاثوليكية أوروبية) ولا وجه للشبه بين المقدمات والملابسات التي أثمرت هذا العدااء، وهذا الصراع بين واقع الإسلام وموقفه ورأي أغلب تيارات الفكر الإسلامي ومذاهبه في هذا الموضوع<sup>٤</sup>.

فالإسلام لا يمد نطاق علوم الوحي والشرع إلى كل الميادين ولا يفرض الدين والغيب على كل مجالات الحياة الدنيوية التي ترك الفصل فيها والتفسير لها

---

<sup>١</sup> - العلمانية بالمفهوم الأوروبي ليست ضد الدين ولا مع الدين، أنظر د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، سلسلة الثقافة القومية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1986، ص422.

<sup>٢</sup> - المرجع السابق، ص423.

<sup>٣</sup> - د. محمد عمارة، التراث في ضوء العقل، بيروت، دار الوحدة، 1980، ص182.

<sup>٤</sup> - المرجع السابق، ص18.

لعلوم العقل والتجربة الإنسانية، ومن ثم، فقد تأخى فيه العلم والدين والعقل والنقل والحكمة والشريعة والدنيا والآخرة<sup>1</sup>.

من هنا فالعلمانية لم لن تكون سبيلنا إلى التقدم، بل ولا حتى لمواجهة قوى التخلف التي تحاول تمثيل دور الكنيسة الكاثوليكية في عالم الإسلام... وإنما سبيلنا إلى التقدم هو الوعي والفقه لحقيقة موقف الإسلام، ذلك الموقف الذي ينكر العلمانية، ولكنه ينكر في الوقت نفسه نقيضها.

ومن ثم فالذين يختارون العلمانية، أو الذين يسعون إلى إقامة دولة دينية كهنوتية، يسلبون الأمة سلطانها وسلطاتها، وما هؤلاء وأولئك إلا مقلدون - بوعي أو بغير وعي - للحضارة الغازية، غافلون أو متغافلون عن أشياء جوهرية، هي بالنسبة إلى الإنسان العربي المسلم منطلقات أساسية، ومن بينها، بل في مقدمتها: حقيقة موقف الإسلام من العلم، ومن العقل، ومدى الحرية التي منحه للإنسان في ما يتعلق بأمور الحياة الدنيا<sup>2</sup>.

ويركز "د. عصمت سيف الدولة" على فضح الاغتراب الذي تمثله هذه العلمانية العربية، والملايسات الاستعمارية التي اقترنت بها وروجت لها، وفي ذلك يقول: ((وقد بدأ الاستعمار القاهر الظافر بفرض نظامه على الحياة العربية، فاستبعد الإسلام نظاماً وتركه للناس عقيدة ومناسك وأحوالاً شخصية، وأقام له حارساً باطشاً من جنده المسلحين، وترك له أن يغير ما بالناس من خلال اضطرار الناس إلى الملائمة بين حياتهم اليومية وبين قواعد النظام المفروض بالقوة، ثم اطراد تلك الملائمة خلال زمان غير قصير ليصبح النظام تقاليد وعادات وآداباً يغذيها تيار فكري من "المشايخ" والأساتذة والمعلمين والتلامذة وخريجي جامعات أوروبا من

<sup>1</sup> - د. محمد عمارة، التراث في ضوء العقل، ص183.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص183، والفضل شلق: الاجتهاد وأزمة الحضارة العربية، ص6، إذ ينكر الفضل شلق أن تكون السلطة الدينية في الإسلام ذات جسم رسمي له إطار مميز من المجتمع، بل كانت دوماً جزءاً من المجتمع ومؤسساته وتعبيراً عنه.

الموفدين، وعملاء الاستعمار من المبشرين الوافدين، لتبرير استبعاد الإسلام نظاماً والاكتفاء به مناسك وعبادات، ويرشون الشعب المتخلف بأوهام التقدم الأوروبي... إلخ.

وأدى كل هذا، وغيره من مثل، إلى قدر من الشعور المستقر بالانتماء إلى الحضارة الغربية يسمونه الاغتراب هو القاعدة النفسية اللازمة لنمو الولاء للنظام الفردي الليبرالي الرأسمالي على حساب الولاء للنظام الإسلامي.

وهكذا لم تعد العلمانية دعوة ضد الدين عامة، والإسلام خاصة، بل أصبحت ذات مضمون حضاري فردي ليبرالي رأسمالي، فهي نقيض للتكوين القومي الجماعي في جوهره، ونقض للحضارة العربية الإسلامية في جوهرها<sup>1</sup>.

ثانياً: هكذا ونتيجة لهذا التخريب والتغريب، نشأت في كل قطر عربي طبقة قومية الانتماء إقليمية الولاء، مادية الباطن إسلامية الظاهر، فردية البواعث جمعية الغايات، رأسمالية النشاط، اجتماعية الأرباح، تتعلق بها وتتغذى عليها شخوص من الفلاسفة والمفكرين والكتاب... وتروج بضاعتها بما يفرزونه من مذاهب وأفكار وآراء.

وهي طبقة نشأت مع الاستعمار وأحاطت به في عزلته واستعلائته على الشعب واحتقاره للجماهير، لتؤدي بالنيابة عنه، ولحسابه، نقض الحضارة العربية من بناء شخصية الإنسان العربي، ليسكت، ثم يقبل، ثم يرضى بالتعايش مع الاستعمار في الوطن العربي المجزأ تبعاً لدرجات التخريب والتغريب وتأثيرها في إضعاف هيكل شخصيته<sup>2</sup>.

والمتمثل في النصوص الناصرية الآنف الذكر، يتضح له أنها أبرزت أهمية الدين دوره من خلال موقعيته في المجتمع المدني والأهلي، وليس من خلال البنية

<sup>1</sup> - د. سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، ص 423 - 424.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 428 - 429.

السياسية، وهذا هو معنى الكلام عن قيم روحية نابغة من الأديان، وليس من تعالي السياسة أو تسييس المتعالي.

فالدين لا يمكن أن ينحشر في تحوله إلى مشروع سياسي ليس من طبيعته، إذ الدين مطلق وشعائري، والسياسي نسبي ومتغير وذو طبيعة مساومة، ولا يستطيع الديني أن يتنازل للمساومة والتفاوض والتوافق، كما أن السياسي لا يستطيع التحول إلى مطلق ومقدس.

وإذا كان لا بد من قيام سلطة تضطلع بأعباء الوظيفة الدينية، فهذه الوظيفة لا تعدو القيادة الروحية، فتبقى للدين مشروعيتها العليا القيمة لا التدبيرية<sup>1</sup>.

ويمكن التأكيد بأن الفكر الناصري يتفق في جوهره وروحه مع روح الفكر الإسلامي في مذاهبه وتياراته كلها.

وتوضيح ذلك أن الفكر الإسلامي، باستثناء المعتقد الشيعي، ينكر وجود السلطة الدينية، وينفي أن يكون من حق أي فرد أو هيئة إضفاء القدسية الإلهية على ما تصدر من أحكام وآراء.

وخف هذا الموقف المدني المتقدم في التفكير يقف تراث الإسلام الحقيقي إذا نحن ذهبنا نلتمسه من مصادره الجوهرية والنقية قبل أن تطرأ عليه وتضاف إليه تلك التأثيرات التي دخلت إليه من القصص العبراني ومن حضارات الفرس والروم<sup>2</sup>.

وذلك أن مقتضى التسليم بوجود السلطة الدينية لفرد أو هيئة يقتضي إضفاء القداسة والعصمة على ما تقدم من آراء، وهذه العصمة ينفياها الإسلام عن

---

<sup>1</sup> - د. رضوان السيد: الديني والسياسي في لبنان والوطن العربي، مجلة الاجتهاد، السنة 4، العددان 15 - 16 ربيع/صيف 1992، ص333، وأنظر محمد أحمد خلف الله: القرآن والدولة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1973، ص79.

<sup>2</sup> - د. محمد عمارة: الدولة الاسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، ط2 بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ص13.

البشر جميعاً، ولا يعترف بها إلا للرسول ﷺ، وبالذات فقط في ما يتعلق بالجانب الديني) من دعوته لأنه في هذا الجانب كان مبلغاً عن السماء، ومؤدياً لما توحى به إليه، ولم يكن مجتهداً، ولا مبتدعاً فيه، فهو في هذا الجانب ما كان ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وما على الرسول ﷺ في هذا الجانب الديني إلا البلوغ، أما الجانب الدنيوي الذي تعرض له الرسول ﷺ في تبليغ رسالته الأساسية ومهمته الدينية، فقد كان فيه بشراً مجتهداً عند غياب النص القرآني الصريح، ومن ثم فلقد كانت اجتهاداته وآراؤه في هذا الجانب موضوعاً للشورى، أي البحث والأخذ والعطاء والقبول والرفض في هذا الجانب من جوانب الممارسة والتفكير.

ومصادقاً لهذا التمييز، بين ما هو دين وما هو سياسة ودنيا، قال صلوات الله وسلامه عليه: ﴿إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِهِ، فَإِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَأَلِيٌّ﴾.

ويؤكد الإمام محمد عبده أن الموقف المبدئي والثابت للإسلام من السلطة الدينية، هو رفضها والعداء لها، بل يرى أن إحدى المهام التي جاء بها الإسلام هي هدم هذه السلطة، يقول الإمام: ((ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعدة الحسنة والدعوة إلى الخير والتفكير من الشر)).

وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولهم لأعلاهم يتناول بها من أدناهم<sup>1</sup>.

والأمة في الإسلام هي مصدر سلطة الحاكم، فهي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه، ولا

---

<sup>1</sup> - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق محمد عمارة، ج5، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1972 - 1973، ج 3، ص285.



يجوز لسليم النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج "ثيوقراطيك" أي سلطان إلهي<sup>1</sup>.

هذا الفصل بين ما هو ديني وما هو سياسي أصبح وعياً إسلامياً معمقاً وساحقاً، فقد اختلف المحدثون والفقهاء بزعامه "أحمد بن حنبل" مع المأمون في شأن خلق القرآن، حيث رأى هؤلاء أن في فرض عقيدة خلق القرآن تدخلاً من جانب الدولة في الدين الذي هو من اختصاصهم، لكنهم، وهم يعانون السجن، كانوا يصرون على الطاعة للسلطة في الشأن السياسي<sup>2</sup>.

وتزعم "ابن تيمية" العامة في الدفاع عن دمشق، من دون أن يستولي على السلطة بعد دفع الغزاة، بل سلمها إلى والي السلطان، والأمر نفسه بالنسبة إلى "عمر مكرم" ورجالات الأزهر فقد كان بوسعهم الوصول إلى السلطة في مصر بعد هزيمة الفرنسيين وانسجامهم من القاهرة، لكنهم لم يفعلوا ذلك، بل دعموا وصول "محمد علي باشا" إلى السلطة، ولم يتغير الأمر بالنسبة إلى حركات الإصلاح الديني الحديثة مجسدة في الوهابية والسنوسية<sup>3</sup>.

ثالثاً: يقرر "الفضل شلق" أن تخصص رجال الدين ومعرفتهم بالأمر الدينية لا يعطيهم سلطة القرار، بل يجعلهم يحملون فقط مسؤولية الإيضاح، وبيان الأمور الدينية والأحكام كي يقرر المسلمون بأنفسهم الخيارات والأحكام التي يثبتونها، إذ الجميع يشاركون في الاجتهاد، كل بحسب علمه ومعرفته.

وبهذا المعنى، فالإجماع في الإسلام ليس قراراً بالتطبيق تتخذه فئة ما بالنيابة عن الجماعة، بل هو إجماع الأمة، إنه سيرورة تنمو وتتطور تدريجياً وتراكمياً، وهو حالة توصل إليها الجماعة، أكثر مما هو قرار يتم الانطلاق منه<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ص 287.

<sup>2</sup> - د. رضوان السيد: الديني والسياسي في لبنان والوطن العربي، ص 330.

<sup>3</sup> - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ص 287.

<sup>4</sup> - الفضل شلق: الاجتهاد وأزمة الحضارة العربية، مجلة الاجتهاد، ص 13.

ولتحقيق هذه الآلية «والكلام للفضل شلق» فقد كان باب الاجتهاد في التاريخ الإسلامي مفتوحاً على مصراعيه أمام جميع المسلمين بطريقة تفسح مجال الخلاف: ((والفقهاء المؤرخون سمووا الفقه علم الخلافات))، والجدل بين الآراء المتعددة على أسس من الاحترام المتبادل والتسامح حيال الآخر، وكان ذلك سبباً رئيسياً في الحفاظ على وحدة الجماع ومنع الانشقاقات الدينية، إذ ما شهد هذا التاريخ انشقاقات دينية، في ما عدا ما كان في القرن الأول الهجري حين أخضع الدين لمتطلبات الصراعات السياسية، وفي ما عدا ذلك كان التاريخ الإسلامي تاريخ اندماج اجتماعي ديني هائل حصل نتيجة السماح بالخلافات الفقهية لا بالإرغام على التوافق<sup>1</sup>.

فكأنهم كانوا يدركون أن الرحرحة في الحوار والنقاش والتسامح، إزاء آراء الآخرين وإزاء الخلافات وتعدد الاجتهادات هي الوسيلة التي تضمن وحدة الأمة... وكان باستطاعتهم إنشاء ثقافة جديدة موجودة لأنهم سمحوا بتعدد الخلافات وألغوا إمكانية قيام أية سلطة دينية تحسم الخلاف لصالح هذا الفريق أو ذلك... فقد أدت الخلافات المذهبية وتعدد الاجتهادات في كل مسألة تقريباً إلى تحقيق عملية اندماج هائلة أوقى من أية وحدة شكلية يمكن أن تتحقق على يد سلطة دينية أو إيديولوجية<sup>2</sup>.

وإذا كان قولاً خارجاً عن الجدل أن يسمح الإسلام بقيام سلطة دينية ذات إطار وجسم **corps** قائم بذاته ومتميز، والأمر نفسه كذلك بالنسبة إلى الأساس الديني للسلطتين التنفيذية والقضائية، فما هو الشأن بالنسبة إلى السلطة التشريعية، إذ لا تزال حتى تاريخه أصوات تتعالى بين ظهرانينا تؤكد أن الحاكمية لشريعة الله، وأن هذه الشريعة هي العليا، لا شريعة معها ولا شريعة فوقها<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ص 287.

<sup>2</sup> - الفضل شلق: الاجتهاد وأزمة الحضارة العربية، مجلة الاجتهاد، ص 14.

<sup>3</sup> - د. علي محمد جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، القاهرة: مكتبة وهبة، 1975، ص 91.

ولكن أسنا «على الأقل» حيال تبسيط للأمور منذ أن أطلق الخوارج شعار الحكم لله، ورد سيدنا عليّ عليهم، بأن هذا الشعار كلمة حق أريد بها باطل، ثم قوله لابن عباس أن يجادلهم بحديث رسول الله لا بالقرآن، إدراكاً منه أن القرآن فلسفة سياسية: (حمال معان)، وأن العلم يعني التحديد، والقرآن يمكن أن يثير جدلاً شديداً حول معانية الكلية، أو بحسب التعبير الحريفي لسيدنا عليّ: ((تقول ويقولون)).

وفي الحقيقة هنالك فريق سياسي يرفع شعار (الشريعة الإسلامية)، ويركز على أن الهدف الوحيد الأوحده الذي يجب أن تتجه إليه الجهود هو تطبيقها الفوري، مع العلم أن هذا الفريق عجز «على رغم ما تتسع به الحضارة الحديثة من أهداف» عن أن يطرح إلا هذا الشعار الوحيد الأوحده.

ولنا أن نتساءل مع "د. عصمت سيف الدولة" عن المقصود، على وجه التحديد، من الشريعة الإسلامية، هل هي شرع الله كما جاءت به الآيات المحكمات في القرآن، أم هي المذاهب الفقهية؟ ((وإذا كانت المذاهب الفقهية، فهل هي مذاهب القرون الأولى بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، أم هي مذاهب تقوم على أصول من القرآن حتى لو اجتهد فيها المعاصرون؟ وإذا كانت المذاهب الفقهية السلفية، فأى مذهب يعنيه بالشريعة الإسلامية؟ وإذا اختار مذهباً، وفي كل المذاهب آراء مختلفة راجحة ومرجوحة، فأى رأي يريد له أن يكون هو الشريعة الإسلامية؟ فإن كانت الشريعة الإسلامية هي انتقاء ما يلاءم مصالح المسلمين في هذا العصر، فمن الذي ينتقي ويختار؟ وإذا كان هو الذي ينتقي ويختار، فما الذي انتقاه واختاره؟ وإذا كان قد انتقى، فما هي قواعد الشريعة الإسلامية التي يرى أنها ملائمة لتنظيم وتحقيق مصالح المسلمين في هذا العصر، ولم يكن لها سابقة في المذاهب؟)).<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - د. سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، ص441.

وفي الحقيقة لقد جرى «حتى الآن» رفع شعار تطبيق الشريعة في مواجهة القوانين الوضعية، لكن هذا التطبيق يتطلب تحويلها إلى قانون على يد البشر، ويعني تحويلها إلى قانون وضعي، وبذلك ينتهي هذا الشعار إلى عكس النتيجة المطلوبة، أي إلى مواجهة القوانين الوضعية بقوانين وضعية أخرى.

أضف إلى ذلك أن القوانين المستندة إلى مصدر إليه هي قوانين يطبقها البشر من خلال فهم معين للنص الموحي به، فهي قوانين تظهر إلى الوجود من خلال وسيط بشري، هي قوانين وضعية من نوع آخر.

وبيان ذلك أن هذا التطبيق لا يتم بصورة آلية ميكانيكية، بل لا بد من قيام المتخصصين علمان القانون أو الفقهاء بضبط العنصر الفني الصياغي للمادة المطلوب تعييدها، وذلك بجعلها قابلة للتطبيق، ثم اقتران ذلك بالسياسة التشريعية<sup>1</sup>، أي قيام الإرادة البشرية التي تلزم بالقاعدة، وهي بالنسبة إلى القوانين الوضعية إرادة الأمة ممثلة بالسلطة التشريعية.

ونعتقد أن السلف الصالح أدرك هذه الطبيعة الذاتية لآلية سن القوانين، سواء لجهة العنصر الصياغي أو لجهة السياسة التشريعية، وهذا ما يتضح «بالنسبة إلى العنصر الصياغي» من قول سيدنا "علي: ((القرآن حمال معان))، وقوله "لابن عباس": ((تقول ويقولون))، أي فهمه أن النص القرآني لا يقوم على قواعد قابلة للتطبيق، بل لا بد من صياغتها بقواعد محددة.

ومن وجهة أخرى، فقد تم التعامل مع العنصر الثاني للقاعدة القانونية، أي مع عنصر السياسة التشريعية، بدليل أن الكتاب «الدستور» الذي كتبه الرسول ﷺ في السنة الأولى للهجرة ليحكم المجتمع الجديد في يثرب، هذا الكتاب تضمن في ما

---

<sup>1</sup> - يختلف هذا الجهاز المفاهيمي السائد في علم القانون الوضعي عن الجهاز المفاهيمي (السياسة الشرعية) السائد في الشريعة الإسلامية، وهو وصف مقترن بالحكم بأنه أقرب إلى الصلاح منه إلى الفساد.

تضمنه التزام المؤمنين ألا يتركوا مفرحاً «المثقل بالدين»، وأن يفدوا عانيهم أسراهم، وأخيراً أن يتعاقلوا في ما بينهم «دفع دية القتلى»<sup>1</sup>.

وفي الحقيقة نحن هنا أمام ما نطلق عليه في أدبنا المعاصر بالحقوق الاجتماعية، وهذه الحقوق المقررة هي تلك الجرعة التي امتاحها هذا المجتمع السياسي من النص القرآني ليقننها ويعتمدها دستوراً يحكم لتلك الحقبة الزمنية من خلال الإرادة الوضعية لهذا المجتمع.

ولولا هذا الفهم الدقيق للمسألة التقنية الفنية، لرأينا الرسول ﷺ وصحبه يكتفون بتطبيق القرآن من دون صياغة هذا الدستور.

إن تحويل الشريعة إلى قانون هو أمر لم يكن وارداً في تاريخ المجتمع الإسلامي منذ مراحل الأولى سوى في عهد العثمانيين والصفويين، حين تم تبني مذهب واحد لدى كل منهما المذهب الحنفي لدى العثمانيين والمذهب الجعفري لدى الصفويين، بدل أن يكون الفقه مبنياً على تعدد الآراء والمذاهب التي يتعايش كل منها مع الآخر، لأنها تعترف بنسبية المعرفة الفقهية في كل منها، ولأنها تدرك أن هذا التعايش شرط ضروري لنشوء إجماعات تتكون تاريخياً، لأن الخلافات تنشأ في إطار واحد، الأمر الذي يسمح بنشوء وحدة ثقافية أقوى تنشأ حصيلة تفاعل وصراع مختلف القوى الاجتماعية والآراء الناتجة منها، وليس حصيلة قسر فكري تفرضه الدولة أو غيرها من سلطات القمع... إن رفع شعار تطبيق الشريعة ينقل السلطة الدينية من يد المجتمع ليضعها في يد الدولة، وهو ما يجعلها أكثر قدرة على القمع والقسر<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - ورد نص هذا الكتاب، نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ط3، دمشق، دار الفكر، 1983، ص442.

<sup>2</sup> - الفضل شلق: الاجتهاد وأزمة الحضارة العربية، ص52.

ومع ذلك، فهذا الموقف من الشريعة لا يعني اطراحها والتخارج المطلق السالب منها، لسبب بسيط هو أن هذه الشريعة تتفوق على أي قانون وضعي بسمات ومزايا متعددة أهمها:

أ- إن هذه الشريعة تمتاح الشيء الكثير من معين الأخلاق، ودائرة الأخلاقية، وهي المصفاة التي تدخل من خلالها الأخلاق رحاب هذه الشريعة - متسعة جداً إذا ما قورن الأمر بالشريعة الرومانية وحفيتها الشرائع الوضعية الأوروبية المعاصرة.

ونحن نضرب مثلاً واحداً على سبيل المقارنة بين الشريعتين، متمثلاً في المديونية، حيث نجد الشريعة الإسلامية تميز بين مطل الغني فتسو وتغلط، وبين ضيق يد المدين فتحنو وترأف، فتتظر خلافاً للشريعة الرومانية التي تتعامل مع هذا الظاهرة تعاملاً حسابياً جامداً وصارماً.

ب- إن تطبيق الشريعة الإسلامية تماهى «وفي المراحل كافة لحياة أمتنا» مع سيادة أمتنا واستقلالها الوطني، اللهم إلا في حالات استثنائية اقترنت بالانكفاء والانتقاص من السيادة الوطنية، كما حدث لأول مرة في الغزو المغولي لأمتنا، وللمرة الثانية على يد الاستعمار البريطاني للشقيقة مصر.

ج- لقد نشأت الأمة العربية في رحم الثورة الحضارية التي حققها الإسلام، وبذلك فهذه الأمة هي أمة عربية، وليست جماعة مسلمة فحسب، وهي أمة عربية ذات هوية وتركيب وشخصية وكيان، وليست امتداداً ميكانيكياً لأي شعب من الشعوب التي كانت من قبل.

رابعاً: الإسلام ليس ديناً فحسب، بل هو ثورة اجتماعية ذات مضامين حضارية، أنشأت بينه وبين الأمة العربية علاقة عضوية تاريخية خاصة.

ذلك أن الإسلام كثورة اجتماعية، لعب دوراً أساسياً في تكوين الأمة العربية، وما ينكر الوجود القومي للأمة العربية إلا من ينكر على الإسلام مضمونه

الثوري الحضاري الذي أسهم في تكوين الأمة العربي، إلا من ينكر على الإسلام مضمونه الثوري الحضاري الذي أسهم في تكوين الأمة العربي، وما ينكر أن الأمة العربية «أمة الإسلام، إذ قد أسهم وجودها ولم تكن موجودة من قبله» إلا الذين يفرغون العروبة من حضارتها .

والحق يقال، إنه حيث نبحت عن حضارة إسلامية خالصة من الآثار الشعبوية لا نجدتها إلا في الحضارة العربية، وحيث نبحت عن حضارة عربية خالصة من الآثار القبلية لا نجدتها إلا في الحضارة الإسلامية.

كذلك أصر الأكثر علماً بالتاريخ على التوحيد بين كلمة «مسلم» وكلمة «عربي» في الدلالة على الحركة الحضارية يوم أن كان العرب ينتصرون للإسلام فينصر الإسلام لهم<sup>1</sup>.

واستناداً إلى كل ما تقدم، ووضعاً للقضية في إطارها الصحيح، يصبح من الضروري التأكيد بأن الخطورة لا تكمن في الامتياح التشريعي من أدب الإسلام وحكمته الإلهية الخالدة، وإنما الخطر كل الخطر في دولنة الشريعة وسقوطها في قبضة حاكم أو فئة أو حزب، إذ المسألة الأولى والأخيرة في النظرية العامة للحكم تكمن في إرساء آلية الحكم على الإرادة العامة والعقل الجمعي، فهذه الحمولة الرصينة لتلك الآلية هي التي تقيل العثرات وتحمي من المزالق، وهذا ما أكده الرسول ﷺ بقوله: ﴿لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ﴾، وما روي عن عبد الله بن مسعود قوله: ((ما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن)).

إذاً فالقضية تكمن في إجماع الأمة، بغض النظر عن الموضوع الذي تم الإجماع عليه، وعن الوسيلة القانونية التي تحكم وتخدم هذا الإجماع.

---

<sup>1</sup> - د . سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، ص73.

فالعاصم هو جهاز الأمة، وليس جهاز الدولة، وبالطبع، ومن باب أولى أن يحقق هذا الجهاز صدقة ومصداقيته من خلال مقاصد الشريعة، وأدبها وكلياتها وأصولها الجامعة.

والحديث عن الأمة أو جهازها هو الحديث عن نظرتها العامة إلى هذا العالم، وعن تراثها وثقافتها الموسوعية، وعن منطقتها العام الذي يتخذ شكلاً شعبياً، وأخيراً عن معاقد عزتها الروحية، وموقع حماسها ومنهجها الأخلاقي.

وآلية كل ذلك هو إجماع الأمة وليس إجماع الفقهاء، إجماعاً يتخذ شكل سيورة ومخاض تاريخيين، وتجربة روحية فذة، وفضاء عقلي، وفي النهاية حالة انتماء.

وهذا الحق يؤكد "ماكيفر" بقوله: ((تظل أساطير الشعوب فوق الدولة، ولكن بعض الدول تحاول أن تكيف الأساطير على هواها، فتشووها، وتحرف معناها... ذلك أن أساطير الشعب المعبرة عن روح الجماعة تظل في انطلاقتها وحريتها إلى أن يفسدها حكم المستبدين، أو حكم المتزمتين، وهذه الأساطير هي وليدة التجارب مع فنون الحياة، ومع حس الأرض، ومع قيم الحب والرفعة، ومع نداء الفنون، ومع المسرات والأتراح، ومع الشوق اللامتناهي لتحقيق الرغبات، ومع الصراع مع تلك التجربة التي تستعصي على الفهم، إنها تجربة الإيمان))<sup>1</sup>.

إذاً فروح الجماعة هو الإطار الجامع القار للأساطير وفنون الحياة، وقيم الحب والرفعة، ونداء الفنون والمسرات والأفراح، ومعاقد العزة والأمجاد والمكارم، وفي هذه الروح يثوي التراث والمنطق العام والنظرة العامة إلى الوجود والنهج الأخلاقي.

وتأتي الشريعة لتجد مكانها هنالك في هذه الروح العامة، أي لتتحول إلى حالة إجماع وانتماء وهوية وذات وكيان، بآلية الفقهاء يشرحون والشعب يرضى ويقنع...

---

<sup>1</sup> - روبرت م. ماكيفر: تكوين الدولة، ترجمة حسن صعب، بيروت، دار العلم للملايين، 1966، ص524.



وفي نظرنا أن السياسة نفسها «وباعتبارها إحدى فعاليات الأمة» تأتي لتدخل هذه الحالة المنظومة، منظومة الفضاء العقلي والنفسي والخلقي والروحي للأمة. وهذا ما عبر عنه "مونتسكيو" بقوله: ((القانون هو النسب الثابتة الصادرة عن طبائع الأشياء)).

وقول "ريمون بولان": ((الدولة هي الحضارة بأسرها وقد استجمعت قواها وأفصحت عن نفسها في مجموعة من المؤسسات))<sup>1</sup>.

وهذه الرؤية الرصينة هي التي تكمن وراء مصنف "ريبير" العظيم الموسوم بعنوان

### القوى الخالقة للقانون Les Forces Cre'atrices a' la Loi

فقد أخذ هذا المؤلف ينقب عن قوى الحياة ويعد أبحاثاً بشأنها لاحظ كلمة «قوى» هذه أقوى التي تساهم في خلق القانون، قبل عملية سنه، ومنحه القوة الملزمة.

وفي نظرنا أن هذا الجهاز المفاهيمي الذي أطلقنا عليه تعبير الحالة والانتماء والفقهاء والشريعة جزء منه، هذا التكييف يكشف لنا عن المغزى الكبير في اعتبار عبد الناصر القيم الروحية النابعة من الأديان جزءاً من فعالية الأمة يأخذ مكانه في الجسم المدني وليس في الجسم الدولاتي.

وبالطبع فهذه الحالة السياسية «كجزء من الفضاء والانتماء» تخضع لجدلية الحركة والسكون.

وآلية ذلك أن الحضارة والثقافة والفنون والأخلاق، والفقهاء والشريعة، هذه الفعاليات ترنو إلى الاستقرار والانضواء في مؤسسات، وهكذا تنشأ القاعدة القانونية، كتعبير شفاف ودقيق وطبيعي عن هذه الفعاليات.

<sup>1</sup> - ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، ترجمة عادل العوا، دمشق، دار طلاس، 1988، ص301.

ولكن حركة الحياة آخذة بالنمو والدوران، والقانون نفسه تعبير عن توازن اجتماعي، وهذا التوازن بدوره قلق وخاضع للتعبير، ويشترئب إلى إدماج عناصر الجدة والحيوية، تجنباً للتجلط والتخثر<sup>1</sup>، فالموت.

والدولة نفسها رهان الحركة والسكون وضابط لهذه الجدلية، مجتهد ومنتقد وبالعكس فالمنتقد يغدو مجتهداً، وهكذا دواليك.

أما آلية ذلك من الناحية التقنية، وبحسب معطيات القانون العام الدستوري، فمظهرها تجديد العقد الاجتماعي الفعالية الانتخابية، وعدم جمود الدستور، وإعطاء كل فرد من أفراد الأمة جزءاً من السيادة العامة.

وحقيقة الأمر أن أفراد الأمة «وهم في ما أسميناه الحالة، والوضع السياسي» يجدون أنفسهم في وضع خام يدفعهم لأن يكونوا متجانسين متساوين متحدّين وخالقي الإرادة العامة.

وظالما أنهم في هذا الوضع الخام «السياسي والخلقي والمنطقي والعقلي»، إذا فهم متساوون أولاً، وأحرار ثانياً، ويملك كل منهم جزءاً من الإرادة العامة، ويعبرون أيضاً «بآلية خلق الدستور» عن حالة الانتماء.

وبيان ذلك أن الدستور هو خالق الدولة، والفرد هو خالق الخالق بالمعنى السياسي للخلق وليس الأنتولوجي.

إذا فليس من قوة تلزم المواطن عن سن الدستور، اللهم إلا ضميره وقناعته وحالة الانتماء التي سبق الإلماح إليها، بما تموج وتمور من قيم الأمة وتراثها وفعاليتها، والشريعة والفقه جزء من ذلك.

خامساً: يعرف فقهاء القانون الدستوري السيادة بأنها سلطة أصيلة وأصلية ومبتدأة ومشتقة من ذاتها وسامية، ولا يعلو عليها شيء.

---

<sup>1</sup> - جورج بورديو: الدولة، ترجمة سليم حداد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1985، ص85.

ولكن أليس هذه السيادة مشتقة من إرادة كل فرد باعتباره يملك جزءاً من السيادة بالتساوي مع الآخرين، على حد التعبير الحر في لـ "جان جاك روسو".  
إذاً كيف بالإمكان أن يكون الفرد سيداً إذا لم يتحرر ويتحلل من كل سلطة أخرى، اللهم إلا سلطة الفكر والضمير والأخلاق، وبذلك تغدو الشريعة ذات حمولة دينية وخلقية، ليس إلا.

يقول "الفضل شلق": ((إن الانتماء إلى الإسلام في هذه المجتمعات ليس حصيلة قمع تمارسه الدولة، ولا نتيجة ممارسة سلطة كنسية تصوغ العقيدة، وتحاسب الناس على أساسها، بل حصيلة التربية وصيرورة الفرد في المجتمع، بحيث يصبح هذا الانتماء جزءاً من طبيعة الفرد التي يمكن تطويرها لا سلخها عنه...))

كانت التربية وتنشئة الأفراد في هذه المجتمعات في مختلف مراحل تاريخها عملاً يقوم به المجتمع من خلال مؤسساته، ولم يكن عملاً تقوم به الدولة.

ولقد اختارت الدولة لنفسها منذ البداية دوراً في مجال التربية اقتصر على المماليك ثم الانكشارية، وذلك تلبية لأغراض الدولة وحاجاتها العسكرية فقط، أما المدارس وغيرها من المؤسسات التربوية، فقد كانت تقوم بمبادرات تصدر عن المجتمع...

وما دام الأمر كذلك، فإن المسلمين سيقومون بكل ممارساتهم انطلاقاً من معتقداتهم والمفاهيم المغروزة فيهم والتي تشكل الخلفية الحتمية لكل أفكارهم وتصرفاتهم... إن تطبيق الشريعة الذي يتم، كما حصل عبر مختلف مراحل التاريخ، بسبب تلك العلاقة الحميمة بين الفرد والشريعة بسبب التربية المجتمعية، وهو ممارسة أعلى وأسمى مما لو كان الأمر متروكاً للدولة تفرضه بقوة القمع، علماً بأن ما يفرض بالقوة يزول حالما تزول القوة التي تفرضه... إن شعار تطبيق

الشرعية يضعها في يد الدولة، ولا يزيد شيئاً إلى إسلام المسلمين باستثناء إضافة أداة قمعية أخرى بيد الدولة)<sup>1</sup>.

إن مقولة مجتمع الكتاب أو الشرعية لا تسمح بتقليص رقعة المعرفة الإنسانية وابتسارها وتراجعها إلى آلية الحلال والحرام، بل تشف فتستشرف آفاق المباح والمكروه والجائز، تلك الآليات التي تفجر أعظم الإبداعات الإنسانية.

وعلى هذا الأساس، فإننا نخالف الباحث جريشة في التقليل من أهمية التشريع البشري الابتنائي، وعدم السماح لهذا التشريع بالاستقلال عن التشريع الابتدائي - النص الديني.

وفي نظرنا أن هذا المنهج يقود إلى الانكفاء والجمود، ويضع الحواجز السميكة أمام انطلاق الأمة الإسلامية في معراج التقدم والإبداع الإنسانيين.

مثل بسيط نسوقه للتدليل على خطأ هذا الرأي، وهذا المثل يكمن في النصوص المتعلقة بفلسفة الحكم وأصوله.

فقد أجمع فقهاء القانون العام المحدثون على أن الأدب السياسي الإسلامي اقتصر على تقرير الأصول الآتية: العدل - المساواة - التضامن - الشورى - إطاعة أولي الأمر<sup>2</sup>.

وهنا جاء دور التشريع الابتنائي للخلفاء الراشدين والسلف الصالح، ليقدم إلينا إبداعات في منتهى الجدية والأهمية.

ونعتقد أن مجتمع الكتاب أو الشرعية، إذا صح التعبير، لا يؤهلنا بصورة ميكانيكية لامتلاك ناصية التاريخ والتصدي لقدر كبير من التحديات وبرز الآخرين، إلا باستيعاب ميكانيزمات الكتاب والشرعية ونواهما والدوافع الدافعة بهما.

<sup>1</sup> - الفضل شلق: الاجتهاد وأزمة الحضارة العربي، ص 54 - 55.

<sup>2</sup> - د. ثروت بدوي: أصول الفكر السياسي، القاهرة، دار النهضة، 1967، ص 125.

ونواهض الشريعة وسلاالم الارتقاء بها لا حصر لها، وتكاد تجعلنا نستشرف بحراً واسعاً لا قرار له، يتجاوز تحويل الشريعة إلى قانون وضعي يطبق بآليات القوة والسلطان.

وإنما القضية أولاً وأخراً أن نمتلك أكثر من قرار عظمة، وأكثر من قرار تحد ومصير، وأول خطوة نخطوها في هذا المقام، أن نعرف ثم نريد، ثم ننفذ ما نريد، كما سبق قوله.

أجل، لقد أدرك الإسلام «قبل كولومبل بمئات السنين» العلاقة بين تصور الشيء والحكم عليه، فمن حكم على شيء يجهله، فحكمه خاطئ، إن صادف الصواب اعتباطاً، لأنها رمية من غير رام.

لهذا ثبت في الحديث أن القاضي الذي يقضي على جهل بالنار، كالذي عرف الحق وقضى بغيره.

وأول قرار عظمة نمتلكه هو أن يكون لنا خيار حضاري نابع من ذاتنا وحياتنا ووجودنا وتراثنا، وهذا الخيار لا يستقيم إلا بضبط وإدراك العلاقة الفذة بين مفهومي العروبة والإسلام.

ونحن لا نبسط بسذاجة العلاقة بين هذين المفهومين، تبسيطاً يدلل بالتطابق الكامل، بحيث يستغرق أحدهما الآخر، وإلا أمكن إلغاء العروبة قبل الإسلام، ومن جهة أخرى ابتسار الإسلام إلى واقع تاريخي يعطل حكمته الإلهية الأزلية الخالدة.

إن العروبة، ولا شك، هي دار، انتماء جنسي وحقيقة جغرافية سياسية، ومادية ومدنية، أي كمجتمع مشخص وتاريخي، والإسلام منظومة من العقائد الإيمانية والشرائع والمبادئ الخلقية.

ومع ذلك، فالإسلام لم يكن في يوم من الأيام بالنسبة إلى العرب مجرد دين، بحسب الاستعمال الراهن لهذه الكلمة في المسيحية أو البوذية أو في الثقافة الغربية الحديثة.

وفي الحقيقة، لقد تلازم هذان المفهومان خلال أكثر من ألف وخمسمئة سنة، حيث كان تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والفكري، إلى حد كبير، هو تاريخ الإسلام، وبالمقابل، فقد كان تاريخ الإسلام السياسي والعقائدي والفكري هو تاريخ العرب، وتاريخ صقل اللغة العربية، والتوسع في التعريب.

لقد بلور الإسلام الشخصية العربية، وحدد هيكليتها، وصاغ هوية العرب ومستودع مجدهم وعاداتهم وقيمهم ومنطقهم ونظرتهم إلى الوجود، وتماهى بعمق مع الذاكرة الجمعية للعرب وضميرهم الجمعي.

وعلى الرغم من أنه يمكن الكلام على التمييز من دون الفصل بين هذين المفهومين، إلا أن إعادة ترتيب العلاقة بينهما مسألة جوهرية، بسبب هذا التماهي العميق بينهما في أعماق وجودنا وكياننا، بحيث يحل هذا الترتيب بألية تجاوز ومراجعة لا ترجيع، انسجماً مع معطيات هذا العصر، وانطلاقاً من مقولة إنه لا يجوز لجيل أن يمتلك إرادة الجيل الآخر.

وبالمقابل، لا يصح الكلام على فك الارتباط بينهما من دون فقداننا نقاط ارتكاز أساسية، بما يؤدي ذلك إلى خلق التفكك والخلل وإيجاد القلق وعدم الانسجام في كياننا وبنيتنا.

إن هذين الترتيب والمراجعة هما الحمولة الحضارية لمشروع مجتمعي تاريخي نهضوي إنساني أخلاقي تقدمي.

أجل، كيف يمكن التحدث عن أي انطلاق للإسلام من دون العرب، واللغة العربية هي جزء من ماهية القرآن، بحسب المبدأ الأصولي المشهور، والعرب هن مادة الإسلام، بحسب القول المشهور للخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

بل إن الرسول محمد ﷺ أكد أن العربية هي لغة أهل الجنة، وقال: ﴿أرشدوا أخاكم ففقد ضل﴾، كلمة مشهورة قيلت في صدد أسلمة أحد الموالي.

وبالمقابل، كيف يمكن الحديث عن انطلاقة للعرب منسلخة الجذور والمرتكزات عن الإسلام.

إن وجهة النظر هذه يلخصها المغيرة بن شعبة في لقاءه «عشية معركة القادسية» برستم قائد الفرس، قال المغيرة: ((لم تعد المسألة تتعلق بفقرنا وتشردنا في الصحراء، بقدر ما أصبح لنا دين ودعوة))<sup>1</sup>.

وقريب من هذا المعنى قول "ابن خلدون" في مقدمته: ((إن الاجتماع الديني ضاعف قوة العصبية))<sup>2</sup>.

لهذا السبب نرى الوجدان الجمعي العربي يتمحور تاريخياً حول التجربة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين، والفتوحات الكبرى التي تمت بسواعد عربية. وفي نظرنا، أن العرب أعطوا هذا الدين وأعطاهم، وأحسوا بارتباطهم المصيري به أكثر من أي شعب إسلامي آخر.

كيف نفسر هذا التفكير المبكر للعثمانيين بعلمنة الدولة منذ أيام عثمان الثاني المقتول<sup>3</sup> عام 1622/؟ ثم كيف نفسر هذه العلمنة الواضحة على يد محمد علي باشا «على رغم أهمية مشروعه التحديثي الوحدوي» في حين لم نجد ذلك على يد المشروع الحضاري الناصري على رغم الفارق الزمني الكبير؟.

وحقيقة الأمر، وخلافاً للمذهب الأوروبي في القومية، إن مفهوم الأمة عند العرب لا تستغرقه الجغرافيا، بل هو ذو بعد ديني يمد بأبصاره عبر الحدود نحو إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمل إلى قبلة واحدة، وتهمس شفاههم الخاشعة بالصلوات نفسها.

<sup>1</sup> - رواية الطبري.

<sup>2</sup> - عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: المقدمة، ط6 بيروت، دار القلم، 1986، ص158.

<sup>3</sup> - خالد زيادة: الدولة والمدينة، مجلة الاجتهاد، السنة 3، العدد 12، صيف 1991، ص175.

هكذا كانت دارنا عربية الأساس، إسلامية التوجه، فتحت صدرها لكل غريب وسمحت له بأن يندرج في نسيجها وأن يتبوأ أعلى المراتب والدرجات. هذه الحقيقة «التي لم تنقطع عبر تاريخنا الطويل» أنتجت جهازاً اجتماعياً هو الضمير أو الوجدان الجمعي العربي الإسلامي، وهو ضمير يلتف حول أمة إسلامية نواتها المركزية العرب، وثقافتها الحضارة العربية الإسلامية.

هذا هو وعي الانتليجنسيا العربية الإسلامية «الفقهاء»، أمثال "غيلان الدمشقي وواصل بن عطاء والحسن البصري والإمام أبو حنيفة - وهو فارسي - والعز بن عبد السلام"، وغيرهم من الفقهاء العضويين الذين تجذروا بين صفوف الأمة بعيداً بعيداً عن السلطان.

وهذا هو وعي صلاح الدين الأيوبي ووعي المرابطين والموحدين كأكراد وبرايرة، حيث زادوا عن الدار العربية، ونطقوا بلغتها، وأشربت روحهم حضارتها، إدراكاً منهم، كما قال الرسول الكريم ﷺ: ﴿الْوَلَاءُ لِحَمَّةٍ كُلِّحَمَةِ النَّسَبِ، لَا يُبَاعُ وَلَا يُوهَبُ﴾، وعندما أكد أن العربي ليس الذي ولد من أب عربي، بل من تكلم العربية. صحيح أن الدولة العربية «التي تجسد وحدة الأمة وتنقلها إلى الدار العالمية» لم تقم إلا لفترة قصيرة من التاريخ العربي الإسلامي، لكن كان لدى العرب على الدوام دولة قطب تحتل في وعيهم مكاناً مركزياً، وتعتبر تجسيدا لنزوعهم الوحدوي وتحقيق مشروعهم الحضاري الإنساني حتى ولو كانت تلك الدولة لا تحتل سوى رقعة بسيطة من الدار العربية، وينطبق ذلك الوصف على دولة الحمدانيين والأيوبيين والمماليك<sup>1</sup>.

سادساً: إن إشكاليتنا الحقيقية هي تحقيق نقطة التوازن بين قطبي العروبة والإسلام، الدار والعقيدة، وهي إشكالية لا تزال راهنة وقائمة وضاعطة على

<sup>1</sup> - تؤكد هذه الحقيقة المراسلات التي أوردها القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" بين الدول الإسلامية ودولة المماليك.



ضميرنا ووعينا ووجداننا، وإن الانطلاقات الفذة في تاريخنا تحققت على يد التوازن الدقيق بين قطبي الجدلية.

وبالمقابل، فإن وعياً غير مطابق أو موضوعي هو ذياك الوعي الذي يتجاهل هذا المعطى الموضوعي التاريخي الحضاري الثقافى الواقعي المجتمعي... أن نحب كثيراً العرب وتاريخهم وحضارتهم قفزاً فوق التاريخ وعلى حساب الإسلام، ذلك الأمر ايدولوجيا، دعوة، مثال، قول، يتجاهل الحياة بما تموج به من إحساس وعواطف وآمال ومصالح.

والعكس صحيح بالنسبة إلى الحديث عن الفاعل الإسلامى على حساب الفاعل العربى أو الرافعة العربية.

نحن لا ننكر أن الإسلام «كما جاء على لسان الأمين محمد ﷺ» « دعوة إلى الإنسانية: ﴿أَلَا لَأَ فَضَّلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ إِلَّا بِالْتَّقْوَىٰ، أَلْبَلَّغْتُ﴾.

ولكن الإسلام قد تحاith وتماهى، وأصبح معطى موضوعياً، بنية حية متكاملة العرى والشائج.

وإن القفز وراء التجربة التاريخية والعودة إلى النص سياسياً واجتماعياً - إلى يوم الدعوة - هذه العودة تعني إلغاء المجتمع العربى الإسلامى، وإلغاء الاجتهادات كافة التي نشأت في ظله، وفي النهاية إلغاء الذين ساهموا في بناء مجتمعنا.

هل يمكن الكلام على وحدة مع مسلمى الصين على حساب تفكيك العلاقة في كل حي أو شارع أو مدينة أو منطقة؟ ألم يقل الرسول العربى ﷺ إنه ما ظهر رسول إلا في منعة من قومه؟.

إن شخصيتنا القومية كيان نشأ وتطور عبر مخاض تاريخى عميق ومتصل العرى والشائج، وإن إلغاء أي من هذه العرى هو إلغاء الأمة بكاملها.

إن أية أمة تتكون من أناس ينتظمون «على أساس الدار» في تشكيلات اجتماعية لا حصر لها، وإن صياغة نظرية علمية للأمة، إنما يجب أن تنطلق من جماع هذه التلايف والتموجات والتضاريس الاجتماعية، وإن الابتسار والاختزال لنسيج الأمة هو عمل الإيديولوجيا، أو الدعوة، وهو عمل لا يقف أمام حقائق التاريخ لأنه لا يحترم التاريخ.

وعلى هذا الأساس، فإذا كانت التجربة النبوية والمرحل المجيدة لعصر الخلفاء الراشدين، ثم الفتوحات الكبرى، هي المثل الأعلى في وعينا وضميرنا، إذا كان الأمر كذلك، فهذا لا يعني الانسلاخ عن معطى واقعنا، ثم تجاهله وفقه آلياته ونظمه، والتكامل معه باعتباره جزءاً من الهوية والذات والوجود.

هكذا نشأ الوعي بالقومية العربية لدى بعض النخب كفكرة عليا، لا كنظرية علمية معرفية لتطور الأمة، وتجسيد تمثلاتها.

لقد فصل هؤلاء التراث عن الحداثة، والإسلام عن العروبة، والأمة عن تاريخها، والقومية العربية عن الأمة ومجتمعها، وأصبح محور التفكير والوعي والعمل متمحوراً حول القومية لا المجتمع، وبذلك افتقر هذا الوعي إلى مرجعيته، وتجرد عن كونه وعياً واقعياً مطابقاً يفرض نفسه على كل فكر عقلاني موضوعي، بل أعطى نفسه الحق في إعادة تكوين الأمة وحرثها وتفكيكها، ثم إعادة تركيبها، بما يتفق مع معطى إيديولوجي مزاجي تلفيقي يختار من تاريخ الأمة بما يتفق مع هواه.

لقد تجاهل هذا الفريق أن الأمة دين ومجتمع وتاريخ وثقافة وحضارة، كل ذلك متبني في وحدة متكاملة.

والأمر العجيب أن النخب المتدنية استخدمت آلية التفكيك نفسها، ثم الاختيار، ثم التركيب مع الفارق بالنسبة إلى مضمون الاختيار لا آليته ومنهجه.

إن إنكار هذه التجربة التاريخية الضخمة المتراكمة عبر الدهور هو إنكار لما حققته الدعوة في الماضي، وإنكار للدعوة نفسها.

وإن إنكار التاريخ لصالح التواصل المباشر مع النص يعني إنكار ما حققه النص، وإن إنكار ما حققته الدعوة من نتائج يعني فصل القوة عن الفعل، أي إنكار «من حيث لا يدرون» القوة والفعل، الدعوة والنص والتطبيق.

هذا التيار الديني «ومثله معه من رموز التيار القومي الانتقائي» يقتصر على ما في الذهن من آمال لينكر التاريخ والمجتمع والثقافة، ليلغي في النهاية نفسه بسبب تجاهله أمته.

وبالمقابل، فقد اكتنه عبد الناصر روح هذه الأمة وضميرها ومعاقدها وثقافتها ونظرتها إلى الوجود، وذلك بربطه الوشيع العروبة بالإسلام من خلال نظرية الدوائر الثلاث، مستشرفاً لهذه الأمة «وبقرار عظمة» آفاق الكونية، محدداً دور أمتنا ووظيفتها في هذا العالم بالحياد الإيجابي.

إن أهمية مسألة الوحدة العربية ومغزاها ودورها الكوني بالنسبة إلى العرب هي التي تفسر علاقة عبد الناصر بالجماهير العربية.

لقد اعتبرت انطلاقة عبد الناصر الكبرى ومؤتمر باندونغ خروجاً للأمة العربية من الدائرة المحلية إلى رحاب الصعيد الكوني، وهذا ما جعلهم يشعرون بأن هنالك معنى لوجودهم وحياتهم ومستقبلهم.

لهذه الأسباب لم يعد مهماً ما يفعله عبد الناصر على صعيد الحياة اليومية، حيث استغل خصومه أخطائه هذه، ولكنهم لم يجروا على أن يتحدثوا عن قدسية العظمة أو جلالها المتضمن مواقفه الوجدانية، فهذا القرار «بالنسبة إلى الجماهير العربية» أمنع من عقاب الجو.

لقد أجاز الرئيس الأمريكي ريغان للعدو الأكبر مناحيم بيغن غزو لبنان عام/1982، مؤمناً بأن هذه المعركة هي معركة، "هرمجدون" التي جاء ذكرها في

التوراة، والتي هي المعركة النهائية بين الخير والشر، ليفسح مجالاً لظهور المسيح أو عودته، وقيام القيامة على عهده وزمانه، فينال رضا الرب<sup>1</sup>.

وتكلم على تلك النبوة الرئيس الأمريكي بوش في حرب الخليج، حيث وقف المذكور أمام حشد أمريكي في مقر جمعية بني برث، إحدى أهم دعائم الهيكلية اليهودية الصهيونية مفاخراً بأنه كان رئيساً جيداً بالنسبة إلى إسرائيل، وأنه نجح بفك عزلتها الدولية بعد أن قضى على الخطر الذي يمثله العراق<sup>2</sup>.

يكفي أن نذكر بما قاله "رولان دوما"، وزير خارجية فرنسا، وأكدته مجلة التايمز اللندنية، من أن العالم العربي وهم، وأن ما هو أكثر منه وهماً سياسة ديغول التي دلت على أن هذا العالم هو محور سياسة المستقبل<sup>3</sup>.

يكفي أن نسوق بعض ما قاله مستشار بريطاني لإحدى الحكومات العربية الخليجية أقام في المنطقة طوال العقدين الماضيين، في حوار جرى يوم 1990/8/6، أي اليوم الرابع للاجتياح العراقي للكويت، حيث رد هذا المستشار على ملاحظة أشارت إلى أن الأوان قد آن لكي يفهم الغرب أن ما اتفق عليه سايكس وبيكو في مطلع القرن العشرين ليس قدراً أبدياً، وأن المنطقة العربية متجهة بالضرورة - عاجلاً أو آجلاً- إلى تجسيد مستقبل وبشكل لا شكلي، لذاتها الحضارية ولتتميتها الاقتصادية والاجتماعية، فقال: ((إن ما رسمته بريطانيا للمنطقة سوف يستمر، مهما كلف الأمر، وتحت أي ظرف، فالمنطقة قد أخذت شكلها المستقر على ضوء ذلك الذي رسمته بريطانيا لها)).

<sup>1</sup> - د. برهان الدجاني: مستقبل الصراع العربي - الإسرائيلي، مجلة المستقبل العربي، السنة 15، العدد 165، تشرين الثاني/نوفمبر 1992، ص5.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص5.

<sup>3</sup> - محسن خضر: النقد القومي الذاتي بعد حرب الخليج، مجلة الوحدة، السنة 7، العدد 84 أيلول/سبتمبر 1991، ص216.

والأوضاع التي صاغتها بريطانيا في منطقة الخليج بالذات غير قابلة للنقاش أو التعديل أو التبديل حتى لو اضطر الأمر إلى خوض حرب بعد حرب.

إن الخليج مختلف جداً عن بقية المناطق "الناطقة" باللغة العربية<sup>1</sup>.

فبعيداً عن «وهم» وجود «أمة عربية» الذي يتمسك به البعض من «المهووسين» على الرغم من أن الوقائع أثبتت عدم واقعيته وافتقاره إلى مضمون صلب، لقد تشكلت «أمم» في منطقة الخليج وليس مجرد شعوب ودول.

هنالك «أمة» كويتية، و«أمة» بحرينية، و«أمة» قطرية وهكذا... والمسألة ليست في عدد السكان، بل في تركيبهم أساساً، فالعرب أقلية صغيرة في كل واحدة من هذه الأمم الخليجية الجديدة التي تبلورت وتكرس بقوة ورسوخ، والتشكيل الحضاري لكل من هذه «الأمم» يعكس تماماً الحجم الصغير والمحدود للعرب فيها.

إن المصالح الذاتية هائلة التأثير لكل من هذه «الأمم» الخليجية تحتم عليها الاستماتة في الاستقلال والتميز، ونحن نتفهم مشروعية هذه النزعة ونحميها... إن الذين اعترضوا على ما رسمته بريطانيا ونفذته في منطقة الخليج «وهم» بالمناسبة قلة من المهووسين القومييين هنا وهناك» سوف يعضون أصابعهم ندماً الآن.

إذ وجدت الولايات المتحدة فرصتها لاستكمال الهيمنة المباشرة على المنطقة، البريطاني يميز «على أقل تقدير» بالحكمة والحكمة المستندتين إلى تراث عريق وخبرة طويلة، أما مع الأمريكيين، فالأمر مختلف تماماً لأن أسلوبهم الفج والنزق والمملوء عنجهية سوف يجعلهم أشبه بفيل في متجر للزجاج هنا<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - خير الدين عبد الرحمن: جزيرة أبو موسى وأسئلة حول مصير الأمة، المستقبل العربي، السنة 15، العدد 165 تشرين الثاني/نوفمبر 1992، ص62.

((إن قطرة النفط أغلى من قطرة الدم))، هذا ما أكده "كليمنصو" عام/1914، كما أكده الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه الفرصة السائحة الصادر عام/1992، قال المذكور: ((أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل)).

وقال عام/1980: ((ستكتسب منطقة الخليج أهمية استراتيجية بالغة أثناء العقود المقبلة... علينا اليوم «أكثر من أي يوم مضى» أن نعلم من يسيطر على ما في الخليج والشرق الأوسط، لأنه المفتاح الذي يسمح لنا بأن نعرف من يسيطر على ما في العالم))<sup>1</sup>.

هذه هي الاستراتيجية العليا التي ظلت تحكم السياسة الأورو - أمريكية تجاه الوطن العربي في القرن العشرين.

إن هؤلاء لا يتورعون عن أن يفعلوا كل فعله مهما كان نوعها ونتائجها في سبيل المحافظة على مصالحهم، بما في ذلك تفتيت نسيج حياة المنطقة وهويتها وتراثها. وهكذا تبنت إدارة الرئيس الأمريكي ريغان... مشروع قيام نظام شرق - أوسطي يحل محل النظام الإقليمي العربي الراهن الهش، وينهي تأثيرات الرابطة العربية.

جاءت، في هذا السياق، موافقة الكونغرس الأمريكي بالإجماع، سنة/1983 على مشروع المستشرق اليهودي الأمريكي - البريطاني الأصل - "برنارد لويس"، القاضي بتقسيم منطقة الشرق الأوسط بأكملها من جديد، بما فيها تركيا وإيران وأفغانستان، بحيث ترسم خارطة جديدة تماماً للمنطقة، تتحول فيها كل قبيلة في الجزيرة العربية إلى دولة... مما يؤكد أن الوطن العربي قادم على متغيرات خطيرة

---

<sup>1</sup> - خير الدين عبد الرحمن: جزيرة أبو موسى وأسئلة حول مصير الأمة، ص54.

وكبيرة تتناول جغرافيته وديمغرافيته وتاريخه وفق خريطة جديدة تستند إلى الهندسة الأمريكية «الصهيونية بديلاً للهندسة البريطانية» الفرنسية السابقة<sup>1</sup>.

لقد بلغت الوقاحة والعنجهية في هؤلاء أن اعتبروا الإسلام في ذاته، هو العدو الأول والمباشر للغرب، بحسب قول "ميشيل دوبريه"، رئيس وزراء فرنسا الأسبق، عام/1990، وقول "مارغريت تاتشر"، رئيسة وزراء بريطانيا السابقة: ((لقد بقي على الغرب أن يقضي على الإسلام بعدما قضى على الشيوعية))<sup>2</sup>.

هذا الضمير الجمعي للأطلسيين في كراهيته العروبة والإسلام عبر عنه "فوكوياما" في محاولة منه لفلسفة سلسلة الأحداث الممتدة من أيام "البابا أوروبان الثاني" المحرض الأكبر للحروب الصليبية حتى بوش، مروراً بالمسألة الشرقية وميسلون والتل الكبير، وإعدام عمر المختار ونفي عبد القادر الجزائري، وتشريد شعبنا العربي الفلسطيني، وغير ذلك من الأحداث.

لقد دلل هذا الأمريكي المهووس بالانتصار النهائي للأبدي لليبرالية، من دون منازع، على ما عداها، إذا وصلت البشرية على يدها إلى ما سماها الفيلسوف "هيغل" بنهاية التاريخ، حيث لا دموع ولا آلام بشرية، وحيث حققت الليبرالية كل طوبى وأمل منشود للإنسانية.

لقد انتهى قطار التاريخ إلى غايته المرتجاة، اللهم إلا لبعض المركبات، بسبب بعض المقاومات، ولكن هذه المركبات لا مجال وأصله إلى غايتها، ولن تحول عطالة الإسلام دون تحقيق ذلك.

سابعاً: إن السؤال المطروح هو: أليس هذا مجرد كلام جزائي إيديولوجي، وأين عطالة المسلمين عندما قرعوا في أن واحد أبواب الصين وبواتييه في فرنسا.

<sup>1</sup> - خير الدين عبد الرحمن: جزيرة أبو موسى وأسئلة حول مصير الأمة، ص59، وأنظر في ذلك صالح زهر الدين: صهينة الوطن العربي، مجلة استراتيجية، العدد 106، 1991، ص40.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص63.

لقد انتصرت الليبرالية على النظام السوفيتي انتصاراً يمثل صراعاً بين خندقين ينتميان إلى حضارة واحدة، ولكن هل يمكن لليبرالية أن تقضي على الحضارة العربية الإسلامية بما تملكه من تراث وقيم روحية، وأصالة حضارية؟.

فكأنني بعبد الناصر يستشف فيستشرف آفاق المستقبل أو ما سيقوله فوكوياما وغيره عن عطالة التاريخ الإسلامي، فأخذ يتكلم على مدى الفاعلية الإيجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامي بين جميع المسلمين، مقترحاً في الآن نفسه ألا يكون الحج مجرد تذكرة دخول الجنة بعد عمر مديد، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة كاملة، بل يتحول هذا الحج إلى برلمان إسلامي عالمي يضع خطوطاً عريضة لسياسة البلاد الإسلامية.

إن العطالة التاريخية العربية الإسلامية لم تكن عند عبد الناصر مجرد مسألة إيديولوجية تقتصر على رفع الشعارات، ولم تكن مسألة دينية بحثة تعالج هموم أمتنا وأوجاعها بألية فرض الحجاب من قبل السلطة الحاكمة، بل إن المسألة هي إشكالية حضارية تاريخية مجتمعية، كرس لها عبد الناصر آلية التنمية ومؤسسة المجتمع والخيار الحضاري والمحورية الأخلاقية، وبناء المجتمع المدني، وترشيد الحياة وعقلنتها، وتحديد علاقة دقيقة من الحضارة الأوروبية، واستيعاب التقنية وامتلاك القدرة والطاقة على صعيد الكونين الاجتماعي والطبيعي، وأخيراً الأنسنة وحقوق المواطن وتوأمي الحرية: الجناحات السياسي والاجتماعي، بحسب تعبير الميثاق.

إن أمتنا محاطة بالكثير من قطع الظلام، وإن سفينة حياتنا تشق طريقها عبر الأمواج المتلاطمة، وعلى الريان «في مثل هذه الحال» ألا يسمع إلا صوتاً واحداً، مهما كان لونه ونبرته.

هذا الصوت هو إنقاذ السفينة والسير بها إلى الشاطئ الأمين، وعندئذ سيكون رباناً ناجحاً، سواء أكان صوت حماس، أم صوت جورج حبش، أم صوت الاثنين معاً، يتحاوران ويتعاونان في قيادة السفينة.

لقد قاد عبد الناصر السفينة بشرع نسيجه العروبة والإسلام، عبر الأمواج المتلاطمة، بحركة الشعب العربي بكامله في مسيرة تردد بصوت عال: ارفع رأسك يا أخي!.



ولقد ارتحل قائد هذه السفينة، فكثرت محاولات المحاصرة والإقصاء والتطويق لمشروعه التقدمي العظيم، وعلى الشعب العربي المجيد أن يتمسك بالراية وينتفض بكليته محطماً الحواجز والحدود في أعظم مشروع مجتمعي حضاري تقدمي عبر إسلامي إنساني ديمقراطي أخلاقي وحدودي مجيد .

يقول "ريمون بولان": ((إن الدولة حضارة بأسرها، وقد أفصحت عن نفسها في مجموع من المؤسسات)).

وهكذا يتأكد أن الفاعل الحضاري «وهو عروبي إسلامي» هو الفاعل الوحيد الذي يعيد اللحمة والسداة «ولاسيما بعد حرب الخليج» إلى كيان المجتمع المدني الأهلي، وفي ما بين المجتمع المدني والدولة القطرية.

وأخيراً، فهو «وليس المصلحة أو المنفعة بالمعنى الضيق» القادر على بناء مشروع الدولة – الأمة.

✍️ المحامي الدكتور برهان زريق



## هل يصلح النسق الديمقراطي الحر لتأسيس غدنا المنشود<sup>1</sup>

**لقد** فضلنا استعمال الجهاز المفاهيمي «نسق»<sup>(٢)</sup> على الجهاز «أسلوب حياة»<sup>(٣)</sup>، أو الجهاز «نظام أو منتظم»<sup>(٤)</sup> لسبب بسيط هو أن جرعة الانسجام والاتساق في «نسق» أكبر منها في الأجهزة المفاهيمية الأخرى.

وليس عجباً، فهذا الانتظام والتعايش السلمي هما اللذان سيخرجاننا من الخانق والمستنقع التاريخي، ومن كهف الموت، وينقلاننا على جناحي الصاروخ الحضاري المتبقي والمرتجى، وهو ما دلل به عالم اجتماع أمريكي بقوله: ((بلدي كالسيمفونية التاسعة لبيتهوفن)).

<sup>1</sup> - نشر هذا البحث في مجلة المستقبل العربي، العدد 346، السنة الثلاثون، كانون الأول 2007.

<sup>2</sup> - استعمل هذا المفهوم في: تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام/2004، نحو الحرية في الوطن العربي (نيويورك: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، 2004).

<sup>3</sup> - استعمل هذا الجهاز أرسطو، انظر د. ثروت بدوي، أصول الفكر السياسي والنظريات والمذاهب السياسية الكبرى، القاهرة: دار النهضة العربية، 1967، ص 47.

<sup>4</sup> - د. حسن صعب، علم السياسة، ط 13، بيروت، دار العلم للملايين، 1972، ص 4.

ولا حاجة إلى التأكيد أن التأسيس على مركب الديمقراطية الحرة يشمل الحياة سعة وامتداداً، وإن كنا سنركز في حرتنا على مجال الحكم، باعتباره رأس الحرية في الحياة.

وبالبداهة فالديمقراطية تختلف عن الحرية «مفهومياً ومنطقياً وتاريخياً» وإن كانت قطع الثلج تساقطت بالتقدم بينهما وهنالك زواج تاريخي وطيد، وإن كان الزواج - كأى زواج - قد يقوم على بعض الاختلاف لا الخلاف.

فالحرية نزعة أصلية وقيمة أولية primary value في قلب كل إنسان، أو على حد قول "أودن" W.H. Auden: ((ليست الحرية قيمة ما، بل أساس كل القيم)).

وقول "ريد" H. Read: ((الحرية قيمة، وهي في الواقع قيمة كل القيم))، وقول "براديد" Berdayed: ((الحرية هي القوة الداخلية المحركة للروح، وهي سر الوجود والحياة والمصير)).

ويذهب "جون لويس" John Lewis بقوله: ((الحرية اسم لجميع ممتلكات الإنسان وإشباعاته المادية والروحية))<sup>(1)</sup>، فهي نزعة أصلية لازية في النفس البشرية، وقد هجس بها الشعراء والفلاسفة والمصلحون ورجال الدين، وكان لهم معانقات مع زفيرها المقموع ومع أريجها الروحي، ومع أعلامها الحمراء المرفوعة.

فالحرية نتاج الروح وجذر الوجدان ومقوم الضمير وعطاء القلب والعقل، وهذه هي الإنسانية، ولم يبق بعد ذلك إلا صورة اللحم والدم.

---

1 - تجد هذه التعاريف، في د. محمد عصفور: الحرية في الفكرين الديمقراطي والاشتراكي، في الحرية والسلطة، القاهرة، المطبعة العالمية، 1961، المقدمة.

خاطب شداد ابنه عنتره قائلاً: ((كرّ يا عنتره فأجاب: العبد لا يكر، لكن يحسن الحلب والصر، فأعلنها الوالد صريحة، كرّ وأنت حرّ))، فكّر الحر، وكان العطاء المعجزة.

ماذا عن الضفة الثانية للنهر...

الديمقراطية... هي<sup>(1)</sup>:

- حكم الشعب من أجل الشعب "لنكولن".
- جميع الناس متساوون من أجل اكتشاف الأفضل.
- الحكم الذي يملك فيه كل فرد نصيباً "شيلي".
- شكل من أشكال الحكم الذي تكون فيه الهيئة الحاكمة جزءاً من الأمة.
- إجراء وتقنية الحرية<sup>(2)</sup>.

فهذه التعاريف احتضنت العنصر الشكلي (وسيلة الحكم) والعنصر الموضوعي (المساواة)، وإن كان تعريف "لنكولن" استشرّف فاستشرف العنصر الموضوعي (من أجل الشعب)، لافتين الانتباه إلى قول "الدكتور أبو المعز معز" إن الحكومة الديمقراطية تعني دولة ديمقراطية، ولكن الدولة الديمقراطية لا تعني حكماً ديمقراطياً، فقد يكون أوتوقراطياً أو ملكياً أو ديكتاتورياً<sup>(3)</sup>.

وعلى أرض الواقع، سجل لنا التاريخ الاختلاف بينهما، فالديمقراطية في بلاد الإغريق.

---

1 - أورد هذه التعاريف: محمد عبد المعز نصر: النظريات والنظم السياسية، بيروت، دار النهضة العربية، 1973، ص163.

2 - أورد هذا التعريف الأستاذ محمد حسنين هيكل في حديث له مع محطة الجزيرة.

3 - محمد عبد المعز نصر: النظريات والنظم السياسية، ص164.

مثال حي على ذلك، فالنظام في هذه البلاد وضع السلطة في يد الشعب من دون أن يعير اهتماماً لمركز الأفراد أو يعترف لهم بحقوق قبل الجماعة.

يستوي في ذلك أثينا الديمقراطية وإسبارطة الأرستقراطية، فالكثير من المدن اليونانية كان يلزم بالزواج في سن معينة، وكانت أثينا تجعل العمل إجبارياً، وتتدخل في الحرية الشخصية للفرد إلى درجة تحديد كمية الملابس التي تحملها المرأة عند سفرها.

وقد بقيت الولايات المتحدة الأمريكية إلى ما بعد سنة/1875/تخص الحزب المنتصر بالانتخابات الحكومية كافة بحسب المبدأ المشهور<sup>(1)</sup> *To the Victor is the Salve*، والأمر نفسه بالنسبة إلى الجماعيين اليعاقبة الإقصائيين في فرنسا...

وإذا كان قد مضى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إلا أن الشعب في الغرب استطاع «في مغامرته الروحية الكبرى» أن يقيم حريته إلى جانب ديمقراطيته.

**قد يكون الفرد أداة في خدمة الحاكم الذي يستحوذ على السلطة**

---

<sup>1</sup> - د. ثروت بدوي: النظم السياسية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1962، ج1، النظرية العامة للنظم السياسية، ص355.

لقد افتتح هذا الشعب حقلاً كبيراً في المجال السياسي، وأصبحت السلطة وأهدافها (حقوق الفرد وحرياته) من أبرز المسائل لديه في القانون الدستوري<sup>(١)</sup>.

فالسطة نفسها «كما يقول أوستن» أصبحت تضع وتحدد القيمة Aythoritative Allocation of value وأخذ وجه جالينوس المضيء<sup>(٢)</sup> يطفح بالنور، ووجهه الممتلئ بالظلام والقترة يخبو شيئاً فشيئاً...

وهكذا يمكننا «بعد تصفح تاريخي» أن نحدد وجهات الأنظمة السياسية بما يلي: إما أن يكون الفرد غاية النظام، ويتمتع فيه بامتيازات وحقوق تجعل من السلطة مجرد حارس لهذه الامتيازات (نظم المذهب الفردي)، وإما أن تتحدد حقوق الفرد وحرياته بما يكفل تحقيق أكبر قدر ممكن من منفعة الجماعة، وبحيث يصبح الفرد مجرد أداة في يد السلطة تحقق أغراضها في خدمة الجماعة (النظم الاشتراكية)، وأخيراً قد يكون الفرد أداة في خدمة الحاكم الذي يستحوذ على السلطة (النظم الديكتاتورية)<sup>(٣)</sup>.

لقد أصبحت الأرض «الديمقراطية والحرية» ذبولاً للغرب، حيث استشرى أعماق أعماق الحياة والذرة والخلية والفضاء، ولقد لخص العميد "أندرية هوريو"<sup>(٤)</sup>.

خصائص هذه الانطلاقة في ما يلي:

■ الاكتشاف الكامل الإنسان من قبل الإنسان<sup>(١)</sup>.

1 - د. محمد فؤاد مهنا: سياسة الوظائف وتطبيقها، القاهرة: دار المعارف، 1967، ص170.

2 - أسطورة يونانية تصور جالينوس، له وجهان أحدهما مظلم والآخر أغبر ترهقه قتره.

3 - د. بدوي: النظرية العامة للنظم السياسية، ج1، ص355.

4 - أندرية هوريو: القانون الدستورية والمؤسسات السياسية، نقله إلى العربية علي مقلد، شفيق حداد وعبد الحسن سعد، 2مج، بيروت: المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، 1974، ص39 وما بعدها.

- الإحاطة القانونية للظاهرة السياسية والبشرية من أجل إدخال النظام والعدالة إليها .
  - الثقة بالفرد والإيمان بفضيلة الحوار (الحوار السقراطي) لأنه أداة اكتشاف الحقيقة، وذلك كنوع من تجربة المقترحات والأفكار والأولى المارة عبر عقول متتابعة تنقيها من الأخطاء .
  - خضوع الحزب الحاكم للرقابة الدائمة من الحزب الآخر في ظل الاحتكام الدوري للانتخاب .
  - التنظيم العقلاني والتنافس الحر<sup>(٢)</sup> .
  - التنظيم المتوازن الاجتماعي والسياسي والمؤسسي .
  - القانون تقنية الحرية، وفي الوقت نفسه تنظيم التعايش السلمي بين السلطة والحرية (توأمة السلطة - المعارضة)، الفرد والجماع كيان أصيل في الفكر الإنساني والوجود الاجتماعي .
  - الفاعلية الحضارية تساس بلعبة شطرنج تاريخية "تأكيداً على التعايش السلمي والتنظيم العقلاني" كتب على أحجارها: السلطة - الحرية - الدولة - الأمة .
  - وقد عقلت التفسير السحري للسلطة وأسسها
- Institutionnalisation du pouvoir على أساس المشروع الجهاز في

<sup>1</sup> - لكن أبا حيان التوحيدي يقول: ((الإنسان أشكل عليه الإنسان)).

<sup>2</sup> - قال تعالى ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين/26، وقال ماو تسي تونغ: ((دع الزهر تتفتح ولنتبار)).



خدمة فكرة، والشعب مالك هذا المشروع، أما الحكومة فهي نائب وكيل عن  
الصاحب<sup>(1)</sup>.

لكن ماذا لو حدث تعارض بين الحرية والديمقراطية، وتنازعت روح قواعد  
التفسير...؟ الجواب - الحرية أولاً، فهي القيمة والأم الرفيعة، واتجاه روح  
التفسير لصالحها، وفي إنكلترا هنالك قاعدة إجرائية مألها حسم دعوى الحرية  
قبل أي دعوى أخرى، وصدق الخليفة الراشد ابن الخطاب: ((متى استعبدتم  
الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)).

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الكهف/29.  
فذلك دليل على محض حرية الإنسان، يقول "أندرو لفين": ((الديمقراطيون  
الليبراليون هم ليبراليون في المقام الأول لكنهم ديمقراطيون على مضض، وهذا التوتر  
يهدد التعايش بينهما، ولا يتم حسمه إلا على حساب المركب الديمقراطي))<sup>(2)</sup>.

أما "الأستاذ سعيد زيداني" فيرى أن قواعد التفسير في النسق الديمقراطي تتجه  
إلى<sup>(3)</sup>:

---

1 - جورج بوردو: الدولة، ترجمة سليم حداد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر  
والتوزيع، 1985، ص26 و 74، و الشيخ محمد مهدي شمس الدين: الأمة والدولة والحركة  
الإسلامية، بيروت، المجلس الشيعي الأعلى، 1994، ص29، حيث يرى سماحة الإمام أن الأمة  
الإسلامية هي المقدسة، والخطاب الشرعي موجه إليها لا إلى الدولة كما عند هيجل، أنظر  
أيضاً: داريووش شايفان: ما الثورة الدينية؟ الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة، ترجمة  
وتقديم محمد الرحموني، مراجعة مروان الداية، بيروت: دار الساقى، 2004، ص264.

2 - Andrew Levine: Liberal Democracy, A Critique of its theory, New  
York, Columbia University press, 1981, P 198.

3 - سعيد زيداني: إطلالة على الديمقراطية الليبرالية، المستقبل العربي، السنة 13، العدد  
135، أيار/مايو 1990، ص4 - 21، والديمقراطية، الليبرالية، ومفهوم الدولة المحايدة: فصل

1- فصل السياسة عن المجتمع، فالمجتمع المدني هو في نظر الليبرالية قاطرة التاريخ والمسرّع الأساسي للنشاطات الإنسانية، الأمر الذي يؤدي إلى الانتقاص من الخيار الديمقراطي.

2- تفضيل الديمقراطية التمثيلية Representative Democracy على الديمقراطية المباشرة، ويرى أنه من المفيد استبدال كلمة ديمقراطية بكلمة polyarchy لوصف النظام الديمقراطي الجديد<sup>(1)</sup>.

### الليبرالية القائمة على المساواة لا تنكر العلاقة التاريخية بين الليبرالية والرأسمالية

ويمكن القول إن الثقب الأسود في جسم الديمقراطية الحرة الذي غذى أطماع الرأسماليين والإمبرياليين، ودعاة المذهب الفردي الحر الخالص، هذا الثقب كان يسد قدر الإمكان من الديمقراطيين الأحرار وصوتهم العالي يقول: ((ما قيمة صندوق الانتخاب إذا كان المنتخب يتضور جوعاً))<sup>(2)</sup>.

صحيح أن الليبرالية تؤمن «كقيمة في ذاتها Intrinsic value» بالفرد الحر المتساوي المستقبل أخلاقياً، وحقه في تحديد أهدافه ومصالحه، لكنها أخذت تبحث عن تطعيم هذا التوجه بالتوزيع المنصف للمنافع والأعباء الاجتماعية والاقتصادية.

---

المقال عما بينهما من اتصال المستقبل العربي، السنة 16، العدد 179 (كانون الثاني/يناير 1994، ص 16 - 32.

<sup>1</sup> - سعيد زيداني: الديمقراطية، الليبرالية، مفهوم الدولة المحايدة: فصل المقال عما بينهما من اتصال، ص 24.

<sup>2</sup> - د. ثروت بدوي: النظم السياسية، ج 1، النظرية العامة للنظم السياسية، ص 337.

وقد تم نضال الليبراليين ضد الاشتراكيين الراديكاليين وضد الرأسمالية الأحرار Libertarians تحت شعار حماية الدولة وعدالة توزيع الثروة، وما الديمقراطية الاشتراكية إلا لنجاح اليساري للديمقراطية الغربية. ولقد لخص جون رولز معادلة هذه المنظومة بما يلي:

(1) كل فرد له الحق في أوسع منظومة من الحريات الأساسية المتساوية.

(2) تنظيم التفاوت الاقتصادي والاجتماعي كالاتي:

أ- توفير المنفعة القصوى للأقل حظاً.

ب- منح الوظائف للجميع ضمن الإنصاف في تساوي الفرص، وتستوي الحرية بكاملها دفعة واحدة، أما الحقوق الاقتصادية فيمكن استيعابها على دفعات<sup>(1)</sup>.

(3) اتساع الرقعة المحمية بالحقوق الفردية المتساوية يضع قيوداً كبيرة على القرارات الديمقراطية.

(4) الحقوق المطلقة تتطلب شرط الإجماع على نقيض ما تشده الديمقراطية القائمة على الأغلبية العددية<sup>(2)</sup>.

أما هذه الشروط عند "دوروكن" فهي:

- مقاومة الإكراه الأخلاقي.
- مقاومة التفاوت الاقتصادي.

---

<sup>1</sup> –John Rawls: A Theory of Justice ,Cambridge, MA, Belknap press of Harvard University press, 1971, p 41.

<sup>2</sup> – سعيد زيداني: الديمقراطية، الليبرالية، ومفهوم الدولة المحايدة: فصل المقال عما بينهما من اتصال ص25.

▪ قائمة الحقوق لدى الليبرالية القائمة على المساواة أكثر اتساعاً منها عند الديمقراطية.

5) حياد الدولة بالنسبة إلى التصورات المتنافسة حول الحياة الخيرة الوثيقة الصلة بالحقوق المدنية التي تحظر الإكراه الأخلاقي، وكلاهما مشتق من مبدأ أصلي هو التصور الليبرالي للمساواة، حيث تبرز أولوية حيادية الدولة أخلاقياً وقيماً على مسألة التوزيع المنصف للخيرات المادية<sup>(1)</sup>.

6) الليبرالية القائمة على المساواة لا تنكر العلاقة التاريخية بين الليبرالية والرأسمالية، لكنها تنكر العلاقة المفهومية بينهما<sup>(2)</sup>، ومحور المنطق الليبرالي وهاجسه هو حماية الأقليات ضد طغيان الأغلبية

والواقع أن الأفراد دخلوا في عقد اجتماعي يكفل لهم وجودهم وحقوقهم وحررياتهم، ولا يمكن لهذا العقد أن يسمح بالسلطان الكلي للأغلبية، وهناك سد منيع وحاجز أمام تغول الجماعة، ونظام الدولة القانونية يهدف إلى حماية الأفراد من عسف السلطات العامة واعتدائهم على حقوقهم التي هي أساس إقامة الجماعة<sup>(3)</sup>.

---

1 - سعيد زيداني: الديمقراطية، الليبرالية، ص26

2 - Michael Williams: Liberalism and Two Conceptions of the State in, Douglas Maclean and Claudia Mills, eds, Liberalism Reconsidered, Maryland Studies in Public Philosophy, Totowa, Nj: Rowman and Allanheld, 1983, p125.

3 - أنظر د. بدوي، النظم السياسية، ج1: النظرية العامة للنظم السياسية، ص139.  
David Lyons: Ethics and the rule of law, Cambridge Cambridgeshire New York, Cambridge University press, 1984, P 140.

ولنعد إلى سؤالنا المطروح، ونقول: هل الديمقراطية الحرة شرط لازم كاف لتأسيس غدنا المنشود وارتقائنا المرتجى؟<sup>١</sup>.

ألا تقودنا الحرية المحضة «تأسيساً» إلى نقطة متحركة، والتأسيس لا يقوم على ما هو متحرك؟<sup>٢</sup>.

فالنحلة تحلق في أرجاء السماء تبحث عن الأريج، ولكنها تعود إلى نقطة ثابتة هي الخلية.

الدولة حضارة بأسرها وقد استجمعت قواها وأفصحت عن نفسها في مؤسسات ريمون بولان.

فالتأسيس شيء ثابت، أو ثابت متحرك<sup>(١)</sup>، في حين أن الحرية محض حركة لا تكفي وحدها للتأسيس.

فالمفكر "ريمون بولان" يؤسس السياسي (الدولة) على الحضاري فيقول: ((الدولة حضارة بأسرها وقد استجمعت قواها وأفصحت عن نفسها في مؤسسات))<sup>(٢)</sup>.

والفقيه الكبير "أندريه هوريو" يؤكد أن التعددية (إحدى صور الحرية) أنجزت في الغرب بعد إنجاز الدولة القومية<sup>(٣)</sup>.

و"أوغست كونت" يبيّن سوسيولوجيا التقدم على سوسيولوجيا النظام معتمداً في ذلك على أبحاثه الفلكية<sup>(٤)</sup>.

---

1 - الثابت المتحرك جهاز مفاهيمي أبدعه المعتزلة وأضافوه إلى الثنائيات المتضادة.

2 - ريمون بولان: الأخلاق السياسية، ترجمة عادل العوا، دمشق: دار طلاس، 1986، ص301.

3 - هوريو: القانون الدستوري والمؤسسات السياسية، ص271.

4 - جان وليام لابييار: السلطة السياسية، ترجمة إلياس حنا إلياس، بيروت، باريس: منشورات عويدات، 1983، ص80.

وقد ذكرنا سابقاً أن الإسلام يؤسس ركن الحرية (الانفكاك) على ركن العقيدة (البينة).

والحضارة الغربية نفسها تبني ركن الحرية على ركن ثقافة النهج العلماني... وعلى هذا فإننا نضع معادلة العقد الاجتماعي الجديد للنهوض العربي المنشود:

1- الحرية والديمقراطية هما القاعدة الذهبية للتأسيس على أن تكون الحرية هي الأم المرضع والديمقراطية الحليفة فصيل في مدرسة الحرية.

2- هذا التحالف يجب أن يرنو إلى العدل.

3- إسقاط الأقنعة والتشخيصات القانونية التي تعتمد مبدأ سيادة الأمة (المواطنون متساوون ومتجانسون ومتحدون تجمعهم النعرة القومية)، والدولة بهذا التشخيص والتجريد المزيّف مستقلة عن الأفراد.

4- وبالمقابل الأخذ بنظرية سيادة الشعب في حقيقته الاجتماعية Realite Social المدللة بأن كل فرد يملك جزءاً متساوياً من السيادة، ولا يمكن أن توضع السيادة في مقر زائف (سيادة البروليتاريا حزب أو طائفة أو ملك) إلخ...

5- رفض منطق الدولة الغائية التي تتحلل من الوسيلة - القانون.

6- إن لعبة الشطرنج التاريخية لا قيمة لها إلا في إطار دولة الأمة وحضارتها لا في إطار دولة السوق أو في إطار دولة الجيش النظامي أو بالحكومات المستبدة<sup>(1)</sup>.

لكن ماذا لو سبقت الغاية الوسيلة وفرضت الوحدة بالقوة - بالدولة البوليسية القائمة على الغاية دون الوسيلة - القانونية.

لا شك في أن الوجدويين الأحرار الديمقراطيين سيضطرون إلى قبول هذه الدولة ودعمها، ولا سيما إذا تم قيامها من دون ألم ثم كللت نشأتها مباشرة بتشديد دولة

---

<sup>1</sup> - د. ثروت بدوي: النظم السياسية، ج1، النظرية العامة للنظم السياسية، ص52.

القانون الوحدوية قياساً إلى الحكم الفعلي الذي أقرته النظرية الفقهية التاريخية في حضارتنا، وخصوصاً في شخص عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي وقطر والظاهر بيبرس وعبد الناصر وغيرهم.

المحامي الدكتور برهان زريق





## الفاعلية الاستراتيجية للديمقراطية في المشروع النهضوي العربي الإسلامي

لقد قسم "توفلر" الحضارة الإنسانية لمحطات رئيسية ثلاث: الموجة الزراعية - الموجة الصناعية - الموجة المعلوماتية.

قياساً على ذلك يمكننا «بتبسيط متواضع» تحقيب هذه الحضارة من الواجهة القانونية والسياسية في الموجة الأولى حيث تمكنت مغامرة الروح الإنسانية أن تتبصر مفهوم العقد، ناقلة بذلك العلاقة الإنسانية من مرحلة التوحش والقسوة إلى مرحلة التهذيب والعقل والنضارة الأخلاقية.

وليس ذلك عجباً، فمن قال عقداً فقد قال عدلاً "أرسطو"، والعقد محمول على القاعدة الأخلاقية الذهبية الرصينة: (عامل الناس كما تحب أن يعاملوك).

زد على ذلك فبالعقد يدافع «بنجاعة فائقة» الإنسان عن مصلحته، إذ لا أحد يحقق له ذلك كما يحققه لنفسه، وهذا هو فحوى الدستور الحياتي الكبير الذي أصله الرسول الكريم ﷺ بقوله: ﴿لِكُلِّ ذِي مَصْلَحَةٍ مَقَالٌ﴾.

هذه السمات القصيبية والأخلاقية للعقد حدث الفكر السياسي لتلقف هذا الجهاز المفاهيمي، ونقله وتوظيفه في الحقل السياسي، وهكذا برزت فكرة العقد الاجتماعي على يد آباءها التاريخيين "هوبز، لوك، روسو"، حيث كانت هذه الفكرة القيادة الروحية والنبراس الذي أمتاح منه النور دعاة الفكر الحر وأنصار

الديمقراطية وبناء وقادة الحركات الدستورية هذا فضلاً عن أنها كانت الأداة الحية لتجيش الجماهير واستنفارها وتعبئة جهودها من أجل المطالبة بالحقوق الأساسية للمواطن حرياته العامة.

وإذا كانت الموجة الأولى للحضارة «وأداتها العقد الاجتماعي» أكسبت الديمقراطية سمة معينة أخصها البحث عن التوازن المفقود بين الأمة والسلطة، في خصوصية تقليد السلطة وتبوتها، فإن الموجة الحضارية الثانية - على الصعيد القانوني والسياسي بفعل التفجير الهائل في ثورة العلم والتكنولوجيا والمعلوماتية وغزو الفضاء وتحطيم الذرة.

دفعت الديمقراطية إلى مواقع جديدة ومتقدمة جداً، حيث أصبحت ضرورة وحيوة وحاجة ملحة وماهية وحقيقة.

وحقيقة الأمر أن التقدم في قرننا الراهن كان مدعاة لنشوء ما يمكن تسميته بروح المجال وضميره وماهيته، بحيث أن التعبير عن هذه الروح والضمير لا يمكن أن تتاح الأعلى يد الفاعلين الاجتماعيين، وهذا ما قاد بالضرورة إلى إطلاق فاعلية هؤلاء بأن يسوسوا هذا المجال وزانا للمسؤولية وعلى قاعدة: حيثما تكون المسؤولية تكمن السلطة.

ولقد بلغت هذه السلطة حد الحق في التشريع في بعض الحالات، الأمر الذي لم يعد معه فهم الإرادة العامة بالشكل الذي عبر عنه "سييز" فقيه الثورة الفرنسية في خطبة له في البرلمان مؤلها هذه الإرادة العامة على قاعدة التعالي بالسياسة، وليس تسييس المتعالي والخلاصة أن الديمقراطية في سمتها الراهنة أصبحت ضرورة وحيوة وتقدم وحقيقة تفرض نفسها على كافة تضاعيف الحياة وتضاريسها، بحيث أصبحت فلسفة وأسلوباً عاماً للحياة ومناعاً يسربل جسد الأمة.

ومن هذا المنظور الجديد والثوب القشيب للديمقراطية نطلق لتحديد السمات والخصائص العامة لهذه الظاهرة، كما هو موضح في الآتي:

## بين سلطة الشعب وحرية الشعب ومسألة الديمقراطية الحرة

وحقيقة الأمر أنه كثيراً ما يتم الخلط بين حرية الشعب وسلطته خطأً يطابق بين المفهومين مع أنهما متميزان وإن كانا غير منفصلين، بل إن تمييزهما قد يقود إلى التعارض في بعض الحالات.

ذلك أن سلطة الشعب وصف يتعلق بحق الحكم السيادة في حين أن حرية الشعب تتعلق بحرياته العامة.

ويمكننا أن نضرب مثلاً على هذا التمييز في الشعب اليوناني، فقد كان هذا الشعب يمتلك السلطة السياسية، لكنه لم يكن حراً الحرية كانت لفئة لا تبلغ سدس السكان، وهذا فضلاً عن أنه لم يكن يتمتع بكافة الحقوق العامة، إذ كان يفترض مثلاً على الرجال الزواج في سن معينة وغير ذلك من الإكراهات.

والخلاصة لسنا أمام التطابق المطلق بين المطالبين، بل التمييز المرن، وهذا ما حدا الديمقراطية الحديثة لأن تطلق على نفسها وصف الديمقراطية الحرة لمقاربة الإشكالية ولوضع حد على سلطة الأغلبية وموازنتها بسلطة أخرى تحد من إطلاقها وتهذب اندفاعها.

## الديمقراطية ومسألة السيادة

يمكن التعريف بالسيادة بأنها السلطة عند المنبع، أي تلك السلطة الأصلية والأصلية التي تتبع من ذاتها وتحدد ذاتها.

ولا حاجة للإشارة بأن التطور التاريخي للسيادة قاد في نهاية المطاف إلى اعتبار الأمة مستودعاً للسيادة بعد أن كانت موسدة للحاكم، ومع ذلك، وفي ظل الاعتراف

فقد ظهرت نظريتان لتلك السيادة هما: نظرية سيادة الأمة ونظرية سيادة الشعب.

### مبدأ سيادة الأمة

لقد نشأت هذه النظرية على يد الثورة الفرنسية، وبالذات على يد الطبقة البورجوازية التي استأثرت بالسلطة وفسرتها لصالحها، وذلك بفرض شروط معينة على حق الانتخاب، وهو امتلاك الناخب نصاباً معيناً من المال، وهكذا كان التفسير السحري للأمة القائم على اعتبارها مجموعة من الأفراد المتجانسين المتساوين المتحدین الذين لا تفرقهم النعرة القومية، وهذا ما يستدعي وجود ممثلين للأمة، وهؤلاء هم الطبقة البورجوازية، ويمكننا أن نجد تطبيقاً لهذه النظرية في تاريخنا بالنسبة للأحوال العامة حيث فسرت من قبل الخليفين معاوية بن أبي سفيان وأبي جعفر المنصور بأنهما قفل الله على أمواله يتصرفان بها كيفما يشاءان.

### نظرية سيادة الشعب

وهذه النظرية ترى أن أفراد الأمة ليسوا متساوين، بل يختلفون في مواقفهم وظروفهم وأوضاعهم، وهذا ما يستدعي أن يمتلك كل فرد ذرة من الإرادة العامة كي يتاح له الدفاع عن مصالحه.

وبطبيعة الحال فهذه النظرية هي التي تنطلق من الواقع ومن طبائع الأشياء والنسب المركوزة فيها، إذ أن فهم حركة الاختلاف والإحاطة بقوانينها ومعرفة آلية عملها، هذا الأمر هو الفاعلية التي تفجر الطاقات وتجنب من المزالق والانعطافات، وهذا هو مغزى قوله ﷺ: ﴿لِكُلِّ ذِي مَصْلَحَةٍ مَقَالٌ﴾، فهذا الدستور يرسخ في نظرنا ويوصل لنظرية سيادة الشعب، وحق كل فرد بالدفاع عن مصالحه بل يفترض بالضرورة وجود التناقض وحق كل فرد بالاشتراك في إزالة هذا التناقض.

وفي نظرنا أن مبدأ سيادة الشعب هو الحامل الأهم للمشروع النهضوي العربي، حيث يتاح لكل فرد مهما كان موقفه في المجتمع أن يدافع عن مصالحه وذلك بامتلاكه جزءاً من الإرادة العامة ومن حق السيادة مبدأ المواطنة الكاملة.

ولا حاجة للتدليل بأن نظرية سيادة الشعب هي التي تمخضت عن مظاهر الديمقراطية غير المباشرة مثل الاستفتاء الشعبي والاعتراض الشعبي والاعتراض الشعبي وانتخاب رئيس الجمهورية، واستطراداً فقد أسس نظرية الأموال العامة على أساس نظرية سيادة الشعب من قبل الخليفين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وعلى أساس أن لكل فرد حقاً معلوماً وقد أثر أن بيت المال كان خالياً تماماً عند وفاتهما.

### الديمقراطية أداة المشروع التاريخي

ما هو خارج عن نطاق الجدل، الربط بين سلطة الأمة والمشروع العمراني الحضاري التاريخي، فالأمة ليست حقيقة حاضرة فحسب، بل هي حقيقة ممتدة في الزمان، تتلمس الماضي من أجل تأسيس الحاضر والرنو إلى المستقبل الأفضل.

هكذا تمت عقلنة السلطة تجاوزاً للتفسير السحري لها، إذ الحاكم لا يعدو أن يكون جهازاً في خدمة فكرة، والدولة لا تمتزج بإرادة الحاكم أو تتوقف على نزواته وعواطفه، بل هي مشروع مؤسس ينبع من مصلحة الأمة وأهدافها، وما الحاكم إلا الجهاز لتنفيذ المشروع، وفي ذلك يعرف الفقيه "بورديو" الزعيم بقوله: ((إنني أنحني إليه إكباراً لأنني أجد عبره مشروعاً يهما كما يهمني، لكن يتجاوزهما كما يتجاوزني)).

ذلك أن أعمال مبدأ سلطة الشعب دون قيود يؤدي إلى نتائج وخيمة أخصها أن قوة العدد تصبح القضاء الحاكم في حياة الأمة وهذا ما يؤدي إلى التغول على حياة الأمة والمعارضة، بل على المصالح العليا للأمة.

وهذا هو مغزى المبدأ الذي قرره ميثاق الأمم المتحدة بأنه لا يجوز لجيل أن يملئ إرادته على جيل آخر.

أجل قد يتخذ جيل ما قراراً خطيراً يمس بصورة فادحة مقومات الأمة، ثم تمتد آثاره إلى الأجيال المقبلة، والسؤال هنا يثور حول التزام هذه الأجيال المقبلة بذلك القرار.

على هذا الأساس شبه "هوريو" العمل التاريخي بلعبة شطرنج فيلاحظ القارئ أن العمل التاريخي محمول على عملية عقلية وليس على دراما عنف وقد كتب على أحجارها ما يلي: سلطة - حرية - أمة.

وبيان ذلك أن جدل السلطة والحرية محكوم بسقف الحقوق التاريخية للأمة ومقوماتها ومرتكزاتها الأساسية، وهذا هو مغزى حاكمية الشريعة الإسلامية، وتميز الشورى عن الديمقراطية الوضعية بتهديب وصقل السلطان الكلي لسلطة الشعب، واعتبارها سلطاناً نسبياً مقيداً بحقوق الله والأمة.

### الديمقراطية النسبية

أكدنا نجاة مبدأ سيادة الشعب وقيامه على طبائع الأشياء، وعلى المساواة الكاملة بين المواطنين مساواة ترقى إلى مستوى المساواة الصائبة التامة، ودون أن يكون ذلك على حساب الكيف على اعتبار أن مبدأ سيادة الشعب تنطلق من الرجل العادي - كل رجل عادي، للوصول إلى الأصلح، أي الانطلاق من الشعب الاجتماعي بكافة ثناياه وتضاعيفه للوصول إلى الشعب السياسي.

لكن المجتمع «كما هو معلوم» لا يقوم على حقوق الأفراد فحسب، بل ينطوي على فئات وجماعات، وهنا فإن إعمال قوة العدد الأغلبية النسبية، قد يؤدي إلى الإطاحة بحقوق الجماعات وهكذا برزت «في عملية موازنة» نظرية الديمقراطية النسبية لتصون حقوق الأقليات الدينية والثقافية وغيرها.

وفي نظرنا إن على المشروع النهضوي العربي أن يراعي هذه الحقيقة، ووضعها في أولويات حساباته بحيث تحترم حقوق الأقليات وثقافتها وقيمها، وذلك في إطار حاكمية المواطنة، وبحيث يقود هذا التنوع إلى الإثراء والخصوبة، على قاعدة إذا

كان في الوحدة قوة، ففي التنوع قوة تضاف إلى القوة الأولى، ومظهر ذلك أن تقدم الثقافة الفرعية، برنامجهما الوحدوي والوطني العام من خلال هذه الثقافة الفرعية، وبذلك يتم تجاوز الفكرة اليعقوبية القائمة على فكرة الدمج والصهر والكليانية في إطار إرادة الأغلبية، واستطراداً فالوحدة من خلال التنوع مبدأ متجذر وثاو في أعماق ضميرنا الجمعي، وهذا ما أكده "إبراهارد" بأن سياقنا الحضاري قام على أساس مركز الفرد إضافة إلى مركز وحقوق الجماعات فيما أسماه بالديمقراطية التوافقية العربية الإسلامية.

### **الديمقراطية الوطنية والديمقراطية على صعيد الأمة**

لقد تعالت في الآونة الأخيرة أصوات عدة تؤكد أن القطرية أصبحت حقيقة نفسية واقعية اجتماعية حياتية إلى غير ذلك من الأوصاف.

وإذا كنا لا ننسى أن العبور إلى شاطئ الوحدة لا يتم إلا بآلية الحوار، بل وأبعد من ذلك فأبي عمل وحدوي مهما كان مظهره يجب أن لا يعني إلا عروبة المصلحة أو العروبة المصلحية وبمعنى أوضح العروبة القائمة على قاعدة مادية صلبة ورسنية، وعلى شبكة متداخلة وقوية من شرايين وعرى وعروق الاقتصاد ماذا كان الأمر كذلك فعلينا أن لا ننسى أيضاً أن الوحدة في جوهرها وطبيعتها الذاتية هي القمينة بتحقيق المصلحة لكل إنسان عربي، ومن جهة أخرى، فالقطرية ليست إلا مشروعاً فوتاً ومشروع ترد وانحطاط ومشروعاً كسيحاً عاجزاً عن تحقيق التقدم والحياة والنمو الديمقراطي لأنها قائمة على القس والعنف والابتزاز.

ومع ذلك فأبي مظهر لتحقيق الوحدة لا يمكن أن يقوم على سيناريو العنف وعلاقات القوة، وإنما على الحوار والرصانة العقلية والقبول.

والخلاصة إذا كانت القطرية كحقيقة راهنة، فيجب أن لا ننسى أن هذه القطرية يجب أن تتموضع في سياق عام تاريخي عمراني هو تحقيق مشروع الأمة في وحدتها، وهذا الأمر يتم إلا من خلال تحقيق الديمقراطية داخل القطر، ومن ثم

فهذه الديمقراطية هي الفاعل الأهم لتحقيق القطرية الوظيفية، أي تلك القطرية التي تعيش من أجل هدف معين دون أن يعني ذلك القفز فوق الحواجز التاريخية لكنه يعني بحزم وتصميم أنها في سياق الأمة ومشروعها وقيمها بحيث إن حركتها العامة، وإن قد تكون وثيدة في طريقها إلى الوحدة إلا أنها ثابتة محققة وأكيدة.

وبطبيعة الحال فالقطرية الوظيفية لا يمكن أن توضع في سياق مشاريع خارجية عن واقع الأمة وأهدافها، مثل مشروع الشرق الأوسط وغيره من المشاريع التي لا بني المستعمر بطرحها بين حين وآخر.

والديمقراطية كآلية لتحقيق الوحدة أو كمبدأ فلسفي عملي لحياة الأمة، هذه الديمقراطية لا تفرض شكلاً معيناً أو صيغة محددة للوحدة، فهذا الأمر لا يعدو أن يكون فرضاً لإرادة جيل على إرادة جيل آخر، وكل ما تعنيه الديمقراطية «كمبدأ استراتيجي للأمة» أنها فلسفة حياة وأسلوب عمل ومناخ عام يتيح الفرصة لتبلور كل مواطن وكل إنسان.

### الديمقراطية والوعي الديمقراطي

يجب التمييز بين الديمقراطية كمكنة قانونية تعطى للفرد، وبين القدرة الحقيقية الأخلاقية والنفسية والعقلية لهذا الفرد بأن يمارس تلك المكنة، وهذا ما حدا الفكر للتمييز بين الديمقراطية والوعي الديمقراطي الذي هو توطين للفرد وتنشئته وتعبئته خلقياً وثقافياً وإعداده إعداداً موطداً كي يرقى إلى لحظة ما تسمى بالفقه الدستوري لحظة الخلق الدستوري على اعتبار أن هذه اللحظة بما تنطوي عليه من السمو والرفعة والثقافية، مهياً لخلق فكرة الحق في الجماعة، والفرد الخالق الدستوري يقف في هذه اللحظة عند المنبع بحيث لا تسمو على شفافيته ونقائه سوى وخزات الضمير وضغط فكرة الصالح العام، وفي نظرنا إن لحظات الخلق لا تقتصر على اللحظة الدستورية، بل تتعداها إلى كامل جسم



الدولة والمجتمع وفي معظم لحظات حياة الأمة، وفي مطلع ذلك مبادرة الجماهير الخلافة.

وبالطبع فالفرد لا يرقى إلى هذا المرقى إلا في مناخ فكري يسوده الإبداع الثقافي والمضمون الحي الثقافي والإنتاج الثقافي والحوار الثقافي والحرية الثقافية.

وبالمقابل فلا يمكن لهذا الخلق أن يتم في حال قحط الروح والوجدان ودكانه العقل وظلامية الفكر وسيادة أحادية الرأي والقمع وثقافة الطاعة والتواكل وحرفية الفقير وتكفير المعارضة وتهميش الجماهير وغياب النقد والتحليل وسلطوية التصور وهيمنة الإيديولوجيات وفوات التساؤل العميق.

### الديمقراطية والحقوق الاجتماعية

لقد وقعت الإمبريالية بخطأ كبير عندما قطعت أفقياً بفاصل حاد جسم الأمة العام الاجتماعي عن جسمها السياسي، مفترضة بأن الجسم الأول مستقلاً عن الثاني.

وحقيقة الأمر أن سوسولوجي اليوم هي سياسة الغد، وأن السياسة إبرة مغناطيسية تحركها الساحة المغناطيسية التي هي المجتمع، أو كما أكد "موريس دوبريه": ((بأننا إذا أردنا أن نلتصق السياسة نجدها في الإيديولوجيات، وإذا أردنا أن نبحت عن الإيديولوجيات نجدها في الدين، وإذا أردنا أن نبحت عن الدين نجده في الفيزياء الاجتماعية)).

لقد تحدثت الرأسمالية عن عيوب الإرادة في القانون المدني مفترضة وجود ظروف تعييبها هو السؤال المطروح هو: أليس هنالك ظروف اجتماعية تعيب الإرادة السياسية، أليس التخلف الاجتماعي مدعاة للقفز الإرادي والقفز العقلي، وهو الأمر الذي يجعلنا نؤيد ما أكده الراحل جمال عبد الناصر بأن رغيف الخبز هو

المقدمة الضرورية لبطاقة الانتخاب، وأن هنالك عروة وثقي وشيجة تربط الحرية السياسية بالحرية الاجتماعية، وأن هاتين الحريرين هما جناحا الأمة للتخليق في الآفاق الموجودة والمرتبقة.

وبمعنى أوضح فإذا كانت الديمقراطية الرأسمالية تهيم بالحرية السياسية فتصف نفسها بأنها الديمقراطية الحرة، وبالمقابل فإذا كانت الماركسية تركز على الحرية الاجتماعية فتطلق على نفسها ديمقراطية المشاركة المشاركة هنا نعني الجانب الاقتصادي، إذا كان الأمر كذلك فالثورة العربية الناصرية ركزت على الحريرين، وقامت بالربط الماهوي المصيري بينها كأساس لامتلاك الشعب بصدق إرادته وحريرته وضميره.

### الديمقراطية والمجتمع المدني

عرّف أحدهم هذا المجتمع بأنه قاطرة التاريخ ماركس، وعرف آخر بأنه مسرح الحياة، والتعريفان متفقان على أن الرافعة الكبرى والناهض الأعظم الفذ لإنتاج التقدم والازدهار... أما "جان لابييار" فقد حدد ملامحه بأنه مجتمع كلي تعبيراً عن وحدته رغم تنوعه الشديد يقوم على قيم العمل والقانون.

وقريب من ذلك ما أكده "ماكيفر" بأن المجتمع المذكور مفتوح، حيث أن مسارب القدرة وشرائبيها وعروقها تمتد من رأسه إلى أخمص قدميه، وباستطاعة الفرد أن يرقى فيه إلى أعلى عليين دون أن تعيقه معوقات الطائفة أو القبيلة أو الفتنة...

والحديث عن المجتمع المدني يطول، وحسبنا «وبما يتفق مع موضوعنا» الكلام على علاقته بالدولة، وضرورة ضبط هذه العلاقة ضبطاً محكماً لاسيما أننا دفعنا فاتورة باهظة ثمن الصراع التاريخي بين السلطة والأمة...

هكذا فعلى السلطة والأمة أن يبحثا عن المجال المشترك بينهما لاسيما على صعيد المؤسسات المدنية كما حدث في خبرة الأوقاف التاريخية لحضارتنا...

وبيان ذلك أن المجتمع المدني هو الذي يبدع الدستور الخلقي والجمالي والفكري للأمة وهو الذي يصوغ موسوعتها العلمية وفولكلورها وأدبها وأقاصيصها وأريجها الروحي ونضالها القيمي ومناطق حماسها تصورهما للحياة وفلسفتها في الوجود، وما لم يكن هذا المجتمع حراً تعذر عليه الإبداع والخلق.

وإذا رجعنا إلى الدستور الحياتي الذي صاغته براعة الرسول ﷺ والمتضمنة لكل في مصلحة مقال، أجل إذا اعتمدنا هذا الدستور أدركنا أن المجتمع المدني يقوم على تضاعيف وثنايا وتعاريج بقدر ما يمور بالفعاليات ويموج بالخصوبة، ولهذا فبقدر ما يتطور المجتمع بقدر ما تتمدد فيه مؤسسات وبنى المجتمع المدني، وهذا ما حدا بعضهم لوصف المجتمع المدني في الولايات المتحدة بأنه السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، تدليلاً بهذا الثراء والخصوبة للبنى الوسيطة في المجتمع، وبالمقابل فهناك علاقة جدلية بين الوظيفة والعضو، ومن ثم فالوظيفة لا تنمو إلا بقيام المؤسسة اللازمة لذلك.

هذا البعد المؤسسي الخصب للديمقراطية على صعيد المجتمع المدني لا يعني الصراع والاستئصال والعدمية بين أبعاضه، بل يعني التسامح والتواصل والاعتراف بالغير والإقرار بفضيلة أخلاقية الحوار واحترام الغير والتسامح معه، والاعتراف بحقه في ضبط الحياة والتطور والإدراك بجدلية الحياة وديالكتيك التعارض، وهو أن أداة التقدم في ضبط الجدلية والإحاطة بعناصرها وإيجاد التناسق في عناصرها.

والخلاصة أن الديمقراطية فلسفة حياة يمتد رواقها إلى كافة فعاليات الحياة ابتداء من الأسرة وصعوداً حتى السلطات الدستورية.

## الإطار التنظيمي للديمقراطية ومسألة الأحزاب والمعارضة

إذا كان المجتمع المدني ينزل منزلة التعليم الابتدائي، بحيث يُوَطر الفرد، ويدمجه في عمل عام اجتماعي أو ثقافي أو مهني، إذا كان الأمر كذلك، فلا بد من خطورة أخرى جديدة، تنقل العمل العام المدني، إلى مستوى أرحب، وهنا تبرز وظيفة الأحزاب في هذا التأطير الأعم الأشمل على اعتبار أن وظيفة السياسة هي إنماء الأطر والإسمنت الذي يضم الشتات، أو هو الموكك الذي ينسج الخيوط العامة.

وفي إطار هذه المعادلة الصعبة فعلى المجتمع السليم أن يتجه نحو التعددية وتقنياتها وبالمقابل فالمذاهب السياسية التي تفضل الضعف بالنسبة للمعارضة تهدف إلى إقامة المجتمع الذي يفكر فيه الجميع ويتصرفون على وتيرة واحدة.

وعلى هذا الأساس يمكن التمييز بين نوعين للنظم السياسية:

- النظم التي تعتبر مؤسسة الدولة ركنها مستبعدة أي تنافس حول السلطة، هذه النظم ترى أن أداة نكرة الحق وحدانية جامدة ومتمردة على أي تسامح مع التصورات المختلفة، إنها أنظمة السلطة المغلقة.
- النظم التي تقبل أن تكون فكرة الحق مكونة من مظاهر تطويرية، وليست الوحيدة في الجماعة والمهم أن يكون للسلطة التي تعبر عنها بنية مرنة لكي يستطيع عملها أن يتلاءم مع تموجات الوعي الجماعي، ولكي تترك مكاناً في مشاريعها لجميع المتطلبات المقبولة.

## الديمقراطية وحركة التاريخ ومسألة نظام القدرة

وبطبيعة الحال فهذا البحث يتعلق بحيوية الديمقراطية، وليس بشرعيتها، وكما هو الحال بالنسبة للوعي الديمقراطي.

وحقيقة الأمر فالمقاربة الحديثة للظاهرة السياسية بأنها التأثير والنفوذ، وأداة ذلك نظام القدرة، وهذا النظام يقوم على مظاهر متعددة أهمها: الأفكار - العلاقات الاجتماعية الفئات الاجتماعية - صناعة القرار - القيمة... إلخ.

ويتفق الفكر الماركسي مع الفكر الرأسمالية على اعتبار العلاقة موثلاً للقدرة، وإن كان الاختلاف حول هذه العلائق القدرية، وهل هي نابعة من علاقات الإنتاج، أم أنها علاقات المجتمع الأعم.

ولا جدال بأن الديمقراطية موثلاً هاماً للقدرة، وأن هدرها يقود إلى إنضاب نظام القدرة... لماذا...

في نظرنا بأن الفكر يلعب دوراً كبيراً في حركة التاريخ وفي تحديد مساره، لكن هذا المسار غير يقيني، ولا يمكن لإنسان أن يقطع الرأي بتحديدده، زد على ذلك، فحركة التاريخ ليست إنزلاقية ميكانيكية وإنما تخضع لتأثير الفاعلين الاجتماعيين، فهؤلاء هو الذين يحددون إن صح القول هندسة التاريخ أو صيغة مساره.

هنا ينهض بشكل شاق وفاعل وديناميكي العقل الجماعي الذي يسمو على العقل الفردي، ونحن بهذا الصدد مع الفقيه "فرانسوا بيرو" الذي أكد بأن بلوغ الحضارة يتطلب ما يلي:

القناعة بوجود حقيقة وعدالة أو على الأقل إمكان الاقتراب منهما :

- الإحساس بأن اكتشاف الحقيقة يتعلق بصورة رئيسية بنوع من تجربة المقترحات والأفكار الأولى عن طريق مرورها عبر عقول متتابعة تعمل بمالها من ذاتية، على تنقيتها كلاً أو جزءاً من الأخطاء التي تمتزج بها محاولة الوصول إليها لأول مرة.

▪ إن النزعة إلى الحوار تتطلب الاعتقاد بوجود نوع من التعادل الفكري بين الناس أو في مطلق الأحوال القدرة على المساهمة في الحوار، من هنا كان الإيمان يفضل الحوار مرتبطاً بالثقة بالإنسان.

زد على ذلك، فهناك ارتباط وشيخ بين السلطة والمسؤولية، والديمقراطية التي تمنح الفرد سلطة المشاركة تجعله مسؤولاً أي باذلاً قدرته وجهده وعطاءه.

### الديمقراطية ومسألة البحث عن التوازن

هنا لا بد للباحث من تعزيز مبدأ أساسي هو أنه لا إطلاق في الحقائق الإنسانية وما عبر عنه مونتسكيو بضرورة موازنة الحقائق الإنسانية بعضها ببعض.

بيد أن الفقيه "شوريو" أسهب في تجلية هذه المسألة، وتحت عنوان المعادلات في القانون الدستوري الكلاسيكي بأنه تنظيم متوازن سواء أعلق الأمر بالهندسة المعمارية أم في البارمنون، أم في الكاتانيات أم في قصر فرساي، أم فيما خص فن التصوير بالثوابت الجفلية التي توجد في اللوحات التجريدية، كما توجد في التماثيل التصويرية وكذلك الحال فيما خص الدستورية الغربية في شكلها الكلاسيكي الذي يركز على توازن اجتماعي وتوازن سياسي وتوازن مؤسسي.

أما هذا التوازن على الصعيد الاجتماعي فيظهر في ظاهرة الخط الأبوي الشعبي أو الخط النبيل الشعبي العميق الدور في أوروبا والذي يمدنا إلى العصر الروماني وتظهر آثاره في مجلس العموم ومجلس اللوردات...

أما المعادلة السياسية لهذا التوازن فتظهر في تعاقب الأكثرية والمعارضة على الحكم، وأخيراً فالتوازن المؤسسي قائم بين السلطة المركزية والسلطات المحلية، ثم التوازن داخل السلطة المركزية بين الحكومة والبرلمان.

وحقيقة الأمر أنه يجب أن نسير عمقاً ومسطحاً وأليات تحقيق هذا التوازن على صعيد مشروعنا النهضوي، وإن كان المجال لا يتسع لتحديد تمثلات هذا المبدأ

ومع ذلك فإننا نكتفي ببعض الأمثلة، من ذلك أن يدون التوازن الاجتماعي هو أساس التوازن السياسي، بحيث أن السياسة ترنو دائماً إلى جرعات الحركة والتقدم من خلال التوازنات الواقعية الاجتماعية، وليس من خلال المراسيم.

ومن جهة أخرى فالمشروع النهضوي العربي يجب أن يقوم على المشروع الحضاري العمراني العربي الإسلامي، وفي ذلك يقول "بولان": ((الدولة حضارة بأسرها، وقد استجمعت قواها، فأفصحت عن نفسها في مجموعة من المؤسسات)).

أجل إن معرفة الذات والانطلاق من الذات هو المفتاح الأول لكل عمل تاريخ فذ سابق، وبالمقابل فالانسلاخ أو الاغتراب عن الهوية لا يعني إلا النكوث والموت... ذلك أن مرتجى السياسة ومنتهى أمرها هو إنجاز الحضاري والانطلاق منه، وهذا هو مغزى جائزة لينين، جائزة نوبل، فهو تحقيق حضاري بفاعل سياسي.

وعلى هذا فالحضارة العربية الإسلامية في المشروع العلي التي تحكم كل بناء سياسي أو قانوني أو دستوري، وهنا على المؤتمر القومي «وهو الذي أرسى مبدأ التجدد الحضاري» أن يعلن عن هذا المشروع الحضاري إلى جانب المشروع السياسي، وأن تمور أديباته بمعالم هذا المشروع الحضاري، مثل إنسانيته وعقلانيته ومعاصرته...

ومن مظاهر هذا التوازن أن العقد الاجتماعي السياسي لا يمكن أن يكون مؤيداً، وهذا يقود إلى أن الدساتير العربية يجب أن تكون مرنة وليست جامدة، بحيث تحول دون عدم تأييد سلطة رئيس الدولة، هذا فضلاً عن إقامة التوازن بين سلطات الدولة الدستورية على أساس الرقابة والمشاركة المتبادلة.

ويمكن التأكيد «وانطلاقاً من لعبة الشطرنج التاريخية الأنفة الذكر» أن أهم إشكالية تواجه الظاهرة السياسية هي الحد من التوتر القائم في المنظومة الحضارية العمرانية، ألا وهي معادلة سلطة - معارضة وهذه في الدرجة الأولى هي المهمة التاريخية للأحزاب...

على هذا الأساس يرى جورج بالأندية بأنه في كل المجتمعات حتى الأكثر عراقية يوجد ظاهرات سياسية، وهذه الظاهرات تتنظم حول التوأمين: السلطة - المعارضة ...

وقريب من ذلك ما أكده "روجيه باستيد" بأنه يجب النظر إلى هذين التوأمين على أنهما كيان اجتماعي أصيل، ملازم بلا شك للفكر الإنساني. والواقع أن الحرية هي انسجام وتوافق إرادي مع الانتظام، وهذا يعني أن التوأمين حكم - معارضة يشكلان في الآن نفسه سلطة - حرية.

### مسألة الخلق والإبداع الديمقراطي

ما قررناه من مظاهر وملامح للديمقراطية لا تعدو أن تكون مبادئ عامة تتفق مع الشأن الإنساني العام، لكن لكل أمة خصوصيتها واستقلالها وظروفها، وهذا ما يحدونا إلى أن تمنح من الإرث العام دون أن ننسى ضمي أمتنا وروحها الجمعية ونظرتها إلى الوجود ...

وحقيقة الأمر أن الإرادة العامة هي السلطة الواحدة والوحيدة، وما تسمى سلطات دستورية وإن هي إلا صورة للإرادة العامة.

وعلى هذا فقد وجدت بعض الأنظمة أن تكثف السلطة في يد البرلمان، أو في السلطة التنفيذية... فالنظام السياسي السويس مثلاً أخذ بالديمقراطية غير المباشر على نطاق واسع وبعض مظاهر الديمقراطية المباشرة، ثم أودع السلطة التنفيذية في يد مجلس...

أما النظام السياسي في إنجلترا فقد أطلق يد البرلمان ومنح وجود رقابة دستورية على أعماله، ومع ذلك فقد وازن سلطاته بالتاج بمجلس اللوردات.



وأخيراً فالنظام السياسي في الولايات المتحدة أخذ بنظام الرقابة على دستورية القوانين... واستناداً إلى ما تقدم فالدولة العربية والمنشودة بإمكانها أن تقدم صباغات أصلية ومبتكرة للتعبير عن إرادتها العامة، بحيث تستطيع أن تستلهم المبادئ الأنفة الذكر، وتستتبط معها ما يلاءم حياتها، وفي مطلع ذلك ضبط العلاقة بين القطرية والسلطة العليا الأم.

وفي نظرنا أن على الأمة العربية أن تعبر عن ذاتها وقيمة في ميثاق تاريخي حضاري قيمى وحقوقى أشبه ما يكون بإعلانات الحقوق العالمية، بحيث أن هذا الميثاق بحكم المسار العام القطري والدستوري، ويتيح إنشاء أوضاع وتغييرات متعددة ومتنوعة لكنها محكومة بالمشروعية العليا للميثاق، وعلى أن يتضمن هذا الميثاق مبدأين كبيرين هما: الله والعروبة.

ومن مظاهر هذا الإبداع الضبط المحكم للعلاقة بين سلطة الرجل وسلطة المرأة واستتباط صيغة حضارية عمرانية عربية إسلامية تتيح للمرأة التقلب في المعاش واجتراح كل قرار عظمه في الحياة، كل ذلك في صحوه سلوك يزينها الحياء، وتجلها العفة والكرامة والرصانة وتوطن النفس على المحورية الأخلاقية والشرارة الإلهية.

وأخيراً فالصيغة الحضارية العمرانية العربية الإسلامية مدعاة لاجتراح صيغة فذة لقطبين هامين من الأقطاب المتكون الاجتماعى والحضارى.

ألا وهما قطب الحرية وقطب المساواة، وإزالة الخل العميق في تحققها ولاسيما في العمران الأطلنطي.

ذلك أن الحرية تنزع إلى الفردية، وقد يؤدي نزعها وحماقتها إلى الإخلال بقاعدة المساواة، وبالعكس فالمساواة لا سيما الحسابية قد تتعارض مع طبائع الأشياء والنسب المركوزة فيها ومع قاعدة خصائص التنوع، والمطلوب ترسيخ العدالة التعاقدية في إطار العدالة التوزيعية.

ويمكن التأكيد بأن مبادئ ميثاق العمل الوطني الناصري قدمت إنجازات فذة وشامخة في طريق بلورة وتنظيم نقطة التوازن بين القطبين الأنفي الذكر. وانطلاقاً من لعبة الشطرنج التاريخية، أن أهم إشكالية تواجه الظاهرة السياسية هي الحد من التوتر القائم في المنظومة العمرانية، ألا وهي معادلة سلطة- معارضة وهذه في الدرجة الأولى هي المهمة التاريخية للأحزاب.

على هذا الأساس يرى "جورج بالاندييه" بأنه في كل المجتمعات حتى الأكثر عراقية يوجد ظواهر سياسية، وهذه الظواهر تنتظم حول التوأمين: السلطة - المعارضة، على أنهما كيان اجتماعي أصيل ملازم بلا شك للفكر الإنساني.

والواقع أن الحرية هي انسجام وتوافق ارادي مع الانتظام، وهذا يعني أن التوأمين حكم-معارضة في الآن نفسه سلطة - حرية.

## إرادة الحياة أم إرادة بوش

**الغرب** «ككل الشعوب» فيه الحنطة والذؤان، الفاسد والثمين، لكن أسطورة جالينوس «لاسيما بعد عصر النهضة والتنوير» تصدق على هذا المجتمع، فقد راح الرأس<sup>1</sup>، تباعاً يريد، ويكفهر بتراجع الشرط البشري خاصة بتعبيره الثقافى وتكاد، لا تسمع إلا بمشروع "فوكوياما" نهاية التاريخ ومشروع "هنتغتون" صراع الحضارات هذين، المشروعين السياسيين لا المعرفيين المترسين في قاع الأيديولوجيا مقارنة - استشفافاً واستشراقاً ("بهيغل" العقل الكلي ومغامرة الروح الإنسانية) ومشروع ماركس الأممي ورأي بعض القانونيين المدللين بغلبة الروح القاعدية على الهوى والنزق ناهيك عن مشروع توينبي التاريخي وغير ذلك. ما هو رأي حضارتنا في فلسفة التاريخ ؟

الحق عندما يدمغ الباطل، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء/18.

وانبرى مفكرون يحملون هذه الروح فالشر له وجود سالب، لا تأثيره على جوهر الوجود، والله خير محض يزجي اللطف والعناية حسب الميثاق الأعظم الذي عقده مع بني آدم، وابن خلدون يدلل بتدرج الوجود، وأبو حيان التوحيدي في مقابساته:

<sup>1</sup> - أسطورة يونانية ترى أن جالينوس له رأس ذو وجهين أحدهم طافح بالنور والآخر بالظلمة.

يقول لعل الدور بعد الدور والكور بعد الكور، والعالم منساق في الكمال مشتاق إلى الجمال، عندها تكون الغاية وعليها تقف النهاية<sup>1</sup>.

### ما هو تقويم توينبي للسلم اليوناني الروماني؟

(لقد خلق) هؤلاء صحراء أسموها سلاماً... أدرك الشرقيون أن فائدة من الحروب....

الآلهة البشرية فضيحة طنانة... لا تستطيع أية حضارة أن تدعي أنها طلسم روحي... رد فعل الشرقيين روحي ديني: يسوع - ميتر - سبيل - أريس - بود يسانو.

الاسكندر المقدوني قاطع طريق، يوليس قيصر بوليس متأله.

الآلهة الجدد نكس لها القلوب:

ميتر قائدنا - إريس أمنا لنا السرير - السيد المسيح تعرى من قوته ليتألم - بوذا يصل عتبة النيرفانا لكنه يرفض أن يدخل الطوبى - اليونان والرومان أصبحوا سجناء بعد اعتناق ديانة المغلوبين: المستقبل لا ندري تفصيله ولكنه محتمل التكرار<sup>2</sup>.

شهادة ثمينة لتوينبي، ومثله معه مالك بن نبي في كتابة شروط النهضة فالدين هو المحرك للتاريخ<sup>3</sup>.

لكن ما نعنيه راهنياً هو الدين بمعناه الواسع، أي هو ضمير الشعوب ورفعة الشعوب وعلوية الشعوب وحقوق الشعوب وهمة الشعوب وسواعد الشعوب.

---

<sup>1</sup> - د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكرين الإسلام في العالم العربي الحديث، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص 44.

<sup>2</sup> - أرنولد توينبي: العالم والغرب، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر 1960، ص 101.

<sup>3</sup> - مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، القاهرة، ط3، ص 106.

فلسفة حضارتنا تعني بالدين بزوغ نفسي وفكري وضميري، أي هو إنجاز المعنى دون الإخلال بالرسمية الرسمية - على ما قصده الدكتور "محمد أرغون"، وعلى جوهر الغاية الأساسية من الدين كما وعاه واحترمه وطبقه الرسول الكريم ﷺ بقوله: ﴿ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ سُمَيِّ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ عَنْ أَبِي صَالِحِ السَّمَّانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بئراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي فَنَزَلَ الْبئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا فَقَالَ نَعَمْ فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ ۖ .

دينا هو ذياك الدين الذي يحرك الشعوب، ويحرر الشعوب، ويوقظ كرامة الشعوب، تماماً كما قال ودعا إليه قس البيرو في أمريكا اللاتينية، حيث ربط الإيمان بالله وملكوته بالتححرر السياسي<sup>1</sup>.

بعد هذا التحديد نعود فنقول: ((إن طريقنا اللاحب "الواضح" لتحقيق الوحدة لإنجاز المعنى هو توتر روحي ووجداني وقيمي ينتظم فيه وحوله المسلم والمسيحي على أرض واحدة، وكلمة واحدة، كما قال المفكر "أمين نخلة": ((كأن الإسلام إسلامان، واحد بالدين وواحد بالقومية، وكأن العرب جميعاً مسلمون حين يكون الإسلام اهتداءً بمحمد وتمسكاً وكلفاً بلغته))<sup>2</sup>.

هل تحقق استشراف توينبي، وما هو ما صدقه ؟؟ "بوش وصعلوكه بلير" يعيدان كرة الاسكندر ويوليوس قيصر في الاعتداء على فلسطين والعراق، بكل جشع وطمع وحقد وكراهية، ولا فائدة من شرح الأسباب فتلمظات الأفعى يحكمها قانون الأفعى، ولا حاجة لأي منطق أو نقاش أو حجة، أو قانون بعد أن أهيل

<sup>1</sup> - د. فهمي الهويدي: أزمة الوعي الديني، صنعاء، دار الحكمة، 1988، ص 43.

<sup>2</sup> - الحوار القومي الديني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1989، ص 123.

التراب وقعت الأسباب على كل ذلك منطق الولايات المتحدة وانكلترا هو منطق الذئب الذي يقف في أعلى النهر متهماً الحمل «وهو في الاسفل» بأنه يعكر له شربه.

منطق الاعتداء على الأمة العربية هو منطق الفيل الكبير في غرفة زجاج، يحطم ويحطم، والغرفة هي بيت العروبة، وللأسف لقد حولت الحاكمة العربية البيت إلى غرفة زجاج.

أمريكا وانكلترا هما رأس جالينوس، وقد اختفى منه النور، وإذا به لا ترهقه إلا الفترة.

لقد أدرك العالم ذلك (مواقف فرنسا وروسيا والصين وألمانيا) والمظاهرات الشعبية في كل شارع، ومدينة في العالم، وأمريكا وبريطانيا تتلمظ وتستعد لضرب العراق.

الرسول ﷺ رفض أن تطبق الملائكة الأخشبين<sup>1</sup> على الطائف، فقد يخرج من أصلاب أبنائها من يعبد الله.

هكذا استشرف فاستشف حقوق من لم يلد، أما الإسكندر ويوليوس قيصر فسيديكان من سيخرج من أصلاب بغداد، ومن لم يلد في بغداد.

لقد برر وزير خارجية انكلترا الأسبق في تلفزيون الجزيرة الاعتداء على طالبان، بقوله: ((صبرنا عليهم فخرجوا علينا، فكيف نصبر على بغداد، فقد تقوى وتستأسد؟ هل القانون يحاسب على النوايا))<sup>2</sup>.

اللورد كرومر تحدث سنة 1908م فقال: ((الإسلام حالياً يحتضر أو يموت))، الإسلام لم يموت ولم يحتضر بل يتعمق... قد نهزم لكن سرعان ما نقف شامخين... لقد بنينا حضارات، منها ست حضارات عالمية بينما اليونان كانت كالشهاب، سطع، ثم سرعان ما اختفى<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - جيلان حول الطائف.

<sup>2</sup> - د. شاكر مصطفى: مقالة المرسوم بعنوان، منشورتي.

لقد سطع الدين والوحدة الوطنية في جنوب لبنان على يد حزب الله، فدخلنا التاريخ، ودخل فلسطين مع حماس والجهاد، وغيرهما، وسيدخل كل بيت في بغداد، لأن بغداد ضمير العروبة وكرامتها .  
نأكل الحصى ونستف التراب، ونعيش بثلاث معي، تعلمنا هذه الكرامة من الأجداد كما دلت بذلك الشاعر الشنفرى:

**وأستف ترب الأرض كيلا يرى له علي هه الناس امرؤ متطاول**  
نمتشق سيف الإسلام من غمد العروبة، هذا هو الحس البطولي للراحل عبد الناصر وهو يستنفر من الجامع الأزهر عام 1956 م الشعب على الجهاد ضد العدوان.

هزمنا عام 1967م، لكننا قلنا في مؤتمر الخرطوم: لا صلح- لا تنازل- لا مفاوضات.

ذهل الغرب وقالوا: ما هؤلاء العرب يرفضون، ولا شيء بأيديهم.  
الزباء ملكة تدمر علمتنا: المعارك لا يحسمها إلا الرجال.

المحامي الدكتور برهان زريق





## حي على الكفاح حي على الصلاح حي على خير العمل للثأر لعاصمتنا بغداد

منذ عشر سنوات جرى نقاش بين سفيرين لإحدى دول الخليج العربي أحدهما سوري والآخر بريطاني، حاول الأخير أن يجمل سياسة دولته، فانبى يغمز من سياسة أمريكا مشبهاً إياها بفيل كبير في غرفة زجاج يخبط ويكسر كما يحلو له.

مرت هذه الحقبة البسيطة في عمر الشعوب فإذا ببريطانيا تزين «في أحط درك من قحط الروح وانحطاط الأخلاق» للفيل الهائج وترسم له وتشجعه على غزو العراق يخبط ويكسر يهشم ويمحق بل يسلب ويسرق.

قد يكون هنالك مبرر للفيل لتشجيعه على فعلته هو أنه لم يجد أبناء أمتنا يتصدون له يقطعون خيشومه كما فعلوا بفيله رستم في القادسية.

لا مجال لإجراء تقويم كامل لهزيمتنا في العراق، وحسبنا الإجابة عن سؤال مؤلم ما العمل؟.

هل وعينا للخطب الأليم هو وعي أمتنا في الجاهلية؟، يعتقدون أنه يخرج من رأس القتيل طائر يجول ويجول ويقول: ((الثأر الثأر أنقذوني أنقذوني)).

هل ندرك بعمق ما أدركه "الدكتور شاكر مصطفى" لجوهر تاريخنا قال: ((خبرنا التاريخ مذ كان هناك تاريخ، فمنذ الأكاديين ونحن نبني ونشيد، بنينا سبع

حضارات ست منها عالمية، تاريخنا تكتنفه القمم الشاهقة، والوهاد الساحقة، لسنا كاليونان «المعجزة كما قال رينان» بنوا حضارة واحدة كانت إيماضة سرعان ما اختفت... نحن نضعف، لكننا لا نموت)).

هل نستشرف فنستشف الحقيقة قبل وقوعها فيكون شأننا شأن أمام الحرميين الفقيه الكبير "الجويني"، الذي أدرك أن الأمة تجف شرايينها وعروقها فنأدى في كتابه غياث الأمم في التياث الظلم بشغور الزمان من السلطتين السياسية والدينية.

ولعل الزمان يعيد أدرأجه، ولعمري كيف نعتمد على من خذلوها، على ملوكنا رمز الخذلان.

الدافع الوحيد لفعله أمريكا هو أنها تبني إمبراطورية وتدعي سلماً تبنيه على خطأ السلم الروماني Baxa Romanix.

لنستمع إلى "توميني" في كتابه العالم والغرب يحلل ويقول:

((لقد خلق هؤلاء اليونان والرومان صحراء أسموها سلأماً... أدرك الشرقيون أن لا فائدة من الحروب... الآلهة البشرية فضيحة طنانة... رد فعل الشرقيين روعي ديني: مترا - سييل - إيزيس - يوديسانو... الاسكندر المقدوني قاطع طريق... يوليوس قيصر بوليس متأله... الآلهة الجديدة نكرس لها القلوب: مترا قائدنا - إيزيس أمانا تهز لنا السرير - السيد المسيح تعرى من قوته ليتألم - بوذا يصل عتبة النير فأنا لكنه رفض أن يدخل الطوبى - اليونان والرومان أصبحوا سجناء بعد اعتناق ديانة المغلوبين لا ندري المستقبل لكنه محتمل التكرار)).

هل يعني ذلك أن نتظر من أمريكا أن تهز لنا السرير كما فعلت أمانا إيزيس وبوذا والسيد المسيح، لا نستهيين بالوعي بالروح لكن من قال أن السيد المسيح لم يضع السيف في موضعه اللائق، إضافة إلى إشراقاته الروحية المعهودة قال: ((لا تظنوا

أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل لأفرق الإنسان عن  
أبيّة)) متى/ 10 - 34 .

ينقل لنا العابد التائب الأواه المنيب "أويس القرني" عن رسوله الكريم محمد  
ﷺ حديثاً عن المقت يفيد تردي البشرية في أسفل سافلين تفسيراً لقوله تعالى في  
سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ﴾ 4 ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ  
سَافِلِينَ﴾ 5 ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ 6 ﴿فَمَا  
يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ 7 ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ التين/ 4-8 .

أجل لقد خلق الله الإنسان في أزهى صورة وأكمل عقل وأشرف كرامة فإذا  
بوحشية أمريكا في العراق تزري بالإنسانية إلى أسفل سافلين .

لكن هذه الطريقة الوعرة ليست كرة صماء مغلقة أمريكيا وشعبي في العراق يصرع  
من العدو العديد كل يوم، والطريق طويلة لا يقطعها إلى المخفون في زمن تحكم فيه  
الفسقة، وتملك فيه الظلمة .

فهيأ لنقطع خيشوم الفيل الجبان... وحي على الفلاح... حي على النضال... حي  
على خير العمل...

فهل من يعي... هل من يعتبر... هل من مدكر.

الدكتور المحامي برهان زريق



## خطرات على غزو العدو الأمريكي للعراق

**يؤكد** أحد علماء الاجتماع أن مقداراً معقولاً من الحزن يرصن عقل الأمة ويرشد سلوكها، نحو العلياء والتفكير في عظام الأمور لا سفسائها بعيداً عن الاستخفاف في الحياة واللهو العابث في قيمها .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران/139 .

وإذا كان الإسلام قد صفى وصاغ وجدان الأمة وضميرها، فهذه الروح لم تستلب في الموضوع، بل أدركت أن حق الحياة هو قوام الدنيا وتوأمها وملاك أمرها، وإن العيب بهذا المقوم هو الخلل في الكون وهذا هو مغزى الأسطورة العربية التي مفادها أنه يخرج من رأس المغدور طائر يطير في السماء مستصرخاً مستنجداً قائلاً: ((الثأر الثأر، أغيثوني أغيثوني)).

لقد وصفت بلدنا بأنها قلب الدنيا، لهذا فقد كثرت بها المدلهمات، وسفحت الدموع، لكن هذه الدموع لم تكن تعني إلا المضاء وتفجير العزيمة والوعي العام، هكذا لم يقبل العربي ببكائية "ابن أبي محلى" في كتابه الإصلييت: ((لقد طال ليل

الكرب، فاض دمع الأسي، أسود وجه الزمان، عم البلاء الأركان، لا مغيث يرجوه  
الغريق، ولا حيلة لأحد من الخلق مع ما نزل بهم من اليأس))<sup>(1)</sup>.

لقد تعلمنا في المدارس منذ نعومة الأظفار قول الشاعر:

**لا يسلم الشرف الرفيع منه الأذى حتى يراق على جوانبه الدم**

يقول "الدكتور شاكر مصطفى: ((الميزة في تاريخنا هي الاستمرار والتجدد،  
منذ تلك القرون القديمة حتى يوم الناس هذا، ولو وضعنا الخط البياني للتاريخ  
العربي لوجدناه منحنيًا كثير القمم يختلف تواتره، ارتفاع نهاياته العظمى ونهاياته  
الصفرى، ولكنه تاريخ غير منقطع... يبدأ منذ منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد،  
ويستمر في ذبذبات وحضارات متتابعة مدى ما بين إحداها والأخرى نحو عشرة  
قرون...)).

حين نظر المؤرخون في الحضارة اليونانية سموها بلسان "رينان" الأعجوبة اليونانية  
لأنها أومضت كإيماضة البرق ثم أنطفئ إلى غير رجعة... حقق العرب سبع  
حضارات منها ست حضارات عالمية... حضارتنا تهدأ لكنها لا تموت<sup>(2)</sup>.

هذه إرھاصة كان لا بد منها لامتلاك الوعي وجلائل العبر من غزو العدو الأمريكي  
لبغدادنا الحبيبة، وهذا ما يسمح لنا بتسجيل ذوب الروح ودقات القلب لخير أمة  
أخرجت للناس، وصوغ الخطوات الآتية:

---

<sup>1</sup> - عبد المجيد الصغير: الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، بيروت، دار  
المنتخب العربي، ط1، 1994، ص309.

<sup>2</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: ميزات التاريخ العربي، منشور في قراءات في الفكر القومي، الكتاب  
الثالث، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة التراث القومي، ط1، بيروت، 1994،  
ص102.

في المنظور المعاش لا يمكننا أن نحوز قصب السبق في الجانب المادي، لأن الغرب قطع شوطاً بعيداً في هذا المضمار، ولكننا نؤكد ما قاله المفكر العربي "مالك بن نبي": ((إن التاريخ يثمر ويغدق عندما يدخل إليه الروح Ethos))<sup>(1)</sup>.

وقريب من ذلك قول "الأستاذ وليد نويهض": ((الدولة في أوروبا نتيجة تطور المجتمع من المدينة إلى الأمة «الوطن»، بينما الدولة في التاريخ الإسلامي ليست نتاج تطور الجماعة، بل الجماعة هي نتاج تطور الدولة، فالدولة في أوروبا هي فوق «البنية الفوقية»، والمجتمع هو التحت «البنية التحتية»، بينما الدولة في التاريخ الإسلامي هي التحت «البنية التحتية» وتطور الجماعة جاء مندمجاً بعلاقات الدولة التي تجد أساسها وأصلها في العقيدة<sup>(2)</sup>، والخلاصة إن تاريخنا إرادة وعزيمة وإصرار بل إيمان.

هكذا فعلينا التعويل على الروح إذا أردنا أن نبز ونلحق ونسبق، قاصدين بالروح الجهاز المفاهيمي (إنجاز المعنى) حسب تعبير "الدكتور محمد أرغون"، أي مملكة الضمير والوجدان والإرادة والعمل الصالح، لا اللهاث وراء الشقشقات اللفظية والمماحكات والطقوس المكررة.

شخصان أحدهما سني والآخر شيعي يقفان على قارعة الطريق، فوجئاً بسيارة تصدم شخصاً، فإذا بأحدهما يسعف المصدوم والثاني يتسمر، فعند من نجد إنجاز المعنى، وهل تشفع المذهبية؟

قريب من ذلك ما قاله "توينبي" في كتابه **العالم والغرب مندداً بمركزية الحضارة الغربية معلناً بالحرف الواحد**:

---

<sup>1</sup> - مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، القاهرة، دار الفكر، ط3، 1969، ص105.

<sup>2</sup> - كتابه: الإسلام والسياسة، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ط1، بيروت، 1994، ص134.

((لقد خلق اليونان والرومان صحراء أسموها سلاماً... أدرك الشرقيون ألا فائدة من الحروب... الآلهة البشرية فضيحة طنانة... رد فعل الشرقيين روعي ديني: يسوع - مترا - إيزيس - يودوسانو.

الاسكندر المقدوني قاطع الطريق، يوليوس قيصر بوليس متأله... الآلهة الجدد نكس لها القلوب: مترا قائدنا - إيزيس أمنا تهزل لنا السرير - السيد المسيح تعرى من قوته ليتألم - بوذا يصل عتبة النيرفانا، لكنه يرفض أن يدخل الطوبى - اليونان والرومان أصبحوا سجناء بعد اعتناق ديانة المغلوبين، المستقبل لا ندرى تفصيله ولكنه محتمل التكرار))<sup>(1)</sup>.

لن نتحمل أو نضعف في تفسير الأمور، إذا قلنا أن هذا الوعي عبرت عنه بجلاء وعمق سورة التين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ 4 ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ 5 ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ التين/4-6.

ونعتقد أن وحشية وضراوة وداروينية أمريكا أوصلت بنا - في غزوها للعراق - أسفل سافلين، ولكن وقوف الإنسانية الشريفة (إلا الذين آمنوا في وعي القرآن)، وما فعله الأبطال العرب الميامين في الدفاع عن مطار بغداد وغيره، هو بداية الطريق والحق المستقيم المرجو.

ولعلنا نجد صدقاً قوياً لذلك في الوعي النبوي في كلمة (المقت) المنقولة إلينا عن الصحابي الجليل الأواه المنيب أوبس القرني عن سيده رسول الله ﷺ، والتي تعني تردي الإنسانية في الفوت والموت وقحط الروح الذي أوصلنا إليه أمريكا في هذا المقت المقيت الذي نعانيه في العراق.

<sup>1</sup> - أرنولد توينبي: العالم والغرب، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ط12، 1960، ص101.



فحي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على النضال، حي على خير العمل<sup>(1)</sup>، نقولها باسم الأم التي فجعت بابنها في العراق، وباسم الأب يتلوى أماً وقهراً وحرقة على ابنه، وباسم الحبيب على حبيبته، والأخ على أخيه، والجار على جاره...

ونقولها باسم الجياع وباسم العراة في الوطن العربي ونقولها شجباً لمصاصي الدماء من العلوج في هذا الوطن وأعاونهم الأمريكان، وليس لنا في رفع هذا الظلم إلا سيف الإسلام نمتشقه بعزة من غمد العروبة.

■ لقد صاغ "الإمام الجويني" الملقب بإمام الحرمين/توفي عام 478هـ/هذا المعنى بطريقة أخرى، لقد أحس المذكور بشرايين الأمة تهان، وبدقات قلبها تضعف، فكان مشروعه الإنقاذي الهام، في كتابه غياث الأمم في التياث الظلم<sup>(2)</sup>.

■ أحس المذكور (بشغور الزمان) من السلطتين السياسية والدينية فنأدى بتوسيد السلطة لصاحبها الحقيقي (الشعب)، ثم تبسيط مسائل الشريعة في أهداف سهلة منطقية هي مقاصد الشريعة: حفظ الدين - حفظ النفس - حفظ العقل - حفظ العرض - حفظ المال.

■ إذا اعتدت الدولة على حرية الأفراد وخرج تصرفها بصورة جسيمة Grossier، وفاضحة Flagrant، على القانون اعتبر هذا الفعل عقبة مادية لا يحميها القانون، وأجيزت مقاومة الأفراد للسلطة لدى البعض.

<sup>1</sup> - د. عصام نعمان: خمسون سنة على الاحتلال الصهيوني، ماذا بعد: وما هو المطلوب، مجلة المستقبل العربي، عدد 231، لعام 1998، ص18.

<sup>2</sup> - الجويني: غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق عبد العظيم الديب، ط2، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1401هـ.

فماذا لو اعتدت الدولة بالقوة على الأخرى: على أرضها وكرامتها وشعبها، وماذا لو أزالته كل سلطاتها، وقصفت شعبها الأمن بالصواريخ الذرية المنضدة تشوي وتحرق الأبدان.

ما هو السبب العميق لاجتياح أمريكا للعراق؟.

أذكر تماماً أنه في بداية ستينات القرن الماضي سجل الاتحاد السوفيتي بعض النقاط على الرأسمالية (صعود جاجارين إلى الفضاء)، هنا ذهل وذعر الغرب الرأسمالي، فما كان منه إلا أن أعاد ترتيب منظومته، وسد ثغراتها<sup>(1)</sup>، وكانت بداية سوء المنقلب على حركة التحرر الوطني في العالم، وأذكر أنني قرأت سنة 1966م المقال الأسبوعي الذي كان يخطه الأستاذ محمد حسنين هيكل في الأهرام ففوجئت أن هذا العام طالعنا بسبعة انقلابات حدثت لصالح الرأسمالية ضد حركة تحرر الوطني في العالم.

وسقط الاتحاد السوفيتي، وازداد سعار الولايات المتحدة، وأذكر أنني قرأت مقال "فوكوياما" في مطلع تسعينات القرن الماضي، الموسوم بعنوان نهاية العالم، وخلصته أن قطار الرأسمالية «لا مجال» سيقود العالم رغم ركافة مقاومة المسلمين وركودها وعطالتها.

وأخذت أمريكا ترتب بيتها، عالمها، السلم الأمريكي Pax American، تماماً كما

فعل الرومان في مفهوم السلم الروماني Pax Romanic.

لكن لماذا العراق أولاً؟.

---

<sup>1</sup> - يراجع في ذلك كتاب، د. فؤاد مرسي: الرأسمالية تجدد نفسها، عالم المعرفة، الكويت، عدد

كشفت محطة الجزيرة عن مخطط وضعته أمريكا، واشتركت فيه الصهيونية وإسرائيل وقد حضره بوش (الأب)، خلاصته ضرب العراق أولاً ثم إيران ثانياً.

نعم العراق أولاً لأنه المركز الاستراتيجي للشرق العربي، أجل لقد تحالفت دول سورية عام/768ق.م/(وعددتها حوالي ثلاثون دولة) على "شلمنصر" ملك الآشوريين، فما كان من هذا الملك إلا أن استطاع سحق هذا التحالف.

ما مغزى تركيز سيدنا عمر بن الخطاب على فتح العراق ووراثته العالم القديم واعتماده بذلك على العراق... هل وراء فعل سيدنا عمر وفعل بوش مغزى استراتيجي مع الفارق بين التفكيرين؟

نحن لا ننكر عيوبنا وأخطاءنا، وإلا لماذا لم نستطع حل مسألة أكراد العراق، وتركناها تنزف من دمائنا.

لقد أبرز الانثروبولوجي الفرنسي "لويس دومون" تمييزه بين حضارات (المسيحية - الهندوكية) ميالة لإعطاء موقع أساس للفرد، وحضارات (كالعربية والإسلامية) تضع تماسك الجماعة في الصدارة، من هنا كان استمرار الجماعات الطائفية والمذهبية والإثنية في ظل الدول الإسلامية المتعاقبة، هذا الاستمرار يزعج الاندماجين المتطرفين: من إسلاميين يرون ذلك نوعاً من الجاهلية إلى وطنيين يسعون إلى الاندماج الداخلي بين جماعات الدولة حتى ولو اضطروا إلى استعمال سيف بالقهر والترحيل ونقل السكان القسري، إلى قوميين متعصبين لا يرون إلا العروبة الغالبة في كل مكان<sup>(1)</sup>.

وفضلاً عن ذلك فلم تحل إشكالية الأكراد على الطريقة الفيدرالية الغربية (الولايات المتحدة وسويسرا أنموذجاً) مع أنهما أرقى بلاد العالم حالياً.

---

<sup>1</sup> - الدكتور غسان سلامة: نحو عقد اجتماعي عربي جديد، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية، 1987، ط1، ص106.

وقد كتب أحدهم يقول: ((إذا كان في التوحيد قوة فأن في التعدد والتنوع قوة تضاف إلى قوة التوحيد)).

ومع أنني لست كردياً، وليس عندي حل معين لهذه الإشكالية، فإنني أشير إلى عجز النظام العراقي عن حل ذلك، وقد سالت دماء كثيرة منذ أكثر من نصف قرن بين أهل لنا، مع العلم بأن الأكراد ساهموا في حضارتنا (محمد كرد علي - شوقي - الكواكبي)، ومع أنني لا أنكر أن الغلاة السياسيين من الأكراد ساهموا كثيراً في الإساءة باستعانتهم بإسرائيل وأمريكا، هكذا أتيح للأجنبي وخاصة الأمريكي أن بلغ وسط هذا الجو الخانق، ويحول بلدنا إلى مثلث الأزمات ثم مرع الأزمات<sup>(1)</sup>، وليس وكده إلا زرع الإلحاق - الانسحاق - الاختناق - الانشقاق - الاختراق<sup>(2)</sup>.

تهميشنا وإلحاقنا واختناقنا وسحقنا واختراقنا قديم وقديم على يد الغرب: تحطيم دولة الزنج الإسلامية في إفريقية - القضاء على إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند - الحروب الطويلة مع الدولة العثمانية - الحروب مع الصفويين في إيران - ما فعله الغرب في مصر والمغرب العربي وسوريا والعراق ودول الخليج ثم زرع إسرائيل.

ولقد ورثت أمريكا تركة الغرب بصورة أدق وألعن وتحالفت مصيرياً مع إسرائيل، فماذا فعلت بالعراق، وهل نكتفي بالنظرة السطحية والمباشرة، ونبرر فعل أمريكا ونكون في ذلك كمن برر احتلال الجزائر بسبب ضرب الداى للسفير الفرنسي بكشاشة الذباب.

---

<sup>1</sup> - مقال "الدكتور سيار الجميل" موسوم بعنوان المجال الحيوي للشرق الأوسط إزاء النظام الدولي القادم - من مثلث الأزمات إلى مربع الأزمات: تحديات مستقبلية، المستقبل العربي، عدد 6، لعام 1994.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص24، والكلام للدكتور غسان سلامة.

أستعيد إلى الذهن ما حدث في العراق: تمرد انفصالي كردي بزعامة الملا مصطفى البرزاني (التقليدية العشائرية)، ولم ينجح العراق بإخماد هذا النزاع وتحقيق وحدته الوطنية إلا بعد تحييد الدور الإيراني الشاهنشاهي الذي كانت أمريكا تكل إليه وظيفة رعاية الاضطراب في العراق، وكان ثمن التحييد التنازل للشاه عن قسم من شط العرب في اتفاقية الجزائر عام 1975.

- لم تكن أمريكا ترغب في نصر كامل لأحد الفريقين في حرب العراق مع إيران (فضيحة إيران غيت وأسلحة الكونتراس ومحاكمة أويفر نورث)<sup>(1)</sup>.
- ليس هنالك تلازم بين دخول العراق الكويت وبين شن أمريكا الحرب عليه، فقد شنت عام 1998م عدوان (ثعلب الصحراء) وفي آذار عام 2003م دون أن يكون العراق في وضع يهدد جيرانه<sup>(2)</sup>، ولدي نسخة من صحيفة أوبزرفر البريطانية تقول بالحرف الواحد: نهاية حرب الخليج الأولى بداية حرب الخليج الثانية.
- إحداث التمرد المسلح على النظام في الشمال والجنوب بمساعدة أمريكا - السيادة باتت ملتهمة ومصادرة منذ أتاحت الحرب العدوانية على العراق، وقرارات مجلس الأمن الخاصة بالتفتيش عن أسلحة الدمار الشامل الفرصة أمام الإدارة الأمريكية للتدخل في تفاصيل هذه السيادة.
- وتكفي وقائع عمليات التفتيش التي دخلت قصور الرئاسة ومراكز الجيش والأمن والوزارات والجامعات ومراكز البحث العلمي والمعامل والمستشفيات كي تدل على أن الهدف لم يكن بحثاً عن برامج للتسلح العراقية - الحصار

---

<sup>1</sup> - د . عبد الإله بالقزيز: مقاله الموسوم بعنوان المشروع الممتنع في الغزوة الكولونيلية للعراق، المستقبل العربي.

5- عام 2003، ص58.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص59.

الاقتصادي، والمشهد الذي يدل عليه من وحشية تدمير الإنسان العراقي -  
حظر الطيران العراقي في الشمال والجنوب الذي فسرتة أمريكا خلافاً  
لقرارات مجلس الأمن<sup>(1)</sup>.

■ وقريب من ذلك ما تحدث عنه الأستاذ محمد حسنين هيكل في مجلة وجهات  
نظر<sup>(2)</sup>، وإننا نقتبس حرفياً بعض المقاطع، قال بلسان أمريكا: ((إن هؤلاء  
العرب لا يستحقون منا مكافأة، لقد فعلوا دفاعاً عن مصالحهم في الحرب  
ضد إيران وأفغانستان))<sup>(3)</sup>.

■ توصلت الولايات المتحدة إلى تحقيق هدفها المطلوب موضوع التوجيه  
الرئاسي رقم/68/لسنة 1950، وهو القضاء على الاتحاد السوفيتي،  
وحركة التحرر الوطني على امتداد أربعين سنة من الحرب الباردة، ووصلت  
إلى تفوق اقتصادي وعسكري وطبيعي عبر هذا الفصل التاريخي، وقد  
وضعت ونفذت السياسات الكفيلة بضمان استمرار القوة الأمريكية غالبية،  
وبحيث تظل إراداتها غير قابلة للتحدي ودورها غير قابل للمناقشة.

■ لا مفر من أن تكون منطقة الشرق الأوسط، وليس غيرها مجال الاختيار  
الأمريكي الحاسم.

■ في نهاية رئاسة بوش الأب عقد مجلس الأمن القومي الأمريكي خمسة  
اجتماعات متوالية على مساحة ثلاثة شهور في اجتماعات ومناقشات أطلق  
عليها المناقشة الكبرى The Great Debate، تحدت فيها سياسة أمريكا  
في القرن الحادي والعشرين منها ضرورة السيطرة الكاملة على منابع النفط

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 60.

<sup>2</sup> - محمد حسنين هيكل: مجلة وجهات نظر، إبريل، نيسان، 2003.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، 2003.

وعلى إنتاجه في العراق، يملك/113/بليون برميلاً، أي 11بالمائة من الاحتياطي العالمي.

■ إن الاستراتيجية الأمريكية سعت إلى ضرب إيران بالعراق والعراق بإيران قصدتها استهلاك قوة البلدين الذين لا يمكن الاطمئنان إليهما معاً على المدى الطويل، وكانت هذه السياسة هي التي أسميت فيما بعد سياسة الاحتواء المزدوج، وقد عبر عن ذلك هنري كسنجر بقوله: ((هذه أول حرب في التاريخ أتمنى ألا يخرج منتصر)).

■ أمام اجتماعات مجلس الأمن القومي برئاسة بوش (الأب) كان هناك تحذيرات إسرائيلية تبدي القلق مما يجري في مصانع العراق ومعامله.

■ وكان جورج بوش (الأب) وأركان إدارته يشعرون أنهم على أول الطريق المؤدي إلى تأكيد أن القرن الحادي والعشرين سوف يكون قرن أمريكا.

■ وكان الدور الثاني التأكد «وقد دخل العراق إلى الصندوق» أنه لن يخرج منه، وهكذا فإن الضغط الأمريكي كان صارماً للحيلولة دون حل عربي للأزمة مع الكويت.

■ كان الصندوق المغلق الذي وضع فيه العراق يزداد إحكاماً كل يوم دون السماح بثغرة تتسرب منها أنفاس هؤلاء تسمح بحياة صحيحة.

■ إمبراطورية أمريكية وانتهت الظروف، وواجبها المقدس أن ترث ما سبقها من إمبراطوريات تضمن إحكام قبضتها على السابق واللاحق، وهنا لا بد من إعادة ترتيب أحواله وإقامة موازينه من جديد على أساس مختلف يحفظ للإمبراطورية الأمريكية الكلمة العليا في كل شأن.

■ إن الضرورات واللوازم اقتضت أن يكون مجال الحركة الرئيسية في مفتح القرن الحادي والعشرين هو الشرق الأوسط، وأن الشريك الرئيسي ليس هؤلاء الأصدقاء العرب، وليست بريطانيا، وإنما إسرائيل.

■ كان بوش الابن في انتخابات الرئاسة هو الأعلى صوتاً وكان يقول عندما يجيء ذكر العراق بأنه الأقدر على استكمال المهمة ولعب الدور بالقضاء على العراق<sup>(1)</sup>.

هذا غيظ من فيض مما فعلته أمريكا، وما هو منتظر أن تزيد فعله، غير مكترثة بأحد أو مبالية بالهيئات الدولية أو القوى الشعبية في العالم، وهي سادرة في تفكيك المجتمع والدولة في العراق على مرأى ومسمع العالم، كأنها القضاء والقدر لإرادة لمشيئته.

في حوار جرى بين "غينادي زوغانوف"<sup>(2)</sup> الروسي وبين أمريكي، تكلم الأمريكي وقال: ((سنقضي عليكم ولكن بطريقة إنسانية)).

أجل لعمرى إذا كان هكذا مصير روسيا فكيف سيكون معاملة أمتنا؟

وفي الحوار الذي جرى بين سفير إنكليزي في دولة عربية خليجية وآخر سوري في الدولة نفسها انبرى الإنكليزي للقول: ((أمريكا فيل كبير في غرفة زجاج يخبط بها كيفما يشاء، وغرفة الزجاج هذه هي الأمة العربية)).

وها هي في استهجانها للعالم واحتقارها للعالم تبدو علناً في سياسة جديدة أسماها "زوغانوف"<sup>(3)</sup> (هرم التبعية) خلاصة هذه السياسة خلق هرم منتظم متسلسل من الأشخاص والبنى التابعة لأمريكا، كما كانت انكلترا تحكم في الهند، فقد سئلت ملكة انكلترا كيف تحكمين الهند، فأجابت الجندي يحكمه العريف،

---

<sup>1</sup> - الأستاذ محمد حسنين هيكل: وجهات نظر، عدد 5، إبريل، نيسان 2003.

<sup>2</sup> - مؤلف كتاب العولمة والعلاقات الدولية، ترجمة عدنان جاموس، دمشق، دار ميسلون، ط1، 2001م.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص8.



والعريف يحكمه الرقيب، وهذا يحكمه الملازم في تسلسل حتى القائد العام الذي تحكمه ملكة بريطانية.

ومادة هذه التبعية والإلحاق من اللوبي العربي الأمريكي الذي أخذ يتكلم كثيراً في هذه الآونة متحدثاً عن السلم الأمريكي Pax American مدلاً به وكأنه القضاء والقدر، وليتصور القارئ أنه أطلقت تسمية شارع في الكويت باسم بوش بدلاً من بغداد تحت الأهازيج والزغاريد.

دفاع العراق عن نفسه ليس حق فقط بل هو واجب عليه، وهو فرض عين على كل عربي ومسلم حتى على المرأة دون موافقة زوجها أو والدها فالدجاجة تتحول إلى قوة كبيرة عندما يعتدي على أحد أفرانها والقوانين الوضعية تعلن declaration عن وجود هذا الحق دون أن تخلقه أو تنشئه وإذا قصر الحق الوضعي، تحرك الحق الطبيعي للقيام بواجبه.

فهيا يا أبناء عروبتى فالطريق طويل لا يقطعه إلا المخفون، وزمان صعب تملك به الفسقة وتولى به الظلمة، وليس أمامكم إلا الجهاد بمعناه الواسع المطلق، والجنة تحت ظلال السيوف، امتشقوا سيف الإسلام من غمد العروبة، (المسيحية جزء ماهية العروبة)، وأمتي ستبقى أبد الدهر تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتصدع بالحق، وسيبقى ذكر الله شرفها ومحتدها ورسالتها، قال تعالى: ﴿وَأِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ الزخرف/44.

فأمتي لن تموت وكما قال "مظفر النواب": ((فالعراق كاللله لا يموت))، واستغفر ربي عن مظفر النواب لأنه ليس كمثله شيء.

المحامي الدكتور برهان زريق



## الحياة وقفة عز فقط

### خطاب نوجهه إلى الشعب العربي في ليبيا

**يقف** بخطأ فاحش كل من يعتقد أن مواطناً عربياً واحداً لم يعانق المسألة الليبية الراهنة بضميره ولم يلفهما بجوارحه، وإن كنا لا ننكر أن الامتحان الكبير هو امتحان الحكام، حيث رسب من رسب وزلت قدما من زلته قدما، الأمن عصم ربي...

هل بين المواطن العربي في الحالقات المدلهمات؟، هل ضن على الشقيقة ليبيا إبان الغزو الايطالي الغادر، ألم يتخذ من الشهيد عمر المختار نبزاً للبطولة، ورمزاً للوفاء.

هل ضن المواطن العربي على فلسطين السليبية، أم ضن في محنة الجزائر أم في محنة بورسعيد، أم مصر في حرب العرب عام 1973...

أجل إن المواطن العربي لم يعانق المسألة الليبية باعتبارها حدثاً عربياً صرفاً، بل استشرف لها أفقاً إنسانياً، يقف الشعب الليبي فيه كالطود الشامخ متحدياً العفريت رافعاً رأسه مصمماً أن يعبر عن إرادة الحياة في عزة وكرامة واستقلالية.

استناداً إلى ما تقدم، فلن نعرض لمشروعية هذه الوقفة الجبارة في ذاتها ومبرراتها وشرفها، فهذا أمر يخرج عن نطاق الجدل، وإن كان حديثنا سيقصر على آلية فهم ومواجهة شعبنا العربي في ليبيا لهذه المشكلة متمثلة في مظهر من مظاهر

هذه المعالجة، ألا وهو قرار المؤتمر الشعبي الذي صدر في الثالث والعشرين من هذا الشهر.

والفكرة المفتاح في هذه المعالجة أن السلم لم يشأ أن يكون قائماً لنفسه غير منسجم مع ذاته بل عزم على أن يرتب بيته، فوسد الأمور إلى أهلها محيلاً إياها إلى صاحب السيادة الحقيقي، ألا وهو الشعب العربي في ليبيا بممثليه الحقيقيين...

وبيان ذلك أن الشعب هو الذي يتحمل المسؤولية، فهو إذاً صاحب الإرادة والسلطة، إنه معيار أخلاقي يوازي بين الغرم والغنم، سنداً للمبدأ المشهور: حيثما تكمن المسؤولية تكمن السلطة.

ونحن لا نملك أن نقرر ما إذا كانت هذه الإحالة أعمالاً لنص دستوري، وإن كنا نؤكد أن ذلك ينسجم مع أعرق التقاليد الدستورية في العالم المتمدن.

وكان المؤتمر، وصاحت إليه الأسماع العربية، والجوارح ودقات القلوب، وتعددت المداخلات، وكثرت المناقشات، وقرعت الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، وكان هناك صقور، وكان هناك حمائم، وكان هناك معتدلون.

● الصقور منسجم مع المقتضيات المحض لحق السيادة، منظوراً إليها في ذاتها، على اعتبار أن هذه السيادة سلطة أصلية *originaire* وأصيله ومبتدأه وتتبع من ذاتها ولا تتقيد إلا بذاتها، لاسيما أنه ليس هنالك أية معاهدة دولية تقيد الشقيقة ليبيا في هذا الحساب.

● المعتدلون رأوا أن هذه المشكلة ترتبط بعري وشيجه مع الحياة الإنسانية، ولا بد «بالتالي» من الإصغاء للغير واحترامه، لاسيما أن تلك المشكلة تنعكس عليه بصورة من الصور، ولاسيما أن الشعب العربي في ليبيا عضو في الأسرة العربية، والأسرة إنسانية له ما لها وعليه ما عليها...

• كان هنالك جدلية ومخاض، فطباق ذلك، هو الوسط الذهبي لقطبي الحقيقة.

• إجماع على رفض التسليم القصري باعتباره فعلاً مادياً، لا يمت إلى القانون بصلة، وهو منبت الصلة بكل دواعي الكرامة الوطنية.

• احترام العدالة الدولية، حيثما تقفت، إذ العدالة هي الميزان الذي نصبته يد الله، وهو سر قوام السموات والأرض، حسب تعبير فقيها العربي "ابن عقيل"، وحيثما تكمن العدالة تتجلى إرادة الله.

هكذا كان التوازن، عدم التسليم إلى العدالة الأمريكية، باعتبارها عدالة جوفاء عرجاء باهتة عاجزة عن إنصاف مواطنيها، فكم بالأحرى تستطيع إنصاف الغير، كما اتضح أخيراً من محاكمة الشرطيين المتهمين بقتل الأمريكي الزنجي...

وموقف المؤتمر الشعبي في ليبيا ينسجم مع ميثاق الأمم المتحدة الذي يحض الدولة المتنازعة على تسيير أمورها بالتحكيم والوساطة، كما أن ذلك يتفق مع تراثنا الخالد المتمثل بالأسوة الحسنة، التقليد الذي حطته براعة الرسول الأعظم ﷺ، عندما أحال النزاع بينه وبين بني قريظة إلى التحكيم مع أن المسلمين كانوا يتكلمون من موقعه القوة والانتصار.

رد على ذلك، فإعطاء الأولوية للعدالة العربية، يعتبر تكريماً للعرب أولاً، وهو في الوقت نفسه ترسيخ لانتماء الشقيقة ليبيا لأرومتها وجذرها العربي.

ولكن من تقبل الولايات المتحدة، ومن لف لهما من رؤوس الشياطين هذا القرار؟

الجواب بالنفي، كما ظهر على ألسنة المسؤولين الأمريكيين وهو أمر جد طبيعي، لأن المسألة، ليست عاصفة بفنجان، بل هي أكبر من ذلك بكثير وأبعد من ذلك بكثير ونحن نراهن أنه لو سلمت الشقيقة ليبيا مواطنيها، لطلبت الولايات المتحدة المزيد ثم المزيد والمزيد...

ألم نسمع «ومداد هذه الكلمات لم يجف» إن هذا المعيار الموسع طبق على إيران، وإذ بقرار المحكمة الأمريكية العليا الذي يسمح باختطاف المعادين لأمريكا، هذا القرار ينسحب على بعض قادة الحزب الجمهوري مثل (المحتشمي)، وغيرها .

هذا هو خيار شعبنا العربي في ليبيا أن تكون له إرادة الحياة مستقلة وأصلية، فتتحمل على اعتبار الفصل الثاني من المسرحية المضحكة المبكية الحصر لفصولها، هذه المسرحية التي أخرجت ومثلت على يد النظام الدولي الجديد المزعوم، حيث تحمل شعبنا العربي في العراق الفصل الأول، ثم خصص الفصل الثاني للشقيقة ليبيا، وهناك الفصول والفصول التي مثلت وستمثل على أرض وطننا العربي المجيد .

هذه الفصول واحدة سواء التي مثلت على يد النظام الدولي القديم أم على يد النظام الدولي الجديد .

وهناك خط واحد يربط سلب فلسطين لا باعتداء على بورسعيد وعلى الأمة العربية عام/1967/، ثم الاعتداء على لبنان والعراق فليبيا، وهلم جرا .

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب، فقط بلغ السيل الزبا، وجاوز الحزام الطبيعي، فشمروا للأمر عدته ولكن أمامكم عقبة كؤوداً لا يقطعها إلا المخفون .

وأنت أيها الشعب العربي في ليبيا، إننا نسمع بعض الأصوات ترتفع في بعض جنات ترابك المجيد مدللة بتقصير العروبة بحقك، وحقيقة الأمر أن الشعب لم يقصر، ولن يقصر بحق العدل وحق المصير وحق الوجدان وحق الأخوة وحق العروبة .

لقد اخترت أيتها الشقيقة تشريفاً وتكليفاً لهذه المهمة الخالدة لتكوني نقطة الانطلاق وخميرة المشاعل وكيمياء التحول في وجه هذا النظام الدولي الظالم، وهو خيار انفكاك لك منه، إنه داعي الانتماء، وهي في داعي الانتماء خيار، هل اخترت أبي وأمي، وهل أقصر عن أبي وأمي، هل قصر الشعب الفلسطيني خلال نصف

قرن عن مصيره المؤلم، هل دب الوهن إلى الشعب السوري الذي تحمل من أجل القضية الفلسطينية الكثير والكثير.

هل اختار الشهيد عمر المختار انتماءه إلى شرف أمته، أم أن العروبة كانت فطره ودماً في العروق والأوصال والأعماق، وصرخة دوت في الأعماق.

أجل فالحرية حمراء وكرامة حمراء والحق أحمر والعدل أحمر والعروبة حمراء.

إنك أيها الشعب العربي من ملة إبراهيم جد العرب و خليل الرحمن، وهل هناك من شرف يداني هذا الشرف، واللغة العربية هي لغة القرابة، ولغة أهل الجنة.

حذار حذار أيها الشعب العربي في ليبيا أن يدب اليأس إلى قلبك والبؤس إلى روحك، وأنت موئل الكرامة وقلعة الشرف، ولك في رسول الله الأسوة الحسنة - عندما راودته الجبال الشم عن ذهب، فأراها أي شمم، وقال كلمته المدوية المشهورة التي مالت إسماع الدنيا خلوداً: ﴿يَا عَمَّ وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا اللَّامِرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتَهُ﴾.

لقد حوَّصر الرسول الكريم ﷺ، وحوَّصر بنو هاشم وبنو المطلب، واحكم عليهم الحصار، ومنع عنهم الزاد ولكن ذلك لم يفت بعضد الرسول ﷺ، وازدادت قوته قوة، وعزيمته عزيمة...

حصار الرسول ﷺ وحصار العراق حالياً وحصار ليبيا وحصار سوريا - التسليح مظاهر لحقيقة واحدة هي وقوف الحق ضد الباطل.

إنها إرادة الحياة وإرادة الشرف وإرادة الكرامة، والعقبة الكوود يقطعها المخفون، والحياة وقفة عز فقط...

المحامي الدكتور برهان زريق





### ما وراء الحملة ضد الجماهيرية<sup>1</sup>

ما وراء جماعة بشرية، مهما اختلف تركيبها وشكلها ودرجة تطورها الحضاري، إلا ولها جذر اجتماعي تتخلق حوله، وتتسع بمكوكه عرى الاتصال، وأوصال الالتحام، وشرايين التفاعل، وبنى الترابط، يصدق هذا على مجتمع الطوتم كأبسط شكل من أشكال التجمع الإنساني، كما يصدق على العشيرة فالقبيلة، تتويجا بالدولة كأنضح شكل للتعبير عن الروح الإنسانية.

وهذا الجذر يأخذ تسميات متعددة: الخيال العام، الوجدان الاجتماعي، الضمير الجمعي، الروح العامة، وغير ذلك.

هذا الضمير هو موئل قيم الأمة، ومورد أفكارها وذاكرتها التاريخية، ومنبع إرادتها ونزوعها، ومصدر آليتها النفسية، التي تعمق المشاعر المشتركة، ومناطق آليتها العقلية التي تتسج تصوراتها وموقفها من الوجود.

ولكن ما هو الشأن بالنسبة إلى هذا الجذر الاجتماعي العربي؟ وما هي مصداقيته؟

في الحقيقة لا أحد يشكك في مصداقية هذا الجذر في مظهره الشعبي (المجتمع المدني أو الأهلي) ومدى تضحياته وشموخه، وتمسكه بكرامة أمته وعزتها، ورنوه إلى مستقبل زاهر، كل ذلك رغم محاولات المحاصرة والتهميش.

<sup>1</sup> - نشر هذا المقال في مجلة الموقف العربي، العدد 529، السنة الثانية عشرة، تاريخ 1992/6/8، ص53.

ولكن ألا يمكن أن يقال أن سوسولوجيا (علم الاجتماع) اليوم هي سياسة الغد على حد تعبير "غوستاف بوتول"، تدليلاً على أهمية الجماعة في إفراز الظاهرة السياسية، وضبط حركتها، وبمعنى أوضح أن نمو السياسة تابع ونابع من النمو العام للمجتمع؟.

لا أحد ينكر ذلك، وإن كنا ندلل بقول ابن خلدون: إن الملك (السياسة) للعمران (المجتمع) كالصورة للمادة، فالسلطة، رغم أهمية المجتمع، تبقى إطار الجماعة ودرقتها، والقرار المكين الذي تلقى فيه بذور الحياة، ولا يمكن للحياة أن تزدهر وتتبلور إلا في مثل ذلك، وهذا قانون بيولوجي أكده سبحانه وتعالى، بالنسبة إلى الإنسان، بقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿20﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾  
المرسلات/20-21.

إن مجتمعا العربي يعاني من صنوف المحاصرة، وأشكال محاولات التهميش والطمس، حتى التصفية لاسيما من قبل الآلية السياسية في الداخل، ومن قبل الامبريالية العالمية في الخارج، وقد أخذت هذه المحاصرة شكلاً جهنمياً جديداً، بعد اختلال توازن الثنائية القطبية بين العملاقين، وانحصار جميع مظاهر القدرة والطاقة في يد العالم الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة.

ومع أن هذا الانتصار الأخير على المنظومة السوفياتية حديث العهد، فإن ما يسمونه النظام العالمي الجديد ما فتى يسدد الضربات إلى رأس الأمة العربية، ابتداء بأبشع مغامرة للروح البشرية (الاعتداء على العراق)، ومروراً بتهديد سوريا بالعصا الغليظة بسبب التسلح، وأخيراً الحملة ضد الجماهيرية العربية الليبية الراهنة.

كيف لا تكون هذه الأمة مطمع الإمبريالية، وهي اللؤلؤة التي تحتضن في جوف أرضها أعظم الثروات في العالم، وصرحت الولايات المتحدة، ومن لف حولها، بأن خطتها العليا، في نطف العرب.

أجل، إن العالم الرأسمالي هو وريث المسألة الغربية، التي تمتد جذورها وذاكرتها التاريخية ووجدانها الجمعي إلى الاحتلال اليوناني، فالروماني، فالموقف من الفتح الإسلامي، فالحروب الصليبية، ثم الموقف من الدولة العثمانية (الرجل المريض)، ثم احتلال المغرب العربي ومصر والمشرق العربي، وتتويجاً بمأساة فلسطين العربية.

هل هذه الأحداث التاريخية الكبرى مبعثرة تحكمها النزعة العارضة والموقف الطارئ، أم أن هنالك ناظماً يضبطها، ويشد فرادتها، ويفرغها في منظومة متكاملة؟

إن لكل حدث آثاره وتفاعلاته التي تتناسب طردأً مع أسبابه، والسؤال المطروح هو: هل تفاعلات الحملة ضد ليبيا تتناسب مع أسبابها أم أن المسألة تتعلق بالضمير الجمعي للعالم الرأسمالي؟ أو كما يقول المثل الشعبي العربي: ((ليست المسألة حبة رمانة وإنما القلوب مليانة))، إذ القضية أكبر من ذلك بكثير والأسباب بعيدة... بهذه الروح العامة... كيف نقيس هذه المسألة بما يحدث من انتهاكات لشعبنا العربي في فلسطين أمام مرأى ومسمع القيادة المزيفة للنظام العالمي الجديد؟

يكفي أن ندلل بما قاله بعض الصحافيين العرب، تهكماً على قرار محاصرة الشقيقة ليبيا، بأن الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة حصص للعرب، ويكفي أن نلفت الانتباه إلى قرار هيئة الدفاع عن حقوق الإنسان في باريس، التي أظهرت تهافت هذا القرار، وعدم قيامه على أساس من الحصص والمشروعية.

والمسألة الأولى والأخيرة في الموضوع هو ذلك الجهاز المفاهيمي، الذي آخذ يظهر في الدراسات الحديثة، والمسمى "الضمير الجمعي"، فهو موئل كل طاقة، وأساس كل تصور، ومنبع كل قرار سياسي.

إن "بوش" هذا الصانع الأول لقرار المحاصرة، هو وراء هجرة يهود "الفالاشا"، وقد أفصح عن سعادته الكبرى في نجاحه بذلك، عندما كان نائباً للرئيس الأمريكي،

وهو نفسه الذي عبر عن حزنه العميق لأن سوريا عاملت السوريين اليهود كمواطنين من دون أن تسمح لهم بالهجرة إلى إسرائيل.

ومن المؤسف حقاً أن كثيراً من الأقطار العربية «إلا ما عصم ربي» يضع زمماً في عنقه - ثم يدفعه إلى يد بوش، هذا الكاهن اليهودي، ليدعه يجره كما يشاء، والعجب العجاب في هذه الآلية السياسية أنها تحب أميركا كثيراً والعرب قليلاً.

قد تقول هذه الآلية السياسية «وقد قالت ذلك على السنة معظم وزراء الخارجية العرب» أنني جزء من الإجماع الدولي، وأنا ملزمة بهذا الإجماع، ولكن السؤال المطروح هو: أليست هذه الآلية ملتزمة بالاجتماع العربي؟

نحن لا نقول لهذه الآلية شئاً حرباً على الولايات المتحدة، ومن معها من رؤوس الشياطين، ولكننا نقول لها: امتلكي «وحسب طبائع الأشياء» الآلية التاريخية، والآلية العقلية والنفسية، وأخيراً الآلية القانونية.

- الآلية التاريخية: بأن تتعاملي وتعاقي أحداث التاريخ: يداً واحدة وإرادة للحياة واحدة وقلباً واحداً، ووحدة شعورية واحدة ووعياً للذات واحداً.
- الآلية العقلية والنفسية: بأن تحركي كل طاقاتك وأجهزتك وإمكاناتك لمقاومة هذا الحصار، وفضحه وتعريته، وتوضيح مثالية وأغواره البعيدة وخطره على أمتن.
- والآلية القانونية: هي الكفاح العربي الموحد من أجل القانون.

أجل فالكفاح من أجل القانون عنوان مدرسة فقهية، تزعمها الفقيه الألماني "إيهرنك"، خلاصتها أن القانون ظاهرة اجتماعية، يدخل في نظام الغايات والأهداف: وهو وليد الإرادة والكفاح المرير عبر أنقاض الحقوق المهترئة، وأن الكفاح من أجل القانون كالكفاح من أجل الحياة، وأن القوانين العظيمة كالانتصارات والمعارك العظيمة.

أين هي تلك الآلية القانونية التي سخرناها من أجل القرار الغاشم.

إن فروع القانون كافة تتكلم على القرار المدوم، وهو القرار الذي يخرج على الشرعية بصورة واضحة: وصارخة وفاضحة، وهذا الخروج يجرده من أية قيمة قانونية، ويهوي به إلى مهاوي درك الانعدام، فيجعله مجرد حقيقة مادية، يبرر لكل ذي مصلحة عدم تنفيذه.

هل تعامل الآلية السياسية العربية مع هذا القرار على هذا الأساس؟ بالعكس فقد تضمن قرار وزراء الخارجية العرب ضرورة الخضوع للشرعية الدولية المزعومة... فأين هذه الشرعية؟

لنعد الكرة ولنؤكد هذا الجهاز المفاهيمي، الضمير الجمعي، فهو المحك، وهو الأساس لكل فعل وانفعال، ولقد تصرف بوش وغيره منسجماً مع ضمير أمته، ولكن هل تصرفت الآلية السياسية في الحملة ضد ليبيا منسجمة مع ضميرها الجمعي؟!

أجل انسجمت هذه الآلية السياسية مع الضمير الجمعي، فكانت معجزات هذه الأمة، القادسية، اليرموك، حطين، عين جالوت، ميسلون، بور سعيد، الكرامة، الانتفاضة العملاقة، وكان خالد وسعد وصلاح الدين وعمر المختار وعبد الناصر، وغيرهم من الذرى الشامخات.

والآن تجاهد هذه الأمة في تبديد قطع الظلام، التي أخذت تحيط بها، سواء من آليتها السياسية، أم من النظام العالمي الجديد الوريث الشرعي للمسألة الغربية، ذلك النظام الذي ما أنفك، كالأفعى، يتلمظ لثروات هذه الأمة ومستقبلها وحياتها.

ولكن قطع الليل هذه لن تزيدنا إلا تصميماً وتمسكاً بضميرها وروحنا العامة ووجداننا العام، وهوية هذه الأمة وتراثها وذاتها ووعياها، وحقها في الحياة، وانتزاع هذا الحق بالحرية الحمراء، ورحم الله "أحمد شوقي"، معبراً عن روح هذه الأمة،

مترجماً قيمها في ترنيمة الخلود، على مسمع الأبدية تقديساً للمحمة الخلود، بطل  
العروبة والإسلام... الشاهق عمر المختار، قال:

كُنُوا رِفَالَكُ فِي الرَّمَالِ لَوَاءِ      يَسْتَنْهَضُوا الوَادِي صَبَاحَ مَسَاءِ  
يَا وَيْهَمُّ نَصَبُوا مَنَاقِبَ مَن دَمِ      يُوْحِي إِلَى جَيْلِ الغدِ البَغَضَاءِ  
مَا ضَرَّ لَوْ جَعَلُوا العِلَاقَةَ فِي      فُجِدَ بَيْنَ الشُّعُوبِ مَوَدَّةً وَإِخَاءِ  
جَرَحَ يَصْبِيحُ عَلَى المَدَى وَنَهْجِيَّةِ      تَتَلَمَّسُ الحَرِيَّةَ الحَمَاءِ

د. برهان زريق

## صراع الأقدار بين الأمة العربية والنظام العالمي الجديد

لا بد من التنويه «بادئ ذي بدء» بحقيقة أولية هي ضرورة التمييز بين الظاهرة الدينية في ذاتها وماهيتها ومنبعها، وبين صيغتها وتفاعلها مع الزمان والمكان.

في الحال الأولى نحن أمام ما نسميه (الوضع الإلهي)، أما في الحال الثانية، فنحن حيال ظاهرة اجتماعية صرف بكل ما تعني هذه الكلمة من مدلولات، وترتب من نتائج، على اعتبار أن الجماعة البشرية إذا ما اعتنقت الوضع الإلهي تغلغل في كيانها، وتحول إلى جزء من نهجها وبنيتها.

ولعلنا نجد مصداق ذلك الحقيقة في الأدب الماركسي، فهذا «وبوصفه إيديولوجيا» لا يعنيه الوضع الإلهي، أو على الأصح يعتبر هذا الوضع صحة علاقة بين إنسان وخالقه، في حين يتعامل مع الوضع الثاني بصفته إحدى فعاليات الجماعة البشرية، وكما نؤكد عبارة ماركس الذائعة الصيت: ((الدين عند الكثيرين هو النظرية العامة لهذا العالم، وهو مجموعة معارفهم الموضوعية، وهو منطقتهم الذي

يتخذ شكلاً شعبياً، وهو موضوع اعتزازهم، وموقع خصامهم، وهو أداة ثقافتهم، ومنهجهم الأخلاقي<sup>1</sup>.

والملاحظة الثانية، تتعلق بخصوصية العلاقة الوثيقة بين الأمة العربية والدين، يظهر ذلك جلياً ازدهار الكيانات المعمارية تفتحت روابي هذه الأمة، وفي ربوعها، وذلك من خلال آلية مطردة ومنتظمة، وفعالية تراكمية، وترسيبه لقيم هذه الديانات، فهي وجدان أمتنا، تراكمياً وترسباً استقرا في أعماق وجدانها... الملاحظة الثالثة، وتتعلق بخصوصية العلاقة بين الإسلام والأمة العربية، وكيف كان له دور في تعجيل نهضة هذه الأمة وبلورة ملامحها ومصالحها الذاتية، وكيف أن ندلي بهذه الحقيقة<sup>2</sup> بما قاله، المطران "جورج خضر": ((إن هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية، ونحن ننتمي إليها))، وقول "أمين نخلة": ((كان الإسلام إسلامان، واحد بالديانة، وواحد بالقومية، والله، وكأنما العرب جميعاً مسلمون حين يكون الإسلام اهتداءً بمحمد، وتمسكاً وتكلفاً بلغته))<sup>3</sup>.

الملاحظة الرابعة، وتتعلق بدور القيم عامة، والروحية خاصة، في انهاض أية جماعة بشرية والارتقاء بها في معراج التقدم والتطور، وعلى هذا فإن أي مشروع نهضوي يبقى مبتوراً منتقص الروافع والدوافع إذا افتقر إلى ميكانيزم القيمة. وبيان ذلك أن القيمة - كفعالية - شيء، وهي على أرض الواقع شيء آخر، ففي الحال الثانية، نحن حيال ظاهرة اجتماعية، يؤثر فيها رجل الاجتماع والسياسة والإيديولوجيا والتاريخ.

ولعلنا نجد «تأكيد ذلك في المشروع النهضوي الناصري» وهو مشروع لا يثير شكاً أو جدلاً في مصداقية نهضويته - الذي أكد في نص صريح وواضح من ميثاق

<sup>1</sup> - د. رفعت السعيد: الإسلام السياسي، مجلة قضايا فكرية، القاهرة، 1989، الكتاب الثامن، دار الثقافة.

<sup>2</sup> - مجلة الناقد، العدد الخامس والعشرون، تموز، 1990، ص18.

<sup>3</sup> - الحوار القومي الديني: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1989، 123.



العمل الوطني على أهمية القيم الروحية النابعة من الأديان، ودورها في آلية التقدم والاستنهاض.

لقد بلغ الأمر بهذه العربية أنها هددت روسيا على أثر تصويت البرلمان الروسي ضد إصلاحات "يلتسن"، كما هددت الصين عندما سمعت أنها ستستعمل حق النقض (الفيتو) ضدها ...

شعبنا العربي في فلسطين تدقُّ عظامه بالحجارة على مرأى ومسمع ما يسمى العالم الحر دون أن تتحرك فيه ذرة إحساس، أما إسرائيل، فتكسد السلاح على مزاجها، وقد بلغ بها الأمر «وبتوجيه من الولايات المتحدة» أنها صارت تحذر إيران مرتين في أسبوع واحد من امتلاكها أسلحة الذرية ...

ألا تكفي هذه الوقائع المأساوية الفجائية للتأكيد بأن هذه الدولة ليست زعيمة بالمعنى الكارزمي وإنما بالمعنى الديماغوجي الغوغائي القائم على التزييف والتلفيق ودعاوى القوة الغاشمة ...

((حيثما توجد رائحة البترول، يوجد شخص يعمل لحسابنا، ويجب أن نصمم السياسة الحديثة لنا، بحيث لا يعارضنا أحد...))، هذا الكلام لأحد مهندسي السياسة الأمريكية وزير الخارجية السابق اليهودي "كسينجر".

ما هي شهادة مجترح المواقف القومية الجنرال "ديغول" بهذه الدولة، يقول: ((مشكلة الأمريكيين أنهم يريدون أن يكونوا شرطي العالم ومعلمة وقسيسه وبنكيره، وهذه كلها أدوار متناقضة وزاد عليها "جونسون" دور آخر أصعب، هو دور راعي البقر...)).

إنها إمبراطورية الفوضى الوجه الكئيب العبوس الذي تحاول هذه الدولة أن ترسمه على وجه الحياة الإنسانية، ذلك هو عنوان كتاب الدكتور سمير أمين، وإن كنا نقول أن هذه الإمبراطورية ليست إمبراطورية الفوضى، وإنما إمبراطورية التخريب ...

ماذا يعني قرار المحكمة العليا في الولايات المتحدة، فيما يتعلق بحق اختطاف المواطنين الليبيين، ألا يعني ذلك أن هذه الدولة تخطف العالم، وتدوس بأقدامها على النظام الدولي، وتعود بنا القهقري إلى نظام التقاضي الخاص الذي كان سائداً في العصر الحجري ... والذي جرّع الإنسانية الويلات.

ألا يعني هذا الخبر أيضاً أن الولايات المتحدة تقوم حالياً بعملية جراحية على جسمها لتحطيم أوالياتها وفعاليتها المشروعة الداخلية، فتهيئ هذا الجسم لدور المساوي الجديد الذي تريد أن تلعبه على مسرح هذا الكوكب. إن إمام... الإنسانية عقبة كؤوداً لا يقطعها إلا المخفون وزماناً صعباً تملكه الفسقة، وتحكم به الظلمة، والولايات المتحدة لا تتي ترسخ عبوس الحياة وقتامتها، وهنالك ناقوس كبير يدق على طول هذا الكوكب وعرضه مجزراً منذراً مجلجلة صوته قائلة: ((يا أحرار العالم اتحدوا، فالحق القوي يقذف بالباطل فيدفعه، ولن يضيع حقه ورآه مطالب، وإن إرادة الحق من إرادة الله، واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد)).

نقابة المحامين- اللاذقية

المحامي الدكتور برهان زريق

## يا أحرار العالم اتحدوا

**بتاريخ** 1992/6/16 طالعنا الإذاعة المسموعة نبأ عجيب غريب، وفي الوقت نفسه مؤلم ومقيت خلاصته أن المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية أصدرت قراراً يسمح لرجال المخابرات المركزية باختطاف المواطنين الليبيين المتهمين «وهماً ووهناً وعسفاً» بالمسؤولية عن تفجير الطائرة فوق مدينة (لوكيربي).

ولقد اقترن هذا النبأ بتعليق المذيع حول رفض وزير العدل في الدولة الأنفة الذكر لهذا القرار واستنكاره له...

وقل هذا التاريخ بأيام معدودة، وبالذات بتاريخ 1992/6/13 ألقى الرئيس الأمريكي "بوش" كلمته أمام مؤتمر قمة الأرض، هذا المؤتمر الذي وصف بأنه أضخم مؤتمر عهد التاريخ البشري، باعتباره يصطلح بأهم مشكلة مطروحة على الضمير الإنساني، ألا وهي مشكلة الحياة في ذاتها على هذه المسكونة...

لقد فوجئ المؤتمرين بالموقف الفاضح الذي اتخذته الولايات المتحدة في هذه المشكلة والمتجسدة في تغليب الاعتبارات التجارية والصناعية الرخيصة على مقتضيات الحياة على هذا الكوكب... كما فوجئ «لاسيما فرنسا» بكلمة ضئيلة

في حجمها ثقيلة في حجمها، وردت على لسان "بوش" مفادها أن الولايات المتحدة هي زعيمة العالم، وأن موقفها من هذه المشكلة تملية دعاوى واعتبارات الزعامة.

والسؤال المطروح هو: هي أن الولايات المتحدة فعلاً زعيمة العالم، وما هي حقيقة هذا الادعاء وبالمقابل إذا كانت زعيمه، فهل إنها زعامة حقيقية (كارزمية)، لم زعامة مزيفة (ديماغوجية).

لا مجال في هذا المقام الضيق الحفر والحرث المعرفيين الأكاديميين على هذا الجهاز المفاهيمي وحسبنا القول أن الأدب السياسي يتعامل مع هذه الظاهرة الإنسانية من الزاويتين الآتيتين:

#### من الزاوية القانونية:

حيث يميز علم القانون بين أسس السلطة واندماجها، أجل لقد كان هذا العلم وهاجس العميق البحث عما إذا كان النظام السياسي والجماعة والمجتمع والحيلة تندمج وتذوب في شخص الحاكم وإرادته، وتتوقف على نزواته، أم بالعكس والشعب هو صاحب السلطة ومستودعها، وبالمقابل تتحدد الفعالية والآلية الحاكمة - بأنها مجرد وكيله عن الجماعة ليس إلا لتحقيق المشروع المنظم والمحدد سلفاً... وهذا ما عبر عنه "جورج بوردو" بقوله في وصف الزعيم: ((إذا كنت أرى فيه وجه أنحني أمامه، وأقبل توجيهاته برضا واحترام، فذلك لأنني أستشف عبره مشروعاً يهمه كما يهمني، ولكنه يتجاوزه كما يتجاوزني))<sup>(1)</sup>.

---

<sup>1</sup> - كتابه الدولة، ترجمة الدكتور سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ط1، ص21.

## من الوجهة النفسية والاجتماعية:

فالزعامة هي مكانه وسؤدد وتألق وإشعاع ونفوذ، هي باختصار حسب رأي "مورينو" التلفاز الذي يتلقى ما يبثه الآخرون من آمال ومشاعر<sup>(1)</sup>.

منه الزعامة «أننا نوصف في أبجدية السياسة المعاصرة» بأنها السلطة الكارزمية تقوم «على حد تعبير "الدكتور شراب"» على اجتراف الأمور بالعقلانية الرشيدة، كما يقوم مظهرها المزيف على افتعال الحقائق وابتسارها ولي عنقها، والكذب فيهان وهذه هي الزعامة الديماغوجيه...

ما هو نصيب الولايات المتحدة من هذه السلطة الدولية المؤسسة أو العقلانية الكارزمية الرشيدة؟ أول ما يستبعده كل ذي منطق كون هذه الزعامة مؤسسة، أي كونها جهازاً في خدمة فكرة، هذا الجهاز هو المؤسسة العالمية الدولية، وهذه الفكرة هي تخلق المجتمع الدولي حول هدف إنساني، ثم قيام الولايات المتحدة على خدمة هذه الفكرة.

هل نذكر القارئ بأن الخطوط العريضة لميثاق الأمم المتحدة هيكت، والمدافع ما زالت تصك الأذان وتقرعها، وتزهق النفوس وتخفق المشاعر، ومن ثم فإن حروف هذا الميثاق صيغت «أنياً وأظافراً» بدماء الحروب وألسنة النيران فيها، وإن نظام الاعتراض (الفيتو)، هو القوة العسكرية بشكل آخر، على حد تعبير الاستراتيجي "كلاوزفنتش".

أين هي تلك القيادة الكارزمية للولايات المتحدة بالمعنى المحدد لهذه الكلمة، ألا وهو حق الروح والعقل والضمير والعقل والمنطق والإنسانية... هل هنالك مجال لفتح الملف الظلامي للولايات المتحدة؟

---

<sup>1</sup> - جان وليام لابييار: السلطة السياسية، ترجمة إلياس حنا إلياس، منشورات عويدات، بيروت، 1983، ص37.

لقد غزت (جرينادا) عام/1983، ثم اعتدت/عام 1978 - 1979/على إيران وأفغانستان، كما اعتدت على الهند وسيريلانكا والسلفادور وهندوراس وفيتنام وكوبا وكوريا والدومينيكان ونيكاراجوا وناميبيا وجواتيمالا هذا فضلاً عن تهديها عشرات المرات باستعمال السلاح الذري.

هل يمكن لنا أن نحصر فصول اعتدائها على الوطن العربي، وفي مقدمة ذلك اعتدائها «وبأداتها إسرائيل» عام/1967، ذلك الاعتداء الذي ما زلنا نتجرع علقمه ونتأججه الوخيمة، وبالمقابل ما زالت الولايات المتحدة وأداتها تصران على إبقاء صخرته فوق روحنا وحياتنا وضميرنا.

لقد خلقت هذه الدولة الطائرة المصرية التي كانت تقل مندوبي منطقة التحرير الفلسطينية، ثم أرغمتها على الهبوط في إحدى قواعد حلف شمالي الأطلسي بإيطاليا، ولم يتورع "ريغان" أن يعلن متبجحاً وبكل وقاحة أنه هو الذي أصدر الأمر، ولتضرب مصر رأسها في الحائط.

وقبل ذلك بأشهر ساعدت إسرائيل في ضرب منطقة التحرير في تونس، ثم ضرب الشقيقة لبنان، وبعدها بأشهر ضربت الشقيقة ليبيا، كما فرضت حظراً على بترولها عام/1982، وجمدت لها مليارين ونصف دولار، زعما أن هذه الشقيقة دبرت انفجار مطار روما وفيينا عام/1985/...

والمثير للضحك والقرع أن هذا الإرهاب الدولي الفاضح ضد الجماهيرية برزته الولايات المتحدة بأنه من حالت الدفاع عن النفس...

أجل لقد حدث كل ذلك قبل انفراط عقد المنظومة الشيوعية، أما عقب ذلك، فالأمر يختلف من حيث الطبيعة والماهية والجوهر، حيث انفلتت الأمور من عقالها، وأنطلق الشيطان الأكبر من قمقمه ليتوغل على هذه الدولة، ويفترس تلك دون ضابط أو حياء أو خجل...

لقد ابتدأت هذه الدولة بافتراس المنطقة الدولية، وتكريسها لأبشع مغامرة  
قدرة للروح الإنسانية، حيث دكت شعبنا في العراق، وحطمت قاعدته الاقتصادية  
والتحتية، من جسور ومصانع ومؤسسات، كل ذلك تحت ذرائع لا تمت إلى الواقع  
بصلة، وسواء أكانت هذه الفعاليات دينية أم علمانية قومية اشتراكية، أم غير ذلك.

كيف نفهم موقف النظام المذكور من قضايا الأمة العربية الكبرى: الاستقلال  
الوطني المعاصر للدول العربية - العهد الناصري النهضوي - القضية الفلسطينية  
- المسألة العراقية - المسألة الليبية.

كيف نفهم ونفسر اتهام النظام الأنف الذكر - حماس - بالرجعية والظلامية، مع  
أنها فصيل وطني وقومي يناضل على أن فلسطين الحبيبة، ويقدم الدماء  
والدموع...

كيف نفهم ونفسر موقف هذا النظام من المسألة الجزائرية الراهنة؟

أجل لقد كان الشعب الجزائري الشقيق على قلب قوسين أو أدنى من إرساء  
الديمقراطية على أرقى التقاليد الإنسانية، ألا وهي قاعدة صندوق انتخاب،  
بحيث تمارس هذه الديمقراطية بشكل عام ومفتوح لكل مواطن باعتباره يعلن جزء  
من أجزاءه العامة.

لقد كان المهم ترسيخ وإقامة المشروع الديمقراطي وقاعدته أساسية باعتبار ذلك  
حقاً من حقوق الأمة التاريخية، أما أسلوب الممارسة والجهة التي تقلد السلطة،  
وتمارس حق الحكم، فذلك أمر قابل للتصويب في المستقبل عن طريق الدربة  
والمران، ولكن النظام العالمي وقف موقفه المبدئي من شعبنا الجزائري، لا حباً أو  
كراهية جبهة، وإنما موقف من الأمة العربية في ذاتها.

إن النظام العالمي يحسن التفريق دائماً بين القمح والذؤان بين الطفل والمسن،  
والمهم عنده القضاء على القمح لا الذؤان كما (كما فعل في إحراق قمح العراق)،  
فالمهم عنده الأمة العربية في ذاتها وجوهرها فشكلها أو مظهرها، هذا النظام أم

دافعه - المهم عنده القضاء على الطفل، والحيلولة دون أن يصبح شاباً مفتول السواعد .

وهكذا تتحدد دوافع هذا النظام، حين تعامل في الماضي مع المد الناصري (وغيره من القومية)، متهما إياه بالشيوعية، وهو يتعامل حالياً مع الفعاليات الدينية الوطنية والقومية متهماً إياها بالرجعية والخدمية، وغداً سيتعامل مع أية ظاهرة سليمة، بما يتفق مصالحه وأطماعه .

ألم يأن لهذه الأمة بكافة فعالياتها وفصائلها أن تفتح أعينها، وترهن قضيتها إلى نبضات التاريخ، وأن تحلق حول محور واحد هو مقاومة هذا الشيطان الأكبر الرجيم .

كيف نفهم أن كافة فعاليات الدولة المسخ إسرائيل تتحقق حول محور واحد هو طمس شخصية أمتنا وحضارتها ومستقبلها .

ألا يجدر بالوسائل أن تتكافأ شرياً مع الغايات، فترقى إلى مستواها، وتتجذر حولها؟؟

أما أن لهذه الوسائل ألا تكون فتوية عشائرية... أما أن لها أن تفكر، فتقدر، فتعي... وهل من مدكر...

اللاذقية - سوريا

المحامي د. برهان زريق



## ميثولوجيا الفيل المدلل ومسألة الكارزما الأمريكية

**توجد** صورة قانونية عامة مقررة في كافة التشريعات، هذه الصور «بصرف النظر عن النظام القانوني الذي تنتمي إليه» تطبق على الحالات التي تتلاءم معها، سواء أكانت تنضوي تحت لواء القانون العام، أم الخاص<sup>(1)</sup>.

فاستخدام مجال قانوني لصيغة معينة موظفة في مجال آخر، لا يعني أننا حيال محاكاة وتقليد، بقدر ما يعني أننا حيال تداع فكري وتعبير عن طبائع الأشياء، وقواعد العقل، وفكرة القانون في ذاتها التي تجد لها معالم وتحققات متعددة.

و بالطبع، فنحن لا نقصد من قولنا هذا إثارة مسألة تقنية فنية، بقدر ما نقصد التذليل بقصور المؤسسة الدولية وعطالها ومزالقها وخروجها على فكرة المؤسسة وماهيتها وطبيعتها الذاتية...

و بيان ذلك أن المؤسسة «أية مؤسسة» مشروع وجهاز تتحدد مبرراته و ضالته في خدمة فكرة، وفي تجسيدها والتعبير عنها، وهذا ما يجعله يتمتع بديمومة وقدرة تفوق قدرة الأفراد الذين يتحرك بواسطتهم.

فالمؤسسة كائن قانوني له أصله في الفرد، ولكنه أبقى وأسمى وأخلد، إذ الأفراد يفنون، ولكن الأسرة تدوم بروحها، والأمة بتقاليدها وأمانيتها<sup>(1)</sup> والمؤسسة تجعل

<sup>1</sup>- Michaël D Stasinopoulos: Traité des actes administratifs, Publisher, Institut français d'Athènes, 1954, p22.

نظام الحياة موضوعها، وبذلك يظهر النظام القانوني على الوقائع و الأفراد، فلا يختلط أمره بهم، بل يؤدي إلى توحدهم و تجذرهم واستقرارهم - بعد تشتت - حول فكرة الحق والعدل العام.

صحيح أن الفكرة لا تنطق إلا بأفواه البشر، ولكن قيمة هؤلاء تتحدد في قوة الفكرة التي يجسدونها، وبذلك فبعث احترامي للزعيم وانحنائي له وقبولي لتوجيهاته برضاء و احترام، هو إنني أستشف عبره مشروط يهمله كما يهمني، ولكنه يتجاوزه كما يتجاوزني<sup>(2)</sup>.

والمؤسسة كظاهرة اجتماعية، تخضع لكل ما تخضع له مظاهر الحياة من التمدد والتقلص، ولهذا فهي تقوم على توازن قلق، يجد مناط استقراره في الحياة ذاتها، وليس في اصطناع البنى القانونية.

إنها طاقات الإرادات الجماعية في تماسها الدائم وتشوقها المستمر نحو كافة الأشكال المتغيرة للعدالة وكافة الوجوه المتعددة للسعادة.

إن الحياة صراع دائم رهين الفوز بممارسة السلطة، لكن هذا الفوز ليس غاية في ذاته، بقدر ما يعني امتلاك الأدوات لخلق النظام والقانون.

والمؤسسة هي الضابط لذلك عبر جدلية النظام والحركة، إذ النظام حركة تم تمثلها وهضمها، وبالمقابل فالحركة تنشط لتتدرج في نظام.

وهذه اللعبة ذات الاتجاهين المتناقضين ظاهرياً، تصنع من الدينامية جدلية تستبدل فيها المواجهة بعملية تجاوز<sup>(3)</sup>.

---

<sup>1</sup> - د . محمد طه بدوي: القانون والدولة، دار المعارف، الاسكندرية، ط1، 1955، ص60.

<sup>2</sup> - جورج بوردو: الدولة، ترجمة د . سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1985، ص70.

<sup>3</sup> - جورج بوردو: الدولة، ص107.

فالمؤسسة تستمد جوهرياً الحقيقي من حركية الصيغ، والنظام لا يصنع من حركة الماضي، بل من الحركة الحاضرة، ولا يمكن له أن يستمر إلا بقابليته على تمثيلها واستيعابها، ومن هنا نرى أن المنافسة لا تؤدي إلى تصدع النظام، بل إلى إثرائه بتطلعات الحركة، والنظام ليس في الحقيقة والجوهر سوى مرحلة من مراحل مسيرة الجدلية التي تسمح له، عبر تجده بتمثل الحركة.

وإذا كان النظام يوصف بأنه من صنع الحركة، فالحركة بالمقابل محركها فكرة النظام الذي تسعى إلى إقامته<sup>(1)</sup>.

إن عظمة (الصفير) لا تكمن في ذاته، وإنما في تلك القدرة التوليدية الناجمة من امتزاجه ببقية الأرقام، في صور وأشكال لا حصر لها.

وفي نظرنا إن عظمة المؤسسة التوليدية تكمن في انطلاقها من الشخص العادي للوصول إلى الشخص الأمثل، إنها محاولة للتوفيق بين مبدأ المساواة، وبين حقيقة عدم المساواة الطبيعية، فهي تحاول أن توجد أداة اجتماعية تعمل على اعتبار الشخصية والتعبير عنها.

مفترضة كما يقول "بيرنز": ((إن جميع الناس متساوون من أجل اكتشاف من هو الأفضل))<sup>(2)</sup>.

وعلى النقيض من ذلك، فامتزاج المؤسسة بإرادة شخص أو أكثر، يجعلها تقبع وترسف في قيود هذه الإرادية، وتفتقر إلى القوة التوليدية، إلى جدلية الحركة والسكون، الحركة المتحققة في السكون، والسكون المتجدد بتطلعات الحركة.

هذه الآلية الدقيقة لعلاقة الحركة بالسكون، تحققت في مؤسسة الدولة عبر مسيرة طويلة للروح البشرية من مخاض الألم والدموع، ومع ذلك فلم تستطع

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 109.

<sup>2</sup> - د. محمد عبد المعز نصر: النظريات والنظم السياسية، بيروت، دار النهضة، 1973.

الجماعة السياسية أن ترقى إلى مصاف الدولة - المؤسسة المتسمة بالفصل بين إرادة الحاكم وصاحب المشروع (الشعب)<sup>(1)</sup>.

لم تقوى على ذلك إلا بعد حل مشكلة السيادة واستقرارها في يد الشعب بدل الحاكم، ثم تذررها بامتلاك كل فرد عادي جزءاً من هذه السيادة<sup>(2)</sup>، بحيث أصبح الشعب السياسي معادلاً للشعب في حقيقته الاجتماعية، وغدت الإرادة العامة وليدة اتحاد الإرادات المنذرة للسيادة وتفاعلها واتحادها من خلال مساواتها وتجانسها.

وبهذا التحليل، فالسلطة العامة في الدولة هي الإرادة العامة للشعب، وما يطلق عليه مجازاً سلطات الدولة التشريعية - القضائية - التنفيذية.

إن هي في حقيقة الأمر إلا أجهزة للإرادة العامة<sup>(3)</sup>، السلطة الوحيدة في الدولة، وأداة كل ذلك تقنياً، فعالية الاقتراع العام كآلية لتجديد العقد الاجتماعي...

هل خضعت المؤسسة الدولية لتلك الأواليات والتداعيات، وهل انطلقت من طبائع الأشياء وفكرة المؤسسة في ذاتها وقوانينها الداخلية، أم هي مجرد تقنين وصياغة فنية «وبشكل آخر» لفكرة القوة وأسبابها ومقتضياتها، لاسيما أن مؤتمر سان فرانسيسكو الذي تم فيه الاتفاق على ميثاق الأمم المتحدة، كان مؤتمراً للجنود أكثر منه مؤتمراً للشعوب<sup>(4)</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. ثروت بدوي: النظم السياسية، ج1، دار النهضة، القاهرة، 1964، ص23، حيث أطلق على هذه الظاهرة جهازاً مفاهيمياً دستورياً هو تأسيس السلطة، بمعنى قيام الدولة صاحباً للسلطة السياسية، وما للحاكم إلا مجرد أداة في يد الدولة تمارس عن طريقها سلطتها.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص44.

<sup>3</sup> - د. سمير تناغو: النظرية العامة للقانون، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1974، ص87.

<sup>4</sup> - د. حامد سلطان: القانون الدولي في وقت السلم، القاهرة، دار النهضة، 1969، ص874.

إن إعطاء بعض الدول حق العضوية الدائمة في مجلس الأمن وحق الاعتراض يخل بفكرة المؤسسة في ذاتها وبمنطقها وماهيتها، وبجردها من قوتها التوليدية الأساسية، جوهر ديناميتها وتجدها وتطورها وانطلاقها، وذلك بمواجهة الحقائق الكمية بالحقائق الكيفية، واختيار الأمثل انطلاقاً من العضوية العادية.

ونحن لا نجد أن تطور أساسي في تلك المؤسسة الدولية بالمقارنة مع مؤسسة الدولة ((الرقابة على السلطتين التشريعية والتنفيذية))، والسبب في ذلك دون ريب ذوبان واستغراق حقيقتها الموضوعية في الإرادة الذاتية للأعضاء الدائمين، أو بسبب عجز هذه المؤسسة عن حل جوهر وجودها مشكلة السيادة وتذرها وفكرة المساواتية التي تحمل عليها.

والأنكى من ذلك، فقد كانت هذه المؤسسة تساس «أثناء قيام الاتحاد السوفيتي» بآلية الفصل الجامد rigid بين السلطات، وهذه الآلية أدت إلى استاتيكية المؤسسة المذكورة وعمقها واستغراقها بروح الحرب الباردة التي سادتها.

وبالمقابل «وبزوال منظومة الاتحاد السوفيتي» فقد انطلق العفريت من القمقم ليتغول على كل شيء، ولتصبح هذه المؤسسة أقرب ما تكون إلى نظم تركز السلطات وتركزها في يد سلطة واحدة، والتحلل والفلتان من كل قيد أو شرط (مبدأ السلطان الكلي أو الشمولية التوتاليتارية).

هذه الشمولية عادت بالحياة الدولية إلى عصر الملوك، حيث كانت الدولة هي الملك وكانت الجماعة تذوب في سلطته الشخصية، وتتوقف على مشيئته وإرادته ونزواته، وليس لها سند ترتكز عليه إلا قوته<sup>(1)</sup>.

ماذا يعني ما نسمعه عن مأساة شعبنا العربي الشقيق في العراق بتكتل الحلفاء ضده وما هو أساس هذا التكتل وغايته وسنده القانوني، وكيف يسمح نظام

---

<sup>1</sup> - د. ثروت بدوي: النظم السياسية، ص24.

المؤسسة الدولية بنشؤته، ثم كيف تنفرد فرنسا عن هذا التكتل لتؤكد أنها لم توافق حالياً على ضرب بغداد، مرد ذلك خواء هذه المؤسسة وعطالتها ومزالقتها ...

الأصل في القانون الدولي أن أي تقييد لمبدأ السيادة «باعتبار السيادة سلطة مبتدأة أصلية وأصيلة وتنبع من ذاتها ولا تقبل التقييد» يفسر تفسيراً ضيقاً.

لقد كان من نتائج حرب الخليج الثانية الحظر الجوي للطيران العراقي ضمن خط العرض/32، ولكن كيف توسع هؤلاء الحلفاء في تفسير هذا الحظر ليشمل نصب الصواريخ المضادة للطائرات.

والأمر نفسه بالنسبة للمسألة الليبية ومسألة البوسنة، والمبعدين من أبنائنا وأشقائنا في فلسطين، في حين تصرح الولايات المتحدة سلفاً بأنها ستستعمل حق النقض ضد أي قرار يتعلق بمسألة إسرائيل حول ذلك، متخذة بذلك صفة الحاكم لا الحكم، والعدو لا القاضي.

هل هناك أقدس من الانتفاضة، وهل هنالك انتهاكات للحقوق مثل ما يحدث على أرضنا في فلسطين، حيث إزهاق النفوس حدث يومي، وحيث تحرق وتهدم المنازل على رؤوس قطانها، كل ذلك يقع أمام ناظري الولايات المتحدة، وحلفائها رؤوس الشياطين دون أن تحرك ساكناً في حين أنها أقامت الدنيا وأقعدتها من أجل تفجر الطائرة فوق مدينة لوكربي، والقياس مع الفارق بين المسألتين وافتقارها إلى نواظم وضوابط وأسس تحكم الحياة الدولية، وذوبان هذه الحياة في إرادة الولايات المتحدة ومصالحها ومكايها وموازينها الخاصة المضطربة.

إن الولايات المتحدة الأمريكية تتغول على المؤسسة الدولية، وتوجهها باتجاه مصالحها، وتذويبها في أهدافها، مستخدمة القوة الغاشمة كهدف وبصورة مسبقة، ثم تتخذ المشروعية الدولية وأداة<sup>(1)</sup>.

كل ذلك في منطلق ظلامي لا أخلاقي لسان حالها في ذلك، لسان حال لويس الرابع عشر القائل: ((أنا الدولة والدولة أنا)).

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن الاحتكام إلى ذمة الولايات المتحدة<sup>(2)</sup> وظلها المؤسسة الدولية.

وإذا كان من المتعذر احتكام أمتنا إلى الضمير القانوني للولايات المتحدة، فمن باب أولى تعذر الاحتكام إلى كارزما هذه الدولة، أي إلى مكانتها ونفوذها الأدبي ورأسمالها الرمزي الإنساني، وتآلقها الحضاري والخلقي والقيمي<sup>(3)</sup>.

فالكارزما تعني التآلق (مشتقة من كلمة Charm)، والتأثير على الغير بالجابية والأسس النفسية والاجتماعية والخلقية، وعلى هذا الأساس، فقط أطلق "مورينو" وأتباعه أمس التلفاز على الجاذبية التي تمارسها شخصية بعض الناس على الآخرين، بما يسم بإملاء إرادتهم ولعب الدور القيادي، ذلك لأن باقي أعضاء الجماعة يبتون على شاشة هؤلاء الزعماء ما في نفوسهم من آمال ومشاعر<sup>(1)</sup>.

---

<sup>1</sup> - جورج المصري: الإرهاب في النظام الدولي الجديد، مجلة الوحدة، العدد 98، لعام 1992، ص117.

<sup>2</sup> - د. نديم البيطار: هل يمكن الاحتكام إلى الولايات المتحدة في النزاع العربي الإسلامي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1، 1986، وقد أكد أن بنية الولايات المتحدة وتكوينها لا يسمح بهذا الاحتكام.

<sup>3</sup> - جان وليام لابييار: السلطة السياسية، ترجمة الياس حنا الياس، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 1983، ص37.

بهذا المعنى يمكن وصف عمر بن عبد العزيز: بالكارزما لأن محمداً في نظره هادياً لا جابياً، ولأنه أخرج جنده من بخارى بسبب فتحها بصورة غير مشروعة، كما يمكننا أن نصف صلاح الدين الأيوبي بذلك لأنه أبى «خلاقاً للصليبيين» أن يخوض القدس بالدماء، متوجهاً ببوصلة الرحمة والإنسانية لا بذهان القوة الفاشمة.

أما بوش «ومثله معه دولته» فلا يمكن وصفه بذلك لأن غلب «في معالجته للمسألة الليبية والعراقية» دواعي القوة وذهانها على متقضيات الإنسانية.

ذلك أن القوة إفراز وظيفي للخلل والبنى المتفككة، أما البنى الاندماجية فتقاس بالقيمة الخلقية والإنسانية.

لقد أصبحت الحياة الدولة أكثر انسجاماً بعد زوال الاتحاد السوفيتي، وكان من المفروض أن تتبوأ الولايات المتحدة مركز الكارزما والزعامة الحقيقية في هذه المسكونة، وأن تطبع الأولايات القانونية في المؤسسة الدولية بطابع التعاون والتكامل الدولي، ومع ذلك فقد حدث عكس ذلك تماماً إذ اتخذت أزمة الخليج الثانية ساحة لتثبيت دعائم النظام الدولي الجديد حسبما تراه، ولتقلص من احتمالات تبلور نظام متعدد الأقطاب وقائم على المساواة، وهكذا فقد أظهرت لحفائها أهمية القدرة الفكرية في حماية المصلح، كما أن سيطرتها على النفط العربي دعم مركزها إزاء هؤلاء الحلفاء، ومن ناحية أخرى فقد قدمت درساً لكيفية التعامل مع القوى الإقليمية التي قد تتحدى هيمنتها.

ومن ناحية ثالثة، فقد دفعت بروح الفاعلية في الأمم المتحدة لاستخدامها في مسألة الشرعية الدولية من جهة نظرها ومصالحها<sup>(1)</sup>.

---

<sup>1</sup> - جورج المصري: الإرهاب في النظام الدولي الجديد، مجلة الوحدة المرجع السابق، ص 118. وأنظر ريتشارد نيكسون: أمريكا والفرصة التاريخية، ترجمة د. محمد زكريا إسماعيل مكتبة بيان، بيروت، ط1، 1992، ص 8.



لقد فتحت الحملة على العراق المجال الواسع أمام هذه الدولة لاستعراض إمكاناتها العسكرية، وإبراز ما تحويه ترسانتها الحربية من أحدث الوسائل القتالية الفتاكة لإبهار العالم وإقناعه بفكرة الهيمنة عليه، وما أن انتهت هذه الحملة حتى بدأت تتصرف باعتبارها القطر الوحيد الذي يدير ناصية العالم، ويملك مقاليد الحل والربط، وانبرى الهوش ليعمد دولته رأساً للعالم، فألقى خطاباً أمام الكونغرس خطة آلية تكريس الهيمنة على الطريقة الأمريكية، وذلك بإطلاق الشعار الطنان "النظام العالمي الجديد" الذي يخفي المصلحة الأمريكية غطاء الدعوة إلى التعاون الدولي<sup>(1)</sup>.

لكن ما هو مرد موقف هذه الدولة من قضايا أمتنا؟؟

في الحقيقة هنالك أسباب عدة أهمها:

1- أن مشكلة هذه الدولة الكبيرة مشكلة بنيوية ماهوية تمتد في جذورها، إلى فلسفة الحياة، إلى غلو المذهب الفردي وركوبه متن المبالغة والشطط، وتخوله على الصالح العام وعطالة هذا الصالح العام وعامة في الانطلاق بالمجتمع لاستشراق آفاق الكارزما الإنسانية، بما يترتب على ذلك من عطاء وتضحية في سبيل تحقيق الدفع العام الدولي.

وتاريخ الولايات المتحدة حالك وحافل بتدبير الانقلابات العسكرية والتدخل وصور الاعتداء على الحياة الدولية، هل هنالك مجال لفتح الملف الظلامي لهذه الدولة؟؟

---

<sup>1</sup> - د. علي الجرباوي: في النظام العالمي الجديد، مجلة دراسات عربية، الأعداد/10 و11 و12) لعام 1992، ص9.

وأنظر ريتشارد نيكسون: أمريكا والفرصة التاريخية، ص9، وقد أكد حرفياً ما يلي: ((لقد استخدم الرئيس بوش، في أزمة الخليج الأمم المتحدة ولم يدعها تستخدمه لا بل أعلن صراحة لم يكن على استعداد لتغيير خط سيره فيما لو أن الأمم المتحدة لم تسمح باستخدام جميع الوسائل الضرورية لتحرير الكويت)).

لقد غزت جرينادا عام/1983، واعتدت عام/1978 - 1979/على إيران وأفغانستان، كما اعتدت على الهند، وسيريلانكا والسلفادور وهندوراس وفيتنام وكوبا وكوريا والدومينيكان ونيكاراجوا وناميبيا وجواتيمالا، هذا فضلاً عن تهديدها عشرات المرات باستعمال السلاح الذري.

إذاً هل يمكن وصف هذه الدولة - صاحبة العصا الغليظة - بالكارزما والزعامة الدولية والقيادة الإنسانية، أم بالإمبراطورية الشريرة السوداء.

كيف يمكن لهذه الدولة أن تتكلم عن نهاية للتاريخ لصالحها، وهي تؤسس فلسفتها على مذهب القوة، و متى كانت القوة سناً للحياة، وكم يطالعا التاريخ بأمثلة لانحطاط الإمبراطوريات وزوالها ووفاتها<sup>(1)</sup>، وكم هي العورات والأناث والعاهات التي تنذر ببداية أفولها وسقوطها، دليلنا على ذلك جملة الدراسات المستقبلية التي ظهرت في أوروبا وأمريكا ومنها على سبيل المثال كتاب "جاك آتالي" بعنوان آفاق المستقبل<sup>(2)</sup>.

وحقيقة الأمران العاهات والعورات التي تنخر المجتمع الأمريكي وتنشأ فيه الأنياب والأظافر، هذه العاهات لا حصر لها، ويكفي أن ندلل بما أكده الرئيس نيكسون من أن استهلاكها من المخدرات يساوي استهلاك دول العالم مجتمعة مع أن سكانها لا يتجاوز جزء من عشرين من سكان العالم، كما أن معدل الجريمة فيها أعلى معدل في العالم، وأن عدد الذين قتلوا أثناء فترة حرب الخليج يفوق عشرون ضعف الأمريكيين الذين قضوا في هذه الحرب، وأن/38/مليوناً من سكانها لا يحصلون على الرعاية الصحية المناسبة، لأنهم غير قادرين على دفع

---

<sup>1</sup> - ريتشارد نيكسون: أمريكا والفرصة التاريخية، ص9.

<sup>2</sup> - جاك آتالي: آفاق المستقبل، ترجمة د. محمد محمد زكريا إسماعيل، نشر دار العلم للملايين، بيروت.

التكاليف، وأخيراً ففي هذه الدولة من الأشرار ما يجعل مدنها الكبرى غير آمنة، والحياة لا تطاق<sup>(1)</sup>.

أما أزمة السود الخانقة فهي غنية عن التعريف، وأن أحداث انتفاضاتهم في لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو وأتلانتا وواشنطن ونيويورك لما تنته بعد ذبولها .

هذا على صعيد الذات، أما على الصعيد الخارجي، فهذه العافية ليست أوفر حظاً، يكفينا أن ندلل بميزان القوة بين الدولة المذكورة واليابان، وتوجس العديد من الأمريكيين من الشبح المتمثل بشراء اليابان لأمريكا .

وتحويلها إلى مستعمرة اقتصادية، كما يتضح من شراء شركة السينما يونفرسال ومركز روكفلر وشركة السينما يونفرسال<sup>(2)</sup>.

ولقد بلغ العجز التجاري الأمريكي مع اليابان (46) مليار دولار عام/1985/ و (55) مليار عام/1986/ و(60) مليار عام/1987/ و(65) مليار عام/1990/<sup>(3)</sup>.

أما سبب ذلك ومنذرة إنتاج اليابان لمنتجات في أعلى درجات الجودة، بينما تنتج أمريكا سلعاً في مستوى الخردة، هذا فضلاً عن أن اليابان لها أخلاق عمل قوية في حين أن الأمريكيين كسالى، واليابانيون يدخرون في حين أن الأمريكيين يبذرون<sup>(4)</sup>.

2- هذه الدولة سلسلة الضمير القروسطي لأوروبا وهذا الضمير يلقي بثقله على وجدان الدولة المذكورة فيحول دون تبوءها مقاليد الكارزما العالمية.

---

<sup>1</sup> - ريتشارد نيكسون: أمريكا والفرصة التاريخية، ص269.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص151.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص152.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص153.

وحقيقة الأمر أنه من المؤسف بمكان الكلام عن خط الشرق والغرب، ولكن كيف يمكننا أن نفسر الأحداث التاريخية منذ الحروب الصليبية مروراً بإجهاض المشروع العربي النهضوي لمحمد علي باشا ثم احتلال نابليون لمصر، وصعوداً باحتلال المغرب العربي ثم المشرق العربي، وخطاب غورو لصالح الدين، واتفاقية سايكس بيكو، ووعده بلفور تتويجاً بالمشروع الصهيوني الأطلنطي لاحتلال أرضنا في فلسطين، ثم محاربة المشروع النهضوي الناصري، وغير ذلك من الأحداث، هلي يمكن السكوت عن هذه الأحداث والمواقف والقول أنها وليدة الصدفة والنزعة العرضية الطارئة، أم أن هنالك خطأ يجمعها، ويربط فرادتها، بل أن هنالك حقيقة موضوعية في الفرد<sup>(1)</sup>.

إذا أمكن الحديث عن تحليل هذا الضمير من عقده فكيف نفسر معيار المكيالين، ومظاهره التي سبق الإشارة إليها، وحقيقة الأمر أن المسألة الأولى والأخيرة تكمن في هذا الجهاز المفاهيمي الذي كشف عنه علم النفس الاجتماعي والمتمثل بالضمير العام أو الشعور الجمعي أو الروح العامة، هذا المخزن أثر بالرأسمال الرمزي للأمة من قيم وتصورات ومعان وأساطير ومنظومات سلوك، وذكريات، وغير ذلك.

والأمانة العلمية تدفعنا للتقصي والتتقيب والتفكيك وإجراء الحفر التاريخي الأركيولوجي على هذا الضمير الغربي لتقصي جذوره والقبض على الأوليات القارة والثاوية فيه من صور وأشكال العداء للعروبة والإسلام.

المشكلة الكبرى في هذا الضمير أنه لا مكان للغير في منظومته الخلقية أو القانونية، بل أن العالم مقسوم لديه بصراحة إلى قسمين، القسم الثاني ينعت بالكفر والبربرية والعداء، وغير ذلك من النوع العدائية.

---

<sup>1</sup> - أنظر في تحليل هذه الظاهرة ظاهرة المجتمع في الفرد أو المدرسة الاجتماعية ممثلة في دركها، عالم المعرفة، الكويت عدد 165، لعام 1992، ص 56.

والأمر على خلافه بالنسبة للمذهب العربي الإسلامي في الجنس البشري "المذهب العربي الإسلامي في الإنسان والأنسنة العربية الإسلامية"، فقد اتسم بالانفتاح على الثقافات والأديان والأمم والإيمان بحرية الفكر وقدرة العقل البشري ومحبة الحقيقة والسعي للمحبة أنى كانت، ومن أي مكان أتت، وبتراكم المعارف والثقة بها<sup>(1)</sup>.

ولقد توسعت منظومة الغير في الدار الإسلامية، حيث دخل بمفهوم أهل الكتاب البرابرة والمجوس والصائبة، وكل من اعتقد دينا سماوياً، وله كتاب منزل، مثل التوراة وصحف إبراهيم وشيخ وزيور داوود، ومرد ذلك روح التسامح عند العربي المسلم، وعلى الرغم من وجود آية في القرآن تشعر بأن المقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى<sup>(2)</sup>.

ولم هو البون الشاسع بين منظومة الجهاد، وبين حق الفتح الذي ساد في أوروبا، وتبلور عقب اكتشاف القارة الجديدة.

فالمقرر لدى جمهور المسلمين أن الأذن بالقتال مشروط بدفع الظلم، أو حماية الدعوة وقطع الفتنة<sup>(3)</sup>، بل أن مالك بن أنس الفقيه المشهور يشترط أخطار العدو بالدخول في الإسلام حتى لو كان هو المهاجم.

---

1 - انظر في عرض هذا المذهب: د. علي زيعور: مقالة الموسوم بعنوان الاجتهادات الكبرى للخطاب العربي الإسلامي، مجلة الاجتهاد، بيروت، دار الاجتهاد، عدد 8 لعام 1990، ص139.

2 - د. رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، دار التنوير، بيروت، ط1، 1984، ص122.

3 - د. حامد سلطان: القانون الدولي في وقت السلم، ص822.

والسؤال المطروح هو هل استطاعت الدار الغربية في تليدها وطريقها أو تقدم لنا مثلاً يكافئ شرفاً حادثاً دخول الفاتحين العرب مدينة بخارى، ثم خروجهم منها، لأنهم خالفوا القواعد الإجرائية التي فرضها الدين الحليف.

وإذا كان التاريخ لم يخلف من هو رحم من العرب حسب القول المشهور "لغوستاف لوبون" فالأمر على خلافه بالنسبة للدار الغربية في القرون الوسطى، فقد ماجت هذه الدار بالظلامية، وصور الحقد على العرب والمسلمين، ونحن ماضون للقبض على الجذور التاريخية لهذه الظلامية.

وغني عن القول أن هذه الجذور تمتد إلى الموارد اليونانية والرومانية والرافدين المسيحي واليهودي.

ذلك أن التأثير اليوناني في الضمير الأوروبي، أمر خارج عن نطاق الجدل، وهذا ما حدا "مين" للقول: ((إذا استثنينا مظاهر الطبيعة، فكل ما يتحرك في أوروبا يرتد إلى منشأ يوناني)).

ولا خلاف بأن هذا المورد يعاني عقدة السيد والعبد، وكل ما هو من الغير برابرة أعدتهم الطبيعة لأن يكونوا عبيد وخداماً، بل أن الحرب كالصيد في نظر "أرسطو" في كتابه السياسة<sup>(1)</sup>.

ولقد تأسس نظام الإمبراطورية الروماني على السيطرة المادية الخالصة، وعلى خشوع الشعوب بالقوة لروما، وإن كان هذا الأمر تلطف بعد احتكاك الرومان بحضارات الشرق القديم، ونشأ من ذلك قانون الشعوب<sup>(2)</sup>، ولقد كان تأثير المسيحية في روما نسبياً ومؤقتاً، حسب تعبير ابن خلدون.

وعلى هذا الأساس، فقد وجدنا رجال الدين المسيحي، واعتباراً من القرن الرابع الميلادي، يبررون روح السيطرة العسكرية، وظهر ذلك جلياً في كتابات القديس

<sup>1</sup> - د. حامد سلطان: القانون الدولي في وقت السلم، ص 806.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 807.

"اميرواز" و"أيزيدور"، ثم أوغسطين، حيث يبحث الحرب الاعتدائية بوصفها من أعمال القضاء العادل المنتقم.

أما تأثير التراث اليهودي على الفكر الأوروبي، فهو أمر خارج عن نطاق الجدل الأمر الذي حدا علماء الاجتماع في أوروبا للكلام عن الثقافة اليهودية المسيحية.

يكفي أن ندلل بأن نظرية نهاية التاريخ التي تبرر القطبية الكونية الأحادية الليبرالية، هذه النظرية تمتد بجذورها إلى العهد القديم.

فقد جاء في سفر دانيال أنه ستقوم بعد مملكة آشور وبابل وميديس وفارس والإسكندرية إمبراطورية عظيمة تكون نهايتها هي نهاية العالم، وكان هذا هو تفسير دانيال للحلم الذي رآه في نومه الملك نبوخذ ناصر، وتكرر هذا القول في إنجيل بولس...

ولقد فسر شعوب العصور الوسطى، هذه الإمبراطورية العظمى بأنها الإمبراطورية الرومانية، ولذلك تعلق عليها آمال الشعوب الأوروبية، وقام الاعتقاد باستمرار قيامها، وأن النظام السياسي الجديد في الغرب هو نظام روماني خالص، ولعل هذه العقيدة هي التي تفسر الاسم الذي أطلقه شارلمان على إمبراطوريته "الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة"<sup>(1)</sup>.

هذه الأسباب «ومثلها معها» تفاعلت مسطحاً وعمقاً، فتمخضت عن اعتبار العالم المعروف الذي يكون المعمورة مقصوراً على دول أوروبا من ناحية، وتلك الأقاليم التي يسكنها الكفرة المسلمون<sup>(2)</sup>.

---

<sup>1</sup> - د . حامد سلطان: القانون الدولي في وقت السلم، ص 809.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 765.

لقد تولد لدى الأوروبيين هاجس اكتشاف الطرق الجديدة للتمكن من فرض السيطرة على المسلمين من ناحية البحر، لذلك فقد خصص الروم هنري الأمير البرتغالي أربعين سنة من حياته لوضع الخطط اللازمة للوصول إلى الهند عن طريق البحار المجهولة<sup>(1)</sup>.

وإزداد هذا الأمر وضوحاً بعد اكتشاف "كولومبس" قارة أمريكا، فقد سارع علماء القانون الأوروبيين المسيحيين إلى تقرير القاعدتين الآتيتين:

1- إن كل إقليم خارج نطاق أوروبا المسيحية يعد إقليمياً مباحاً *res nullius* يجوز لأية دولة مسيحية امتلاكه عن طريق الاكتشاف والحياسة الرمزية.

2- يعد هذا الإقليم المكتشف إقليمياً مباحاً، حتى ولو كان مسكوناً، ويحيا عليه شعبه الأصلي، لأن الأسرة الدولية التي لها حق الانتفاع بأحكام القانون الدولي، هي مجتمع مغلق لا يشمل إلا الدول الأوروبية المسيحية<sup>(2)</sup>.

ويلاحظ أن "جون كابون" الذي أصدر له الملك هنري السابع أمراً في الخامس من آذار عام/1496 لاكتشاف الأقاليم الجديدة التي يحيا عليها الكفرة المسلمون، الذي اكتشف الإقليم المعروف بالولايات المتحدة، لم تزد إقامته على شاطئ الإقليم المكتشف سوى ساعات قليلة مكتفياً بوضع بعض الأعلام البريطانية على الشاطئ وكان ذلك كافياً لإدخال الإقليم في ملكية بريطانيا<sup>(3)</sup>.

---

<sup>1</sup> - د . حامد سلطان: القانون الدولي في وقت السلم، ص766.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص767.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص768.



وكان يكفي بالاستيلاء الرمزي على جزء من الشاطئ الذي يصب فيه نهر من الأنهار، أن تدخل في ملكية الدولة مساحة الإقليم التي تمتد من المصب إلى منابع هذا النهر<sup>(1)</sup>.

كما أن الاستيلاء على جزء واسع من الساحل من قبل دولة يكفي لإدخال المساحة الإقليمية جميعها من الساحل إلى الداخل<sup>(2)</sup>.

ولكن هل تحلل الضمير الغربي نهائياً من هذه الظلامية؟؟  
الجواب على ذلك من زاويتين:

- زاوية التشكل الخاص للضمير الأمريكي ضد أمتنا العربية الإسلامية تحت تأثير عدة عوامل، منها التأثير المتميز للحركة المسيحية الأصولية الأمريكية.
- زاوية استمرار عداء هذا الضمير الجمعي لأمتنا بأشكال ومظاهر لا حصر لها.

وفي الحقيقة فهذه الأصولية الأميركية، هي أحد الأعمدة الأساسية للمشروع الصهيوني<sup>(3)</sup>.

ويرتبط بذلك ما تثيره هذه الأصولية ومؤسساتها ومنظماتها وقادتها من أطروحات سياسية وعقائدية وممارسات ضغط وتأثير في المجتمع الأمريكي، وفي السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي<sup>(4)</sup>.

---

1 - د. حامد سلطان: القانون الدولي في وقت السلم، ص 768.

2 - المرجع السابق، ص 769.

3 - أحمد مفلح: البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني، مقال منشور في مجلة المستقبل العربي عدد 168 لعام 1992، ص 175.

4 - المرجع السابق، ص 175.

والحركة المذكورة تنطلق من الإيمان بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس، والافتناع بأنه يتضمن توجيهات للحياة بما في ذلك الشؤون السياسية، وخصوصاً النبوءات التي تشير إلى أحداث مستقبلية لصالح إسرائيل والعودة الثانية للمسيح<sup>(1)</sup>.

ولعل بروز حركة الإصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر، أهم حدث في نشوء تلك الأصولية حيث نقلت الأساطير الصهيونية واعتمدت التفسيرات الحرفية للتوراة، وأصبحت فلسطين في العقل المسيحي الأوروبي البروتستانتي الأرض اليهودية الموعودة، كما دخلت هذه التعاليم التوراتية الأدب والفن الإنكليزي<sup>(2)</sup>.

لقد شكلت الاتجاهات الصهيونية عنصراً بارزاً في الحياة الثقافية والسياسية الأمريكية منذ بداية استيطان الأوربيين العالم الجديد، وذلك بفضل المهاجرين الأوائل "البيوريتانيين" الذين حملوا معهم التقاليد والقناعات التوراتية<sup>(3)</sup>.

ذلك أنه عندما اكتشفت أمريكا وفاضت خيراتها على أوروبا، أندس اليهود في قوافل المهاجرين إلى العالم الجديد حاملين معهم مؤامراتهم وأطماعهم ونزعتهم الانعزالية، وبدأوا بجمع المال واكتنازه، ولما اندلعت نيران الثورة الأمريكية جاءت فرصتهم لتقوية نفوذهم وأطماعهم، فاستثمروا الأحداث، وتاجروا بالأسلحة، وتجنسوا لحساب الطرفين، فردت عليهم هذه الأعمال المال الوفير، والنفوذ الذي أوصلهم إلى سدة الرئاسة الأمريكية بزعامة فرنكلين روزفلت اليهودي الأصل<sup>(4)</sup>.

---

<sup>1</sup> - أحمد مفلح: البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني، ص 176.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 176.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 177.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 178.

مثل بسيط عن تأثير الإعلام الأمريكي لصالح الحركة الصهيونية المسيحية الأصولية، يتضح من عدد المحطات الإذاعية الدينية البالغة حوالي 1400 محطة تبث الواحدة منها حوالي/17/ساعة يومياً، وهذا يعني أن متوسط ما يقضيه تلاميذ المدارس الثانوية من الوقت أمام شاشة التلفزيون يفوق ما يقضونه في المدارس، مع التنويه بأن التلفزيون هو المصدر الرئيسي لوجهة نظر الأمريكيين عن العالم الخارجي<sup>(1)</sup>.

ومن المؤسف أن مظاهر العداوة هذه لم تبق في ذمة التاريخ ولكنها ذكريات حية لأنني تصبغ الأحداث المعاصرة وفيما يلي غيض من فيض من تلك المظاهر العداوية.

- لقد أجاز الرئيس الأمريكي "ريغان" العدو الأكبر "بيغن" غزو لبنان عام/1982/ مؤمناً أن هذه المعركة هي معركة "هرمجدون" المذكورة في التوراة، والتي هي المعركة النهائية بين الخير والشر، ليفسح المجال لظهور المسيح وقيام القيامة على عهده وزمانه، فينال رضاء الرب<sup>(2)</sup>.
- وتكلم عن تلك النبوءة الرئيس الأمريكي "بوش" في حرب الخليج، وذلك أمام حشد أمريكي في مقر جمعية "بني برث" إحدى أهم دعائم الهيكلية اليهودية الصهيونية مفاخراً بأنه كان رئيساً جيداً لصالح إسرائيل، وأنه نجح في فك عزلتها الدولية بعد أن قضى على الخطر الذي يمثله العراق<sup>(3)</sup>.

---

<sup>1</sup> - أحمد مفلح: البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني، ص179.

<sup>2</sup> - د. برهان الدجاني: مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي، مقال منشور في مجلة المستقبل العربي، عدد 165، لعام 1992، ص17.

<sup>3</sup> - د. برهان الدجاني: مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي، ص18

■ ما قاله وزير خارجية فرنسا، وأكدته مجلة التايمز اللندنية بأن العالم العربي وهم، وأن ما هو أكثر منه وهما سياسة ديغول المدللّه بأن هذا العالم هو محور سياسة المستقبل.

وقول مستشار بريطاني «أقام طوال العقدين الماضيين في دول الخليج»

على أثر حوار جرى معه بتاريخ 1990/8/6:

((أن ما رسمته بريطانيا للمنطقة سوف يستمر مهما كلف الأمر، وتحت أي طرف، فالمنطقة قد أخذت شكلها المستقر على ضوء ذلك والأوضاع التي صاغتها بريطانيا في منطقة الخليج بالذات غير قابلة للنقاش أو التعديل أو التبدل، حتى لو اضطر الأمر إلى خوض حرب بعد حرب... إن الخليج مختلف جداً عن بقية المناطق العربية، فبعيداً عن وهم وجود أمة عربية الذي يتمسك به البعض من المهوسين، على الرغم من أن الوقائع أثبتت عدم واقعيته وافتقاره إلى مضمون صلب، فقد تشكلت أمم في منطقة الخليج، وليس مجرد شعوب ودول، هنالك أمة كويتية، وأمة بحرينية، وأمة قطرية، وهكذا... والمسألة ليست في عدد السكان، بل في تركيبهم، فالعرب أقلية صغيرة في كل واحدة من هذه الأمم الخليجية التي تبلورت وتكسرت بقوة ورسوخ التشكيل الحضاري لكل منها يحتم عليها الاستماتة في الاستقلال والتمايز، ونحن نتفهم مشروعية هذه النزعة ونحميها)).

إن الذين اعترضوا على ما رسمته بريطانيا ونفذته في منطقة الخليج - وهم بالمناسبة قلة من المهوسين القوميين سوف يعضون أصابعهم ندماً بعد الآن...

إذ وجدت الولايات المتحدة فرصتها لاستكمال الهيمنة المباشرة على المنطقة... فالأسلوب البريطاني يتميز - بالحكمة والحكمة المستنديين إلى تراث عريق وخبرة

طويلة، أما الأمريكيون، فالأمر مختلف تماماً لأن سلوكهم الفج والنزق المملوء عنجهةً سوف يجعلهم أشبه بفيل في متجر للزجاج<sup>(1)</sup>.

■ قول "كليمنصو" عام/1914/ بأن قطرة النفط أعلى من قطرة الدم، وما أكده عام/1992/ الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه الفرصة السانحة عام/1992/ بقوله: ((أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل)).

■ وقوله عام/1980/: ((ستكتسب منطقة الخليج أهمية استراتيجية بالغة أثناء العقود المقبلة... علينا اليوم أكثر من أي يوم مضى، أن نعلم من يسيطر على ما في الخليج والشرق الأوسط لأنه المفتاح الذي يسمح لنا بأن نعرف من يسيطر على ما في العالم))<sup>(2)</sup>.

■ لقد أقرت إدارة الرئيس الأمريكي ريغان مشروع قيام نظام شرق أوسطي يحل محل النظام الإقليمي العربي الراهن الهش، وينهي تأثيرات الرابطة العربية، ووافق الكونغرس الأمريكي بالإجماع سنة/1983/ على مشروع المستشرق اليهودي الأمريكي البريطاني الأصل برنارد لويس القاضي بتقسيم منطقة الشرق الأوسط بأكملها من جديد بما في ذلك تركيا وإيران وأفغانستان، بحيث ترسم خارطة جديدة للمنطقة تتحول فيها كل قبيلة في الجزيرة العربية إلى دولة<sup>(3)</sup>.

---

<sup>1</sup> - خير الدين عبد الرحمن: مقالة الموسوم بعنوان جزيرة أبو موسى وأسئلة حول مصير الأمة مجلة المستقبل العربي، عدد 1، لعام 1992، ص 62.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 54.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 59، وأنظر صالح زهر الدين، صهينة الوطن العربي استراتيجياً، بيروت العدد 106، 1991، ص 40.

■ وجاء "فوكوياما" لينسق هذه المواقف والآراء ويسطرها وبصيغها في قالب فلسفي بمقولته، مدللاً بالانتصار النهائي لليبرالية، ووصول البشرية إلى نهاية التاريخ، حيث لا دموع ولا آلام.

وحيث يتحقق كل طوبى وأمل منشود ويصل قطار التاريخ إلى غايته المرتجاة باستثناء بعض المركبات ولن تحول عطالة المسلمين دون وصول هذه المركبات<sup>(1)</sup>.

لكن الشيء المؤلم هو أن هذا العداء لا يقتصر على المسلمين، بل يتعداه إلى الإسلام ذاته، وهذا ما أكده ميشيل دوبريه (رئيس وزراء فرنسا الأسبق) من أن الإسلام هو العدو الأول والمباشر للغرب، وقول مارغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة: لقد بقي على الغرب أن يقضي على الإسلام بعدما قضى على الشيوعية<sup>(2)</sup>.

أما "جان كلود بارو"، فيؤكد في كتابه الإسلام والعالم المعاصر أنه لا مكان للتعايش بين العالم المعاصر الذي أصبح ديمقراطياً وليبرالياً وبين الإسلام<sup>(3)</sup>.

ويتساءل "جان فرانسوا روفيل" في كتابه الانتعاش الديمقراطي قائلًا: ((هل الثقافة الإسلامية هي العاجزة عن التكيف مع الديمقراطية أم أنها الثقافة العربية، ويأتي الجواب سريعاً: الاثنان معاً))<sup>(4)</sup>.

---

<sup>1</sup> - للتعرف على رأى فوكو ياما والردود عليه أنظر: مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد بيروت، العددان 15 و16 لعام 1992، ص275 وما بعدها.

<sup>2</sup> - مقال خير الدين عبد الرحمن السالف الذكر، ص630.

<sup>3</sup> - مجلة الاجتهاد العددان، 15 و 16، ص305.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص306.

ويؤكد هذا الكاتب عجز الإسلام عن الاندراج في الحضارة الديمقراطية، وتقديم فهم للعالم المعاصر، ويتساءل قائلاً: ((كيف يمكن أن نصف بالتسامح ديانة يتساوى فيها الاختلاف مع الأعداء<sup>(1)</sup>)).

وأخيراً فالإسلام في نظر المذكور حقيقة سياسية - دينية، توتاليتارية في العمق حتى الآن، والأنظمة الفكرية التي تتضمن في مبدئها الأصلي، مشروع الفتح العالمي، هي النازية والشيوعية والإسلام، ومن ثم لا يمكن المساومة مع مشروع هدفه تدميرنا<sup>(2)</sup>.

مثله في ذلك مثل السوفيتي العادي، شخص لا يحول ولا يزول، يحمل مشروع التهديد في ذاته ويعجز عن الخلاص منه<sup>(3)</sup>.

هذا هو الوعي الجمعي الأطلنطي بمخزونه ومضمونه وروافده والعوامل التاريخية المكونة له.

ويبدو بيقين أن هذا الوعي يتناقض قدرياً ومصيرياً مع أمتنا العربية ومشروعها النهضوي، وهو الأمر الذي يتضح من تألب الدول الأوروبية جمعاء على مشروع محمد علي باشا النهضوي، ووقوفها «خلافاً للتقليد التاريخي» مع تركيا، والأمر نفسه بالنسبة لموقفها من المشروع الحضاري لعبد الناصر، ومن أي مشروع وحدوي مهما كان شكله ومضمونه وتركيبه.

لقد بلغت الوقاحة في هذا الحلف غير المقدس «رغم التناقضات الداخلية بين أعضائه» أن يسفر عن عدائه الواضح للإسلام ذاته، وهو أمر ليس بالعجب، باعتبار الإسلام هو الاحتياطي الروحي الأعظم لأمتنا العربية، والميكانزم الذي

---

<sup>1</sup> - مجلة الاجتهاد، العددان، 15 و 16، ص 307.

<sup>2</sup> - المرجع السابق.

<sup>3</sup> - المرجع السابق.

يمكن أن يفجر طاقات لا حدود لها، هذا فضلاً عن أنه بنى - ومرشح أن يبني حضارة روحية تتعارض مع الحضارة الأطلنطية العادية؟؟.

وفي نظرنا أن المستقبل سيشهد صراعاً عنيفاً بين هذه الحضارة، وبين تشوفات أمتنا لخيار حضاري تابع من شخصيتها ووعيتها وذاتها «حيث الإسلام يتموضع في الماهية والجوهر من هذا الخيار» وهذا هو المغزى المستخلص من حديث فوكوياما عن نهاية التاريخ، وتدليله بالانتصار النهائي لليبرالية، ووصفه للإسلام بالعطالة «لأسيما خارج حوضه» واعتباره العقبة الكأداء، أمام هذا الانتصار الحضاري المزعوم.

ولعل الذي سيؤجج هذا الصراع زوال الاتحاد السوفيتي «كنقيض إيديولوجي لليبرالية» وتفرد الأطلنطيين بأسباب القوة وتحكمهم بالمؤسسة الدولية، وتحويلها إلى جهاز قوة، لا كنظام عالمي محمول على خلفية المؤسسة ومنطقها الداخلي... لقد خطب بوش في الكونغرس، عقب الانتصار في حرب الخليج الثانية، معلناً ولاءه للنظام العالمي الجديد الواهم الواهن، وهذا يعني أن هذا النظام هو الابن البيولوجي للقوة الغاشمة وغطرتها.

والسؤال المطروح هو أين هذه الجدة في نظام المؤسسة الدولية؟؟.

إن النظام يفترض وجود قواعد عامة مجردة موضوعة سلفاً وتخاطب الأعضاء بصفاتهم لا بذواتهم، فهل أتسم النظام العالمي الجديد بهذه الخاصية، أم أنه مجرد ترتيب جديد للقوة ومصادرها، بوأ الولايات المتحدة وشركاهما مركز الهيمنة على الحياة الدولية، وفي مقدمة ذلك كنوز أمتنا، وهو الأمر الذي حدا هذه الدولة للتصريح المتكرر بأن معقد استراتيجيتها العليا في الخليج، وأن هذا الخليج هو مفتاح السياسة العالمية.



إن قوانين التنافس الاقتصادية بين الدولة المذكورة وبقية عمالقة الاقتصاد ليس لصالحها، وبذلك فليس أمامها إلا معانقة المذهب العسكري "الجيو - استراتيجي" لا المذهب الاقتصادي "الجيو اقتصادي"<sup>(1)</sup>.

وأداتها للخروج من هذا المأزق، العصا الغليظة، الشرطي العالمي بعيداً عن أخلاقيات الكارزما وتألقها، ودينامياتها لقيمة القيمة، وبالتالي فإن ما ينطبق على هذه الدولة من تسمية إنما هي تلك التسمية التي أطلقها المستشار الإنجليزي ألا وهي الفيل الكبير وغرفة من زجاج، وإن كان من المؤسف حقاً أن هذه الغرفة، هي داري ومنزل آبائي وأخواتي، إنها وطني الكبير.

ما من أحد بالطبع إلا وبفقه ميثولوجيا فيل الملك الذي عاد فساد في المدينة، مما حدا سكانها للاحتجاج والتوجه في مسيرة نحو الملك ولكن «وبسبب بطش الملك» سرعان ما تلاشت هذه المسيرة، ولم يبقى إلا شخص واحد أجاب الملك «رداً على سؤاله عن سبب مجيئه» قائلاً: ((إنني أقترح أن يزوج الفيل)).

لقد ألقى "لينين" التبعة الأخلاقية على الاستعماري حين ألقى سعد زغلول ذلك على الشعوب موضحاً إنه لا يجد شعباً يستعمر شعباً، وإنما يجد شعباً يقدم نفسه للاستعمار.

إن مصيبة أمتنا في الفيل الكبير، وفي بيوتنا زجاجية التي تستقبل بشغف هذا الفيل كي يعيش بكرامتنا وحررتها ومقدساتها .

والسؤال الذي نطرحه مع الشيخ شلتوت الإمام الأسبق للأزهر، وهو كيف يجوز الكلام فقهاً، عن تلصص شخص على جاره، ثم نكص الطرف عن اختراق المستمر «بدياباته وجواسيسه» الوطن العربي الكبير، أي اقتحام الفيل الكبير سعادتنا وأمننا دون أن يكون مثار اجتهاد الفقه والسلطان.

---

<sup>1</sup> - د. مسعود ضاهر: حول نهاية التاريخ، مقال منشور في مجلة الوحدة، عدد 18، لعام 1992، ص40.

لقد تكلم أفلاطون عن حب الحياة والحماس الروحي، وتحدث مكيافيلي عن رغبة الإنسان بالمدد، وأشار "هوبز" إلى مفهوم العزة والكبرياء، أما "روس" فشدد على عزة النفس، في حين ألح "هاملتون" على حب الشهرة، وتحدث ماديسون عن الطموح، وأخيراً تكلم "هيجل" عن حق التعرف.

وحقيقة الأمران هذه الميكانيزمات والروافع والنواهي تنتظم تحت ناظم واحد هو وعي الذات والهوية والوجود والكيان.

وفي نظرنا أن أساس المشكلة لا يكمن في أنياب الفيل وخرطوميه، ولكن في البيت العربي المصنوع من زجاج لا من حجارة صلبة متينة... فهل من مفكر وهل من مقدر وهل من مدكر...5.

المحامي الدكتور برهان زريق

## خطاب موجه إلى المؤتمر

### القومي العربي المنعقد في الخرطوم

إن أهم إبداعات التاريخ هو بناء الأمة، وأهم ما في ذلك إنجاز وعيها واستراتيجية عملها وفلسفتها التاريخية والحضارية، لا سيما أن الوعي في نظام القدرة مصداقاً للمنظومة: استشراف- معرفة- قدرة.

الوعي وجود بالقوة، وإذا ما تفتح عن وجود بالفعل تفجر عن قدرة غير محدودة...

هكذا يغدو هدف المؤتمر إنجار هذا الوعي، وليس الاختزال إلى حزب، إذ ما أكثر الأحزاب، وما أقل مؤسسات الوعي الخلاق المبدع، لا سيما أن صراعنا مع العدو هو صراع وجود وهوية ومناهج وقيم قبل أن يكون صراع مصالح وإرادات.

والملاحظ أن المؤتمر يكرر في كل دورة أدبيات معينة، وكأن نشاطه اختزل إلى نظرية سياسية، ووقع في إसार الوضعية التي تتجاضى مع التأسيس النظري والبناء الشمولي، وتلي من أهمية الواقع دون قراءته ورصده على ضوء الاشكاليات والمناهج.

وعلى هذا فإننا نرى ضرورة اضطلاع المؤتمر بما يلي:

1. بناء الشرط البشري والرأسمال الرمزي والاجتماعي والتجدد الحضاري، والانطلاق من النزعات العميقة والحقائق الموضوعية في الذات العربية،

ومن المخزون الثقافي الشعبي، وصوغ ذلك في منظومة ثقافية وطنية قومية معبئة حاشدة.

2. مدافعة كل اعتداء على حقوق الأمة، والتشريع المسبق لذلك بنص قاطع ودقيق لا يحتمل التأويل والتعطيل.

3. استئصال الظواهر السلبية في حياتنا: التواكل - التخاذل - الفتنة - التضليل - التفكك - التلقين - الاغتراب... ثم طرح البديل القيمي في: المسؤولية الأخلاقية - روح العمل - التعاون - العقلانية - إرادة الالتزام والتنفيذ - الصدق - الابداع - احترام الغير - الحفاظ على المال العام... الخ.

أما الفاعل الاجرائي لترجمة ذلك فهو:

1. عدم البحث في أمور سبق طرحها واعتبارها مشروعية عليا، وإن كان بالإمكان التأكيد عليها في البيان الختامي.

2. افتتاح حقول جديدة: الصحة التربوية - الصحة السلوكية - الصحة الادراكية (إدراك المواطن لحقائق أمته) - الثقافة الفرعية - التعصب القطري... الخ.

3. صياغة كافة خبرات المؤتمر ومبادئه وأدبياته في إعلان تاريخي حضاري سياسي حقوقي تنموي إنهاضي.

4. التوجه بهذا الاعلان إلى الجماهير والحرص على إيصاله إليهم.

5. تخصيص دورة من أجل تفعيل المؤتمر وتجذير حضوره في ساحات الأمة، وتمتين صلاته بالجماهير والقوى الفاعلة.

المحامي الدكتور برهان زريق

## حوار مع الباحث العربي د. برهان زريق<sup>1</sup>

### عضو المؤتمر القومي العربي

حاوره: الصحافية آلاء سماعة - رماة الحدق للخدمات الصحفية

**الكاتب** والباحث والمفكر الدكتور برهان زريق، قادماً من اللاذقية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط في سوريا، وجدناه في أروقة المؤتمر القومي العربي منادياً بالعروبة متلفحاً جبة الإسلام، جامعاً بينهما كفكر ومنهج حياة، رافضاً أن تكون لأحدهما خصوصية دون الآخر.

كانت هذه نقطة البداية في حديثنا الذي أيضاً تناول عدة محاور أخرى تخص الأمتين العربية والإسلامية، أو الأمة العربية الإسلامية كما يراها الدكتور برهان زريق.

**الصحافية آلاء سماعة:** لماذا قام المؤتمر القومي العربي على صفة العروبة؟ أليس الإسلام أشمل للاجتماع عليه كدين؟

---

<sup>1</sup> - أدلى بهذا الحوار لـ "رماة الحدق"، موقع إخباري خدمي يصدر من الخرطوم، أثناء مشاركته في فعاليات المؤتمر القومي العربي في دورته العشرين، الخرطوم، نيسان/2009.

**د. برهان زريق:** إن أول من تفتقت لها ته بالعربية هو إسماعيل عليه السلام فالتقت العربية مع الإسلام منذ ذلك الحين، فهما لا ينفصلان وحرف الواو بينهما خطأ، العربية هي الإسلام.

الرسول ﷺ قال أكثر من/95 حديثاً عن العربية، والقرآن لا يفهم إلا باللغة العربية ثقافته العربية.

"أمين نخلة" يقول: ((كأن الإسلام إسلامان: واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة، وكأنما العرب جميعاً مسلمون حين يكون الإسلام اهتداء بمحمد وتمسكاً وكلفاً بلغته))، ونحن نحاول أن نبرز القضايا المتعلقة بفضائل النبي ﷺ وتعاليمه.

ونحن أمة الإسلام أمة غنية امتدت لكل العالم، لكن التراث العربي هو جذر شخصيتنا وهو اللبابة والعروة الوثقى التي تقود الأمة، كل اقتصاد العالم كان منصب لدينا، وكل مقاليد المعاهدات والحروب كانت بيد المنطقة العربية، يقول "جورج خضر": ((هناك حضارة واحدة هي الحضارة العربية ونحن ننتمي إليها)).

في كل أمة في العالم نحن نجد قوميات مختلفة مكونة لها، ونجد دائماً قومية أساسية تفرض التماسك داخل هذه الأمة، فنحن الحلقة الأساسية ونحن العنصر الذي يقود بقية العناصر المكونة للإسلام.

**الصحفية آلاء سمساعة:** المؤتمر القومي العربي... هل ينادي بأدبيات كحفظ التراث العربي والحضارة العربية... أم أنه يركز على أجندته السياسية؟

**د. برهان زريق:** نحن نريد أن نأخذ الشخصية والخصائص والثقافة والروح العربية لدى الشعوب وننميها وننفخ فيها، الآن الثقافة هي التي تبني الشعوب كما يقال: ((أعطيني ثقافة أعطيك وحدة))، والآن الثقافة العربية الإسلامية تنمو جيداً.

**الصحفية آلاء سماعة:** لكن الآن الفضائيات العربية التي يعول عليها أن تنقل الثقافة العربية نجدها وجه غير مشرف للعرب ولا تهتم إلا بالأغاني الهابطة والأفلام الرديئة؟

**د. برهان زريق:** لا ... بعض الفضائيات العربية لا تزال مهمته بالثقافة العربية وليست كلها تافهة.

**الصحفية آلاء سماعة:** للدكتور برهان زريق عدة كتب قيمة تناول فيها جوانب مختلفة ومفاهيم عدة تخص الأمة الإسلامية، منها كتاب "الصحيفة، ميثاق الرسول في دولة يثرب، أول دستور لحقوق الإنسان"، هذا اسم لكتاب يستحق أن نقف عنده، فطلبنا من الدكتور أن يستعرض معنا أهم النقاط التي تناولها هذا الكتاب؟

**د. برهان زريق:** يتناول هذا الكتاب العقد الذي قدمه الرسول ﷺ إلى أهالي يثرب وسمي بالصحيفة أو ميثاق الرسول، الدستور هو حريات الإنسان وحقوقه والقيود التي يقيد بها الفرد من قبل السلطة، وأول وثيقة قيد فيها الحاكم نفسه بنفسه هو دستور الرسول ﷺ ((وأنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد))، هكذا جاء في الصحيفة.

أهم حدث في التاريخ أن الحاكم يدون على نفسه ((هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم)).

وأنا أحاول أن أبرز هذه الناحية، لهذا التراث المحمدي الجبار.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

آل عمران/144، القضية والمشروع ليس مشروع محمد كفرد لكنه أكبر من ذلك، هي وحدانية الله عز وجل، والعبودية له.

هذه الخصائص انعكست على الدستور لقد وعى الرسول الكريم ﷺ أن القيام بهذا الانقلاب الحضاري الضخم لا يتم إلا بإنشاء دولة، كما وعى أن إقامة مجتمع دولة عسير التحقيق دون مساهمة فكرة الحق في إنهاء هذا المجتمع، والتدوين هو الشكل الأمثل لاستيعاب فكرة الحق وازدهارها .

ولقد أكد علماء الأخلاق أن دعامة القاعدة الخلقية في جلائها، وهكذا ومن هذا المنظور العلمي استشف الرسول الكريم ﷺ أبعاد القضية، وستشرف آفاقها، ووجد ضرورة وضع دستور لهذه الدولة الجديدة، ثم تدوين هذا الدستور في وثيقة مكتوبة.

لكن هذه الوثيقة انتكست بعد محمد ﷺ، لم نرها في زمن الصحابة، ثم طمست على مر عصور المسلمين، لماذا لم يعر المؤرخون ورجال الفقه هذا الدستور ويعطوه الأهمية اللازمة، دراسة وتمحيصاً وتحليلاً وفهماً وإفهاماً؟.

لو رجعنا إلى كتب التراث لا تضح لنا أن هذه الكتب لم تتطرق إلى هذا الدستور إلا من خلال إشارات عابرة وطارئة ومجتزأة، وهذه الإشارات أتت على يد المؤرخين الذين كيفوا الدستور كحدث اجتماعي، وليس كحدث سياسي وقانوني سامق.

**الصحفية آلاء سماعة:** قد يدل البعض بأن النظم السياسية في تاريخنا لم تكن بحاجة إلى وجود دستور باعتبارها أحيلت إلى القرآن الكريم وأحكامه، والرد على ذلك بسيط جداً، هو ألم يكن أولى بالرسول ﷺ، وهو النبي والقائد والزعيم أن يكتفي بهذه الإحالة إلى القرآن الكريم ويترك الأمور غامضة دون أن يقيد نفسه بأي نص دستوري؟

**د. برهان زريق:** إن القرآن الكريم، وهو الدستور الأزلي، لا يمكن أن يقيم نظاماً سياسية وبرامج تفصيلية للحياة، وإنما يقرر انطلاقات كبرى ومبادئ وأصولاً عامة للحكم... العدالة... الشورى... التكافل الاجتماعي... المساواة.



ولقد أدرك هذه الحقيقة الخليفة عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه فقد أكد على عبد الله بن العباس في محاجة الخوارج إلا يخاصمهم بالقرآن، إذ أنه حمال أي يحمل معاني كثيرة ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنّة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً.

البند الذي استوقفني حقيقة من كل بنود الصحيفة أو الدستور هو البند الذي يقول فيه الرسول ﷺ: ((ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافرأ على مؤمن))، ارتباط هذا النص المحمدي بواقع الحكومات العربية الآن التي تنصر الكفار وأعداء الأمة على المؤمنين، وتحارب حركات المقاومة الإسلامية في بلاد المسلمين المحتلة لتزيد تقرباً من الدول التي تحتل بلاد المسلمين.

الجنرال "بيتان" بالحرب العالمية الأولى انتصر انتصاراً كبيراً جداً وطوقت رأسه بالفخار وكل فرنسا احترمت له هذا النصر، بالحرب العالمية الثانية هادن "بيتان" النازيين لأنهم كانوا بطاشين، كان في ظنه أنه بمهادنته هذه يستطيع أن يمسك عنان الشدة النازية، قالت فرنسا عنه حينها أنه خائن ولم تغفر له، فليس معنى أن تقوم الحكومات العربية بهذه الأعمال، وقوفها مع العدو في وجه المقاومة، لا يعني إطلاقاً أنها على حق، بل أنها تكون قد خرجت من الملة.

في زمان الإسلام الأول آمن رجل من عمان بالرسول ﷺ وكانت بيد هذا الرجل تجارة القمح، فسمع أن المشركين بقريش آذوا الرسول ﷺ فقرر قطع القمح عنهم، فقلقت قريش من منع هذا الرجل إياهم طعامهم، فذهبوا إلى الرسول ﷺ يترجوه، فقال له الرسول ﷺ يا فلان لا تقطع عليهم طريق قوتهم... إذا الرسول ﷺ لم يرض بمنع القوت عن الكافرين، فما بالك بأن يقطع المؤمنين على المؤمنين.

ما يصنع بغزة الآن من حصا ومنع الطعام لا يجوز مطلقاً، تفتح الحكومة المصرية المعابر حيناً وتغلقها حيناً آخر.

**الصحفية آلاء سمساعة:** حدثنا عن رأيك في حرب غزة؟.

**د. برهان زريق:** أنا كتبت كتاباً عن حرب غزة وسيخضع للطبع قريباً.

**الصحفية آلاء سمساعة:** هل أنت في صف حركة المقاومة الإسلامية حماس؟

**د. برهان زريق:** طبعاً... ولا يجوز لنا إلا أن نكون معها.

**الصحفية آلاء سمساعة:** البعض يتهم حماس بأنها أشعلت الحرب في غزة إشعالاً واستخدمت المدنيين والعزل من الفلسطينيين كدروع بشرية أثناء الحرب؟

**د. برهان زريق:** هؤلاء الذين يقولون ذلك نحن نسميهم المعوقين... المرجفون في المدينة.

نقر أن هنالك اختلاف في الطباع البشرية، هذا صلب وهذا لين، هذه فطرة الله، وهذه حقيقة الأشياء، ولكن وقت الشدة يتعصب الإنسان إجباراً، إذا اعتدى أحد على أخي مثلاً فأنا أقف أمامه بصلابة وأتعامل معه بشدة، لأن الظرف أجبرني على ذلك.

وقت الشدة لكنا مع حماس، مع الأمة، مع حزب الله، مع المقاومة عموماً، الأمة تتمدد وتتقلص، تزيد قوة وتزداد ليونة حسب الظرف، إذا استعرضنا الأمة الإسلامية نجد فيها حركة الليونة والدعة قد بدأت بالمعتزلة، كانوا هم فلاسفة وفرسان الفكر، ثم غابت هذه السمة العقلانية مع البدو الذين أتوا من آسيا كالسلاجقة وغيرهم وأتى التشدد وأنطبع الإسلام بطابع القوة.

نحن لا نستطيع ذم ولا مدح هذا الطابع التشددي، فهو نتيجة طبيعية للحركات التي طغت على الأمة الإسلامية كالصليبيين والمغول، ثم التشرزم الداخلي والفرقة، فكان لا بد من وجود من يضبط الوقائع وقتها.

**الصحفية آلاء سمساعة:** ما رأيك الخاص في المتصوفة وحركات التصوف التي تعم بلاد المسلمين.5.

**د. برهان زريق:** أولاً فكرة الإمامية فكرة غير عربية وغير إسلامية، الرسول ﷺ كان في هيئة أصحابه وشكلهم، في مرة دخل رجل على مجلس رسول الله ﷺ وقال: "أين محمد" وكان الرسول ﷺ جالساً وسط أصحابه لا يتميز عنهم. أما المتصوفة فهي أنواع، المتصوفة الإسلامية التي تؤمن بجوهر الدين وتقاليده وأركانه فقط، ولم يغيروا بقضاياها شيئاً، هذه نسميها المتصوفة السنية. المتصوفة الأخرى أخذت في التأويل، منهم من غاص في الابتعاد حتى وصلوا درجة الحلول، أن ينحلوا بالله عز وجل، سبحانه، يقولون: ((نحن روحان سكننا بدنا... روحه روحي وروحي روحه... إن شاء شئت وإن شئت شاء)).

**الصحفية آلاء سماعة:** لديك دكتور برهان كتاب تحت عنوان المرأة في الإسلام - قراءة معاصرة، ما هي الخطوط العريضة للفكرة التي تناولها الكتاب؟

**د. برهان زريق:** أنا أردت في هذا الكتاب تألق الإسلام، أن نرى الإسلام في جوهره وقد حاولت أن أتألق بالمرأة، إن أجعلها جوهره تضيء بالإسلام وبالقيم وبالروح. كان هنالك صحفي سويسري ذهب إلى المغرب ويريد أن يكتب تقريراً عن المغرب، وكان يحاول أن يكتب عن كل ما يراه، فرأى امرأة عربية تلبس الحجاب الذي كانت ترتديه أمهاتنا في الماضي والآن بناتنا، شدة المنظر فطرق عليها الباب وطلب أن يدخل، رأى هذا الرجل في بيت المرأة المغربية الإسلامية هذه أنها تتألق في بيتها بالورد والياسمين، وتسمع الدعة في حديثها، فهي لا تصخب، ولا تسمع فيها رجزاً...

المرأة العربية والإسلامية تهتم بالشعر وبالفن وبالأدب، هذا التألق الكبير نريد أن نقف عنده في المرأة ولا نقف فقط عند قضية اللباس رغم أنها مهمة، الإسلام يقول لباس المرأة لا يشف ولا يصف، المرأة التي تبرز من ملابسها جميع جسدها هذه لا نريدها، أما التي تلبس زياً ساتراً لا يستطيع الرجل أن ينظر إليها على غير ما تحب لأنها متحجبة عنه، إنما إذا أراد الحديث معها ومحاورتها والوقوف على

طبيعة تفكيرها فهذا لا يضرها أبداً، الرسول ﷺ في زمانه كان يجتمع بالنساء في المدينة ويلقنهن دروساً في تعاليم دينهن.

**الصحفية آلاء سمساعة:** أيضاً هناك كتاب إمكانات ومكانة الحرية والديمقراطية في المشروع النهضوي العربي الراهن، رؤية واستشراف، الديمقراطية في البلاد العربية معتلة وتكاد تكون ميتة، ما رأيك؟

**د. برهان زريق:** الديمقراطية لا تحيا إلا في جو الاستتباب، عندما حصل التوتر بقلب الأمة شددوا على الحكم ثم بالتالي بعدنا عن جوهر الديمقراطية.

لدينا بالفقه فرق بين ممارسة السلطة وإسناد السلطة، هذه شرعية وهذه شرعية أخرى، ولن تصح هذه الأمة إلا بإسناد السلطة بشكل شرعي.

أنا أعتبر قمة الشرعية جمال عبد الناصر لأنه هموم الأمة ودموعها، والصدق مع الأمة هو المشروع الأهم، وجمال عبد الناصر هو أكثر إنسان في الدنيا عمل لصالح الطبقات الفقيرة وأزال الفوارق بين الطبقات.

**الصحفية آلاء سمساعة:** كتاب نحو نظرية عامة في العرف الإداري الذي حصلت به على درجة الدكتوراة، لا بد أنه كتاب مهم، دعنا نسأل عن الرؤساء العرب بعيداً عن الديمقراطية والأسس السياسية للحكم، كيف هم كإداريين لبلادهم؟

**د. برهان زريق:** هنالك محاولات فنية وعقلية، ليس هناك دولة تأخذ العقل والمنطق وتقوي التنظيم إلا انتهى بها الأمر إلى صنع خصائص الدولة الحديثة وتختلف النتيجة حسب إمكانياتهم ومواردها.

يمكننا أن نقول أن الرؤساء العرب لا بأس بهم كإداريين بعيداً عن كونهم سياسيين، وبعضهم جيد إلى حد ما.

**الصحفية آلاء سمساعة:** ما هو البعد القانوني لقضايا الأمة؟

**د. برهان زريق:** كما نعلم أن الله خلق الكون مغموراً من ماء ثم بدا يَكُون فيه نواة للأشياء فيجب أن يكون هناك نظام قانوني يعب عن هذه الأشياء، فالقانون هو المعرض للتقاضي الطبيعي للتعبير عن الأشياء لأن كل شيء له تعبير قانوني مطلقاً، ومن لم يكن له تعبير قانوني فهو ناقص.

في قضية مؤتمرننا هذا يجب أن يكون هناك بعد قانوني يجتمع عليه جميع العرب، يكون قادر على الدفاع عن قضايا الأمة كقضية السودان مثلاً.

**الصحفية آلاء سمساعة:** هل البعد القانوني هل يعول عليه لأخذ الحق لأطفال غزة بعد ما وقع عليهم في الحرب الأخيرة؟

**د. برهان زريق:** نحن الآن ضعاف وما لم نكن موحدين لا نستطيع فعل شيء، الوحدة تصنع كل شيء، الوحدة في الدستور، الوحدة في الرأي، في الأمل في العمل.

**الصحفية آلاء سمساعة:** وقضية منتظر الزيدي من حيث ما فعله وما وقع عليه من عقاب؟

**د. برهان زريق:** لم يبق عربي لدينا في سوريا إلا هلال لما فعله الزيدي، وأصبح مثل أعلى للنضال، وأصبح حذاؤه موضع اهتمام الكل حتى الفنانين الصناعيين، وأصبح يوظف في مجالات عدة وفتق معاني كثيرة.

أما العقوبة فكان معلوماً أنه لا بد سيعاقب، لأن الحكومة التي حوكم في ظلها هي حكومة أتت مع الاحتلال وتدافع عن المحتلين.

**الصحفية آلاء سمساعة:** اتحاد المحامين العرب كان في بداية قضية منتظر واقفاً وبشده للدفاع عنه، لكننا بعد ذلك لم نر نتيجة لوقفته تلك؟

**د. برهان زريق:** اتحاد المحامين العرب جيد، لكن إمكانية الوقوف في وجه الحكومة العراقية في قضية كقضية منتظر الزيدي، فلا مجال لفعل شيء.



## حي على الصلاح حي على الفلاح حي على النضال حي على خير العمل<sup>١</sup>

**ليس** غريباً أن اسم المقالة بذلك العنوان، لأن أمتي تحترق في كل مكان، والليل يحيط بها من كل جانب، وهل يوفر الربان الصادق أية وسيلة لإنقاذ سفينته من الغرق، ولو خالف الأوامر.

هذا أواه الشد فاشدّي زيم      قد لفعها الليل بسواق حطم

من هو سواق الحطم هذا في ليلنا الداجي؟...

هل سنرمي جراء هذا العجز والقصور بحرائرنا للأعداء؟

إذا أنتم لم تنفروا بعد هذه      رمينا إلى أعدائنا بالحرائر

نعم نقولها للحاكم العربي، لأننا لم نعد نطيق عبثه واستهتاره:

رب وامتصماه انطلقت      ملء أفواه السبايا اليم

لامست أسماكم لئنها      لم تلامس نخوة المعتصم

أيها الأخوة: أيهما الحكماء الصادقون تعالوا نردد قوله تعالى:

<sup>1</sup> - ورقة مقدمة إلى المؤتمر القومي العربي بمناسبة انعقاد دورته الخامسة عشر في بيروت، نيسان 2004.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء/83.

هلموا لنرفع توتر الوعي الخلاق والوثبة الرصينة الحارة للأمة منطلقين من التصدي (لطلب الأمن والخوف) الذي يحيق بالأمة... هلموا لتجاوز القصور... هلموا لنتحلى بالشجاعة، وتحمل المسؤولية في حدود الواجب والممكن، وليكن نشيدنا الروحي الحزين المثير للهمم:

العراق العراق  
فلسطين فلسطين  
الحرية والكرامة  
واحقاقه  
وافلسطيناه  
وأكرامناه

نريد روحاً جديدة وعزيمة جديدة صادقة، نريد المنهج الجديد في ضوء مبادئ المؤتمر العتيدة، وليغلب على أمرنا روح العمل، وقل اعملوا فسيروا الله عملكم والمؤمنون، فالنظرية رمادية، ولكن شجرة الحياة دائماً خضراء (غوتيه).

بيروت 2004/4/19

عضو المؤتمر القومي العربي

د. برهان زريق



### العربي جذر العربي، فهل من مدكر

لقد زلزلت الأرض زلزالها، بانفراط عقد المنظومة الشيوعية، ولكنها هذه المرة لم تخرج «كما قال تعالى ألقاها»، ولكنها أخرج أبالستها وشياطينها وعفاريتها وحيثانها...

لقد خرج رؤوس الشياطين هؤلاء من أصل الجحيم «يتقدمهم بوش» وهم يمرحون ويلعبون، وينتشون بنشوة الراحة الكبرى بعد الظفر والانتصار على القطب الآخر، وخلا لك الجو أيتها القبرة فيضي وصفري.

لقد أخذت بهم العريضة كل مأخذ، يغمزون من قناة هذه الدولة، ويؤدون تلك، ويعتدون على الثالثة، وهلم جرا.

لم تعد ثمة بقعة في العالم إلا وتحاول الولايات المتحدة ومثلها معها، ومن لف لفها، تحاول فرض إرادتها عليها، فإذا ما صوت البرلمان الروسي ضد إصلاحات بيلتسين، فالتهديد الأمريكي يكون جاهزاً، إذا ما أرادت الصين استخدام حق النقض "الفيتو"، ضد القرار الأمريكي انبرت واشنطن تهددها بأنها سوف تدفع ثمن ذلك غالياً.

إذاً لم لا تكون اللؤلؤة الكبرى، مهد النفط «وطني الكبير» الحرف الأول في أبجدية الاعتداء الغاشم، وقد صرحوا علناً وأكثر من مرة «حتى في حرب الخليج الأخيرة» إن النفط العربي هو محور استراتيجيتهم العليا.

لقد كان ما كان من أعظم مغامرة بشعة للروح الإنسانية في الاعتداء على شعبنا في الإقليم العراقي، كل ذلك ليس بدافع المحاسبة على الأخطاء، ووضع نقاط العدالة على حروف مبادئها، وإنما لخلق الإشكالات باصطياد الهفوات، انطلاقاً من حق الكهف المظلم، وباتجاه بوصلة المنفعة الدنيئة التي حركت كل جارحة وخلية في كيان النظام الرأسمالي البشع.

وتتابعت فصول الاعتداء الدرامية المأساوية، على شعبنا وحقوقه وسيادته:

- افتعل لسوريا مسألة الحصول على الأسلحة، ومن مثل هذا البلد بحاجة للدفاع عن سيادة إقليمية وكرامة الشعب الفلسطيني الشقيق.
- أغرقوا شعبنا في الجزائر بإشكالية لا يعلم حدودها وآفاقها إلا الله، ولا يجلبها إلا صحوة شعبنا المذكور ووعيه في التمسك بوحدته الوطنية الشرعية العليا التي تعدو على كل شرعية.
- منذ سنين، وشعبنا الفلسطيني تدق عظامه بالحجارة على مرأى ومسمع مجلس الأمن، الذي لا يعتر بالله وإنما تأخذه العزة بالإثم، مصداقاً لكلمة طيبة قالها جل وعلا في كتابه الكريم، وأخيراً وليس آخراً، المسألة الليبية.
- وشعبي العظيم من محيطه إلى خليجه ذاهل، وهم من شدة اللطمة، سكارى، وما هم بسكارى، ويموج هذا الشعب، وسؤال عريض يرتسم على طول أفق هذه الأمة:
- هل يستند وضع الإقليم الليبي تحت الحصار الجزئي إلى قوة العدل أو المنطق أو الأخلاق أو التاريخ، أو طبائع الأشياء، إذا كان الأمر كذلك، فكيف يكيل هؤلاء بمكيالين، ساعين جاهدين إلى طمس شخصية شعبنا العربي الفلسطيني العتيد، ومحاصرته وتهميشه، وتسفيه أحلامه وأمانيه.
- هل يعتقدون أن أرضنا بلا شعب، فيرددون ظلامية الإرث الصهيوني الآثم، أم أنهم يحيون الاستعمار القديم بأبشع صورة، ألسنا في نظرهم شعب نصفه تحت الحماية، والنصف الآخر يسعى للتفاوض حسب التعبير الحرير

مدير إذاعة مونت كارلو "دولا كوست"، في إحدى تعليقاته اليومية القريبة العهد .

○ هل تحركت عقدة "الصلبية السياسية" الثاوية في أعماق الضمير الغربي القارة في شعوره الجمعي، ومن مثل الضمير العام قدرة في صياغة القرارات والمواقف.

منذ إعلان البابا "أربان الثاني" حتى عصر "بوش" مروراً بمسألة "الرجل المريض"، صعوداً باحتلال المغرب العربي ومصر إضافة إلى المشرق العربي، وذلك المشهد يتغير في شكله ومظهره دون مضمونه وجوهره، والمسألة الليبية هذه، وما سبقها، وما سيلحقها مسألة نوايا، أو كما يقول المثل الشعبي العربي - وما أصدق هذا الحس، وما أكثر ما يحمله من إشراق وتوهج وتراكم أخلاقي ووجداني - ليست حبة رمان، إنما القلوب مليانة.

ويبقى السؤال العريض المرسوم في أفق وطني العربي، يبقى هذا السؤال مستفسراً، هل إن قرار الحصار المزعوم يصدر فعلاً عن المؤسسة الدولية.

كلام غريب أن يوصف مجلس الأمن في وضعه الراهن بهذا الوصف، وأن أحسن وصف لذلك ما قاله قديماً المفكر والمجاهد السوري الراحل عبد الرحمن الكواكبي في سياق مماثل قال: ((أنا الغدر وأبي الخيانة، وأمي اللؤم وخالي الشراسة، وعمي الوقاحة... إلخ)).

إن المؤسسة «كما هو معلوم» جهاز في خدمة فكرة، فأني هذه الفكرة؟ أجل لقد وضع ميثاق الأمم المتحدة، والمدافع كانت لا تزال تدك النازية، وجاء هذا الميثاق صياغة حرفية لاعتبارات القوة، واعترضت الدول الصغيرة على نظام "الفيتو" ولكن هذا الاعتراض كان صيحة في واد...

إن أي مشروع يفترض أن التأسيس يقوم على الإرادة العامة للأعضاء على أن يمتلك «وبالتساوي» كل عضو جزءاً من هذه الإرادة، وهذا هو المبدأ الذي قام عليه نظام الدولة، وعبر الدموع والآلام، ثم استكمل بأواليات وتقنيات قانونية لا

حصر لها لضمان تطبيق مبدأ الإرادة العامة وحققها في وضع أساس المشروع، من ذلك مبدأ الفصل بين السلطات، وخضوع الإدارة للقانون، وغير ذلك.

والسؤال المطروح هو، أين تلك الأوليات والتقنيات على صعيد الحياة الدولية، أين هو مبدأ الفصل بين السلطات في صورته العلمية الدقيقة، أين هو مبدأ الرقابة على مشروعية قرارات مجلس الأمن نفسه.

لقد حاولت الجمعية العامة للأمم المتحدة وضع ضوابط للتمييز بين الموقف والنزاع «وهذا التمييز له تأثيره العميق على نظام الاقتراع والفييتو» ووضعت قائمة بمائة مسألة من أجل هذا التمييز، وأرسلت ذلك إلى مجلس الأمن، ولكن هذا المجلس ضرب هذه المعايير عبر الحائط، واستمر يفسر النصوص على هواه.

هل تخضع قرارات مجلس الأمن لأية مراجعة، أو تعقيب سلطة أخرى باعتباره يمثل الجهاز التنفيذي في الحياة الدولية.

إن ثلاث دول عظمى (أمريكا - انكلترا - فرنسا) تمتلك ثلث حجم الإرادة الدولية من خلال نظام الاقتراع "الفييتو" بل تمتلك فعلياً معظم هذه الإرادة الدولية، فكيف يستقيم أن تكون هذه الدول خصماً وحكماً في الآن نفسه.

لقد كان هذا الأمر مقبولاً في ظل التوازن الدولي السابق، ولكن انهيار الاتحاد السوفيتي جعل الحمولة الواقعية والفعلية للنظام الدولي في يد العالم الرأسمالي، وتحول هذا النظام إلى آلة جهنمية تدبر الانقلابات والتدخل العسكري، وتلوي عنق النصوص، وتفسرها كما تشاء.

إن القانون الدولي يفترض «بالأساس» مسؤولية الدولة عن أفعال أجهزتها لا أفرادها، لا سيما إذا ارتكب هؤلاء الخطأ خارج إقليم الدولة.

لقد تم الاعتداء عام/1976 على الطائرة الكوبية، وقتل جراء ذلك ثلاثة وتسعون شخصاً، فهل تحرك النظام الدولي، مع التنويه بأن الولايات المتحدة تحتفظ حتى الآن علناً وبكل وقاحة بالفاعلين.

لقد اعتدى "ريغان" بكل وقاحة على الإقليم الليبي بتخطيطه وتنفيذ أجهزته، فهل سألت أمريكا عن ذلك، أليس الأمر في منتهى الغرابة، ورحم الله الشاعر العربي:

إن الإقليم العربي الليبي الشقيق وقع عام/1952/ على اتفاقية لتسليم المجرمين في إطار الجامعة العربية، فهل يطلب من هذا الشعب الشقيق أن يتخلى عن سيادته، ويسلم مواطنيه إلى دول أخرى دون أن يكون هنالك أي اتفاق يقضي بذلك، أليس هذا هو نظام "التقاضي" الخاص الذي كان سائداً في العصر الحجري.

إن المادة/38/ من ميثاق الأمم المتحدة تفرض على الأعضاء أن يلتزموا بحل النزاع بادئ ذي بدء بطريق المفاوضة والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية، أو أن يلجؤوا إلى التوكيلات والتنظيمات الإقليمية، وغيرها من الوسائل السلمية التي يقع عليها اختيارها .

والشقيقة ليبيا ما فتئت تبدي استعدادها للتعاون مع المجتمع الدولي في الكشف عن حقيقة الحادثين المشار إليهما في قرار مجلس الأمن، وعلى الرغم من اتسام موقفها بالحكمة والتعقل والالتزام بالقوانين الدولية، على الرغم من ذلك، فقد جاء قرار مجلس الأمن المذكور متسرعاً ومحموماً ليؤصد الأبواب أمام أية محاولة سلمية سياسية أو قانونية لمحاصرة ومعالجة الموقف.

لقد حددت المادة/38/ من الميثاق اختصاص مجلس الأمن بالمنازعات والمواقف الدولية التي يكون من شأنها أن استمرت أن تعرض السلم والأمن الدولي للخطر.

ويرى فقهاء القانون العام أنه من العسير أن يكون تهديد السلم حقيقياً في النزاع الذي ينشب بين دولتين غير متكافئتين، وهذا ما يصدق بالنسبة للنزاع الذي وقع بين إيران والاتحاد السوفيتي، والذي نطق مجلس الأمن رأيه فيه استناداً إلى هذا الموقف.

والسؤال المطروح هو، هل أن الشقيقة ليبيا قادرة على تعكير الحياة الدولية في علاقتها مع ثلاث دول عظمى.

إن حادث "لوكربي" وقع في 1988/12/21، ولو كان هنالك تهديد للحياة الدولية لظهر ذلك.

أجل لقد أصدرت الثورة المصرية أمراً عرفياً باعتقال السيد فؤاد سراج الدين "زعيم حزب الوفد" بحجة أنه خطر على النظام العام، وكان القرار القضائي الإداري المصري المشهور: ((لا يمكن أن يكون الفرد خطراً على النظام العام))، فكيف إذاً يكون الحادث الفردي خطراً على الأمن الدولي.

إن القضاء العادي يتعامل مع قاعدة "رد القاضي" إضافة إلى مؤسسة أخرى هي "تنحي القاضي" والمؤسسة الأولى ترفع يد القاضي عن الدعوى بحكم القانون في بعض الأمور أما الثانية فتتيح للقاضي من تلقاء نفسه التخلي عن الدعوى درأاً للإحراج، كل ذلك كصمام أمن يكبح جماح اجتماع صفة الخصم والحكم في شخص واحد.

والسؤال المطروح هو، كيف يستقيم الأمر في قرار مجلس الأمن رقم/731، وقد صدر عن خصم وحكم.

لقد أكدت اتفاقية "مونتريال" الخاصة بقمع الأعمال غير المشروعة الموجهة ضد سلامة الطيران، أكدت إلزام الدول المتعاهدة باتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة لفرض اختصاصها القضائي في حال وجود المتهم بأراضيها، ولم تقم بتسليمه، وقررت أن أحكامها لا تمس بأي اختصاص جنائي تباشره الدولة الواقعة طبقاً للقانون الداخلي.

ومن المعلوم أيضاً أنه لا يجوز للقاضي أن يعطي إحساسه بالعدل بأي شكل من الأشكال وتحت أي مظهر من المظاهر، هذا هو مبدأ مشهور بلورته الإنسانية خلال مسيرتها الطويلة.

والسؤال المطروح هو ألم تكن الولايات المتحدة وانكلترا تلوحان بالعصا الغليظة، وتصدران التصريح تلو التصريح ضد الشقيقة ليبيا، ثم ألم تقحم انكلترا مسألة مساعدة الشقيقة لحركات المعارضة الايرلندية، إذأ فالمسألة ليست "حبة رمانة وإنما القلوب مليانة"، والنزاع ليس قضائياً تحكمه ضوابط قانونية، بقدر ما هو مسألة سياسية.

هذا غيظ من فيض من المسائل القانونية التي تفضح رؤوس الشياطين. وحسبنا في هذا المقام الاقتصار على تلك المسائل، وإن كنا ندلل بالإعلان الذي صدر عن هيئة حقوق الإنسان في باريس حيث نعى على قرار مجلس الأمن تجيزه، ومخالفته للشرعية الدولية، كما وندلل بالبيان الذي وقعه عدد كبير من المفكرين والمثقفين والحقوقيين والسياسيين حول الحملة التي تتعرض لها الشقيقة ليبيا، ذلك البيان الذي نشرته صحيفة لوموند الفرنسية بتاريخ 1992/1/6.

كم كانت شرقات الدموع وغصات الحلق كثيرة ومؤلمة عندما سمعنا قرار وزراء الخارجية العرب الذي صدر مؤخراً بشأن المسألة الليبية، وكأنهم لم يقرؤوا كتاب الرئيس الأمريكي الأسبق "نيكسون" الموسوم بعنوان **انتهزوا الفرصة**، وفحوى الكتاب المذكور هذا التحذير الكبير للغرب: ((لا تتعاملوا مع العرب والمسلمين باعتبارهم وحدة واحدة)).

الإنسان جذر الإنسان حكمة ذائعة الصيت والعربي أيضاً جذر العربي، فهل تذكر وزراء الخارجية العربي ذلك، هل نسوا مقالة كليلة ودمنة: **أكلت يوم أكل الثور الأبيض**.

يظهر أننا لا نقرأ التاريخ، ولا القانون، لا نعي الدلائل والعظات والعبر، فهل من مدكر.

✍️ الدكتور المحامي برهان زريق





## قراءة سريعة للمحنة الكبرى «أحداث العراق الشقيق»

**لقد أطلق** أدبنا التراثي على مقتل الخليفة عثمان والأحداث التي تلت ذلك أطلقوا تسمية الفتنة أو المحنة الكبرى وقد علق الشهرستاني على ذلك بأنه ما تطايرت رؤوس في الإسلام مثل ما تطايرت بسبب ذلك. وفي نظرنا أن هذه المحنة تركت منعاً كبيراً في وجداننا الجمعي ولم تستطع أمتنا التخلص من آثاره حتى الآن.

وبطبيعة الحال فنحن لم نعرض لهذه الفتنة إلا كي نخرج على محنة أخرى راهنية هي بدورها كبرى وخطيرة وجسيمة وفادحة وقد تطايرت بسببها الرؤوس ووضعت الأمة بين فكي رحى وإذا لم تستطع احتواءها فستترك في حياتنا صدعاً لا يعلم نتائجه إلا الله.

وقبل أن أقدم قراءتي المتواضعة السريعة لأحداث العراق الشقيق لا بد من أن أعرج على حديث جرى بين سياسي عربي وسفير لبريطانيا في إحدى دول الخليج فقد انبرى الأخير منتفخ الأوداج متحدثاً مدلاً بالسياسة البريطانية الحكيمة في حين أن السياسة الأمريكية أشبه ما تكون بفيل في غرفة زجاج يخبط ويكسر كما يشاء.

وإذا كان هذا الخبر وجد "ما صدقه" كما يقول المناطقة- على أرض الواقع إذ وجدنا أمريكا تلعب دور الفيل في أحداث العراق حقداً وطيشاً إذا كان الأمر كذلك فالعجيب بالحكمة البريطانية المزعومة كيف أنجزت وراء ذيل أمريكا لتفعل فعل الفيل الطائش.

وفضلاً عن ذلك فقد أكد السفير البريطاني أن الغرب سيبدل قطرة دم للحفاظ على كل قطرة بترول وأن اقتضى الأمر سيخلق من كل قبيلة في الجزيرة العربية دولة.

خبر ثان هام كآلية لحرث وتفكيك موضوعنا والحفر في طبقاته هو حديث "الإمبراطور غليوم" وهو يزور دمشق قال المذكور: ((لقد انتابني الهلع عندما سمعت حديث "فرح أنطون" الذي مضمونه التمسك بحراره -إضافة إلى الجامعة العثمانية- بالجامعة الإسلامية وكنت اعتقد أن العرب شواش موكومة دون أية رابطة بين المسلمين والمسيحيين)).

أجل لقد أدرك "فرح أنطون" ومثله معه من الكوكبة العربية الواعية أنه يجب أن لا ندحر أية وسيلة لصد هجمات الغرب حتى ولو كان الأمر بالرابطة العثمانية أو الجامعة الإسلامية<sup>1</sup>.

نحن هنا حيال تبين فكرتين: الأولى تقوم على وعي مطابق وصادق وسليم مقابل المشروع النقيض مشروع تهديم الأمة وتهميش حقائقها وطمس هويتها وتسفيه أحلامها وقيمتها أجل نقول مشروعاً نقيضاً دون أن ننطلق من الهوس القومي أو من الاستعلاء بل ندعو إلى عدم النظر إلى الغرب ككره مصمته ولنا في التصريح الأخير للبابا أكبر مثال على استيعابه وفهمه الرصين للمسألة العراقية.

ومع ذلك فإننا نذكر بأن الغرب الكولثياني (الاستعماري) أول من واجه الأمة الإسلامية والعربية: ممالك الزنج الإسلامية في إفريقيا- دولة المغول الإسلامية

---

<sup>1</sup> - للتزيد يرجع إلى مقال د. أدونيس العكرة الموسوم بعنوان: الجامعة الإسلامية والجامعة العثمانية، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، عدد 24، لعام 1983، ص119 وما بعدها.

في الهند- الدولة العثمانية- احتلال أجزاء كبيرة من الأمة العربية وما يتبع ذلك من أحداث: سايكس بيكو- تقسيم المشرق العربي- احتواء ثورة عرابي ومحمد علي- مقاومة المشروع التقدمي لعبد الناصر- زرع الكيان الصهيوني فكالمب ديفيد وأوسلو وغير ذلك.

وبهذه الأحداث لا يمكن أن تكون صدفة واعتباطاً وأمرأ عارضاً طارئاً بل هنالك حبل متين يشد شتاتها ومشروع يكمن ورائها.

وإذا كان بالإمكان أن نصف حديث "فرح أنطون" بأنه عقل الأمة فبالإمكان أن نصف المشروع النقيض بأنه عقل الفتنة مقابل بنية ثالثة ثاويه في أعماق فكرنا منذ أغوار التاريخ هذه البنية هي عقل القبيلة والعصبية القارة تحت جلودنا.

وفي نظرنا أن هذه البنية الثلاث هي التي حكمت أحداث العراق وهي التي تحكم وستحكم مستقبلنا ما لم نجتث عقل الفتنة وعقل القبيلة اللذان يقفان في وجه المشروع العمراني الحضاري النهضوي العربي الإسلامي القائم على حامل الأمة ووحدتها ومستقبلها في التقدم والديمقراطية والتجديد الحضاري وعلى ضوء هذه البنية المثلثية الشعب نستطيع تقديم قراءة سريعة متواضعة لأحداث العراق نسجل فيها الملاحظات الآتية:

1- جاء أيضاً في حديث "فرح أنطون" ما يلي: الأمة العربية كالأقيانوس العظيم إذا لم تثير أمواجه زوابع الأطماع السياسية بقي هادئاً سالماً ساكتاً وإذا عصفت به تلك الزوابع لم يأمن راكمه أن تبتلعه أمواجه الهائلة. ونحن بدورنا نؤكد أن أمتنا تمتطي في هذا الأقيانوس سفينة وليس هنالك دولة ناجية والعكس وإنما هنالك أمة عربية ناجية والعكس.

2- إن حدث العراق عام 1991 لم يكن مسؤولية دولة واحدة وإنما مسؤولية الأمة جمعاء وكان على البيت العربي أن يحتوي الحدث وأن انحسار مشروع الأمة وأمنها الجمعي وعقلها ومصطلحتها هي المسؤول الوحيد وبالمقابل فإن الفيل الأمريكي هو الذي ما فتئ يرتب الظروف لاستدراج السبب المباشر وأن نهاية

حرب الخليج الأولى هي بداية حرب الخليج الثانية في اعتقاد المشروع النقيض "حديث في الابرقتوار".

3- أن كلمة السواء «التي قد يضطلع بها مؤتمر القمة العربي المقترح انعقاده» يجب أن لا يقوم على شروط اللهم إلا صياغة ما هو معترك لأن مبرر أية سياسة هو خلق الاسمنت وإيجاد المكوك الذي ينسج المصلحة العامة ودليلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ آل عمران/64 .  
فهذه الآية لم تضع شرطاً للسواء .

4- لست من أنصار عقل "داحس والغبراء" وأسعى جاهداً لأجنتائه إنما بآلية الحوار واحترام الغير على قاعدة دع الزهور تتفتح ولنتبار وعلى الطليعة أن تعانق ذلك وأن تسعى لترسيخه وخلق ضمير عام بذلك .

5- لا يمكن فهم أحداث العراق إلا في إطار العولة الذي استشرى واستوحش وتبربر ومرد ذلك بنية المشروع الرأسمالي القائمة على الجشع ولقد وعى جيل الخمسينيات ذلك بقيادة الراحل عبد الناصر وتعاملوا معه على أساس علمي لا سياسي .

وعلى ضوء ذلك فأمریکا ليس لها ولا ذمة ولا صديقة بل لها مصالح سوداء فهي بتعبير السفير البريطاني ذلك الفيل الذي يكسر كل شيء حتى أصدقاء وهذا يعني أن الأمن الوحيد لكل دولة عربية هو الأمن العربي الذي يكافئ الإيمان بالله قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء/92 .

وهكذا فلا شيء يوتي أكله ونتأجه المثمرة إلا بوجود الأمة القوية وهنالك خط يربط بين كامب ديفيد وأوسلو والمسألة العراقية ويصب في طاحونة إسرائيل وإن تدمير العراق هو المقدمة الأولى لكل تدمير .

6- إن أية سلطة في دولة عربية إنما هي جزء من النظام العام الذي يعني الاستقرار في الشارع والضمان وإن القضاء على هذه السلطة بالقوة «لاسيما من

الخارج» أن هو إلا اعتداء على النظام العام للدولة ولا يجوز أن يكون التغيير إلا بفاعل داخلي محمول على الإرادة الموجهة لكل قطر.

7- إن ميثاق الأمم المتحدة قام «افتراضاً» على أساس مشروع عالمي هو الحفاظ على استقلال كل دولة وسيادتها وأمنها وإلا لكان الموقعون على المشروع قد وقعوا على إمكان موتهم.

إن مبدأ السيادة الدولية يقوم على مبدأ آخر هو التفسير الضيق لكل ما يسمى سيادة الدولة فما بالننا نرى الهاجر الوحيد للمشروع الأطلنطي هو القضاء على شعب بكامله وهل يدخل ذلك في اختصاص مجلس الأمن.

8- إن أمريكا وانكلترا تستطيعان بأية وسيلة أن تحميا الشقيقة الكويت كما أن البيت العربي يستطيع ذلك وهذا ما وجدناه في احتواء مصر عبد الناصر للأزمة ذاتها بين الكويت ونظام قاسم العراق.

والسؤال المطروح هو: لماذا لا تفسر الضرورة بقدرها وهل أن الدفاع عن الضعيف يعني القضاء على القوي أم يعني أخذ الحق من القوي بالقدر الضروري؟

9- إن العالم عقد أملة على الأمم المتحدة فإذا بالفيل الأمريكي يدخل هذه المرة غرفة زجاج مجلس الأمن ليحطم ما يشاء ويريده وليقذف بالعالم إلى مشروع الغاب وليكرس مبدأ التقاضي الخاص منذراً للإنسانية بالويل وعلائم الأمور وهذا ما تأكد من موقف روسيا الذي اعتبر موقف الولايات المتحدة وبريطانيا من العراق اعتداء على روسيا نفسها.

10- إن الدولة القطرية وحراسها الحكام العرب فشلوا في إنجاز كل مشروع: المشروع الاقتصادي- المشروع الحضاري للأمة- المشروع الاجتماعي- مشروع الوحدة.

والأنكى من ذلك فقد فشلوا في الحفاظ على الأرض إذاً ما هو مبرر السلطة العربية....

11- لقد أدرك الشارع العربي هذا الفشل لذلك هبّ للدفاع عن نفيه "حق الدفاع الشرعي" وهكذا فقد أصبح هذا الشارع قوة يحسب لها حساب حيث نما حس الثقة بالنفس لديه ولن يحلو الأمر للسلطة تفعل ما تشاء بل أن عين الجماهير محمّلة على الأحداث.

12- إن الشعب العربي يتساءل -وهو على حق- ويقارن بين سرعة اجتماع مؤتمر القمة عام 1991 والتباطؤ في انعقاده الجديد ولا يفهم شعبنا ذلك إلا على أساس وجود مكيالين.

إن أمل الشعب أن تقاد الشعبية العربية في الأقيانوس العربية بأيد عربية وشرع عربي وبوصلة عربية وعدا ذلك لن يكون إلا منطق المحنة الكبرى فهلا بمؤتمر القمة أن يفكر ويتدبر بالعاقبة... وهل اعتبرتم يا أولي الأبصار.

المحامي الدكتور برهان زريق

اللاذقية/سوريا

### رهان الإندماج العربي

**منذ** أن فتح الإنسان سيرته على سر الحياة، وهو يتساءل عن هذا الوجود وجدواه، وصل يخصص منا شيثان نعيشه ونحياه، ونمضي فيه، ونعمل من أجله، ثم ما هي الغايات الشخصية والمرجوة لمنشئنا وأفعالنا وتصرفاتنا .

وفي الحقيقة لقد كان الجواب على هذا السؤال المشكلة الأساسية التي واجهت الإنسان، وطرحته عليه بقوة في كل العصور، وإن الحل السليم لهذا الإشكال هو الذي صنعا الحياة، ويصنع العالم، وإن هذا الأمر أكثر ما يصدق على الإنسان المعاصر الذي امتلكه العبث والهلع، وران عليه القلق والتمزق واللامعقول.

منوهين استطراداً بأن العلم «ومن ورائه المنهج العلمي الموثق للعلم» عاجز عن إعطائنا الجواب السليم عن ضمير الإنسان وخلاصة، وأن هذا الخلاف رهين بنور العلم إلى جانب نور العقل، ونور الأخلاق ونور القيم الإنسانية...

إن الإنسان يحمل في ذاته وضميره طاقة لا حدود لها، وهذا ما يتيح له فرصاً لا نهاية لها من أسباب وفرص التقدم والارتقاء، وإن كان ذلك رهين بتكامل والتقاء ضميره، بالضمائر الأخرى، من أجل امتلاك الحقيقة الواحدة والقدرة الواحدة،

وفي ذلك يقول "ماكيفر": ((لا يرجى للنظم السائدة أي إتمام ما لم ترتكز على مركب من العادات وأساليب السلوك، وفعاليات الدمج والصهر)).

ولكن ما هي هذه الميكانزمات التي تقوم بفاعلية الدمج، وما هي آليات الالتحام، التي تنسج خيوط الترابط، وأوصال التلاحم، وما هو الاسمنت الذي يضيف على الجماعية البشرية التماسك، ولاسيما أن أي مظهر من مظاهر التلاحم ينطوي على قدره، وأن امتلاك القدرة على صعيد الكون الاجتماعي يوازي امتلاك الطاقة على صعيد الكون الطبيعي<sup>(1)</sup>.

ومما لا شك فيه أنه إذا كان السؤال السابق له وجاهته وأهميته على صعيد الاجتماع الإنساني، فهو من باب أولى ذو وجاهة أهم بالنسبة للاجتماع العربي، وبذلك فالسؤال المطروح هو: كيف تمتلك أمتنا أقصى حد من القدرة على صعيد هذا الاجتماع، وبالتالي كيف ننسج شرايين الحياة وأوصالها وتبذرنا في حياتنا .

نعتقد أن هذا الأمر مرتبط بمشروع مجتمعي متكامل، أي بصياغة الحياة العربية المشتركة في كافة مظاهرها وأشكالها وتموجاتها وتضاعيفها وتضاريسها، وأن امتلاكنا لقوة الأساس هذه.

هو الذي يمكننا من امتلاك قوة الصرح أو ما يسمونه البناء القومي، إذ الجسم الكاسح ينتج رأساً كاسحاً، وبالمقابل فالرأس الكاسح لا قيمة له في جسم كسيح، وبقدر ما تتجذر الحياة وصورها وأشكالها على صعيد أمتنا بقدر ما يعلو البناء السياسي شامخاً وصلباً...

ومما لا شك فيه، أن هنالك مظاهر لا حصر لها لصور التماسك في الجسم الاجتماعي: المواطننة - الحزب - الأسرة - النادي - الجمعية... إلخ.

وإن كان الأهم هنا الكلام عن الآليات التي تقوم عليها صور التماسك دون الوقوف عند دراسة الأوصاف والأشكال الخارجية.

---

<sup>1</sup> - د. حسن صعب: علم السياسة دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1972، ص142.



وعلى ضوء ذلك يمكننا إلقاء نظرة سريعة على بعض هذه الفعاليات  
الدامجة والضاومة.

آلية النظام: وهذه الآلية ترمي إلى ضمان توافق أفعال الأشخاص بعضهم مع  
بعض وائتلاف هذه الأفعال مع إغراض الجماعة.

فالنظام تشوف لحياة أسمى من حياة الفرد، وهو سبيل التقاء الإرادات الفردية  
من أجل الفوز بمزيد من القوة والنجوع، وهذا اللقاء لا يعرب عن الأثرة بقدر ما  
يقود إلى لجمها، وكبح جماح الغرائز، إنه الاتفاق الأكثر دواماً مع الآخرين في سبيل  
إنجاز الغرض المشترك، ولذلك فهو من طبيعة عقلية تحدد مجال ما هو قائم، وما  
يجب أن يكون...

والنظام بهذا الوصف هو الذي يوازن القوى المتصارعة، ويكفل تحقيق حد أدنى من  
الأمن يحبس نوازع الغرائز الفردية الأنانية، وينمي الإحساس بالنظام  
الاجتماعي<sup>(1)</sup>.

والنظام يحوي الحرية، ولا يعارضها، إذ الفرد ليس مجرد دمية في يد المجتمع، بل  
له إرادة ذاتية مستقلة حرة وأصيلة.

والسلطة «وهي أداة تحقيق النظام» لا تستطيع أن تعتمد على القوة المادية وحدها  
لغرض الخضوع، فالخوف «ومهما تكن أساليبه عنيفة وحاسمة» لا يمكن أن  
يضمن هذا الخضوع، أو يفرض استمراره، ولذلك قيل بأن السلطة لا تنشئ  
الخضوع، ولكنه الهدف الاجتماعي الذي تمثله السلطة، ويتقبله الأفراد هو الذي  
يضمن هذا الخضوع ويؤكد.

والسلطة إذ تعتبر إطار الوجود الجماعي في صورته الحالية، فهي تمثل كذلك إطار  
هذا الوجود في صورته المأمولة غداً، إنها إطار آمال الأفراد في المستقبل<sup>(1)</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. طعمة الجرف: مبدأ المشروعية وضوابط خضوع الدولة للقانون، مكتبة القاهرة الحديثة،  
1973، ص38.

وعلى هذا الأساس، فنحن لا نتفق مع "فوكو" في مقولته: ((أن تكون رجلاً سياسياً، فذلك لا يعني توفير المأكل، وتأمين العناية والسهر على تربية ذريتك، وإنما يعني أن تجمع مختلف الفصائل بعضها بعضاً، وتؤلف بين الأمزجة المتضادة، المتطرفون والمعتدلون، مستخدماً في ذلك، مكوك الرأي الشعبي))<sup>(2)</sup>.

والسؤال الذي نطرحه على "فوكو" هو: كيف يمكن أن نجتمع على صعيد واحد المتضادات، وهل يعمل المكوك، وما هي هذه الخيوط ونوعها والأساس الذي تقوم عليه.

ذلك أن الاندماج لا يمكن أن ينشأ من فراغ، وخيوط الالتحام لا بد من أن تقوم على القيمة، وهذا هو التعريف بالسياسة في ثوبها القشيب القائم على التحديد السلطوي للقيمة<sup>(3)</sup>: **Authoritative allocation of values**.

فالنظام يبقى قلقاً باهتاً هشاً ما لم يطم على مستقر يتجذر عليه، وهكذا فقد كان الفكر الإنساني حرصاً على أن يبطن النظام بالعدالة، وهذا ما فسح المجال للجماعات الإنسانية، لأن تستشرق، فستشف آفاقاً جديدة هي التضامن.

آلية التضامن: وكما ينشأ التنظيم عن النظام، فالتضامن قيمة اجتماعية تركيبية تضيف إلى التنظيم مفهوم العدالة، ذلك الحد الأدنى من السلوك الأخلاقي الذي لا مندوحة عنه لاستمرار تماسك الحياة الاجتماعية وتقدمها.

فالعدالة هي إتاحة الفرصة لكل مواطن بأن يحقق غاياته المشروعة، باعتباره الأكفأ لتحقيق الخير والسعادة لنفسه.

---

<sup>1</sup> - د. طعيمة الجرف: مبدأ المشروعية وضوابط خضوع الدولة للقانون، ص 39.

<sup>2</sup> - ميشال فوكو: المفرد والجمع، مجلة الفكر العربي، العدد السابع والخمسون، السنة 3، ص 223.

<sup>3</sup> - د. محمود إسماعيل محمد: دراسات العلوم السياسية، مكتبة الإمارات، العين، ط 2، 1984، ص 22.

والتنظيم هو كفالة اتساق غايات أفراد الجماعة الاجتماعية فيما بينهم، أما التضامن، فهو عدالة وتنظيم، أي هو عدالة في التنظيم، وتنظيم في العدالة... العدالة هي قدرة كل امرئ على أن يستعمل بحرية فاعلياته المختلفة، وتحقيق شخصيته، وإن كنا نريد العدالة بالتنظيم، أي أن يكون تحقيق غايات كل إنسان عملاً مشتركاً، وبالمقابل، فإننا نريد التنظيم، أي إقامة قواعد سلوك ملزمة، وإن كنا نريد التنظيم بالعدل، أي ألا تكون الطاعة إرضاخاً للشخصية وطمساً لها، بل طاعة تقوم على القناعة والواجب، وذلك بأن يجد المواطن في إخلاص الآخرين القدر الموازي لا خلاصة لهم، وفي إطار ذلك يصبح الناس جميعاً متساويين، وفي الوقت نفسه غير متساويين... مساواتهم هي المساواة التي تتطلبها العدالة، ولا مساواتهم هي اللا مساواة التي يتطلبها التضامن، ومع ذلك فاللا مساواة لا تناقض المساواة لأنها مساواة متبادلة، إذ الذين يأمرُونَ تارة يطيعُونَ، والذي يطيعُونَ تارة أخرى يأمرُونَ<sup>(1)</sup>.

ولكن هل يكفي التضامن لأن يكون مكوكاً لنسج خيوط الالتحام، وإسمنتاً ضاماً يوفر مادة التماسك والدمج في الجماعة البشرية، أم أن هنالك ديناميات وفعاليات أخرى، وما هي هذه الديناميات.

آلية الولاء: ومع أهمية النظام والعدل، فهاتان الفعاليتان عاجزتان عن استيعاب مصير الإنسان وحركته الروحية، والبعد المتعالي فيه<sup>(2)</sup>.

ذلك أن الإنسان ينتمي إلى نفسه، وينتمي إلى أمته، وينتمي إلى الإنسانية كقيمة عليا، وباعتباره يحمل تشوفات وصبوات وفلسفية وجمالية وروحية تشده إلى الوجود (البعد الوجودي الانتولوجي للإنسان)، كما أن له بعداً أخروياً خلاصياً

<sup>1</sup> - د. عادل العوا: العمدة في فلسفة القيمة، بدمشق، دار طلاس، ط1، 1986، ص462.

<sup>2</sup> - د. روجيه غارودي: الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها، دار عام ألفين، باريس، ط1، 1992، ص63.

(الخلاص الأخرى)، وفي نظرنا إن الإنسان السوي لا يحقق كماله واتساقه السليم إلا من خلال منظومات وانساق تراعي الأبعاد السابقة.

وفي نظرنا إن الأمة هي الجماعة البشرية الأنضج التي يحقق الإنسان، في كنفها التكامل والاتساق، لما يتوفر بهذه المقولة التاريخية العليا من ديناميات التماسك: الثقافة - اللغة - الذكريات التاريخية - الوجدان المشترك... الخ.

ومما لا شك فيه أن الجماعات البشرية، يمكن أن تقيم الدول على غير قاعدة الأمة، أي على قاعدة الإرادة السياسية، فهذه الفاعلية تلعب الدور الأساسي النهائي في إقامة الجماعة السياسية، ولكن كم هو الفارق بين إرادة سياسية تقوم على توازن اجتماعي قلق، وبين إرادة سياسية تقوم على روح لأمت وضميرها.

ومن جهة أخرى، فمقولة الأمة لا يعني حداً أصماً جاهزاً، بل المسألة مسألة واقعية تختلف من أمة لأخرى في حقائق التماسك، وبالتالي، فبقدر ما تتجذر الأمة حول قيم التضامن والعدل والحقوق الأساسية للمواطن، وحقوقه الاقتصادية، كالعامل وغير ذلك، بقدر ما تتجذر حول هذه الحقائق، بقدر ما تشد المواطن إليها.

يقول "جوزيا رويس": ((الولاء هو إخلاص من شخص لقضية إخلاصاً طوعياً وعملياً كاملاً وغير مشروط)).

فالولاء الوطني، مثلاً يحمل الإنسان على أن يحيا ويموت من أجل بلد، ومن ثم فهذا الولاء يقوم على الالتزام بالواجب، وقبوله قبولاً حراً بحيث تصبح قضية الوطن قضية الشخص بسائق رضاه الصميمي<sup>(1)</sup>.

ومما لا شك أن الولاء منسوب بالعاطفة، ولكنها العاطفة المستديرة بنور العقل والسيطرة على الذات وإخضاع ميولها ورغباتها لموضوع الولاء.

---

<sup>1</sup> - جوزيا رويس: فلسفة الولاء، الترجمة الفرنسية بقلم جاكلين مورو، 1946، ص 18.

هذه نظرة سريعة على بعض صور التماسك والجذور الاجتماعية، وإن كان المهم تحديد الأساس الذي تقوم عليه هذه الصور والأشكال.

وفي هذه الصور نرى من اللزوم الكلام على الحق والقيمة ودورهما في دياكتيك الدمج، ومما لاشك فيه أن الفعاليتين المذكورتين ينتميان إلى أسرة واحدة هي العالم المعياري، باعتبارهما يقومان السلوك، ويضعان الضوابط من أجل ذلك، مع الاختلاف في آلية العمل والأداء.

فالحق قيمة معيارية وأداة للدمج الاجتماعي، ولكنه يقوم بوظيفته على أساس فكرة الجزاء أو الالتزام المادي، وأساس ذلك استشعار ضمير الجماعة حاجة عليا أو شكلاً من أشكال التماسك على قدر متميز من الأهمية، ثم إحاطة الجماعة لهذه الحاجة، وتلك الصورة بسياج خاص من الحماية، مع فرض ذلك بالقوة.

فالقانون يقوم على حقائق موضوعية عامة ومجردة باعتباره يخاطب الأفراد بصفاتهم لا بذواتهم.

ولكن ألا يبدو لنا من هذا التحديد هشاشة الوظيفة القانونية ورماديتها ورتابتها بالمقارنة مع فعالية القيمة حيويتها التي هي حقيقة موضوعية من جهة وذاتية من جهة أخرى... لماذا وكيف؟

القيمة كمال وتشوف ورنو وتطلع وتفضيل وترجيح، وتجاوز للذات وتعال عليها باستمرار، وقوة تمنح روح الإنسان حركة لا نهائية... إنها وثبة ونداء ينبعثان من الذات والصميم، ونور يضيء الأشياء بشعاع صادر عن فاعلية الإنسان الحر، وتأكيد وإبداع مستمرين لوجوده، وتحقيق لأصالة تجربته، وتمثيل لمعنى حضوره في العالم.

وبذلك تختلف الوحدة التي تشيدها القيمة عن تلك التي يسودها القانون، بأن الوحدة الأولى ناشطة وحية وتصور بنسج الحياة وحيويتها، وليست مجردة واختزالية وتمحي الفوارق الذاتية بين الأشياء، عن طريق تعميق خطاب ونموذج معين على الحياة.

أما القيمة، فهي عالم الإرادة المقومة للحياة "شوبنهاور"، ولكنه تقويم متعال وواع وشمولي "شلر" ... وعي العالم، ووعي الذات ووعي لذات الله عز وجل فهو بالنتيجة إدماج الذات إدماجاً متسقاً، وهذا ما يتيح للإنسان الإدراك بأنه مبدأ العالم.

وفي الحقيقة هنالك فعالية تدفعنا إلى صون بعض أشكال الوجود بمزيد من القوام المستمر، وبذلك فالقيمة تتضمن العلاقة الاجتماعية بمعناها الواسع، ولكن القوام<sup>(1)</sup>.

عند القيمة لا يعني «كما في القانون» الجمود والمحايثة والتماهي، بل هو تأكيد الذات في العالم بإضافة عنصر الحيوية إلى القوام، وهذا ما يقودنا إلى صنع الحياة والعالم باستمرار، أو كما يقول "جانكفتش": ((إننا عندما نتجرع الواجب نقوم بعملية جراحية من خلال دفقة عاطفية تقحم في ذواتنا الطبيعية نظاماً جديداً مغايراً لهذه الطبيعة)).

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الوظيفة القيمة أقرب ما تكون إلى الدينامية والإبداع والحركة والأصالة والابتكار خلافاً للقانون الذي يمثل السكون والاستاتيكية والاستقرار.

ونحن لا ننكر أن لكل من الوظيفتين السابقتين موقعها ومجالها ودورها في الجسم الاجتماعي، وأن كنا نؤكد أن القيمة (خلقية كانت أم دينية روحية)، هي الإسمنت الأشد صلابة ومتانة، باعتبارها تضيف إلى المعيار - القوام حيوية التعهد الذاتي.

وفي إطار ذلك نفهم ونفسر المبدأ المشهور الذي أطلقه الخليفة الراشد عثمان بن عفان، والذي فحواه: ((إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن))، نفهم ونفسر ذلك بأن القانون، قادر على إقامة سياج الحماية والردع دون أن يعني ذلك أن

---

<sup>1</sup> - لاحظ الاشتقاقات اللغوية للكلمة: القوام: العدل - القيام: العزم القيام المحافظة والاصلاح.

معراج القانون أكثر فعالية من معراج الأخلاق والقرآن والإحسان، أو ما أطلق عليه الجهد الخلاق<sup>(1)</sup>.

فالإحسان هو الذي خلق شوامخ التاريخ العربي الإسلامي، وعلى يديه تجذر هذا الدين، وترسخ، وانتشر في أصقاع العالم، ولو كانت المسألة مسألة قانون، لما استطاع العرب أن يمتلكوا ناصية التاريخ، وبالتالي فالوازع القانوني مسألة خطر رادع، لا مسألة الشرارة الإيجابية التي تفجر برميل الطاقة في روح الإنسان.

وفي الحقيقة إن أي إدراك سليم للأمر، إنما ينطلق من نسبية الحقائق ومواجهة بعضها ببعض، وفي إطار ذلك نفهم، ونفسر مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الإحسان) بحيويته ودينامية، في مواجهة القوام... الاستاتيكية والسكون والاستقرار المتمثلين في إطاعة أولي الأمر، بحيث لا نبالغ في الأمر بالمعروف على حساب النظام الوطني، وفي الوقف نفسه لا نبالغ في الخضوع للأمر على حساب تحقيق العدل والإحسان والخير والفضيلة.

ومن جهة أخرى، فالقيم تدرج وتتخذ في أهميتها تبعاً للمصلحة الحيوية التي تحميها، وتبعاً للملكة الإنسانية التي تنبثق عنها، وتتأطر بها.

وعلى سبيل المثال، فالقيم الاقتصادية «وهي قيم تخاطب المحسوس» لا يمكن أن ترقى إلى مصاف القيم الروحية، التي تدور في ساحة الضمير والوجدان وتعانق المطلق والمقدس.

فالقيمة الاقتصادية تمتزج بالمنفعة في أدنى مراتب التجربة الإنسانية، وأكثرها انصافاً بأنها تجربة مباشرة، ولكن القيمة - وباعتبارها تشوف ورنو وارتقاء صوب الكمال - لا تلبث أن تتعارض مع المنفعة بمعناها الحسي<sup>(1)</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط6، 1985، ص613.

أجل لقد أردنا من هذا التداعي والاستطراد الرد على بعض المنهجيات والدعاوى المعاصرة التي تدلل بأن الاقتصاد هو الطريق إلى الوحدة العربية<sup>(2)</sup>. ونحن لا ننكر دور الفاعل الاقتصادية في عملية الدمج الاجتماعي، وبمعنى أوضح التقارب الاقتصادي (العدالة التوزيعية) كبوابة للتقارب الاجتماعي. ومن جهة أخرى فنحن لا ننكر دور القوى والروابط الاقتصادية، والعلاقات الإنتاجية وثورة المواصلات، وحركة التصنيع والتحديث، والحركة التجارية، دوره هذه الفعاليات في مد أوصال الحياة وشرايين الاتصال سواء على صعيد الجماعة البشرية الواحدة، أم على صعيد الروابط الدولية. فالقوى الاقتصادية، وتقدم التقنية والمواصلات الحديثة أدت إلى توسيع وتركيز سلطة الدولة، وإلى دمج وتعميق الحياة السياسية في الدولة المعاصرة. وفضلاً عن ذلك، فهذه العوامل أدت إلى تطوير وتوطيد وتعميق الروابط على الصعيد الدولية، في مظاهر ومعالم متعددة، منها على سبيل المثال الشركات المتعددة الجنسية. زد على ذلك، فمن الضروري تطوير الوطن العربي تطويراً اقتصادياً متدرجاً يخلق شبكة من شرايين التقنية، وصروح المؤسسات والأجهزة والارتباطات والمصالح الاقتصادية الواحدة، والتحويلات والإنجازات والمشاريع الإنمائية المتكاملة. فهذه الإنجازات هي أحد مظاهر عفوته وبنيته الجسد الاجتماعي العربي، وإن كان ذلك يبقى في حدود الشرط اللازم، ولكنه غير الكافي، كما يقول المنطقة.

---

<sup>1</sup> - د. عادل العوا: العمدة في فلسفة القيم، ص471.

<sup>2</sup> - د. محمد عابد الجابري: مقال موسوم بعنوان: آفاق المستقبل العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 156، 1992/2.



وخلافاً لما أكدته الليبرالية والماركسية، فإن العقلنة والتقنية الاقتصادية الواحدة للعالم لا تستطيع أن تزيل الحدود بين الدول وتطمس هوياتها القومية وتزيل ثقافتها المتعددة<sup>(1)</sup>.

فالفاعل السياسي ينفعل بعناصر لا حصر لها، منها الاقتصاد، ولكن يبقى الفاعل السياسي، والشعور القومي يتابع طريقه بصرف النظر عن المصالح والمنافع الاقتصادية، وقد كان لشعوب "الساارودا نترزيغ" الخيار بين الرفاهية الاقتصادية، والقومية، فصوتت بشكل ساحق للثانية، بل ونجد حالياً "كيبك" تسعى للانفصال عن كندا دون أي اعتبار للضرورات والمصالح الاقتصادية<sup>(2)</sup>.

كما ونجد قوى وعلاقات الإنتاج والروابط الاقتصادية ووسائل المواصلات، وحركة التصنيع في إطار نظام اشتراكي واحد، لم تقو وحدة يوغسلافيا، أو دول أوروبا الشرقية، وتجعلها أكثر رسوخاً ومتانة، مما كانت عليه في الماضي<sup>(3)</sup>، بل إننا نجد أمام أعيننا انهيار هذه الوحدات الاقتصادية التي لم تقم على احترام قاعدة القومية.

حتى في الدول القومية العريقة الجذور التاريخية كفرنسا، وبريطانيا وإسبانيا، في الفنلندرز والألزاس وبريطانيا، وحتى في اليروفينس، في ويلز، واسكتلندا، في مناطق الكاثلان والباسك، وبين الفلامينغ والوالون... إلخ.

رأينا ابتداء من نهاية الحرب العالمية الأولى ظهور اتجاهات جديدة تنادي بالانفصال وحرية تقرير المصير، رغم الروابط التقنية والمصالح الاقتصادية القومية الواحدة التي كانت تنمو باطراد في هذه البلدان، هذه الحركات الانفصالية كانت تنمو في الواقع، مع نمو واتساع هذه الروابط التقنية والاقتصادية<sup>(4)</sup>.

<sup>1</sup> - د. نديم البيطار: النظرية الاقتصادية والطريق إلى الوحدة العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت ط1، 1978، ص71.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص43.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص50.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص52.

فالاقتصاد ليس الحلم العالمي وقدره، والإنسان لا يمكن اختزاله إلى الظاهرة الاقتصادية وإلغاء البعد المتعالى فيه، وإن الكومينوتية الأوروبية والسوق الأوروبية المشتركة، «وهي أكثر محاولات الدمج الاقتصادي الحديثة نجاحاً» لم تعجز فقط، رغم نجاحها النسبي، عن الدمج نحو أي شكل من أشكال الاتحاد السياسي، بل إن نجاحها الاقتصادي نفسه، يعود «في الواقع» إلى حد كبير، على الأقل إلى أسباب سياسية مهدت أو دفعت إلى ظهورها<sup>(1)</sup>.

وأخيراً، فإننا لا نجد في الواقع، وحدة سياسية تاريخية واحدة تبحث عن العامل الاقتصادي أولاً، أو تدل على سيادة هذا العنصر السياسي<sup>(2)</sup>.

بعد هذا الاستطراد الطويل نسبياً عن فاعلية الدمج الاقتصادي، يمكننا النعي على المفهوم الاقتصادي للدمج العربي بأنه لم يقدم للوحدة سوى أضعف الوسائل نجوعاً، وأقلها تضحية وجهداً مبدعاً خلاقاً، وأبعدها استغناء عن ينبوع القيم – الإنسان الحر.

وإذا كان هذا هو شأو القيم الاقتصادية «وهي قيم فؤادها وقوام أمرها وجوهرها الأخلاق»، فللقيم الروحية «وهي مستقلة عن الجسد» تنضوي على فهم الحقيقي والجميل والعادل، ويتعين بذلك على القيم الأخرى أن تتراجع أمامها، وأن يضحى بها في سبيل القيم الروحية المذكورة.

ذلك أن نظام القيم الروحية هو النظام الرفيع الذي ينبجم عن تدخل الضمير أو الوجدان الأخلاقي، كي يحقق الشخص رسالته، ويتطلع بمسؤوليته ومصيره، وهذه الرسالة تركيب يشمل جميع الإمكانيات للارتقاء بالواقع وتصعيده والفوز بالحياة الروحية<sup>(3)</sup>.

<sup>1</sup> - د . نديم البيطار: النظرية الاقتصادية والطريق إلى الوحدة العربية، ص 91.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 10.

<sup>3</sup> - د . عادل العوا: العمدة في فلسفة القيم، ص 430.

إن القيم الروحية أساسها المقدس، ولذا فهي تهيمن على سائر القيم، وهذا ما حدا "هو فدينغ" للقول بأن الدين هو صيانة القيم<sup>(١)</sup>. وهذا ما أكده "لافيل" بقوله: ((أن الكائن المحدد لا يستطيع طرح ذاته إلا بإضافته إلى كائن لا نهائي)).

هذه القيمة هي نداء المطلق، وهي راسخة في باطن الكائن وصميمه، ويحدد "شارل لالو" هذا المطلق بأنه في نظر حياة العقل هو الدين، وفي نظر حياة العاطفة هو الحب، وهو في الحياة الفاعلة الحرية<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا فإن المسعى القيمي المؤمن بالمطلق يرقى بالفكر الديني فوق العقل وفوق التجربة، ويجهد بالحب لتجاوز الواقع والأثرة والرتابة، ويتعد بالحرية عن تخوم الحتمية، تخوم الضرورة الطبيعية أو على الأقل تخوم القانون الآلي.

وفي الحقيقة لقد ركزنا على هذه القيم الروحية لسبب بسيط هو أن أي مشروع وحدوي نهضوي، لا يمكن أن يقبض له النجاح إلا بالمحورية الأخلاقية والشرارة الإلهية في قلب المواطن، ولعل سقوط الاتحاد السوفيتي أكبر دليل على أن القوة المادية وحدها ليست كافية على إشادة الممالك والحضارات والاجتماعات الإنسانية، بل لسنا نغالي أن نقوم بأن الحضارة الأطلنطية ذاتها ابتدأت العد الانحداري في السقوط، بسبب عدم اكتراثها بالقيم الروحية والخلقية، وأن بإمكان الأمة العربية والإسلامية أن تقود العالم بالاستناد إلى فلسفة القيم لديها.

وبالطبع فنحن لا نحلق في عالم الخيال، بل نحدق في أعماق الأرض والواقع، ودليلنا على ذلك أن المشروع النهضوي الناصري «وهو مشروع لا أحد يجادل في إخلاصه وتقدميته» طرح هذه القيم النابعة من الأديان، حسب التعبير الحريفي لميثاق العمل الوطني.

يقول الميثاق ونقول التابعة من الأديان لأن قلب المواطن العربي العامر بالدين هو الخميرة التاريخية لكل ارتقاء، وهو ينبوع القدرة غير المحدودة بالإمكانات.

<sup>1</sup> - د. عادل العوا: العمدة في فلسفة القيم، ص 371.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 374.

وبيان ذلك أن الظاهرة الدينية هي التي تخلق الظاهرة الاجتماعية، فالحب والدين المقر في الحب هو الذي يقيم اتصالاً عاطفياً مع الآخرين، فينجب المجتمع من حيث التصاقه بأعمق صفاته، وهي صفة التعالي. ولا مناص من أن يكون هذا التعالي واقعاً وأن يتجسد في كيان مرئي، وملموس وأن يستند إلى تعال مطلق، وألا يبقى قانوناً مجرداً عاجزاً عن آثاره قبول الكائن بأسره<sup>(1)</sup>.

إن الظاهرة الدينية هي التي تخلق الظاهرة الاجتماعية، وليس العكس، وهذا ما أكده علماء اجتماع المدرسة الفرنسية، حيث أبرزوا تكامل الحادث الاجتماعي مع الحادث الديني.

إن العبادات في الإسلام مثلاً «حسب تحديد الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق»، هي مظهر - تزكية النفس وقوة مراقبة الله التي تبعث على امتثال أوامره، وأن أحكام هذه العبادات واردة على علاقات اجتماعية بين الأفراد، وليس على مجرد علاقة الفرد بربه<sup>(2)</sup>.

وهكذا تبدو أهمية الظاهرة الدينية، لاسيما إذا أصبحت جزءاً من نسيج الجماعة، فعندئذ لا مناص من التعامل معها حقيقة موضوعية من حقائق الحياة تفرض ذاتها بهذه السمة، وهذا ما أكده "ماركس" بقوله: ((الدين عند الكثيرين هو النظرية العامة لهذا العالم، وهو مجموعة معارفهم الموسوعية، وهو منطقتهم الذي يتخذ

---

<sup>1</sup> - مارسيل دي كورث: فلسفة العادات الأخلاقية المعاصرة، دار النشر الجامعي البلجيكي، 1944، ص376.

<sup>2</sup> - د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 1986، ص285..

شكلاً شعبياً، وهو موضوع اعتزازهم الروحي، وموقع حماسهم، وهو أداة قاصصهم ومنهجهم الأخلاقي<sup>(1)</sup>.

وفي نظرنا أن الإسلام «حضارة وحقيقة تاريخية واجتماعية» صاغ الحياة على هذه الأرض العربية، ومن ثم فلا يمكن لأي باحث أن يتجاهل هذه الحقيقة الموضوعية التي تعمقت وجدان الأمة العربية، فأصبحت معقد اعتزازها الروحي، وموقع حماسها وموئل تراثها وفلسفتها الخلقية.

يكفي أن ندلل بذلك فيما قاله "المطران جورج خضر": ((أن هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية، ونحن ننتمي إليها))<sup>(2)</sup>.

وقول المفكر "أمين نخلة": ((كأن الإسلام إسلامان: واحد بالديانة، وواحد بالقومية واللغة، كأننا العرب جميعاً مسلمون حين يكون الإسلام اهتداءً بمحمد، وتمسكاً وكلفاً بلغته))<sup>(3)</sup>.

يبقى السؤال واحد جدير بالطرح وهو: ما دور الفاعل القيمي في وجود ومضاء المشروع السياسي.

بالطبع نحن نفترض الإجابة عن هذا السؤال في إطار مشروع الدولة بالمعنى الفني والدقيق لهذه الكلمة.

أي بصفتها مؤسسة أو مشروع له صاحب هو الشعب، وقد تم في هذا المشروع الفصل بين الشعب والوكيل الذي يمارس السلطة (الحاكم) لصالح صاحب المشروع... ففي هذا المشروع لا تذوب الدولة بإرادة الحاكم أو تتصهر فيها أو تتوقف عليها، وإنما هي كيان دائم يقوم على حقيقة موضوعية وراسخة تتجاوز شخص الحاكم، وهذا ما أكده "بولان" بقوله: ((الدولة هي حضارة بأسرها وقد

---

<sup>1</sup> - د. رفعت السعيد: الإسلام السياسي، مقال منشور في مجلة قضايا فكرية، الكتاب الثامن، القاهرة، 1989، ص15.

<sup>2</sup> - الناقد العدد الخامس والعشرون، تموز، 1990، ص18.

<sup>3</sup> - الحوار القومي الديني: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1989، ص123.

استجمعت قواها، وأفصحت عن نفسها في مؤسسة أو جملة متكاملة من المؤسسات والنزعات<sup>(1)</sup>.

وفي نظرنا أن عملية الإفصاح هذه التي تترجم الوضع الحضاري إلى وضع قانوني هو عملية خلاقة مبدعة تقوم على القيمة.

هنا يفترض رجال القانون والسياسة أن الأفراد «ينشئون الدستور» في حال سيادة مطلقة يمتلك كل فرد فيها جزءاً من الإرادة العامة، وما دام الأفراد ينشئون فكرة الحق عند المتبع (الدستور)، فهم في حال الخلق الأول، أي في حال إرادة حرة ومبدعة وذاتية تتشوف لفكرة الحق، وتقدر مدى تماسها مع العدل والتقدم، وغير ذلك من القيم، ثم تمنحها بالإلزام القوام والتحديد، وتعتبرها مرتكزاً للاندماج المجتمعي، والتفاعل.

وحالما تنشأ فكرة الحق، تتراجع فكرة السيادة إلى الكون<sup>(2)</sup>، ويصبح الأفراد أصحاب السيادة يخضعون لفكرة الحق التي تستمد قوتها من ذاتها، أي من كونها تصورا ارتضته الجماعة.

ولكن فكرة الحق هذه نشأت تعبيراً عن توازن اجتماعي معين<sup>(3)</sup>، ولذلك فهي قلقة بسبب قيامها على حامل قلق وستغير، وتغدو بحاجة ماسة إلى تجديد شبابها بجرعة الحركة المستمدة من أساس جديد للتوازن الاجتماعي.

وهكذا يعود المشروع السياسي لينوس بين قطبي الوجود: القيمة والقانون. القيمة - كحرية وإبداع ترنو إلى الاستقرار وخلق القوام بوسيلة إنشاء فكرة الحق، وبالمقابل فكرة الحق تصاب بفقر الدم والتجلط والتخثر، إذا لم تبحث عن جرعة

---

<sup>1</sup> - ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، ترجمة د. عادل العوا، دمشق دار طلاس، ط1، 1988، ص300.

<sup>2</sup> - جورج بوردو: الدولة، ترجمة د. سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 1985، ص61.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص85.

الحركة، وبالتالي تغدو السعادة كما يلي: السكون يرنو إلى الحركة، والحركة تسعى لأن تتوضع في سكون، وهكذا دواليك<sup>(1)</sup>.

والمشروع السياسي السليم في نهاية المطاف رهان تحقيق التوازن الدقيق بين هذين القطبين.

وفي قطرنا أن المشروع السياسي العربي لا يخرج عن حقائق الحياة، ولا يمكن له إلا النوسان بين حدى القطبين السابقين.

وهذا المشروع يجب أن يقوم على فكرة الوحدة باعتبارها الفكرة المفتاح الأم، أي باعتبارها قيمة يتم التخلق حولها والتجذر على أساسها، وتتسج الخيوط واللحم الضامة التي تتفرع عنها وتتفق مع أهدافها، بحيث ترقى هذه الفكرة إلى مستوى العقيدة والإيمان والتضحية بالذات من أجل تحقيقها.

وخلال المسيرة الوحدوية يجب الاستعانة بالآلية القانونية كفعالية للدمج والصهر من خلال تبني سياسية تشريعية عربية مشتركة تتبنى معطيات وحقائق الوجود العربي ومصيره ومستقبله وتقدمه.

أليس من المؤسف جداً أن مشروع الاندماج الأوروبي - وهو مشروع يقوم على المفارقة القومية.

قد حقق ما حققه من إنجازات الدمج في حين أن مشروع الدمج العربي «وهو مشروع متزامن من مع المشروع الأوروبي» لا يزال يحبو ويتدحرج وينزلق في حفر جهنمية.

وبالطبع فآلية القانون كفعالية للدمج العربي «لا سيما المظهر القانوني القطري» يجب أن تخضع لفعالية القيمة التي تمنحه بين الفينة والأخرى جرعة تجديد الدم في إطار المشروع العربي النهضوي الذي تعمره فكرة التقدم والحدثة، وتعززه المحورية الأخلاقية المؤسسة على الشراة الإلهية والقيم الروحية النابعة من الأديان، بحيث يستشرف هذا المشروع الأنسنة والحقوق والحريات الأساسية للمواطن، فهذه هي المظاهر والمحاور الأساسية للتجذر الاجتماعي التي يجب أن يتم

<sup>1</sup> - جورج بوردو: الدولة، ص 81 وما بعدها.

الدمج على أساسها، كل ذلك من أجل إقامة المجتمع العربي الطبيعي<sup>(1)</sup> الكلي المدني<sup>(2)</sup> المتذرر<sup>(3)</sup> العلائقي<sup>(4)</sup> المؤسساتي<sup>(5)</sup> المتحرر من الكهوف الاجتماعية (العشيرة - القبيلة - الطائفة... إلخ)، والكهوف العقلية (القطرية والإثنية)، وكهوف السوق (الربوية المرتبطة بآلية السوق العالمية وتبعية الأطراف للمركز الإمبريالي). إنه المجتمع العربي الهوى العربي المسمى العربي الفؤاد<sup>(6)</sup>.

المحامي الدكتور برهان زريق

- 
- 1- الذي يتخلق، وينمو وتتسع خيوطه من خلال الثقافة العربية.
  - 2- أنظر في خصائص المجتمع المدني جان لابييار: السلطة السياسية، ترجمة الياس حنا الياس، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1983، ص71.
  - 3- القائم على المواطن المجرد المتمثل في أي وصوت انتخابي.
  - 4- القائم على الثقافة وعلاقات العمل والإنتاج.
  - 5- على أساس العلاقة بين الحرية والنظام.
  - 6- القائم على المؤسسات الفوقية القومية والإيديولوجية المنظمة للبنى الاجتماعية الأنفة الذكر.



## في ذكرى الوحدة نزول الجبال ولا نزول أمتنا حظ أمتنا من المنعة في حظها من الوحدة

٣٩٥ مجيد أغر... على الزمان... يوم العروبة... يوم الوحدة لعام 1958 .  
تجلت الدنيا تألق الشعب العربي ليستجمع قواه مستبصر وعيه يستنفر شحنة  
الوجدان ينتفض في أعظم تظاهرة أخلاقية خلّاقة فيفصح في إجماع كاسح  
وتصميم أكيد من أجل عمل تاريخي إقامة المتحدة كنواة نووية للأمة العربية حماية  
لطموحها أمينة على رسالتها وتجسدياً لإحساسها بالأرض بالسماء تعبيراً عن قيم  
الحب والرفيعة العزة المنعة استجابة للشوق اللامتاهي من أجل أخي له لا عليه...  
قراءة يوم العروبة هي قراءة العقل التاريخي كغير عقل واع لحركة الأمة  
لمصيرها.....  
العقل التاريخ يقرأ يوم العروبة بالتفكير والتعبير... باستخلاص المعاني والعبير  
معززاً ذلك بمعناه وعزم بإرادة التغيير.  
وحدثنا دراما عظمى للمشروع الروح العربية في مغامرتها التاريخية ونبتها الحية  
للتقدم وللعطاء....  
أمة النبا العظيم، الأمينة على الذكر والمختارة لخالص البشرية....  
أمة النبا العظيم، قدرها عظيم مسيرها عظيم تحديها للحياة أعظم جدلها مع  
التاريخ والنفس والعقل أعظم وأعظم....

هكذا جدلية الأزواج عليها تطرح وعليها فقط: روح/مادة- عقل/نقل... شريعة/حكمة... دين/دنيا .

أمتنا أمة النكبات أمة الأحسن وبقيت شامخة بكبرياء تزول الأطواد ولا تزول تنهد الجبال هنا ولا تتزعزع أو تريم...

طريق الوحدة شاق وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم والحضارة تزكو وتمور بالتحدي والمعوقات... حكمتنا هذه تتسال من فم قائلها: ((أمامكم عقبة كؤود لا يقطعها إلا المخفون زمان صعب يتملك به الفقه يتغلب الظلمة))....

الوحدة شعبي يتجمع قواه ينتفض فالمسؤولية إذأ باهظة وعامة على كل عربي... والعربي العادي هو صانع العروبة الوحدة وليدة الحمل الدؤوب فعل الصيرورة نتاج التراكم الجمع لا الطرح.

قعيدة (المهرولون) كمثال وكصفحة للسقوط مكوك، خياطة ينسج العروق المنطق العام الوجدان العام التحدي العام....

هكذا أيضاً فيروز تشدو، صوت أم كلثوم يصدح، وهكذا دواليك... ((دعني أدون أغاني الأمة الفلكلور لا يهمني بعد ذلك فعل السياسة))، (مفكر إيطالي)...

الحركة (الفاعل السياسي) في الكون (أموال المجتمع) لا ينفع الرأس الكاسح في الجسم الكسيح: ((سوسيولوجيا اليوم سياسة الغد))، كما قال "بوتول"، الدستور الشكلي رافعته الدستور الضمني (الحياة) والمجتمع ساحة مغناطيسية السياسة إبرتها الدولة للعمران كالصورة للمادة "ابن خلدون" الشجرة فرعها في السماء بأمل راسخ في الأرض البناء ينهار لضربة بسيطة وهو على شفا جرف عار الوطن ليس قطعة طين من حقيقة عليا بالدم يشاد بالعرق يبنى.

وحدثنا دورة دماء ومسرى واحد للحياة كما كان "البغدادي" يفعل ينتقل حرّاً إلى الأندلس ثقافة واحدة هذه بضاعتنا ردت إلينا هكذا يقول البغداديون حول العقد الفريد لذلك كنا أقوياء أعزّة كرماء...

وحدثنا عقوبة الحياة تلقائية الاجتماع لا مناط ذلك شبكة الحياة أوصال الحياة عروق الحياة أداة ذلك جهد كل عربي...

الحركة (الفاعل السياسي) تسريع العنوية...والطبيعة ليست عقلاً ذا أهداف البشر ليسوا كالنحل بالغريزة يتحركون ارتقاؤنا نحو الوحدة بالتسامي بالفاعل الإرادي دينامية الغاية بفعل تاريخي بعامل سياسي بالكتلة التاريخية بالمنطق العضوي...

لا محيص عن مشروع إنهاضي لعملية الصهر الدمج الأكبر الحامل الإنسان كرامته حقوقه حرياته مجتمعه المدني المحورية الأخلاقية الشرارة الإلهية تتفجر في القلوب الديمقراطية الخيار الحضاري...

النواة النووية لكل ذلك هاجس همّ وحدوي مؤرق لا يكلّ ولا ينام لا يملّ أنا متفائل تفاؤلي كبير محمول على التاريخ الاجتماع ثوابت الحياة وطني حقيقة كبرى عظمى لا عبث أو أوهام لغة تاريخ اقتصاد موقع حضارة حدود أحفاد أسرة انتماء عمل ترابط تآخي جيرة أهل أصدقاء..

أي استفتاء عام فالنتيجة مذهلة لصالح الوحدة لا عطالة ذاتية في أمتي...عاهتنا في السياسة والعدو...

أعداء الوحدة أبدأ متربصون... "أبرهة الأشرم" ... المغول التتار الصليبيون...حديثاً كثر ضد محمد علي... عرابي... الكيلاني... المشروع الناصري... تجويع الشعب العراقي... محاصرة ليبيا... الموقف من الوحدة اليمنية... نظام الشرق الأوسط الجديد.

ما أشبه اليوم بالبارحة...أبو رغال- وما أكثر حكامنا البورغاليين- يُطأطئ لأبرهة، وخزاعة تخرج على مشروع قصي جد الرسول ﷺ المقرئ (المجمع)... ويا للعجب الحفيد رسول الرحمة ﷺ يكمل مشروع الجد التوحيد في الإسلام توحيدان عقيدي سياسي هذا ما قاله الرسول ﷺ لعمه: ﴿يَا عَمَاهُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَعْطُونِيهَا تَدِينُ لَكُمْ الْفَرَسَ﴾.

"خزاعة" لغة الانفصال ظلالها الاشمئزاز من الانفصال سواء بسواء كفعل الشعب السوري عبر عن الخروج بالانفصال برائحة أكره..

الدمج العربي قديم قبل التاريخ فرشه بشرية عربية غطت وطني وكان التفاعل مع الأرض وكانت الحضارة الآشورية البابلية الكنعانية الآرامية... الخ. حضارات متعددة في المظهر الجوهر واحد ثقافة واحدة وكان مد الإسلام فكانت أعظم عملية صهر في التاريخ على الطريق السابق تغير المضمون جدل العام (الإسلام) مع الخاص (الحضارة المحلية) والعكس وكان التتويج الحضارة العربية الإسلامية..

التوحيد قار ثاو في الضمير الجمعي للأمة... منذ كندة وما قبلها دول العربية الجنوبية (اليمن) قريش المناذرة الغساسنة الخلافة الأموية العباسية صلاح الدين المماليك...

لم ينقطع هاجس التوحيد هكذا قول المغيرة بن شعبة لرستم عظيم الفرس أصبح لنا رسالة.

الخليفة العباسي ضعيف لكنه رمز لأمة... هكذا يقبل عضد الدولة أقدام الخليفة الأول قوي بسيفه الثاني رمز الأمة وهكذا الأمراء بالولاء لسلاطين المماليك. خط التفاعل السياسي لم يتقطع وكذب المحترمون الانفعاليون، الوحدة الثقافية مطلقة مثل بسيط على ذلك، قول البغداديين حول العقد الفريد بضاعتنا ردت إلينا إذا ما يكتبه الأندلسيون عين ما كتبه البغداديون.

لا تنكر الاختراق الحديث الاغتراب الثقافي محاولات الإقصاء التهميش الطمس الهوية لكن ذلك (الصاد جهاز المناعة-الأنثيوتيك) الثقافي أضعف من عقاب الجو هكذا أنا متفائل الدمج الروحي المعنوي القيمي عمل يومي على أرض هذا الوطن وثقافة اليوم سياسة الغد حيث ستدق الساعة وتحمل الحجارة على كامب ديفيد وعلى أوصلو وعلى النظام الدولي كما حملتها انتفاضة الحجارة وكما حملها الشعب السوري على الانفصال وكما حملها الجاهليون على "أبي رغال"، أدبنا النضالي في الجاهلية بلور طقساً وطنياً مفاده رمي أبي رغال بالحجارة تماماً كمناسك الحج وطقسنا الوطني يرمي التطبيع بالحجارة حقيقة ومجاز كمجاز الشعب المصري في جنازة الحزن العظيم وجناز كامب ديفيد.

في جنازة السادات "بيجن" ومثله معه كله من الأعداء، وجنازة الحزن العظيم  
الملايين الباكية بالقلب المولع، يوم رحيل عبد الناصر.  
هذه بانوراما الأمة فينمولوجيا الروح نحو الارتقاء نحو الوحدة الماضي يفسر  
الحاضر والحاضر يرهص للمستقبل هكذا تتداعى الأحداث تترابط نتجادل  
الماضي ما أثبتته بالراهن خيوط النور تتدافع مع خيوط الظلام.  
والوحدة توأم المنعة جوهر التقدم والقطرية ولانحطاط.. الانفصال السياسي  
توأمه الانفصال الثقافى تماماً كما فعل عمرو بن الحي يأتي بالأوثان إلى الكعبة  
وهكذا الانفصاليون الجدد انفصال سياسي وثقافى اغتراب عن الأمة لكنها  
عاصفة وستزول ما دام سيف الإسلام في غمد العروبة تهب الرياح على الجبال  
وعلى الأمة تزول الجبال وتبقى الأمة شامخة باذخة ونمتشق الحسام العربي  
بمساع خالد وسعد- من غمد الإسلام وترفرف الأعلام العروب على وطني  
الحيب.

المحامي الدكتور برهان زريق



## جدلية الدائرة العربية مع الدائرة الإسلامية من الوجهة الجيوسياسية والجيواستراتيجية والحضارية

في هذه الساعة التي أعانق فيها الموضوع، أصخت السمع إلى تعليق صدر عن إذاعة لندن حول الانتماء الحضاري لتركيا كأسباب دعت إلى رفض قبولها في الأسرة الأوروبية، وهنا تذكرت مقولة "ريمون بولان" المدللة: ((بأن الدولة حضارة بأسرها، وقد استجمعت قواها، فأفصحت عن نفسها في مؤسسة أو مؤسسات)).<sup>1</sup>

وفي الوقت نفسه تذكرت مقولة "صامويل هنتجتون" الذائعة الصيت حول تقسيمه المسكونة إلى ثماني حضارات، ثم استشرافه واستشفافه لأحداث المستقبل على أساس الصراع بين هذه الحضارات.

ومرة ثالثة تذكرت مقولة "فوكوياما" المدللة بنهاية التاريخ، وأن مركبة الغرب بقيادة الولايات المتحدة هي التي تقود قاطرة العالم، وأخيرا محاولة إسرائيل «بخطاب "شمعون بيريز الشرق الأوسط الجديد» أن يكون لها خطاب عالمي محمول على

---

<sup>1</sup> - كتابه الأخلاق والسياسة، ترجمة د. عادل العوا، دمشق، دار طلاس، 1987، ط1، ص301.

ثقافتها التلمودية الممزوجة بالفكر القومي الاستعلائي المستقى من الفكر القومي الشوفيني الأوربي.

وبالطبع فالفعل الحضاري العربي لا يعدم وجود لمعات بازغة استشرفت فاستشفت آفاق المستقبل وأبعاده الاستراتيجية العميقة، ومن هؤلاء "الدكتور جمان حمدان والدكتور كوثراني والمفكر الكبير مالك بن نبي"، وسواهم.

وعلى صعيد التنظير الإيديولوجي، يمكن القول إن الرئيس جمال عبد الناصر استطاع أن يكسب قصب السبق في هذا المجال من خلال ربطه ربطاً محكماً بين العروبة والإسلام، ثم ربطه بين الدائرة العربية والدائرة الإسلامية، وإبرازه أهمية الدائرة الإفريقية بالنسبة لمصر.

وفي هذا الصدد لابد من تسجيل الملاحظتين الآتيتين:

1 - عندما تكلم الراحل عبد الناصر عن الدائرة العربية قصد بها مدلولاً حضارياً وثقافياً لا جغرافياً فحسب، أي قصد منها الأمة العربية كشخص جماعي تاريخي ثابت وفاعل ومستمر، وله خصائصه الخاصة ودوره ورسالته المعينة عبر التاريخ.

2 - إن إبراز الدائرة الإفريقية لا يعني الخضوع لطغيان الجغرافيا وحتميتها، وإلا كان بإمكان عبد الناصر أن يتكلم عن الدائرة المتوسطية، على خلاف ذلك فالدائرة الإفريقية بالنسبة لعبد الناصر والأمة العربية ذات مدلول حضاري وثقافي وروحي وجيو سياسي وجيو استراتيجي وجيو تاريخي لسبب بسيط هو أن ثقل العرب في إفريقيا، إضافة إلى أن هنالك كتلة لا يستهان بها من المسلمين في هذه القارة.



ماذا تحدث عبد الناصر عن هذه الدائرة؟

يقول عبد الناصر<sup>1</sup>: ((هذا عن الدائرة الأولى التي لا مفر من أن ندور عليها، وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقاتنا، وهي الدائرة العربية، فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية، وهي دائرة القارة الإفريقية، قلت إننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الإفريقيين... لا نستطيع لسبب هام وبديهي هو أننا من إفريقيا.

ثم تبقى الدائرة الثالثة... الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات والتي قلت إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات.

ولقد ازداد إيماني بمدى الفاعلية الإيجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامي بين جميع المسلمين)).

واستطرد عبد الناصر القول في فلسفة الثورة متعرضاً لمسألة الحج لا على أساس أنه تذكرة لدخول الجنة، بل كقوة سياسية ضخمة ومؤتمر سياسي يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ورجال الرأي فيها وعلمائها في كافة أنحاء المعرفة وكتابها وملوك الصناعة فيها، وتجارها وشبانها ليضعوا في هذا البرلمان الإسلامي العالمي خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونهم حتى يحين اجتماعهم من جديد بعد عام... يجتمعون خاشعين ولكن أقوياء.... مؤمنين أن لهم مكاناً تحت الشمس يتعين احتلاله في هذه الحياة.

---

<sup>1</sup> - جمال عبد الناصر: فلسفة الثورة والميثاق، دار القلم، بيروت، 1970.

ويستطرد قائلاً: ((و حين أسرح بخيالي إلى المسلمين في الهند والصين والملايو وسيام وبورما والباكستان والاتحاد السوفييتي، إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة، أخرج بإحساس كبير بالإمكانات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون هؤلاء المسلمين جميعاً، تعاوناً لا يخرج عن حدود ولأهم لأوطانهم الأصلية، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة)).

هذا التأسيس للإسلام تأسيساً محمولاً على العروبة كركن أساسي فيه يذكرنا بتأسيس عبد الرحمن الكواكبي في كتابه أم القرى، إذ دعا إلى رابطة إسلامية يلعب فيها العرب دوراً هاماً بحيث يكون الخليفة منهم<sup>1</sup>.

وهذه العلاقة بين الدائرة العربية والدائرة الإسلامية، تكلم عليها "الدكتور كوثراني" والمفكر الكبير "مالك ابن نبي"، صاحب خط طنجة- جاكرتا، ذلك التأسيس السياسي على الفاعل الحضاري الذي هو الحضارة الإسلامية، وبالتالي ففي إطار الدائرة الإسلامية الكبرى، هنالك خصوصيات حضارية عربية وغيرها.

هذا وإن أي قبض على القدرة في أية ظاهرة من ظواهر المتكون الاجتماعي أو الطبيعي، هذا الأمر لا يتم إلا بسبر تلك الظاهرة والقبض على مفتاحها، وهكذا تغدو الحاجة ملحة لتقديم تحليل سريع في لاند سكاب "اللوحه الطبيعية" للعالم الآسيوي والإفريقي الذي تتواجد فيه الدائرتان العربية والإسلامية<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - د . رضوان السيد: الإسلام والانتماء العربي، مقال منشور في مجلة العربي الكويتية، عدد آذار 1957.

<sup>2</sup> - أخذت هذه المعلومات من مجلة السياسة الدولية، عدد 120 أكتوبر 1997، مقال الدكتور محمد عبد الشفيق عيسى الموسوم بعنوان "العالم الإسلامي.. مجالنا الحضاري الجديد- نظرات أولية".

- ✓ الصين.
- ✓ مجموعة بلدان الشرق الأقصى المسماة بالجيل الأول للبلدان حديثة التصنيع وهي أربع: كوريا الجنوبية - تايوان - هونج كونج - سنغافورة، وهذه المجموعة تنتمي بشكل عام إلى العالم الصيني بتراثه الكونفوشيوسي.
- ✓ مجموعة بلدان جنوب شرق آسيا المسماة بالجيل الثاني للبلدان حديثة التصنيع، وهي أربع:
- ✓ إندونيسيا: 90 بالمائة من سكانها مسلمون.
- ✓ ماليزيا: 55 بالمائة من سكانها مسلمون.
- ✓ الفلبين: أقلية إسلامية كبيرة.
- ✓ تايلاند: أقلية إسلامية ضعيفة.
- ✓ شبه القارة الهندية، حيث الهند، ثم الدولتين الإسلاميتين باكستان وبنغلادش.
- ويعد اليابان والعالم الصيني وشبه القارة الهندية كلامح بارزة على تضاريس آسيا نجد أمامنا العالمين الفارسي والتركي، وكلاهما إسلامي.
- فأما العالم الفارسي فإنه يتدرج من هضبة إيران ليغطي أجزاء من آسيا الوسطى لا سيما من بلاد الأذريين/أذربيجان/وبعض بلاد الأفغان.
- وأما العالم التركي، فيغطي تركيا نفسها ومناطق آسيا الإسلامية المنتمية إلى الأصل التركي، ومنطقة الثقافة التركية بالمعنى الواسع، والتي كانت تندرج ضمن ولاية الاتحاد السوفياتي.
- العالم العربي ويضم منطقة الخليج وشبه جزيرة العرب والشام بالمعنى الواسع، وأهم المعالم التاريخية - السياسية هي: الأراضي الحجازية- اليمن- العراق- سوريا التاريخية- فلسطين التاريخية.

وتشكل تلك المعالم مع النواة الملتهبة للإسلام والعروبة في آن معا، وبعبارة أخرى، فهي «بالتاريخ» عماد الكتلة العربية الإسلامية<sup>1</sup>.

ولكن ما هو بالجغرافيا عماد هذه الكتلة... قاصدين بالجغرافيا، الجغرافيا الطبيعية البشرية، السياسية في آن معا... بالطبع فهذا القول ينقلنا إلى أفريقيا. تشريح أفريقيا: معظم العرب أفريقيون، ومعظم أفريقيا مسلمون. معظم السكان في أفريقيا مسلمون... ومعظم العرب من أفريقيا. ولكن أصل العرب من آسيا "شبه الجزيرة العربية" ابتداء من طرفها الجنوبي الغربي، كما أن البداية الكثيفة للإسلام توزعت بالتساوي انطلاقا من الحجاز بين فارس وشمال إفريقيا، ومنها إلى ليبيا بالمعنى الواسع أي المغرب العربي الحالي. ولقد اتسعت دائرة الإسلام في آسيا بجميع اتجاهاتها الأصلية، ولكنها أخذت بالتخلخل ناحية الشرق تقريبا عند حدود الأديان الطبيعية الآسيوية الكبرى: الهندوسية-البوذية-الكونفوشيوسية<sup>2</sup>.

وتحددت دائرة هجرة العرب وعملية التعريب في إفريقيا بشمالها أساساً، ولكن الإسلام انتقل منها بالتجارة في الاتجاهات الأصلية الأخرى، وإن أخذ بالتخلخل ناحية الجنوب.

ولقد انتشر الإسلام بين الحشود الكثيفة لاسيما بين ظهرانيتها الممتدة، فكانت غالبية أهله منهم، وتنامى وجود العرب في المراكز المدنية لأفريقيا الشمالية، بينما خفت كتلتهم السكانية في صحراوات شبه جزيرة العرب وبادية الشام.

---

<sup>1</sup> - الدكتور محمد عبد الشفيق عيسى: العالم الإسلامي.. مجالنا الحضاري الجديد- نظرات أولية، ص50.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص50.

هكذا أدى تاريخ العرب والإسلام إلى جغرافيا مختلفة، فإذا بنا نجد أن معظم المسلمين في آسيا ومعظم العرب في افريقيا .

ولئن كان معظم العرب افريقيين فإن معظم افريقيا/عدا أطرافها الجنوبية/إسلامي، فبالإضافة إلى الشمال، نجد أن معظم افريقيا تحت حزام الصحراء الكبرى مسكونة أساسا بالإسلام شرقا وغربا ووسطا، وإن وجود الإسلام باتجاه الجنوب الافريقي بالمعنى الواسع<sup>1</sup> .

وهكذا يمتزج الوجود العربي بالوجود الإسلامي، بين ميزان التاريخ وميزان الجغرافيا الطبيعية والبشرية والسياسية، الأمر الذي يدعونا للقول إن مستقبل تجديد الإسلام مرهون بآسيا، ولكن تجديد مستقبل افريقيا مرهون بالإسلام، كما إن تجديد الرابطة العربية مرهون بالغرب/أفريقيا العربية/، ولكن تجديد مستقبل المشرق/الخليج وشبه جزيرة العرب والعراق وسوريا وفلسطين التاريخية/، مرهون بالرابطة القومية<sup>2</sup> .

وبعبارة أخرى فإن المهمة التاريخية الكبرى لنهضة آسيا وافريقيا، هذه المهمة المعقدة مرتبطة أشد الارتباط بكل من العروبة والإسلام.

على هذا يمكن التأكيد بأنه لا يمكن أن تتم النهضة في البلدان العربية -المغربية والمشرقية- دون الاعتصام برابطة العروبة، ولا يمكن لهذه الرابطة أن تتعزز وتترسخ إلا عبر الارتباط بحزامها الإسلامي الوثيق، فضلا عن ذلك فلا يمكن للنهضة في آسيا وافريقيا «البلاد الإسلامية غير العربية» أن تتم إلا عن طريق

---

<sup>1</sup> - الدكتور محمد عبد الشفيق عيسى: العالم الإسلامي.. مجالنا الحضاري الجديد- نظرات أولية، ص50.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص51.

تجديدها من خلال الرابطة الإسلامية، والتي هي في تماس طبيعي وتاريخي وروحي مع مركز الإسلام في شبه جزيرة العرب، والذي هو في الوقت نفسه مركز أصل العرب.

هكذا يمكن التساؤل: هل ذلك من مصادفات التاريخ أم موافقاته؟... من جماع ما تقدم يخلص "الدكتور محمد عبد الشفيق عيسى" لتحديد مسارب الحياة والتقدم والانطلاق باتجاه التطور الارتقائي للقطر العربي المصري<sup>1</sup> «وهو أمر ينطبق في نظرنا على بقية الدول العربية» يحدد دوائر الانطلاق، مؤكداً بأن أولى هذه الدوائر هي العروبة، حيث تمثل استجابة لنداء الماضي ودواعي المستقبل في الآن نفسه مضمونا للتكوين الاجتماعي التاريخي وسياجاً حامياً للتقدم الحضاري.

الدائرة الثانية هي الدائرة الوسطى - الإقليم العربي- والوسيطه الإفريقي حيث تلتم روابط التكوين من الأرض والبشر والممارسة في ثقل عربي، ووجه إسلامي، وتوجه اقتصادي اجتماعي.

أما الدائرة الثالثة فهي دائرة العالم الإسلامي كمجال حضاري أرحب ينبغي أن تتجه نحوه السواعد والعقول، فهو البيت الطبيعي للعالم الثالث، وهو الوريث الموضوعي له، ومن ثم فهو/ضامن/لحضارة نموذج التطور المستقبلي أو لمشروع النهضة كمشروع مثلث أضلاعه: العروبة، الإسلام، الاشتراكية، الديمقراطية<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - الدكتور محمد عبد الشفيق عيسى: العالم الإسلامي.. مجالنا الحضاري الجديد- نظرات أولية، ص56.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص56.

وبهذه الدوائر المتلاحمة يمكن لنا أن نواجه قيود النظام العالمي القائم والقادم بإمكانية حقيقية للمشاركة المتكافئة فيه، والمقاومة الإيجابية لما يعتمل فيه من اتجاهات معاكسة لنموذج التطور الحضاري المستقبلي.

والعالم الإسلامي بهذه المثابة كدائرة كبرى محيطة بالوطن العربي، وحدة موضوعية اقتصادية اجتماعية، وهو وحدة ذاتية حضارية أيضاً، صنعها ماضي الحضارة الإسلامية المشترك التي أسهمت فيها أمم وشعوب اختلفت قومياتها، وتجانست حضارتها من عرب وبربر وزنج وترك وفرنس وهنود<sup>1</sup>.

وما أشبه الليلة بالبارحة، ففي مطلع العصر الحديث الأوربي غداة كانت القوى الإسلامية الكبرى هي العامل الرئيسي في مواجهة السيطرة الاستعمارية التي تتوسل بالحرب والكشوف والتجارة والاستيطان، وتمثلت هذه القوى في الدولة التركية العثمانية، والدولة الصفوية الفارسية، والمماليك في مصر، والمغول في آسيا الوسطى، ممالك الزنج الإسلامية في غرب إفريقيا، وقد انتهت المعادلة التاريخية عبر ثلاثة قرون من السادس عشر إلى التاسع عشر بتغلب أوروبا، فهل تتغلب هذه مرة أخرى «تحت قيادة أمريكا» على نوازع المقاومة الحضارية والنزوع الحضاري المستقبلي للعالم الإسلامي باتجاه الاستقلال والتحرر والتكامل والتنمية<sup>2</sup>.

هكذا يتضح من دلالات التاريخ وصبوات المستقبل وكشوفاته أن حسا تاريخيا عميقاً، أو بعداً استراتيجياً جيوسياسياً أو جيوتاريخياً للأمة العربية ليس أمامه للتعمق والتجوهر إلا بالدائرة الحضارية العمق والظهر والمجال الحيوي والروحي لأمتنا.

---

<sup>1</sup> - الدكتور محمد عبد الشفيق عيسى: العالم الإسلامي.. مجالنا الحضاري الجديد - نظرات أولية، ص56.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص56.

وبالطبع فهذا التأسيس يقوم على سنن الله في الاجتماع والسياسة والحضارة والأخلاق، وليس تكتلاً وتعبئة وحشداً ضد الغرب، إذ في نظرنا إن الحضارات «وخلافاً لأطروحة هنتجتون» لا تتصادم في ذاتها، ولكن الإيديولوجيات والمصالح والأهواء الضيقة هي التي تزج الحضارات في أتون التصادم والصراع.

لقد تأسس العالم الغربي على الحضارة اليونانية، ثم الرومانية، ثم العالم المسيحي في القرون الوسطى، وهكذا فحضارة أوروبا ذات بعد يوناني مغلف بالمسيحية حسب رأي "هنري برنار" زعيم القانون المشهور في فرنسا<sup>1</sup>.

وإن كانت أوروبا قد أينعت وأتت أكلها الثرة من روافدها الطبيعية والمسيحية فلماذا لا يتاح للأمة العربية أن تتطلق من خلال التأسيس الطبيعي لها، ألا وهي الأمة العربية الإسلامية، ومن خلال تفاعلها مع عمقها الإسلامي، أليس ذلك أكثر فائدة وعطاء للشأن العام، على قاعدة دع الزهور تتفتح ولنتبار، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين/26، لا يتاح للأمة العربية إنتاج المعنى والقيمة؟

إن أية انطلاقة حضارية جبارة، إنما انطلقت من استجابتها الخلاقة مع الحاضر تأسيس تاريخي كبير، وهذا ما حدث للإسلام انطلاقاً من الحنفية، وما حدث لليابان انطلاقاً من تراث "الميجي"، وأخيراً ما حدث للثورة الصينية التي تأصلت على الجذر الكونفوشيوسي.

---

<sup>1</sup> - د. محمد عصفور: مذكرات في الضبط الإداري، جامعة القاهرة، عام 1996، ص 86.



إن التراث «كما يؤكد "الدكتور حسن حنفي"» جزء من الواقع ومن المكونات النفسية للمجتمع العربي، وهو لذلك لا يزال يحكم إلى حد بعيد سلوك الجماهير، ويصوغ تصوراتها، إذ المجتمع العربي يتميز بأنه مجتمع تراثي لم يتخلص من ماضيه، ولا معنى للعامل العلمي المجرد معه على طريقة المستشرقين، كأن التراث جسم ميت<sup>1</sup>.

على هذا الأساس يؤكد "الدكتور حنفي" أن التراث ليس شيئاً متخفياً، أو نمط سلوك ماضوي، بل هو نظرية للعمل وموجه للسلوك وخبرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل إعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض<sup>2</sup>.

نحن إذا مسكونون في التراث مستنبتون فيه مبيؤون في تربته، وإن اقتلاعنا من هذا المغرس أو المشتل الحضاري ليس معناه إلا الفوت والتصوح والموت، وبالتالي فإن أي تعامل مع التراث إنما يجب أن يتم من داخل شرعيته، وباستثماره وإعادة تأويله على ضوء إشكالاتنا الفكرية والإيديولوجية الحالية، يقول د. حنفي: ((إيماننا هو التراث والتجديد، وإمكانية جل أزمات العصر، أو فك رموزه وخطة جديدة نحو التقدم، فالتراث هو المخزون النفسي لدى الجماهير، وهو الأساس النظري لأبنية الواقع))<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - ورقة قدمت إلى مؤتمر الفلسفة في الوطن العربي المعاصر: بحوث المؤتمر الفلسطيني العربي الأول الذي نظمته الجامعة الأردنية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، عام 1985، ص 16.

<sup>2</sup> - د. حسن حنفي: التراث والتجديد - موقفنا من التراث القديم، بيروت، دار التنوير، عام 1981، ص 11.

<sup>3</sup> - د. حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة، بيروت، دار التنوير، عام 1988، ج 1، ص 7.

هكذا رسم "الدكتور حنفي" طريق الثورة الاجتماعية والسياسية، الانتقال من علم اجتماع المعرفة إلى تحليل سلوك الجماهير، أي من العلوم الإنسانية إلى الثقافة الوطنية، ومن الثقافة الوطنية إلى الثورة الاجتماعية والسياسية<sup>1</sup>.

على هذا الأساس يندد "الدكتور حنفي" بمقولات التغريبيين المدللة بأن الغرب هو النمط الأوحى لكل تقدم حضاري، وأنه الممثل الوحيد للإنسانية، وأن أوروبا الحلقة المركزية فيه، وهي المعلم الأبدى، والعالم كله في موقع الهامش إزاءها، وأن كل إبداع ذاتي لدى الشعوب غير الأوربية إنما مرده الغرب<sup>2</sup>.

وحقيقة الأمر إن الدائرتين العربية والإسلامية تمتلكان رأسماً رمزياً فذاً لا يدانيه أي رأسمال لا سيما في غناه الروحي والقيمي، وفضلاً عن ذلك فهما يتموقعان في قلب العالم، لذلك يجب أن يتاح لهما الحضور الإنساني الكثيف في هذا العالم، حيث تزكوان وتورقان وتونعان وتعطيان وتتمخضان عن مخزونهما وكنوزهما الثرة.

ومن جهة أخرى فعلى هاتين الدائرتين أن يغذا السير ويسرعا الخطى، ويحملا خطايا إنسانيا يشرفهما، خطايا يتكلم عن الشخص البشري، ويهجس بالمصير الإنساني المشترك والغايات الإنسانية الكبرى، ويعانق الهم الإنساني، كيف لا وإن عبارة (يا أيها الناس) أول ما انطلقت من هذه الأمة.

ومع ذلك فالدائرتان المذكورتان لا تزالان تعيشان مرحلة رد الفعل دون أن ترتقيا إلى ذروة الفكر الاستراتيجي، أو أن تحملا خطابهما السياسي مسؤولية حضارية.

---

<sup>1</sup> - السيد ولد أباه: التنوير والتأصيل قراءة في أعمال حسن حنفي، مجلة المستقبل العربي، عدد 167، عام 1993، ص 128.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 128.

صحيح أنه كثر لدينا الحديث عن المشروع الحضاري العربي الإسلامي في مجال الفلسفة والاقتصاد والأخلاق، ومع ذلك لا نلمس تأثيرا لهذا الفكر في المشروع السياسي<sup>1</sup>.

وبيان ذلك وحسب مقولة "ريمون بولان": ((أن السياسي يتأسس على الحضاري، ولكنه في الآن نفسه ينجزه وينتجه)).

هكذا تكلم عبد الناصر عن الدوائر الثلاث، كما أنه انخرط «بلورة لذلك» في مؤتمر باندونغ كحدث سياسي يترجم صبوات العالم الثالث، وفي القلب منه آسيا وإفريقيا، وقلب آسيا وإفريقيا الدائرة الملتهبة بالإسلام ألا وهي الدائرة العربية.

لقد كان المقرر لباندونغ أن يكون له ترجمته الحضارية، أي أن يتحول إلى حدث حضاري يؤلف بين الحضارتين الإفريقية والآسيوية وفي قلب ذلك الإسلام الأكثر تألقا وعطاء، هكذا تترجم مؤتمر القاهرة عام 1957 عن جائزة إفريقية آسيوية على غرار جائزة نوبل وجائزة لينين، أملا في إنجاز السياسي للحضاري، لكن هذه الجائزة لم تر النور<sup>2</sup>.

لقد جمع مؤتمر باندونغ عام 1955، وبعده مؤتمر القاهرة عام 1957 كل مقومات ثورة العالم الثالث إلا شرطا واحدا هو شرط انطلاق الشرارة الحضارية الفكرية لإضرام السياسي<sup>3</sup>، أي شرط تفعيل الحضاري كناهض ودينامو ورافعة للسياسي.

---

<sup>1</sup> - د. وجيه كوثراني: أفكار باحثة عن سمات حضارية في المشروع العربي الإسلامي، مجلة المستقبل العربي، عدد 137، عام 1997، ص 34.

<sup>2</sup> - د. كوثراني: أفكار باحثة عن سمات حضارية في المشروع العربي الإسلامي، ص 35.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 35.

مثال آخر يدل به الدكتور كوثراني هو المشروع الحضاري للمفكر مالك بن نبي، ففي نظره إن المشروع الحضاري المذكور لم يؤثر بالمشروع القومي الذي حمله عبد الناصر، كما لم يؤثر بعمل الإسلاميين، بل ظلت أفكاره حول القضية الحضارية في المشروع الإسلامي خارج دائرة التداول في أوساط الفعل والقرار السياسيين، واقتصرت على قلة من النخبة<sup>1</sup>.

إذا فالافتقار إلى الشرارة الفكرية الحضارية التي تفجر برميل البارود، وتطلق قيم الروح، هذا الافتقار كان المقتل والمصرع.

كيف لا يكون ذلك، والحضارة هي العنصر الحاسم في أي انعطاف تاريخي، وهي روح الإنسان ولبه وماهيته وجوهه.

ثم كيف لا يكون ذلك، ونحن مسكونون في التراث، وهذا التراث جزء من المكونات النفسية للمجتمع العربي، وهو لا يزال يحكم إلى حد بعيد سلوك الجماهير ويصوغ تصوراتها، ولا يجوز التعامل معه كجسم ميت<sup>2</sup>.

وفي نظرنا إن فشل الكثير من الصيغ السياسية في وطننا العربي مرده إغفال هذا الفاعل الحضاري، كما هو الحال في الفكر السياسي الاغترابي الذي لا يقوم على الجذر التاريخي لأمتنا وقسماتها الحضارية.

---

<sup>1</sup> - د. كوثراني: أفكار باحثة عن سمات حضارية في المشروع العربي الإسلامي، ص 34.

<sup>2</sup> - د. حسن حنفي: ورقة قدمت فيه إلى ندوة الفلسفة في الوطن العربي المعاصر: بحوث المؤتمر الفلسطيني الأول الذي نظمته الجامعة الأردنية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، عام 1985، ص 16.

ومن جهة أخرى فعلينا أن نعيد النظر بالمنطلقات الحية لباندونغ ودوائره المختلفة، ونحن مدعوون إلى ترتيب العلاقة مع الدائرة التركية والدوائر الإيرانية انطلاقاً من ثوابت التاريخ والجغرافيا والمعطيات الجيوسياسية والجيواستراتيجية، لاسيما أن للدائرة الإيرانية موقفها الجذري تجاه المسألة الصهيونية، ولاسيما أن الدائرة التركية مبتلاة بالتغريب الكاريكاتوري الذي يقتلع الدولة من جذورها الحضارية، ويضعها في حمى الاستلاب والاعتراب والهجنة الثقافية.

إن وعينا الجديد يجب أن يهب من رقدته متوتراً للقبض على مبادئ باندونغ وميكازماته والاستبصار بمغزى تعويل أمتنا على عمقها في الدائرة الإسلامية والدائرة الإفريقية والدائرة الآسيوية، بل بدائرة العالم الثالث.

وهذا ما أكده "الدكتور سليمان الديراني" بقوله: ((إذا كان الغرب يشهد بروزاً سريعاً وإقراراً أسرع بظاهرة ما بعد الحداثة كنفد لظاهرة الحداثة الغربية، فهذا يعني أنه من الضروري النظر في التجارب التحديثية لدول العالم الثالث من زاوية خلخلة التماهي بين التحديث والغرب، ومن ثم التفتيش عن القيم والمقاييس التي تعيشها دول العالم الثالث)).

على هذا الأساس رفض "الدكتور الديراني" فكرة إلزامية التطور في العالم الثالث، وفق المراحل التي قطعها الغرب ما دام التطور الحداثوي في الغرب يحمل نفسه من التناقضات الداخلية ما يؤدي حكماً إلى مرحلة جديدة "ما بعد الحداثة" مرحلة تضرب كل النسق الحداثوي الغربي كنسق عالمي، وتظهر كم من المراحل في هذا النسق هي خاصة بالتطور الذاتي للغرب، وليس ضروريا اعتبارها مراحل أساسية في تطور كافة المجتمعات.

ويلفت الدكتور الديراني الانتباه إلى ظاهرة اقتصادية عملاقة تشكل أنموذجاً تنموياً فذا هو بلدان جنوب شرق آسيا "كوبا الجنوبية - تايوان - هونغ كونغ - سنغافورة - ماليزيا".

هكذا يرد الدكتور الديراني ذلك إلى الكونفوشية التي صاغت شخصية الفرد في تلك البلدان على مبادئ في العيش، والتوفير في الإنفاق، ومراقبة الذات والعمل الجاد والتعامل الأخلاقي والقيمي، أي على أساس اعتمادها الحداثة، وليس التحديث.

وإذا ما تذكرنا قول "ماكس فيبر" إن الإصلاح البروتستانتي كان وراء الثورة الصناعية في أوروبا أدركنا مدى الدور الذي يلعبه الرأسمال الرمزي في أي مشروع للنهضة، وأدركنا الدور الذي يلعبه مشروعنا الحضاري في تفعيل المشروع السياسي لما يتضمنه هذا المشروع الحضاري من قيم العقل وحب العمل وبهجة الحياة وعدم الإسراف والتفاؤل في الحياة قال الرسول الكريم ﷺ: ﴿إِنَّ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرَسَهَا، فَلْيَغْرَسَهَا﴾، واقتحام الحياة من أجل عمرانها:

○ ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ 11 ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ 12 ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾

البدن/11-12.

○ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ 10 ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ الواقعة/10-11.

○ ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ المائدة/48.

وفضلاً عن ذلك فالمشروع الحضاري الإسلامي يقدم لنا استشرافاً لآفاق العالمية، وبالتالي يدخلنا بها من أبواب عريضة ومتألقة، فيما ينطوي عليه من مبادئ:

○ مثل مبدأ العدل والمساواة والتقوى وأصل الإحسان، وأصل الاستخلاف

وعمران الكون والإيمان بالأصل المشترك للإنسان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿الحجرات/13﴾ .

○ وأصل الدعوة إلى كلمة السواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ آل عمران/64 .

○ وأصل بذل السلام للعالم، وأصل الخير الإنساني الشامل قال ﷺ: ﴿أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ﴾، وأصل عظمة النفس البشرية "صيانة الحياة"، وأصل الدين الواحد مع اختلاف الوسيلة قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ المائدة/48 .

○ وأصل حقوق الإنسان في أول إعلان لحقوق الإنسان ﴿إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿118﴾ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ طه/118-119 .

○ وأصل الخيرية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ النساء/114 .

○ وأصل إعمار الأرض ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود/61 .  
○ وأصل رفع الظلم، وأصل الإصلاح كفاية للحياة الإنسانية ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الأنفال/1 .

○ وأصل التتديد بالفساد ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ البقرة/205 .

○ وأصل العون ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/2 .

○ وأصل العزة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون/8 .

هكذا اتضح لنا أن هذه الحضارة الإسلامية وفي قلبها الدائرة العربية تحتضن مخزوننا ثقافياً وقيماً ما يجعلها تغني الحضارة الإنسانية، وبالتالي تكون أساساً لانتمائنا لها واستنادنا إليها في مشروعنا الخاص إضافة إلى المشروع الإنساني العالمي.

خاطب أحد المسؤولين في دولة إسلامية سفيراً لدولة عربية قائلاً له: ((نظرنا إليكم، فوجدناكم تنظرون إلى غيرنا، ثم نظرتم إلينا فوجدتمونا ننظر إلى غيركم، فمتى يأتي الوقت الذي تلتقي عيوننا، وينظر بعضنا إلى بعض)).

ويعتقد أن تلك النظرات العذراء تحولت على صعيد الدائرة العربية إلى عيون دافئة تمتلئ بالنعمة، وهذا ما استطاع أن يجترحه المؤتمر القومي الإسلامي الثاني حيث تضمن بيانه الختامي «فيما تضمن» حيزاً هاماً عن علاقة الأمة العربية شعوباً وحكومات بدائرتهم الحضارية والإسلامية<sup>1</sup>.

لقد أكد هذا المؤتمر على الماضي الحضاري المشترك الذي تداخلت فيه، وتوحدت مصالح الشعوب الإسلامية بحكوماتها المتنوعة، بحيث أدى التفاعل الخلاق بينها إلى بناء صرح حضاري متميز أثرى الحضارة العالمية، وأسهم بنصيب وافر في تقدم الإنسانية، كما أن التداخل الخلاق والتكامل المستمر اللذين حدثا بين مكونات الأمة بمختلف أصولها العرقية ومواطنيها الجغرافية، قد تركا مكانهما شيئاً فشيئاً، ومنذ عقود طويلة، العلاقات المتميزة في الغالب إما بالعداء أو بالتوتر أو بالبرود في أحسن الحالات<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - المؤتمر القومي الإسلامي الثاني: البيان الختامي، نشرت هذا البيان الختامي، مجلة المستقبل العربي، عدد 226، عام 1997، ص 79.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 79.



وتعرض المؤتمر إلى دور القوى الأجنبية المهيمنة في توسيع شقة الخلاف وتأزيم العلاقات، وكان ذلك في صالح أعداء العرب والمسلمين على حد سواء<sup>١</sup>.

وأكد المؤتمر على أن أبسط قواعد المنطق تتطلب اليوم أن يتم السعي من الجانبين إلى إظهار الوعي الدقيق بضرورة تجاوز معطيات الصراع عن طريق بناء جسور الثقة بين الأطراف، وإرساء تقاليد التحاور والتضامن من أجل إعادة الحلقات المفقودة لضمان المصالح العليا للأمة والعربية والشعوب الإسلامية<sup>٢</sup>.

وتعرض المؤتمر إلى الدائرة التركية التي تتسم بخصوصية تاريخية في علاقتها بالأمة العربية، وفي الوقت نفسه فقد ميز بين ما تمارسه شريحة واسعة من النخبة الحاكمة في تركيا، وبين موقف القوى الشعبية التركية، وندد بالتعاون الفكري والسياسي القائم حالياً بين تركيا والكيان الصهيوني، والذي يشكل خطراً حقيقياً على الأمة العربية، ويتعارض مع ما يربط الأمة العربية وجيرانها الأتراك من روابط الدين والتاريخ والجغرافيا<sup>٣</sup>.

وأخيراً فقد لفت المؤتمر الأنظار إلى أهمية التعاون العربي التركي، وما يمكن أن يوفره من إمكانات متاحة على أكثر من صعيد<sup>٤</sup>.

وانتقل البيان إلى أهمية الدور الإسلامي الإيراني في قضية الصراع مع العدو الصهيوني، وفي مجابهة الامتدادات العسكرية الأجنبية على الأراضي العربية،

---

<sup>١</sup> - المرجع السابق، ص 79.

<sup>٢</sup> - المؤتمر القومي الإسلامي الثاني: البيان الختامي، ص 80.

<sup>٣</sup> - المرجع السابق، ص 80.

<sup>٤</sup> - المرجع السابق، ص 80.

داعياً إلى اندماج إيران والدول العربية والإسلامية في ترتيبات أمنية مشتركة ومستقلة تضمن أمن المنطقة واستقلالها<sup>1</sup>.

وعرج البيان إلى الدول الإسلامية في وسط وجنوب شرق آسيا مؤكداً على أهمية توثيق العلاقات بين الأمة العربية والشعوب الإسلامية في وسط وجنوب شرق آسيا، وتعزيز الروابط والاستفادة من طاقات هذه الشعوب المادية والروحية في دعم قضايا الأمة<sup>2</sup>.

وخصص البيان فقرة هامة للدائرة الإفريقية منها إلى أن الرؤية الاستراتيجية للعلاقات العربية - الإفريقية تقوم على دواع حضارية وسياسية واقتصادية واستراتيجية<sup>3</sup>.

واختتم البيان قوله بالحديث عن الجاليات العربية والإسلامية في العالم الغربي وأمريكا وإن هذه الجاليات تمثل العمق الاستراتيجي للعرب وقضاياهم المصيرية، وضرورة تحول الثقل الاقتصادي لهذه الجاليات إلى ثقل سياسي<sup>4</sup>.

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 80.

<sup>2</sup> - المؤتمر القومي الإسلامي الثاني: البيان الختامي، ص 81.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 81.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 81.

## تقدير وتقييم

تكلم الكثيرون «وفي ميادين فكرية متعددة» على أن الشرق شرق والغرب غرب.

فالشرق روحانية ووجدان وتدين، في حين أن الغرب نزعة مادية واستغلال وأنانية فردية والحاد .

من هؤلاء المتكلمين بعض الأدباء والكتاب نذكر منهم في تراثنا العربي المعاصر "توفيق الحكيم" في كتابه عصفور من الشرق، و"يحيى حقي" في قنديل أم هاشم، و"سهيل إدريس" في الحي اللاتيني، وغيرهم<sup>1</sup>.

ونعتقد أن هذه الفكرة أوروبية المنشأ والمحتد، ويمكن القول إن أول من استعملها الشاعر الإنكليزي "لبلينج" في مقولته الذائعة الصيت: ((الشرق شرق والغرب غرب))، ولن يلتقيا .

ومع ذلك فنحن لا نعدم بين ظهراني أمتنا وجود تيارات قومية ودينية تعتمد هذه المحاجزة الجامدة والتصنيف الصارم، وإن كان هنالك فريق ثالث يميز أمتنا بسمة خاصة هي الثنائية، أو الوسطية "زكي نجيب محمود ومحمد عمارة" التي تجمع الروحية والمادية<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، الثقافة الجديدة، القاهرة، ط2، عام1988، ص212.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص212.

ولعل أبرز الذين تكلموا عن هذه المحاجزة الكاملة بين الشرق والغرب، هو "الدكتور أنور عبد الملك" في كتابه ربح الشرق<sup>1</sup>.

ففي نظره إن الغرب كتلة حضارية واحدة رغم ما تشتمل عليه من أنظمة اشتراكية ورأسمالية «وحركات عمالية وتقدمية» وهذه الكتلة تمارس الهيمنة ضد الشرق وحضارته، ولا يحاشي في ذلك الاتحاد السوفييتي الذي يقوم عمداً بتطويق حركات التحرر الوطني، كما فعل في أفغانستان وأثيوبيا وأنغولا وموزامبيق<sup>2</sup>.

فالعرب إذاً عند "الدكتور عبد الملك" هو الغرب بشقيه الرأسمالي والاشتراكي، فأيدولوجيته واحدة إنها الخرافة البروميثية نسبة إلى بروميثيوس سارق النار من الإله زيوس في الأساطير اليونانية القديمة، ورمز عقلانية العمل والإنتاج<sup>3</sup>.  
وينبري "الدكتور عبد الملك" لتحديد هذا الشرق، فهو عنده يتألف من ثلاث دوائر: الدائرة العربية الإسلامية، وتمتد من المغرب غرباً حتى الفلبين شرقاً، وتتخذ شكل الإسلام ديناً ودولة، والدائرة الثانية هي الدائرة الحضارية الهندية الآرية، أما الدائرة الثالثة فهي الدائرة الصينية واليابانية الآسيوية.

هذه الدوائر الحضارية الثقافية الثلاث تختلف «في نظر الدكتور عبد الملك» اختلافاً حضارياً وثقافياً مع الحضارة الغربية بشقيها الرأسمالي والاشتراكي، تختلف في مفهوماها عن الزمن والصورورة التاريخية، وترفض فكرة التناقض والتصارع، حيث يتم الحفاظ على النقيضين دون تفجير الصراع بينهما، كما هو الأمر في شأن الحضارة الغربية.

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 212.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 212.

<sup>3</sup> - محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، ص 213.

هكذا نجد ذلك «والحديث للدكتور عبد الملك» في فلسفة الصين التقليدية، كما نجده في الإسلام حيث تتحقق وحدة الأمة على عكس اللاهوت الكاثوليكي الذي نبعت منه محاكم التفتيش<sup>1</sup>.

وحقيقة الأمر أننا مع الدكتور عبد الملك لجهة الحديث عن مشروع حضاري جديد للبشرية كوزان للمشروع الغربي يروض استئساده وجموحه، ويظف من هوسه واستعلائه.

ويزداد تأييدنا للدكتور عبد الملك فيما يبثه من التفاؤل والحيوية والأمل في الشرق، وفيما نفخه في عروقتنا من روح الكبرياء والكرامة والتفاؤل، لاسيما أنه وضع المشروع الحضاري العربي في قلب هذا المشروع الشامل<sup>2</sup>، وأعطى مفهوم الحضارة الشرقية مضموناً يتسع للقارة الإفريقية ولدول أمريكا اللاتينية، أو بتعبير آخر ليشمل دول عدم الانحياز ودول باندونج، أو ما يسمى بالعالم الثالث، حيث يكاد مؤتمر باندونج أن يصبح الرمز الحي (لريح الشرق) للنهضة الحضارية الجديدة في مواجهة الهيمنة الغربية<sup>3</sup>.

والذي يؤخذ على نهج الدكتور عبد الملك في هذا التكتل أنه حشد فيه أكواماً من الدول ذات المناهج السياسية المتنوعة، منها الرأسمالي الصناعي المتطور (اليابان)، ومنها الاشتراكي (الصين)، إضافة إلى وجود دول نامية متعددة المشارب السياسية.

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 191.

<sup>2</sup> - محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، ص 191.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 192.

شيء جميل أن نتكلم على تلك الديناميات الحضارية، ثم الكشف عن ذلك التقارب، وعدم العداء التاريخي بيننا وبين الحضارتين الهندية والكونفوشيوسية، وضرورة وجود تفاعل حي وندي معها .

لكن الشيء الذي نرفضه الدعوة إلى أي استقطاب حدي يقوم على الهوس القومي والعنقي حتى الحضاري، كما فعل هنتنجتون في استعدائه الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية، مع العلم أن الحضارات لا تتصادم، بل أن الذي يتصادم هو الإيديولوجيات التي تكرس الحضارة ذريعة ووسيلة .

هكذا فإننا نختلف مع الدكتور عبد الملك لجهة التعامل مع الغرب تعاملاً غير تاريخي بصيغة كتلة واحدة صماء لا تعرف التنوع والاختلاف والتفاعل والزمنية . على هذا فالأصح أن نميز في الغرب بين القمح والذؤان، بين الطفل وغسيله، بين النوبات وغيرها، وبالتالي يجب أن لا يصدنا التعصب عن التعامل مع الضمير الغربي، بما يكفل رفع الشأن الإنساني العام، وتحقيق الشرط البشري المؤدي إلى كرامة الإنسان، وعندئذ «وفي إطار التوازن مع روحانية الشرق» تغدو العقلانية الغربية رافعة لإقلاع البشرية، وتغدو المادية الغربية ناهضا يقوم على المصلحة التي تحدث عنها الإسلام وضبطها وأدرجها في قلب أدبياته .

ومن جهة أخرى فلسنا ضد الدكتور عبد الملك في تأسيس السياسي على الحضاري، وفي تأكيده أن الإسلام ليس مجرد دين أو ثقافة، بل من الحكمة أن يبدع نظرية اجتماعية للصيغة الوطنية والتطور الاجتماعي والرخاء الجماهيري<sup>1</sup>، وشرطنا الوحيد في ذلك أن لا يطغى الإسلام السياسي على غيره، أي لا يكون المنبر الوحيد، بل أن يتاح بآلية الديمقراطية والإطار الحضاري الإسلامي لجميع

---

<sup>1</sup> - محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، ص192 .

التيارات السياسية الإسلامية وغيرها أن تتنافس وتفتح، وتتلاقح سواء أكانت اشتراكية أم ليبرالية أم نابعة من الحضارة الإسلامية أم غيرها<sup>1</sup>.

إن قوة النص القرآني هو انفتاحه على كافة احتمالات الحياة والصيغ والنظم والاتساق، وإن الحديث عن صيغة واحدة سياسية أم غيرها، إنما هو ابتسار للنص وليّ عنقه، وإن حضارتنا المتفتحة أعطت الشيء الكثير عندما تكلمت على النص على أنه موارد بالحركة والعطاء، على هذا الأساس فإننا نرفض أية صيغة اجتماعية أو وطنية تدعي أنها الوحيدة التي تتكلم باسم الإسلام.

وأخيراً فإنني أنعي على الدكتور عبد الملك تبسيطه للإشكالية العربية الإسلامية، وعمليتها - وهي لما تزل في الحالة الجينية- بل وصفه لها (بريح الشرق) جاعلاً هذه الريح تهب باتجاه الغرب في نظرة استقطابية حادة.

والسؤال المطروح هو: أين هذه الريح من تلك العاصفة الهوجاء الصرصر التي تشنها أمريكا وحلفاؤها على شعبنا في العراق.

وأخيراً تحدث الدكتور عبد الملك عن سماحة الإسلام كأساس للحياة، وكان عليه أن يتحدث عن مضمون برنامجي ينبثق عن هذا التسامح، كحقوق الإنسان والشرط البشري والكرامة الإنسانية والتضامن الدولي، وكلمة السواء بين الشعوب.

إن الأمة الإسلامية وغيرها هي مجموعة من العرى والشرابين والروابط والعروق وبنى الربط ومسارب الحياة والدورات الدموية التي تشد أفراد الأمة، وبالتالي فلا

---

<sup>1</sup> - نلاحظ أننا استقيننا هذه المعلومات من الأستاذ أمين العالم، ولكننا خالفناه في الرؤية، انظر المرجع السابق، ص 193.

يمكن الحديث عن أمة إسلامية إلا بقدر ما تتخلق مثل هذه الروابط، وإلا نكون قد تكلمنا على الإنسان المرتكس المنتكس الذي يمشي على رأسه.

إن الأمة «كما هو معلوم» هي شكل أو طور من أطوار الحياة الاجتماعية، لكنها الشكل الأنضج تكاملاً وترابطاً وتماسكاً، وعلى هذا الأساس فلا يمكن الكلام جوهرياً عن أمة تسبح فوق التاريخ، أو هابطة من الملاء الأعلى، بل هي وليدة التجارب والأحداث والصورورة، وكلما ترابطت الأمة، كلما ازدادت قوة ومنعة أمام حدثان الزمان، وازداد بالتالي عطاؤها وأريجها.

واستناداً إلى ما تقدم فإذا كان الغرب يسعى إلى ترويض ذلك العالم الإسلامي الجبار واقتلعه، وما مشروع "فوكوياما وهنتجتون" إلا أحد مظاهر ذلك الاقتلاع بوسائل وأشكال مختلفة، إلا أن بإمكان هذا العالم أن يكون جباراً «وهو جبار» حسب نظرية مكونات الدور.

أن يكون جباراً ليس بالكمن، وإنما بالفعل، وذلك بالآيتين الآتيتين:

1 - آلية دفاعية عن طريق ما ندعوه محاصرة الحضارة أي مواجهة الطوق المفروض على بلدان العالم الإسلامي في ميادين التجارة، الاستثمار، الإنتاج، التكنولوجيا، المعلومات، الإعلام، الثقافة.

2 - بآلية إيجابية عن طريق التكامل الإسلامي في شتى ميادين الحياة، تعاملاً يعلي الشرط الإنساني ويثري الحياة الدولية، ويرسخ كرامة المواطن وحياته ومستقبله.

وحقيقة الأمر أن أمتنا العربية تقف اليوم موقف الحيرة والتشكك أمام ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي في حقيقته - كما قال تشومي - نظام العالم الجديد، وفضلاً عن ذلك فهي لم تشارك في النظام العالمي القديم، بل كنا فقط موضوعاً له، ومع ذلك فأمتنا تعيش هاجس الحنين للنزوع الكوني والعالمي الذي ميزها منذ



بزوغها في القرن السابع الميلادي، حيث قامت الدولة والأمة في المدينة على فكرة الاستيعاب التي تفترض الاختلاف والتعددية وقبول الغير<sup>1</sup>.

لقد كان لهذه الأمة منذ ولادتها في المدينة مشروعها الكوني، هو الإسلام، وكان هو مسوغ نشأتها، وعلى الأرجح ما كان ممكنا ولادة هذه الأمة وتطورها لولا ذلك المشروع الكوني الذي دفعها على الدوام إلى تجاوز نفسها، من خلال دعوة تعتمد الدمج الاجتماعي "لا الفتح" وسيلة لها، وتعطي الأولوية للإنسان "المجتمع" على الدولة "المؤسسات"<sup>2</sup>.

ولم يكن هذا الدمج ممكنا إلا لأن الشعوب المغلوبة ساهمت في المشروع مساهمة كبيرة، ومن ثم فلم تفرض على تلك الشعوب ثقافة العرب، بل تكونت ثقافة جديدة أسهم فيها الجميع.

وهذا ما يفسر الفكرة الاستراتيجية العربية في مطالع هذا القرن.. فكرة الوحدة، وهذا هو معنى الالتفاف حول جمال عبد الناصر بعد مؤتمر باندونغ، فالفكرة العربية عند روادها فكرة عالمية ومؤتمر باندونغ، وعدم الانحياز، معناهما عودة أمتنا للمشاركة في حضارة العالم ومصائره<sup>3</sup>.

أجل لقد تعددت محاولات النهوض، ولكن هذا النهوض لن يحقق نتائجه المرجوة إلا إذا تجاوز الواقعية المبتذلة ليسير الحقائق التاريخية وصولاً إلى روح الأمة

---

<sup>1</sup> - الفضل شلق: عودة إلى مفهوم الأمة غير القومية، مجلة الاجتهاد، عدد 29، عام 1995، ص 5 وما بعدها.

<sup>2</sup> - الفضل شلق: الانخراط في العالم، مشروع الأمة غير القومية، مجلة الاجتهاد، عدد 26 و 27، عام 1995، ص 9 وما بعدها.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 9 وما بعدها.

والتفتيش في حنايا الهوية التاريخية، حيث يصاغ مفهوم قومي للأمة العربية يتفق مع تراثها التاريخي، وليس مع المفهوم الأوربي للقومية<sup>1</sup>.

لقد كانت الأمة خلال مختلف مراحل تاريخها مجتمعاً مفتوحاً يستوعب غير المسلمين، كما يستوعب الشعوب الوافدة، وكان هذا المجتمع على استعداد دائم للتوسع خارج حدوده الجغرافية، وغالباً ما كان هذا التوسع يتم بتأثير الدعوة لا بالغزو والسلاح، ومن ينظر إلى العالم الإسلامي يجد أن جزءاً كبيراً منه اعتنق الإسلام في فترات الضعف والتراجع.

على هذه القسّمات الثابتة والرواسي الراسخات للهوية... فإن الانخراط في العالم دعوة لإنقاذ النفس لأن العزلة هي الاستسلام والهزيمة والكارثة.

إن الانخراط في العالم يستدعي بلورة مفهوم الأمة غير القومية، الأمة التي تبقى منفتحة على العالم وترفض أن يتجدد تطورها في إطار جغرافي محدد أو حتى في إطار ذهني وفكري مطلق.

وما حققت هذه الأمة بقاءها خلال مختلف مراحل تاريخها إلا لأنها كانت مجتمعاً مفتوحاً قادراً على الدمج والاستيعاب والتجاوز.

إن مفهوم الأمة غير القومية لا يعني التخلي عن مبدأ الوحدة، بل إن توحيد الأمة شرط ضروري كي تستطيع استخدام الإمكانيات المتاحة<sup>2</sup>، وبالتالي الانطلاق في عالم أرحب.

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 12.

<sup>2</sup> - الفضل شلق: الانخراط في العالم، مشروع الأمة غير القومية، ص 17.

ليست هذه الأمة عرقاً ولا أثنياً ولا قومياً ولا قبيلة، بل هي صيرورة تاريخية، وكانت على الدوام في مختلف مراحل التاريخ مجتمعاً مفتوحاً يستوعب أو يدمج في إطاره الشعوب والأقوام والقبائل الوافدة المنطوية تحت لوائه، وعندما تواجه إشكالية المواجهة بين الانطلاق القومي والمشروع الكوني، كانت تختار هذا الأخير، حتى لو كان على حساب موقع العرب من السلطة<sup>1</sup>.

لقد فهمت الجماهير العربية ذلك، وكانت تتعاطف مع عبد الناصر صاحب فكرة الدوائر الثلاث "العربية- الإفريقية- الإسلامية" أكثر بكثير مما كانت تتعاطف مع الحركات القومية<sup>2</sup>.

إن أمتنا أمة عظيمة تحقق نفسها عندما تتجاوز نفسها، لذلك فهي قادرة على أن تكون صاحبة مشروع كوني في العالم بكل ثقة، وإن منطلق الحركات القومية الذي يقول للغرب نحن نسعى لأن نكون مثلكم، لكنكم تتآمرون علينا، هو منطلق دفاعي، كذلك منطلق الإسلاميين الذين يعادون العالم ويسعون لانفلاق الأمة على نفسها، إنه منطلق يعلن سلفاً أن لا قدرة لنا على تجديد المشروع الكوني، وعلى التعاطي بكل ثقة مع العالم<sup>3</sup>.

إن أمتنا مشروع كوني، وليس كياناً اندماجياً قسرياً سواء أكان هذا الاندماج بالمفهوم الديني أم بالمفهوم العرقي، ومن ثم فبمقدار ما نعتبر أنفسنا صيرورة تاريخية قابلة للتغيير والتحول، بقدر ما يفسح أمامنا المجال لإضافة مضامين جديدة ومفاهيم حديثة، وهذه المضامين تجعلنا أكثر قدرة على البقاء والديمومة وأكثر قابلية على استيعاب عناصر وموجات بشرية جديدة.

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 17.

<sup>2</sup> - الفضل شلق: الانخراط في العالم، مشروع الأمة غير القومية، ص 19.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 18.

لقد وضع الرسول ﷺ اللبنة الأولى في مفهوم الأمة عندما قال: ﴿أَوْلَاءُ لِحِمَّةٍ كُلِّحِمَّةِ النَّسَبِ، لَا يَبَاعُ وَلَا يُوهَبُ﴾، وعندما أكد أن العربي ليس الذي ولد من أب عربي، بل من تكلم العربية.

ليس هنالك أخطر على المشروع الحضاري القومي الوحدوي لأمتنا من أن يساء فهمه، وينظر إليه كمشروع هيمني يحقر من قيمة المعتقد الديني، ويعلي من شأن الأصول العرقية<sup>1</sup>.

إذا كان المسلمون من غير العرب يعتقدون في دين تزعمه العرب، ونزل بلغة العرب، واستعمل ثقافتهم وأعرافهم، فإن أهل هذا الدين من حقهم التعامل معه كجزء ما هيتهم، كعنصر يعزز وحدتهم، كأمر طبيعي يشكل القاعدة التربوية والأخلاقية التي يقوم عليها البنيان السياسي والاقتصادي والمجتمعي والثقافي<sup>2</sup>.

لقد اعتبر أحدهم العرب النسق الأبرز في النسق الإسلامي العام، فلماذا ترفض أمتنا هذا الموقع الذي حباها إياه تاريخنا المجيد، أي لماذا نرفض زعامة ألف مليون من البشر، قال تعالى: ﴿وَأِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ الزخرف/44. والخلاصة إذا أردنا أن نؤسس للسياسي العالمي الكوني، فلن يكون ذلك إلا على أساس الحضاري الذي هو استمرار لمشروعنا العمراني الحضاري التاريخي، وهذا ما يحفزنا لتحديد علاقة دقيقة ومنطقية وحية مع دائرتنا الحضارية كبوابة أولى أساسية للعبور إلى الصعيد العالمي.

المحامي الدكتور برهان زريق

<sup>1</sup> - تجديد الفكر الديني، مقدمة مجلة الوحدة، عدد 13، عام 1985، ص 6.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 6.

## شخصية إقليم الجزيرة العربية «مسألة عبقرية المكان»

**هل صحيح** «كما رأى المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي» أن عرب الجزيرة العربية يستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبتة لغيرهم<sup>1</sup>.

سؤال آخر نظرحه هو: ما علاقة هذا الدين الحنيف بالقاعدة الجغرافية البشرية التي حُمل عليها؟.

هل هنالك علاقة بين البناء الفوقي- الدين Super constitution والبناء التحتي Sub constitution تلك الأرضية الرصينة الجغرافية والبشرية التي تمثل قاعدة الهرم.

هل نذهب مع الإسلاميين لنقرر أن الله تعالى أمضى «فيما يتعلق بنشوء الإسلام» إرادته ومعجزته دون الاعتداد بقوانين الطبيعة والمجتمع وهو الأمر الذي يفسر لنا أن الإسلام رأس كاسح حمل على جسم كسيح هو العرب وبيئتهم وإقليمهم الجغرافي.

وفي الحقيقة لقد تعددت الإجابات فهنالك نظريات تعلي إرادة الإنسان وأخرى تعلي إرادة الطبيعة (الحتم الجغرافي) والتفسير الموضوعي ومن الصعب «بالتالي»

<sup>1</sup> - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي: تحقيق د. محمد عمارة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، للتأليف والنشر، 1970، ص302.

إعطاء جواب صارم بل أن هنالك خصوصية اجتماعية جغرافية بشرية تختلف من تجربة لأخرى ومن عصر لآخر وإن كان بالإمكان التأكيد أن التاريخ هو ظل الإنسان على الأرض وإن مكوك الحياة يغزل نسيجه من جدل إرادة الإنسان مع إرادة الطبيعة في صيرورة لا تعرف الجمود والتوقف.

وعلى هذا يصبح الكلام عن شخصية الطبيعة- الإقليم مفتاح لغتهم شخصية الأمة... فما المقصود من شخصية الإقليم؟.

لا بد من التذليل «بادئ ذي بدء» إن الشخصية الإقليمية شيء أكثر من المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم إنها تساؤل عما يعطي منطقة لفردها وتميزها بين سائر المناطق وتريد أن تنفذ إلى روح المكان لتستشف عبقريته الذاتية التي تحدد شخصيته الكامنة<sup>1</sup> genius.

وبديهي أن استشفاف هذه العبقرية لا يقتصر على الحاضر وإنما يتنامى بعيداً عبر الماضي وخلال التاريخ لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن أن نتعرف على الطبيعة الإيجابية للإقليم وعلى التعبير الحر والبوح الطبيعي لهذه الشخصية الإقليمية.

فاليئة قد تكون خرساء ولكنها تنطق من خلال الإنسان وربما تكون الجغرافيا خرساء ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها ولهذا قيل «بحق» أن التاريخ ظل الإنسان على الأرض بمثل ما إن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان<sup>2</sup>.

وفضلاً عن ذلك فشخصية الإقليم كشخصية الفرد يمكن أن تتطور وأن تتدهور<sup>3</sup>. وبالطبع فإن تناول المادة العلمية لا يكفي وحده لتشخيص الإقليمية بل لا بد من فلسفة المكان كإطار لتحديد تلك الشخصية وهو الأمر الذي حدا بعض المفكرين لتعريف الجغرافيا بأنها فلسفة المكان<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - د. جمال حمدان: شخصية مصر- دراسة في عبقرية المكان، كتاب الهلال، العدد 196، 1967.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص8.

<sup>3</sup> - E.W.Gibert: The idea of the zegen geog, vol 45, p 157.

لا يعني هذا أنها فلسفة غامضة بل إنها فلسفة عملية واقعية قد ترتفع برأسها فوق التاريخ ولكن أقدامها تظل راسخة في الأرض فلسفة تحلق بقدر ما تحدق<sup>٢</sup>.

وفي الحقيقة أن الجغرافيا ليست فلسفة فحسب وإنما هي في الوقت نفسه علم وفن وفلسفة فهي علم بمادتها فن بمعالجتها فلسفة بنظرتها هذا المنهج المثلث ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير في جغرافيا الحقائق المرصوفة إلى جغرافيا الأفكار الرصينة وبالطبع فهذه الصفة المركبة لا تتحقق بصورة كاملة كما يتحقق في الشخصية الإقليمية «ونعتقد» أن دراسة شخصية الجزيرة العربية توطئة وإرهاص لا محيص منه لسبر أغوار العلاقة بين العروبة والإسلام بقدر ما هو ضروري لفهم كامل لوجهنا ووجهتنا لكياننا ومكاننا لإمكاناتنا ومكانتنا لخصائصنا ونقائضنا.

وعلى هذا الأساس فسندخص بحثاً نتناول فيه دراسة وصفية لهذه الشخصية الإقليمية لجزيرة العرب على أن نردف ذلك بقراءة فلسفية لروح هذا الإقليم والدور الذي لعبه كحضارة ورحم لنشوء الأمة العربية وكموضع لهذه الأمة.

---

1- Frank Debenham; use of Geography, 1950.p11.

<sup>2</sup>- د. جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان ص10.

## دراسة وصفية لإقليم الجزيرة العربية

هل يمكن أن يختزل "لاند سكيب" الجزيرة العربية في صورة رباعية الشعب الإنسان الخيمة الجمل الصحراء هل يمكن أن تفسر حياة العربي في الجزيرة بالرتابة والإيقاع الواحد الذي يوازي امتداد المكان- الصحراء. نعتقد أن القضية أخصب من ذلك بكثير إذ نحن أمام "لاند سكيب" متعدد في جوانبه ثري في علائقه خصب في معطياته بل لا نغالي أن نقول: ((أنا أمام عالم كامل يضج بالكثير ويبوح ويفيض بالأكثر والأكثر)).

وفي الحقيقة ليس في خريطة الأرض شبه جزيرة تضاهاي شبه الجزيرة العربية حجماً فهي أكبر من شبه جزيرة الهند ومساحتها ثمانية أضعاف الجزيرة البريطانية وأربعة أضعاف فرنسا.

ويرى علماء الجيولوجيا أن هذه الجزيرة تكملة طبيعية لصحارى أفريقيا والمنطقة الرملية التي تطوق آسيا عبر أواسط إيران وصحراء غوبي<sup>1</sup>.

وهناك من يرى أن البحر الأحمر كان في الأصل بحيرة وكانت إفريقيا والعربية الجنوبية منطقة واحدة جنوب هذه البحيرة عند مضيق باب المندب لكن خسفاً وقع فأدى إلى انفصال إفريقيا عن العربية الجنوبية واتصال المحيط الهندي بالبحيرة وتكون البحر الأحمر وقال الناس قبل ذلك ينتقلون براً وهو الأمر الذي يفسر حدوث تلك الهجرات العربية إلى إفريقيا<sup>2</sup>.

ويحد الجزيرة العربية الشمالي خط وهمي يمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب وعلى هذا فصحارى الشام والعراق تعد من الناحية الجيولوجية جزءاً من الجزيرة العربية.

<sup>1</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ترجمة د: ادوارد جرجي، د. جبرائيل جبور، بيروت، دار غندور، ط7، 1986، ص40.

<sup>2</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، 1968، ط1، ص143.



حد الجزيرة الشمالي لا يقوم على معالم طبيعية وإنما مجرد خط وهمي يمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب وهذا ما يفسر تجاوز هذا الخط الوهمي وانتقال الهجرات العربية عبره بصورة مستمرة منذ مئات السنين قبل الميلاد حيث سكنوا ضفة الفرات الغربية وأطراف الشام وفلسطين بل وبلغوا ضفاف النيل<sup>1</sup>.

وتتحصن مناطق واسعة من ساحل جزيرة العرب على البحر الأحمر بصخور مرجانية تحول دون اقتراب السفن منها وهذا ما جعل الملاحة متعذرة على هذا الشاطئ وبالتالي حوى الجزيرة من الغزوات الخارجية. وكانت الرياح الغربية التي تروي غيومها اليوم مرتفعات سوريا وفلسطين كانت تصل في الأزمنة الغابرة إلى الجزيرة العربية قبل أن تفقد هذه الغيوم رطوبتها كما أن الطبيعة الجليدية التي غطت المعمورة أثناء العصر الجليدي لم تكن لتقوى جبال آسيا الصغرى الشاهقة جنوباً وهكذا فقد كانت الجزيرة العربية مروجاً خضراء أهلة بالسكان<sup>2</sup>.

وينحدر سطح الجزيرة العربية من الغرب إلى الخليج الغربي ومنخفضات أرض الرافدين وعلى هذه البطاح تطل سلسلة جبال محاذية للساحل الغربي هي بمثابة العمود الفقري للجزيرة حيث تتصل فقراته بسلسلة جبال الشام المشرفة على البادية والمتحكمة فيها تحكم الجنود في القلاع ويبلغ ارتفاع هذه السلسلة أكثر من تسعة آلاف قدم في حدين شمالاً وأكثر من أربعة عشر ألف قدم في اليمن جنوباً كما يبلغ ارتفاع جبل السراة في الحجاز حوالي عشرة آلاف قدم وتنخفض هذه السلسلة عند مكة ثم تعود إلى العلو جنوباً حيث تصل إلى مستوى عالٍ في اليمن يسمح بتساقط الثلوج عليها وهذه السلاسل تمنع من وقوع الأمطار في أواسط

---

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 143.

2- د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 40.

الجزيرة لذلك فقد كثرت الأودية القصيرة التي تسيل فيها مما قوى فرص إمكانات خصوبة التربة وإمكان الزراعة فيها<sup>1</sup>.

وإذا كان هذا الانحدار يتجه تدريجياً نحو الشرق فهو فجائي وفقير نحو البحر الأحمر...ولما كان أقصى ارتفاع فيها هو في الجزء الجنوبي الغربي لذلك فقد أصبح الانحدار بطبيعته يتجه من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي ويجاربه في ذلك مسيل المياه.

ولقد أحاط بأطراف الجزيرة وحيث يتراجع البحر عن الساحل الجنوبي أغوار واسعة تعرف بتهامة.

ويبلغ متوسط ارتفاع الهضبة الوسطى الشمالية نحو 2500 قدم وفي سلسلة جبالها المعروفة بشمر قمة من حجر الغرانيت الأحمر اسمها آجا يبلغ علوها حوالي 5500 قدم.

وفي عمان على الساحل الشرقي ترتفع قمم الجبل الأخضر إلى نحو 9900 قدم ولقد روى "الأصطخري" أحد جغرافيين القرن العاشر الميلادي إنه ليس في الحجاز مكان أبرد من جبل غزوان بجوار الطائف وأنه ربما جمد الماء قبة كما أشار الهمذاني إلى ضمور الماء في صنعاء وإذا استثنينا الجبال والهضاب التي مر ذكرها فغالبية الجزيرة دارات وصحارى.

والدارات سهول رملية مستديرة بين التلال تستقر تحت سطحها المياه ومنها بادية الشام وبراري العراق ويعرف القسم الجنوبي من بادية الشام بالحماد كما يعرف القسم الجنوبي من العراق ببادية العراق والسماءة.

ويبلغ عدد الدارات زهاء عشر دارات ومئة منها دارة جلجل التي ورد ذكرها في شعر امرئ القيس ودارة الآرام وكانت مملوءة بشقائق النعمان وتميز في الأراضي الصحراوية الأنواع الثلاثة الآتية:

---

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص 157.

1- النفود: وهي قفار متسعة ذات رمال بيضاء ومحمرة تسفيها الرياح فتجعل منها كثباناً وتلالاً تعطي جزءاً كبيراً من شمالي الجزيرة العربية وهذه الصحراء جافة إلا في واحاتها ولكنها تتحول بعد الأشتية الممطرة إلى جنة حقيقية فتظهر الرمال وقد فرشت ببسط خضر تزينها الزهور والشقائق ومختلف الأعشاب الصحراوية.

2- الدهناء: وهي أرض رملية حمراء تمتد من النفود شمالاً إلى حضرموت ومهرة في الجنوب واليمن في الغرب وعمان في الشرق وفيها سلال من التلال الرملية ويمكن العثور على المياه في قيعانها.

وتبت فيها بعض الأعشاب ولكن عمرها قصير لذلك فقد هجرها الناس وسكنوا في القسم المرتفع منها حيث تتوافر المياه وتتساقط الأمطار. أما الأقسام الجنوبية منها فتسمى الربع الخالي بسبب خلوها من السكان وقد اكتشف "برترام توماس" في الربع الخالي بحيرة من المياه المالحة وبقايا من الحيوانات كما اكتشف فيها على آثار جاهلية وقد تبين أن هذه البحيرة متفرعة على الخليج العربي.

3- الحرار: والحررة هي أرض من الحجارة الرملية تعلو سطحها حمم من البراكين القديمة الخفانية النخرة وتكثر هذه الحرار في بقاع الجزيرة الغربية والوسطى وتمتد شمالاً حتى حوران الشرقية. وقد ذكر "ياقوت الحموي" ما لا يقل عن ثلاثين حرة أشهرها حرة المدينة وقد تسببت هذه الحرار في هلاك الكثير من السكان (كما حصل بالنسبة لهلاك مأرب ورسيون في اليمن) وفي هجرة الناس من الأرضين التي ظهرت فيها. ولقد استفاد الجاهليون من الحرار في استخراج الأحجار منها كأحجار الرص والمعادن فكانت مواطن التعدين<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 143 و 188.

وفي الجزيرة العربية ينابيع تخرج منها مياه معدنية كبريتية كما في الحجاز وحضرموت وعمان والإحساء والهفوف<sup>1</sup>.

وذهب بعض الباحثين إلى أن كثيراً من أودية الجزيرة كانت أنهاراً واستدلوا على ذلك بوجود ترسبات فيها وبالعثور على عاديات وآثار سكن على حوافها. ولقد أشار هيرودوت إلى وجود نهر كبير يصب في البحر الأحمر كما أشار بطليموس إلى نهر عظيم سماه (لار) قال أنه ينبع من نجران ويصب في الخليج العربي وهو وادي الدواسر<sup>2</sup>.

وهناك عدة أودية مثل وادي الرمة عند حرة خيبر وحرة فدك ويتكون هذا الوادي من التقاء عدة أودية ثم وادي الحمض ويصب في البحر الأحمر وعند مصب هذا الوادي توجد قرية يونانية قديمة وبقايا معبد من مخلفات المستعمرات اليونانية التي أقيمت على البحر الأحمر لحماية سفنهم من القرصنة وللاتجار مع الأعراب وتحويل القوافل البحرية.

وهناك وادي حنيفة وهو من الأودية المهمة يبتدئ من غرب جبل طويق ثم يتجه شرقاً نحو الخليج العربي ويمكن الحصول على المياه منه بطريقة حفر الآبار وعند هطول الأمطار.

ولقد استفاد الجاهليون من بعض العيون والينابيع فربطوها بكهاريذ وقنوات تجري فيها المياه وتحت سطح الأرض إلى بيوتهم ومزارعهم منعاً للتبخر وعثر على شبكات منها في عمان ووادي فاطمة بالحجاز وفي اليمن<sup>3</sup>.

وفي جزيرة العرب خامات المعادن وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء مواضع عرفت بوجود خامات الذهب فيها مثل (يشه) حيث كان الناس يجمعون التبر منه ويستخرجون الذهب.

<sup>1</sup> - د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص 143.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 159.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 163.

ومن المواضع أيضاً موضع "ضنكان" وكان به معدن غزير من التبر وكذلك مد المنطقة التي بين القنفذة وجلح<sup>١</sup>.

وفي وادي "تثليت" على مقربة من "حمض" وعلى مسافة 183 ميلاً من نجران آثار التبر ويظهر أنه كان من المواضع التي استخرج التبر منها<sup>٢</sup>.

واشتهرت ديار بني سليم بوجود المعادن فيها ومنها معدن الذهب ويستغل اليوم الموضع الذي يقال له مهد الذهب ويقع إلى الشمال من المدينة وقد وجدت قربه أماكن متعددة استغلّت قديماً لاستخراج التبر<sup>٣</sup>.

ووجد في مهد الذهب هذا أدوات استعملها الأولون قبل الإسلام لاستخراج الذهب مثل رحى وأدوات تنظيف ومصاييح وشوهد آثار القوم في حفر العروق التي تكون الذهب ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب إلى سليمان على نحو ما ذكر في التوراة<sup>٤</sup>.

وذكر الكهنة اليونان والرومان أن الذهب يستخرج من مواضع من جزيرة العرب خالصاً نضاراً لم يمسه نار وذهب "شرنكر" إلى أن العبرانيين أخذوا لفضة (أوفير) من كلمة تبر<sup>٥</sup>.

وعرفت أرض مدين وما والها من الأرضين شمال وادي الحمض بوجود التبر فيها وأفرد جغرافيا العرب اللامعات المقدسي والهمداني (القرن العاشر الميلادي) فقرة كاملة في كل من كتابيهما أتيا فيها على وصف معادن الجزيرة وتقرير ما فيها من

<sup>١</sup> - د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 192.

<sup>٢</sup> - المرجع السابق، ص 193.

<sup>٣</sup> - المرجع السابق، ص 193.

<sup>٤</sup> - المرجع السابق، ص 194.

<sup>٥</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 79.

الذهب<sup>1</sup> ووجدت صخور الملح في مواضع متعددة من الجزيرة وإلى هذه يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشرة في كتب التاريخ والأدب<sup>2</sup>.  
ووجدت موضوعات الحديد في اليمن وقد عثر عليها في الخرائب والآثار واشتهرت اليمن بسيوفها في الجاهلية والإسلام<sup>3</sup>.  
وذكر الهمداني من معادن اليمن الذهب والفضة وقال أنه كان يستخرج من الرضراض ولا نظير لفضته والحديد كان يستخرج من نقم وعمدان وحجر العشارى من عشار بالقرب من صنعاء والبلور والمسن الذي يعمل منه أنصاب السكاكين والعقيق الأحمر والعقيق الأصغر<sup>4</sup>.  
وعلى الرغم من وقوع الجزيرة العربية بين بحرين من الشرق والغرب فهي من أشد البلاد جفافاً وحرّاً لأن مساحة هذين البحرين أضيق من أن تكفي لكسر حدة الجفاف المستمر.  
ولئن كان المحيط الهندي في الجنوب يساعد على وقوع بعض المطر في أطراف الجزيرة فإن الرياح الموسمية المعروفة برياح السموم تسلب الرطوبة من الهواء قبل أن يبلغ داخل البلاد.  
أما الرياح الشرقية المعروفة بالصبا فقد كانت محببة لسكان الجزيرة وتنتاب البلاد في الحجاز مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات أو أكثر ومع ذلك فمعدل سقوط المطر فيها يزيد عنه في مصر الوسطى وليس من شمال الحجاز أرض تسكن سوى الواحات المنعزلة وقد لا تزيد مساحة أكبر هذه الواحات على عشرة أميال مربعة<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 79.

<sup>2</sup> - د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 195.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 196.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 196.

<sup>5</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 44.

وقد يقع بعض المطر في أقاليم الجزيرة الوسطى من الغيوم المتبخرة عن سطح الخليج العربي وأما الهواء الرطب المنبعث من البحر الأحمر فمعظمه يجف قبل بلوغه منحدرات الجزيرة الشرقية الواسعة.

ويعود الفصل في خصب التربة في نجد ذات الواحات الكثيرة المتصلة إلى مياه وادي الرمة الكائنة في جوف الأرض وفي سطحها وإلى نزوح الماء من أعالي شمر حيث يزيد سقوط المطر عما هو في أرض الدلتا بمصر<sup>١</sup>.

وتسقط المطار الموسمية في اليمن وعسير وهي تكفي بانتظامها لزراعة الأرض زراعة مطردة ذات خضرة دائمة تنبت في أودية خصبة تمتد إلى نحو مئتي ميل من الساحل<sup>٢</sup>.

وتتميز حضرموت بالودية العميقة التي قيل عنها أن قعرها يسبح بالماء أما عمان لأبعد أقاليم الجزيرة شرقاً فيصل إليها قدر لا بأس به من المطر<sup>٣</sup>.

وقد عوضت الجزيرة بشبكة من الوديان تجري فيها السيول حين تفيض مياه الأمطار وهذه الأودية تحدد طريق القوافل والحج.

وأهم الطرق البرية اثنان أحدهما يسير من العراق ماراً ببريدة في نجد ومنبعاً وادي الرمة والآخر من الشام ماراً بوادي سرحان متاخماً لساحل البحر الأحمر<sup>٤</sup>.

أما الخطوط التي تصل ما بين أنحاء الجزيرة المترامية فهي إما ساحلية تحف بكل أطراف شبه الجزيرة العربية أو داخلية تخترقه الجزيرة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي معرجة على الواحات الوسطى متجنباً المنطقة المتوسطة المعروفة بالربع الخالي<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 44.

<sup>٢</sup> - المرجع السابق، ص 44.

<sup>٣</sup> - المرجع السابق، ص 45.

<sup>٤</sup> - المرجع السابق، ص 45.

<sup>٥</sup> - المرجع السابق، ص 46.

ولا شك أن جفاف الهواء وملوحة التربة يحولان دون نمو النباتات وازدهارها ومع ذلك يكثر النخيل في الحجاز ويزرع القمح في اليمن وبعض الواحات ويزرع الشعير وتنمو الذرة في مناطق خاصة كما ينمو الأرز في عمان والحسا<sup>١</sup>. ويوجد في البادية عدة أنواع من شجر السقط (الأكاسيا وتسميها العامة الفتنة) ثم الأثل والأراك والصعتر والسمح والغضا الذي ينتج الفحم الممتاز<sup>٢</sup>. وقد كانت منطقة حسمي وأعالي الحجاز ذات غابات وقد تعبد أهله إله اسمه "ذونجابه" إله الغابات وكست الغابات جبال اليمن وجبال حضرموت وعمان<sup>٣</sup> ثم الطلح الذي يستخرج منه الصمغ العربي كما تنتج الجزيرة السّمح الذي تطحن حبوه دقيقتاً يستعمل في صنع العصيدة كما توجد الكمأة والسنا<sup>٤</sup>. وتكثر الكرمة في الطائف وقد استخرج فيها الشراب المعروف بنبيد الزبيب أما الخمرة التي تغنى بها شعراء العرب فقد استوردت من حوران ولبنان<sup>٥</sup>. ومن حاصلات الواحات العربية التين والزيتون والأعناب والرمان والتفاح والمشمش واللوز والبرتقال والليمون الحامض وقصب السكر والبطيخ والموز<sup>٦</sup>. واستعمال القرآن لهذه الفواكه يدل على معرفة أهل الحجاز فيها ويرجح أن الأنباط واليهود هم الذين أدخلوا هذه الفواكه إلى الجزيرة العربية من الشمال

<sup>١</sup> - د . فيليب حتي: تاريخ العرب، ص46.

<sup>٢</sup> - يستدل على وجود الغضا في تردد هذه الكلمة في الشعر العربي من ذلك قول الشاعر مالك بن الربيع:

ألا ليت شعري هل أبيت له ليلة  
بوادي الغضى أزجي القلاص النواجيا

<sup>٣</sup> - د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، مجلد أول، ص209.

<sup>٤</sup> - د . فيليب حتي: تاريخ العرب، ص46.

<sup>٥</sup> - المرجع السابق، ص 46.

<sup>٦</sup> - المرجع السابق، ص46.



ويقال أن البطيخ كان من أحب الفاكهة إلى الرسول ﷺ ويروي حديث نبوي مفاده أن البطيخ منقول من الجنة<sup>1</sup>.

وأخرج الخطيب فيما رواه مالك بن أنس قال: ((ليس في الدنيا شيء يشبه ما في الجنة إلا الموز ثم قال وإننا نرى الموز في الصيف والشتاء))<sup>2</sup>.

وتعتبر نخلة البلح ملكة عالم النبات في الجزيرة العربية فهي تنتج أطيب ثمر وأعمه إذ أن قوام الطعام عند البدوي لوانان: التمر والحليب وشراب التمر إذا خمر أصبح النبيذ المرغوب فيه ونواة المسحوق تصنع أقراصاً لعلف الجمال فالنخلة هي رمز الخير ولهذا أحيطت بهالة مقدسة ولا تزال السعف يزين بها وهي ثمرة مقدسة عند الساميين<sup>3</sup>.

وروي عن الرسول ﷺ قوله: أكرموا عمتم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم، وليس شيء من الشجر يلحق غيرها<sup>4</sup>، ويقال أن هذه الشجرة نقلت من بابل حيث كانت أعظم العوامل التي اجتذبت الانسان القديم للتوطن هنالك<sup>5</sup>.

وكان المؤرخ اليوناني "هيروdot" يرى أن بلاد العرب كلها كانت تفوح بالعطر والطيبول لأنها كما قال: ((البلاد الوحيدة التي تنتج المر واللبان والأقاصيا والقرفة واللاذن))، وهذا ما أكده الجغرافيين "سترابو" إضافة إلى ديدورس الصقلي<sup>6</sup>.

وتكثر الحيوانات في الجزيرة العربية ومن هذه الحيوانات: الأسد ممثل مملكة الحيوان ولا أدل على ذلك كثرة الكلام في لغة الجاهلية الدالة عليه<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص46.

<sup>2</sup> - السيوطي: حسن المحاضرة ي أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، 1321، ج2، ص254.

<sup>3</sup> - د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، مجلد أول، ص 207.

<sup>4</sup> - عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ص255.

<sup>5</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص47.

<sup>6</sup> - المرجع السابق، ص 77 وما بعدها.

كما عرفت الجزيرة النمر والفهد والضبع والثعلب وعرف الجاهليون من الطيور الكواسر العقاب والبازي والصقر واليوم والغربان. أكثر الطيور وجوداً الهدد والقبرة والعندليب والحمام ونوع من الحجل عرف بالقطا<sup>٢</sup>.

ومن الحيوانات الداجنة الجمل والحمار وكلب الحراسة والكلب السلوقي والهر والغنم والماعز<sup>٣</sup>.

ويكثر الجراد في الصحراء ويعتبره البدو طعاماً شهياً لا سيما إذا شوي وملح أما البغل فيقال: أنه أدخل إلى الجزيرة من مصر بعد الهجرة وكان الرسول ﷺ يؤثر ركوبه على ركوب الخيل<sup>٤</sup> وقد روي أن "دلولاً بغلة النبي" أول بغلة رثيت في الإسلام وقد أهداها المقوقس له<sup>٥</sup>.

وروي في سفر بشر بن أبي خازم الأسدي ما يشير إلى أن البغال كانت معروفة في بعض المواضع من الجزيرة<sup>٦</sup>.

والحمير واسطة هامة لدى أهل الحضر وهي لهم مثل الجمال للبدوي ويرى بعضهم أنها أقدم وجوداً في الجزيرة من الجمال<sup>٧</sup>.

والبقرة من الحيوانات القديمة وهي ملازمة لأهل الحضر خلافاً لأهل البادية على اعتبار أنها لا تتحمل المشاق<sup>٨</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 47.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 47.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 47.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 47.

<sup>5</sup> - د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجلد الأول، ص 201.

<sup>6</sup> - المرجع السابق، المجلد الأول، ص 201.

<sup>7</sup> - المرجع السابق، ص 201.

<sup>8</sup> - د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 201.

وكانت الأغنام تربي في كافة أنحاء الجزيرة<sup>١</sup> ووصفت بلاد العرب بكثرة الحيات الطائرة حتى زعم أن لبعضها أجنحة وشكل وجودها قصصاً في مخيلة الآشوريين واليونان والرومان ونرى أثر ذلك واضحاً وجلياً فيما عرض له "هيرودوت وسترابو" عن تلك الحيات<sup>٢</sup>.

وقد فزع جيش "اسرحدون" أثناء اختراقه البادية من كثرة الثعابين والحيات التي كانت تثور عليهم وتقفز أمامهم كما يقول نص "اسرحدون" وذكر هذا النص أن من بين ذلك ثعابين ذات رأسين كما أن منها ما له جناح تطير به<sup>٣</sup>.

ولما مر الجيش بأرض بوزو وجدها مغطاة بالثعابين والعقارب وهي من كثرتها مثل الذباب والبعوض<sup>٤</sup>.

وقد تدمر الإسرائيليون من الثعابين الطائرة وفزعوا منها عندما كانوا يقطعون البوادي في طريقهم إلى فلسطين<sup>٥</sup>.

أما الجمل فهو عصب الحياة في الصحراء فهو رفيق البدوي وصنو نفسه وحاضنته التي ترضعه فيشرب لبنه بدل الماء ويجعل طعامه من لحمه وكساده من جلده ويحوك بعض أجزاء خيمته من وبره ويتخذونه وقوداً وبوله علاجاً لتقوية الشعر ودواء يستشفى به<sup>٦</sup>.

والجمل فقد البدوي الذي يتبادل بواسطته السلع وهو وحدة القياس لمهر العروس ودية القتيل وأرباح الميسر وغنى الشيخ والجمل سفينة الصحراء وهو هبة الله ﴿وَاللَّائِمَاتُ حَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾<sup>5</sup> وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 201.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 205.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 205.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 205.

<sup>5</sup> - المرجع السابق، ص 205.

<sup>6</sup> - د . فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 49.

تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿6﴾ وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَنِيِّ إِلَّا بِشِقِّ  
الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ النحل/5-7، والبدوي كما يقول "شبرنغو" يعيش  
طفليلاً على الجمل وكثيراً ما يتباهى البدو بأنهم أهل البعير<sup>1</sup>.

ولا أدلّ على أهمية الجمل أن اللغة العربية ألف اسم للجمل في مختلف  
أنواعه وأشكاله ومراحله ونموه.

وذهب بعضهم إلى أن العربية الشرقية كانت الموطن الذي ذلّل فيه هذا الحيوان  
وقد استدلو على ذلك بأخلاق العراقيين القدماء على الجمل اسم حمار البحر  
وقالوا أن قصدهم من البحر الخليج وأنه لفضة الجمل (جملو- كملو) الاكادية: إنما  
وردت في بادية الشام ويرى "الدكتور جواد علي" على أن العرب استعملوا الجمل في  
الألف الثانية قبل الميلاد: ودخوله من البوادي إلى العراق دليل على أن العرب  
استخدموه أولاً ومنهم انتقل إلى العراق والبلاد الأخرى<sup>2</sup>.

ويرى "البريت" أن البداوة الحقيقية والتتقل من مكان لآخر ولم تظهر في جزيرة  
العرب إلا في أواخر النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد وذلك بتدليل  
الجمل وترويضه مما تفتح له أبواب البوادي والتوغّل فيها وقبل ذلك كان العرب  
يركبون الحمير ولم يتوغّلوا الصحراء لأن هذا الحيوان لا يتحمل الصحراء<sup>3</sup>.

فالجمل هو الذي فتح لأهل جزيرة العرب البوادي وجعل البداوة عالماً خاصاً يقابل  
عالم الحضارة في الجزيرة وصار الوساطة لنقل الأموال عبر المسافات الطويلة من  
الجزيرة ولقد عدّ المديانيون (وهم عرب) أغنياء لأنهم كانوا يملكون الجمال<sup>4</sup>.

1- د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 49.

2- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، المجلد الأول، ص 198.

3- المرجع السابق، المجلد الأول، ص 198.

4- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، المجلد الأول، ص 199.

ويبدو العربي في الآثار المصرية والآشورية والبابلية والفارسية القديمة  
جمالاً لا خيلاً وكان الجمل لا الحصان هو الذي يذكر عند جمع الجزيرة الذي كان  
يفرضها الفاتحون الآشوريون على الأريي (العربي)<sup>١</sup>.

وفي جيش "احشوبروش" الذي كان مصمماً على فتح اليونان ظهر العرب يركبون  
جمالاً وقد أنكر الجغرافيا في اليوناني "سترابو" وجود الحصان في الجزيرة العربية ولعله  
اعتمد في ذلك على ما رواه "بليوسغاليوس" القائد الروماني الذي غزا الجزيرة عام  
24 ق. م.<sup>٢</sup>

ولقد كان الجمل من العوامل التي سهلت الفتوحات الإسلامية الأولى إذ أنه أتاح  
لأصحابه سرعة في الحركة جعلتهم يتفوقون على أهل الحضرة وينسب إلى الخليفة  
الراشد عمر أنه قال: ((لا يفلح العربي إلا حيث يفلح الجمل))<sup>٣</sup>.

ويرى "الدكتور فيليب" حتى أن الجزيرة العربية عرفت الخيل بصورة متأخرة وأن  
هذا الحيوان أول ما ذل وروض على يد الشعوب الآرية ثم ادخل هذا الحيوان من  
سوريا إلى الجزيرة العربية قبل العصر المسيحي حيث تهيأت له السبل للاحتفاظ  
بنقاء دمه وخلوصه من الهجنة والاختلاط<sup>٤</sup>.

ومن الخيول العربية الأصيلة الكحيلات ويتميز بجمال جسمه وقوة احتماله  
ونباهته وإخلاصه لسيدته وتعلقه به وهو المثل الذي استمدت منه الآراء الغربية  
فيما يتعلق بتربية الخيول الممتازة<sup>٥</sup>.

ويعتبر أمر اقتناء الخيل في الجزيرة العربية من الأمور الكمالية فإطعامها والعناية  
بها مشكلة من مشاكل ابن الصحراء ولا يستطيع حيازتها إلا من مكان على سعة

<sup>١</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 48.

<sup>٢</sup> - المرجع السابق، ص 49.

<sup>٣</sup> - المرجع السابق، ص 51.

<sup>٤</sup> - المرجع السابق، ص 48.

<sup>٥</sup> - د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 48.

من العيش وأهم مزية للخيل عند البدوي هي سرعتها التي تحقق له النجاح في الغزو ويستعمل في اللهو والألعاب الرياضية كرمي الجريد والسباق والصيد .  
ومما لاحظته "موزل" أن البدوي وذويه قد يبيتون على الطوى في سبيل توفير شيء من الحليب والحبوب لفرسه<sup>1</sup> .

المحامي الدكتور برهان زريق

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 49.

## قراءة فلسفية لشخصية الجزيرة العربية

**طبعا** لا نقصد بالقراءة الفلسفية هنا التحليق في عالم الخيالات والماورائيات بقدر ما نقصد التحديق في العوامل الجغرافية الهامة الأساسية التي تلقي ثقلها وانعكاساتها العميقة على حياة الإنسان<sup>1</sup>، لاسيما أن الميزان «في العصور القديمة» كان يميل في إطار العلاقات الجغرافية البشرية والسياسية لصالح العوامل الجغرافية والطبيعية وليس لصالح الأفكار.

أجل كنا قد أغرقنا البحث السابق في التفاصيل وأفضنا في عرض الجزئيات، وبالطبع فلم نقصد تقديم هذه التموجات لذاتها بقدر ما كنا نود القبض على المادة العلمية الخام التي تساعدنا على بلورة صورة مركبة وعامة عن شخصية الجزيرة العربية وروحها أو علاقة ذلك بنشوء الأمة العربية الإسلامية.

---

<sup>1</sup> - جوردن ايسٲ: الجغرافيا توجه التاريخ، ترجمة د. جمال الدين الدناصوري، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع. ط2، 1982، وقد نتساءل عن الجغرافيا مغزاها ومرماها فأجاب بأنها وراء التاريخ وهي التي توجه التاريخ، وشدد على ضرورة البحث عن الأواصر والعلاقات الوثيقة بين التاريخ والأرض التي هي مسرح الأحداث، وفي رأيه أن الجغرافيا وثيقة تاريخية لا بد للمؤرخ من قراءتها.

وفي الحقيقة، من الصعب تقديم صورة موجزة عن شخصية هذا الكيان الجغرافي دون ارتكاب التبسيط والابتسار، كل ذلك بسبب ثراء وغنى العناصر التي يحفل بها هذا الكيان الجغرافي.

ومع ذلك يمكن القول أن الجزيرة العربية أرض التناقضات Land of paradox، إذ على مهادها ومهامها وبطاحها يتحايث ويتماهى قطبان متناقضان تناقضاً حاداً، هما قطب الشرنقة الصحراوية المتسعة المترصعة هنا وهناك بنثار من الواحات أشبه ما تكون بالأرخبيل في بحر من الرمال.

فعلى هذه الواحات وما يحيط بها من صحراء، يتجاور الموت والحياة، هنا أكسيد الحياة، وهناك الجنان الذي يكاد يكون قاتلاً.

فبالطبع فأكسيد الحياة يتوفر في العربية الجنوبية (اليمن)، وما أطلق عليها العربية السعيدة، وأن سقوط المطر فيها بصورة منتظمة يسمح بإقامة زراعة منتظمة كما سبق تحديده.

وهذه البقع المتناثرة في جسم الجزيرة وتجعلها في الصحراء ولكن ليس فيها ولهذا قيل عن الطائف أنها بقعة من الشام انتقلت إلى الجزيرة العربية...

وبالطبع، فهذا الاستقطاب الجغرافي ينعكس بحتمية على المورفولوجيا (التشكلات) الاجتماعية وعلى وسائل وصيغ الحياة Mode of vie، وهو الأمر الذي حدا ابن خلدون للكلام عن العمران الصحراوي مقابل العمران الحضري (عمران الوبر وعمران المدر)، ونجد هذا الأمر واضحاً في القرآن الكريم، فهو يرسم بدقة هذه المقابلة والتضاد في ثنائية أعراب وعرب، وفي الوقت نفسه فهو ينعي على الأعراب ويهمشهم ويحاصرهم ويسعه إغراقهم في الشطط وركوبهم متن المغلاة.



وإذا كان الاستبس (الصحراء) يعطي الجزية العربي قوة البر<sup>1</sup>، فإن شواطئها المطلة على البحار تسبغ عليها قوة البحر، وهذا يسر أبناء وهذه الجزيرة ركوب البحر واستخراج مكنوناته، بل وهذا ما يفسر أن شواطئها كانت عنق الهند وأفريقيا وبلاد فارس وبوابات حضارية وأنثروبولوجية للتفاعل الحضاري مع هذه البلاد، إضافة إلى كونها أسواقاً وشرابين اتصال لنقل التجارة من وإلى هذه الأقطار المذكورة...

وهناك دائرة أخرى تدور حولها الجزيرة العربية، هي دائرة العراق وبلاد الشام، وقد اتضح لنا أن هذين القطرين لا ينفصلان عن الجزيرة بمعالم طبيعية وإنما بمجرد تخوم أي بخط وهمي، وهذا ما سمح «عبر التاريخ المديد» بالتواصل والانتقال المستمرين من الجزيرة إلى القطرين المذكورين، وهو انتقال أقرب ما يكون إلى الامتصاص والانتشار الطبيعي العشائي (الاسموزي)، أي إلى التغلغل الزحزحة والتخلل لا الإزاعة.

والأمر نفسه بالنسبة لشبه جزيرة سيناء التي كانت بمثابة مصفاة بشرية تسرب من خلالها العرب إلى مصر وطبعوها منذ القديم بالطابع العربي.

وإذا استعرنا من الدكتور "جمال حمدان" مفهوم الموضع والموقع<sup>2</sup>، كجهاز مفاهيمي وآلية فكرية لفهم روح المكان، أمكننا القول أن معادلة شخصية الجزيرة العربية

تقوم على بعدين أساسيين هما قوة الموضع Site، وقوة الموقع situation.

فالموقع هو البيئة الطبيعية ذاتها بخصائصها وعناصرها، أما الموقع فهو فكرة هندسية تتحدد على أساس علاقة الموضع بما حوله من توزيعات جغرافية.

فالموقع هو الذي أهل الجزيرة العربية لأن تكون مفتاح العالم القديم، وأمدتها ببوابات متعددة على البحار، وفضلاً عن ذلك فقد حباها شرابين<sup>1</sup>، هامة

---

<sup>1</sup> - نقول قوة البر إذ اتضح لنا أن الصحراء في هذه الجزيرة تسمح بالارتباط المستمر بها بسبب وجود النبات وسقوط الأمطار إضافة إلى وجود بقاع أخرى تحتم الانتقال القبلي أو ما يسمونه الانتجاع.

<sup>2</sup> - د. جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، ص 22.

للمواصلات الدولية، شرايين خططتها الطبيعية، فجعلتها تسير بمحاذاة الأودية ومواقع الحياة والآبار، وتنتهي في العراق وبلاد الشام والعربية الجنوبية إضافة إلى الطرق الأخرى الممتدة من العربية الشرقية إلى العربية الغربية عبر مراكز الاتصال بالطرق الطولية الممتدة من الشمال إلى الجنوب<sup>1</sup>.

فهذا الموقع العالمي رشح الجزيرة لأن تكون من أهم مراكز القوى العالمية القديمة، ولكن الموضع لم يكن ليتكافأ مع خطورة الموقع الجاسم على ناصية العالم.

ذلك أن الموقع أشبه بصحراء ممتدة، يتخللها بعض الواحات التي لا تزيد مساحة أكبرها عشرة أميال مربعة، وبالطبع فهذا لا يسمح بقيام قاعدة بشرية أرضية استراتيجية، تكون مركزية جغرافية تستقطب الطاقات، وتشتع بجاذبيتها على ما بجوارها من بقاع.

وإذا ما استعرنا من عالم البيولوجيا فكرة ارتباط العضو بالوظيفة، أمكننا القول أن المركزية الوظيفية لا بد لها من مركزية جغرافية تركيبية، أي لا بد لها من العقدية الطبيعية، من بؤرة وعقدة تكون بمثابة المكوك - القطب - الذي ينسج اللحم والأسداء والنسج الضامة اللاحمة التي تحقق الاندماج والصحور.

ذلك أن الرأس الكبير لا بد له من حسم كبير، ومن ثم فالمستقرات الحضرية التي أقيمت في اليمن وفي العربية الشمالية لا يمكن أن تكون رأساً كاسحاً لأنه لم يتوفر لها إلا الجسم الكسيح، ومن ثم فلا بد لعظمة الصرح *super constitution* من قوة الأساس: صحيح أن مدينت اليمن ومملكة كندة امتدتا باتجاه الشمال، وأن

---

<sup>1</sup> - جوردون ايسن: الجغرافيا توجه التاريخ، ص 58، وقد حدد أثر الطريق كأثر لا يمحى على أديم الأرض وهو يلقي ببذور الحياة... المنازل والساكن والقرى والمدن.

<sup>2</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2، ص 220.

تاريخ الجزيرة العربية الطويل، شهد سيطرة المزيين على العدنانيين، ولكن ذلك لم يصل إلى درجة تكوين الوحدة السياسية- الشعب الواحد<sup>1</sup>. وإذا كانت الجزيرة لم تتوحد على صعيد الموضوع (الداخل)، قد توحدت على صعيد الموقع (الخارج). حيث ظهر ككيان خارجي وحيد وموحد في العلاقة مع الغير.

ذلك أن أهمية الجزيرة العربية كمفتاح للطرق العالمية البرية والبحرية، وسيطرتها على بترو العالم القديم (اللبان والتوابل والأفادية)، هذا الأمر شجع القوى العالمية (بلاد الشام - العراق - آسيا الصغرى - مصر) على محاولة للسيطرة على الجزيرة العربية، ولكن تلك الموهبة الطبيعية لهذه الجزيرة تمكنا من صد كافة الغزوات وحالت دون الوصول إلى قلبها<sup>2</sup>.

لقد ارتدت غزوات الآشوريين والبابليين واليونان والرومان، أما أبرهة الأشرم فقد كان جزاؤه خائناً ومفجعاً.

لقد كان هنالك أكثر من درقة تمتص الصدمات: جبال اليمن- غلالة الصحراء. حتى البحر الأحمر أي أن يكون خاصرة الجزيرة العربية التي توجه منها الضربات بسبب الشعب المرجانية التي في سواحلها<sup>3</sup>.

وهكذا أشبه جزيرة العرب لم تخضع للعبة شد الحبل التاريخية بين الطين والرمل والصراع بين قوة الصحراء وقوة الحضرة، ولم تخضع للقوى البحرية العالمية (الاسكندر)، وأخيراً لم تنكر القوى الرعوية الوثنية - برابرة المغوليات أن تهاجم هذه الديار، كما حدث للعراق وسوريا ومصر.

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ج1، وقد أكد على أن مدنيات اليمن قامت على نكرة الشعب لا القبيلة (انظر: البحث/المقال السابع والعشرون: عمران المدر والوبر في الجاهلية، في هذا الكتاب).

<sup>2</sup> - نقل بتونيد البابلي عاصمته إلى تيماء ولكنه لم يستطع التوغل في قلب الجزيرة والأمر نفسه بالنسبة لقابوس الروماني.

<sup>3</sup> - جوردن ايست: الجغرافيا توجه التاريخ، ص 105، وهو يرى أن الحدود كنصل الموسيقى يتوقف عليها نشوب الحرب أو استقرار السلم. حياة الشعوب فناؤها.

وإذا كان هنالك معجزة، فهي خلق الإنسان، وآلية ذلك<sup>1</sup>: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿20﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ المرسلات/20-21، إذا كان الأمر كذلك فإن المكان رشح الجزيرة العربية لأن تكون الأم الحاضن للأمة العربية.

وإذا استعرنا من "بيجهوت" مفهوم (فترة تكون الأجناس)<sup>2</sup> أمكننا القول أن الجزيرة العربية هي مشتل العروبة وضان جرثومة الأمة العربية وعناصر تكونها قامت بصورة صحية وسليمة على أرض هذه الجزيرة، وهذا ما يفسر لنا أن العرب يمتدون نسباً إلى قحطان وعدنان الذات بدورهما يرجعان إلى مصدر قوي واحد.

فقد كانت هذه الجزيرة بمثابة الرحم الجغرافي إلى جانب الدرفة الطبيعية (القرار المكين) التي امتصت الضربات، والأمر على خلافه، بالنسبة للمدنيات التي قامت في سوريا والعراق فقد تعددت المفارق التي هوت على رأسها، مما حال دون استمرار نموها بل وانقراضها.

لقد سكن العربي الجزيرة العربية منذ العصر المسمى بالبلايستوسين لاسيما أن هذه البطاح كانت كثيرة الحياة، وتغطيها الغابات الكثيفة<sup>3</sup>.

وقد عزز ذلك عثورهم في هذه الجزيرة على المحار من النوع الذي يعيش في المياه العذبة إضافة إلى الأدوات التي تنتمي إلى ما قبل التاريخ وقبل العصور الحجرية<sup>4</sup>، وهذا ما يرجح «على حد رأي الدكتور جواد علي» أن تكون الجزيرة العربية مهد السامية<sup>5</sup>.

1 - د. السيد فهمي الشناوي: مقال في مجلة الهلال، القاهرة، فبراير 1984، ص 6.

2 - د. جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، ص 42.

3 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج 1، ص 234، وانظر جوردن ايبست: الجغرافيا تواجه التاريخ، ص 139.

4 - المرجع السابق، ص 234.

5 - المرجع السابق، ص 234، وانظر د. فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 36.

ويرى الدكتور "جمال حمدان" أن الغطاء البشري الذي غطى العالم العربي هو بالأساس فرشاة واحدة من جذر واحد وقد امتدت هذه الفرشة في العصر الوسيط من المحيط إلى الخليج وكانت تنتمي إلى أصل واحد متوسطي. وفي العصر المطير، حين كانت الصحراء شعاعاً يسودها الصيد الحجري القديم كانت كثافة السكان مخلخلة جداً، ولكنها غطائية عالمية بصفة عامة، وفي هذا الإطار كانت الحركة والهجرة والترحل ظاهرة دائمة، وكان الاختلاط أساسياً يصعب عزله أو إيقافه<sup>1</sup>.

وكل الذي حدث بعد ذلك مع عصر الجفاف، تجمع كل مجموعة من السكان في رقعة محددة، وبذلك تحول الغطاء العالمي إلى الأرخبيل الذي نعرفه الآن، ومعنى هذا أنه حدث تقطع في الغطاء القديم المتجانس جنسياً إلى عدة رقع متباعدة جغرافياً، ولكنها ظلت متجانسة جنسياً، وهذا بالدقة هو مفتاح أنثروبولوجيا عالمنا العربي<sup>2</sup>.

فشعوب المنطقة - هم أساساً أقارب انفصلوا جغرافياً ابتداء من العراف والشام إلى الجزيرة العربية ومن مصر إلى المغرب والسودان، والتوطن المحلي والمؤثرات الدخيلة والتزاوج الداخلي الذي حدث بعد ذلك لا يمكن أن ينتج أكثر من انبعاثات محلية ضئيلة - لا تغير من وحدة الأصل الدموي وتجانس العرق، والألسن ويظل العالم العربي أو بيت العرب الجغرافي الكبير هو (دوار العرب) بمعنى الأسرة الموسعة التي تضم عدة أسر نووية أو خلوية<sup>3</sup>.

إذاً فهذه الدرقة التي تمتعت بها الجزيرة العربية حماتها من لعبة شد الحبل بين القوى العالمية وجعلها تتعامل خلال فترات التاريخ الطويلة مع العرب والعروبة، اللهم إلا بعض الاستثناءات البسيطة.

<sup>1</sup> - د. جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، ص 928.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 228.

فالجزيرة العربية هي الأم البيولوجية التي حمت العروبة وكونتها في رحمها، فهي عالم قائم بذاته، وإن كان عالماً غير مستغرق لذاته أو مجترأ لذاته، بل هو عالم تعامل مع الغير من خلال أرضية صلبة، من خلال مصفاة وبوتقة صهرت مجلوبات الغير، وليس من خلال بالوعة استغرقت الذات.

وإذا كانت هذه الأم قد شكلت معدن العروبة وبخارها فهي لم تستطع أن تكون الوحدة السياسية. بل أن هذا الأمر حسم على يد الإسلام، الذي استطاع ولأول - أن يحقق وحدة سياسية تشمل ما فوق تربتها وما تحت شمسها المشرقة. ومن جهة أخرى فلأول مرة يتصالح الموقع مع الموضع لا على أساس أن تكون الجزيرة دولة مرور بل لتكون النواة الصلب لأهم حضارة في العالم. ولا شك فقد كان دور الإسلام أكثر وأكبر من ذلك. إذ أمد الدين الحنيف هذا المشروع السياسي بالشرارة الإلهية كأعظم رسالة للناس أجمعين. وإذا كانت الجزيرة العربية هي الأدب البيولوجي للعرب، كان الإسلام هو الأب الروحي الذي أكسب هذا الجسد روحاً إنسانية جديدة.

زد على ذلك فهذا الكيان الجغرافي الواحد الموحد استطاع أن يكون إطاراً وبوتقة صهرت العرب في شور واحد تجاه الغير، فإذا بهذا الكيان معقلاً للعرب وإذا المساس به يعتبر مساساً بمسألة وطنية، نجد ذلك جلياً في حملة "غايوس الروماني" على اليمن وفي مقاومة أهل اليمن للأحباش، وأخيراً في الموقف العربي الموحد من حملة أبرهة الشرم، وكيف تعامل العرب مع هذه الحملة، يظهر ذلك في رمي المارة رمي قبر أبي رغال بالحجارة حتى تاريخه، واعتبار ذلك منسكاً وطنياً يعادل رمي الشيطان بالحجارة في مناسك الحج.

وهنالک نتيجة ثانية هي أن تلك المنصة التي توفرت للجزيرة العربية أورتت أهلها خصائص نفسية أخصها العزة والكرامة والشعور بالذات والتمسك بالحرية، بل وقد وصل الأمر بالجاهلي إلى تضخم الذات.

فالعرب هم الناس والآخرون هم العجم، وقد تعامل العرب مع هذا القانون بصرامة لم ينج منها العرب الذي اختلطوا بالغير كالأنباط مثلاً، ويمكن القول أن الإسلام لعب دور الشرارة التي ألهبت الوقود الحضاري الخامل في الجزيرة العربية ثم ذابت النار بالوقود

كما انصهر الوقود في النار، أو كان دور الإسلام دور الذكر في مملكة النحل الذي يلحق ملكة النحل.

أجل لقد قام الإسلام بدور خض أو تقلب عميق لجزيئات الجزيرة العربية، فأعاد مزجها وتركيبها ومنحها الروح، وإذ بالجزيرة العربية في هذه المرة رأس كاسح في جسم غير كسيح، وإذا نبوة الصرح العظيم الإسلامي، *super constitution*، تقوم على قوة الأساس *Sub constitution*.

المحامي الدكتور برهان زريق





## خطرات على تاريخ أم القرى

**هل** حقاً أن الجغرافيا هي الوحيدة وراء التاريخ تنسج عروقه، وتحرك أحداثه، وتدفع عجلاته<sup>1</sup>.

لا مرأ بأنه لا يمكن لأحد أن يفض طرفه عن صلابة هذا المبدأ أمام المحك التاريخي، بدليل تقوض العديد من الكيانات السياسية التي تأبت على الجغرافيا، من ذلك على سبيل المثال والتدليل مملكة تدمر، ومثلها معها من المدنات.

ولكن كيف نفسر تلك الاستمرارية الشامخة لأم القرى - مكة، وقد ألفت مرساتها في واد غير ذي زرع، لا تسعفه سوى قاعدة جغرافية كسيحة.

الجواب على ذلك بسيط، إنها إرادة السماء التي استجابت إلى دعاء أب العرب، سيدنا إبراهيم عليه السلام، فجعلت أفئدة الناس تهوي إليهم، وترزقهم من الثمرات، وكان إبراهيم يرفع قواعد بيت الله، وتشد إليه الرحال من كل فج عميق، ليذكروا الله على ما هداهم، وليطهروا البيت العتيق.

ثم كانت إرادة السماء مرة ثانية تهتف في روع محمد ﷺ حفيد إبراهيم، الأب الثاني للعرب، مستهضة إياه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿1﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿2﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿3﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿4﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ المدثر/1-5.

<sup>1</sup> - جوردن ايست: الجغرافيا توجه التاريخ، ترجمة د. جمال الدين الدناصوري، بيروت، دار النشر، الحداثة للطباعة والنشر، ط2، 1982.

ومع هذا فلا أحد ينكر دور الفاعل البشري «جنباً إلى جنب الفعل الإلهي» في توطيد سلاح هذه المدينة، وتعزيز دورها في النفوس، فإذا هي المحجة الأولى التي كشفت المحجات<sup>1</sup>، والنواة النووية التي استقطبت الشرايين، وجمعت حولها عروق الجزيرة العربية ولحمها... كيف نفسر قول الرسول الكريم ﷺ: ﴿إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ﴾، أو هل يعني هذا القول الخروج على مبادئ الشورى الإسلامية تقريراً لامتيازات خاصة، أم أن ذلك مجرد كشف وإعلان - «وليس حكماً أو تشريعاً» عن حقيقة من حقائق علم الاجتماع السياسي، مفادها أن الاجتماع هو الحامل للسياسة، الحامل للدين، وأن النمو الإنساني العام لهذه المدينة هو الذي تفتح عن الصحبة - صحبة رسول الله ﷺ، وتمخض عن المهاجرين الأولين، الطليعة التي حملت المسؤولية الأولى للنبا العظيم، والقرار المكين للدين الحنيف.

هل إن الإسلام «منفرداً» هو مفتاح شخصية أبي بكر وعمر وعلي وعثمان وأبي عبيدة وخالد وسعد، وغيرهم، أم أن الإسلام هو إضافة جديدة إلى شخصية هؤلاء، بالمعنى الذي يعنيه قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ النور/35، نور الفطرة الإنسانية، الفاعل البشري، والنور الإلهي - الفعل الإلهي.

لسنا نتمحل فهم أو تفسير التاريخ، إن قلنا أن الإسلام كان الصدمة الكهربائية التي فجرت برميل البارود، فانطلق العرب المسلمون في الدروب، يحملون أعظم رسالة خالدة.

نحن لا ننكر أن الفعل الإلهي، قادراً بالمعجزة على كل شيء، وقد لعب دوره في التاريخ الإسلامي من خلال أحداث عدة سواء في حماية الرسول ﷺ أثناء الهجرة، وتميز ذلك من الأمور، نحن لا ننكر ذلك، وإن كنا نقرر بيقين أن مدرسة القرآن عقلنت الحياة، ومنطقت الأحداث، وعلت المفاهيم، وسببت الأحكام، ورشدت

---

<sup>1</sup> - كانت هنالك محجات أخرى للعرب مثل ذي الخلصة "الكعبة اليمانية"، وبيت مناة في يثرب، وغير ذلك.

التاريخ، وفي ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾  
الرعد/11 .

إننا لا نملك مناقشة إرادة الله واختياره مكة مهبطاً للوحي، ولكننا نملك اليقين بأن هذه الشرارة الإلهية لم تكن تتحرك في فراغ، وإنما في جماعة بشرية متقدمة، تمخضت عن أفاذا حملوا أعظم رسالة في هذه المسكونة، ومثلوا أنبل فكرة للخلاص الأرضي والأخروي...

إن مجتمع مكة كان قد تخلّق عن ظواهر إنسانية متقدمة لا حصر لها:

- ظاهرة الحمس المتطهرين بالنسبة لظاهرة الحلة أو الطلس.
- ظاهرة الذادة وحلف الفضول انتصاراً لكل مظلوم.
- ظاهرة المخالطة - المؤاخاة في الجاهلية، وتعني إخراج جزء من أموال الأغنياء لصالح الفقراء.
- ظاهرة اللحم والمروءة، وغير ذلك من الأمور...

تتويجاً لكل ذلك، فقد ارتقى المجتمع في مكة إلى مرقى المدينة - الدولة الذي عهدناه في التاريخ اليوناني بما تتسع له هذه الكلمة من معان، وما تنطوي عليه من مؤسسات وبنى وأجهزة.

فما هو هذا المجتمع الذي على مربعه تكلم لسان السماء في أذن الأرض، هاتفاً في روع الأمين ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿1﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ المدثر/1-2.

قبل الكلام عن هذا المجتمع لا بد من أن نرخص لذلك بمقدمة بسيطة لتاريخ هذه المدينة، منذ أن فتحت عينيها على الحياة صعوداً حتى أن كان النبا العظيم...

## مكة (أم القرى)

ذكر "الأزرقى" أن هذه المدينة أسميت "بكة" لأنها تبك أعناق الجبابرة، وسمي البيت بـ (العتيق) لأنه عتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه، ولقدمه<sup>1</sup>.

أما "ابن هشام"<sup>2</sup> فيرى أن "بكة" اسم لبطن مكة لأنهم يتباكون فيها، أي يزدحمون، كما سميت بالناساة أو النساسة من الجذب، وأخيراً فقد سميت بالناساة من البس بمعنى التفتيت.

بيد أن ما يمكن الاطمئنان إليه أن هذه الكلمة أخذت من كلمة (مكربة) المحرفة عن (مقربة) وكلمة (مقربة) هذه كثيرة التكرار في المسند، وتفيد معنى الكاهن الذي يقرب الناس إلى الآلهة<sup>3</sup>.

وليس بعيداً أن تكون جرهم، أو خزاعة «وكلتاها يمانية» هما اللتان أطلقنا هذه التسمية لا سيما أن هاتين القبيلتين اتخذتا منها مقراً إدراكاً منهما بأهمية موقعها التجاري<sup>4</sup>.

وتروي الموارد العربية أن خزاعة أقامت من "عمرو بن لحي" ملكاً عليها في مكة، فهو المؤسس الأول لمكة «قبل قصي بن كلاب» وهو المتعبد الأول للأوثان الذي أنشأ معبد مكة، واستحضر له الأوثان المنحوتة له نحتاً جيداً بأيدي فنية، وعلى رأسها (هبل)<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى الفساني المكي: أخبار مكة، طبعة خياط، ج1، ص50.

<sup>2</sup> - أبي محمد عبد الملك بن هشام المعروف بـ ابن هشام: السيرة النبوية، النسخة الأولى، ص1414.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص10، ط1، 1970، دار العلم للملايين.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ج4، ص9.

<sup>5</sup> - المرجع السابق، ج4، ص12.

ويرى "دوزي" أن تاريخ مكة يرتقي إلى أيام داوود، وأن الشمعونيين (السمعونيين)، وهم بنو جرهم الذين بنوا الكعبة، وهذا يخالف رأي "Gibson" بأن هذه المدينة لم تعرف إلا في القرن الأول الميلادي مستنداً في ذلك إلى تاريخ (ديودورس الصقلي)، مع التنويه بأن بطليموس اليوناني الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، هو أول من ذكر اسم مكة في جغرافيته باسم (مكربة)<sup>1</sup>. ولكن ألا يمكن أن تكون هذه المدينة قائمة قبل أن يتعرض إليها هذان العالمان، وأنهما تعرضا إليها، وهي متألقة ولامعة، لا سيما أن الكتابات التمودية تكلمت عن رجال عرفوا باسم (مكي)<sup>2</sup>. ولا أدل على عراقية هذه المدينة وتألقها في الحياة الجاهلية احترام التبابعة لها، إذ ذكر الأخباريون العرب أن التبغ (أسعد أبو كرب) الحميري وضع الكسوة على البيت الحرام، وصنع له باباً ومنذ ذلك الحين جرت العادة على كسوة البيت<sup>3</sup>. أما الموارد الإسلامية، فتشير إلى أن الله تعالى لما بوأ لإبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، ومعه اسماعيل وأمه هاجر، واسماعيل طفل يرضع، ومعه جبريل يدلّه على موضع البيت ومعالم الحرم...

حتى قدم مكة، وهي إذ ذاك عضاة من سلم وسمر، وبها ناس يقال لهم العماليق خارج من مكة فيما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء... ثم انصرف إلى الشام وتركها عند البيت الحرام، ومع أم اسماعيل شنة فيها ماء، وليس معها زاد، فجاع ابنها، وكاد يموت فأخذت تنظر حولها باحثة عن من يسعفها، وأخذت تنظر إلى الصفا والمروة، وقالت لو مشيت بين هذين الجبلين فمشيت بينهما سبع مرات...

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص12.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ج4، ص12.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ج4، ص17.

فخرج لها جبريل فتبعته حتى ضرب برجله فكان البثر «يعني زمزم»، فظهر ماء فوق الأرض، حيث فحص جبريل، فاستقت ودرت على ابنها<sup>1</sup>.

ومر "بهاجر" ركب مهاجر هم قافلين من الشام، فأروا الطير على الماء، فقدروا وجود ساكنين، فحولوا طريقهم، ووجدوا "هاجر" وابنها واستأذنوا بالنزول معها، فأذنت لهم، وعاشوا معاً، ولما كبر الطفل زوجته أحد بناتهم وبعد فترة من الزمن جاء إبراهيم مستظلاً أخبار زوجته وابنه، وتعاون مع ابنه على بناء البيت، ولما انتهى من ذلك، جاء جبريل فعلمهما الطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة وبقيت مناسك الحج، ثم أمرهما بأداء الصلاة وبالمناداة على الناس لأداء مناسك الحج<sup>2</sup>.

واستمر أولاد وأحفاد اسماعيل في خدمة الكعبة ورئاستها حتى كانت الرئاسة لقريش، وكانت هذه القبيلة تسكن مكة، ولكنهم تفرقوا إلى الشعاب بسبب قلة الماء<sup>3</sup>.

وكان كلاب بن مرة «وهو من سادة قريش» قد تزوج من فاطمة بنت سعد، فولدت له عدة أولاد منهم "قصي"، ولما توفي الأب تزوجت فاطمة من ربيعة العذري، فخرج بها إلى بلاد قومه، فحملت معها "قصي"، ولما كبر هذا ترك أمه ولحق بمكة، وكانت حجابة الكعبة إلى خزاعة، فعمل مع قومه على انتزاعها منهم، وولي قصي أمر مكة والحكم، وجمع قبائل قريش<sup>4</sup>.

وإذا كان من الصعب إعطاء صورة دقيقة ونهائية عن تاريخ هذه المدينة، فمما لا شك فيه أن مركزها الديني «الذي نشر الأمن على ربوعها» ومركزها التجاري

---

<sup>1</sup> - الأزرقى: أخبار مكة، ج 1، ص 22.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 22.

<sup>3</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر، دمشق، ط 3، 1983، ص 227.

<sup>4</sup> - هنالك رأي بأن قبيلة عذرة النصرانية حليفة البيزنطيين، أيدت قصي في السيطرة على مكة.

كعقدة مواصلات بين الشام واليمن والعراق- هما اللذان جعلتا منها أهم مركز في العالم القديم لنقل بضائع الهند ومنتجاتها وطبواب اليمن ومرها<sup>1</sup>.

ومما ساعد على ازدهار هذه المدينة سقوط الدول الحميرية بيد الأحباش، واضطراب التجارة العالمية المارة في العراق بسبب النزاع الضاري بين الفرس والروم، مما هيء لملكة أن تنفرد بالشرايين التجارية في هذا العالم القديم.

هذا وتشير إلى أن هذه المدينة لم تكن مجرد محطة على طريق القوافل، بل إن أهلها أنفسهم ساهموا في النشاط التجاري العالمي، إذ تاجروا مع العراق وخاصة مع الحيرة، وكانت لطائمتهم تحمل المسك ومنتجات الحيرة إلى أسواق الحجاز، كما كانوا ينقلون من الحيرة منتجاتها، فقد كان نشاطهم واسع مع بلاد الشام إذ يأتون إليها حاملين بضائع الهند، ويعودون ومعهم الحبوب والزيت والخمور والأسلحة والمنسوجات والجواري، وكان الصيف هو الفصل<sup>2</sup> الذي تقصد فيه قوافلهم بلاد الشام، وتزور مدن غزة (حيث دفن هاشم جد النبي ﷺ) وأيلة وبصرى.

أما مع الحبشة، فقد كانت تجارتهم تجري عن طريق البحر، وكانت رحلاتهم التجارية إلى اليمن تتم في فصل الصيف، ولا أدل على هذه الأهمية التجارية لقريش كثرة الألفاظ المتعلقة بالتجارة الواردة في القرآن مثل: حساب - ميزان - قسط - ذرة - مثقال - قرض.

ولم يقتصر الرجال على هذه المهنة، بل تعدى الأمر إلى النساء، ومن هؤلاء خديجة

بنت خويلد زوج النبي ﷺ التي أرسلته في أحد المرات مع قافلتها إلى الشام... وكثيراً ما كان تجهيز القافلة نتيجة مجهود يشترك فيه العديد من الناس، كما كانوا يكرسون لذلك عدداً كبيراً من الفرسان الذين يحمونها من الغزاة وهذا ما دفعهم أيضاً إلى تأمين الاستقرار في الطرق التي يعبرونها عن طريق إبرام المعاهدات مع القبائل المسيطرة على طريق الشام واليمن (الإيلاف).

<sup>1</sup> - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص228.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص230.

وقد أدى هذا الازدهار إلى نشوء أعمال مصرفية، وظهور فئة من الصيارفة إضافة إلى المرابين الذين يقومون بالإقراض بفوائد فاحشة<sup>1</sup>.

## قريش

إن اسم قريش يقترب باسم مكة، فقد لونت هذه القبيلة حياة مكة، وشغلت أرجاء تاريخها، الأمر الذي يتعذر معه تحديد تاريخ هذه المدينة دون إجراء حفر عميق على تاريخ القبيلة المذكورة.

لقد أشرنا إلى أن السيادة في مكة كانت لجرهم، وإن خزاعة «على أثر سقوط يد مأرب» هاجرت وتغلبت على "جرهم" وحلت محلها في السيادة. وظلت "خزاعة" تتبوأ أمر مكة، وتقبض على مقدراتها حوالي ثلاثة قرون، كانت قريش خلال ذلك متفرقة في بني كنانة حتى تزعمها قصي بن كلاب، وصنع حكمها.

ويربط النسّابون العرب نسب قريش لاسماعيل بن إبراهيم، ويقولون أنها من نسل عدنان حفيد اسماعيل، وإن تسمية (قريش) أطلقت على النضر بن كنانة<sup>2</sup>، بسبب تجارته ويساره وقوته (كالقرش في البحر)، وقيل بسبب تقريشه عن حاجات الناس فيسدها بماله، وقيل أن التقريش يفيد التجميع، وإن هذا الوصف أطلق على قصي (المجمع)<sup>3</sup>.

ويرى "الأستاذ رضوان السيد" أن لفظة (قريش) تخفي وراءها جهازاً مفهوماً يمثل طموح التوحيد على جذر اجتماعي، وهذا هو التقليد التوحيدي الإبراهيمي...

<sup>1</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص 230.

<sup>2</sup> - كنانة بنت خزيمة بن مدركة بن الياص بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

<sup>3</sup> - محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك أو تاريخ الرسل والملوك المعروف ب تاريخ الطبري، ج 2، ص 263، وانظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 4، ص 39.



وهذه الرؤية العربية القديمة للتاريخ والتوحيد الاجتماعي فيه ترى أن جذر الاجتماع الذي يقوم عليه يستمر به هو النص (التقليد) المتوارث عن إبراهيم باني البيت لرب البيت، وقد تولت جرهم البيت من اسماعيل، فلما انحرفوا عن تقليد التوحيد انخرعت (أي انقسمت وفارقت) خزاعة لتؤسس اجتماعاً جديداً لم يطل كثيراً بسبب البدعة التي استخدمها كبيرهم عمرو بن لحي متأثراً بأعراب الشام، ثم تفرشت (أي تجمعت) كنانة من تفرقتها بزعامة قصي لتسقط انحراف خزاعة، وتعيد تأسيس التقليد التوحيدي<sup>1</sup>.

فقصي «إذا» حسب هذا الرأي هو أول من أصاب الملك من ولد كعب بن لؤي، وإليه ينسب تقسيم قريش إلى طبقتين: قريش البطاح، وقريش الظواهر، أما قريش البطاح، فهم الذين نزلوا بطحاء مكة ويطننها، وهم مادة القرشيين ومن بينهم بنو هاشم وبنو أمية، وكانت منازلهم في الشعب بين أخشبي مكة (جبلها أبو قيس وما يقابله)<sup>2</sup>.

أما قريش الظواهر، فهم الذي سكنوا خارج الشعب، وكانوا أقل منزلة من قريش البطاح، ومنهم بني هصيص بن كعب بن لؤي، وتيم بن مرة، ومحارب والحارث ابنا فهر<sup>3</sup>.

وإلى جانب هؤلاء كان يسكن مكة الأحلاف، وهم القبائل التي لم تكن من قريش، ولكنها كانت متحالفة معها، والأحابيش وهم جماعة من بني الحارث بن عبد مناة من كنانة، ومعهم الهون بن خزيمة بن مدركة، ثم بنو المصطلق من خزاعة، وقد تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش لأنهم سكنوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - د . رضوان السيد : مفاهيم الجماعات في الاسلام، دار التنوير، بيروت، ط1، 1984، ص12.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص12.

<sup>3</sup> - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص233.

<sup>4</sup> - سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص373.

وقد ابتنى قصي لنفسه داراً جعل بابها إلى الكعبة الأحبش، وجعل منها مجلس شورى لقريش ودار حكومة لها، وسماها دار الندوة، وكانت قريش بعده لا تقضي أمراً إلا فيها<sup>1</sup>.

ولقد نظم قصي أمور مكة الداخلية والخارجية لا سيما ما يتعلق بخدمة البيت الحرام، وهي الوظائف: السقاية - الرفادة - اللواء - الحجابة - رئاسة الندوة. لقد ولي "عبد الدار" مكانة أبيه "قصي" بعد وفاته، ولكن أحفاد "عبد الدار" وأحفاد أخيه "عبد شمس" تنازعوا سيادة المدينة ووظائفها وغدت مكة منقسمة إلى فريقين متخاصمين، فريق "بني عبد مناف" يساندهم بنو أسد و"زهرة وتيم والحارث بن فهر"، وفريق "عبد الدار" يساندهم "بنو مخزوم وسهم وجمح وعدي"، بينما ظل على الحياد "بنو عامر بن لؤي ومحارب"<sup>2</sup>.

وعقد كل قوم، على أمرهم حلفاً، حيث أخرج بنو عبد مناف وأحلافهم جفنة مملوءة طيباً، فوضعوها حول الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها، وتعاهدوا ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين.

وأخرج بنو عبد الدار ومن كان معهم جفنة من دم، وغمسوا أيديهم فيها، وتعاهدوا وسموا الأحلاف أو لعقة الدم<sup>3</sup>.

ولقد تهيأ الفريقان للقتال لولا مساعي الصلح، وتوصلوا إلى اتفاق تقاسموا بموجبه الوظائف المتعلقة بخدمة الكعبة ورئاستها<sup>4</sup>.

ويعتبر حلف الفضول الذي ساهم فيه الرسول ﷺ قبل البعثة امتداداً لحلف المطيبين، وقد عقد هذا الحلف في دار عبد الله بن جدعان، حيث تمخض عن

<sup>1</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص234.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص234.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص234.

<sup>4</sup> - محمد بن سعد بن منيع المشهور بابن سعد: الطبقات الكبير، ج1، ص77.

اتفاق لنصرة المظلوم، وكان أعضاء هذا الحلف فئات من قريش اشتركت في حلف المطيبين، وتتألف من بني هاشم والمطلب ابني عبد مناف وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة وبني الحارث بن فهر، وكان بنو عبد شمس وبنو نوفل هم المطيبون الوحيدون الذين لم يشتركوا في الحلف الجديد<sup>1</sup>.

والملاحظ أن الفئة الأولى ضمت جماعة حلف الفضول باستثناء أسد التي حل محلها بنو عدي، كما أنه كانت بين الفئتين الثانية والثالثة علاقات ود ومصالحة مشتركة لا سيما في الأمور التجارية<sup>2</sup>.

### التنظيم السياسي في مكة

ما هي هذه التنظيمات في ذلك المستقر الحضري الذي وصف بأنه مدينة دولة Cite-State، وبأن فيها مجلس بلدي يعتمد قيوداً وسجلات، أو ما تردد في الأدب السياسي العربي باسم (الملأ)<sup>3</sup>. يمكن القول أن هذا الملأ هو الأداة الحكومية الوحيدة في مكة قبل الإسلام، وهو عبارة عن مجمع يضم رؤساء بطون قبيلة قريش والوجهاء منها، الأمر الذي حدا بعض المؤرخين للمماثلة بين الملأ وبين أعضاء مجلس الشيوخ في أثينا الذين كانوا يجتمعون في المجلس Ekk Lesia<sup>4</sup>.

---

<sup>1</sup> - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص234.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص234.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص234.

<sup>4</sup> - د . جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص47.

ولهذا السبب فلم يكن يدخل دار الندوة إلا ابن الأربعين، أو ما يزيد على ذلك، اللهم إلا بعض الاستثناءات، كما حدث بالنسبة لأبي جهل وحكيم بن خزام<sup>١</sup>. بيد أن قرارات المملأ لم تكن تصدر على أساس الأغلبية النسبية أو الخاصة، بل كان يشترط بها موافقة جميع رؤساء البطون، الأمر الذي يمكن وصفها بالاستشارية، كما حدث بالنسبة لمقاطعة بني هاشم عندما ناصرُوا الرسول ﷺ<sup>٢</sup>. ولهذا السبب فالمملأ لم يكن يضطلع إلا في الأمور العامة التي تعم المدينة بأجملها كما لو تعرضت لخطر، أو في حال عقد المعاهدات، أما الشؤون الخاصة بالبطون أو الأسر أو الشعاب، فقد كان النظر بها من شأن رؤسائها...<sup>٣</sup>. إذا لم يكن هنالك في مكة حكومة مركزية، وإنما كان الأمر لأصحاب الجاه والنفوذ والمنزلة وذوي السن والوجاهة والرئاسة والشرف، وكان هؤلاء يحكمون بموجب الأعراف السائدة في الجزيرة العربية<sup>٤</sup>. وكان يتم في دار الندوة الكثير من الأمور كعقود الزواج والاحتفال ببلوغ البنات سن الحلم<sup>٥</sup>، مما يشبه ما كان يحدث لدى الإغريق إقراراً ببلوغ سن المواطنة<sup>٦</sup>. وكما قلنا سابقاً فقد شجر خلاف بين بني عبد الدار وبني عبد مناف حول وظائف مكة، وقد انتهى الخلاف على أن تكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة<sup>١</sup> واللواء ودار الندوة إلى بني عبد الدار<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> - عبد الملك بن محمد الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص 518.

<sup>٢</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 4، ص 48، وانظر د. نبيه عاقل: تاريخ

العرب القديم، ص 239.

<sup>٣</sup> - المرجع السابق، ج 4، ص 48.

<sup>٤</sup> - المرجع السابق، ج 4، ص 48.

<sup>٥</sup> - سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص 125.

<sup>٦</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص 239.

وكان عبد شمس بن عبد مناف الذي آلت إليه السقاية والرفادة فقيراً كثير العيال فتنازل عن هاتين الوظيفتين لأخيه هاشم الذي كان موسراً يستطيع الاضطلاع بنفسهما<sup>٢</sup>.

ونظراً لأهمية هذه الوظائف التي أقرب ما تكون إلى المرافق العامة، فسنقدم لها وصفاً بسيطاً موجزاً.

#### الحجاجة:

وهي امتلاك مفاتيح الكعبة والإذن للناس بالوصول إليها وإقامة الشعائر الدينية فيها، ولا يشترط أن يكون القوام بذلك كاهناً<sup>٣</sup>.

#### الرفادة:

هي خرج تخرجه قريش كل موسم من أموالها إلى قصي ليصنع منه طعاماً للحجاج.

ويذكر الإخباريون أن قصياً استصرخ قريشاً قائلاً: ((يا معشر قريش إنكم جيران الله، وأهل بيته الحرام، وإن الحجاج ضيوف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيوف بالكرامة، فاجعلوا لهم شرباً وطعاماً أيام هذا الحج حتى يصدروا، ففعلوا، وجرى ذلك حتى قيام الإسلام، وكان كل إنسان يدفع من المال بما يتناسب مع ثروته))<sup>٤</sup>.

وكانت هذه الوظيفة لبني عبد الدار، ثم آلت إلى بني هاشم، ثم المطلب بن عبد مناف ومن بعده لعبد المطلب، ثم لأبي طالب الذي بقي قائماً بهذه المهمة حتى جاء الإسلام.

---

<sup>1</sup> - السدانة، أو الحجاجة فصاحبها يحجب الكعبة، ويبيده مفتاحها، يفتح بابها للناس ويفلقه ومنصب السدانة أبرز المناصب على الإطلاق.

<sup>2</sup> - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص239.

<sup>3</sup> - سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص135.

<sup>4</sup> - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص239.

<sup>5</sup> - الطبري: تاريخ الطبري، ج2، ص260، وانظر الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص67.

وقد استمر الرسول ﷺ في تقديم الرفادة للحجيج، وقلده في ذلك الخلفاء الراشدون، ومن جاء بعدهم من خلفاء<sup>1</sup>.

#### السقاية:

وهي جمع الماء من آبار وحمله على الإبل في المزاد والقرب وسكبه في حياض من أرم توضع في فناء الكعبة من أجل سقيا الحجاج. وسار على سنته في ذلك هاشم، وما زال هاشم قواماً على ذلك حتى توفي فقام بها من بعده ابنه عبد المطلب...

وكان لعبد المطلب إبل كثيرة، فإذا كان الموسم جمعها وحلبها، ومزج حليبها بالعسل، ووضع المزيج في حوض من أرم عند زمزم ليشرب منه حجاج البيت، وكان يشتري الزبيب ويضعه في ماء زمزم حتى يستطيع الناس شرب ماء هذا البئر الذي كانت توصف ماءه بالغلظة.

ولبث عبد المطلب على ذلك وتبعه بهذه المهمة ابنه العباس، وكان للعباس كرم بالطائف يأخذ زبيبه، ويضيفه إلى ماء زمزم لسقاية الحجاج<sup>2</sup>.

#### اللسواء:

وهو العلم الذي يحمل في المعارك، ويدافع عنه من يحمله حتى الموت، وكان حملة لبني عبد الدار.

#### النسيء:

وهو يتعلق بتحديد الأشهر الحرم الأربعة التي يحرم فيها الحرب والقتال وما يتفرع على ذلك من نتائج أهمها انتقال القبائل من أجل أداء مناسك الحج.

وهذه الأشهر هي: ذو القعدة - ذو الحجة - محرم - رجب.

هذا وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأشهر، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ

<sup>1</sup> - الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص67.

<sup>2</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص242.

الْقِيَمِ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿التوبة/36﴾ .

ومن المعلوم أن العرب كانت تستخدم التقويم القمري، وهذا ما يؤدي إلى اختلاف الشهور في هذا التقويم عن التقويم الشمسي، مما يخل بحلول أشهر الحرم في مواعيد فضلية معينة، وبالتالي مما يخل برحلتى الشتاء والصيف اللتين تقعان في فصلين ثابتين بغض النظر عن الأشهر الحرم.

لهذا فإن العرب كانت تكبس كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء لكي تتطابق السنة الشمسية مع القمرية، وهذا يؤدي إلى حدوث تغيير في الأشهر الحرم، وكانت النسأة في بني مالك بن كنانة<sup>1</sup>.

ولقد رفض الإسلام النسيء وهذا ما يتضح من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّوْنَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطُّوْا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾  
التوبة/37.

واعتبر الإسلام شهر محرم أول شهور السنة، ثم تتباعد الشهور دون نسيء، وفي ذلك قال الرسول ﷺ في حجة الوداع يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الرِّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ، فَلَا شَهْرَ يَنْسَأُ، وَلَا عِدَّةَ تَخْطَأُ، وَإِنَّ الْحَجَّ فِي ذِي الْحِجَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

#### الإجازة:

هي الإفاضة، أي إجازة الناس بالحج من عرفة، وقد تولى هذا المنصب الغوث بن مر بن الياس بن مضر وأولاده من بعده، وسمي الغوث وأولاده (بني صوفة) لأن أمه حين جعلته ربيباً للكعبة علقت برأسه صوفة<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص204.

وكان بنو صوفة يدفعون بالناس من عرفة ويجيزون بهم إذا نفرُوا من منى، فإذا كان يوم النفر أتوا لرمي الحجار، ورجل من صوفة يرمي للناس لا يرمون حتى يرمي، وكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له: ((قم فارم حتى نرمي معك، فيقول: لا والله، حتى تميل الشمس...))، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى، ورمى الناس معه، فإذا فرغوا من رمي الحجارة، وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانب العقبة، فحبسوا الناس، وقالوا أجزى صوفة، فلم يجز أحد من الناس حتى يمروا، فإذا نفرت صوفه خلى سبيل الناس، فانطلقوا بعدهم<sup>٢</sup>.

### قريش والقبائل الأخرى

لا مرأ أن مكانة كل قبيلة في الجاهلية كان متوقفاً على قوتها العسكرية، وهذا الأمر كان متوفراً لدى قريش، وإن كان "لامانس" ينفي هذه القوة، ويردها إلى ما كانت تملكه من العبيد السود المرتزقة ذوي الأصول الإفريقية، وهم الذين سمو الأحابيش.

ولقد تولى "الدكتور نبيه عاقل" الرد على "لامانس" في نقاط نجتزئ منها ما يلي<sup>٣</sup>:  
آ- يتضح من النصوص المختلفة التي عرضت للأحابيش أن هؤلاء قبائل عربية كانوا يسكنون مكة، وتربطهم بقريش روابط المحالفة.

ب- لا يمكن التعويل على المعيار اللفظي للقول بأن هؤلاء من الحبشة، بل إن هذا الأصل اللغوي قد يكون مستمداً من كلمة (أحبوش) أو (أحبوشة): بمعنى الرجال غير المنتسبين إلى قبيلة واحدة، حسبما جاء في تفسير هذه المادة في لسان العرب، وغيره.

<sup>1</sup> - الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص128.

<sup>2</sup> - تاريخ ابن هشام، القسم الأول، ص119.

<sup>3</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص247.



ج- تؤكد النصوص أن هؤلاء كانوا منظمين تنظيمياً قبلياً، ولا يستطيع أفراد لا قرابة بينهم أن يدعوا أنهم قبيلة واحدة، وأن ورود كلمة (سيد الأحابيش) في النصوص يدل على هذا التنظيم القبلي إذ أن كلمة سيد تطلق فقط على ذلك. ويتابع الدكتور نبيه عاقل في تحديد مصادر قوة قريش العسكرية، وأهمها التحالفات والمصاهرات التي أمضتها مع القبائل، لا سيما التي لها علاقة بالطرق التجارية.

### السياسة الخارجية لمكة

كانت هذه المدينة تعاصر امبراطوريتين هما الامبراطورية الفارسية والبيزنطية إضافة إلى ذلك دولة ثالثة هي الحبشة.

فبيزنطا كانت تحتاج إلى منتوجات الشرق الثمينة، أما فارس «المسيطرة على الطرق التجارية البرية عبر الصين والهند، والطرق التجارية البحرية من الهند وسيلان وعبر الخليج العربي» فكانت تقف حجرة عثرة في وجهها، وتوقع ضرائب باهظة عليها.

وهكذا لم يكن هنالك أمام بيزنطا إلا طريق واحدة تمر عبر الجزيرة العربية إلى سورية، ثم طريق البحر الأحمر ذي الشعب المرجانية التي تجعل الملاحة البحرية قاسية.

ولهذا السبب فقد قام الإمبراطور "جستينيان"، فأنعى على الأمير، الغساني - الذي كان نائب عنه في حكم سورية الجنوبية بلقب "فيلارك" وأوكل إليه أمر توسيع حدود بيزنطة وتوطيد نفوذها، كما أقام علاقات وطيدة مع الحبشة النصرانية رغم الخلافات المذهبية بينهما، وهذا ما مكن للحبشة باحتلال اليمن عام/525م بتشجيع من "جستينيان".

ومع ذلك فقد استطاع الفرس عام/570م أن يطردوا الأحباش من جنوب الجزيرة العربية، وأن يقيموا حكماً موالياً لهم، كما حاولوا «عن طريق حلفائهم

المناذرة في الحيرة» أن يوجهوا تجارة اليمن البرية إلى فارس، مما أدى إلى نشوب حرب الفجار إضافة إلى موقعة ذي قار<sup>1</sup>.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بقي كثير من القوافل يستعمل طريق الشاطئ الغربي للجزيرة العربية عبر مكة<sup>2</sup>.

هذا ولا بد من التدليل بالصدقة التقليدية التي كانت تشد مكة إلى بيزنطة، ومن مظاهر ذلك دعم بيزنطة لقصي بن كلاب في نزاعه مع خزاعة ومناصرتهم له في توطيد حكمه، وذلك عن طريق الغسانيين، وقبيلة عذرة، القبيلة النصرانية التي كانت تعيش قرب الحدود السورية، وتخضع للنفوذ البيزنطي<sup>3</sup>.

وبالطبع فإن غزو الأحباش لليمن كان حادثاً سعيداً بالنسبة لتجارة مكة، وإلى هذه الفترة التي ساد فيها السلم والهدوء طريق التجارة، وتوقفت المنازعات بين فارس وبيزنطة، إلى هذه الفترة يعزى ازدهار مكة التجاري.

وهكذا فقد أقام "عبد شمس" علاقات ود وصداقة مع الحبشة كما أقام هاشم علاقات مماثلة مع سورية، والمطلب مع اليمن، ونوفل مع العراق (الإيلاف أو العصم).

ويبدو أن العلاقة الطيبة مع الحبشة لم تدم طويلاً لأننا سمعنا أخريات عهد الاحتلال الحبشي لليمن عن حملة حبشية على مكة بقيادة "أبرهة" كان هدفها تدمير الكعبة والسيطرة على التجارة، وقد عادت هذه الحملة مذمومة مدحورة<sup>4</sup>.

وحيثما احتلت فارس جنوب الجزيرة العربية كان لزاماً على مكة أن تلتزم جانب الحياد، وبما أن الغزو الفارسي كان بحرياً، لذلك فقد كان صعباً، وكانت قبضة

---

<sup>1</sup> - سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص184.

<sup>2</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص250.

<sup>3</sup> - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: المعارف، ص313.

<sup>4</sup> - سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص43.

الفرس هي بدورها ضعيفة لا سيما أن هذه القبضة لم تمتد إلى بقية أرجاء الجزيرة العربية.

ولقد استفادت مكة من ذلك فعززت قوتها العسكرية، ولما حدثت حرب الفجار «التي وقعت مباشرة عقب إقصاء الأحباش عن اليمن بوقت قصير» بدا واضحاً أن لمكة أهدافاً تجارية تخالف مصالح الفرس، وأن هذه الأهداف هي السيطرة على هذا الطريق أو إغلاقه، ومن ثم فإن انتصار القرشيين يعني وصولهم إلى غايتهم<sup>1</sup>.

وعلى هذا يمكن تفسير حلف الفضول على ضوء الملاحظات السابقة، وليس على أساس السبب الخاص، ومفاده أن شخصاً من بني سهم رفض أن يدفع لتاجر يمني ثمن سلعة، ومن ثم فالسبب الحقيقي هو أن أغنياء قريش «وسهم منهم» كانت تريد أن تقصي اليمن عن تجارة الجنوب، وتحصر ذلك بها خلافاً لبني هاشم ومن والأهم وهكذا حدث التكتل ضد تكتل الأغنياء في مكة ولا سيما أن كتلة الهاشميين لم تكن على جانب من الثروة، لذلك فقد قبلت التعامل مع أهل اليمن<sup>2</sup>.

وعلى أساس واقع مكة التجاري ومصالح بيزنطة، قد فسرت محاولة عثمان بن الحويرث لتتويجه ملكاً على مكة ومساعدة البيزنطيين له، ثم رفض المكيين لذلك، ومن ثم فشل المشروع البيزنطي<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص258.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص259.

<sup>3</sup> - أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ص146، وانظر سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص222.

## طبيعة المجتمع المكي

الوقائع... الوقائع... الوقائع... مزيدها وكثافتها هما اللذان يتيحان لنا إعطاء صورة تركيبية تحليلية عن الظاهرة، ومن ثم فكلما اكتملت الوقائع كلما أمكن بلورة الظاهرة، وإعطاء صورة دقيقة ومتكاملة.

على هذا الأساس اسمي هذا العصر بعصر الثورة المعلوماتية وسرت فيه حمى جمع الوقائع وتصنيفها تصنيفاً علمياً، حيث أطلقت في الولايات المتحدة كلمة (فكتومانيا) كجهاز مفاهيمي لذلك<sup>1</sup>.

أجل لقد قدمنا صورة مبسطة عن مجتمع مكة قبل الإسلام، الأمر الذي يتيح لنا فقط رسم صورة متواضعة عن ملامح هذا المجتمع وخصائصه. ويبقى السؤال المطروح حول سمات هذا المجتمع الذي حقق أعظم انطلاقة إنسانية تاريخية عرقها الخلاص الأرضي.

نعتقد أنه لا يمكن أن يكون هنالك سبب إلا النمو الإنساني العام الذي توفر لمجتمع مكة، وهذا النمو هو وراء قول الرسول ﷺ: ﴿إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ﴾، وهو قول يكشف عن علم الاجتماع السياسي وعلم الاجتماع الديني، أي عن جذر السياسة والدين في الاجتماع.

أجل كنا نوهنا بدور الشرارة الإلهية، وقلنا في الوقت نفسه أن هذه الشرارة لا تعمل ﴿إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ﴾ في الحالات الطبيعية- إلا من خلال النواميس، وفي مقدمة هذه النواميس الشرط الإنساني، برميل البارود، وهو برميل عربي المحتد والنجار والمخاض، ومكة في النواة النووية من هذا البرميل... ولنا أن نتساءل: هل كان بإمكان هذه الانطلاقة أن تأتي أكلها لولا الوقفات الشامخة، كوقفه "أبي بكر" وحرب الردة، ووقفه "عمر" في سقيفة بني ساعدة، ووقفه خالد في القادسية وحطين، وغيرهم وغيرهم...

<sup>1</sup> - د. حسن صعب: علم السياسة، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1972، ص258.

هل كان بإمكان الإسلام أن يحقق هذا الطموح على يد أشخاص كذلك الأعرابي الذي صلى فدعا ربه، فقال: ((اللهم ارحمني ومحمد ولا ترحم أحداً))<sup>1</sup>. وفي الحقيقة إذا أردنا أن نحدد مفتاحاً لشخصية مجتمع مكة أمكننا رد ذلك إلى النشاط التجاري، فهذا النشاط هو الذي حقق على أرض هذه المدينة - الدولة، النمو والتقدم والصعود التاريخي، وأهلها لأن تكون الطليعة التاريخية التي تتلقف بقوة النبأ العظيم.

ويمكن القول أن هذا الأمر ليس خاصاً بمجتمع مكة، ولكنه قانون عام، الأمر الذي حدا بعض المفكرين لرد كافة الانطلاقات التاريخية الكبرى إلى ذلك النشاط التجاري<sup>2</sup>.

فعلى الرغم من أن هذه المدينة كانت حرماً آمناً، إلا أن تقاليدھا أكدت «ومنذ سابقة قسي» على الابتعاد عن القتال وحل المشكلات بالتي هي أحسن، وتتوج هذا الأمر بالاتصال بأحياء العرب، وأخذ عقود الأمان لتجارتهم (الإيلاف). والتجارة هي التي فتحت الطريق أمامهم للاحتكاك بحضارات العالم القديم، فأقاموا في هذه الحضارات منظومات الأفكار والقيم، وهكذا فقد تعلموا «على سبيل المثال» من الحيرة أصول الكتابة فهدبوا بذلك لسانهم، واشتهروا بالفصاحة حتى أن الشعراء كانوا يعرضون عليهم شعرهم<sup>3</sup>.

لقد أدركوا أن عليهم «من أجل كسب المال» العيش مسالمين يدفعون الإساءة بالحلم، ويدفعون الكلام السيء بالحسن، وهكذا تغلب حلمهم على جهل الجاهلية، وتعزز بذلك بنصرتهم الغريب وذودهم عن المظلوم ودفاعهم عن المستجير، فصار

---

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص29.

<sup>2</sup> - اندريه هوريو: القانون الدستوري والنظم السياسية، الأهلية للتشريع والتوزيع، بيروت، ط1، 1974، ص160.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص20.

التاجر يأتي إلى مكة للبيع بحرية، وإذا ما اعتدى عليه، نادى بأعلى صوته قائلاً:  
(يا آل قريش، يا آل مكة، فيهرع القوم لنصرته)<sup>1</sup>.

ولقد لعبت الأسطورة دورها في ترسيخ هذه الأهمية لمكة في الوجدان العام  
للأمة العربية.

يروى "الجاحظ" على لسان كاهنة يمانية قولها: ((لله در الديار لقريش التجار))<sup>2</sup>.  
وأبعد من ذلك فالإخباريون يردون تجارة قريش إلى زمن بعيد، فيؤكدون أنه تم  
كشف صخرة على قبر النبي (هود) كتب عليها بالمسند: ((من ملك ذمار لحمير  
الأخبار... لمن ملك ذمار؟ للحبشة الأشرار... لمن ملك ذمار؟؟ لقريش  
التجار...))<sup>3</sup>.

ويبدو أن طبيعة وادي مكة جعلتهم يميلون إلى السلم، ولا يركنون إلى الحرب إلا  
دفاعاً عن النفس.

وبيان ذلك أن (مكة البطاح) تقع في واد ضيق بين جبلين متقابلين، وفي استطاعة  
الأعداء إنزال ضربات موجعة من المرتفعات المطلّة والسيطرة على الوادي، وذلك  
يسد منفذيه ويحاصر أهله، وهكذا ما كان أمامهم إلا التجمل بالصبر، واتباع خطة  
الدفاع عن النفس والاعتماد على أحلافهم، قريش الظواهر والأحبيش، وهكذا  
فإنهم اتهموا بأنهم لا يحسنون القتال، وفعلاً فقد خسروا ثلاثة حروب من حروب  
الفجار الأربعة<sup>4</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج4، ص21.

<sup>2</sup> - أبو عثمان عمرو بن بحر المشهور بالـ الجاحظ: الرسائل، المطبعة الرحمانية، 1958،  
ص156.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج4، ص19.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص21.

ولهذا فقد ذكر "الشعالي" أن قريشاً صاروا أدهى العرب، وأعقل البرية، وأحسن الناس بياناً، ومظهراً وجمالاً، فقيل: ((جمال قريش))<sup>1</sup>.  
ويذكر صاحب تاج العروس سمات أهل مكة بأنهم: ((من كان محتاجاً أغنوه، ومن كان عارياً كسوه، ومن كان معدماً سدوا حلقه، ومن كان طريداً آووه))<sup>2</sup>.  
ولقد وعت قريش ذاتها وهويتها، فتغنت بأنها: ((آل الله، وجيران الله وسكان حرم الله))<sup>3</sup>.

ويظهر أن أهل مكة بعد أن اجتمعوا وتكتلوا في دار ضيق، فقد وجدوا من العسير رؤية حفنة منهم، تستأثر بالمال والغنى وأنهم إن أصموا آذانهم عن سماع نداء الإغاثة، فإن حالة من الذعر ستسود، لذلك فقد تواصلوا على مواساة أهل الفقر وجبر خاطر المحتاج، وكان مما فعلوه بالنسبة للفقير أن حثوا كل مكّي على المساهمة في أموال القوافل، حتى إذا ما عادت رابحة وزعت الأرباح، وبذلك فقد خففوا من حدة التناقض، وأمّنوا تطاول الفقراء على الأغنياء، وهو ما عبر عنه "طراد الخزاعي" بقوله: ((هبلتك أمك لو حلت بدارهم ضمنوك من جوع ومن إقراف)).

والخالطون غنيهم بفقيرهم: ((حتى يصير فقيرهم كالكاية))<sup>4</sup>.  
لقد استفادت مكة من تدهور أحوال اليمن، وتقلص أحوال التبابعة فكانت لهم رحلة الشتاء والصيف، وكانت لهم تجارة مع بصرى وغزة واذرعات والحيرة، وكانت

---

<sup>1</sup> - عبد الملك بن محمد الشعالي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص 11.

<sup>2</sup> - محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة حكومة الكويت، تحقق الدكتور حسن نصار، ومراجعة د. جميل سعيد وعبد الستار أحمد فراج، الجزء الرابع، 1969، ص 337.

<sup>3</sup> - أبو عمر أحمد بن محمد ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/313.

<sup>4</sup> - أبو العباس أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 14/1.

الشعبية على البحر الأحمر ميناء مكة، حيث كانت سفن الروم والحبش تنقل السلع من هذا الميناء<sup>١</sup>.

وبلغ من أمر ازدهار تجارتهم، أن "أبا أصيحة" مؤل رحلة أبي سفيان إلى اليمن بمبلغ ثلاثين ألف دينار<sup>٢</sup>.

ولقد توافد على مكة التجار من كافة المراكز التجارية العالمية، من بلاد الشام والعراق ومن بلاد الفرس والروم، وسكن قسم من هؤلاء التجار مكة ليؤمنوا مصالحهم التجارية، وذلك مقابل جعلهم يدفعون للأغنياء<sup>٣</sup>.

ولأهل مكة دراية واهتمام بالحياة الدولية (الفرس والروم)، كما يتضح من النقاش الذي دار بين أبي بكر وأحد المشركين من قريش، ونزول الوحي بسورة الروم، وكانوا من أجل ذلك يسترضون حكام الروم، كما كان للروم مصلحة في استرضاء العربية الغربية لتأمين سلامة البحر الأحمر.

ولقد استعان أهل مكة بالروم واليمن على مواطنيهم، والمثال على ذلك في استعانة قصي بالروم على خزاعة بواسطة بني عذرة<sup>٤</sup>.

وكان أهل مكة يقومون أحياناً بدور الوسيط التجاري، فقد كانت منتوجات اليمن تأتيهم فينقلونها إلى غزة وبلاد الشام<sup>٥</sup>.

وهكذا تعززت أهمية مكة بعد ضعف اليمن، بسبب حيادها بين القوى العالمية، والاتفاقيات التي أبرمتها مع القبائل، واتصالها بالعالم الخارجي ووجود جاليات أجنبية، وقيام نظام صرافة بها، ووجود الكعبة بها، وكون المدينة حرماً أمنياً لا يجوز

---

<sup>١</sup> - الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص128.

<sup>٢</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج4، ص114.

<sup>٣</sup> - المرجع السابق، ص115.

<sup>٤</sup> - المرجع السابق، ص117.

<sup>٥</sup> - المرجع السابق، ص117.



القتال بها، والبغي في حرمها، وقيام دار الندوة كمركز للرأي والمشورة والزعامة، وقيام الأحلاف (حلف الفضول) لنصرة المظلوم، فهي إذاً قاعدة العرب<sup>1</sup>.

أجل لقد كان في مكة جالية كبيرة من أصل أفريقي عرفت بالأحابيش، وهم سود البشرة، اشتراهم أهل مكة للعمل، فهم إذاً ضرورة اجتماعية اقتصادية لنظام مكة وآلات حية مسخرة تخدم بأكملها<sup>2</sup>.

وهناك آلات حية أخرى دخلت مكة هم الأسرى وخصوصاً أسرى الروم الذين كانوا يبتاعون في سوق النخاسة، وكانوا يستخدمون في أعمال البناء والتجارة والأعمال الدقيقة.

ومن هؤلاء من كان مثقفاً أدخل معه الأفكار إلى مكة، والأغلب أنهم كانوا نصارى، يتنافسون في أمور الدين، وهو الأمر الذي يتضح من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ النحل/103. وقوله أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿4﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الفرقان/4-5.

وهذا النمو والاستبحار في الحياة أنشأ حرفاً ومهنأ متعددة، فقد كان العوام أبو الزبير خياطاً، وكان الزبير جزاراً، وكان عمرو بن العاص جزاراً، وكان عقبة بن أبي معيط خماراً، وكان عثمان بن أبي طلحة خياطاً، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزبيب، وكان عتبة بن أبي وقاص أخ سعد نجاراً، وكان أمية بن خلف يبيع البرم وكان عبد الله بن جدعان نخاساً، وكان العاص بن وائل أبو عمرو بن العاص يعالج

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج4، ص117.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص118، وانظر عكس ذلك رأي الدكتور عاقل بأن الأحابيش عرب.

الخييل والإبل، وكان النضير بن الحارث يضرب بالعود ويغني، وكان الحكم بن أبي العاص أبو مروان بن الحكم حجاجاً<sup>1</sup>.

ويطالعنا تاريخ مكة بظهور شخصيات بارزة، مثل قصي بن كلاب الذي لقب بـ «المجمع»، فهو المؤسس الأول لزعامة قريش، ويقال أن قومه كانوا يسكنون الجبال فجمعهم وسكنهم الشعاب والأودية، حيث قام بتقطيع أشجار هذه الأودية، وكانت محرمة لدى الناس، ثم قام بتقسيم مكة أرباعاً بين قومه، فبنوا فيها المساكن<sup>2</sup>.

وكما قلنا سابقاً فإن قصياً من مجددي بناء الكعبة، وهو أول من أظهر الحجر الأسود، وأول من حفر بئراً في مكة<sup>3</sup>.

وقصي هو الذي استحدث إيقاد النار في مزدلفة حتى يراها الناس، وقد حافظت قريش على ذلك إلى الإسلام، وكانت توقد حتى زمن عثمان بن عفان، كما أنه استحدث وظائف مكة التي سبق الإشارة إليها، الرفادة والسقاية، وغيرهما... ومن زعماء قريش «قيل قصي» كعب بن لؤي، الذي كان يخطب في الناس كل يوم جمعة (وكان يسمى عروبة)، وبذلك ألف بين قريش، ثم جاء بعده قصي، فأكمل هذه المهمة التوحيدية لقريش.

ومن زعماء مكة أيضاً هاشم جد الرسول ﷺ، فقد حفر بئر "بذر" وبئراً أخرى اسمه "جبير" فوفر بذلك الماء لمكة، ويقال أنه الذي أمر بالرحلتين: رحلة الشتاء

---

<sup>1</sup> - أحمد بن عمر، أبو علي ابن رسته: الإغلاق النفيسة، ص150، وانظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص128.

<sup>2</sup> - الطبري: تاريخ الطبري، 2/258، وانظر ابن سعد: الطبقات، 1/70.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص54.

<sup>4</sup> - ابن سعد: الطبقات، 1/72.

ورحلة الصيف، وأنه كان صاحب إيلاف قريش، وذلك بسبب صداقته مع القيصر ملك الروم<sup>1</sup>.

وكان بن المطلب عم عبد المطلب مفرع قريش في النواذب وملجؤهم، وكان من حكماء قريش وحلمائها، وقد حرم الخمر على نفسه، وهو أول من تحنث بغار حراء، وكان إذا دخل شهر رمضان أطعم المساكين، وأكثر من الطواف في البيت والتفكر في جلاله الله وعظمته<sup>2</sup>، ولقد أمر عبد المطلب أولاده بترك الظلم، وحثهم على مكارم الأخلاق، وكان يقول: ((من يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه؟ وإن وراء هذه الدار دار أخرى يجزى فيها المحسن))، وقد رفض آخر حياته عبادة الأصنام، ووجد الله، واتبع سنناً جاء القرآن في أكثرها، وجاءت السنة بها، منها: الوفاء بالنذر وتحريم الخمر والزنا، وألا يطوف بالبيت عريان، وأنه سن الدية بمائة من الإبل وكانت عشراً، حيث أقرها الرسول ﷺ<sup>3</sup>.

ومن أهم الأعمال التي قام بها عبد المطلب حفر بئر زمزم التي تميزت بغزارتها، وكان يزور اليمن وينزل عند عظماء حمير، وقد أخذ الإيلاف منهم ولقد ترأس وفداً لتهنئة معد يكرب عند توليه، وقيل أنه وفد على سيف بن يزن لتهنئته أيضاً<sup>4</sup>.

ومن وجهاء مكة عبد الله بن جدعان، فقد كان لا يشرب ولا يأكل إلا بآنية من ذهب وعرف «بحاسي الذهب»، واشتهر بعتق الرقاب وإياعانة الناس في النواذب، وقد وضع جفنة كبيرة يملأها في الطعام ليسقي المساكين والمسافرين، ولقد رحل إلى اليمن، وتعلم كيف يصنع (الفالوذج) وهو أول من أدخله إلى مكة، وقد جعل

<sup>1</sup> - أحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 33/16.

<sup>2</sup> - علي بن إبراهيم أبو الفرج الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية)،

دار الكتب العلمية، بيروت 2002، 22/1، البلاذري، أنساب الأشراف، 84/1.

<sup>3</sup> - أبو الفرج الحلبي: السيرة الحلبية، 24/1، ابن سعد: الطبقات الكبير، 89/1.

<sup>4</sup> - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص71.

منادياً ينادي كل ليلة بمكة من على ظهر الكعبة: أن هموا إلى جفنة ابن جدعان،  
وفي ذلك قال الشاعر:

لَهُ دَاعٍ بِمَلَّةٍ مُشْمَعِلٌ      وَأَخْرَ فَوْقَ كَعْبَتِهَا يَنَادِي

وبداره المشهورة انعقد حلف الفضول، وكان من ممثلي قريش في تهنئته سيف بن  
يزن، وكانت له بئر بمكة اسمها الثريا<sup>1</sup>.

ومقابل هذه الصورة المضيئة، فوجه مكة لم يكن يخلو من كآبة وظلامية، وقد  
أشرنا إلى وجود أغنياء كانوا يقترضون الفقراء بأرباح فاحشة، بل كان منهم من لا  
يتورع عن أكل مال اليتيم والضعيف واستغلال الرقيق بإكراه النساء منهم على  
البغاء والاستيلاء على ما يأتين به من مال، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا  
فَتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ النور/33.

وكان في مكة من يأكل بصحائف من ذهب، ويشرب بأنية من ذهب وفضة وبلور  
ويأكل على طريقة الفرس والروم بسكاكين وشوكات مصنوعة من ذهب وفضة،  
ويلبس الحرير، ويتحلى بالخواتم الذهبية المزينة بالحجارة الكريمة، ولعل هذا هو  
سبب تحريم الحرير على الرجال<sup>2</sup>.

هذا الثراء والخصوبة في كافة أوجه الحياة، كان له نتائج العميقة على الحياة  
العقلية والدينية.

تروي الأخبار أنه كان في مكة جماعة الدهريين، وهم الذين يؤمنون بقدوم العالم  
والمادة والزمن، وأن أبا شعبان بن حرب كان من هؤلاء<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، 2/217، 2/229.

<sup>2</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص124.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ج4، ص122.

ولقد صور القرآن الكريم عقيدة هؤلاء مندداً بذلك قائلاً: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الجاثية/24.

وكان هنالك أكثر من مخاض على صعيد الحياة الدينية.

**ظاهرة الحمس:**

وهي ظاهرة دينية متطرفة متشددة على النفس، وكانوا خلافاً للحلة يطوفون البيت، وعليهم الثياب، وكان معظم هؤلاء من مكة والمهتمين بازدهارها واحتفاظها بقدسيتها.

ويقال إن هذه الحركة نشأت عقب غزوة الفيل وكرد لتحقير الكعبة والإنقاص من دورها<sup>1</sup>.

والأهم من ذلك أن "الحمس" كانوا لا يزوجون بناتهم إلا اشتراطوا أن يكون الأولاد من "الحمس"، وهذا يعني أن هذه الظاهرة أخذت تدك بناء القبيلة، وتقوض من معالمها، وتدعو إلى ظاهرة موضوعية تتجاوز الإطار العتيق للحياة القبلية.

وكان هنالك مخاض آخر أكثر عمقاً من ظاهرة "الحمس"، وهذا ما يظهر من الحوار الذي سجله "ابن اسحق"، قال: ((واجتمعت قريش في عيد لهم، عند صنم من أصنامهم، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، وهم: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعبيد بن جحش، وعثمان بن الحويرث... وزيد بن عمر بن نفي، فقال بعضهم لبعض: ((تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطوف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع.. يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنه والله ما أنتم على شيء.. فتفرقوا في البلدان)).

وهكذا يتضح في هذا النص الذي أورده ابن اسحق أن هؤلاء الأشخاص الأربعة أخذوا بالتفتيش عن جذر الاجتماع بعد أن اكتشفوا أن قومهم ليسوا على شيء..

<sup>1</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص 293.

ولكن هل توصل هؤلاء إلى هذا الجذر لتأصيل مجتمع مكة، وهل اتفق هؤلاء على حل فيما بينهم...، في الحقيقة لقد تفرقت بهؤلاء السبل، فقد تردد عبيد الله بن جحش بين الأديان...<sup>1</sup>، وأقبل ورقة وابن الحويرث على النصرانية دون أن تخمد حيرتهما.

ولم يكتف ابن الحويرث بمجرد اعتناق الدين المسيحي، بل سعى لفرض جذر اجتماعي على مكة عن طريق القوة والجاه والسلطان، وهكذا فقد يمم شطر قيصر الروم مستعيناً به لمساعدته على تتويجه ملكاً على مكة... وتروي الأخبار أن القيصر كتب له كتاباً ختم بالذهب، وتوجه ابن الحويرث إلى مكة، وأهل مكة يطوفون، ونادى الأسود بن المطلب في الناس قائلاً: ((أن قريشاً لقاح لا تملك، وخاب فأل عثمان...))<sup>2</sup>.

أما زيد بن عمر بن نفيل فقد وقف وحيداً وقفة صلبة، يصر على وجود النص الجامع، فلا يعود لجماعة قومه، ولا يصدق بخلوص النص في اليهودية والنصرانية اللتين عرفهما بالجزيرة وحولها<sup>3</sup>.

لقد خيبت مكة أمل ابن الحويرث، ولكنها استمرت تبحث عن الجذر، وبقيت تعتقد أن الانخزاع بدعة وانحراف عن جذر إبراهيم... ولكن بحثها هذه المرة عن الجذر ليس كمثله بحث، فهو ليس على طريقة عمرو بن لحي، ولا على طريقة بن الحويرث، حل يأتي من فوق رأسها، ويفرض عليها بكتاب مذهب يوقع عليه القيصر. هذا الحل على جذر إبراهيم أولاً، ومن مصدر فوق كل إنسان ثانياً، وبشر به رجل من مكة ثالثاً.

<sup>1</sup> - د. رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، ص 13.

<sup>2</sup> - السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، 46/1.

<sup>3</sup> - د. رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، ص 13.

وتشاء الأقدار أن حفيد زيد بن عمرو بن نفيل وهو الخليفة عمر بن الخطاب، يقف الوقفة نفسها التي وقفها جده، ولكن شتان بين الوقفتين صلابة وتأصيلاً...

✍️ المحامي الدكتور برهان زريق





## عمران المدر والوبر في الجاهلية

### «على ضوء فلسفة المكان»

لا بد من التدليل بأن هذه الدراسة لا يمكن ان تتحدد «حقيقة ومنهجاً» إلا على ضوء أدبيات جغرافية العمران لسبب بسيط هو أن الميزان كان يميل قديماً<sup>1</sup> في إطار العلاقات الجغرافيا البشرية» لصالح العوامل الجغرافية والطبيعية وليس لصالح الأفكار. وحقيقة الأمر أن الجغرافيا وراء أحداث التاريخ<sup>1</sup> وأن السياسات الأساسية والأوضاع الاجتماعية لكل جماعة بشرية إنما تتبع من أعماق أوضاعها الجغرافية وأن مكوك الحياة يغزل نسيجه من جدل وإرادة الإنسان والطبيعة في صيرورة لا تعرف التوقف وبالتالي فالطبيعة خرساء ولكن لسانها الإنسان والتاريخ وإذا كانت الجغرافيا هي ظل الأرض على الزمان فالتاريخ هو ظل الإنسان على الأرض. ولا شك أن الحديث عن الجغرافيا «كفلسفة للمكان» شيء أشعل من الإحاطة الوصفية بخصائص وتوزيعات المكان إنها تساؤل عما يعطي منطقة تفرداها وتميزها ولكنه تساؤل ينفذ إلى روح الإقليم ليستشف عبقريته الذاتية<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - جوردن إيست: الجغرافيا توجه التاريخ، ترجمة الدكتور جمال الدين الدناصوري، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1982.

<sup>2</sup> - Frank Debenham; use of Geography, 1950, p11.

وفلسفة المكان هذه ليست فلسفة غامضة بل فلسفة عملية واقعية قد ترتفع برأسها فوق التاريخ ولكن أقدامها دائماً راسخة في الأرض<sup>1</sup>. وعلى هذا الأساس فقد أصبحت الحاجة ملحة للبحث عن روح هذا الإقليم والقوانين الجغرافية التي وضعت بصماتها وألقت ثقلها بقوة على حياة الإنسان وعلى التشكلات المورفولوجية الاجتماعية في الجزيرة العربية فما هي هذه القوانين؟

أول هذه القوانين ذلك البزوغ القديم المبكر والمتفرد لل عمران الحضاري في الجزيرة العربية.

فقد أكد العديد من العلماء أن هذه الجزيرة كانت في عصر "البلايستوسين" مروجاً خضراء كثيرة الغابات وأهلة بالحياة إذ لم تكن الطبقة الجليدية التي غطت المعمورة أثناء العصر الجليدي لتتعدى جبال آسيا الصغرى<sup>2</sup>.

ولقد كان ثمرة اختراق الربيع الخالي من قبل العالم الانكليزي "برترام توماس" عام 1932 كان ثمرة ذلك اكتشاف بقايا بحيرة عدد منخفض أبو بحر إضافة إلى آثار نباتات وحيوانات من النوع الذي يعيش في المياه العذبة ثم بقايا عظام وأدوات من الصوان تعود إلى ما قبل العصور الحجرية<sup>3</sup>.

ولقد أكد العالمان "وينكر وكيثاني" أن الجزيرة العربية كانت في العصور الجليدية تمور بالحيوية والبهجة وهذا هو السبب في رسم تلك الصورة البديعة من قبل التوراة عن جنة عدن التي هي الجزيرة العربية<sup>4</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان كتاب الهلال، العدد 196، 1967، ص7.

<sup>2</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1970.

<sup>3</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، بيروت، دار الفكر، 1983، ص13.

<sup>4</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص25، وهذا هو رأي العالم (هومل).

أما ذلك التغيير الذي طرأ على مناخ تلك الجزيرة فلم يحدث إلا قبل الميلاد بعشرة آلاف سنة وقد ظهرت قبل الميلاد حيث تمت الهجرات الكبيرة بين الـ/2500-1500/ قبل الميلاد .

ولقد أكد العالم "كيتاني" أن وادي حمض والرمة والسرحان والدواسر هذه الأودية كانت أنهاراً غزيرة<sup>1</sup> .

وهناك قانون آخر مكمل للقانون السالف الذكر هو تلك الحماية الطبيعية التي توفرت للجزيرة العربية .

ذلك أنه لا يكفي وجود جرثومة الحياة بل لا بد من توفر الحماية لذلك وهذا القانون بيولوجي عبرت عنه الآية القرآنية بقولها: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾<sup>20</sup> ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ المرسلات/20-21 .

أجل لقد كانت الجزيرة العربية الرحم الجغرافي والأم الحاضن للعروبة والمشتل الطبيعي لها إضافة إلى كونها الدرقة التي امتصت الضربات الموجهة إلى هذه الأمة خصوصاً في مراحل تخلقها بل يمكن القول إن الجزيرة العربية هي المشتل الأول والظفر الأم لجرثومة السامية<sup>2</sup> .

وبالطبع فهذه الحماية توفرت بجمال اليمن وغلالة الصحراء إضافة إلى الشعب المرجانية في البحر الأحمر .

أما القانون الثالث فهو الناظم للعلاقة بين الموقع cite والموضع situation قاصدين بالموقع البيئية الطبيعية بخصائصها وعناصرها وبالموقع علاقة الطبيعة بما حولها من توزيعات جغرافية .

فالموقع هو الذي أهل الجزيرة العربية لأن تكون مفتاح العالم القديم وهو الذي أمدها بوابات متعددة على البحار وحبها شرايين اتصال دولية خطتها الطبيعة

---

<sup>1</sup> - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص13، ود . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص251 .

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 1ج .

فجعلتها تسير بمحاذاة الأودية ومواقع المياه والآبار ثم تنتهي في العراق وبلاد الشام والعربية الجنوبية... كذلك فالموقع أمد الجزيرة بطرق عرضية تمتد من العربية الشرقية إلى العربية الغربية عبر مراكز الاتصال بالطرق الطولية الممتدة من الشمال إلى الجنوب<sup>1</sup>.

وخلافاً للموقع فالموضع أشبه بصحراء ممتدة تتخللها بعض الواحات التي لا تزيد مساحة أكبرها على عشرة أميال مربعة وهذا لم يسمح بقيام قاعدة بشرية وتكتلات اجتماعية كبرى كدواة استراتيجية تكون مركز استقطاب للطاقة ونقطة جذب تشع على ما يجاورها من بقاع.

وإذا ما استعرنا من عالم البيولوجيا فكرة ارتباط العضو بالوظيفة أمكننا القول إن المركزية الوظيفية لا بد لها من مركزية جغرافية كعقدة وبؤرة وقطب ينسج اللحم والأسداء والأوصال الضامة التي تحقق الاندماج والصهر والاتصال.

ويعنى أوضح كان لا بد لعظمة الصرح  $sup - constitution$  من قوة الأساس  $sub - constitution$  وبالتالي فما كان لمدينتي اليمن أو مدن العربية الشمالية أن تكون الحامل السياسي للجزيرة العربية بسبب عدم توفر القاعدة الجغرافية والاجتماعية لذلك.

لقد شهد التاريخ العربي امتداد نفوذ اليمن إلى الشمال حيث ربوع القبائل العدنانية ولكن ذلك كان محدوداً لم يرق إلى مستوى تحقيق الوحدة السياسية وبالمقابل فالاتحاد بين الموقع والموضع كان لأول مرة على يد الإسلام ولكن ليس على أساس قوانين الدار والجغرافية وإنما على أساس قوانين الوعي والعقيدة والإرادة الإنسانية.

والقانون الأخير الذي ألقى تأثيره بقوة على الحياة العربية وعمرانها هو ذلك الاستقطاب الحاد بين حياة البداوة وحياة الحضرة العمران الوبري والعمران المدري.

---

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص220.

وبيان ذلك أن الجزيرة العربية أرض التناقضات land of paradox إذ على مهادها وبطاحها يتحايث ويتباهى قطبان متناقضان تناقضاً حاداً هما الشرنقة الصحراوية المتسعة المرصعة هنا وهناك بنثار من الواحات هي أشبه ما تكون بالأرخبيل في بحر من الرمال...

وعلى هذه الواحات وما يحيط بها يتجاوز الموت والحياة هنا إكسير الحياة وهناك الجفاف القاتل ومن ثم فإذا صح القول بأن الإنسان هبة الماء فهذه البقع هي من الصحراء وفي الوقت نفسه ليس منها ولهذا قيل إن الطائف بقعة من الشام انتقلت إلى الجزيرة العربية.

هذه لمحة بسيطة عن هذه القوانين في حال الاستاتيكية (السكون) ونحن ماضون في تتبع فعاليتها في حال الدينامية والحركة.

وفي الحقيقة إن القانون الأول هيأ الظروف الملائمة لإبداعات عمرانية متعددة: دلعونة- مدنات العربية الشمالية- حواضر العربية الشمالية..إلخ.

ولا مجال هنا -بالطبع- للكلام على تلك المدنات التي قتلت حرثاً وبحثاً وحسبنا الرجوع إليها في مظانها من كتب التاريخ.

بيد أنه من المفيد الإشارة إلى ذلك الفوز الحضاري الذي ظفرت به الإنسانية عام 1992 والمتمثل في اكتشاف مدينة عبر (أوفار) في منطقة ظفار وذلك من قبل فريق العمل البريطاني والأمريكي<sup>1</sup>.

وننوه بأن هذا الكشف الجليل هو امتداد للمجهود العلمي الذي قام به العالم الانجليزي "برترام" عام 1932 باختراق الربع الخالي حيث لاحظ وجود طريق يتجه نحو الشمال وكان اكتشاف هذا الطريق نقطة الانطلاق لهذا الاكتشاف الجديد.

<sup>1</sup> - انظر تفصيل ذلك في مجلة المجلة، عدد 628، تاريخ 992/2/25، ص8، وما بعدها.

والأمر المثير للدهشة في اكتشاف مدينة عبر أن هذا الطريق المؤدي إليها كان يعرف لدى السكان بنفس اسم هذه المدينة وهذا يعني أن المخيال العربي تعامل مع مدينة عبر مثل ما يتعامل حالياً مع العرب البائدة.

ومع أن النقاش لم يحسم حول هذه المدينة وما إذا كانت مدينة (أرم ذات العماد) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم أم أنها مدينة أخرى مع ذلك فالأمر المهم هو عمر هذه المدينة الذي ثبت أنه يتراوح بين/3000-5000/ سنة قبل الميلاد.

وعلى هذا يمكن القول إنه ليس بالمستبعد أن تعود هذه الجزيرة لتبوح مرة ومرات أخرى بخبئها ومكنونات صدرها كما فعلت بالنسبة لمدينة "عبر".

وبالطبع فنحن ننتقل في ذلك ليس من القرآن الكريم فحسب ذلك الوحي الحق الذي لا ينطق عن الهوى<sup>1</sup> وإنما من الذكريات الثانوية والقارة في أعماق الضمير والوعي الجمعي العربي أدبه ورموزه وأساطيره.

من ذلك على سبيل المثال ما يذكره الإخباريون عن اكتشاف صخرة على قبر النبي هود كتب عليها بالمسند ما يلي: لمن ملك زمار؟...لحمير الأخبار...لمن ملك زمار؟...للحبشة الأشرار...لمن ملك زمار؟...لقريش التجار<sup>2</sup>.

ولا حاجة للتذكير بأن عبارة "للحبشة الأشرار" تؤكد تكون- ومنذ أعرق الأزمان ضمير عربي جمعي له إرادته وموقفه ورأيه في الغير.

وإذا انتقلنا إلى قانون الموقع لمسنا التأثير العميق لهذا القانون في حياة شعبنا العربي وهو الأمر الذي يصدق بصورة خاصة على تلك المدينة (مكة) التي وصفها القرآن بأنها (في وادٍ غير ذي زرع) ومع ذلك فقد نزل النبا العظيم على بطاها واجتهد الرسول الكريم ﷺ «وكأعظم مرجعية عربية» أن تودع الخلافة في أعناق أبنائها كما يتضح من القول الذائع الذي ينسب إليه والمتضمن: هذا الأمر لا يصلح إلا لهذا الحي من قريش.

<sup>1</sup> - باعتبار أن القرآن تكلم عن أصحاب الرس وشمود وعاد وأصحاب الأيكة...سورة(ق).

<sup>2</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج1، ص 19.

وفي الحقيقة إنه لتصوير ساذج ومخل ذلك الذي يقدم الحياة العربية على أنها خالية من كل آثار الحضارة عارية من دلائل التمدن مجردة من كل ما يعطي الحياة معنى الحياة.

ونحن لن نجهد عقولنا في اكتشاف زيف هذه الصورة وفجاجة ذلك المنطق وفشل تلك المحاولة في الصمود أمام البحث العلمي.

فالعرب «وليس الأعراب» ضربوا بسهم وافر في التجارة المحلية والدولية منذ أقدم عصور التاريخ فقد كانوا واسطة عقد التجارة الدولية بين الشرق والغرب يأتون بها من الصين وشواطئ الهند الغربية وجزرها الشرقية إلى الخليج العربي فحوض ما بين النهرين فسوريا فالبحر المتوسط فالدولة الرومانية أو دول المدن التجارية بأوروبا ...

كما يأتون بالبضائع من شرق إفريقيا إلى اليمن فمكة فالشام فبلاد الروم... وهم الذين كانت لهم دراية بالبحر والملاحة قبل كثير من الشعوب التي عاشت حول البحار والمحيطات... فهم لم يعرفوا الصحراء وحدها بل عرفوا البحر والملاحة والفلك منذ أقدم العصور... فمنذ ما قبل الميلاد اتخذ العرب على الساحل الشرقي لأفريقيا عدة مستعمرات منها "لامور" و"ممبسة" و"زنجبار" و"موزمبيق" ومارسوا فيها جميع أنواع التجارة بما فيها تجارة الرقيق بل إن صلات العرب التجارية بزنجبار تضرب إلى أعماق التاريخ ثلاثة آلاف السنين<sup>1</sup>.

إن تاريخ العرب قبل الإسلام قد عهد سيطرتهم الكاملة ولمدة طويلة جداً على بترول العالم القديم "الأفاوية واللبان والتوابل" وهذا هو سر محاولات الاستيلاء «عبثاً» على الجزيرة العربية من قبل الآشوريين والبابليين واليونان والرومان والفرس والأحباش.

وكما قلنا سابقاً فسنكتفي بالحديث عن هذا التاريخ المتألق للجزيرة العربية من خلال مثل واحد حي متمثل في مجتمع مكة.

<sup>1</sup> - د. محمد عمارة: فجر اليقظة القومية، دار الوحدة، بيروت، ط3، 1981، ص23.

والحديث عن هذا المجتمع يطول عن نشأتها<sup>1</sup> وعن قصة سيدنا إسماعيل وأمه وبناء الكعبة من قبل إبراهيم وابنه إسماعيل واندماج إسماعيل بجرهم واستعراجه وانتقال السلطة من جرهم إلى خزاعة ثم تقرش "تجمع" كنانة على يد قصي لتطيح بانحراف خزاعة "خزع لغة انحرف" عن خط التوحيد ثم تستلم السلطة من مكة<sup>2</sup>.

والحديث عن مكة وقريش يشمل الكلام عن التنظيم السياسي في هذه المدينة الذي يرقى إلى مستوى المدينة الدولة، كما يشمل الحديث عن الندوة والملاء<sup>3</sup> (القريب من مجلس الشيوخ في أثينا وعن وظائف هذا الملاء "السقاية - الرفادة- اللواء- النسيء- الحجامه- الإجارة.. إلخ)، ثم عن حلف الفضول والإيلاف. هذا الحديث عن مكة طويل جداً ويكفينا الإلماح إلى مفتاح شخصية هذه المدينة وبدورها ونشاطها التجاري المتقدم الأمر الذي حدا بعض المفكرين لردكافة الانطلاقات الحضارية إلى النشاط التجاري<sup>4</sup>.

بيد أن اختصار الصورة عن مكة لا يعفيها من التعرض إلى حياتها النفسية "العقلية والإيديولوجية" باعتبار ذلك أساس كل عمران بشري. وفي هذا الصدد يذكر "الثعالبي": ((أن قريشاً كانوا أدهى العرب وأعقل البرية وأحسن الناس بياناً ومظهراً وجمالاً فقيلاً: جمال قريش))<sup>5</sup>.

---

<sup>1</sup> - ترجح الآراء أن هذه الكلمة محرفة عن مكربة (مقربة) وتعني التقرب إلى الله على يد الكهنة اليمانيين الذين بنوها، انظر. د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج1، ص10.

<sup>2</sup> - د. رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص12.

<sup>3</sup> - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص34.

<sup>4</sup> - أندريه هوريو: القانون الدستوري والنظم السياسية الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 974، ص160.

<sup>5</sup> - عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص11.



ويؤكد صاحب تاج العروس ذلك بقوله: ((من كان محتاجاً أغنوه ومن كان عارياً كسوه ومن كان معدماً سدوا حلقة ومن كان طريداً آووه))<sup>1</sup>.  
لقد عالج هذا المجتمع ما نطلق عليه في أدبنا الاجتماعي بالمسألة الاجتماعية إذ سمح لكل فرد في مكة بأن يساهم في تمويل قوافلها وهذا ما عبر عنه "طرود الخزاعي" بقوله:

ممنونك لله جوع وهه إقراف

هبلتك أمك لو حلت بداهم

حتى يصبر فقيرهم كالنبي

والخالطون غنيهم بفقيرهم

وحافظت قريش على إرث قصي فكانت توقد النار في مزدلفة كيما يراها المحتاجون<sup>2</sup>.

ولقد توطدت تقاليد هذه المدينة «ومنذ سابقة قصي» على الابتعاد عن القتال وتتوج هذا الأمر بالاتصال بأحياء العرب ثم أخذ عقود الأمان لتجارتهم (الإيلاف).

ولقد تعلم المجتمع المكي أصول الكتابة من أهل الحيرة فهذبوا بذلك لسانهم واشتهروا بالفصاحة حتى أن الشعراء كانوا يعرفون عليهم شعرهم. واشتهر أهل مكة بالحلم فكانوا يدفعون الإساءة بالتي هي أحسن والكلام السيء بالجميل وتعزز ذلك بنصرتهم الغريب وذودهم عن المظلوم ودفاعهم عن المستجير فصار التاجر يأتي إلى مكة للبيع بحرية واطمئنان وإذا ما اعتدى عليه نادى بأعلى صوته قائلاً: ((يا آل قريش يا آل مكة فيهرع القوم لنصرته))<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 377/4.

<sup>2</sup> - ابن سعد: الطبقات الكبير، 72/1.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج4، ص21.

ولقد وعت قريش ذاتها وهويتها فتغنت بأنها: آل الله وجيران الله وسكان حرم الله<sup>١</sup>.

وظهر في هذه المدينة شخصيات مرموقة منها «على سبيل المثال» قصي بن كلاب جد الرسول ﷺ فقد حرم على نفسه الخمر وكان يكثر في شهر رمضان التحنث وإطعام المساكين والطواف حول البيت والتفكر في جلال الله وعظمته<sup>٢</sup>.

ومن هذه الشخصيات أيضاً جد الرسول عبد المطلب فقد أمر اولاده بترك الظلم وحثهم على المكارم وكان يقول: ((من يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه...؟ وإن وراء هذه الدار داراً أخرى يجزي فيها المحسن... وقد رفض آخر حياته عبادة الأصنام ووحد الله واتبع سنناً جاء القرآن في أكثرها وجاءت السنة بها من ذلك الوفاء بالنذر وتحريم الخمر والزنا وألا يطوف بالبيت من هو عريان وهو الذي سن الدية بمائة من الإبل وكانت عشراً وقد أقر الرسول ذلك<sup>٣</sup>.

ومن وجهاء مكة عبد الله بن جدعان فقد كان لا يشرب أو يأكل إلا بأواني الذهب حتى اشتهر بأنه "حاسي الذهب".

لقد اشتهر بعق الرقاب وإعانة الناس في النوائب حيث وضع جفنة كبيرة كانت تملأ بالطعام لسد حاجة المساكين والمسافرين وقيل إنه رحل إلى اليمن وتعلم صنع الفالودج فكان أول من أدخله إلى مكة.

ولقد جعل منادياً ينادي كل ليلة من على ظهر الكعبة: ((أن هموا إلى جفلة ابن جدعان))، وفي ذلك قال الشاعر:

له داع بمكة مشمعل  
وأخر فوة كعبتها ينادي

<sup>1</sup> ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، 3/313.

<sup>2</sup> علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية وهو الكتاب المسمى (إنسان العيون في سيرة

الأمين المأمون)، 1/22، أحمد بن يحيى البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، 1/84.

<sup>3</sup> السيرة الحلبية: 1/24، وطبقات ابن سعد، 1/89.

وعرفت بمكة ظاهرة الوساطة التجارية فكانت منتوجات اليمن تأتيهم فينقلونها إلى غزة وبلاد الشام كما عرفت نظام الصيرفة<sup>1</sup>.

أما على الصعيد الديني فقد عرفت ظاهرة الحمس وهي جماعة متشددة على النفس وكان هؤلاء خلافاً "للحلة" يطوفون بالبيت وعليهم الثياب وكانوا لا يزوجون بناتهم إلا اشترطوا أن يكونوا الأولاد منهم.

وقصدت مكة جاليات أجنبية والأغلب أنهم كانوا نصارى وهذا ما يتضح من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ الفرقان/4.

ونتيجة لهذا النمو والنضج في الحياة فقد نشأت الحرف والمهن في هذه المدينة على نطاق ملموس فقد كان العوام أبو الزبير خياطاً وكان الزبير جزاراً وكان عقبة بن أبي معيط خميراً وكان عثمان بن أبي طلحة خياطاً وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزبيب وكان عتبة بن أبي وقاص نجاراً وكان أمية بن خلف يبيع البرم وكان عبد الله بن جدعان نخاساً وكان العاص بن وائل يعالج الخيل والإبل وكان النضر بن الحارث يضرب بالعود ويغني وكان الحكم بن أبي العاص أبو مروان بن الحكم حجاماً<sup>2</sup>.

هذه هي إبداعات قانون الموقع فما هي الصورة التي قدمها قانون الموضع؟

هذه الصورة نجدها حية بالأعرابية أو النجعة فما هي؟

في الحقيقة إذا ألقينا نظرة سريعة على لاند سكيب "المسرح الطبيعي" الصحراء وجدنا أن هذا المسرح يقوم على ثلاثة أقطاب أساسية هي: البدوي- الجمل- النخلة.

وإذا أضفنا الرمال إلى هذا الثالوث أدركنا الممثلين الفاعلين العظام في صياغة الحياة الصحراوية وفصولها المتساوية الدرامية.

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص117.

<sup>2</sup> - ابن رسته: الاعلاق النفيسة، ص15.

فهذه القوى الحاسمة تلقي قبضتها الحديدية الساحقة الماحقة على حياة الانسان البدوي بنوع من الحتمية وتصيغ خصائصه النفسية والعقلية والخلقية. فالبدوي عصبي المزاج شديد الغضب والهيياج للشيء التافه وهذا هو معنى الجاهلية كنفويض للحلم لا العلم كما يتضح من قوله ﷺ: ((إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء))<sup>1</sup>.

وسمة الأعرابية الثانية هي الجفاء والوحشية والغلظة وهذا ما أكده ابن خلدون بقوله: ((هم أشد الناس توحشاً وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم))<sup>2</sup>.

فالأعرابي كثير الاعتداد بالذات rugged individualism والعنجهية لا يقبل الانصياع ولا يعرف الحدود لأنانيته وهذا ما ذكره أبو هريرة من أن أعرابياً صلى مع الرسول ﷺ ثم انبرى يدعو الله بعد الصلاة قائلاً: ((اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً))<sup>3</sup>.

ولم تكن حالة البدوي العقلية بأفضل من ذلك فقد كان لا يدرك العلاقة بين العلل ومعلوماتها وكان يؤمن بوجود أرواح شريرة تتحكم بمصيره وقد عزا خراب سد مأرب لأحد الجرذان الأحمر كما فسروا قتل النعمان لسنمار بسبب آجره وضعها هذا الأخير في أساس قصر الخورنق<sup>4</sup>.

ولقد خصص صاحب تاج العروس مادة لا يستهان بها للكلام عن هؤلاء الأعراب<sup>5</sup> حيث لفت الانتباه إلى ناحية لغوية حساسة هي أن كلمة أعراب ليست جمعاً لكلمة عرب كما كان الأنباط جمعاً لنبط.

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 29.

<sup>2</sup> - ابن خلدون: المقدمة، بيروت، ط 6، 1986، ص 121.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 284.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ج 1، ص 286.

<sup>5</sup> - مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، جزء 3، ص 344، وما بعدها مادة "عرب".

والأعراب «والكلام لتاج العروس» هو صاحب نجعة وانتواء وارتياح الكلاً وتتبع مساقط الغيث.

والأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح بذلك وهش والعربي إذا قيل له يا أعرابي غضب.

فمن نزل البادية أو جاور البادين فظعن بظعنهم وأنتوى بانتوائهم فهم أعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي إلى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء.

وقول الله ﷻ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَأَنبِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الحجرات/14.

هؤلاء قوم من بوادي العرب قدموا على النبي ﷺ المدينة طمعاً في الصدقة لا رغبة في الإسلام فسماهم الله الأعراب فقال: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة/97.

قال "الأزهري": ((والذي لا يفرق بين العرب والأعراب والعربي والأعرابي ربما تحامل على العرب بما يتأوله في هذه الآية وهو لا يميز بين العرب والأعراب ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب إنما هم عرب لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن سواء منهم الناشئ بالبدو ثم استوطن القرى والناشئ بمكة ثم هاجر إلى المدينة)).

وفي الحديث: ((مهاجر ليس بأعرابي))، حيث جعل المهاجر ليس بأعرابي. وفي الحديث أيضاً: ((ثلاث من الكبائر منها التعرب بعد الهجرة))، أي الرجوع إلى البادية.

والتعرب الإقامة في البادية قال الشاعر:

عرب أبائي فعلا وقاهم  
مه الموت رسلاً عالاً وزود

وكان من رجع بعد الهجرة إلى موضعه من غير عذر يعدونه كالمترد ومدّه حديث "ابن الأكوغ" لما قتل عثمان خرج إلى الربرة وأقام بها ثم إنه دخل على الحجاج فقال له: ((يا ابن الأكوغ ارتددت على عقبيك وتعريت)). والأعرابي يؤمن بالروح والآلهة ولكنه يحولهما إلى شيء ملموس ولهذا فهو يخاف الجن أكثر مما يخاف من الآلهة باعتبارها تحيط به<sup>1</sup>. والأعرابي لا يؤمن بالبعث والحشر والقيامة قال تعالى موضحاً ذلك: ﴿وَكَاْنُوا يَقُولُونَ أَئِنَّمَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الواقعة/47. وقال الشاعر:

**حياة ثم موت ثم نشر**      **حديث خرافة يا أم عمر**

لقد وصفت التوراة الأعرابي بأن يده على الكل ويد الكل عليه<sup>2</sup>، وهم في نظر كسرى يفتقرون إلى الدين يقتلون أولادهم ويأكلون لحوم الإبل التي تعافها السباع<sup>3</sup>. وقال عنهم المستشرق "أوليري" بأنهم يفتقرون إلى العاطفة والخيال ويقيسون الأمور بمقياس المنفعة الخاصة. ومع ذلك فهناك ملاحظة هامة هي ضرورة عدم الخلط «من موقع الشعوبية» بين كلمة عربي «كجهاز مفاهيمي» يقيد القوم والجنس وبين الأعرابية كظاهرة اجتماعية وهذا ما أكدّه "أحمد أمين" بأن العرب ككل الشعوب لهم ميزاتهم وعيوبهم وأن أية مقارنة مع الآخرين إنما يجب أن تجرى على أساس الطور الحضاري الذي مرّ به هذا الشعب ومن ثم فهذه الأعرابية- ليست خاصة بشعب معين هو العرب<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص286.

<sup>2</sup> - سفر التكوين: الإصحاح السادس عشر، آية/12.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص264.

<sup>4</sup> - أحمد أمين: فجر الإسلام، 1/39.

ويمكن التأكيد بالمقابل بأن الموارد العربية قديمها وحديثها همشت هذه الظاهرة وسفحتها وحاصرتها ونظرت إليها نظرة ازدراء واحتقار ومن جهة أخرى فهذه الموارد وعلى تعددها وشمولها تريد أن تقول لنا إنه كان في العصر الجاهلي ضميراً عربياً كاسحاً تخطى هذا الطور الحضاري للأعرابية ليدخل مرحلة جديدة هي مرحلة الارتباط في الأرض ثم ليستشرق آفاق مرحلة حضارية أخرى أكثر وعياً ونضجاً هي مرحلة القومية.

هذا وإننا نجتزئ بعض مظاهر هذا الموقف السلبي للضمير العربي من الأعرابية: لقد عرض ابن خلدون لتوحش هؤلاء البداية العرب ولكنه في الوقت نفسه أكد أن هؤلاء مثلهم في ذلك مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة<sup>1</sup>.

ونجد هذا التمييز لدى مدنيات العربية الجنوبية "اليمن" فقد كانت تطلق كلمة "أعرب" على سكان البادية أما أهل المدن والمتحضرين فكانوا يعرفون بمدنهم فكان يقال: سبأ - حمير - همدان... إلخ.

وأحياناً كان يضاف إلى هذه الكلمات كلمة "أعرب" للدلالة على الأعراب التي تدخل ضمن هذه الممالك فكان يقال: أعرب ملك حضرموت وأهرب ملك سبأ<sup>2</sup>.

وفي الأعراب الذين كانوا يرفعون أصواتهم نزلت الآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الحجرات/2.

ولقد حثهم القرآن على التأدب قائلاً: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾

لقمان/19، وكان أحدهم إذا جاء الرسول ﷺ فوجدته في حجرته ناداه: يا محمد...فأنزل الله قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الحجرات/4، وتروي الأخبار أن بعض هؤلاء حاربوا مسلمين مع الرسول ﷺ ولما عادوا من الحرب وجدوا وعاء للرسول ﷺ فانتهبوه وقتلوا حارسه فنزل

<sup>1</sup> - ابن خلدون: المقدمة، ص121.

<sup>2</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص 21.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَأَنْ يَلْتَكِمَنَّ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الحجرات/14.

وفي الحديث: ﴿مَنْ بَدَأَ جَفَاً<sup>1</sup>﴾.

روى ابن خزيمة في صحيحه عن مسروق رضي الله عنه قال: ﴿أَكَلُ الرِّبَا وَمَوَاطِنُهُ، وَشَاهِدَاهُ إِذَا عَلِمَاهُ، وَالْوَاشِمَةُ، وَالْمُسْتَوْشِمَةُ، وَالْوَاوِي الصَّدَقَةُ، وَالْمُرْتَدُّ أَعْرَابِيًّا بَعْدَ الْهَجْرَةِ، يَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>2</sup>﴾.  
وجاء في الحديث: ﴿لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ بَدْوِيٍّ عَلَى صَاحِبِ قَرْيَةٍ<sup>3</sup>﴾.

وتروي الأخبار أن أم سنبلَةَ الأَسْلَمِيَّة أَهَدَتْ بَيْتَ الرَّسُولِ ﷺ لِبِنْتِهَا فَأَبَتْ عَائِشَةُ قَبُولَهُ بِسَبَبِ نَهْيِ الرَّسُولِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ ثُمَّ دَخَلَ الرَّسُولُ وَأَمَرَ بِقَبُولِ الْهَدِيَّةِ مُؤَكِّدًا أَنَّ أُمَّ سَنْبَلَةَ لَيْسَتْ أَعْرَابِيَّةً<sup>4</sup>.

ودخل عيينة بين حصن العزاري- المسمى من قبل الرسول ﷺ بالأحمق المطاع- على الرسول ﷺ دون إذن فقال له: ((أين الإذن؟)) فقال: ما استأذنت على مضربين قبلك وقال: ما هذه الحميراء معك يا محمد فقال: هي عائشة بنت أبي بكر فقال: طلقها وأنزل لك عن أم البنين))<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 6/74.

<sup>2</sup> - يوسف بن إسماعيل النبهاني: دليل التجار إلى أخلاق الأخيار، الجفان والجابي للطباعة والنشر، قبرص، ط1، 1987، ص112.

<sup>3</sup> - محمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، 14/67.

<sup>4</sup> - ابن سعد: الطبقات الكبير، 8/215.

<sup>5</sup> - مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 6/45، والطبري: تفسير الطبري،



وبلغ من استعلاء أهل الحضرة على أهل البادية أن الأعراب كانوا يرغبون في التسمي بأسماء المهاجرين قبل أن يهاجروا فمنعوا من ذلك واعلموا أن لهم أسماء الأعراب وعليهم التسمي بها<sup>١</sup>.

وكان أهل الحضرة يقولون: ((أعرابي جلف وأعرابي قح أي لم يدخل الأمصار ويختلط بأهلها))<sup>٢</sup>.

وكانوا إذا تكلموا عن شخص فيه عنجهية وخشونة قيل عنه: فيه أعرابية<sup>٣</sup>. وتروى الأخبار أن أبا ذر خرج إلى الريدة فدعاه الخليفة عثمان وقال له: ((تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً فكان يختلف بين الريدة والمدينة مخافة الأعرابية))<sup>٤</sup>. وتحدث "الإمام الغزالي" عن طريقة إسلامهم ونوع الأدلة والبراهين التي سلكوها لتحصيل الإيمان بالدين الجديد وعن لقائهم للرسول ﷺ وعرضه الإيمان عليهم وقبولهم ذلك وانصرافهم إلى رعاية الإبل والمواشي من غير تكليفه إياهم التفكير في المعجزة ووجه دلالاته والتفكير في حدوث العالم وإثبات الصانع وفي أدلة الوحدانية وسائر الصفات.

ثم يستطرد ليقول: ((بل الأكثر من أجلاف العرب لو كلفوا ذلك لم يفهموه ولم يدركوه))<sup>٥</sup>.

وخير ما نختم به حديثاً حول هذا الموضوع شهادة القرآن الكريم فقد وصفهم بالكفر والنفاق وعدم الالتزام بالحدود، قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>٩٧</sup>.

<sup>١</sup> - الطبري: تفسير الطبري، 9/26.

<sup>٢</sup> - مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 74/6.

<sup>٣</sup> - المرجع السابق، 74/6.

<sup>٤</sup> - الطبري: تفسير الطبري، 284/4.

<sup>٥</sup> - محمد بن محمد أبو حامد الغزالي الطوسي: الجامع العوام عن علم الكلام، طبعة مكتبة الجذوي، القاهرة، ص 299.

بل هم الذين طالما تألف الرسول ﷺ قلوبهم وسيوفهم بالمال والعطاء والهبات دون أن يكون للمنطق الإيماني في هذا التألف كبير مجال<sup>1</sup>.  
وإذا كان هؤلاء قد فرضوا نفوذهم على الدولة الإسلامية في حال ضعفها فإن إسقاط<sup>2</sup> الخليفة عمر بن الخطاب سهم المؤلفة قلوبهم يجب أن يفهم لا كمسألة فقهية فحسب وإنما كخيار حضاري هو محاصرة هذه الفئة وتهميشها وإقصاؤها من محيط التأثير ودائرة النفوذ.

وإذا سمحنا لأنفسنا أن نفجر جهازاً مفاهيمياً هو روح الحضرة أو المدينة وروح الأعرابية أمكننا القول إن الإسلام حمل على الروح الأولى: روح المهاجرة والأنصار ولقد ظهرت هذه الحمولة واضحة في حرب الردة إذ التفت الحواضر الثلاث مكة- المدينة- الطائف حوله لتحميه وتدافع عنه في مواجهة روح البداوة. وكثيراً ما كانت البداوة تحاول أن تطل برأسها، ولكنها سرعان ما تقمع لا سيما في حياة الرسول ﷺ، وكما يتضح من توزيع غنائم هوازن واعتراض "عباس بن مرداس وعيينه بن حصن" على رد الأسلاب إلى أهلها، وانتصار روح الحضرة برئاسة الرسول ﷺ والأنصار ومهاجرة قريش.

هذه هي الصورة التي كانت ثابرة ومستقرة في أعماق الضمير العربي ضد هذه الظاهرة الاجتماعية، وإن كان من الضروري تعزيز هذه الصورة بتحديد نقطتين أساسيتين، أولاهما تتعلق بالمقصود من الأعرابية، حدودها ونطاقها، والثانية تتصل بالدور الذي لعبته هذه الظاهرة في التاريخ والعمران العربيين. بالنسبة للنقطة الأولى نجد من يوسع من مدلول هذه الظاهرة ليطلقه على العمران العربي، بحيث تغدو كاسم جيش للعرب. وفي الحقيقة، إن ذلك تبسيطاً ساذجاً ومخللاً للأمور، وهذا ما يتضح من تقسيم ابن خلدون للعمران العربي إلى عمران أهل المدر وعمران أهل الوبر، وبالمقابل

<sup>1</sup> - د. محمد عمارة: فجر اليقظة القومية، دار الوحدة، بيروت، ط2، 1981، ص22.

<sup>2</sup> - نقول إسقاط وليس إلغاء لأن الإسقاط يعني عدم تنفيذ النص بسبب عدم توفر شروطه.

فكلمة مدر تعني - لغة - الطين<sup>1</sup>، وتعني كجهاز مفاهيمي منظومة اجتماعية متعددة الأشكال والصور والمظاهر، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: ((ثم إن كل واحد من البدو والحضر متفوت الأحوال من جنسه، فرب حي أعظم من حي وقبيلة أعظم من قبيلة، ومصر أوسع من مصر، ومدينة أكثر عمراناً من مدينة))<sup>2</sup>. وفضلاً عن ذلك، فالعمران القائم على تربية الحيوان يختلف تبعاً لما إذا كان هذا الحيوان هو الإبل، أو غيره من الحيوانات، إذ الإبل وحده قادر على التوغل والإبعاد في الصحراء خلافاً لبقية الحيوانات التي ترتبط نسبياً بالأرض، وهذا الضرب من العمران يشكل ظاهرة الرعي المتميزة الأعرابية<sup>3</sup>. وعلى هذا الأساس، فقد فرق الجاحظ بين الطائي الجبلي والطائي السهلي، كما فرق بين نزل البطون ونزل الحزون، ونزل النجود، ونزل الأغوار، لا فرق في ذلك بين القحطانيين والعدنانيين<sup>4</sup>. وفي إطار هذا المعيار تكلمت الموارد العربية عن عرب الضاحية، وهم النازلون بظواهر الريف والحضارة<sup>5</sup>. كما إن اللغويين أخذوا بالحسيان، تأثر لغة المشارف وأهل الضواحي، وعرب الأرياف بلهجات إرم واللغات الأعجمية<sup>6</sup>. واستناداً إلى هذا المعيار الموضوعي الطبيعي المادي، فقد عرفت الأرض التي تقع بين الفرات، وبين برية العرب ب (العير).

<sup>1</sup> - يقابل ذلك أهل الوبر، وهذا المفهوم مشتق من وبر الإبل، الزبيدي: تاج العروس، 3/594 مادة وبر.

<sup>2</sup> - ابن خلدون: المقدمة، ص 120.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 284.

<sup>4</sup> - أبو عثمان عمرو بن بحر بن البصري المشهور بالـ الجاحظ: رسائل الجاحظ، 10/1، فصل مناقب الترك.

<sup>5</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 28..

<sup>6</sup> - المرجع السابق، ج 1، ص 287.

وفي هذه المجتمعات الحضرية المتعددة في أشكالها ومظاهرها نجد الإنسان العربي «وفي إطار تكيفه مع الواقع والطبيعة» يطلق لعقله العنان، فإذا هو يزرع ويفرس وينسج، ويحذق في الصناعة والحرف، وإقامة «لاسيما في العربية الجنوبية» القصور والحصون<sup>1</sup>.

وإذا كان عرب الجزيرة العربية، عبروا عن أحاسيسهم الرقيقة بكلام منظوم، فقد أفرغ عرب اليمن أحاسيسهم، بنقشها على المرمز، وبقية الأحجار، وعلى المعادن والخشب. وهكذا فقد سمعنا عن السيوف اليمانية، وعن بسطها وبروزها، إضافة إلى فن صياغة المعادن والأحجار الكريمة<sup>2</sup>.

وإذا انتقلنا إلى النقطة الثانية المتعلقة بالدور الذي لعبته الأعرابية في الحياة العربية، أمكننا القول إن هذا الدور كان تابعاً وهامشياً ومحدوداً، من ذلك، ما ذكرناه عن التنظيمات السياسية في العربية الجنوبية، وتبعية الأعراب (أعرب) لهذه التنظيمات.

ومن ذلك ما ترسخ في المخيال الجاهلي عن حكمة أهل اليمن وجودة صناعاتهم (السيوف والبرود، وغير ذلك)، وقد أشرنا سابقاً إلى الأسطورة التي وجدت مكتوبة على قبر النبي هود، حيث امتدحت هذه الأسطورة أهل حمير أولاً، ثم عقبته على ذلك بمديح قريش.

زد على ذلك فالتاريخ العربي عهد باستمرار تفوق القحطانيين على العدنانيين (كندة - الغساسنة - المناذرة) - جرهم - خزاعة... الخ)، ولم ترجح قط كفة الميزان لصالح العدنانيين إلا على يد الإسلام.

ومن جهة أخرى، فالتاريخ العربي يسجل لنا قانوناً مطروداً، هو الصعود التاريخي الارتقائي للحياة العربية باتجاه المدرية والتوضع والاستقرار المستمرين على الأرض، مقترناً ذلك بحركة هجرة وانتقال دائمين من حياة الوبر إلى حياة المدر.

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 283.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ج 1، ص 283.

يتضح ذلك، فيما ذكرناه عن طيء، وفي التحول الذي طرأ على قريش، حيث قسمت إلى طبقتين: قريش البطاح، وقريش الظواهر، أما قريش البطاح، فهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها، وهم مادة القرشيين، ومن بينهم بنو هاشم وبنو أمية<sup>1</sup>.

والأمر نفسه بالنسبة للأحباش الذين استقروا حول مكة، والذين ارتبطوا مع قريش بتحالفات عسكرية<sup>2</sup>.

ومن الممكن أن ينسحب ذلك على مدينة يثرب وهجرة اليهود إليها إضافة إلى هجرة الأوس والخزرج.

وفي نظرنا إن هذا الارتقاء والصعود التاريخيين أديا إلى زعزعة نظام القبيلة، وتخلخل بنيتها وخلق اختراقات متعددة في منظومتها.

وبيان ذلك أن القبيلة ليست أقنوماً أصم ثابتاً، بل هي مجرد قالب أو إطار عام يتحدد مضمونه على ضوء التضاريس والتموجات الطبيعية والجغرافية دون أن يكون نمطاً اجتماعياً ثابتاً وحاسماً.

وعلى ضوء هذه الملاحظة، وسمت (معد) بالحيلة والكيد والذكاء والغلظة والخشونة، ووسمت كندة بسمات تميزها عن غيرها من القبائل<sup>3</sup>.

ويمكننا أن ندلل بأمثلة متعددة عن هذه الاختراقات للقبيلة، من ذلك ظاهرة الأحناف والحمس، وظاهرة التصعك الاجتماعية، وغير ذلك.

ومن ذلك أيضاً ضرورات الحياة التي كانت تدفع بعض القبائل الصغيرة للتحالف والذوبان في القبائل الأكبر، حيث انضمت خزاعة إلى بني مدلج، وانضمت كعب إلى بني مازن<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - د. رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، دار التنوير، بيروت، 1984، ص 12.

<sup>2</sup> - ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الأول، ص 119.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج 1، ص 292.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ج 1، ص 482.

وفي إطار ذلك فقد ناقش الدكتور جواد علي نظرية الأنساب التي ردها الإخباريون والتي تقسم العرب إلى قحطانيين وعدنانيين حيث أكد عدم وجود اختلاف في الملامح الجسدية والصفات العقلية ووحدة اللسان بين القبائل القحطانية الجنوبية الضاربة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية وبين القبائل القحطانية الشمالية مثل غسان ولخم وكلب وكندة وغيرها .  
وبالعكس فالفروق بين القحطانيين والعدنانيين أقل حدة من الفروق التي نراها بين القحطانيين الشماليين والقحطانيين الجنوبيين وهي نتيجة ليست في مصلحة نظرية الأنساب<sup>1</sup> .

وعلى هذا «والرأي للدكتور جواد علي» فكلمة قحطان لا تعني جداً للقحطانية وكلمة عدنان لا تعني جداً للعدنانية وكلما تعنيه هاتان الكلمتان أنهما مجموعة قبائل متحالفة توحدت مصالحتها فدفعتها للتكتل ثم الذوبان والتلاحم والشعور بوحدة الأصل وبالمقابل فكثيراً ما تفسد وتضعف هذه الروابط فتقضي إلى التحلل والانقضاء<sup>2</sup> .

ونخلص من كل ما تقدم للتأكيد بأن العمران الاجتماعي في الجزيرة العربية عرف ظاهرة الشعب إلى جانب القبيلة، وهذا الأمر نجده جلياً بالنسبة لمدينة العربية الجنوبية، إذ لم نعثر في المسند على مصطلح القبيلة، بل وردت كلمة شعيم وشعين (الميم والنون هنا أداة تعريف)، وقد فرغت هذه المدينة على هذه الكلمة التقسيمات الإدارية الآتية: بعن ثلثن (ربع وثلث).

ونجد المعنيين يستعملون جملة (ولدود-أولاد-ود)، وود هو الإله الأكبر لشعب معين، كذلك فالسبئيون يطلقون على أنفسهم ولد المقة (المقة إله سبأ الأكبر)، أما القحطانيون، فيطلقون على أنفسهم ولد عم (ولد الشعب).

<sup>1</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 479.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ج 1، ص 482.

ولا شك أن التقسيم على أساس حسابي (ثلث-بعن) تعبير عن الارتباط بالمكان بسبب هذه السمة التجريدية، والأمر نفسه بالنسبة للارتباط باله، فهو ارتباط لا يقوم على أساس دموي.

ولقد عكس لنا الأدب العربي بصورة حية وجليّة انتماء العربي إلى الأرض، وتعلقه بها وحنينه إليها، قال عنتره يخاطب ناقته:

**شربت بماء الدحرضيه فأصبحت زواء تنفر عنه حياض الديلم**

وفي نظرنا إن هذا البيت الشعري يعكس وعي الذات والهوية العربية، إذ نجد هنا تلك الشائبة التضادية بين الدحرضين والديلم. وليس بين الدحرضين وأية منطقة عربية أخرى.

وقال مالك بن الربيع يحن إلى وطنه:

**ألا ليت شعري هل أبيته ليلة بوادي الغضي أزجي القلاصه النواجيا**

وقال ذو الصمة القشيري:

**ففا ودعنا نجداً ومنه حلّ بالحمي وقل لنجد عندنا أه يورعا**

ونعتقد أن هذا الصعود التدريجي للحياة العربية استمر في التقدم والارتقاء إلى ما هو أبعد عمقاً وأرحب سعة حيث استشف فاستشرف آفاق الشعور القومي.

ومن المتيقن أننا لا نتحمل الأمور بعد أن أشرنا إلى ما تيسر للأمة العربية «وبصورة فذة ومميزة» من الظروف الجغرافية والتاريخية الحية للتخلق والمخاض والسيرورة التاريخية إذ الأمة - أية - أية أمة - حقيقة اجتماعية تنشأ عبر سيرورة تاريخية طويلة ومديدة بصورة صامتة وهادئة وتلقائية ومستمرة نتيجة تفاعل قوى وعوامل متعددة طبيعية وواقعية وجغرافية وبشرية.

وهذا التطور يفرز بالتدرج في جسد الجماعة اللحم والأسداء وقيم التماسك والدمج وعري الاتحاد ويجسد قوى الشعور المشترك وصيغ المشاعر والأحاسيس

والأفكار وتجليات وأشكال التصدي للتحديات ووعي الهوية والذات الثقافية وقيم النضال.

هذه السوسيولوجيا العربية الواحدة - التي سكبت الأمة العربية في عمران اجتماعي واحد أمر خارج عن نطاق الجدل وهذا ما عبر عنه أديبنا العربي الجاحظ بقوله: ((إن العرب قحطانيين وعدنانيين قد استوتوا في التربية وفي اللغة وفي الشمائل وفي الأنفة وفي الأخلاق والسجايا فسكبوا واحداً وأفرغوا واحداً))<sup>1</sup>. وإذا كان المجتمع العربي قد حقق الوحدة الاجتماعية في الجاهلية فهل هنالك عائق يحول دون تحقيق هذا المجتمع ووعي ذاته وهويته أليست: ((سوسيولوجيا اليوم هي سياسة الغد))، على حد تعبير "غاستون بوتول"<sup>2</sup>.

ويعتقد أن الأمر لم يبق حبيساً في دائرة الحقيقة الاجتماعية بل تعدى ذلك إلى الشعور بالذات وهذا ما يتضح من المناظرة التي تردها كتب الأدب العربي والتي جرت بين النعمان بن المنذر وكسرى ملك الفرس ثم بين هذا الأخير والوفد الذي أرسله النعمان<sup>3</sup>.

وهذا الوعي العميق المدجج بالشعور العارم يعكسه لنا شعر "لقيط بن يعمر الإيادي" في وصفه للقائد الذي يجب أن يتولى أمر قتال الفرس يقول: ((يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا على نسائكم كسرى وما جمعا))<sup>4</sup>. أما "صفية بنت ثعلبة الشيبانية" فقد تكلمت عن هذه الثنائية التضادية بين العرب والفرس قالت:

شيبان قومي والأعراب دعوتي  
وعزيرة فيهم فليست أهاه

<sup>1</sup> - الجاحظ: رسائل الجاحظ.

<sup>2</sup> - كتابه سوسيولوجيا السياسة، ترجمة نسيم نصر، بيروت، باريس، منشورات عويدات، ط3، 982، ص56.

<sup>3</sup> - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 264.

<sup>4</sup> - انظر بقية القصيدة: مجلة الاجتهاد، بيروت، دار الاجتهاد، العدد (12)، السنة 3، 1991، ص38.



وقول عنتره:

لله در بني عباس وما نسلت  
من الأكارم ما لم تنسل العرب

ثم ماذا عن غزوة الفيل... إن وعي العرب لهذه الغزوة يتضح في نظرهم إلى ذلك الرجل الذي خان قومه وقام بمهمة الدليل المرشد فقد أصبح هذا الرجل واسمه "أبو رغال" «رمزاً للخيانة الوطنية» وأصبح قبره مرمى للحجارة يذهب الناس إليه فيرجمون به بالحجارة في طقوس تشبه طقوس رمي الحجارة في موسم الحج<sup>1</sup>.

وبمجيء الإسلام فقد ازدادت عملية الدمج والصهر عمقاً ومسطحاً ماهية وجوهرها حيث حشدت الأمة العربية وعبئت «بألية الأيديولوجيا والعقيدة الدينية» لصالح التحضير والتمصير والتمدن في أكبر عملية تاريخية ترقى بالأمة العربية إلى ما يسمى في أدبنا السياسي المعاصر «المجتمع المدني» مما تقدم يتضح أن هنالك ضرورة ممتلئة وتخلقاً مستمر ونشوء طبيعي وليد تحديات الحياة ثم استجابة العربي لتلك التحديات استجابة ولدت هذه التراكمات والترسبات الحضارية والإنسانية والاجتماعية وبسبب أهمية هذه الاستجابة فقد وجدنا من المناسب آلاء هذه الظاهرة الاجتماعية مزيداً من الحرف والحرث والتقيب فما هي هذه الاستجابة العربية للحياة في طريق نشوء الأمة؟.

المحامي الدكتور برهان زريق

<sup>1</sup> - د. محمد عمارة: التراث في ضوء العقل، بيروت، دار الوحدة، ط1، 1980، ص 167.



## لغتنا العربية مسألة وجود وتقدم

**اليد** واللسان نعمة الإنسانية، مفهوم يرسي حقيقة أساسية، مناطها أن الشيء لا يكتمل وجود إلا بعد أن يتقولن أو يتلعون، أي يتجسد في دلالة لسانية، الأمر الذي حدا بعض الاتجاهات العسكرية المتطرفة إلى تقرير المطابقة بين الفكر واللغة، بين علم المعاني، وعلم الدلالة "السيمانتيك"، وعدم تصور وجود للفكر خارج الأداة اللسانية بما يترتب على ذلك من نتائج أهمها مسألة سلطة اللغة وتوثيقها وتحويلها إلى حقيقة مركزية مطلقة.

وفي الحقيقة أن التقنية اللغوية هي التي تعمم الحقيقة النفسية والمعطى الواقعي بالارتباط والاتصال، فتحولهما إلى حدث اجتماعي لحقيقة اجتماعية.

وعلى هذا فنحن لا نقر بذلك الاستقطاب الثنائي "يد/لسان" بل ندلل بثلاثية قطبية قوامها الفكر - اللغة - العالم - المجتمع" فاللغة تتوسط الفكر والعالم توسطاً غير خطي Linaire، وإنما توسط ثلاث، بحيث أن كل قطب يؤثر ويتأثر في القطبين الآخرين<sup>(1)</sup> وفق الصور الآتية: فكر - مجتمع - لغة.

<sup>1</sup> - د. محمد أركون: الفكر الإسلامي، دار الصافي، بيروت، ط1، 1990، ص287.

فاللغة: هي حاملة الفكر، وشرط الإنتاج والاجتماع والحياة البشرية<sup>(1)</sup>، وهي صانعة الحضارات، وموطن وجدان الأمة وضميرها ومثلها، وهي وعاء التراث والقيم والأفكار...

وتأسيساً على ما ذكرناه، فإننا نقدر تقديراً بالغاً أهمية هذا العامل في تكوين الأمم، بل لا يمكن أن نجد نظرية من نظريات الأمم تغفل هذا العامل، اللهم باستثناء المدرسة الفرنسية، ونظرية مفكر وفيلسوف - الحزب القومي السوري الاجتماعي<sup>(2)</sup>.

وإذا كان هذا دور اللغة في تكوين الأمم، فهذا الدور يبدو جلياً بالنسبة للأمة العربية، منذ تخلقها الأول.

وفي الحقيقة ليس بدعا أو أمراً عارضاً طارئاً أن يتكلم الإخباريون عن اندماج سيدنا إسماعيل (الكلداني) السامي، في قبيلة جرهم، ومصاهرته لهم، وكيف تفتقت لهاته «على حد تعبير المفكر العربي الجاحظ» على لغتهم، حيث اعتبر هذا الحدث حجر الزاوية في نشوء العرب المستعربة.

وليس بدعا أن يسترسل المؤرخون في تصنيف العرب وتقسيمهم إلى طبقات على الأساس اللغوي، فيقال العرب المستعجمة... هذا الحدث أصبح سابقة تكررت، ثم توطدت في بنية ثابتة، قانون مطرد في تاريخ الأمة العربية، فإذا بمصير لغتنا العربية تاريخاً ونمواً وتطوراً يرتبط، منذئذ بتاريخ نمو وتطور الجماعة العربية في مجال التوحيد والامتزاج والانصهار، ومن هنا لا نكون مغالين إذا قلنا إن حديثنا عن تطور اللغة العربية، إنما هو الحديث عن تطور الجماعة العربية في مسيرتها الكبرى نحو الوحدة والدولة القومية الواحدة.

<sup>1</sup> - إلياس مرقص: المذهب الجدلي، والمذهب الوضعي، ط2، 1990، ص287.

<sup>2</sup> - د. محمد عمارة: الأمة العربية وقضية الوحدة، دار الوحدة، ط3، 1986، ص73.

فعندما كانت المعركة الدائرة في شبه الجزيرة العربية، قبيل الإسلام محتدمة بين الاتجاهات والعوامل الانفصالية المفتتة لوحدة القبائل والمدن العربية، سواء أكان ذلك بوحى دوافع وقوة النفوذ الأجنبي الوافد في الحبشة أو الفرس أو الروم، أو بدافع من المصالح القبلية المناهضة للتوحيد، عندما كانت المعركة محتدمة بين هذه الاتجاهات والاتجاهات التوحيدية بزعامة قريش بتيارها الرجعي قبل ظهور الإسلام، وبتيارها الثوري ممثلاً في الإسلام، عندما كانت هذه معالم وأبعاد الصراع الدائر فوق أرض شبه الجزيرة العربية، كانت الدائرة اللغوية تشهد صارعاً حاداً ومحتدماً بين اللهجات القبلية، وبين اللغة الأدبية النموذجية المشتركة التي غلب عليها طابع اللغة القرشية، والتي أخذت الأحداث تقدمها كلفة مشتركة لعرب شبه الجزيرة العربية.

ثم جاءت الثورة العربية في الإسلام لتتوج انتصار القطب التوحيد في هذه المعركة، وجاء القرآن الكريم ليكون كتاب العرب الأول الذي توج انتصار اللغة المشتركة بعد أن اغتنت بثروة من الألفاظ والتعبيرات التي دخلتها من اللغات...، وعندما اتخذ سيدنا عثمان بن عفان قراره الشهير باعتماد مصحف واحد مكتوب باللغة المشتركة، وبعث بنسخ منه إلى الأمصار والأقاليم المختلفة، عندما فعل ذلك يكون قد حدد بذلك الخط الفاصل بين التعدد في اللغات واللهجات في شبه الجزيرة، وبين التوحيد اللغوي، ومن ثم الخط الفاصل بين الوضع القبلي والوضع الذي وصلت إليه الجماعة العربية في الدولة الجديدة في ميدان التآلف والتقارب والامتزاج بعد أن أعطاه الإسلام التوحيد العربي، الذي أثمر لها وحدة في السياسة ووحدة في الإرادة ووحدة في اللسان<sup>(1)</sup>.

لقد أنشأ الرسول العظيم ﷺ تلك الدولة العربية الأولى في المدينة، حيث أرست هذه الدولة حجر الأساس التدشينية لأمتنا العربية، وكان دستور هذه الدولة هو شهادة ميلاد هذه الأمة.

<sup>1</sup> - د. محمد عمارة: الأمة العربية وقضية الوحدة، ص 77.

وتطالعنا المادة الأولى من هذا الدستور بالمعمار الاجتماعي لهذه الدولة، فإذا هي تقول: ((من المؤمنين من قرئش ويثرب، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة دون الناس)).

فهذا الدستور يفتح الباب على مصراعيه لفكرة دولة عالمية قوامها مشروع ثقافي إنساني عالمي جوهره التوحيد وأساسه العدل، وآفاقه الإيمان بالإنسان في جوهره وماهيته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَّا فَضَلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ إِلَّا بِالْتَّقْوَىٰ، أَلْبَلَّغْتُ﴾.

ولقد وضع الرسول الكريم ﷺ الأساس الجامع في هذه الدولة، فإذا هو الرباط الفكري الديني القيمي، مترجماً في والي اللغة، وليس الرباط العرقي أو الإثني أو القبلي، أو غير ذلك من القيم الجاهلية البائدة.

وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الرَّبَّ رَبُّ وَاحِدٌ وَالْأَبَ أَبٌ وَاحِدٌ، وَلَيْسَتْ الْعَرَبِيَّةُ بِأَحَدِكُمْ مِنْ أَبٍ وَلَا أُمٍّ وَإِنَّمَا هِيَ لِسَانٌ، فَمَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ عَرَبِيٌّ﴾<sup>(1)</sup>.

ولقد تأكد هذا المعنى في مظنة أخرى، فإذا هو مبدأ عام شامخ، قال عليه الصلاة والسلام: ﴿الْوَلَاءُ لِحِمَّةٍ كُلِّحِمَّةٍ النَّسَبِ﴾.

ولكن ألم يفتح هذا المشروع الثقافي الحضاري الإنساني الباب مشرعاً للغة العربية كي تتبوأ المكانة العليا في هذا المشروع الذي طلب من المسلم «أياً كانت جنسيته» أن يعانق العربية ويتفقه بها كي يفهم الدين الإسلامي، وجوهره وهذا ما حدا الفقهاء الأصوليين لأن يرسوا المبدأ المشهور: ((اللغة العربية جزء ماهية القرآن)).

<sup>1</sup> - أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بـ ابن عساكر: تهذيب التاريخ، ج2، طبعة دمشق، ص189.

لقد أنطلق هذا المشروع الثقافى متعلقاً مستكماً مقوماته وأسسها، وهكذا كانت معركته الأولى فى معجزة التدوين، حيث أخذ ينقب بالحفر الأركيولوجي "الأثري" فى طول التراث وعرضه، لاحتواء واستيعاب مادة اللغة العربية وتحديدتها ثم شطبها وتمحيصها لمعرفة القوانين التي تحكمها، وقد طالعنا تاريخنا الفكري بعلماء أفاضل حرثوا وبحثوا ونقبوا فى إطار علم المعاني وعلم البيان وفقه اللغة (فيلولوجيا)، وغير ذلك من العلوم وانتقل هذا المشروع إلى معركة جديدة فى علاقته مع الغير، وكانت المعركة هذه المرة مدامية كرسى لها الدولة العربية الإسلامية، وحشدت وعبأت كل إمكاناتها للوقوف فى وجه الشعوبية الحاكمة التي ما فتئت تستعين بتراثها وفكرها فى هدم الدين الجديد.

لقد أدركت الاستقرائية الفارسية أن السلطة فى المجتمع العربي بالدرجة الأولى للأديولوجيا، فهي (وهي هنا الدين الإسلامى)، التي تصنع القوة المادية، لذلك قررت هذه الأيديولوجيا خوض الصراع فى مصدر قوة الدولة العربية، أى فى المجال الأيديولوجي ذاته، سلاحهما فى ذلك تراثهما الثقافى الديني الزرادشتي المانوي - المزدكي، والهدف هو التشكيك فى الدين الإسلامى وهدفه وصولاً إلى الإطاحة بسلطة العرب ودولتهم، ولقد تصدت الدولة العباسية، الفتية لهذه الهجمات فعملت على استقدام كتب العلم والفلسفة من خصوم الفرص التقليديين (الروم - اليونان)، وترجمتها ونشرت محتوياتها، وبذلك فإن حلم المأمون لم يكن بريئاً، لم يكن من أجل أرسطو بل لمواجهة زرادشت ومانى<sup>(1)</sup>، وبالطبع فهذه الترجمة لم تكن نقلاً بل انتقالاً، واختباراً ونخلاً صب عليه العمارة الهاشمية للأمة العربية الإسلامية، يستوي الأمر بالنسبة للأفكار والقيم والمصطلحات والألفاظ.

ولقد انتهى المطاف بهذه الجماعة البشرية (العربية) أن تتحدد معالمها وقسماتها على أساس لغوي، وأصبحت دائرة العروبة تتطابق مع دائرة اللغة مع وجود دوائر

---

<sup>1</sup> - د. محمد عابد الجابري: نحن والتراث قراءات معاصرة فى تراثنا الفلسفي، الدار البيضاء، الناشر المركز العربيين ط5، 1986، ص36.

أخرى إسلامية مجاورة... وحديثاً خاضت اللغة العربية معارك ضارية، لكنها لم تكن في مركز ممتاز مثلما كانت عليه يوم أجلت اللغات القديمة من العراق والشام ومصر وبلاد الشمال الإفريقي.

فمنذ الاحتلال العثماني الذي حدث عام 1516، وسلطات الاحتلال التركي تخوض معركة ضارية ضد اللغة العربية، ولكن التركية لم تستطع أن تلوي عنق اللغة العربية لأسباب عديدة، وكيفينا أن نستشهد «في هذا الصدد» بقول أحد زعماء الأتراك المتضمن: ((أن سياسة التتريك لا يمكن أن تتجح مع العرب لأن عددهم كبير، ولأن لغتهم قوية، ولها مناعة لكونها لغة الدين والقرآن، ولهذه الأسباب كلها يجب أن نعرف أن كل محاولة، لتتريك العرب محكوم عليها بالفشل))<sup>(1)</sup>.

أما العدو الثاني فهو الاستعمار الإنجليزي والفرنسي في مصر والسودان والجزائر، ومحاولة طمس هوية هذه الأقاليم العربية، وإذابتها في بوتقة حضارات وقيم وثقافات غربية ومصطنعة، وقد كان أداة العدو طرح العامية كبديل للغة الفصحى، ولكن العامية لم تستطع أن تواجه التحدي بسبب فقرها وضعف بنيتها، وأوالياتها، ولهذا سرعان ما انهارت وسقطت في مواجهة هذا التحدي المعادي.

أما العربية الفصحى فقد صمدت للتحدي، فإذا بها تخلع عنها زخارفها المصطبغة التي كانت تثقلها في بداية عصر النهضة، وأصبحت مرسلة طليقة، وإذا بها تستوعب آلاف الألفاظ المعربة والدخيلة والعالمية، بعد أن أجرت عليها نوعاً من الصقل<sup>(2)</sup>.

<sup>1</sup> - د. محمد عمارة: الأمة العربية وقضية الوحدة، ص 84.

<sup>2</sup> - هذا القول للدكتور عبد العزيز الأهواني، في كتابه أزمة الوحدة العربية، أنظر في ذلك د. محمود السمرة: العروبة والإسلام وأوروبا، كتاب العربي، 1984، ص 30.



وهكذا نجد أنفسنا في ختام حديثنا عن اللغة العربية، إزاء حقيقة موضوعية تؤكد أن هذه اللغة، إنما هي ابنة معارك وصراعات وأنها لم تتمرس فقط خلال هذه المعارك والصراعات، وإنما تطورت كذلك في أشكال رسمها وكتابتها، وفي مفرداتها، وطرق التعبير فيها، وأيضاً في دلالات الألفاظ التي اختلفت وتفاوتت من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة.

لقد خرجت اللغة العربية منتصرة من محاولات الاحتواء التركية والأوربية، وها هي الآن في دور الانطلاق والفعالية التي تلي مرحلة تثبيت الهوية والحفاظ عليها، وهذه اللغة تظل كافة الأقطار العربية ثقة بالذات وشموحاً وأملاً في المستقبل.

ومع ذلك فهذه اللغة تواجه معركة تحديد العلاقة مع الغير، (المجلوبات الحضارية)، من نفس الإحداثيات والمواقع التي واجهت فيه هذا المصير عندما حملت مشروعها الثقافي الإنساني الخالد، بحيث تتشابه وتتقارب الأوليات والمواقف، ومن ثم فإن إشكالية هذه اللغة تأخذ المظهرين الآتيين:

#### الإشكالية الإيديولوجية:

ونقصد بالإيديولوجية هنا النظام القيمي والهديفي والغاياتي الذي يحكم مسيرة الجماعة البشرية في مرحلة معينة من مراحل الحياة.

فالجماعية «اجتماعية كانت أم سياسية» هي منظومة وبناء ونسق من أدوات الربط والضبط وعرى الاتصال والتماسك وأجهزة الصهر والدمج، ولحم وإسداء الجذب والاندماج والتفاعل، وكلما تعددت هذه النسج الضامة والخلايا كلما استشرق الكيان الاجتماعي أفق المصادقية والكمال والحيوية.

إن الأمة العربية «ولاشك» جماعة تدخل في إطار الحقائق الاجتماعية، فهي تقوم على روابط متجذرة من الحقائق اللغوية والتاريخية والقيم المشتركة، إضافة إلى روابط الدين والأرض الواحدة، والأمل المرتجى في تحقيق المشروع السياسي الواحد (الدولة) عبر مشروع ثقافي وحضاري مشترك.

ولا شك أن الارتقاء إلى أفق الدولة، يقتضي تعضون وتبنين، وتماس الثقافة المشتركة والحضارة الواحدة، من بنى وأجهزة مفاهيمية، وهذا ما عبر عنه "ريمون بولان" بقوله: ((الدولة هي حضارة بأسرها وقد تجمعت وأفصحت عن نفسها في منظومة، أو على الأقل في جملة متكاملة من المؤسسات))<sup>(1)</sup>.

ولا شك أن هذا المكوك الاجتماعي الذي ينسج البنى والعرى، لا بد من ترجمته إلى إسمنت لغوي يقوم بدور الاتصال والصحور وخنق الخطاب الواحد .

فاللغة هي كريات الدم التي تنقل الثقافة، وهي النقود التي يتم التعامل من خلالها، ولا يمكن لمؤسسة ما أن يكتمل وجودها ألا بعد أن تتوج لغوياً، وهو ما عبر عنه أحد رجال الفكر بقوله: ((أن تكون الأفكار وثيق الصلة بوضوح الألفاظ المعبرة عنها، وأن معنى قولنا عن علم معين أنه تطور وتقدم، هو أن ذلك العلم قد ضبط لغته ضبطاً محكماً عن طريق تفسير ألفاظه، أو بجعل الألفاظ القائمة أكثر دقة وتحدياً))<sup>(2)</sup>.

**والخلاصة** أن المشروع الحضاري النهضوي العربي بأفاهه المتعددة: الاجتماعية، السياسية، الثقافية، القيمية، هذا المشروع لا بد له أن يمر عبر القنوات اللغوية، وتبقى اللغة من البلورة النهائية والعنصر الحاسم في كل ظاهرة تصبو للتحقيق والتماس.

وفي إطار هذا المشروع النهضوي تطرح بقوة مسألة العلاقة بينه وبين المشروع الحضاري الإنساني، وبالتحديد العلاقة مع المجلوبات الحضارية، وموقعنا منها، وهل هو موقف آلي ناقل عاكس، أم موقف انتقال هاضم ومتمثل يقوم على الخيار

<sup>1</sup> - كتابه الأخلاق والسياسة، ترجمة د. عادل العوا، دمشق، دار طلاس، ط1، 1988، ص30.

<sup>2</sup> - د. عصام عبد الوهاب البرزنجي: السلطة التقديرية للإدارة والرقابة القضائية، القاهرة، دار النهضة العربية، ط1، 1971، ص128.

والإرادة وصب العصاراة الهاضمة على المجلوب، ثم توظيفه لصالح المشروع العربي (المفهوم التقدمي للتعريب).

وفي نظرنا أن التعريف السابق للدولة يبقى قائماً هنا في تحديد العلاقة مع الغير، فهناك حضارة تستجمع قواها لتفصح عن نفسها، وهنا الحضارة تستجمع هويتها وذاتها لتحدد موقعها من الحضارات الأخرى بما يتفق مع مشروعها.

إذاً فولادة المؤسسة العربية المتحسسة الواحدة، (فن - جمال - علم - قانون - سياسة - أدب... إلخ)، هو المؤذن بالتجذر الحضاري، وهذه المؤسسة - تعبيراً عن ذاتها وهويتها - هي التي تصنع لغتها الضابطة لحركة سيرها وهدفها، وما حلا ذلك تبقى الإيديولوجية مجرد شعارات لا علاقة لها بعالم الأشياء والواقع.

#### الإشكالية المعرفية:

اللغة «ولا شك» حدث إنساني اجتماعي تتحدد تقنياتها وألياتها على ضوء غايتها، ألا وهي حمل الأفكار، والقيام بدور الاتصال البشري، وتختلف الأليات والصياغات والتقنيات والأجهزة من لغة لأخرى، فهناك لغات فيها مثلث (عدا عن المفرد والمتنى والجمع)، وهناك لغات استغلت عن المفرد والجمع والمتنى، وهناك لغات تفتقر إلى أداة التعريف، ولغات ليس فيها نحو أو مذكر أو مؤنث، بل أن اللغة الصينية مستغنية عن الاسم والفعل والحرف، والمذكر والمؤنث والمفرد والجمع<sup>(1)</sup>، ومع ذلك فالجميع يستطيعون أن يعبروا، وهم يعبرون، عند الحاجة عن المذكر والمؤنث والمفرد والجمع والمتنى بالطريق التي نحن جميعاً نعبر عن ذلك<sup>(2)</sup>.

وفي نظرنا أن سبب هذا الاختلاف مرده أمران: معقولية العالم وواقعية العالم، أي شكل وعينا وفهمنا للعالم، ثم تجسيد هذه المعقولية وتمظهرها في الواقع أي

<sup>1</sup> - الياس مرقس: المذهب الجدلي والمذهب الوضعي، ط1، 1991، ص52.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص53.

واقعية العالم، وهذه الواقعية والمعقولة تختلف من أمة لأخرى والمسألة مسألة  
صيرورة وتاريخ، وواقع بتشعباته واحتمالاته وإمكاناته التي لا حصر لها .

معقولة العالم وواقعية العالم تتضمن وتقتضي معقولة اللغات جميعاً  
واعتباطها وصفها جميعاً، وهذا هو إمكان الواقع واحتمالاته .

فالواقع حمال، بدون هذا كله، بدون هذه الهوية المتساوية، وهذا الاختلاف إلى ما  
لا نهاية داخل الجملة المحددة والمحدودة التي هي اللسان البشري (الألسن) يكون  
العالم بلا معقولة، أو باختصار أنه لا يكون .

وعلى هذا الأساس، فليس هنالك خصوصية للغات، وإنما هنالك مفردية، أي  
طابع مفرد، وبمعنى أوضح فكل لغة منظمة أو نسق متكامل خاص أشيد وأسس  
بطريق خاصة لهدف التعبير والإفصاح عن المعاني، ويجب النظر إلى هذه المنظومة  
ككل، لا تفكيكها والتعامل مع جزئياتها، والحكم النهائي يتحدد فيما إذا كانت  
المنظومة تستطيع التعبير عن الأفكار أم لا .

أما مصداقية التعبير وحيويته فتختلف من معلم أو عنصر لآخر، ولا يمكن التحدي  
والقول مطلقاً بأن تلك اللغة أقدر على سبيل الاستغراق والشمول من كافة اللغات،  
أي كل عنصر منها أكمل من كل عنصر من اللغات الأخرى .

نحن لا ننكر بل نفتخر ونعتز بأن لغتنا العربية من أعظم لغات العالم قدرة  
ومصداقية في طابعها التوليدي، ممثلاً في الاشتقاق وطابعها الواقعي الدقيق في  
الاتصال بالأشياء، وظاهرة الترادف في لغتنا لا تعني بشكل من الأشكال التطابق،  
وإنما تعني أن كل مرادفة لها مدلولها الخاص المميزة .

يكفي أن ندلل أن العربي استطاع أن يطلق أكثر من خمسين تسمية عن المراحل  
المختلفة التي تمر بها حبة العنب حتى تصبح زبيبة<sup>(1)</sup> .

---

<sup>1</sup> - د . حسن صعب: تحديث العقل العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1969، ص13 وما  
بعدها .

وفضلاً عن ذلك فلغتنا ذات منزع مثالي، ولديها القدرة العجيبة على التعبير عن القيم الأدبية والأخلاقية والجمالية<sup>(1)</sup>.

فالعربي فقه الواقع، وأدرك تلافيفه وتعاريفه وطاقاته غير المحدودة وإمكاناته غير المتناهية، وآخذ ببصيرته يتعامل مع هذه التعاريف مدركاً خصائصها ومقوماتها، أو كما قيل: النظرية رمادية ولكن شجرة الحياة دائماً خضراء.

ولا أدل على عظمة هذه اللغة أنها استطاعت أن تعبر عن الظاهرة القرآنية، وهي ظاهرة تعانق المطلق، وتجسد صوت السماء في أذن الأرض، وتقوم على فكرة الأبدية أي تحكم المسكونة والتجربة البشرية الأرضية أولاً (الخلاص الأرضي)، ثم النجاة الأخروية ثانياً.

وبالطبع فارتقاء لغتنا إلى مستوى هذه التجربة وقيامها بهذه المهمة الجبارة، إنما مرده إلى تلك التقنيات والأجهزة المفهومية والميكانيزمات الخاصة بهذه اللغة التي أتاحت لها حمل هذه المعاني الضخمة.

لقد ثمن "هيجل" القرآن بأنه كتاب الحركة<sup>(2)</sup>، وأفاض في تحديد مظاهر هذه الحركة، وخلص إلى نتيجة هامة هي أن كل شيء في الإسلام متحرك، ما عدا الله، وبالطبع فإن تلك المروءة العجيبة في النصوص القرآنية، هي التي استطاعت أن تستوعب التغيير في الأشياء، الكلمة خلافة في القرآن لأن الله الخلاق، والله خلق لأن حرية.

ومع تأكيدنا لكل ما ذكرناه، فإننا ندلل بأن اللغة، مطلق لغة ظاهرة بشرية تخضع «مثلها في ذلك مثل أية ظاهرة بشرية» لقوانين التمدد والتقلص التي تخضع لها أية ظاهرة اجتماعية إنسانية، وأبعد من ذلك فالكلام عن الكمال المطلق للغة

<sup>1</sup> - زكي الأرسوزي: بعث الأمة العربية ورسالتها الى العالم، مطبعة الترقى، دمشق، ص108.

<sup>2</sup> - د. حسن صعب: تحديث العقل العربي، ص87.

العربية «وهو أمر يرتبط بخصوصيتها» خطأ وخطر في الوقت نفسه، لاسيما إذا دفعنا إلى التكاثر دون شحذ الهمم، وفي ذلك يقول الشاعر:

إلهي بني تغلب عمه كل مكرمة  
قصيدة قالها عمرو به كل يوم

وعلى ضوء ذلك، فليس صحيحاً تلك النظرة غير التاريخية الاجتماعية الراضية لقانون الصيرورة، التي تصدى بها "رينان" لتقدير اللغة العربية بقوله: ((من أعرب ما وقع، في تاريخ البشرية وصعب حل سره انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء، فبذت فجأة في غاية الكمال، سلسلة أية سلاسة، غنية أي غنى كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أدنى تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت أول أمرها تامة مستكملة تدخل في أطوار وأدوار مختلفة))<sup>(1)</sup>.

وبالطبع فنحن لا نقر "رينان" على ذلك النشوء المفاجئ للغة العربية، بل ندلل بتلك الخصوصية لصيرورتها وتشكلها المرير والطويل والمديد والخصب، أي لهذا المخاض الضخم للروح العربية تفاعلاً وجدلاً مع الواقع والحياة، والفضية أولاً وأخيراً تكمن في روح الأمة، تجلياً وتفتحاً وازدهاراً على نار الحياة وضرام المعاناة، وليس الأمر انسياً من المجهول والميتافيزيك تعبيراً وتدليلاً بنظرة شوفونية مفارقة وخالدة.

فالحياة البشرية لا تعرف الأمور الصماء الصخرية الجامدة المتخثرة، وإنما هي وجود حركي لا يكاد يتضح في مظهر سكوني حتى ينقلب إلى مظهر آخر، فهي القدرة على الوجود، وليس الوجود المتحقق النهائي.

لقد شهد التاريخ الأرضي أعظم تجل للروح الإنسانية في المشروع الثقافي الذي حمله الرسول وحواريوه "صحابه"، ولقد اقترن هذا الثراء الروحي بثراء انعكس على بنية اللغة العربية، حيث أصبحت لغة عالمية تحمل ذلك المشروع الإنساني العظيم.

<sup>1</sup> - د. محمد عمارة: الأمة العربية، وقضية الوحدة، ص 103.

وبالمقابل فقد توقف هذا المشروع ونضب الحياة في عروقه، واستتبع ذلك توقف نمو اللغة العربية وازدهار بنيتها مع التطور المستمر للحياة، ومن ثم فلا يمكن على سبيل المثال المقارنة بين الميكانيزمات والنواهض والأجهزة التي ظهرت معاصرة في اللغة الإنجليزية، وبين ذلك الجمود الذي ران على اللغة العربية.

وبالطبع فهذا المشروع النهضوي المرتجى يرتب معرفياً وإنسانياً الانفتاح على مخاض الروح الإنسانية المعاصرة ورؤاها وتجلياتها وإنجازها على كافة الصعد، بما في ذلك صعيد الثورة اللسانية بمظاهرها المختلفة: علم فقه اللغة (الفيلولوجيا)، علم الدلالة (السيمانتيك)، علم المعاني، علم الاجتماع اللغوي، المنهج البنوي، تحديد المدلول الأصلي للكلمة (الايتمولوجي) أي المتزامن *synchronique*، والمعنى التطوري *diachronique*، وغير ذلك.

إن الدول المتقدمة تطرح ظاهرة ما بعد الحداثة *post modern*، وأداتها المطابقة بين اللغة والأشياء<sup>(1)</sup>، أي تحديد المعنى الدقيق لكل كلمة، وهل يضير أن تستشرف هذا الأفق طالما أن المسألة مسألة حضارة وحقائق علمية، ليس إلا.

ومع ذلك، فهذا الاغتناء بالمشترك الإنساني العام لا ينسينا أن كل ثقافة تحمل جنسية اللغة التي تنتمي إليها، وأن نظام المعرفة العام "الابستمولوجيا الثقافية" في كل ثقافة لا بد من أن تختلف قليلاً أو كثيراً عن نظام المعرفة في الثقافات الأخرى وأن للغة دوراً أساسياً في ذلك، وبالتالي فإن منظومة لغوية "النمو والتركييب وليس المفردات فحسب"، تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم، وفي كيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم<sup>(2)</sup>.

<sup>1</sup> - د . محمد أركون: الفكر الإسلامي قراءة معاصرة، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1987، ص 237.

<sup>2</sup> - د . محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص 142.

ذلك أن القوالب النحوية المنطقية في اللغة العربية هي المقولات الفكرية لدى أرسطو<sup>1</sup>، وهو الأمر الذي يفسر لنا تلك المناظرة الشهيرة التي جرت سنة/326هـ في مجلس الوزير الفضل بن الفرات بين النحوي أبي سعيد السيرافي، وبين المنطقي أبي بشر متى بن يونس، فقد خاطب أبو سعيد مناظرة قائلاً: ((أن المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم لها، وما يتعارفون من رسومها وصفاتها، وهو بذلك لا يلزم إلا اليونان، وأنت لا تدعوننا إلى علم المنطق، وإنما إلى تعلم اللغة اليونانية، لأن المنطق منطق أرسطو، هو نحو تلك اللغة مثلما أن النحو العربي هو منطق اللغة العربية)).

والأمر نفسه بالنسبة لأساليب البيان في اللغة العربية، فهي تقوم مقام الاستدلال في الثقافة اليونانية، والتشبيه في اللغة العربية «وهو أهم آلة في علم البيان» تقوم بالانتقال من المجرد إلى المحسوس، ولهذا يحكي الجاحظ أن العرب اضطروا في قوله تعالى: ﴿إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾<sup>64</sup> ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾<sup>الصفات/64-65</sup>، لقد اضطروا من أجل تفسير ذلك للقول بأن رؤوس الشياطين اسم نبات في اليمن<sup>2</sup>.

وعلى هذه الأرضية نفسها، نفهم الخلاف بين علم الكلام العربي الإسلامي - وهو آلية ذهنية تقوم على قياس الغائب على الشاهد - وبين المنطق اليوناني بسبب اختلاف الآليات الذهنية.

وفي إطار آليات اللغة وتقنياتها ومفاهيمها نفهم ذلك النزاع الذي يدور حالياً بين دعاة السلفية والأصالة، وبين دعاة الحداثة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، فهذا النزاع يرجع هو الآخر في جزء منه إلى كون الفريق الأول يفكر من داخل نظام معرفي محدد هو الذي تحمله معها اللغة العربية، في حين أن الفريق الثاني يفكر بواسطة عناصر من نظام معرفي آخر انتقل، وينتقل عبر الترجمة عبر القراءة باللغات الأجنبية.

✍️ المحامي الدكتور برهان زريق

<sup>1</sup> - د. محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، ص143.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص153.



## التطبيع مع إسرائيل منحة أم محنة<sup>1</sup>

**قرأت** مقال الدكتور "هاني الراهب" الموسوم بعنوان: آخر المعارك الخاسرة - ضجة التطبيع الثقافي، ذلك المقال المنشور في مجلة العربي الكويتية، العدد 436، بالسنة الثامنة والثلاثين، عام 1995.

وبالطبع فأنا «وخلافاً لبعض الأصدقاء» لا اتهم "الدكتور الراهب" بسوء النية، وبصورة عامة لا أومن بالمؤامرة كآلية لتفكيك وحفر الحدث التاريخي وفهم نوااميس الاجتماع...

واستطرذاً فموقفي هذا محمول ومؤسس على منهج معرفي مضمونه ومؤداه رفض الماهيات والجواهر، ورفض الإيمان بأية كينونة للأشياء تسبح فوق التاريخ وتفرض نفسها على التاريخ وعلى منطق الحياة ومنطق الطبيعة ومنطق الاجتماع. على هذا الأساس، أنا مع الدكتور الراهب لجهة ضرورة معانقة الخطاب الثقافي العربي للضرورة لا الكينونة، وإن كنت اختلف معه في تجسيدات الضرورة وتموضعها مع العدو الإسرائيلي.

ومرة ثانية أنا مع "الدكتور الراهب" لجهة ضرورة وقوفنا مع كل ما يرفع من الشأن الإنساني والحس الإنساني والنظرة العليا للحياة والعالم، وهذا موقف تمليه

<sup>1</sup> - قام الدكتور برهان زريق يرحمه الله بإعادة صياغة البحث ليصبح جزءاً من كتاب مخاطر الغزو الثقافي الذي يحمل الرقم/56/ضمن سلسلة الكتب المنشورة بعد الرحيل، على موقعه الإلكتروني: [WWW.Zraik.info](http://WWW.Zraik.info).

عقيدتي الإنسانية، التي جاءت رحمة مهداة للعالمين، كما تمليه عروبتي التي لم تعرف الاستكبار والعتو والانكفاء وراء كهوف الذات.

من هذه المشكاة قوم الدكتور "راشد الغنوشي" ومثله معه الكثير فن الشاعر طاغور فاعتبر بعضه إسلامياً وحجب هذه السمة عن بعض الشعراء المسلمين<sup>1</sup>. ومن هذه المشكاة نفسها اصدر الدكتور "عصمت سيف الدولة" قوله: ((والحق أنه حيث تبحث عن حضارة إسلامية خالصة من الآثار الشعوبية لا تجدها إلا في الحضارة العربية))<sup>2</sup>.

على هذا الأساس ميز الأدب المعرفي والسياسي العربي المعاصر في عطاء منتج ثر وغزير باليهودية كدين وثقافة وفكر، وبين الصهيونية كنزعة استعلاء واستكبار وعداء، وعلى هذا كنا نميز ونقرأ للمفكر اليهودي "روزنتال" وغيره، واعتقد أن الاستراتيجية الثقافية لمعهد الدراسات الفلسطينية بنيت على هذا الأساس.

ولكن السؤال الذي اطرحه أمام الدكتور الراهب وهو: ((أليست الأمثلة التي ضربها واستشهد بها في مقالة الأنف الذكر والمدللة على إنسانية (الثقافة اليهودية)، أليست هذه الأمثلة مثلاً شروداً وبرعماً يتيماً في غابة كبيرة تموج بالأنياب والأظافر، ثم أليس هذا البرعم اليتيم مجرد ريشة نفضتها جسم الصهيونية أو العكس، ولكن الجسم بقى على ما هو عليه يموج بعضه في بعض بالعداء لأمتنا، وبالتالي فكيف يجوز مثل هذا التعميم الإنساني على المجتمع والثقافة الصهيونية))<sup>3</sup>.

أنا مع الدكتور الراهب لجهة ضرورة معرفتنا للثقافة الصهيونية وإحاطتنا بها، ولكن على أساس التعامل معها ومقاربتها من موقع العداء مصداقاً لقول رسول الإنسانية محمد ﷺ: ﴿من تعلم لغة قوم أمن مكرهم﴾، وليس على أساس أنها ناهض من نواهض حياتنا.

ولا ريب أن الثقافة اليهودية الإنسانية على العين والرأس. أما الثقافة الصهيونية فلما تزل عدائية لا تنسى تسلك جميع الطرق لتحاصر ثقافتنا وتسفها وتحاول جاهدة

<sup>1</sup> - حديث مع قصي صالح الدرويش، في جريدة اللوموند، ص 116 وما بعدها، 1992.

<sup>2</sup> - كتابه عن العروبة والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1986، ص72.

<sup>3</sup> - لاحظنا أن الدكتور الراهب يسمي الأشياء بأسمائها ويستعمل لفظ الصهيونية.

إقصائها واستئصالها وطمسها<sup>1</sup> ومن حق ثقافتنا أن تدافع عن معاهد عزتنا وبرابط كرامتنا وعن أحواض وجودنا .

على هذا الأساس فأنا مع المفكر العربي المرموق والمسرحي البارز "سعد الدين وهبة" (وقد استشهد به مقال الدكتور الراهب) بأن إسرائيل لا تملك إلا الثقافة العدائية، لسبب بسيط هو أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع عدائي، وبالتالي فما دام هذا المجتمع عدائياً فثقافته بالضرورة عدائية، ولا أحد يتصور هذه الانقسام بين الثقافة والمجتمع.

هذا واعتقد أن فصل الخطاب في مقال الدكتور الراهب هو الدعوة للتطبيع مع إسرائيل بدليل قوله بالحرف الواحد: ((لماذا لم يبدأ التطبيع منذ عام 1948)). وحقيقة الأمر أنني قبل أن أكون هذه المرة مع الدكتور الراهب! وضده لا بد لي من تحديد معنى هذا الجهاز المفهومي الأوهن (التطبيع)، كل ذلك انطلاقاً مع قول ذائع الصيت "سقراط" مفاده: ((عذراً يا صديقي إذا أردت أن تناقشي محدد معاني ألفاظك)).

هذا وأنا على يقين بأنه لا يوجد في انساق القانون الدولي العام ولا رسيمة اللفظية المعجمية جهازاً مفهوماً اسمه التطبيع.

وهكذا تبدو الغرابة العجيبة والمدهشة Exhaustive وراء هذا الطرح الثقيل والحضور الكثيف لهذا الجهاز، لسبب بسيط هو أن الحوار بين الدول، إنما يتم بلغة القانون وأوليياته ليس إلا .

ويعني أوضح فرجال السياسة والقانون لا يعتمد أوليات الاجتماع ونظمه إلا عندما يريد أن يفرض إرادته وقيمه على الغير أي يفرض انساق ضميره وأنساق اجتماعية وأنساق قيمه من خلال لغة الإكراه والإلزام بآلية القانون .

بعد هذه الجولة الطويلة نسبياً لنا أن نتساءل قائلين: إذا كان التطبيع ليس جهازاً قانونياً وضعياً فإلى أي منتمي أو محتد أو منبت يتصل وينتمي ؟

---

<sup>1</sup> - من مظاهر ذلك الصورة التي رسمتها الثقافة الصهيونية في الغرب الاطلنطي عن العربي والثقافة العربية .

لا مجال للتزيد في هذا الموضوع على هذه الرقعة الضيقة من المقال وحسبنا القول أن الجهاز المذكور ينتمي إلى الاجتماعيات والمدنيات، وبالتحديد ينتمي إلى منظومة المجتمع المدني.

وبالطبع فنحن نقصد من المجتمع المدني ليس المجتمع الأهلي بعلاقات القربى والأصل والقبيلة وغير ذلك من علاقات الحياة الطبيعية وإنما نقصد الجماعة الاجتماعية التي لها قدراً متيقناً من المرجعية والاستقلال عن الجسم السياسي<sup>1</sup>. وهذا المجتمع المدني كلي وحركي مفتوح تدور فيه دوره حياة واحدة، وهو ذلك المجتمع الذي يقوم على قطبي الدولة والمواطنة.

وكما دللنا سابقاً فنحن لن نتزيد ونسرف في الإطالة وحسبنا القول أن المجتمع المدني هو حارس القيم الروحية للأمة، وحارس منطقتها العام وموسوعتها الفكرية ونظرتها إلى الوجود، وحارس حماسها الشعبي وملامحها وأساطيرها وأدبها، وهذا ما عبر عنه "ماكيفر" بقوله: ((الأمة لا الدولة هي التي تملك الصفات الأساسية والحياة العميقة الجذور التي يمتاز بها الشعب وهي التي تبرز خلال خصائص التوتر لدى كل شعب من هذه الشعوب التي لا نجد لها عند شعب آخر، والدولة تدعي أن هذه الخصائص هي خصائصها، ولكن أقصى ما يمكن أن تدعيه هو أنها تصون هذه الخصائص))<sup>2</sup>.

ولا حاجة للتأكيد بأن علائق المجتمع المدني رضائية الأساس عفوية المنبت والممتد فطرية الأرومة مبرأة من دعاوى القوة والإكراه باعتبارها تخاطب القيم والضمير ولا يوجد على صعيد الاجتماع شخص يفرض إرادته على الآخر.

ونتيجة لذلك يتحدد جوهر العلائق والأنساق في إطار التطبيع بأنها أنساق ومنظومات وعلاقات لا تتقيد بالفعل السياسي خلافاً لرأي الدكتور الراهب الذي

<sup>1</sup> - د. صادق جلال العظم: العلمانية والمجتمع المدني مقال منشور في مجلة.

<sup>2</sup> - جان وليام لابييار: السلطة السياسية، منشورات عقيدات، بيروت ط3، 1983، ص70.

<sup>3</sup> - روبرت ماكيفر: تكوين الدولة، ترجمة د. حسن صعب، دار العلم للملايين عام 1966،

أسس الاجتماعي المدني (التطبيع)، على السياسي واعتبره نتيجة ميكانيكية وتلقائية مترتبة عليه.

وبكل اختصار فالمعاهدة تلزم الدولة، وتلزم المواطنين بمضمونها القانوني ليس إلا، ولكنها لا تلزمي أو تلزم المجتمع المدني بالتعامل خارج دائرة القانون بهذه الصفة أو تلك، ومن ثم فهي لا تلزمي في إطار الوجدانيات والقيميّات والقوميّات والقول بغير ذلك يعني إلزام كل دولة من دول المجتمع الدولي أن تتعامل جبراً مع كافة الدول، وهذا يعني إخراجها من دائرة الإباحة والاجتهاد والرخصة القانونية والسلطة التقديرية إلى دائرة السلطة المقيدة.

وسؤال عريض طرحه على "الدكتور الراهب" مفاده: ((لماذا لم تلزم أمريكا بالأمس اليابان باستيراد سياراتها))<sup>9</sup>.

على هذه الأرضية الرصينة نؤكد أن القانون الدولي لا يفهم كلمة التطبيع ويتعامل معها كأساس للاعتراف الدولي أو للتعريف بالاعتداء<sup>1</sup>.

وباختصار فالقانون الدولي يمنع هذه الدولة أن تعتدي على تلك، ولكنه لا يلزمها أن تتعامل معها بهذا الشكل أو ذلك

على هذا الأساس لا يمكن لأحد «رغم الاعتراف بإسرائيل من قبل الشقيقة مصر» أن يلزم الأب شنوده «بمصداقيته كقائد روعي للطائفة القبطية» أن يكون له رأياً محدداً في الحج إلى القدس، وفي الآن نفسه لا يمكننا أن نلزم الحزب الناصري في مصر كتتظيم قومي أن يلزم أعضائه بالسياحة إلى إسرائيل، وقس على ذلك بالنسبة لحزب النهضة في تونس أو للمطران جورج خضر في لبنان ولكاتب هذا المقال أو غير ذلك من مؤسسات المجتمع المدني.

---

<sup>1</sup> - مع التنويه بأن المجتمع الدولي لم يحسم موضوع التعريف بجريمة الاعتداء الدولية انظر في ذلك د. عائشة راتب: بعض الجوانب القانونية للنزاع العربي الإسرائيلي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1969، ص 17.

لقد أراد الدكتور الراهب أن يستكشف قارات للفكر وأن يمد عبرها شرايين الوجود ويضع فيها دورات الحياة ونسج الترابط، وهكذا اكتشف التطبيع ولكنه أخطأ تقدير آليات هذه الظاهرة في حركة الحياة.

أن التطبيع كما وصفناه يعني خلق دورة حياة بين مجتمعين ومد شرايين الاتصال إلى وجودهما المشترك تحقيقاً لمعنوية الأخلاق وعضوية الاجتماع وعضوية الاقتصاد وعضوية الثقافة.

ولكن هل يمكن أن يتم هذا الزواج الكاثوليكي بالإكراه...هنا فرحة الوجود وطرب الحياة عند أحد الزوجين وهنالك الحزن العميق عند الآخر، وهل تمشي السفينة على اليبس كما قال الشاعر.

إن التطبيع لا يمكن أن يقوم على الاستغلال والاستكبار والعداء والخروج على العالم كله في بناء السلام الدولي مبتوراً قوامه الانفراد في المنطقة بامتلاك أعتى ترسانة للأسلحة النووية.

إن عضوية الاجتماع، لا تتم باحتلال المزيد من الأراضي في قدمنا العربية درة قلوبنا ومهوى افئدتنا وغاية مسرى رسولنا الكريم ﷺ.

إن عضوية الثقافة لا تتم بالمعادلة الصعبة ذات الجذر التسبيعي الذي يفتخر بها "بيريز" والقائمة على وهم تفوق العقل الصهيوني في مقابل اليد العاملة العربية. لقد أعطى الدكتور الراهب صك الغفران للصهيونية بتدليله وتبسيطه ولديه لعنق الحقائق وابتسار قوانينها وقوله: ((ان مسألتنا مع الصهيونية هي مسألة شمال وجنوب)).

ونحن إذ نتفق مع الدكتور الراهب حول الدور السلبي الذي يلعبه الشمال في الإبهاض والأكبال والإغلاق التي يضعها على قلب أمتنا وعقلها إذ نتفق معه على ذلك، فنحن لا نهدر دور الصهيونية من تبعه اعتداء أنها الفاضحة على أمتنا، بله من اعتبارها شريكاً لا ينفصل عن الشمال وأن كان يتميز عنه، والقول بغير ذلك يعني الغياب والعدمية، عدمية ينفىها المجتمع الدولي في إدانته لعنصريتها وعدوانيتها.

وإن كان "الدكتور الراهب" يقصر دور إسرائيل والصهيونية على الأدوات الوسائلية، فهذا يعني أن السبب الأساسي لا يزال قائماً، وهذه العلة لا تزال تحرك هذه الإدارة الكريهة تحقيقاً للأطماع والمطامع، وإلا ما معنى زرع الشمال إكراهياً في قلب الجنوب، وهل هذا الزرع الشمالي يتفق مع حقائق الجغرافيا والاجتماع ومع مقتضى عفوية الحياة.

إن إسرائيل نطفة من صلب الشمال لا من صلب الجنوب من صنع الإنسان لا من صنع الطبيعة والاجتماع، والصانع يجد نفسه حالياً لا يملك دعمها بالمال، إذاً فمن أين يمتلك هذا التصنيع المال اللازم لاستمرار غطرسته، أليس ذلك عن طريق مد الشرايين المبتزة الطبيعية أو العفوية.

هل تنازل بيريز عن معادلاته الهمايونية الصعبة ذات الجذر التسبيعي، أم تنازل بدوره الليكود عن عنصريته؟.

إن صقور الأمة العربية (منظمة حماس) قبلوا (بأوسلو) شريطة أن تزال بؤر المستعمرات التي بث الروائح الكريهة على مقربة منهم (من الضفة الغربية) في حين ترفض إسرائيل إزالة هذا الاعتداء على شرعية الحياة وعلى الشرعة الدولية، إذاً فمن لا يرضى التطبيع، العرب أم الصهاينة وكيف يمكن الكلام عن تطبيع وأهم وأهن مضاد للحياة ومضاد لمنظومة الحقوق ومن هم الذين لا يقبلون حب الحياة وتقديس الحياة، وتمجيد الحياة، وتعزيز أسس الحياة، العرب أم الصهاينة<sup>1</sup>؟.

لكن بقيت كلمة أخيرة وهذه المرة ليست لي، وفي نظر قائلها المقوم للفكر والواقع الموازين القسط له في نظره: ((إن الفكر ليس ذلك الذي يفكك من أجل خلق مسافة بين الذات ومعتقداتها، الفكر لا يفكك ولا يركب ولكنه ينبثق ويخلق... لا يمكن للنظرية أن تغير من طبائع الناس وسلوكيات الشعوب إلى إذا كانت منبثقة من وعي الأمة التاريخي، ولا يصل هذا الوعي إلى مرتبة النظرية إلا إذا ارتقى إلى مستوى الرؤية، أي إنتاج موقف حول الأمة حول الإنسان حول العالم.

<sup>1</sup> - محمد مزوز: من أجل انطولوجيا إسلامية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1993 المقدمة.

وكلمة أخيرة نقولها في هذا الموضوع، خلاصها أنه ليس كل فكر وعي، بل الوعي هو ذلك الفكر الذي يعاني هموم الأمة.

ومن جهة أخرى فليس كل وعي رؤية، بل الرؤية هي وعي دقيق يحيط بإشكالات الوعي ويرقى إلى درجة الجذر والحسم الحضاري الخط المتواصل في سير الأمة، وهذا هو فصل الخطاب في مسألتنا مع إسرائيل.

((إن سوسيولوجيا اليوم هي سياسة الغد)) كما قال "بوتول"، ((وإن الإبرة المغناطيسية «السياسة» تتحرك بالساحة المغناطيسية «المجتمع والحضارة»، وإن دستور الحياة الضمني هو أساس الدستور الشكلي)). كما قال "د. عبد الله العروي"، وأخيراً فمن المتعذر اختصار الدولة في فكرة سلطة سياسية تتحكم في الجماعة، إذ الدولة حضارة بأسرها وقد تجمعت، وأفصحت عن نفسها، أو على الأقل في مجموعة متكاملة من المؤسسات<sup>1</sup>.

إن قضيتنا مع إسرائيل بالتحديد وبصدق هي قضية قريب لي تزوج من امرأة، وقد بنيت منه عدة أولاد، ولكنها لم تكن تشبع غرائزه الجامحة، فتزوج بغياً (مستأصلة الرحم)، وعاش مع هذه للإنجاب ومع تلك للهوى.

ومضت السنون، ودارت الأيام وكان المستقبل للأولاد وأمهم، وتوفي الوالد، وبقيت الزوجة الثانية وليس لها معيل في الدنيا إلا أولاد زوجها.

إن مسألة علاقتنا بإسرائيل هي أولاً وأخيراً مسألة حضارية بين الشمال والجنوب (نظرية الدكتور الراهب)، وبين العرب واليهود ولن تحل هذه الإشكالية إلا بحوار الحضارات وليس بزرع الشمال في الجنوب من أجل إنجاب أولاد معادلة "بيريز"، وعندئذ يعيش اليهود معنا وتكون ضمناً حقيقياً لا هو بالمحنة من الشمال ولا هو بالمحنة على أمتنا.

وعندئذ تكثر جوائز "النوبل" في المجتمع الإسرائيلي.

نقابة المحامين- اللاذقية/24/5/1995م

المحامي الدكتور برهان زريق

<sup>1</sup> - ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، مترجمة د. عادل العوا، دار طلاس، دمشق، 1988، ط1، ص 300.



## 1 التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني

**شاحت** في الآونة الأخيرة «لا سيما بعد حرب الخليج ونهاية الحرب الباردة» مفردات انطلقت من داخل مقولة النظام الدولي الجديد، وبالتلازم الحدتي والظرفي مع التداعيات والنتائج العالمية والإقليمية التي ترتبت على ذلك. ومن هذه النتائج عربياً دخول الصراع العربي الإسرائيلي مرحلة جديدة هامة، هي مرحلة جديدة هامة، هي مرحلة الإعداد والتمهيد لحل سلمي عبر مفاوضات بدأت في مدريد، واستؤنفت في اتفاقات ثنائية في هذا السياق استخدمت منظومة من أجهزة مفاهيمية متعددة<sup>2</sup> : الشرق الأوسط الجديد- النظام الشرق أوسطي- النظام المتوسطي- السوق الشرق أوسطية- التطبيع.

إضافة إلى هذا القاموس الكريه من الألفاظ، ظهر تعبير التطبيع الثقافي في صدد إثارة الصحف العربية لقضية "أدونيس"، أثر تجميد عضويته في اتحاد الكتاب

<sup>1</sup> - قام الدكتور برهان زريق يرحمه الله بإعادة صياغة البحث ليصبح جزءاً من كتاب مخاطر الغزو الثقافي الذي يحمل الرقم/56/ضمن سلسلة الكتب المنشورة بعد الرحيل، على موقعه الالكتروني: [WWW.Zraik.info](http://WWW.Zraik.info).

<sup>2</sup> - محمد سعيد قصبه: التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني، مجلة الطريق، العدد/4/، لعام 1993، ص45.

العرب بسبب حوارهم مع بعض المثقفين الإسرائيليين، وقد تردد التعبير المذكور على لسان المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب حيث، قرر المكتب المذكور بتاريخ 19/18 أيار 1993، تشكيل لجنة الدفاع عن الثقافة العربية في فلسطين المحتلة تم إنشاء جبهة ثقافية عربية لمقاومة التطبيع الثقافي مع الكيان الصهيوني<sup>1</sup>.

هكذا يكون هذا الجهاز المفاهيمي قد طرح في مجال التداول المعرفي، واندراج في الأدبيات السياسية، وأصبح له وزنه وثقله على أرض الواقع. إذاً فالجهاز المذكور قد ولد وترعرع في مناخ سياسي وثقافي معين، وبالتالي، فإن ما واكب القضاء من متغيرات في الخطاب الفكري السياسي هو الذي من شأنه أن يعطي لتلك المفردة الحديثة أبعادها الاستراتيجية والسياسية والثقافية. على ضوء ما تقدم، يرى "الدكتور وجيه الكوثراني" أن هنالك ثلاثة، خطابات نموذجية عالمية واستراتيجية تلازمت مع الحدث الدولي/حرب الخليج/وواكبت التداخيات الإقليمية الناجمة عنه، وحاولت أن تضي على تفسير الحدث ودلالاته نظرات فكرية شاملة:

1- خطاب فوكوياما: نهاية التاريخ.

2- خطاب هنتنجتون: صدام الحضارات.

3- خطاب شمعون بيريز: الشرق الأوسط الجديد.

---

<sup>1</sup> - مقاله الموسوم بعنوان الشرق الأوسط والتطبيع الثقافي مع إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد/2، لعام 1995، ص4.

فهذه الخطابات الفكرية الاستراتيجية هي المفاتيح الكبرى لتفسير ظاهرة التطبيع الثقافي، أو لتظل هي المدخل العريض الذي يرهص لدخولنا آفاق هذا الحدث - القارة الكبرى<sup>1</sup>.

وأبعد من ذلك يمكننا أن نعطي لهذا الجهاز «المنحدر من صلب المشروع الشرق الأوسطي» بعداً تاريخياً أعمق، إذ تذكرنا أن المشروع المذكور من صنع الدوائر الاستعمارية الغربية العنصرية، حيث أول ما ظهر تعبير الشرق الأدنى The near east في سياق المسألة الشرقية كآلية سياسية ابتدعها الغرب لتصفية الدول العثمانية، ثم أعقبه ظهور تعبير الشرق الأقصى The far east كآلية سياسية للاستيلاء على الهند، وأخيراً ظهر تعبير الشرق الأوسط في إطار السيطرة على الشرق برمته على اعتبار أن الشرق الأوسط هو قلب العالم من الوجهة الحضارية والتاريخية والجغرافية، ويحتضن أعظم مخزون استراتيجي للنفط، وهو الأمر الذي حد أحد المفكرين الاستراتيجيين، لأن يطلق تعبير مربع الأزمات «بسبب الأهمية البازخة» للمنطقة الجغرافية.

وبالطبع فقد كان حرص الدوائر الاستعمارية الغربية كبيراً بعدم إعطاء هذا التعبير مفهوماً جغرافياً أو ثقافياً أو حضارياً محدداً ليبقى مفهوماً مطاطاً يتجاوب، ويتكيف مع مطامع تلك الدوائر ونزواتها، أو يكون أقرب ما يكون إلى فكرة المجال الحيوي منه إلى فكرة المفهوم العلمي أو الواقعي.

---

<sup>1</sup> - د. عبد الله عبد الدائم: فهو يصف الثقافة العربية الإسلامية بأنها عريقة لكنها لم تستطيع صنع حدثها، أو تشرك الجماهير في بنائها، وأنها لم تبين من داخلها، وأخيراً فهي خاضعة لتحدي النظام العالمي، مقاله الموسوم بعنوان: العالم ومستقبل الثقافة العربية، مجلة المستقبل العربي، عدد 222، 1997، ص30.

بعد هذه الجولة الطويلة نسبياً يمكننا أن نضع أيدينا على الفكرة المفتاح *la notion cley* لتعبير التطبيع الثقافى وخلفياته التاريخية، حيث ظهر هذا التعبير في إطار منظومة نسقية محددة تتوجاً للمشروع الاستعماري الغربي الكبير، هذا المشروع الذي قضى على الدولة العثمانية مردفاً ذلك باستنزاف ثروات آسيا وإفريقيا لينتهي به المطاف إلى مجاله الحيوي الجديد - مثلث الأزمات، حيث ركز مخططاته وأوليائه وأجهزته وعلمائه ومستشرقيه كآليات لتمزيق جسد أمتنا، وحيث زرع العدو الألد الصهيوني كإسفين كبير في جسد هذه الأمة. ويمكن القول، ونحن لا نزال في إطار نسق متواشج العرى، أنه كان لهذا المشروع الاستعماري الخطير، وبعد الانتصار على الاتحاد السوفيتي، أن يعيد حساباته ومخططاته، ثم يجري هيكلية جديدة لوطننا العربي بألية ضرب الشعب الشقيق في العراق ضربة قاسية لا تقاس بمقياس إشكالية عراق/كويت، وإنما بمقياس مصالحه الاستراتيجية، كما صرح بذلك بوش نفسه بأن نسط الخليج جزء من الأمن الاقتصادي للولايات المتحدة.

وبالطبع فقد كان لا بد لهذا الترتيب السياسي من تنظير فكري، وهكذا ظهر عام 1991، كتاب فوكوياما نهاية التاريخ ولسان حاله يقول لقد انحسم أمر الحدث التاريخي لصالح الكوكبة الإمبريالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

وتعاملاً مع الفكرة السابقة رشح الإسلام والعروبة عدوين للغرب ذريعة لضربهما واستنزاف شعوبهما، وهذا هو مغزى كتاب صراع الحضارات لمؤلفه المفكر الأمريكي الذائع الصيت "هنتنجتون"، ومغزى كتاب "شمعون بيريز" كآلية إجرائية، تحدد حلقة جديدة من حلقات الصراع مع العدو.

لكن ما هو هذا البعد الاستراتيجي لنتائج التطبيع الثقافى مع العدو؟.

يمكننا في هذا الصدد أن نسجل المرتكزات الآتية:

1- **المرتکز الأول** : التطبيع «لغة ومفهوماً» يقيد خلق نواميس طبيعية للحياة والمجتمع والاقتصاد تتأبى أية شائبة أو تقييد أو تحول دون التفاعل على مستوى كافة الفعاليات الإنسانية، ونحن نستطيع أن نؤكد أن هذا المفهوم «بخصوصية العلاقة مع العدو» ميكانيكي تبسيطي اختزالي يلوي عنق الحقيقة لسبب بسيط هو أنه يقوم على الهيمنة السياسية لإسرائيل التي يعضدها الغرب ضارباً الذكر صفحاً عن كافة ثوابت أمتنا، وما توطن وتوطد وترسخ كالجبال الرواسي عبر الصيرورة التاريخية العريقة والعميقة.

وبيان ذلك أن هذا المفهوم الميكانيكي للتطبيع يصطدم بصخرة الهوية العاتية، أي بالثقافة العربية الإسلامية الحية ذات الحساسية الخاصة ضد الدخيل ثم مقاومته، لذلك اقترن هذا المفهوم التطبيعي المخادع بمفهوم آخر استقطابي هو القضاء على ثقافتنا، وهكذا فقد ابتكر الغرب آلية جديدة لتلك الغاية هي الأصولية الإسلامية، وما الهدف من ذلك إلا استئصال الحالة الإسلامية<sup>1</sup>، على أساس «والغرب يدرك ذلك» تماهي العروبة بالإسلام والعكس، وعلى أساس أن سيف العروبة الذي يستل من غمد الإسلام هو من أهم الفعاليات للوقوف في وجه مطامح عنصرية الغرب، وعلى أن الغرب يستل سيفه ليطعننا به.

ولا أدل على ذلك أن الغرب لا يهمله الأصولية، وكل ما يهمله ثروات أمتنا وتاريخها وحضارتها، وهذا ما يتضح من تأييده الأصولية الفعلية «وليس الحالة

---

<sup>1</sup> - هذا هو رأي فهمي هويدي في مقاله الموسوم بعنوان ليست مسألة تثقيف ولكنها دعوة لاقتلاع جذور الأمة والمنشور في مجلة المجلة عدد 817، لعام 1995. وأضاف بأن المحاولة تتجاوز استئصال الحال الإسلامية إلى محاولة استئصال الإسلام ذاته ومحو الذاكرة الإسلامية، أي ليس الهدف مجرد التصدي للمد الإسلامي أو القضاء عليه، لكن تقويض ثوابت الأمة لا سيما أن الإسلام ليس عقيدة، بل ثقافة وهوية وحضارة.

الإسلامية» ضد أهم ظاهرة صحية في تاريخ أمتنا الحديث ألا وهي قيادة الراحل جمال عبد الناصر.

إذا فالغرب يفصل مدلول الأصولية على قياس مصالحه وأهوائه وغرائزه ومطامحه، وليس من أجل الشأن الإنساني أو المصير العالمي أو تعزيز كرامة الإنسان كما يدعيه ويتقوله.

ولعلنا نجد مصداق ما نقول في مقال الكاتب الأميركي الاستراتيجي الشهير "و. س. ليتد" الموسوم بعنوان الدفاع عن الحضارة الغربية والذي نشر في مجلة السياسة الخارجية الأمريكية/ عدد/ فقد أكد المذكور بأن حرب الخليج ستكون هي الحلقة الأولى في سلسلة الحروب الثقافية المقبلة التي ستوجه ضد الحضارة الإسلامية<sup>1</sup>.

واستطرذاً فلسنا مع الأخ "معن بشور" لجهة أن التطبيع من مفاهيم القانون الدولي لسبب بسيط هو أن هذا القانون يعني فقط بتحديد مدلول (العدوان) وضبط مقوماته وحدوده ونظامه<sup>2</sup>.

2- **المرتكز الثاني** : إننا مع عالم الاجتماع الكبير "الدكتور محمد الذوادي" لجهة الدور الحاسم للرموز الثقافية في الحياة الإنسانية وقيمتها المتعالية المتأبئة الصامدة أمام تقلبات المكان والزمان، ففي نظره إن الثقافة تمثل صلب جوهر كينونة الإنسان، وهي البعد العميق في ذاته، الأمر الذي حدا هذا العالم إلى مقارنة هذه القيمة بروابط الاقتصاد، وتأكيد على التفوق الكبير للروابط الثقافية، وقد

---

<sup>1</sup> - أشار إلى هذا المقال السيد ياسين رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام في مقاله المنشور في جريدة الاتحاد الصادرة في 1994/2/21.

<sup>2</sup> - د. عائشة راتب: بعض الجوانب القانونية للنزاع العربي الإسرائيلي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1969، ص63.

دلل للبرهنة على مقولته بمثلين حيين أولهما ظاهرة العزلتين في كندا (يقصد من ذلك إشكالية "كيبك") ثم الاستعمار الفرنسي لشعبنا الجزائري، وفشل هذا الاستعمار أمام صخرة الرموز الثقافية الإسلامية والعربية.

وفي نظر المذكور إن الأمة العربية أمة فريدة في نوعها لجهة المفهوم الثقافي لسبب بسيط، هو أن هذا القرن الأكبر الذي صهر هذه الأمة في مرحلة الثقاف في قام على الرموز الإسلامية مقترنة بالرموز العربية خلافاً لانتشار المسيحية في أوروبا، الذي اعتمد القيم الروحية ليس إلا<sup>1</sup>.

وقريب من ذلك هذا التقسيم الذي أجراه "الدكتور محمد الشيجا" للقوميات، فقد حمل هذا التقسيم على المادي والروحي، ثم الماضي والحاضر، وفي النهاية فقد أعطى الأمة العربية قصب السبق في تكوينها لجمعها بين المادي والروحي، الماضي والحاضر، المشروع نحو المستقبل.

ويذهب "الدكتور جمال الدين الخضور" إلى أبعد من ذلك إلى ذلك التأسيس المعرف في القائم على الحفر والتشييد والتنقيب في بنائها الأساسي الأنثروبولوجي الثقافي المتين، والذي يمتاز بصفتين أساسيتين في القراءة ونتائجها بين العامل الذاتي والعامل الموضوعي، بين الخاص والعام، بين القومي والوطني، وبالتالي لا بد من إعادة القراءة بما تمليه فعاليات الفكر العربي النشيطة العقلانية المؤسسة تاريخياً عبر منهج ديمقراطي يحدد الخطوط الأولى لفعاليات الخلق والإبداع في ثقافة مواجهة جادة قادرة على كشف عناصر الصراع في الجبهة النقضية، وهذا ما يقضي بدوره إلى كشف وتجديد ملامح طرائق الخروج من غيبوبة التبعية عبر حوض الصراع ضد الثقافة التطبيعية المتمثلة بثقافة النظام العربي الأوسلوي (نسبة لأوسلو) السائد كطرف أول وضد ثقافة المركزة والعولمة الإمبريالية كطرف

<sup>1</sup> - مقاله الموسوم بعنوان السلام والتطبيع الثقافي، المنشور في مجلة المستقبل العربي،

ثاني وممثليها ثقافة المشروع الصهيوني المتمثلة بالأيدولوجية العنصرية الصهيونية اليهودية بتعبيراتها المتعددة، وما ترتب على تلك العلاقة القائمة بين المراكز الإمبريالية والهرم الطفيلي في الطرف العربي من تمركز نمط ما قيادي يفتقر لأي توازن في العلاقات الإنتاجية الاجتماعية بحيث تبدو المهمة الأولى لهذا الهرم في تعزيز طرفية الوطن العربي مقابل تسليمه الكامل بألية المركزة الإمبريالية الصهيونية عبر ممثليها التنفيذي الكيان الصهيوني، وهذا ما بدا واضحاً، وعلينا في مقولات الشرق أوسطية وغيرها من مقولات التطبيع بحيث تظهر الحركية العامة التطبيعية بتوازٍ موضوعي مع الاختراق الصهيوني للجغرافية العربية ومن ثم، فإذا كانت هذه الأخيرة تستند إلى تأسيس اختراق المكان للزمان والتاريخ، فالتطبيع الثقافي مستند إلى الاختراق الكامل بالسطو اليهودي على التاريخ العربي، بأنه حق مشروع، ويرتكز على أن السطو على الجغرافية العربية حق صهيوني مشروع أيضاً، وقد تتأسس مشروعيته على قدرة العولمة الصهيونية<sup>1</sup>.

**3- المرتكز الثالث :** إذا كانت هذه هي ثقافتنا، فالسؤال يثور حول ثقافة العدو، طبيعتها، آلية عملها، أهدافها..

يجيب عن ذلك الدكتور "وجيه كوثراني": ((بأن إسرائيل لا تملك ثقافة بالمعنى الإنساني والعالمي تصدرها إلى العرب وتخرق بها الثقافة العربية، إذ أن السياسة الإسرائيلية يتوفر لها نموذجان أو اتجاهان))<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. جمال الدين خضور: السلام والتطبيع الثقافي، ص119.

<sup>2</sup> - د. ووجيه كوثراني: مشروعات النهوض العربي بين الأمس واليوم، مجلة الطريق، العدد الأول، 1997، ص12، وانظر:

Colloque des Intellectuels: Juifs Politique et Religion, paris, 1981.

هو كتاب غني في دلالاته على الجهد التوفيقي الذي يبذله مثقفون صهيونيون في هذا الاتجاه.



1- ثقافة تقليدية وتلمودية تتجه نحو أصولية يهودية متعصبة وغير قابلة للنقاش مع الآخر، وهي متواصلة في أصولها المرجعية ومصالحها الراهنة مع الحركات الإنجيلية الأصولية الأمريكية التي انتعشت منذ عهد ريغان.

2- ثقافة صهيونية علمانية مأزومة تحاول أن تكييف أو تفسر التراث اليهودي الديني منذ انتشار عصر القوميات في أوروبا حتى الآن في فكر سياسي علماني معاصر مبرر لنشأة دولة إسرائيل ومواكب لتطورها ويستجيب لحاجاتها في التوفيق بين العلمانية واليهودية وبين السياسي والديني، وبين حداثتها وتراثها<sup>1</sup>.

ويتابع الدكتور الكوثراني القول: ((اعتقد أنه لا هذه ولا تلك ثقافة مؤهلية لاقتحام الثقافة بتراكيبها الفنية العميقة والمؤلفة من عناصر إسلامية ومسيحية عربية وعناصر بيئة إقليمية تضرب بجذورها في عمق الحضارات القديمة من مصرية وبابلية وأمورية وآشورية وأرامية وكنعانية- فينيقية ناهيك عن الحضارة العربية الإسلامية التي استوعبت خلال قرون كل تلك المتنوعات)).

وتأسيساً على نظرة التاريخ الشاملة «والكلام للدكتور الكوثراني» بمنطقتنا العربية بدواثرها الإقليمية، الجزيرة- الهلال الخصيب (أو المشرق) المغرب العربي، ضمن هذه المنطقة بتموضع التراث اليهودي القديم.

داخل هذا الإطار الحضاري الواحد المتنوع لا خارجه، بل إن هذا التراث يصبح وكما تثبت جل الدراسات الحضارية المتخصصة مجرد اقتباس عن حضارات المنطقة بدواثرها الثلاث: مصر، وبلاد كنعان، وبلاد ما بين النهرين.

---

<sup>1</sup> - يؤكد المطران جورج خضر في حديثه بتاريخ 16/1/1988 مع التلفزيون اللبناني بأنه يصعب الحوار مع الثقافة الإسرائيلية المتعصبة الاستعلائية التي تدل بطرد العرب إلى الصحراء لاصطياد العقارب والأفاعي.

وعليه كان إعادة النظر في المقولة- الأسطورة التي سادت الفكر الأوروبي الحديث والتي تنسب مرجعية الحضارة الغربية الحديثة إلى الجذور- اليهودية واليونانية، مهمة ثقافية وعلمية تحتمها لا ضرورات البحث العلمي فحسب، بل أيضاً حاجات المشروع الحضاري العربي المعاصر، وقد سبق لباحثين ودارسين غربيين أن تنتهبوا إلى الأسطورة إغفال الغربية السائدة لدور المرجعيات الأخرى المكونة للحضارة الغربية الحديثة، وهي مرجعيات حضارات شرقي المتوسط ووادي النيل، والتي يرى البعض أنها كانت مرجعيات للحضارة اليونانية نفسها، ناهيك عن إغفال دور المرجعية الحضارية العربية الإسلامية التي قامت بدور التوليف والنهضة والأصالة والإبدال والتوصيل إلى أوروبا والتأثير فيها عبر أقتية وجسور المتوسط لا سيما عبر صقلية وإسبانيا .

أما الثقافة الصهيونية، فإنها الثقافة الإسرائيلية المعاصرة ذات المنهجية البراغماتية الغربية، لا سيما الأمريكية ذات الموضوع التراثي اليهودي الشهير، كل استثمار إيديولوجي سياسي وبالتماثل المعكوس مع قوميات أوروبا السوفيتية والعنصرية (الوجه الآخر للإسلامية) ومن الطبيعة العنصرية نفسها، أي أنها والنازية عنصران متكاملان.

**4- المرتكز الرابع :** إن مصدر تفوق الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة الصهيونية العنصرية، هو ذلك البعد التاريخي التراكمي العميق الجذور لثقافتنا إضافة إلى مقوماتها ومضامينها الإنسانية، وبالتالي فتعاملنا مع الموقف الثقافي ليس من الوجهة الميتافيزيقية المجردة، بل من الوجهة الجدلية التي تتلمس المشكلة في أجزائها الصغيرة وأشكالها المعينة، لا مفرداتها الكبرى كالتطبيع والمصير والرفض والثورة، إذا تمّ التعامل الجدلي يستحسن بنا أن نقرأ تجربة مجتمعنا المصري في الممانعة الثقافية كما يستحسن أن نقرأ عناد شعبنا في الأردن ضد التطبيع ورفضه له وتحصنه بقلاع ثقافة الأمة وحضارتها الحيّة، لا بل لا يذهب

بنا الأمر بعيداً إذ نذكر بأن شعبنا العربي في الأرض المغتصبة في فلسطين عام 1948، هذا الشعب استطاع أن يحتفظ بتمام هويته وأصالته.

5- **المرتكز الخامس** : لا يتجزأ العدو على منازلة الثقافة العربية الإسلامية بإنسانيتها وعقلانياتها وإبداعها وعالميتها، أي لا يتجزأ الدخول معها في عملية مثقفة، لذلك فالتطبيع الثقافي لديه يعني التدجين والتشريط conditionally، وفقاً لمصطلح المدرسة السلوكية الأمريكية behaviorism، بل التعليل والمسح والتفريغ والتطويق والإقصاء والاستئصال<sup>1</sup>.

(وهذا التشريط المراهن عليه ليس تطبيقاً ثقافياً بالمعنى الذي يؤديه تعبير التطبيع normalization أي جعل الأمور طبيعية وعادية... إن العقل الاستراتيجي الإسرائيلي الحاكم يراهن على نشر نوع من حالة ذهنية «انقلاب سيكولوجي لدى العرب» تكون بلا مضمون تاريخي ولا بعد وطني أو قومي أو حالة لا ثقافة، حالة نفسية بيولوجية، تحول كل عربي إلى فرد معزول وتحول كل جماعة إلى أقلية مستفردة، وكل دولة إلى سلطة قامعة، وكل مجتمع إلى مشروع حرب أهلية والواقع يشير إلى أن إسرائيل هي التي ستقوم بهذه المهمة بل واقع حال العرب، ودور إسرائيل هو الدفع بذلك الاتجاه، واستثمار معطياته إلى الحد الأقصى ودروس التجربة اللبنانية ملاً بدلالات هذا الاستثمار ومخاطره)<sup>2</sup>.

وقريب من ذلك ما أكده الأستاذ جلال أمين بأن العولمة «ومشروع الشرق الوسط الجديد عولمة مصغرة» تتعامل مع الإنسان كمقولة اقتصادية ليس إلا اتساق

---

<sup>1</sup> - د . وجيه كوثراني: مشروعات النهوض العربي بين الأمس واليوم، ص12 .

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص13 .

اقتصادي uoma economique وهكذا فهي تفككه وتنتزعه من وطنه وبيئته وأسرته<sup>1</sup>.

**6- المرتكز السادس :** إن الثقافة السياسية الصهيونية تحاول أن تتكيف مع التحولات والمفاهيم العلمية المستجدة للتجاوز أزمته المفاهيمية القديمة المتمثلة في فكرة أرض الميعاد، ومأزق الاستيطان والتوسع الجغرافي دون حدوده، وذلك من خلال تبني مفهوم صهيوني أكثر تلاؤماً مع مفاهيم السلطة العالمية السائدة اليوم... النظام العالمي والسوق وما يتبعها من شعارات ليبرالية مزعومة وخطاب علموي مرتكز على ما تشكله سلطته المعروفة وعصر المعلومات والاتصال من قوة تأثير ونفوذ وقدرة في المبادرة<sup>2</sup>.

ولعل في هذه النقطة «والكلام للدكتور كوثراني» يكمن ما يسمى الخطر الثقافي الإسرائيلي الجديد، فهو ليس تطبيعاً ثقافياً كما يحلو للبعض أن يقوم ويتوهم ويندد ويحذر إنه المنديل الأحمر الذي يلوح به أمام الثور الهائج، كما كان "مالك بن نبي" يقول عندما درس العلاقة المتبسة القائمة بين ثقافة المستعمر وثقافة المستعمر، حيث أكد أن الكثير من الشعارات والمناهج التي انزلت إليها بعض مثقفي حركات التحرر الوطني في إفريقيا وآسيا بوعي أو بغير وعي هو من نوع ما سماه بالقابليات للاستعمار.

**7- المرتكز السابع :** تكثر إسرائيل الحديث عن الحوار الثقافي، وهي العدو الأولى لأي حوار، بل هي التي قطعت الحوار بين أمتنا وبين اليهود، عندما أقامت

---

<sup>1</sup> - جلال أمين: العولمة والدولة، مجلة المستقبل العربي، العدد/228/، لعام 1998، ص35 و36.

<sup>2</sup> - د. وجيه كوثراني: مشروعات النهوض العربي بين الأمس واليوم، ص14.

الكيان الصهيوني، ذلك الحوار الذي أئنع وأتى أكله فى إطار التجربة التاريخية للحضارة العربية الإسلامية وبالذات فى الأندلس وما فتئ يتجدد (ويتعمق) حتى قام الكيان الصهيوني الذي اعتبر جريمة العصر بسبب الاقتلاع المزدوج للفلسطينيين من أزمتهم ولليهود من أوطانهم<sup>1</sup>.

والتطبيع المزعوم ليس مجرد انفتاح على الثقافة اليهودية بل انفتاح على المؤسسة الثقافية الصهيونية، وبالتالي يجب التفريق هنا بين أمرين، النظام الرمزي الذي يعبر اليهود من خلاله عن الهوية الدينية الخاصة بهم، فهذه الهوية مغلقة شأنها فى ذلك شأن كل هوية دينية، ثم النظام الرمزي للتعبير عن خبرتهم التاريخية والاجتماعية داخل أوطانهم وقومياتهم كمواطنين إسوة بغيرهم من المواطنين، على ضوء ما تقدم يمكننا أن نفهم من عبارة الثقافة الصهيونية ذلك الخليط من الأفكار الاستعمارية التي انصت على تبني إيديولوجيا الإنكار، فسوغت للمؤسسة العسكرية منذ "شتيرن والهافانا إلى تساحال والشين بيت" محو شعب من التاريخ، وتحميله خطيئة الهولوكست النازي<sup>2</sup>.

ومع ذلك فإذا كان هنالك مثقفون يهود اعترضوا على المحرقة الصهيونية للشعب الفلسطيني، فقد وجدوا دائماً مثقفاً عربياً محاوراً يبادلهم بشكل حضاري تداول القيم الإنسانية الكبرى ذاتها.

وعلى هذا الأساس فإذا جاء الرجل السياسة أن يبرر حال الاستكانة لديه فيعزوها إلى أحكام توازن القوى وموجبات العمل بقاعدة المرحلة والواقعية السياسية، إذ أجاز له الاعتراف «ولو على بعض» بتواضع جغرافية، فالمثقف على ما

---

<sup>1</sup> - تراجع ورقة المقدمة من الدكتور عبد الإله بلقزيز إلى حلقة النقاش التي جرت تحت عنوان:

التطبيع الثقافي، مجلة المستقبل العربي، عدد 200، لعام 1995، ص46.

<sup>2</sup> - د. عبد الإله بلقزيز: التطبيع الثقافي، ص46.

يفترض «جغرافياً» له الذاكرة والتاريخ والرموز، وهو لهذا السبب «وخلافاً للسياسي» غير قادر على التخلي عنها، والمساومة عليها وترويض نفسه على ممارسة نسيان الهوية أو تزوير التاريخ.

ذلك لأن السياسي يتعامل مع الممكن في حين أن المثقف حارس الهوية والتاريخ والذاكرة، وهو المنتصر للحقيقة والمتصرف في ملكوت المعرفة، والتاريخ، فهو معنى يما ينبغي أن يكون، السياسي يلجأ إلى المساومة للوصول إلى الممكن، في حين أن المثقف إذا كان واقعياً فقد جوهره وماهيته.

ونحن مع "الأستاذ مصطفى المسناوي" بأن إسرائيل لم تستطع أن تخلق ثقافة موحدة متميزة لشعب معين، وبالعكس فكل جماعة مهاجرة لها ثقافتها ومصالحها، وإذا كان هنالك إبداع فهو إبداع يهودي حصل خارج فلسطين وضد الصهيونية<sup>1</sup>.

**8- المراكز الثامن:** ليس التطبيع فعلاً أو قراراً سياسياً، والقانون بكافة فروعها لا يلزمنا أن تعامل مع هذه الأغنية، أو ذلك الفن أو الدب أو يفرض عليّ حساً جمالياً معيناً أو ذوقاً محدداً، بمعنى أن القانون لا يستطيع أن ينفذ إلى مملكة الضمير والوجدان وعلى صعيد العلاقات بين الدول فالاعتراف الدولي يلزم بعدم الاعتداء على هذه الدولة أو تلك، وبالمقابل لا يلزم أية دولة بأن تبرم العقود والاتفاقات، وتدخل في عمليات تجارية أو ثقافية محددة.

وعلى هذا الأساس فالتطبيع بالمعنى السلطوي العسكري يحول دون قيام المجتمع المدني كمجتمع مفتوح، محكوم بنواميس الحياة وسنن الله في المجتمع والاقتصاد والأخلاق، وهو بهذه المثابة يتعارض مع ماهية المجتمع المدني كإطار لخيار الإيرادات، ويتعارض مع فكرة المواطنة كوصف موضوعي عقلي عام ومجرد.

<sup>1</sup> - قد أخلته في مناقشة ورقة العمل السابقة، مجلة المستقبل، عدد/200 لعام 1995.

وبيان ذلك أن الدولة لا تستطيع أن تذيب الفرد، ولا يجوز لها أن تمتد بسلطاتها إلى تلافيف الضمير، وحركة العقل وقديماً قيل: لقد أراد "روبسيير" أن يقيم الفضيلة، فأقام الرعب.

والدولة ليست فعلاً سلطوياً معلقاً في الهواء، بل حقيقة موضوعية تتبع من الجماعة وروحها وتعبر عن تطلعاتها وآدابها وقيمها، وهذه هي الشرعية الحضارية التي تترسمها الشرعية القانونية، وفي ذلك يقول "ريمون بولان": ((الدولة حضارة بأسرها وقد استجمعت قواها وأفصحت عن نفسها في مؤسسة))<sup>1</sup>.

والحكومة ليست إلا جهاز في خدمة فكرة من نتاج الأمة، والأمة لا الحكومة هي التي تمتلك الصفات الأساسية والحياة العميقة الجذور التي يمتاز بها الشعب، وكل ما تفعله الحكومة صيانة هذه الخصائص والادعاء بتملكها.

وتظل ثقافة الشعب فوق الحكومة، وإن كانت السلطة تحاول أن تكيف هذه الثقافة على هواها فتشوهها وتحرف معناها... ذلك أن ثقافة الشعب المعبرة عن روح الجماعة تظل في انطلاقتها وحريتها إلى أن يفسدها حكم المستبدين أو حكم المترمتين، وهذه الثقافة وليدة التجاوب مع صور الحياة ومع حب الأرض والسماء ومع قيم الحب والرفعة ومع نداء الضمير ومع المسرات والأفراح ومع الشوق اللامتناهي لتحقيق الرغبات ومع الصراع مع تلك التجربة التي تستعصي على الفهم، إنها تجربة الإيمان.

---

<sup>1</sup> - ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، ترجمة د. عادل العوا، دمشق، دار طلاس، 1986، ص301.

(وقد تتعرض الجماعة لخطر شديد، ولكن الخطر الأشد أن تغتصب السلطة ثقافة الأمة وتسيطر على حياة الجماعة، وتكتم أنفاس الناس وتعيد حرياتهم بأن يختلفوا لمعتقداتهم وآرائهم وطرق تفكيرهم وأساليب حياتهم)<sup>1</sup>.

والسؤال المطروح هو: هل إن التطبيع يراعي هذه الأصول، أم أنه سيعطل حركة المجتمع، ويتناول إلى التحديد القسري لمساراته نجد الجواب على ذلك في المعاهدة الأردنية الإسرائيلية التي لم تكتفي بتقنين منع الاعتداء على إسرائيل، بل سارت شوطاً واسعاً في إطار السياسة على حساب القانون لتتغلغل في تلافيف الوجدان، وتتدخل في مسائل هي من متعلقات الرأي والفكر والثقافة.

لا أدلّ على ذلك ما نصت عليه المادة الرابعة من الاتفاقية إذ بمقتضى هذه المادة يقع تحت طائلة العقاب كل من يعبر عن رفضه للاتفاقية سواء بالمشاركة في ندوة أم بالكتابة أم بالصحف بل بمجرد المشاركة الجماعية أو الثنائية)<sup>2</sup>.

**9- المركز التاسع :** إذا كان هكذا الموقف التخاذلي للسلطة العربية في التطبيع، فإننا لا نعدم وجود تخاذل من قبل بعض المثقفين مروجي التطبيع، فهؤلاء لا يكتفون برفعه شعاراً سياسياً، بل لا يتوانون عن تشويه الارتكازات المعرفية الثقافية لأمتنا، وفي سبيل ذلك يعملون ما يلي:

أ- يندفعون إلى خلق حال ما من التوضع اليهودي التاريخي على أنه فعل مستقل قائم في البنية الإحداثية للمنطقة العربية، وهكذا يتكلمون عن هوية يهودية وأسطورة يهودية وميثولوجيا يهودية في الوقت الذي لا يتوفر فيه نقطة تأسيس واحدة لمفهوم الهوية لدى اليهود، أو ليس المخيال الاجتماعي، ولا الذاكرة

<sup>1</sup> - روبرت م. ماكيفر: تكوين الدولة، ترجمة د. حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، ص245.

<sup>2</sup> - هذا القول للمفكر العربي الوجودي حمد الفرحان «الأردن»، صحيفة العربي، القاهرة، العدد 75، لعام 1996، ص9.



الجمعية، ولا اللغة ولا التاريخ الجغرافي، ولا الجغرافيا التاريخية واحدة لدى اليهود... حتى المفاهيم الثيولوجية المبتوثة في أسفار العهد القديم هي نتائج سرقة سطو مكشوف ميثولوجيا من أساطير المنطقة العربية، ومن ثم فإن طرح مفهوم الهوية اليهودية، على أنه فعل متكون قائم في التاريخ هو نقطة الانطلاق<sup>1</sup>.

الانطلاق باتجاه تشويه الحدود الدنيا لقراءة المنظومة الثقافية المعرفية كبنية تكوينية لأية أمة من الأمم.

ب- إضفاء سمة المجتمعات المتناسكة والمتكاملة تاريخياً على بنية الكيان الصهيوني بهدف إعطاء مشروعية الاستمرار لتكوين قائم في آلية النتائج الاجتماعي الطبيعي، هذا الرأي بعيد جداً عن تكوين الكيان الصهيوني الذي يشكل بنية عسكرية بعيدة عن صفات المجتمعات التاريخية.

إن التركيب الديمقراطي لذلك الكيان عسكري وجملة العلاقات النازمة عسكرية بحيث يتعذر اجتماعه لمقولات الصراع الاجتماعي من ناحية كما يتعذر نتيجة ذلك إيجاد خطوط فصل بين سلطته السياسية وبين تكوينه الاجتماعي ومنتفقيه وبالتالي فالكل يتماهى في تكوين عسكري عنصري يصعب اختراقه بشروح أفقية بيئية، يضاف إلى ذلك ارتباطه العضوي بالمركزة الامبريالية، بحيث يتحول ضمن علاقة الاختراق بالمركز إلى تكوين مركزي يتمحور حول أطراف تدور حوله باتجاه مركزيه، وهذا ما يقصد به من منظومة الشرق الأوسط المتممة للعملة الأمريكية.

ج- نشوء مفهوم الهوية القومية العربية كمنجر تاريخي قائم على الزمان وتشويه الهوية الوطنية العربية كسيرورة قيد الانجاز وكركيمة لدولة عربية واحدة تشكل الطموح الأرقى للمشروع النهضوي العربي، وذلك بإهدار المقومات التكوينية

---

<sup>1</sup> - مقال الدكتور جمال الدين خضور: السلام والتطبيع الثقافي، ص 119.

الصلبة للهويتين واستبدالها بالمكونات الميثولوجية أو الدينية أو المذهبية لتصبح متقاربة تكوينياً مع الهوية اليهودية الصهيونية.

وليس صعباً على المتتبع لاكتشاف السطو الذي قام به هؤلاء الغرباء على المنطقة: على أساطيرها، لغتها وتاريخها، وهذا ما يؤكد الدكتور سيد القمني، بأن هؤلاء لم يسرقوا قيمنا وأخلاقنا وأساطيرنا بل جغرافيتنا<sup>1</sup>.

وهذا هو "جيمس هنري برستد" في كتابه **فجر الضمير** يؤكد أن الكنعانيين كانوا قد اجتازوا مرحلة النمو المتحضر لمرحلة زمنية تبلغ من ألف سنة قبل أن يغزو العبرانيون البلاد، وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية أن سلسلة السطو على ميثولوجيا وأساطير ومعارف المنطقة العربية من التوراة لا حدود لها، يقول المذكور: ((نصائح إلى "ماري مارع" من الميثولوجيا المصرية هي نفسها سفر صموئيل وسفر الأمثال، والأمر نفسه بالنسبة لمفهوم العدالة الفرعونية المبتوث في سفر ملاحى، واليهود كانوا على علم بأنشودة اخناتون العظيمة لإله الشمس، وهي قريبة من سفر المزامير، ولذلك كانوا على علم بحكم الحكيم المصري "آمن موبي" القريبة من سفر أرميا والمزامير والأمثال بصورة تكاد تكون حرفية))<sup>2</sup>.

وقريب من ذلك ما أكده الباحث اليهودي المتميز إيفار لستر، لجهة سطو اليهود على تاريخ وميثولوجيا المنطقة العربية<sup>3</sup>.

انطلاقاً مما تقدم ينبري الدكتور الخضور للتصنيف لضروب المثقفين العرب الذين أيدوا التطبيع ثم المسوغات التي اعتمدها<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - مقال الدكتور جمال الدين خضور: السلام والتطبيع الثقافى، ص12.

<sup>2</sup> - جيمس هنري برستد: فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، مكتبة مصر، ص372.

<sup>3</sup> - إيفار لستر: الماضي الحي، ترجمة شاكر ابراهيم سعيد، إصدار الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1954، ص142.

**الواقعية :** وذلك بتكريس الهزيمة وفلسفتها، ومن ثم فهذه الفئة تحمل وعياً غير مطابق لواقع أمتنا، وعياً زائفاً مبعثراً متعثراً بعيد كل البعد عن ضمير أمتنا، أمة التحدي، والمجابهة ونحمل النكبات، لذلك فالأفضل تسمية هذه الواقعية بالوقوعية والتزوير.

**اكتشاف الآخر :** وهذا يعني أن هؤلاء المثقفين يعتبرون الصهاينة/آخر/بعد أن احتل ما احتل، واعتدى ما اعتدى وبعد أن امتلأ رأسه عنصرية وعتواً واستكباراً في الأرض.

**التيار الرمادي :** تيار الانتظار، ويضم هذا التيار المثقفين الذين لم يحددوا موقفاً معيناً<sup>2</sup>.

**تيار الاصطلاف الكامل في نسق العدو :** ويتزعم هذا التيار القاضي "سليم تقلا" والشاعر نبيه سرحان ومخرج مسرحية روميو وجولييت فؤاد عواد والشاعر الفلسطيني كريم شتور" صاحب فيلم المرزعة ومخرج الفيلم "علي نصار والشاعر أدونيس والروائي أميل حبيبي".

**بناء الاحتكار :** ويمثله يوسف السباعي الذي رافق أنور السادات إلى القدس، وثروت أباظة الذي اجتمع بشكل شخصي ومغلق مع إسحاق نافون<sup>3</sup>.

**تيار العولمة :** ويتمسك بأن العالم أصبح قرية صغيرة، ويتمثل هذا التيار "لطفي الخولي"، ومجموعة من السينمائيين في المغرب العربي ومصر وأمثال "بلقزيز،

---

<sup>1</sup> - د . خضور: السلام والتطبيع الثقافي، ص12 .

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص7 و8 و9.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص123 .

ومحمد عبد العزيز، ومحمد أولاده مهند وحسام الدين ومصطفى وشريف المصري".

10- **المرتكز العاشر** : يتساءل الأستاذ "معن بشور" قائلاً: ((إذا كانت مصر مستهدفة بالتهميش والتفكيك الثقافى، فكيف حول الحل بالنسبة للدول العربية الصغيرة، هكذا يصف الأستاذ بشور هذا التطبيع بالعدواني، التفكيكي وليس بالسلمي، وهو تطبيع يبتدئ بالمدخل السياسي كغطاء لينتهي مطافه بالثقافى فى صيغة الاختراق)).

والرد عند "الأستاذ بشور" يتجلى فى ثقافة الانطلاق كبديل لثقافة القهر، وقام تلك الثقافة التنمية البشرية بكافة أبعادها ومظاهرها، لسبب بسيط هو أن القوة فى الجامعات، وليس فى الثكنات.

ويلقى "الأستاذ بشور" الضوء على الدور الذى تلعبه قضية القدس فى مواجهة التطبيع، يلقي الضوء على المغالطة الكبرى، ألا وهي ازدواج الثقافة المسيحية واليهودية، وبالعكس يدلل بأن جذر الثقافة الأوروبية، يمتد إلى حضارة أمتنا، وأن بإمكان المسيحيين الشرقيين أن يلعبوا هذا الدور المعاكس للعلاقة المسيحية - اليهودية<sup>1</sup>.

وإذا كان "الأستاذ بشور" يذكرنا بالدور الذى تسعى أن تمثله إسرائيل فى منطقتنا، ألا وهو أنها عقل المنطقة.

فهو الآن نفسه، يدلل بأهمية الثقافة العربية وقتها الذاتية وفرادتها، ويضرب المثل على ذلك فى فشل إسرائيل بتدمير الثقافة الذاتية لأهلنا فى فلسطين المغتصبة.

---

<sup>1</sup> - معن بشور: بعنوان السلام والتطبيع الثقافى، ص 7 و8.

11- **المرتکز الحادي عشر** : يجب ألا نخجل من الحقيقة والواقع، أي من وجود بعض الثغرات في بنيتنا التحتية كنقاط ضعف قابلة للاختراق، وهذه النقاط كما حددها الأستاذ حسن إبراهيم حسن هي:

أ- **القطاع الذي يرى خلاصه في اللحاق بركب الغرب**، حتى لو قاده إلى الجحيم، فقد شهد هذا القطاع عصر تدشينه على يد السادات وكامب ديفيد، وأمثال السادات كثر في أمتنا من ذلك حاشية السلاطين من مطبلين ومزمرين. إذا فالمنتمون إلى هذا القطاع هم جميع أولئك الذين انتهجوا نهج السادات وقد سقطت البراقع عن وجوههم بعد أن أعمى السادات عيونهم بريق الصهيونية والغرب.

ب- **القطاع الثاني**: وهو الذي يقف بشراسة في وجه المشروع الصهيوني، وقد أثبت أنه لا أحد يستطيع قهره، وبرهنة أن المشروع الصهيوني لا يمكن تمريره على أمتنا بعد أن وصلت المواجهة إلى ذروتها، وبعد أن رأى المواطنون في مصر انهيار أحلامهم في الوعد الأمريكي، أن خيبة الأمل التي جناها كل من أمل في المشروع الأمريكي خيراً، تنعكس في تصرفات الشارع المصري، فها هي مجلة روز اليوسف «على سبيل المثال» تنشر في عددها 3472 تاريخ 1995/1/2 مقالاً بعنوان **سقوط الحلم الأمريكي في مصر**، الأمر الذي حدا الرئيس الأمريكي أن يطلب من سفارة بلاده في القاهرة تقريراً مفصلاً عن مسرحية (ماما أمريكا) التي رأى إعلانات الدعاية لها أثناء زيارته لمصر، ولقد أشارت مجلة روز اليوسف إلى تحقيق بقلم وائل الأبرش يوحى عنوانه التالي بمضمونه: **جرائم على جواز سفر أمريكي-حوادث الأميركيين بين الأيدز**.

ج- **القطاع الثالث**: وهو القطاع الذي يضم من لا يمثلون رأياً له اتجاه واحد وثابت وشامل، وبالتالي فهذا القطاع من الميوعة بحيث يصعب تصنيفه والحكم عليه، وفي إطار هذا القطاع نجد ضعف الثقافة والقدرة على التحليل، كما نجد

من يرغب في تمييع الأمور وحصرها في التسلية، وتمضية الوقت وهناك من ينتظر النتائج هناك، المحيط في حياته المتردي في ظروف معيشته، وهناك المنتظر للنتائج... إلخ، وبالطبع لا يمكن السيطرة على هذا الحكم الجماهيري الضخم في هذا القطاع الأخير مشروع قومي حضاري يعيد إليه ما فقد من الثقة وفقدان البوصلة والتوازن.

**12- المرتكز الثاني عشر:** لا علينا أن نخاف من التطبيع فحسب، بل أن نخاف من الفقر والجور والجهل والأمر وسياسات التفرد والانقسام والفردية وحب السلطان وسياسات التجهيل وامتهان الإنسان، والفكر والثقافة ودفع العلماء إلى الهجرة والباحثين إلى البطالة والجمود والتسبيح بحمد السلطان.

**13- المرتكز الثالث عشر:** إن سييلنا إلى مقاومة التطبيع هو الدرع الواقى والمضاد الحيوي (انتيبوتيك) لكل غزو ثقافي.

لقد أثبتت كافة العلوم، لا سيما علم البيولوجيا، أن العدو لا يستطيع أن يخترق الحمى إلا من خلال بنيته الداخلية الهشة، وأسلوب عمله وتركيبه. وهكذا دلت على أحد المفكرين بقوله: دعني أدون عادات الأمة، ولا يهمني بعدئذ ما تفعله السياسة.

وهذا ما أكده مفكر آخر بقوله: ((السياسة إبرة مغناطيسية تحركها الساحة المغناطيسية التي هي مبادئ الحياة)).

وقريب من ذلك قول "بوتول": ((إن سوسولوجيا اليوم هي سياسة الغد)).  
وقول آخر: ((السياسة هي تقنية الواقع، أو هي محمولة على فيزيائته كما أن علم الاجتماع هو فيزياء الظواهر الاجتماعية)).

إن المواطن العربي العادي هو صانع العروبة وحارسها وحاميها إلى التقدم وعملقته هو عملاقة هذه الأمة، وهو بالتالي العجلة التي تدور عليها أحداث أمتنا ونهوضها وانتكاسها، وأن قتل المواطن هو قتل الأمة وأحيائها هو إحيائها.

وعلى هذا الأساس فامن أمتنا في تنمية حياتنا ونموها، وفي ذلك يقول  
ماكنامارا وزير الدفاع الأمريكي الأسبق: ((أن الأمن القومي يقوم على التنمية وإن  
أمة غير نامية لا يمكن أن تكون آمنة))، هذا الربط بين الأمن والتنمية يؤكد  
القرآن الكريم بقوله: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ  
الثَّمَرَاتِ** البقرة/127.

وقوله: **﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾** قريش/4.

والخلاصة أن التحصن السيوسيلوجي (الاجتماعي) الثقافي لأمتنا عبر العصور  
بالتوازي على منطقنا الشعبي وموقع حماسنا واعتزازنا الروحي وتمسكنا بأدبنا  
وفولكلورنا، وموسوعتنا الثقافية ورأسماننا الرمزي وجمالياتنا ومحوريتنا  
الأخلاقية، وبحبنا الرفيع للحياة والأرض، بأهazيجنا وأفراحنا، فهذه النواهيض  
والفعاليات والديناميات هي القلاع الحصينة، والروافع الأساسية للتقدم، وبالتالي  
لمقاومة التطبيع.

وإذا تمسكنا بهذا النهج استطعنا القول مع الدكتور خليل أحمد خليل بأن التطبيع  
مجرد أسطورة لأن المواطن في أمتنا يملك سلاحين: سلاح الإيمان الإسلامي،  
وسلاح اللسان العربي، وبهذين السلاحين أخفق التطبيع الصليبي، عندما استل  
السيوف العربي من غمده الإسلامي.

**14- المرتكز الرابع عشر** : ما هي مساحة التفاؤل والتشاؤم في راهننا

ومستقبلنا؟

يجيب عن ذلك الأستاذ "حسن إبراهيم أحمد" من خلال دراسة قيمة تُجتزئ منها

الأسس الآتية<sup>1</sup>:

---

<sup>1</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: حول أدوار التحولات الثقافية العربية، مجلة الفكر العربي، عدد 78،  
لعام 1995، ص4.

أ- الأساس الأول: ويكمن في الثقة في الاتجاه الذي يواجه المشروع الصهيوني من منطلق رؤية قومية تقدمية، فقد أثبت جدارته في تحليل الواقع والتضحية في سبيل المواقف، وهو الأمر الذي تجده في شهادات مجموعة من الأدباء، والمفكرين المصريين قدمتها مجلة الكفاح العربي في عددها/851/تاريخ 1994/12/26، حيث تفسح تلك الشهادات الإصرار المتخذ على عدم بناء علاقاته مع إسرائيل، ورفض ما يسمى التطبيع، والمطالبة بطرد أي أديب مصري يتصل بإسرائيل، ويتعامل معها من اتحاد الكتاب المصريين وفرض القيود على التعامل مع العدو.

وهناك منظمات عربية يقودها مفكرون لهم حضورهم الكثيف في المجتمع، وقد شكّلت لمواجهة التطبيع للجنة الدفاع عن الثقافة القومية التي تتأسسها الدكتورة لطيفة الزيان من مصر ولجنة المقاومة الغزو الثقافي الصهيوني التي شكّلت في لبنان.

ب- الأساس الثاني: وينطلق من الثقة بالحس الجماهيري العفوي الذي صاغته التربية والتوجيه وأثبت أنه عصي على التدجين والاختراق.

ج- الأساس الثالث: وتقوم على الثقة بأن الاقتصاد العربي سيعود إلى مستوى المواجهة لدى احتكاكه باقتصاد يريد ابتلاعه.

ث- الأساس الرابع: المجتمع الإسرائيلي يقوم على الحاخامات والجنرالات، فهو مجتمع عسكري في مناطبه وتكوينه وأهدافه، وبالتالي فالسؤال يثور عن هذا المجتمع في ظلّ السلام المفترض، أي ما هو مصير الذئب فيما لو قلمنا أنيابه وأظافره.

ت- الأساس الخامس: إن الفكر التقدمي العالمي -وبعد زوال الاتحاد السوفيتي- لا يزال يتوهج تحت الرماد، وإن إشعاعاته تبعث الفنية بعد الأخرى على أسس أكثر عقلانية وديمقراطية.

15- **المرتكز الخامس عشر**: هذا التفاؤل الذي يوطن النفوس، ويصوب حركة حياتنا لا بد له من مشروعية اجتماعية، أو حامل اجتماعي عقلي وقيمي وروحي،



وهذا الحامل هو الجماهير العربية المسلحة بمشروع نهضوي أساسه الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات العامة، وبنا نجدد الخيار الحضاري ومؤسسات الدولة والمجتمع، ومناطق أمره القيم الروحية النابعة من الأديان وميثاق حياته المرأة المثقفة المؤمنة العاملة البعيدة عن التقليد والابتذال وذات الحياء، والوقار باعتبارها واهبة الحياة.

**المسألة الأولى والأخيرة:** أن يكون لنا وعي ورسالة ومشروع يدرجنا في التاريخ، ويدفعنا لامتلاك ناصيته، وبالمقابل فالخطر الكبير أن تسير وراء أذنان البقر (حديث شريف)<sup>1</sup> أي أن نبقى في حالة خواء وموت، حالة بيولوجيا، جسد من لحم ودم له خوار يأكل كما تأكل الأنعام، وشر الدواب عند الله الصم والبكم الذين لا يعقلون. هذا ما أدركه "المغيرة بن شعبه" في حوار مع رستم القائد الفارسي في معركة القادسية، حيث انتصب المذكور مدلاً بكل ثقة قائلاً: ((لقد أصبحنا أصحاب دعوة ورسالة)).

وهكذا استمر انطلاقنا عندما استمررنا في تمثيل هذا الوعي المنطلق نحو الأمام، نحو اقتحام التاريخ وامتلاك ناصيته وتحويل اتجاهاته. على هذا الأساس غفرت الجماهير للراحل الكبير عبد الناصر بعض أخطائه على أساس أنه يعبر عن ضمير أمتنا في جهده لإدراجها في حركة التاريخ الصاعد، وعلى أنه كان يقود سفينة حياتنا إلى شاطئ الأمن والرفاه والتقدم الإنساني.

**16- المركز السادس عشر:** ويتعلق بتصوير الإسرائيلي للسلام، وما هو نطاق هذا السلام الإسرائيلي وحدوده، وهل يدخل في ذلك أمر التطبيع.

---

<sup>1</sup> - قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضَيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا نَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ».

تظهر استطلاعات الرأي العام الإسرائيلي بأن الكتلة الأهم من الإسرائيليين، تبلغ 35 بالمائة من مجموع السكان تعرف السلام المقبول على أنه اللا حرب وتوقيع معاهدة توفير ضمانات أمنية.

ولقد فضل 18 بالمائة من الإسرائيليين سلاماً يتضمن بالإضافة إلى مكونات الفئة السابقة تبادل السفراء مع البلدان العربية.

أما الإسرائيليون الذين اشترطوا إضافة إلى ما سبق اشتراطات تتعلق بالتطبيع مثل التبادل التجاري والسياحي أو أكثر من ذلك أب التقارب العاطفي مع شعوب المنطقة الأخرى، كان نسبتهم لم تزد على 38 بالمائة ومصدر الغرابة في هذه البيانات هو أنها توضح إن الإسرائيليين ليسوا متحمسين للتطبيع مع العرب بأكثر من تحمس العرب له<sup>1</sup>.

وهناك استثناء على ذلك، ويتمثل في السلام مع مصر، إذ الكتلة الأكبر من الإسرائيليين ترى أن الحد الأدنى للسلام مع مصر يجب أن يتضمن علاقات التبادل التجاري والتعاون السياحي وعلى الرغم من أن السلام الذي يريده الإسرائيليون ليس بالضرورة من نوع السلام الدافئ الذي تتحدث عنه إسرائيل الرسمية، إلا أن القسم الأكبر من الإسرائيليين يعتقد أن نوع السلام الذي يريده العرب يقتصر على الحدود الدنيا جداً من الالتزامات والعلاقات مع إسرائيل، وأنهم «أي الإسرائيليون» يريدون سلاماً أكثر دفئاً من ذلك الذي يريده العرب<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - جمال عبد الجواد في تعليقه على كتاب Asher Aria حول اتجاهات الرأي العام الإسرائيلي تجاه الحرب والسلام، مجلة المستقبل العربي، عدد/218، لعام 1997، ص144.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص144.

واستناداً إلى ما تقدم يكون من الخطأ التعامل مع التطبيع باعتباره أمراً له أهمية القصوى لدى الإسرائيليين<sup>1</sup>. ولا أدلّ على ذلك أن التحولات والتفاعلات التاريخية والاجتماعية والثقافية تتجه في إسرائيل نحو التعصب والانغلاق والانكفاء حول الذات والاستعلاء، وكل هذه الأمور تتعارض مع أدب الحوار وأخلاقيته وروحه، تلك الروح التي تعني التواصل واحترام الآخر والاعتراف به<sup>2</sup>. وكي تدلّ بهذه الفكرة الأخيرة (انغلاق الشعب الإسرائيلي) وجدنا من المناسب تقديم عرض للتاريخ الاجتماعي والسياسي والفكري لمجتمع إسرائيل، عرض يقوم على الحفر التكويني والتركيبي لهذا المجتمع وما يجوز فيه من اتجاهات وما يتخلله من قوى وفاعليات.

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 144.

<sup>2</sup> - أكد الدكتور بشارة عزمي (نائب في البرلمان الإسرائيلي ورئيس الحزب الديمقراطي) في المقابلة التي أجراها معه التلفزيون العربي في 1997/12/31، إذ هنالك حدثنا عن التطبيع في الشارع الإسرائيلي، لكن هذا الحديث لما يتأطر سياسياً.

## نظرة موجزة عن تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي والديني في إسرائيل

لا حاجة للتأكيد بأن حزب العمل -إبان نشوء دولة إسرائيل- هو الذي أعطى التفسير للصهيونية والدولة والمجتمع.

ومع ذلك لم يعد هذا التفسير هو السائد بسبب بروز عدة إيديولوجيات أهمها إيديولوجيا "جابوتسكي"، فقد استقطبت تلك الإيديولوجيا الشمولية المتحمسة عبر الفترات التي صعد فيها حزب الليكود الحكم/1977-1981 و1988 و1996/، ولقد حدث ذلك نتيجة العديد من السقطات التي وقع فيها حزب العمل أثناء حكمه لإسرائيل في ظل مبتغاه مثل هيمنة الحزب، بحيث أصبحت هناك حالة من الاستقطاب الإيديولوجي الحاد داخل إسرائيل، تبدو في الظاهر وكأنها تتمحور حول خلافات بشأن قضايا الأمن والكفاح من أجل أرض إسرائيل الكبرى والاستيطان اليهودي في الضفة الغربية، والوضع المستقبلي للأراضي المحتلة في حرب 1967 والسلام مع الدول العربية<sup>1</sup>.

لكنها تدور حول تجديد هوية الدولة، وتعكس خيبة الأمل، لأن المجتمع الإسرائيلي عجز حتى الآن عن تحقيق الرؤية الشمولية التي ادعى تحقيقها لتكون مثلاً للعالم.

ويعبر عضو الكنيست "شلومو بن عامي" (حزب العمل) والأستاذ بجامعة تل أبيب عن هذه الظاهرة التي تعم المجتمع الإسرائيلي بقوله: ((إن هذا المجتمع الذي أنشأه الآباء والمؤسسون من الصهاينة على أن يكون بوتقة جديدة يمتزج فيها

---

<sup>1</sup> - د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، عالم المعرفة، عدد224، لعام 1997، ص14.

مختلف الثقافات واللغات، تحول إلى مجتمع متعدد الأعراق والثقافات والطوائف)).

لقد تغيرت وتفتت الصورة الأسطورية المأمولة ليحل محلها صور أخرى جديدة لكل منها شرعيته... بين اليهودي والعربي والمتشردين دينياً (الحريري) والقوميين الدينيين وغيرهم ممن تمتد جذورهم إلى أصول عرقية مختلفة، مثل السفارديم والأشكيناز والمهاجرين الروس والأثيوبيين وغيرهم، وقد أدى هذا التفتت إلى تشرذم المجتمع بين ثقافات وطوائف مختلفة، ومهمات متباينة، وبين مواقف متضارعة تجاه صورة الدولة اليهودية<sup>1</sup>، وهذه الانشقاقات «على حد رأي ابن عمي» توصل لحدوث انفجارات عنيفة داخل المجتمع.

وإذا كنا بصدد مناقشة أبعاد الطرح اليهودي للهوية في إسرائيل على ضوء الثقافة السياسية، فإننا ندلل بادئ ذي بدء بأن هذا الطرح ينقسم إلى عدد من الهويات الفرعية اثنتان منها متضافتان متشابكتان ومتفتتان.

في العديد من الرؤى والتوجهات والهداف، والثالثة هوية فرعية تعبر عن تيار أصبح قائماً بذاته داخل المجتمع الإسرائيلي، وهي الهوية الطائفية السفارادية، والرابعة هي هوية قائمة أيضاً بذاتها تعبر عن التيار الدين داخل إسرائيل، وفيما يلي تعريف مبسط بهذه الهويات<sup>2</sup>.

1- الهوية اليهودية الإسرائيلية العلمانية: وتعتبر عنها الصهيونية القومية التي تجسدها قوى اليمين الصهيوني التطرف في إسرائيل.

---

<sup>1</sup> - شلومو بن عمي: الشعب ضد الدولة، صحيفة معاريف 1996/1/22، ص24.

<sup>2</sup> - د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص211.

2- الهوية اليهودية الدينية القومية: وتعتبر عنها الصهيونية الدينية القومية المتطرفة وتجسدها حركة جوهر أيونيم، وقوى الاستيطان اليهودي في المناطق المختلفة.

3- الهوية اليهودية الطائفية السفارادية: ويجسدها السفارديم داخل إسرائيل كقطاع يبحث عن دور فاعل داخل المجتمع الإسرائيلي.

4- الهوية اليهودية الدينية: وتعتبر عنها الأحزاب الدينية السياسية والقوى الدينية غير الحزبية التي تقف موقفاً معادياً من الصهيونية العلمانية، ومن دولة إسرائيل، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه عن التضافر بين الهويتين الفرعيتين الأولى والثانية فغنه ينبغي الإشارة إلى الطرح الفرعي اليهودي الإسرائيلي العلماني للهوية، ليس هوية إسرائيلية خالصة، كما أنه ليس هوية يهودية خالصة، بل هو خليط من العنصرين اليهودي والإسرائيلي حيث يمكن أن يغلب عليه أحد العنصرين على الآخر<sup>1</sup>.

كذلك فإن الهوية اليهودية القومية ليست دينية خالصة وليست قومية صهيونية أوقف منظورها الجديد للصهيونية، إذ يمتزج فيها العنصرين، وقد يغلب أحدهما على الآخر، وفي بعض الأحيان، أما الهويتان اليهودية والسفارادية واليهودية الدينية فهما هويتان يهوديتان الأولى منها تجسد تيار التقليدية الدينية، والثانية يهودية خالصة لا تتداخل معها أي من العناصر الصهيونية أو القومية<sup>2</sup>.

هذا التخطي داخل المجتمع الإسرائيلي حدا بعضهم للقول بأن هنالك حرب ثقافية، بين الجمهور الديني والجمهور العلماني، بل دلل بوجود شعبين لا شعب واحد، الشعب الأول يؤمن بالديمقراطية والاتجاه العلماني، والشعب الثاني يمثله

<sup>1</sup> - د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 211.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 211.

المعسكر الديني الذي بدأ يقتحم أسوار المعادل العلمانية، ولا يؤمن بالديمقراطية باعتبارها مستوردة من الغرب الكافر، وتجدر الإشارة إلى أن الانتظار السابق الذكر بالتساوي لأن نتيا هو لم يفز على شمعون بيريز إلا بنسبة بسيطة لا تتجاوز 1 بالمائة، ويؤكد "بوعز عفرون" أن الصهيونية المسيحانية التي سيطرت على الدولة منذ حرب/1967/ تتأمر على أسس الأخلاقية وأن ذلك شبتائية جديدة نسبة إلى آخر المسحاء الكاذبين "شبتابن نسقي"<sup>1</sup>.

وفي نظره كان لحرب/1967 و1973/ أبرز النتائج في إشكالية الهوية، ليس بالنسبة لوجهة نظر تاريخ الدولة والإيديولوجيا الصهيونية، بل أيضاً بالنسبة لمغزاها لا بالنسبة لليهود في العالم، وكان أبرز نتائج هاتين الحربية غروب الصبار الأسطوري، وفقدان الإسرائيلي لثقتة في قوته، وفقدان الثقة في النفس وبداية أزمة الهوية الإسرائيلية، لقد فقد ابن الشمس (اصطلاح كان يطلقه الشعراء الإسرائيليون على الصبار) الآفاق الآمنة، وعاش الحرب باعتبارها كابوساً وجودياً دون أن يعرف ما إذا كانت هناك حرب أخرى، ومتى ستقع، وأصبح الشاب الإسرائيلي ينظر إلى الحروب باعتبارها أحداثاً حاسمة، سواء بالنسبة لمصير اليهود ككل، أم بالنسبة لمصير حياته هو<sup>2</sup>.

وكان من أهم النتائج الحاسمة لحرب/1967/ شيوع الإحساس العام بأن هذا الانتصار ثم بمساعدة معجزة وعناية إلهية، وكانت بداية لظاهرة جديدة طفت

---

<sup>1</sup> - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 221.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 222.

على سطح الحياة السياسية في إسرائيل، هي ظاهرة استخدام المبررات الدينية، و بروز نزعة دينية من نوع معين هي الدينية القومية أو القومية الدينية<sup>1</sup>. ولقد شمل هذا الإحساس الجمهور المتدين وقطاعات عريضة من العلمانيين، وبصفة خاصة من الصباريم (اليهود من مواليد إسرائيل) الذين شاركوا في الحرب، انفعلوا بمشهد رفاقهم لدى بكائهم أمام حائط المبكى بعد احتلال القدس.

ويعبّر "أورون باثير" عن هذا التحول بقوله: ((بينما كان الإحساس الشائع لدى الإسرائيلي، بأنه إسرائيلي وبعد ذلك يهودي فإنه التوجه الجديد أصبح في اتجاه يهودي أولاً وبعد ذلك إسرائيلي)).

وإذا كان مسعى الصهيونية الرسغية هو الاندماج والسعي نحو التطبيع مع العالم، وتحويل اليهود في دولة إسرائيل إلى شعب مثل سائر الشعوب، فإن قطاعات واسعة من المجتمع الإسرائيلي بعد حرب 1967، أصبحوا يبرزون التوجه القائل: العالم كله ضدنا، من خلال تفسيراً لنا عقلانية، أو أحياناً مثالية لمقولة الشعب يقيم بمفرده، ولن يحسب بين الأمم عبر اليهودية سواء على المغزى الديني أم غير الديني.

وكان المصدر الرئيسي الذي يركز عليه أصحاب هذه المقولة هو الصراع المتواصل مع العالم العربي، والذي أصبح عنصراً مركزياً من عناصر تحديد الهوية، فقد تمسك قطاع كبير من المجتمع الإسرائيلي بمبدأ أن هذا الصراع غير قابل للحل، وأن العداء العربي لن يتوقف، وقد بدأ الناس في إسرائيل ينظرون إلى الدولة باعتبارها الوريثة لليهودي المكروه والمضطهد، ورفعت شعار (عيسى يكره يعقوب)<sup>2</sup>.

1 - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 222.

2 - المرجع السابق، ص 223.



ومقابل ذلك فقد انكشفت بعد حرب 1967، تخبطاً من اليهودية العلمانية بعنصريتها حركة العمل الإسرائيلية، ثم الصهيونية الليبرالية، وبذلك فقدت حركة العمل القوة على الحسم والمبادرة وثقتها بنفسها، وبدلاً من أن تصبح عنصراً حاسماً قادراً على إعادة التشكيل، أصبحت عنصراً ينساق وراء التطورات والأحداث، إلى أن حدث الانقلاب السياسي الأول عام 1977، الذي نقل دفعة السيطرة إلى اليمين الصهيوني، ثم الانقلاب الثاني عام 1996، الذي أعاد 1996 إليه تلك الدفعة.

لقد حاولت حركة العمل الوصول إلى سلام مع العرب مظهره قدراً من الانفتاح ورفع شعارات القيم العالمية، ولكن نبوءة أرض إسرائيل تغلغت إلى داخل قطاعات كبيرة من الصهيونية العلمانية في حركة العمل، وفي الصهيونية الليبرالية.

وبعد حرب 1973، ازدادت قوة التوجه القومي ذي الملامح المتطرفة الكازانوفية التي ترفض الآخر وترفض حقوقه والحوار معه، وكثيرة هي ملامح هذه الكازانوفية الصهيونية الجديدة، من ذلك على سبيل المثال إبراز عنصرا الاختلاف بين إسرائيل والعالم، والحاجة المتزايدة للكراهية ومعاداة السامية باعتبارها رئيسية في الإيديولوجيا الصهيونية القائمة على مقولة العالم ضدنا، ومن ملامح هذه النزعة المتطرفة المزيد من الكراهية ضد العرب بعامة والفلسطينيين بخاصة، حيث أبدت استعدادها من خلال الغير، على (أرض إسرائيل الكاملة) لاتخاذ جميع التدابير الممكنة (الطرد - الترحيل) لحل المشكلة الفلسطينية، ولم تعد المناطق المحتلة مرد وسيلة من أجل الدفاع عن الدولة، وفق النظريات الأمنية، بل أصبحت وفق هذه الإيديولوجية، هدفاً مقدساً وتحولت صيغة الوعد الإلهي إلى برنامج سياسي ملزم.

هكذا ازدادت قوة التوجه المسيحاني في كل من اليهودية والصهيونية وهو الأمر الذي تجلى في ظهور وازدياد النفوذ المتواصل لحركة مثل (غوش إيمونيم) التي تفجرت مع اندلاع حرب 1967، وما تبعها من سيطرة المشاعر الدينية والصهيونية داخل دوائر كانت تعتبر من العلمانيين حتى ذلك الوقت.

لقد اعتبرت هذه الحركة انتصار 1967، علامة على الخلاص الآخذ في الاقتراب، والتطلع إلى وراء حائط المبكى حيث خلاص شعب إسرائيل، وهو الشعب الذي اختاره الرب ليكون شعباً مختاراً وشعباً يقيم بمفرده، وهكذا وضع رجال (غوش إيمونيم) أنفسهم، وفقاً للنظرة الخاصة بهم، في بؤرة التاريخ اليهودي.

ونظراً لأن اليهودية هي المغزى الرئيسي للعالم، ومجيء المسيح الخالص هو مفتاح التاريخ العالمي، فإنهم مسؤولون عن تنفيذ المسيرة الرئيسية للتاريخ العالمي.

ومن السمات الإيديولوجية (لغوش إيمونيم) المقت والكرهية لكل من ليس يهودياً، وليس لديهم في هذا الأمر فرق جوهري في النظر إلى سائر الأغيار، وهدف (لغوش إيمونيم) إقامة إمبراطورية يهودية خاضعة لسلطان الشريعة يستعبد فيها الأغيار على أيدي اليهود.

ولقد أصبحت هذه الحركة المعبر الأصيل عن الصهيونية بعد أن فقدت الأخيرة دواعي وجودها وتحولت إلى مارد أعمى لعنفوان القوة، وهكذا تحدثت (لغوش إيمونيم) عن الوهم الكامن في فكرة السلام الإسرائيلي العربي، ومن الكراهية كذريعة للحرب والتوسع وفي نظرنا إن سطع الكلام تتحرك لتملاً قضاء الدولة العدو، وإن هذا النظام سيزداد حكمه يوماً بعد يوم، ودليلنا على ذلك الحوار الذي جرى بين "بن جوريون" والحاخام "أفراهام يشعب" الزعيم الروحي لأحورات إسرائيل، فهذا الحوار يكشف عن إرهابات الصدام المبكر في دولة إسرائيل بين الدينين والعلمانيين.

سأل "بن جوريون" الحاخام: ((كيف يعيش اليهود المتدينون وغير المتدينين معاً في هذه البلاد)).

إن علينا أن نتوصل إلى كل ما هو مشترك بين أجزاء الشعب، لأن هناك خطراً عظيماً ينذر بحدوث انفجار من الداخل<sup>1</sup>، أجابه الحاخام قائلاً: ((لقد جاء في الشريعة ما يلي: عندما يتقابل جملان وجهاً لوجه في طريق ضيق لا يتسع إلا لجمل واحد، فإن الأولوية للجمل الذي يحمل أثقالاً، وعلى الجمل الآخر الذي لا يحمل أثقالاً أن يخلي له الطريق، ونحن المتدينين نحمل ثقلاً كبيراً في تعليم التوراة وفي الحفاظ على الواجبات الدينية، والحفاظ على يوم السبت، وعلى الطعام الذي ينفق والشريعة، وكذلك وجب على الآخرين أن يفسحوا لنا الطريق<sup>2</sup>.

ورد عليه "بن جوريون" قائلاً: وهل اليهود غير المتدينين لا يحملون أثقالاً... أليس استيطان البلاد ثقلاً كبيراً... إن اليهود غير المتدينين نهائياً يحملون في استيطان البلاد، وفي الدفاع عنكم)).<sup>3</sup>

لقد عرضنا سابقاً للرأي القائل: بان هنالك حرباً ثقافية في إسرائيل، وأن هذه الدولة انقسمت عمودياً إلى شعبين، وهذا هو عين الرؤية التي أفصح عنها الحوار بين الحاخام و"بن جوريون"، والذي يبدو أن الجمل الذي يحمل التوراة استطاع أن يزحزح عن طريق الجمل الآخر، وهذا ما أكدته تداعيات الأحداث في إسرائيل، لا سيما وصول "بيجن" إلى السلطة وتتوج ذلك بانتخابات 1996، وهذا يعني أن الخط التاريخي الصاعد للمجتمع الإسرائيلي أخذ في التوجه نحو الفتنة بالمعنى

<sup>1</sup> - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 226.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 226.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 226.

الذي حدده الرسول محمد ﷺ للمقت بأنه هبوط الإنسان عمودياً وترديه في مستنقع الضلال.

وليس عجباً أن يصور المفكر الصهيوني: "حرشوم شالوم" هذا المقت أصدق تصوير القول المذكور: إنني اعتقد أن كارثة عظمى ستحدث إذا ما قام الصهيونيون أو الحركة الصهيونية باستبدال أو طمس معالم الحدود بين المسار الديني المسيحاني، وبين الواقع السياسي- التاريخي.

أجل لقد اتضح لنا حزب العمل بسبب قصور الرؤية لديه حول الديمقراطية والعلمانية.

وأخيراً حول الفضيحة الفلسطينية، الأمر الذي حدا لليهودي العادي بالرجوع إلى ذاته الداكنة يستنفزها ويستنفرها، بما استقر فيها من كراهية وحقد خلال التاريخ المظلم لليهود<sup>1</sup>.

ولقد اتضح لنا أيضاً غروب الصبار والكنعانية كاتجاهات تستوحي الأرض، وتميل لخلق علاقات مع العرب، ويبدو أن سبب كل ذلك تلك الثقافة الداكنة التي يتحلى بها الشخص اليهودي العادي القاعدي والذي تربي وتتشأ على هذا الأساس، لا سيما بالنسبة لليهود والشرقيين.

ولا أدلّ على أهمية هذا العنصر الشرقي في إعادة ترتيب وتكوين الهوية اليهودية، أن عدد المهاجرين الذين نزحوا من الاتحاد السوفيتي للمدة من 1988-1996 بلغ حوالي ثمانمائة ألف نسمة، فهذه الجرعة من التعصب لعبت دوراً كبيراً في ترجيح الكفة لصالح الليكود في انتخابات عام 1996<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 226.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 224.

ولعل النمو الديموغرافي لإسرائيل هو العنصر الحاسم في تفسير وجهة الحياة في إسرائيل لصالح التعصب والمقت، إذ أن عدد اليهود الشرقيين كان حوالي 15 بالمائة عند قيام الدولة، إلا أنه بلغ 55 بالمائة من السكان عام 1996 .

وإذا كانت الصهيونية الدينية حتى حزيران 1967 تتسم بالاعتدال في السياسات الداخلية كالمطالبة بتطبيق تعاليم/الهالافاه/في قوانين وتشريعات إسرائيل، أو فيما يتصل بالسياسة الخارجية، وكانت مرتبطة دوماً سياسياً بالصهيونية السياسية في إطار من التحالف التاريخي، فإن هذا الوضع تغير بصورة راديكالية بعد أحداث/1967/العاصفة، مما أدى في نهاية الأمر إلى حدوث تغييرات هائلة في الصهيونية الدينية، ثم إلى تغيير مواقفها ولجئها إلى الائتلاف مع أنصار فكر جابوتنسكي- بيجن الذي يمثل اليمين الصهيوني، ومن هنا فقد أخفت الصلة بين الصهيونية الدينية والدولة في التغيير، وأضفى هؤلاء المتزمتون وزناً لاهوتياً على دعاوى التصحيحين فيما يتعلق بالأراضي العربية المحتلة<sup>1</sup>.

ويرى "يهو شافاط هو كابي" أن اليهودية التقليدية في السنوات التالية لحرب/1967/أخضت تغير من موقعها داخل إسرائيل، فبدلاً من الاكتفاء بالتبعية أخذت تطالب بدور قيادي، وتصر على أن تتبع السياسات الداخلية والخارجية من التشريعات الدينية، ومن ثم أصبحت القومية اليهودية المناضلة عاملاً مهماً للوصول إلى الهدف النهائي لليهودية، وهو الخلاص، وأصبحت العلاقة بين الدين والسياسة أكثر تآلفاً، فالدين لخدمة السياسة القومية والسياسة القومية لتنفيذ الوصايا الدينية<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 227.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 227.

وهكذا أصبحت الأحزاب اليمينية المتطرفة، وخاصة لليكود هي أقرب القوى السياسية إلى القوة الدينية التي يجمعها مبدأ التوسع الإقليمي... فالأحزاب اليمينية تسيطر عليها مفاهيم "جابوتنسكي" والرغبة في التوسع والمعاصرة، والأحزاب الدينية تتغلغل في مفاهيمها فكرة الوعد المقدس وإسرائيل الكبرى، والقيادة العسكرية تسيطر عليها مفاهيم الرغبة في الغزو وتخفيف استمرارية الصورة التي خلفتها حرب 1967.

ولذلك لم يكن غريباً أن التقت الأحزاب الدينية مع اليمين الإسرائيلي المتطرف الفاشيني وأن ترتبط بهما المؤسسة العسكرية في إسرائيل، وهو ما شكل انقلاباً في النظام الإسرائيلي منذ عام 1977 انتقل من الصورة الديمقراطية المعتادة إلى الصورة الفاشينية الواضحة وهذا التحالف يعود إلى الاتفاق في أهداف الحركة الذي يرتفع فيجب جميع العناصر ومستويات التعلل النفسي ليرتبط حول مفاهيم الولاء للدولة العبرية<sup>1</sup>.

ومعنى هذا أن ائتلاًفاً حاكماً مكوناً من اليمين العنصري الفاشيني والأحزاب الدينية الصهيونية، المدعومة من القوى الدينية غير الحزبية، مثل "غوش أيمونيم وكاخ" وغيرهما وعلى غرار ما حدث إثر انتخابات 1996، من شأنه أن يزيد من اتجاهات التوسع الصهيوني والسعي نحو تحقيق إسرائيل الكبرى عن طريق الحروب وتنمية النزعة العدوانية المرتكزة إلى أصول دينية، تدعمها المؤسسة العسكرية التي حلت محل المسيح المخلص في الفكر الإسرائيلي باستعدادها لتغتني

---

<sup>1</sup> - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 228.

به النعرة التأليهية للإسرائيلي الذي لا يقهر، ومحاولة فرض الإرادة الإسرائيلية على الوطن العربي<sup>1</sup>.

كل ذلك أدى «على الصعيد التشريعي» إلى ازدياد التوجه الحربي (التشدد في فرض أحكام الشريعة اليهودية) منذ نهاية السبعينيات. ففي السنوات الأولى بعد أحداث النازية وقيام الدولة كان يبدو، وكأن هناك دفعاً لهذا التيار الحربي، إلى هامش المجتمع اليهودي في إسرائيل، وكذلك في الشتات اليهودي، لأن المخزن البشري له تلقى ضربة مؤلمة، وكان من الصعوبة بمكان بالنسبة لوجهة النظر الحربية التعامل مع المغزى الديني والعقيدي لأحداث النازية.

وقد تثبت المعسكر الحربي من انتصار عدوه اللدود-الحركة الصهيونية التي نجحت في إقامة دولة يهودية ذات سيادة، حيث كانوا يرون أن إقامة دولة علمانية في الأراضي المقدسة هو بمنزلة انتصار للكفر أو تصديق فاجع لفشل الدين<sup>2</sup>.

ويرى بعضهم أنه في يوم 1995/11/4 (مقتل رابين) عاشت إسرائيل صدمة مماثلة لتلك التي أحدثتها حرب 1973، حيث تحطمت أسطورة الدولة الصهيونية، وتهاوت وحدة الشعب الإسرائيلي التي كانت ثمرة ما يسمونه الوعي اليهودي بشأن دروس الأحداث النازية، وثمره للدروس التاريخية للحصار والعداء العربي، وعلى عكس ما جاء في الأساطير اليهودية التي تقول لا يجب لليهودي أن يؤذي يهودياً بدنياً أو يسفك دماً يهودياً.

وهكذا أصبح هناك انقسام حاد داخل إسرائيل وصفته الكاتبة الإسرائيلية "هو لاميين" بأنه صراع بين المسيح والكنيست بين وجهة النظر التي تنادي بقدسيتها،

---

<sup>1</sup> - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 228.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 228.

مصطلح اكتمال البلاد أو أرض إسرائيل الكبرى، وترى أن العصر هو عصر المسيح، ويرفع هذه القيمة على أنها قيمة أخرى، وبين النظرة التي ترى أن الجوهر الأساس هو قيام دولة يهودية ديمقراطية آمنة تقوم على سيادة القانون<sup>1</sup>.

ولا يخفى أنه بعد توقيع اتفاقيات أوسلو لم يكف الليكود عن الحديث عن أن هذه الاتفاقية خيانة للصهيونية، وبيع أرض إسرائيل وأنها بمنزلة انتحار قومي، الأمر الذي حدا برئيس حبيد (حبد) في فلوريدا بالولايات المتحدة للقول بأن رئيس الوزراء اسحق رابين هو بمنزلة عدو، ولذلك يحل عليه مبدأً (من يتقدم لقتلك اسبق واقتله) ويضيف الحاخام "كوريف": ((أنه لن يأسف إذا ما تم اغتيال رئيس الحكومة وأشار أن التاريخ لن يغفر له أو وزير خارجيته شمعون بيريز لأنهما أعادا شيئاً لا يخصهما، إنما يخص الشعب اليهودي))<sup>2</sup>.

والجريمة التي ارتكبتها "رابين" من وجهة نظر القائل، الذي اعترف بجريمة الاغتيال، هي أن رابين أراد أن يجعل من إسرائيل دولة طبيعية يمكنها العيش في سلام، وآمن مع جيرانها في القرن الحادي والعشرين، ويعتقد القائل "إيجال عامير"، أن الرب لم يقدر ذلك لإسرائيل، فالتخلص من جزء من إسرائيل الواردة في التوراة لا يهدر أمن إسرائيل فحسب، بل يهدد روح الأمة وعلمه وجودها، فالمصيبة لبست مصيبة أمن «وهو الخلاف بين حزب العمال والليكود» بل قضية لاهوتية<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 230.

<sup>2</sup> - الدار عقيبا: زعيم (حبيد) في فلوريدا: لن أكون أسفاً إذا قتل رابين، صحيفة هآرتس، 1995/10/15.

<sup>3</sup> - صحيفة هيرالد تريبيون الدولية 1995/11/17، في جريدة الجرائد العالمية، القاهرة 1995/11/28، ص4.



وقد اتضح أن هناك علاقة وجدانية بين "عامير" والمتطرف الإسرائيلي "باروخ جولدشتاين" الذي أطلق النار على المصلين في الحرم الإبراهيمي، وقد كشف النقاب عن أن "عامير" قد استفقت بعض الحاخامات لمعرفة رأي الدين اليهودي في اغتيال رابين، فأفتى اثنان منهم باستحلال دم رابين، لكنه رفض أن يعطي أسماء رجلي الدين اللذين استند إليهما في تنفيذ عملية الاغتيال<sup>1</sup>.

### تقديرنا لمستقبل التطبيع مع إسرائيل

هذه هي صورة عن الجغرافيا - البشرية والاجتماعية، والتضاريس السياسية النفسية والعقلية للعدو الصهيوني، وهي تضاريس تؤكد أن قضاء هذا العدو وروحه وضميره الجمعي، مدجج مملوء منوع بالحقد والمقت والكرهية والعنصرية والعدوان، وأن الخط البياني لهذا الهوس يزداد يوماً بعد يوم.

والتطبيع بالنسبة للعدو هو كما قلنا التشريط أي إفراغ الإنسان العربي من محتواه وتصويره خواءً جسدياً وعقلياً ونفسياً، وهذا ما أكده "الدكتور عبد الله عبد الدائم" بقوله: ((إن إسرائيل الصهيونية لن يطيب لها المقام إلا إذا فتتت الثقافة العربية ومحت معالمها الأصلية تدريجياً أو أحلت محلها الثقافة القومية اليهودية التي تنادي بها الصهيونية والتي ولدت من خلالها، وآلية ذلك كسر الطوق الثقافي الذي يحول دون سيطرتها على المنطقة العربية ودون محو معالم الثقافة العربية الإسلامية التي كانت، وما تزال الحاجة المبتغاة وتعاملها بواسطة العربية))<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - شريف الشوباشي: عرض وتقديم كتاب رابين اغتيال سياسي الدين والقومية والعنف في إسرائيل للكاتب الإسرائيلي امنون كابلوك، صحيفة الأهرام، 1996/8/21، ص7.

<sup>2</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: العالم ومستقبل الثقافة العربية، مجلة المستقبل العربي، عدد/222/لعام 1997، ص32.

وإذا انتقلنا إلى الواقع، وتحدثنا عن الدول العربية التي أرادت أن تقوم بالتطبيع، إذا قمنا بذلك كانت مصر هي النموذج الذي يمكن الحديث عنه فيما يتعلق بنجاح التطبيع.

وواقع الأمر أن مصر من أكثر بلاد العالم تلاقحاً وانفتاحاً على الثقافات الإنسانية يشهد تاريخها العريق، ومع ذلك لم ينجح التطبيع، علماً بأن إسرائيل أقامت معهداً أكاديمياً لهذه الغاية وفي هذا الصدد يمكننا أن نميز بين حقيقتين: ✓ نظام السلطة الذي قبل التطبيع والتزم به.

✓ نظام الأمة وقوامه الجماهير والمتقنين العضوين الذين رفضوه رفضاً قاطعاً باعتباره تفريطاً في الحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني.

وفي الواقع إن ما يميز الثقافة العربية امتلاكها لحساسية مفرطة خاصة ضد ما هو غريب وعدائي وعنصري، ولكنها في الآن نفسه ثقافة متوهجة متفتحة شديدة التلاقح والتفاعل على صعيد ندي وحواري وتناقضي مع الثقافات الأخرى، نجد مصداقاً في ذلك في تفتح ثقافتنا في القرون الوسطى على الثقافة اليونانية والفارسية والهندية وغيرها، وكما نجد مصداق في ذلك في حوار هذه الثقافة في العصر الحديث مع الثقافة الغربية، منذ أول احتكاك معها (الطهطاوي وغيره). لذلك فالعلاقة بين الثقافة العربية والثقافة الصهيونية وتوأمها الثقافة الامبريالية لن تكون علاقة حوار بسبب العدائية والاحتواء والعنصرية والعتو والعلو الكبير للثقافة النقيض التي لن تواجه إلا برفض شديد من الثقافة العربية الإسلامية<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - الحديث الذي أجرته صحيفة هاآريز، تاريخ 1996/11/22، مع نتياهو وتعريفه بالسلام مع العرب فإنه سلام يقوم على الردع والقوة، مجلة الدراسات الفلسطينية عدد 29، لعام 1997، ص83.

لهذه الأسباب، فتلك العلاقة هي في حقيقتها إحلال displacement الثقافة العدو محل ثقافتنا، وقد نجحت إسرائيل في طرح هذا الجهاز المفاهيمي (التطبيع) كنجاحها المتعدد في حروبها المفاهيمية ضدنا. وفي نظرنا إن الحروب الثقافية لا تقل أهمية عن الحروب السياسية والعسكرية لأن القوة الحقيقية راهنياً للجامعات، وليس للمعسكرات باعتبار العلم مفتاح كل قدرة وفقاً للمعادلة الآتية: استشراف- معرفة/قدرة-تنفيذ. وحقيقة الأمر أن الجهاز المفاهيمي ليس جذراً جوهرياً يسبح فوق التاريخ، بل هو حقيقة إنسانية وليدة قوى الحياة والمجتمع.

واستناداً إلى ما تقدم فالتطبيع normalization يتعارض مع معطيات واقعنا العربي، إذ ليس هنالك علاقة سابقة مع إسرائيل، حتى يمكن الحديث عن رجوع الأمور إلى مجراها الطبيعي الأول، وعلى المثقفين العرب أن ينتبهوا إلى خطورة ذلك الجهاز المفاهيمي، وأن يتعاملوا في أدبياتهم الثقافية مع جهاز مفاهيمي آخر يتسق مع موقفهم ومصالحهم، وهذا الجهاز هو الإحلال الذي ترتكبه إسرائيل والذي يبتغي مع واقع الترحيل deportation لشعبنا في فلسطين. ولكن لماذا؟.

إن الغزو الثقافي الصهيوني هو في حقيقته غزو هيكلي بنيوي يتغلغل أخطبوطياً إلى كامل نسيج حياتنا الفكرية والقيمية والمادية وغيرها، إنه صراع وجود قبل أن يكون صراع حدود، يكفي أن نقدم مثلاً على ذلك ما يقوم به العدو الصهيوني من محاولات طمس واستئصال لثقافة شعبنا في فلسطين وتشويه لمعامله الأثرية، وتزويره للحقائق التاريخية في البرامج التعليمية.

وحسبنا أن نذكر أيضاً بما حدث لدى الشقيقة مصر على عهد السادات من تغيير المناهج التعليمية بما يتفق مع نصوص اتفاقية كامب ديفيد حول التطبيع، هكذا

سنكتفي بموافقة من كتاب الجغرافيا المقرر للصف السادس الابتدائي، حيث حذفت من هذا الكتاب الفقرة التالية<sup>1</sup> :

تمكن اليهود الصهاينة بمساعدة الدول الاستعمارية من اغتصاب أرض فلسطين وتشريد معظم أهلها واستولوا على ممتلكاتهم، غير أن شعب فلسطين وسائر العرب يعملون على تحرير الأرض وإعادة الشعب الفلسطيني إلى وطنه. والملاحظ أن حذف هذه الفقرة «وغيرها من الآيات القرآنية» ليس مجرد حذف الفقرة، وإنما حذف لحقيقة تاريخية ماضية ومستمرة، وهي العدوان الإسرائيلي الاستعماري الذي شرد الشعب العربي في فلسطين، وهو حذف لواجب نضالي مستقبلي هو العمل على تحرير الأرض، وإعادة شعبنا إلى وطنه، ومن ثم فالحذف المذكور تأمر ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا .

وهناك نوع آخر من الغزو الثقافي الذي تمارسه إسرائيل، ويتمثل في برامج الإذاعة والتلفزيون السياسية والاجتماعية والترفيهية، والتثقيفية، فضلاً عن الأفلام السينمائية والمسرحيات، بل والمظاهر الاستهلاكية اليومية.

لكن ما السبيل إلى مواجهة ذلك... وهل يتم عن طريق رفع برامج الإذاعة والتلفزيون والمقالات الصحفية.

لا أحد يقلل من جدوى ذلك وإن كان جوهر الموضوع يكمن في خلق ملام ثقافية قوامه تحصين وترصين الجماهير الشعبية، وترسيخ مستواه الفكري، وذلك بألية استراتيجية ثقافية تستشرف وتجب عن كافة معطيات وتضاريس الحياة وهموم المواطن ومستقبله وشرفه البشري الإنساني<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - محمود أمين العالم: الوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، ط2، 1988، القاهرة، دار الثقافة الجديد، ص125.

<sup>2</sup> - محمود أمين العالم: الوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، ص124.

إن الثقافة الصهيونية هي توأم الثقافة الامبريالية وحليفها الطبيعي الاستراتيجي في مختلف المفاهيم والعلاقات والممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مع التأكيد بأن هذا الغزو لا ينفذ إلى أعماقنا عن طريق التسلل وإنما بوساطة آلية بنوية هيكلية داخل حياتنا وبنانا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها (دود الخل منه وفيه).

فالثقافة الداخلية التي هي مستقبل الثقافة الخارجية وتمهد لها وتستبقها في واقع الحياة وتغرسها في مؤسساتنا ومكوناتنا، وهذا ما يتضح من خطاب السادات في الكنيسة الإسرائيلي ودعوته الكاريكاتورية إلى لقاء الأديان الثلاث في بقعة مقدسة من سيناء، أما رموزها فهم: السادات وبيجن وكارتر، كما يتبين من كلام السادات وتوفيق الحكيم "على المتحصرين" ويقصد من ذلك الإسرائيليين، كما نجد ذلك في اقتراح الملك الحسن المدلل يجمع العبقرية اليهودية التكنولوجية مع الأموال العربية.

وبالطبع فليس هناك رد على هذه الأراجيف إلا ثقافة ترسخ القيم العقلانية والاستنارة والإبداع والخلق وروح النقد والاجتهاد والتجدد، ثقافة تحمل نبراس التحرر والعدل والتقدم الاجتماعي والقيم الإنسانية.

إن العدو الإسرائيلي سيعتمد إلى جانب جيروته العسكري إلى الجبروت الثقافي، وهذا ما أكده "شمعون بيرز" بقوله: ((إن الجبروت الحقيقي لم يعد قائماً والمعسكر أميل في الحرم الجامعي، وينبغي على السياسة أن تعيد طريق التحول في

الاستراتيجية العسكرية الصرفة إلى التعاون السياسي والاقتصادي العميق))<sup>1</sup>. لهذه الأسباب فـ "بيريس" يظهر خوفه من تزايد الحركة الأصولية الإسلامية، لذلك فهو يقرر أن باتت عقيمة، إذ لن يكون ثمة منتصر، هكذا يقترح للنظام

---

<sup>1</sup> - د. مسعود ظاهر: ثوابت الثقافة القومية العربية في المرحلة الراهنة، مجلة شؤون عربية، عدد/181 لعام 1995، ص176.

الشرق أوسطي الجديد على الشكل الآتي: ((هدفنا النهائي هو خلق كتلة إقليمية من الأمم ذات سوق مشتركة وهيئات مختارة على غرار الجماعة الأوروبية، وإن الحاجة إلى هذا الإطار الإقليمي يقوم على عوامل أربعة: الاستقرار السياسي الاقتصادي الأمن القومي، إشاعة الديمقراطية)).

إذاً فنحن أمام خواء مربع للهوية الثقافية، خواء يناقض الملاء الذي تفرضه الأمة العربية ككائن تاريخي جماعي له ماضيه ورسالته ومستقبله المرتجى. والمضحك المبكي أن "شمعون بيريس" يمثل عند البعض الحلم الذهبي للقومية العربية، بتحويل هذه المنطقة إلى قوة عظمى بعد توحيدها على غرار المنطقة، يقول المذكور:

((استعادت أوروبا وضعها العالمي بعد قيام السوق المشتركة وذلك عندما بدأت القارة الأم بالعمل كقوة عظمى))، فهل هناك أشد مرارة على نفس كل قومي عربي من أن يعتبر "بيريس" التطبيع أمراً محققاً، وأن إسرائيل ستلعب دور القوة الأساسية تحويل الشرق الأوسط الجديد إلى قوة عظمى على غرار الجماعة الأوروبية، وأن تكون إسرائيل من خلال عملية التطبيع موجهاً للسياسة الشرق أوسطية التي تطوي العرب طوعاً تحت لوائها .

كانت إسرائيل وستبقى بالنسبة إلى العرب جزءاً من النظام العالمي الذي يحتويهم، وستظل حريته الموجهة إليهم.

ويترتب على ذلك أن اعتراف العرب بها اعترافاً رسمياً، وتطبيع علاقاتهم معها سيفتح المجال أمامها لتحقيق أهدافها من الداخل، فهي ستحاول فرض هيمنتها على المنطقة العربية بكافة الوسائل والأساليب التي تتفق بالحركة الصهيونية

استعمالها: الإغراءات خلق جماعات الضغط داخل الكيانات واللعب على التناقضات الداخلية العربية... إلخ<sup>1</sup>.

وان ممانعة إسرائيل في قيام دولة فلسطينية لا تفسير لها إلا أنها تريد قيام فاصل جغرافي وسياسي واستراتيجي يلهيها عن المضي قدماً وبسهولة في تحقيق حلمها على صورة هيمنة سياسية واقتصادية ومائية وثقافية (من النيل إلى الفرات).

إن وجود دولة فلسطين يعني بالضرورة الطبيعية، إنها ستكون المنافس الدائم لإسرائيل، كما أنه لن يسهل عليها تحقيق ما تطمح إليه من العمل المباشر داخل الجسم العربي، وهو الأمر الذي يفسر لنا مقاومتها العنيدة لإقامة دولة فلسطينية<sup>2</sup>.

هذا القيد إن كان يقع عبئه على السياسي، فهو يقع من باب أولى على المثقف، لسبب بسيط هو أن السياسي يتعامل «حسب طبيعة عمله» مع ما هو واقع، في حين أن المثقف يعانق ما يجب أن يكون باعتباره سادن الضمير الجمعي وحارس قيم الأمة والذّب عن أساطير الأمة وأخلاقيتها ونظرتها إلى الوجود، وغير ذلك من محددات الثقافة وعناصرها.

وهكذا يتضح أن جغرافيا المثقف أوسع من جغرافيا السلطة<sup>3</sup>، إذ له الذاكرة والتاريخ والرموز، وهو لهذا السبب «وخلافاً للسياسي» غير قادر على التخلي

---

<sup>1</sup> - د. محمد عابد الجابري: آفاق المستقبل العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 156، لعام 1992، ص 13.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 12.

<sup>3</sup> - ورقة عمل للدكتور عبد الإله بلقزيز، ص 48.

عنها أو المساومة عليها، أو ترويض نفسه على ممارسة نسيان الهوية، وتزوير التاريخ تحت أي ظرف من الظروف<sup>1</sup>.

إن الثقافة هي مستودع الهوية والذاكرة، أما السياسة فقد لا تكون أكثر من ممحاة، هذه الأندلس مثلاً: لقد خرجت الأندلس من الجغرافيا السياسية للعرب، ولكن هل خرجت من الأدب والثقافة والذاكرة.

إذاً ثمة فارق عظيم بين جغرافيا السياسي وجغرافيا المثقف<sup>2</sup>، لقد قام حوار بين العرب واليهود في إطار التجربة التاريخية للعمران الحضاري العربي الإسلامي أو بالتحديد في إطار الحضارة الوارفة في الأندلس، وقد استمر هذا الحوار إلى ما قبل قيام الكيان الإسرائيلي، وما انقطع إلا بعد قيام هذا الكيان الذي أنجز جريمة العصر، الاقتلاع المزدوج للفلسطينيين من أرضهم ولليهود من أوطانهم وقومياتهم وثقافتهم، وعلى ذلك فالتطبيع الثقافي ليس حواراً أو تفاقماً بمقدار اعتراف بنتائج، بل بشرعية القطيعة التي أحدثتها الصهيونية في الحوار الطبيعي الذي قام بين العرب واليهود.

ذلك أن هذا التطبيع ليس في نهاية المحصلة إلا انفتاح على كل ما هو غير إنساني، وذلك لأن اليهودي في فلسطين لا يتوضع في مكان طبيعي أي على أرضه ووطنه وبين شعبه، كما هو الحال في اليهود خارج فلسطين حتى يمكن له أن ينتج ثقافة إنسانية.

ولكن هذا اليهودي الذي هاجر إلى فلسطين لم يحمل معه إلا الأفكار الاستعمارية التي مزجها مع الفكر التلمودي ومع أسطورة الشعب المختار، وينتج عن كل هذا الخليط العجيب هذه الثقافة التي يسمونها صهيونية.

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص48.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص60.



لهذه الأسباب فستبقى الحياة الثقافية بيننا وبين الصهيونية ميدان صراع طالما أن هذه الصهيونية مغتصبة لحقوقنا التاريخية، وطالما أنها تخلو من أي خطاب إنساني عالمي، ذلك أن الثقافة الإسرائيلية مجرد هامش غربي لا يقيم حواراً حقيقياً مع أحد انطلاقاً من قضية اضطهاد اليهود، والحال أننا محرومون من التعاطف مع هؤلاء، لأننا ضحاياهم، ولأنهم الجلادون<sup>1</sup>.

ويمكن التأكيد بأن هنالك على صعيد أمتنا - رفضاً تاماً للفكر الصهيوني أجمع عليه أحد الليبراليين اعتدالاً مع القوميين والتيارات الدينية، ذلك أن هذا الفكر يقوم على إلغاء العرب ابتداءً من الفلسطينيين، واعتبارهم مجرد حواجز بشرية على ما قاله "د. كلوفيس مقصود" وإقامة مشروع صهيوني مفتوح يتجدد مرحلياً حيث يقف آخر جندي إسرائيلي، فهل نتوقع تبعاً لذلك أن ننشر في مجتمعاتنا ثمار الفكر الصهيوني<sup>2</sup>، وعلى هذا الأساس فالمفهوم الصهيوني للتطبيع، إنما يضاهاه الاستسلام والاختراق الثقافي، وإن كان لنا التأكيد بأنه ليس بوسع طرف أن يشن حرب استنزاف طويلة من هذا القبيل، والجبهة والحياة الثقافية لا تخضع لقرارات وإجراءات ولقاءات وحتى اتفاقيات<sup>3</sup>.

هناك نواة للوعي العربي القومي عصية على الكسر، ولا يعرف إن كانت قوى التخلف والتبعية المحلية تضعها في الحسبان، وتفكر قبل أن تتواطأ مع المشروع الامبريالي الصهيوني، وتدخل معه في إمرة التطبيع، فالقومية العربية ظاهرة حضارية ممتدة الجذور في التاريخ تدركها الجماهير العربية بصورة غريزية،

---

<sup>1</sup> - مقال لمحمود الريحاوي السالف الذكر، ص 150.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 149.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 148.

وتستشفيها من خلال منجزات حضارية أغنت كنز الحضارة الإنسانية وأضاءت ظلامات العصور الوسطى.

إننا مع الدكتور "علي عقله عرسان" بأن مقاومة التطبيع ورفضه لا تقوم على معطيات عقلانية ومنطقية وواقعية فحسب، بل استناداً إلى معطيات الإرادة والإيمان والعواطف أيضاً، وهذا كله بشكل الوعي الذي تخلقه الثقافة، مما يجعلها محوراً أساسياً لمواجهة التطبيع<sup>1</sup>.

ولقد أكد الدكتور "عرسان" بأن الثقافة هي الحصن الأخير الذي تلجأ إليه الشعوب للدفاع عن نفسها وحضورها وهويتها بعد انهيار أساليب الدفاع الأخرى السبب بسيط هو أن الثقافة فعل استراتيجي يدافع عن مقومات الأمة، ويعجل على نهوضها، وبهذا الوصف فالصراع العربي الصهيوني صراع وجود وليس الصراع صراعاً على حدود، ويمكن تذويبه بالتدريج عبر الحوار والتسوية السلمية<sup>2</sup>.

وعلى هذا الأساس «والكلام للدكتور عرسان» وبما أن الصراع مع الصهاينة مستمر، فالدعوة إلى ثقافة مواجهة التطبيع هي دعوة إلى تحقيق هدفاً في عروبة فلسطين، وهذا يعني رفض إسرائيل ورفض التطبيع لها. ويتابع الدكتور عرسان «ونحن مع وجهة نظره السلمية» محدداً النتائج الآتية على التطبيع<sup>3</sup>:

---

<sup>1</sup> - عرض لهذا الرأي وناقشه وعلق عليه د. محمد جمال طحان: rgum الثقافة والحصن الأول

والأخير، مجلة الفكر العربي، عدد/8، لعام 1995، ص6.

<sup>2</sup> - د. محمد جمال طحان: قلعة الثقافة والحصن الأول والأخير، ص6.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص7.

1- ثمرة اعتراف السياسة بسقوط الحق العربي بفلسطين نتيجة لسقوط البعد القومي تحت شعار القطرية فلم يعد هناك التزام نحو قضية مشتركة أو عمل مشترك، وهذا إقرار سياسي بانهزام القومية والحرية والتقدم، حتى على صعيد الحكم<sup>1</sup>.

2- تسليم العرب «سياسياً» بحق إسرائيل في الوجود تحت عنوان الشرق الأوسط، وهذا إقراراً بلا مشروعية للمقاومة، وإدراج ممارساتها تحت قائمة أفعال الإرهاب والعنف والعدوان وهذا يتضمن حكماً أخلاقياً تاريخياً ضمناً على النضال العربي.

3- سقوط كل المبررات التي تفرض مقاطعة إسرائيل، وحيث تعتبر المقاومة إرهابياً، ويصبح فعل المعتدي شرعياً، وتتبدل معايير الخير والشر تبعاً لحكم القوة لا لقوة الحق.

4- تنتقل أهداف الحكم القطري الضيق ومعاييره إلى التعليم والأدب، مما يجعل القومية خيانة وطنية، ويترتب على ذلك أن تذوب بذور الاهتمام بالقومية والنضال العربي، وهذا يدعو إلى اللوذ بمراكز القوى الخارجية التي تحمي أقطار أو دويلات وأنظمة وشخصيات تبحث عن يحميها لتخوض حرباً ضد الأقطار الأخرى...فالتطبيع «والكلام للدكتور عرسان» يريد أن يزيل الحواجز أمام إسرائيل، فيمكنها من التوسع الشامل بغزو العرب، وتحقيق مشروع إسرائيل الكبرى، ثم إسرائيل التوراتية، والمدخل الاقتصادي هو المدخل الممكن، وهذا بدوره يؤدي إلى ما يلي<sup>2</sup>:

---

<sup>1</sup> - د . محمد جمال طحان: مكتبة الثقافة والحصن الأول والأخير، ص 7 .

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 7 .

1- إلغاء كراهية العدو ومبرراتها، ويبدو الأمر وكأنه ينبغي لنا أن نشفق على إسرائيل لأننا تأخرنا في فهم مشروعيتها وجودها .

2- تحويل جهد العرب من العمل على التاريخ والتربية والقومية والحقوق إلى العمل إلى تشويه ذلك كله وهذا يحدث خلافاً فكرياً وقيماً في أذهان أجيالنا، ويؤدي إلى انعدام الثقة وانعدام المفاهيم فتنتج تربية مريضة وعلاقات مريضة، وينشأ قبول بحالة العدوان، وهذا القبول يرسخ الإحساس بانعدام الكرامة ويشيع ازدواجية الوجه والقناع في حياة الناس وفي علاقاتهم.

خلق طفيلية مالية تنتشر قيمها بسرعة، وتصبح عنواناً لشرق أوسط جديد، طفيلية تقدم أنموذجاً فاسداً، يقيم الناس على أساس مريض، وهذا يشكل حزاماً أمنياً لإسرائيل، وأيضاً لإقامة منطقة منتجات سياسية، هي في حقيقتها أماكن للقمار والفساد والبعاء، تبتز فيها أموال العرب، وليس صعباً على إسرائيل ترويج أنموذج "شايوك"، فستعيد المال ممن حصل عليه بدون تعب أو نصب.

إن التطبيع، فضلاً عن كونه تسويقاً لإسرائيل، وتسويقاً لها، عربياً «رسمياً» وشعبياً» هو في النهاية نهب شامل للبنية الفردية والجمعية التي قامت عليها تربية العقود السابقة، ورفض لتلك التربية التي سعت إلى تكوين إنسان مؤمن بقدرته على استعادة حقوقه، والدعوة إلى ثقافة مواجهة ترفض التطبيع، وترفض الاعتراف بالصهاينة، وتعتمد على المثقفين بشكل شامل، وعلى الوعي للتوسع في خلق مناخ يحقق أهدافنا الاستراتيجية، ويؤكد على تركيز قيمنا في التقوى، وليس أمامنا إلا نقلة حضارية، تقنية وسلوكية وفكرية يخلق استعداد شامل لاستمرار الصراع حتى النصر<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - د . محمد جمال طحان: مكتبة الثقافة والحصن الأول والأخير، ص 8.

وينطلق الأستاذ "معن بشور" من المشكاة نفسها التي انطلق منها الدكتور عرسان، إذ التطبيع في نظره، يرتب فيما يرتب من نتائج كارثية إلى التزام الفلسطينيين أن يعدلوا ميثاقهم الذي اجمعوا عليه لعشرات السنين، وناضلوا من أجل قوانينه على امتداد قرن كامل، دون أن يكلف هذا التطبيع عناء مطالبة إسرائيل بإجراء التغييرات الضرورية في قوانينها ومواثيقها<sup>1</sup>.

وفي كل هذا التطبيع يصبح من واجب الدول العربية إعادة النظر في مناهجها التربوية وإعادة كتابة التاريخ نفسه لأجيالها الجديدة، بل قد وصل الأمر بأحوال التطبيع إلى درجة المطالبة بحذف آيات من القرآن الكريم لأنها تسيئ إلى اليهود وإسرائيل، كما فعلت سلطات الاحتلال الإسرائيلي مع المناهج التربوية في الأراضي الفلسطينية إثر احتلالها عام/1967/ فألغت كلمة جهاد في أي مكان وردت في الآيات القرآنية، ولعل عمل السلطات الإسرائيلية هو مما عملته النازية إثر دخولها فرنسا<sup>2</sup>.

هكذا يلقي "الأستاذ بشور" أهمية الثقافة كآلية لمناهضة التطبيع، فيقول: ((الثروات تبدد وتزدهر، والمعادلات السياسية قد تتغير وتتبدل، وموازين القوى لا يمكن أن تبقى ثابتة في عالم متغير، أما ما يبقى من الأمم فهو ثقافتها وحضاراتها، فإذا زالت الأمم نفسها، لأنها فقدت عنصر وحدتها وتماسكها الأقوى))<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - الأستاذ معن بشور: مقالة بعنوان السلام والتطبيع الثقافي، مجلة المستقبل العربي،

عدد 209، لعام 1990، ص 5.

<sup>2</sup> - المقال السابق، ص 5.

<sup>3</sup> - المقال السابق، ص 5.

وفي نظر الأستاذ بشور «وهو على حق» أن ما يميز مشروع التطبيع الثقافي عن غيره من مشاريع التطبيع الاقتصادي والسياسي والأمن والمائي أنه لا يحمل مشروع إحلال هيمنة ثقافية صهيونية على الحياة الثقافية العربية، كما هو الأمر في المشاريع الأخرى، بل هو يقوم على تدمير المقومات الذاتية للثقافة والحضارة العربية<sup>1</sup>. فالحركات الصهيونية تدرك استحالة تحقيق هيمنة ثقافية صهيونية على العرب لعراقة الهوية الثقافية والحضارية لأمتنا من جهة ولعدم وجود ثقافة صهيونية واحدة بالأساس، فالكيان الصهيوني هو تجميع الشتات اليهودي الآتي من كل أرجاء العالم، حيث تحمل كل جماعة يهودية معها ثقافة البلد الذي جاءت منه، إذاً «والكلام للأستاذ بشور» فالتطبيع الثقافي ليس مشروع هيمنة ثقافية، بل هو في الحقيقة مشروع تدمير وتفكيك ثقافي للمنطقة العربية، بكل ما تحمله الكلمة من معاني التناثر والفضوى والارتباك والضياع<sup>2</sup>.

إذاً فالمطلوب الإصرار العربي «في إطار بناء آفاق المستقبل» التمسك بالحق الفلسطيني في إنشاء دولة كاملة الاستقلال والسيادة، مع العمل على تحسين النفس والذات من الداخل قطرياً وقومياً. وهذا يعني أن من حقنا بل واجبنا أن نربط بين التطبيع وبين إقامة دولة فلسطينية مستقلة، لا يعقل أن نتخلى عن "عدم الاعتراف الإسرائيلي" ونترك إسرائيل تمارس عدم الاعتراف بالحق الفلسطيني، ومن جهة أخرى فإذا ما تحقق الشرط العربي الكامل بقيام الدولة الفلسطينية، فعلى العرب بعامة والدولة الفلسطينية بخاصة العمل معاً داخل إسرائيل للجم طموحاتهم

---

<sup>1</sup> - الأستاذ معن بشور: مقالة بعنوان السلام والتطبيع الثقافي، ص6.

<sup>2</sup> - المقال السابق، ص6.

التوسعية ونزوعها الطغياني<sup>1</sup>، ميز ميثاق الأمم المتحدة بين حق الشعب وحق الأمة، فالحق الأول يتحدد بحق أبناء الأمة بأن يفصحوا عن إرادتهم الملزمة حول القضايا التي تواجههم دون أي قيد، وهذا هو مفهوم السيادة كفكرة أصيلة ومبتدأة وتبوع من ذاتها .

ولكن نسبية الحقائق الإنسانية تقول لنا إنه لا توجد مطلقات على صعيد الحياة البشرية لذلك كان هنالك قيود على حق الشعب وهذه القيود تبدو بأن على الشعب وهذه القيود تبدو بأن على الشعب ألا يتصرف تفريطاً في الحقوق التاريخية للأمة، لأنه إذا كان له أن يتصرف بما يمس حاضره، فلا يستطيع التصرف تصرفاً تنعكس آثاره على المستقبل أي على الأجيال المقبلة<sup>2</sup>.

وإذا استعرنا التعبير الذي استعمله الأستاذ "محمود الريحاوي" عنواناً لبحثه، أمكننا التأكيد أن التطبيع هو ثمرة تسوية تاريخية، وليس نتيجة لأزمة حل سياسي<sup>3</sup>، ذلك أن التسوية السياسية إن حققت شيئاً ما فإنما سلاماً، فكيف يمكن الزعم بأنها ستؤدي حتماً إلى تطبيع لا بد أن يكون ثمرة سلام ناجز ترتضي به الأجيال، وتلمس آثاره ونتائجه<sup>4</sup>.

وهكذا يمكن التأكيد بأن التطبيع لن يؤتي أكله -وخلافاً للنظرة السطحية للسلطة العربية- إلا إذا عالج الأسباب العميقة للصراع، وخلافاً لذلك لن تكون العلاقات

---

<sup>1</sup> - الأستاذ معن بشور: مقالة بعنوان السلام والتطبيع الثقافى، ص 14 .

<sup>2</sup> - قريب من ذلك ورقة العمل التي قدمها د . عبد الإله بلقزيز إلى لجنة الحوار المنعقدة في المنتدى العربي، انظر مجلة المستقبل العربي، عدد 200، لعام 1995، ص 42.

<sup>3</sup> - مجلة النهج، خريف 1994، ص 14.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 149 .

العربية الإسرائيلية أفضل من علاقات اليونان وتركيا، والهند وباكستان على سبيل المثال.

يلقي الأستاذ "محمد سعيد مضية" الضوء على الفرق بين الاستلاب الاقتصادي والاستلاب الثقافي على سعيد علاقتنا مع إسرائيل، ويرتب على ذلك النتائج الآتية<sup>1</sup>:

1- إدخال الإنتاج الثقافي عنصراً من عناصر التبادل التجاري الحر وحيثما تخضع القيم الثقافية لمعايير السوق وآلياته تفقد مضامينها الإنسانية ووظيفتها التربوية فتتحط إلى ثقافة مزيفة للوعي تستثير الغرائز البهيمية.

2- فرض مقولات الفكر الصهيوني وادعاءاته العرقية على المجتمعات العربية، وهذا يرتب على المجتمعات شطب كل ما يتعارض معها في برامج الثقافة ومناهج التعليم، هذا فضلاً عن أن احتكار إسرائيل -بحكم تفوقها التكنولوجي- ميادين الأبحاث ومراكزه المتقدمة لها ذلك أن تستحوذ على المواقع المتقدمة في إدارة الإنتاج وتسويقه وتطويره لتكرس في الواقع الملموس تفوق العنصر اليهودي، وتخلف العنصر العربي.

3- ستحمل السلع والمنتجات أنماط السلوك وعادات استهلاكية تقوض العادات التقليدية والأذواق الشعبية، وعلى ضوء تعاضد دور الدعاية والإعلان في بلورة الحاجات والمصالح المصطنعة من بعيد بما لا يتفق مع الإنتاج الوطني والحاجات الفسيولوجية، فإن الخطر المدمر للنفسية الاجتماعية الذي تحمله السوق المشتركة سيكون فادحاً وطويل الأمد.

---

<sup>1</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني، مجلة الطريق، عدد4، لعام 1991، ص46.



وبفضل التقوى التكنولوجي سيتاح للاقتصاد الإسرائيلي الفرصة لاستقطاب الرساميل والعقول واحتكار مراكز الأبحاث المتقدمة والخبرة الثقافية المتطورة، أما قوة العمل العربية فستترك لها مجالات العمل متدنية الكفاءة، وفي مثل هذه الوضعية سوف تقصر هذه القوة البشرية حياتها العملية في التزاحم على فرص العمل وإعادة ترتيب التدريب مرات ومرات على المهن الجديدة كي تجد لها المكان في سوق العمل الرخيص وبالنتيجة تتدهور ثقافياً وفكرياً تعويضاً عن الفراغ الروحي في شحنات التعصب والكراهية وفي المخدرات والجريمة التي تنهك النفسية الإنسانية، وتعميقها عن رؤية أفق التحرر الإنساني.

وفي المجتمعات العربية ستظل محدودة فرص التنمية الثقافية «تنمية الإنسان روحياً وثقافياً» بفعل طبيعة التفاعل بين التنمية الثقافية والتنمية الاقتصادية، وبالنظر لاقتزان التنمية الثقافية الحقبة بنشر الفكر العلمي بين أوسع الجماهير الشعبية، من خلال الممارسة الإنتاجية، وبتأثير عدوى روح البحث والتحليل والتركيب المرتبطة مع حاجات التنمية المادية، فإن التنمية في ظروف التبعية الاقتصادية طبقاً لمنطق آليات السوق المشتركة، ولن تهيأ المناخات لإبراز المعالم الجميلة للعقل المبدع، وإذكاء وهج الاعتزاز القومي والتحرر بالانفتاح على أفق التقدم المميز بلا حدود.

✍️ المحامي الدكتور برهان زريق



## التطبيع يتماهى مع التطويع والتغريب والتفريق<sup>1</sup>

لقد اتسع وطننا الكبير لمسرح عبثي غير منطقي أو معقول أو مقبول، فكثيرة هي الفصول التراجيدية والكوميديّة التي مثلت على خشبة هذا المسرح العبثي، لكن التمثيلية الكبرى كانت اتفاقية كامب ديفيد التي أخرجت مصر من دائرة ثقلها وحضورها العربيين.

وهكذا ما فتئت هذه الأم الجديدة (كامب ديفيد) تلد:

قصف العاصمة الحضارية الكبرى بيروت، محاصرة شعبنا العربي في العراق ومحاولة طمسه وإقصائه عن محيطه العربي، محاصرة ليبيا، وأخيراً توقيع معاهدة السلام مع الأردن، إنما في معالجة القضايا المصيرية لا تصح العواصف.

ولكن كيف لنا أن نتمالك ونتماسك أمام منظر الجندي العربي الأردني وهو يقف باحترام ليحي العلم الإسرائيلي في حفل توقيع المعاهدة... والأدهى أن يوظف الدين في الحفل المذكور الأمر الذي يظهره ترتيل آي الذكر الحكيم من قبل أحد رجال الدين.

والسؤال: لماذا نعتمد هذا الدين العظيم في سقطاتنا وانكفاءاتنا ونجعله حمولة ومطية لنزواتنا وارتكاساتنا ومواقفنا المتردية.

<sup>1</sup> - نشر هذا البحث في مجلة الفكر العربي (مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية) صيف/خريف 1996، العددان الخامس والثمانون والسادس والثمانون، السنة السابعة عشرة.

ولا ننسى موقف العرب الكبير "بيل كلنتون" وهو يشير بيده إلى رمال الصحراء في الجانب الأردني مقابل الخضرة في جانب العدو، وليس عجباً أن يكون اختيار المكان مقصوداً لاكتمال الصورة العبيثية.

وتتعدد صور وأشكال الإهانة بالأمة، وحسبنا ما أكدته صحيفة "الإنديبننت" اللندنية غداة يوم التوقيع بأن هذا السلام سلام مستورد وأمريكي<sup>(1)</sup>.

لماذا هذا السلام سلام أمريكي؟ وما هي تلك الإهانات؟

لا مجال هنا لحضر وتفكيك هذه المعاهدة وتحليل جوانبها، وحسبنا الإشارة إلى الجانب الشكلي المتعلق بانفراد الأسد بالحمل الأبيض تمهيداً لانفراده بالبقية.

أين هو القرار العربي الذي حدد أشخاص التعاهد ومضمونه ونطاقه وأهدافه؟ أما لماذا هذا السلام أميركي؟... الجواب بسيط لأن أميركا وضعت دستورهِ وحددت ماهيته وطبيعته الذاتية وجعلته مفتوحاً ودينامياً، أي نقلته من دائرة القانون إلى دائرة السياسة، وهذا ما يتضح من تحديد كلينتون لآفاق العلاقة الإسرائيلية المقبلة بأنها التزام بعمل.

ولكن كيف نفسر أن أميركا حددت موقعية هذه المعاهدة (طبولوجياً) وغمستها في حوض السياسة لا القانون؟ للإجابة على ذلك علينا أن نصيغ السمع إلى أحد الأصوات الأردنية الجريئة، وهو صوت المفكر العربي "حمد الفرحان".

لقد حدد هذا الصوت التنازلات الأردنية في هذه الاتفاقية وبخاصة ما كرسته المادة الرابعة من دمج الأردن في العدو في كيان مفتوح يشبه المجموعة الأردنية، إضافة إلى إلزام كل طرف باتخاذ الإجراءات الضرورية ضد العداء للطرف الآخر، وهو نص «والكلام للسيد فرحان» غير موجود في أي اتفاقية بين دولتين في العالم

---

<sup>1</sup> - محمد حسنين هيكل وقد تكلم عن قمة إسرائيلية مصرية، ولكنه تكلم عن حقائق الجغرافيا والتاريخ التي سوف تعود لتؤكد نفسها، صحيفة العربي القاهرية، عدد 76، تاريخ 1994/9/12.

يعتبر اعتداء صريحاً على حرية وحقوق المواطنين الأردنيين وعلى المنظمات الشعبية الأردنية، إذ بمقتضى ذلك يقع تحت طائلة العقاب كل من يعبر عن رفضه للاتفاقية سواء بالمشاركة في ندوة أم بالكتابة أم بالصحف بل حتى بمجرد المشاركة الجماعية أو الثنائية...

وبمقتضى المادة الحادية عشرة تقيد حرية الرأي بشكل لا مثيل له في العالم ويحظر على صحف المعارضة الدعاية ضد العدو من قبل أي تنظيم أو فرد<sup>(1)</sup>.  
بقي علينا الإجابة عن السؤال:

لماذا هذه الاتفاقية لا تشبه أي اتفاقية في العالم، وما وجه الغرابة فيها؟

سؤال آخر يتفرع عن هذا السؤال هو: ما هي آلية وطبيعة هذا الجهاز المفاهيمي التطبيع؟... ما المقصود منه، ما طبيعته؟... ثم ما هي هذه الشحنة الضبابية الخائفة التي تلقيها كلمة التطبيع في وجدان كل عربي؟.

من الثابت أن مصدر الأسى العميق لهذه الآلية، آلية التطبيع، أنها قسرية وتطويعية ولا تقوم على الإرادة الحرة المستقلة التي تبحث عن مصلحتها وترعى غايتها.

ذلك أن القانون بفروعه ومجالاته كافة لا يعهد إلزام أشخاصه بالتعامل جبراً وقسراً، وكل ما يعرفه أنه يحظر وينبذ لغة الاعتداء، سواء أكان ذلك الاعتداء بالمدلول الموسع أم المضيق، فالأصل في الأشياء الإباحة والترخيص، والقول بغير ذلك - على صعيد القانون الدولي - يعني إلزام كل دولة بأن تتعامل مع الدول كافة بطريقة محددة ومعينة، وهذا أمر يتأباه المنطق وطبائع الأشياء إلا في حال التعاهد دون قيد في لغة الانتصار المطلق، فنحن هنا حيال تشيؤ طرف، واستغراق الطرف الآخر له، وهذا هو عين (التطبيع) المشروع الصهيوني الاستعماري الجديد.

---

<sup>1</sup> - صحيفة العربي القاهرية، العدد 75، ص 9.

والمتفق عليه فقهاً وقضاً أن مهمة الدولة تتحدد في حماية النظام العام لا خلقه.

والنظام العام فكرة دائبة التطور والنمو، وهي تتجاوز النصوص، وهذا النظام العام وُلِدَ ضمير الأمة ووجدانها العام، وهو ما استقر وثوى وترسب في إرادتها ووعيتها من قيم ومثل وتطلعات وآمال ومواقف.

إذاً، التطبيع يحول دون النمو والارتقاء التلقائيين للأمة، باعتباره يضع ما لا حصر له من القيود على مسار السلوك والانطلاق الفطري.

والتطبيع فعل إرادي يحول دون قيام المجتمع المدني كمجتمع مفتوح وحركي ومحكوم بنواميس الحياة وسنن الله في الاجتماع والاقتصاد والأخلاق، وهو بهذه المثابة يتعارض مع فكرة المواطنة كوصف موضوعي عقلي عام ومجرد.

وبيان ذلك أن الدولة لا يمكن أن تذيب الفرد، ولا يجوز أن تمتد بسلطانها إلى تلافيف الضمير وحركة العقل، وقديماً قيل: ((لقد أراد "روبسبير" أن يقيم الفضيلة فأقام الرعب))<sup>(1)</sup>.

فالدولة تعكس نشاط الأمة وروحها، وتعبر عن تطلعاتها وآمالها وقيمتها، هذه هي الشرعية الحضارية التي تترسمها الشرعية القانونية، يقول "ريمون بولان": ((الدولة حضارة بأسرها، وقد استجمعت قواها، وأفصحت عن نفسها في مؤسسات))<sup>(2)</sup>.

والحكومة ليست إلا جهازاً في خدمة فكرة من نتاج الأمة، والأمة لا الحكومة هي التي تملك الصفات الأساسية والحياة العميقة الجذور التي يمتاز بها الشعب، وكل ما تعمله الحكومة صيانة هذه الخصائص لا الادعاء بتملكها.

<sup>1</sup> - روبرت م. ماكيفر: تكوين الدولة، ترجمة حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت.

<sup>2</sup> - ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، ترجمة عادل العوا، دار طلاس، دمشق، 1989،

وتظل ثقافة الشعب فوق الحكومة، وإن كانت السلطة تحاول أن تكيف هذه الثقافة على هواها فتشوهها، وتحرف معناها... ذلك أن ثقافة الشعب المعبرة عن روح الجماعة تظل في انطلاقتها وحريتها إلى أن يفسدها حكم المستبدين أو حكم المتزمتين وهذه الثقافة وليدة التجارب مع صور الحياة، ومع حس الأرض والسماء، ومع قيم الحب والرفعة ومع نداء الضمير، ومع المسرات والأفراح، ومع الشوق اللامتناهي لتحقيق الرغبات، ومع الصراع مع تلك التجربة التي تستعصي على الفهم، إنها تجربة الإيمان<sup>(1)</sup>.

وقد تتعرض الجماعة لخطر شديد، ولكن الخطر الأسد أن تغتصب السلطة ثقافة الأمة وتسطير على حياة الجماعة، وتكتم أنفاس الناس، وتقيد حريتهم في أن يختلفوا بمعتقداتهم وآرائهم وطرق وتكفيرهم وأساليب حياتهم.

ذلك أن دار الإنسان هي دار معتقداته، والجماعة هي الميدان الذي يمارس فيه المواطن معتقداته، ويدافع عن أية قضية يؤمن بها أو رأي يذود عنه، حتى ولو خالف بها آراء ساكني الدار<sup>(2)</sup>.

على ضوء هذا التحديد يميز "إيستون" بين الشرعية الفردية حيث لا يذوب الفرد في الجماعة وإنما يذيبها ويتقمصها، يميز ذلك من شرعية الأصول، الشرعية العقلانية والتي تعني التحديد الواضح والدقيق والمفصل للحقوق والواجبات<sup>(3)</sup>.

والسؤال: هل أن التطبيق يراعي هذه الأصول، أم أنه سيلوي حركة المجتمع ويتناول إلى التحديد المسبق لمساراته؟

---

1 - ماكيفر: تكوين الدولة، ص524.

2 - المرجع السابق، ص520.

3 - د. غسان سلامة: نحو عقد اجتماعي عربي جديد، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ص25.

نجد الجواب عن ذلك في المعاهدة الأردنية الإسرائيلية التي لم تكتف بتقنين منع الاعتداء على إسرائيل بل تجاوزت إطار القانون إلى إطار السياسة لتتغلغل إلى تلافيف الوجدان وتتدخل في مسائل من متعلقات الرأي والفكر والثقافة، مع التنويه بأن الاعتداء عليه بهذا القانون، أما الاعتداء المعنوي والثقافي - وهو مظهر يتأبى على التحديد والضبط - فهو موضع خلاف بين فقهاء القانون الدولي، ولما يكن موضوعاً للتقنين الوضعي<sup>(1)</sup>.

ونسأل: هل نحن أمام نكبة عسكرية جديدة كهزيمة حزيران 1967، لا تتي إسرائيل تقطف ثمار نصرها الجديد؟

أين نتائج هذه الثورة الشعبية الكبرى، ثورة الحجارة التي انحنى لها العالم؟

وحقيقة الأمر أنه بالرجوع إلى حرب حزيران 1967، نرى أن هذه الحرب اقترنت بصدور قرار مجلس الأمن بتاريخ 1967/11/22 الذي تضمن في ما تضمنه: ((إنهاء حالة الحرب، وأن تحترم وتقر كل الدول الاستقلال والسيادة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة، وحققها في أن تعيش في سلام في نطاق حدود مأمونة ومعترف بها متحررة من أعمال القوة أو التهديد بها)).

وهكذا يتضح أنه «وبالرغم من انتصار إسرائيل العسكري» هذا القرار لم يتطرق إلى موضوع إلزام كل طرف بالتعامل مع الآخر، وكل ما تضمنه منع الاعتداء وإنهاء حالة الحرب.

واستطراداً فإنهاء الحرب لا يعني الاعتراف الذي هو عملية إرادية تعبر عن رغبة الدولة المعترفة في الدخول في علاقات مع الدولة المعترف بها، وبالتالي فلا يتصور بتاتاً في المجتمع الدولي وجود اعتراف ضمني من دولة بدولة أخرى في الوقت الذي

---

1 - د. عائشة راتب: بعض الجوانب القانونية للنزاع العربي الإسرائيلي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1968، ص 57 وما بعدها.



ترفض فيه الدولة الأولى صراحة الاعتراف بالدولة الثانية، هذا، والعرف والعمل الدولي لا يرتب على تحديد الحدود أي التزام بالاعتراف، ومثال ذلك اتفاقيات جنيف لعام 1954 التي حددت خط 38 كفاصل بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية وخط عرض 17 كفاصل بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية، ولقد اعترفت فرنسا في الاتفاقية التي عقدها مع "هوشي منه" في 1946/3/6 بالحكم الذاتي لفيتنام (قبل تقسيمها)، ولكنها لم تعترف بها كدولة مستقلة<sup>(1)</sup>.

وفضلاً عن ذلك، فإسرائيل نفسها لم تطمح في هذه الآونة بأكثر من حالة السلم وعدم الاعتداء بالمعنى الموسع دون أن يعني ذلك حالة من التطبيع التي هي حال متقدمة على عدم الاعتداء، وتقوم على أساس دينامي، وهذا ما يؤكد خطاب "آبا إيبان" الموجه إلى "جورنار يارنج" بتاريخ 1968/10/15، فكل ما تكلم عنه هذا الخطاب هو السلام العادل والدائم، وضرورة وضع خريطة للحدود الإقليمية، وأن يعلن إنهاء النزاع وحالة الحرب بصفة نهائية، وأن تستبدل خطوط وقف إطلاق النار بحدود دائمة وأمنة، وعندئذ يجري تنظيم وضع القوات بما يتفق تماماً مع الحدود التي يتفق عليها في ظل السلام النهائي مع اتخاذ تدابير دائمة وفعالة من أجل حرية الملاحة الإسرائيلية<sup>(2)</sup>.

وهكذا يتضح أن المفهوم الإسرائيلي لإنهاء حالة الحرب لا يتعدى حالة موسعة للسلم وعدم الاعتداء، ولكن الخطاب المذكور لم يتطرق قط إلى قوى الدمج والتطبيع على صعيد النظام الاجتماعي والثقافي.

وحقيقة الأمر أن مجلس الأمن كان منسجماً في هذا القرار مع نفسه اختصاصه القانوني الذي لا يتعدى منع الاعتداء وحفظ السلم الدولي، أما التطبيع، فهو مفهوم اجتماعي وثقافي واقتصادي وسياسي يتجاوز أفق القانون.

1 - د. عائشة راتب: بعض الجوانب القانونية للنزاع العربي الإسرائيلي، ص 56.

2 - المرجع السابق، ص 13.

ولا شك أن هنالك ستاراً حاجزاً بين القانون والسياسة، أو بمعنى أوضح فإن القانون يتميز وإن لم ينفصل عن السياسة إذ السياسة حالة متحركة ترنو إلى السكون، وعندما تحقق ذلك تغدو قانوناً، ونحن في التطبيع أمام حركة وآلية انصهار مستمرة لا تتقيد بضوابط القانون الثابتة والمحددة، وبالتالي ولأنها حركة غير مقيدة في نطاق أو مضمن، فهي سياسة والسياسة كما معلوم تقتصر على إلزام الحكام، ولا يمكن أن يتعدى نطاقها دائرة الإباحة أو الترخيص وتلايفيف الدماغ وحركة النفس والرأي.

وفي نهاية الأمر فلا أحد يستطيع أن يلزمني بشراء هذه السلعة أو تلك أو السماع إلى أغنية معينة أو تذوق قيم جمالية أو ثقافية محددة إذ الأمر رهين بي، وهنالك منطقة محرمة لا تخضع لأحد ألا وهي الإرادة التي لا تخضع إلا إلى وخزات الضمير، وبالتالي فأنا وأنت نستطيع أن نتخذ موقف الرفض حتى لو كنا في حالة الجلد، وعلى هذا فالحب المفروض نفاق، والزواج القسري زنا، والتجارة الملزمة استغلال فكيف إذاً يتهافت حكامنا من أقصى الوطن العربي للدخول مع إسرائيل في فعاليات الدمج، وهل يعني ذلك أننا في حال هزيمة عسكرية تفوق هزيمة حزيران.

وحقيقة الأمر أن قصتنا مع الغرب وإسرائيل أنهم عاملونا بأننا الرجل المريض واعتبروا أرضنا بلا شعب، فاقتلعونا منها ونهبوا ثرواتنا.

هكذا ببساطة تنشأ الكيانات السياسية للابتزاز والسرقة ونهب دماء شعوبنا، وبجسارة يضمنون علينا أن نعيش مع أبناء جلدتنا بالحياة الطبيعية وبالأخلاق الطبيعية وبالاقتصاد الطبيعي، ليفرضوا علينا نظام الشرق الأوسط القائم على الأخلاط والهجنة من هذه الدولة أو تلك مع بعض المزق والأشلاء من جسد العروبة، كل ذلك بإسمنت إسرائيل وبنسيج مكوك إسرائيل.

وإذا كان الامتلاك العسكري أو الاستعمار التقليدي يقوم على الاحتلال أي على القوة، فهذا الدمج المزيف الجديد يحتاج من حيث النتيجة إلى الثقافة.

وهكذا فمشكلتنا الأساسية مع التطبيع المزعوم هو المشروع الثقافي  
التطبيعي الخطير الذي سيضخه المشروع الإمبريالي الاستعماري الصهيوني  
لمحاصرة أمتنا وإقصائها وتهميشها وطمس ثقافتها وهويتها، وهزيمتها نفسياً  
وروحياً، لأن المستعمر بهذه الهزيمة يدك آخر معقل من معاقل وجودنا .

وبمعنى أوضح فالفاعل الاقتصادي والسياسي سيؤدي دوره في هذا التأسيس  
الجديد، ولكن الحمولة الثقافية ستنال القرح المعلى والخطوة الكبرى، لأن هذا  
التعاضد الظاهري المزيف يقوم على مدافع الألفاظ ودبابات الأفكار .

وتجدر الملاحظة أن هذه الحرب الثقافية ليست من ابتداء الأدب السياسي العربي  
وإنما هي حقيقة كبرى تلقي بظلمتها بقوة على العقل الأطلنطي، حقيقة رددت  
بوقاحة في كتابات المفكرين الاستراتيجيين الأميركيين الذين لم يتورعوا عن  
استخدامها على أساس كونها مفهوماً يقتضي التركيز عليه طالما أنه لا مجال  
للدفاع بعمق عن الحضارة الغربية المأزومة إلا بشن حروب ثقافية<sup>(1)</sup> .

ولقد عبر عن هذا الاتجاه وس ليند الكاتب الاستراتيجي الأميركي في مقالته  
المنشورة عام 1991 في مجلة السياسة الخارجية الأميركية تحت عنوان "الدفاع  
عن الحضارة الغربية"/ عدد 84/، إذ تتبأ هذا الكاتب بأن حرب الخليج ستكون  
هي الحلقة الأولى لسلسلة الحروب الثقافية المقبلة والتي ستتوجه بعد انهيار  
الشيوعية إلى الصراع مع الحضارة الإسلامية<sup>(2)</sup> .

وإذا كانت هذه المقالة تلفت الانتباه، فهناك مقالة عالم السياسة الأميركي المشهور  
"صامويل هنتجتون" الصدام بين الحضارات التي نشرت في مجلة "فورين آفير" إذ

---

<sup>1</sup> - مقال السيد ياسين، رئيس مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، منشور في  
جريدة الاتحاد الصادرة في 1994/2/21 .

<sup>2</sup> - المرجع السابق .

لاقت تجاوباً ملحوظاً بسبب أهمية وسعة انتشارها وبسبب الردود الكثيرة التي تلقتها هذه المجلة والتي تؤيد رأي هنتجتون.

ولم تتوان الفلسفة أن تدلي بدولها في هذا الموضوع، وهذا ما يتضح من كتاب نهاية التاريخ للمفكر الأميركي الياباني الأصل "فوكوياما".

وخلاصة هذا الكتاب أن التاريخ وليد الصراع، ومن ثم، فهذا التاريخ يعتبر منتهاياً بالانتصار على الشيوعية حيث لم يبق إلا النموذج الحضاري الأميركي الذي سيعمم على العالم.

ولم ينس "فوكوياما" أن يتعرض للمسلمين ونواتهم العرب، فوصفهم بالعطالة الفكرية والحضارية، الأمر الذي يحول دون تكوينهم كتلة تاريخية فاعلة تستطيع الوقوف في وجه النموذج الرأسمالي المنتصر.

ولم تقف القضية عند الفكر الغربي الذي أخذ يعبئ لغزو أمتنا ثقافياً، بل إن طلائع هذه الأمة تنبعت لهذا الخطر:

• تكلم "عزيز الحاج" عن حرب ثقافية ضد أمتنا تتكون آلياتها من الفنون والإعلام وأنماط التفكير وأساليب التصرف إضافة إلى القيم والمثل والتعليم وكل ما يكون التراث والتكوين الفكري والروحي للشعب وسلوكه وتقاليده وطرز حياته، أي ما يسمى بالشخصية الثقافية الوطنية والقومية أو الهوية الذاتية الثقافية<sup>(1)</sup>، كل ذلك في محاولة لسلخ العرب من عربيتهم وطمس قوميتهم وفرض الغربة والشعور واقتلاع الأصول والجدور.

• ولقد حدد هذا المفكر بعض الحقول التي يعتمد مخططو الغزو الثقافي التركيز عليها وهي... انتحال الفولكلور، وتشجيع العامية على حساب

---

<sup>1</sup> -عزيز الحاج: الغزو الثقافي ومقاومته، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1984، ص12.

الفصحى، وتشجيع اللغات الأجنبية والمساعدة على هجرة الأدمغة العربية، والأخذ بأنماط السلوك والاستهلاك الغربي، ونسيان الممتلكات الثقافية المنهوبة، وتغليب المصالح القطرية على المصالح القومية، وتشجيع الأمية والتسامح في التعريب.

- بدوره، ألقى "عبد العزيز شرف" الضوء على دور الضخ الإعلامي المتعدد القنوات في تحقيق أغراض الغزو الثقافي<sup>(1)</sup>.
- من جهته، ركز "عبد العزيز محمد" على خطورة استقبال الشباب العربي للغرب المستورد، وذلك من خلال رسم جوانب قائمة لحياة شباب الغرب الذي يدفع ثمن التفكيك الأسري والحرية غير المنضبطة بالقيم الأخلاقية والروحية والاجتماعية<sup>(2)</sup>.
- ولقد بلور "أحمد صادق سعد" أبعاد الغزو الثقافي من خلال التماهي بالانفتاح غير المتأنى<sup>(3)</sup>.
- وركز "نواف عدوان" على إمكانات تطوير الضخ الإعلامي العربي لتقوية الاعتزاز بهويتنا الثقافية والتصدي للتشويه المضاد المتعمد لتراثنا<sup>(4)</sup>.
- وتكلم "محمد جلوب فرحان" عن آلية الاحتكاك مع الغرب في صيغة كونه المتكلم، ونحن المستمعون، أي في صيغة حوار سلمي ومن طرف واحد.
- ويشير هذا الكاتب إلى وجود مخططات غزو ثقافي يهدف إلى إلغاء وجود الأمة العربية مبتدئاً أولاً بقيادة مشروع تخريب في ثقافتها، ثم دفع

---

1 - مجلة شؤون عربية، ع34، آذار 1984، ص179.

2 - المرجع السابق، ص210.

3 - التنمية والهوية الثقافي والوطنية، مجلة دراسات عربية، عدد34، آذار 1984، ص211.

4 - الإعلام العربي ودوره في التصدي للمخططات المعادية لقضايانا العربية، مجلة شؤون عربية، عدد39، 1984، ص121.

ثقافات عربية متغربة تتحرك باتجاه إلغاء كل ما هو عربي وإظهار الثقافة الغربية<sup>(1)</sup>.

• وينعي "فكتور سحاب" على هؤلاء العرب المنبهرين بالثقافة الغربية بزعم مواكبة العصر، وكأن العصر قابع في منطقة جغرافية واحدة اسمها الغرب، ولقد حث الكاتب على ضرورة الاهتمام إلى صيغة عربية معاصرة لطبيعة بلادنا وقيمها الاجتماعية ومشكلاتها الاقتصادية وحاجتها التربوية.

• وبالمقابل فقد ندد "سحاب" بدعاوى مواكبة العصر عن طريق نقل أفخم ناطحات السحاب وأظهر بأن ذلك إقرار بالانتماء إلى عصور متخلفة، وتعبير عن مشاعر انبهار وعقدة نقص حيال مظاهر ليس لها علاقة عضوية بأرضنا وتراثنا<sup>(2)</sup>، ويورد نموذجاً لهذه الهشاشة يتمثل بما حدث في تركيا بتخليها عن التراث والاندفاع نحو التغريب ومحاكاة كل ما هو أوروبي باعتباره الطريق الأوحده للتقدم، ويرسم لنا صورة سوداوية لما يمكن أن يحدث عندما نتخلى عن التراث ونستكين ونستسلم للغرب<sup>(3)</sup>.

• ولقد أظهر الرئيس الجزائري السابق أحمد بن بيللا خطورة الاستيراد الاستهلاكي موضعاً أن معركة التكنولوجيا تعني أن نمتلك الآلة التي تصنع السيارة، ذلك أن الإنتاج الاقتصادي هو بالضرورة إنتاج ثقافي وبالتالي فما من عمل يمكن أن يعزل عن محيطه وثقافته وفلسفته وظروفه، وحين نختار نموذج تنمية قائماً على معادلات غربية، نكون قد

---

1 - الثقافة المضادة ودور التثقيف العربي في الدفاع الوطني، مجلة الدفاع الوطني، ع2، 1984، ص192.

2 - التراث وأزمة القيادة العربية، مجلة قضايا عربية، ع2، 1983، ص271.

3 - مجلة شؤون عربية، عدد80، ص74.

اخترنا بالضرورة نموذجها الثقافي لأن التكنولوجيا تنقل معاييرها الثقافية الأصلية<sup>(١)</sup>.

- ويؤكد "عبد الله العروي" أن التفوق التكنولوجي جعل الغرب يتفوق علينا ليس بالثقافة والأسلحة بل جعله يفرض علينا آلهته<sup>(٢)</sup>.
- ولفظت "محمد الدغمي" الاهتمام إلى نقطة حساسة وهي أن من أهم المسائل التي شغلت اهتمام بناء الإمبراطوريات الغربية محاولات نسف الإسلام، ليس باعتباره يمتلك مقاومة الغريب والطارئ، بل لأن هذا الدين الحنيف هو عمود الثقافة العربية منذ أقدم العصور، وهو بذلك ضمان بقاء ثقافة اللغة العربية<sup>(٣)</sup>.

وحقيقة الأمر أن مشكلة أي شعب، إنما هي أولاً وأخيراً مشكلة حضارية، ولا يمكن له أن يحل إشكالاته إلا بأن تكون له قاعدة حضارية رصينة كمنقطة انطلاق وإطار ينسق أفعاله ويدفعها نحو غاية مرجوة.

ويعرّف "نديم البيطار" الهوية بأنها بنية فكرية نفسية أخلاقية محددة تنظم الطاقات وتضمن الاتساق والانسجام وترسخ التكامل والنمو والاتزان<sup>(٤)</sup>.

وفي نظرنا أن هذا الآتي (التيار الخارق) ليس بإعصار، لكون أمتنا العربية تقبع على تراث ثقافي عميق وغاية في القدم، مما جعلها أمة غير سهلة الانصياع أو الانقياد للبدائل الثقافية الدخيلة.

وبتعبير أكثر دقة، إنها أمة ترتكن إلى تراث ثقافي غير هش بل قادر على النهوض بتأملاتها الحاضرة وأفاقها المستقبلية، ولهذا فإن ثقافتها المتراكمة تتطوي على

---

1 - مذكرات أحمد بن بيلا، جريدة السفير، 1982/3/8، ص11.

2 - مجلة شؤون عربية، عدد8، كانون الأول 1994، ص177.

3 - المرجع السابق، ص176.

4 - نديم البيطار: المثقفون والثورة، المجلس القومي للثقافة العربية، بيروت، 1987، ص325.

عناصر مقاومة وضوابط حواسية تتحسس الطارئ بالرغم من بهرجته وجاذبيته<sup>(1)</sup>.

ولهذا فقد وصفت أمتنا بأنها أمة مواجهة، إذ ابتليت بأقصى محن التاريخ، وهبت عليها أعتى العواصف وتعرضت لسلسلة من محاولات الطمس والمحو كالزحف التتاري والصليبي والاستعمار الغربي المعاصر، ومع ذلك فقد زادت هذه المحن قوة شكيمة وصلابة إرادة.

ولكون أمتنا هي أمة الكرامة والاعتزاز بالشرف فهي لا تقبل الذل إذ تزود عن الأرض بالدم، وعلى هذا فلا مستقبل لمن يريد أن يأكلنا بالمفرق، متناسياً أن العرب بدو ذو معدة تسحق الصخر وهم من أكلة التاريخ، ومن سكان الصحارى وعشاق الحياة بالموت<sup>(2)</sup>.

إن التعريب أوقى قوة وأصلب مكسراً من التعريب، ولا يمكن للعربي أن يخرج من جسده وروحه ومنطقه إلى اللاهوية، ويبقى وجدان الأمة ووعيتها الحقيقي هو أهم مقياس لكل سياسة، والصاد الحصين للتطبيع الذي يشترطه الغرب مفتاحاً لسلام بين أمة لا تتاجر بأرضها وكرامتها، بين تاجر البندقية شيلوت الصهيوني الذي يظن أن العداء يحمي بالدولارات في حين أن العربي مسكون بالتراث والتراث الشعبي مسكون بالإسلام وبالسلام والحرب<sup>(3)</sup>.

ومع ذلك، فإن لنا على المشروع الثقافى العربي الملاحظة الآتية:

---

<sup>1</sup> - مؤيد سعيد: التواصل والاستقبال الحضاري في التاريخ، مجلة قضايا عربية، عدد2، شباط 1983، ص34.

<sup>2</sup> - خليل أحمد خليل: حول أدوار التحولات من الثقافة العربية، مجلة الفكر العربي، عدد78، 1994، ص5.

<sup>3</sup> - المرجع السابق.



يرى مؤرخو الحضارات المعاصرة، ومنهم "رولان برتون" في كتابه **جغرافيا الحضارات** أن في عالمنا المعاصر سبعة مدارات حضارية كبرى تتوسطها الحضارة العربية الإسلامية الممتدة من نهر الغانج إلى المحيط الأطلسي... ولقد ملأت هذه الحضارة سمع الدنيا عدلاً وتقدماً، وملكت ناصية التاريخ، وكانت يدها اليد الطولى الأولى والأخيرة، وهذا هو معنى قول الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان: نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع.

وعلى هذا فليس من السهل أن تبيع هذه الأمة روحها أو تتطأطأ رأسها للغرب بل ستعود إلى ذاتها وثقافتها «الحافزة لا العبء» تتطلق منها لتتبارى مع الآخرين في معركة تفتح الزهور.

كما أن لنا بالطبع بعض الملاحظات على هذا المشروع الثقافى النهضوي النقيض لمشروع التطبيع:

1- هذه الثقافة كأية ثقافة إنسانية فيها الغث والثمين، فيها الطاقات الخلاقة الحافزة إلى جانب الطاقات العبء على حد تعبير المفكر العربي قسطنطين زريق.

2- يجب أن لا تنسينا الثقافة العاملة *savant* التركيز على الثقافة العربية الإسلامية الشعبية *populaire*، لأن هذه الثقافة الأخيرة تمثل عمقاً بعيد الأغوار راسخ الجذور، ولأن المواطن العربي الإسلامي العادي هو مادة العروبة والإسلام، والعجلة والفلك الذي تدور عليه أمتنا نهوضاً وانكفاء.

يقول أحد المفكرين الإيطاليين: ((دعني أدون عادات الأمة العربية وتقاليدها، ولا يهمني بعدئذ ما تفعله السياسة)).

حقيقة الأمر أن سوسولوجيا اليوم هي سياسة الغد على حد تعبر "بوتول".

وعلى هذا فالتحصين السوسولوجي الثقافى لأمتنا يتم من خلال العض بالنواجذ على منطقتنا الشعبي وموضوع حماسنا واعتزازنا، بأدبنا وفولكلورنا، بموقعنا في

الحياة، بموسوعتنا الثقافية بجمالياتنا وأخلاقياتنا، بحبنا الرفيع للحياة، بأهازيجنا وأفراحنا، فهذه الديناميات هي القلاع الحصينة والروافع الناهضة.

وحقيقة الأمر، أننا إذا تمسكنا بهذا المنهج استطعنا القول مع "خليل أحمد خليل" بأن التطبيع مجرد أسطورة ذلك أن العامة يملكون سلاحين، سلاح الإيمان الإسلامي وسلاح اللسان العربي.

وبهذين السلاحين خرج العثمانيون من الأقطار العربية ويعرفون من العربية وآدابها وفلسفتها وعلومها أكثر بكثير مما تركوا من كلام تركي في اللهجات العربية.

ونمضي أبعد ألم يأت الغربي بقضه وقضيضه متقاسماً كل أسلاب الرجل التركي المريض متوهماً أن الإنسان العربي مريض أيضاً، ويؤكل بسهولة، فإذا به يخرج على مراحل وبأثمان باهظة دفعها عرب المغرب والمشرق بلا حساب<sup>(1)</sup>.

3- يجب أن لا يدفعنا الاعتزاز القومي إلى التواكل والاستخزال، بل يجب أن يزيدنا اندفاعاً وبذلاً للجهد، وتفعيلاً للحياة، لأن أمامنا «كما قال الرسول محمد ﷺ» عقبة كؤوداً لا يقطعها إلا المخفون وزماناً صعباً تملك به الظلمة واستبد به الفسقة.

هذا التطبيع سيجعل العدو الصهيوني بين ظهرائنا، أي يجعل المرض خفياً كدبيب النمل، ماكرأً مخاتلاً كالثعلب...

4- إذا كان هنالك دوائر عنصرية أصولية في الغرب، فهذا الأمر لا يحول دون تعاوننا وتفتحنا على الدوائر الإنسانية التي تشاركنا الحوار الحضاري امتثالاً لقاعدة دع الزهور تفتح ولنتبار.

---

<sup>1</sup> - خليل أحمد خليل: حول أدوار التحولات من الثقافة العربية، ص4.

فأصولية الغرب وعنصريته ومركزيته «ومع الحفاظ على الذات» يجب ألا تزيدنا إلا تفتحاً وانفتاحاً وإنسانية مميزين في ذلك بين القمح والذؤان وسبيلنا مركب حضاري نواته الثقافة العربية الإسلامية المتفتحة تضاف إليها وترفدها منجزات العلم والحضارة الإنسانية الغربية.

5- نحن مع نديم البيطار في فهمه السوسيولوجي التاريخي لا الميتافيزيقي للأمة.

وبيان ذلك أن الأمة (أي أمة) ليست جوهرأ ثابتأ فوق التاريخ والزمان له جواب واحد ومحدد على الأشياء قار ومستقر وثاو في أعماق الماضي.

الأمة مجموعة استجابات reponses واعية لا ردود فعل غريزية على التحديات.

بهذا المعنى نفهم كيف أن اليونانيين تخلوا عن التاريخ فتخلى عنهم، والأمر النقيض حصل لسكان السويد والنروج الذين أقبلوا على الحياة فأقبلت عليهم.

إن الارتقاء الروحي هو أساس تقدم كل أمة، قاصدين بهذا الارتقاء القوى الدافعة والتضحيات والعطاءات في سبيل الأمة والحياة.

هذا، وإذا ما تغيرت إرادة الحياة في نفوسنا، فسنقرع حتماً أبواب التاريخ وسنعيد حقنا المغتصب.

إن المواطنة الحرة «بالمفهوم الموسع الذي يشمل كل عربي» هي أساس بناء المجتمع المدني الأهلي المتفاعل الحي المفتوح الذي بدوره هو القلعة الحصينة، وهو مشتل العروبة والإسلام وحضانتهم، وحصنهما الحصين، وعلى هذا المجتمع المدني ستقام المقاطعة الصلبة الرصينة للمشروع الثقايفي المقارع النقيض.

وسبيلنا زحف ثقايفي عربي يقوم على مشروع نهضوي أساسه الديمقراطية وحقوق الإنسان، ومبناه الخيار الحضاري ومؤسسه الدولة، ومناطق أمره القيم الروحية النابعة من الأديان بحسب تعبير ميثاق العمل الوطني الناصري.

وسيكون للمرأة الدول الكبير في هذه المعركة باعتبارها واهبة الحياة للطفل  
وملقنته قيم الأمة وآداب العروبة وأخلاقها وإنسانيتها وقيم الدين الحنفي.

وما إغراق المرأة العربية بمظاهر الحياة الغربية سوى هدف أساس في مشروع  
التطبيع والتطويع، غير أن ردنا صرخة مدوية، ردها أب العروبة المعاصرة جمال عبد  
الناصر: ((أرفع رأسك يا أخي)).

ونحن مع هذا الأب نقول: يا أحرار العرب، ويا أحرار المسلمين اتحدوا ولا تهنوا ولا  
تحزنوا وأنتم الأعلون.

✍️ المحامي الدكتور برهان زريق

## الغزو الثقافي في محيط الثقافة العربية الإسلامية<sup>1</sup>

**بِسْمِ** الغرب على أمتنا اختراقاً وتطويقاً وغزواً متعدد الجوانب والسمات الفكرية والنفسية والخلقية وغيرها، ونحن بدورنا سننبري لدراسة معلم واحد من معالم هذا الغزو، ألا وهو الغزو الموجه ضد ثقافتنا.

ولا مرأى بأن هذه الظاهرة الثقافية كثيرة الالتباس والاختلاط والاشتباه بغيرها من الأجهزة المفاهيمية الأخرى، إذ أنها «على حدّ رأي الأستاذ كمال عبد اللطيف» تخفي مضمرات متعددة، وتكتنفها دلالات صراعية وهمية لا سيما على مستوى توصيفات الجدل السياسي والإعلامي، وعلى مستوى التحليل السياسي الظرفي، وهكذا تنهض الحاجة الماسة للكشف عن مضمون تلك الظاهرة، وتشريح جثتها، والحفر على مكوناتها وطبقاتها كشفاً يظهر ماهيتها، وطبيعتها الذاتية.

ومن الطبيعي بمكان أنه لا بد من منهج معتمد للوصول إلى تلك الغاية، على اعتبار أن لكل رؤية وظاهرة منهجها الخاص والمحدد النابع من طبيعتها، إذ الرؤية

---

<sup>1</sup> - قام الدكتور برهان زريق يرحمه الله بإعادة صياغة البحث ليصبح جزءاً من كتاب مخاطر الغزو الثقافي الذي يحمل الرقم/56/ضمن سلسلة الكتب المنشورة بعد الرحيل، على موقعه الإلكتروني: [WWW.Zraik.info](http://WWW.Zraik.info).

تطرح المنهج، وبالمقابل فالمنهج يبيلور الرؤية والعلاقة بينها جدلية تفاعلية متبادلة الأثر والتأثير، تبادل تأثير الروح والجسد والعكس، أنهما ظاهرتان متميزتان يتمفصلان، وإن كانتا غير منفصلتين، لا الرؤية تسبق المنهج، ولا المنهج يسبق الرؤية، وكل في فلك يسبحون.

هكذا فهذا المنهج الخاص يفرض علينا التعامل «كمدخل وإرهاص» مع محل الغزو ووعائه، ألا وهو الثقافة كظاهرة إنسانية لها سماتها المميزة وما يتفرع على ذلك من أمور مثل طبيعة الظاهرة الثقافية، آلية عملها، تكوينها، مضمونها، أهميتها، وغير ذلك من الأمور<sup>1</sup>.

ومن جهة أخرى، فالمنهج المتبع يدفعنا للتعامل مع الظاهرة الثقافية كظاهرة حضارية إنشائية تاريخية بعيداً عن أوهام الإيديولوجيا وتشنجها وهوسها، مع التدليل بأن إقصائنا الظاهرة الثقافية عن هوة الإيديولوجيا لا يعني أنها لا تتأثر وتتفاعل بالظاهرة السياسية، وتتأثر بها.

وفي نظرنا إن معالجة الغزو الثقافي يجب ألا تخفي الإشكالية الكبرى التي هي الظاهرة الثقافية كإشكالية فلسفية وحضارية وتاريخية نفهم من منظور ضرورة رنو وتشوف وطموح الإنسان العربي «من خلال مشروع نهضوي كبير» للقبض على حقوقه الإنسانية- وممارسة دوره الوجودي وفعله التاريخي الخلاق.

من هذا المنطلق فإن حل الإشكالية الكبرى للثقافة ترتب الأخذ بعين الاعتبار السؤالين التاليين:

- التخلف الثقافي العربي.
- الحضارة العربية كتركيب ثقافي بشري تاريخي.

---

<sup>1</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: في التجديد الثقافي، ملاحظات أولية حول مفهوم الغزو الثقافي، مركز دراسات الوحدة العربية، مجموعة مقالات بعنوان الثقافة والمتحف في الوطن العربي 1992، ص 139.

وفضلاً عن ذلك فتركيب هذين السؤالين يقودنا بالضرورة المنطقية إلى المواقع الآتية:

- لا للانغماس الثقافى الذي يهدد الهوية ويطمسها .
- لا للانكماش الذي يسورنا وراء فصل الذات.
- ويجعلنا نرشف في كهوفها المظلمة.
- نعم للاستجابة الخلاقة لكل ما حولنا استجابة تقوم على التفتح لا الانفتاح.
- ولا شك أن استراتيجية التجديد الثقافى هي الإشكالية الأساسية في مجال الثقافة العربية المعاصرة ومن ثم فالتفكير في تلك الإشكالية يجنبنا الكثير من المفاهيم المضللة والملتبسة.

وبصورة أوضح فامتلاك حقب التاريخ وممارسة هذا الحق والتمرس بروح المغامرة الوجدوية الدافعة للابتكار الحضاري هذا الامتلاك يؤهلنا لتدعيم وترسيخ ثقافة أنانية بلا حدود وفي الوقت نفسه يهينا القدرة على احتلال مكانة ممتازة في مجال الثقافة وهذا بدوره يحسن ذاتنا ويملئ الخواء في وجودنا ذلك الخواء الذي هو المدخل لكل غزو فكري مع التنويه بأن تحصين الذات وترصينها لا يمنعنا من التفتح على إبداعات الحياة الإنسانية وانجازاتها الكثيرة.

واستناداً إلى كل ما تقدم فسنرخص لبحثنا المذكور بفصل تمهيدي يتعامل مع الظاهرة الثقافية باعتبارها - كما قلنا موضوع الغزو وهدفه ومناطق أمره.

## في الظاهرة الثقافية

يثير الحديث عن الظاهرة الثقافية أموراً لا حصر لها ومع ذلك فهذا السياق لا يسمح لنا بالتعامل لا مع بعض متعلقات الثقافة ومظاهرها مثل: التعريف بالثقافة أهميتها التغير الثقافي الإنسان الثقافي المقصود من المجتمعية التكامل الثقافي الاتصال الثقافي.

وبالطبع فالذي حدانا لتلمس تلك المواضيع هو أن بعضها(الانتشار والاتصال الثقافيين) قد يختلط بمظاهرة الغزو الثقافي وهو الأمر الذي يدفعنا لمعانقة الحدود التي تتصل بثلاث الظواهر وتميزها من الغزو الثقافي.

## التعريف بالثقافة وتحديد ماهيتها

### ووظيفتها الذاتية ومظاهرها

يمكن القول أن الثقافة من الظواهر الإنسانية الكبرى العويصة والأكثر تعقيداً واختلاطاً وتشابكاً بغيرها من الظواهر الإنسانية الأخرى ومع ذلك فقد انبرى العلم لتشريح جثة تلك الظواهر والحفر على طبقاتها العميقة وهكذا فق كثرت التعاريف تبعاً لاختلاف المنظورات الأيديولوجية والفكرية وهو الأمر الذي طالعنا بتعاريف وصفية تقوم على تعداد محتوى الثقافة ومظاهرها وتعاريف معيارية تهتم بالثقافة كقيمة ونموذج محتذى وفضلاً عن ذلك فقد نهضت تعاريف تاريخية تهتم بالظاهرة كإرث اجتماعي كل ذلك إلى جانب تعاريف سيكولوجية ينظر إليها كأداة لحل المشكلات وأخيراً فقد ظهرت تعريفات تطويرية تهتم بتاريخه الظاهرة وتطورها .



ويبدو أن أكثر التعاريف والمفاهيم المتعلقة بالظاهرة المذكورة تحددت وانحرفت في الاتجاهات الآتية<sup>1</sup>:

- الثقافة كحال عامة للعقل مع تصور خاص لفكرة الكمال الإنساني.
- الثقافة كحال عامة للفكر والتطور الأخلاقي في المجتمع ككل.
- الثقافة هي المضمون العام للفن والممارسة الفكرية.
- الثقافة هي السبيل العام للحياة الفكرية والمادية والروحية للمجتمع.

ولقد استعمل علماء الانثروبولوجيا هذا، الجهاز المفاهيمي للدلالة على الإنتاج الفكري والمادي من مصنوعات يدوية ونظم اجتماعية أدوات تقنية وأساليب عيادة ودور للتقيد وغير ذلك من مظاهر صنع الإنسان لعالمه الذي يعيش فيه فهي بذلك تشمل مجموعة التراث الاجتماعي وأسلوب حياة المجتمع<sup>2</sup>.

ولقد عرّف تايور الثقافة بأنها ذلك المركب الكلي الذي يشمل المعرفة والمعتقد والفن والأدب والأخلاق والقانون والعادات التي يكتبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع<sup>3</sup>.

ولقد بقي هذا التعريف معتمداً لأكثر من نصف قرن ولكن لوحظ عليه عدم حركيته واقتصار على التصوير الوصفي للظاهرة ثم إهماله توضيح العلاقة بين الثقافة والمجتمع البشري الحامل لتلك الثقافة من جهة والبيئة أو المحيط الخاص بتلك الثقافة من جهة أخرى.

وبعد ذلك جاء تعريف "رايت" المتضمن أن الثقافة هي النمو التراكمي للتقنيات والعادات والمعتقدات لشعب من الشعوب يعيش في حالة الاتصال المستمر بين

---

<sup>1</sup> - د. عدنان أبو عشمه: ثقافتنا في مواجهة التحديات، دمشق، ألف باء الأدب، 1997، ج1، ص32.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، 1997، ج1، ص33.

<sup>3</sup> - محي الدين صابر: التغيير الحضاري وتنمية المجتمع العربي، 1962، ص40.

أفراده وينتقل هذا النمو التراكمي إلى الجيل الثاني عن طريق الآباء وعبر العمليات التربوية<sup>1</sup>.

والتعريف الأخير لم ينجح أيضاً من الطابع الوصفي كما أنه اقتصر على توضيح الدور الذي تلعبه الثقافة في توجيه السلوك الإنساني.

حيال هذا الارتباك في تلك التعاريف فقد عقدت سنة/1970/منظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم والتربية عقدت ندوة لمناقشة موضوع الحقوق الثقافية حيث استخدمت كلمة الثقافة بمعاني واسعة تضم كل ما يتصل بالإنسان فكراً وخلقاً وبدناً بما في ذلك التدريب النفسي أي كل ما يجعل الإنسان مخالفاً للكائنات الأخرى<sup>2</sup>.

وفضلاً عن ذلك فقد استخدمت الندوة كلمة الثقافة بمعنى ضيق وتجدد تقارب كلمة الحضارة.

وعلى ضوء ما تقدم جاء إعلان مكسيكو ليحدد مفهوم الثقافة في إطار عام واسع على النحو التالي:

الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينر إليها اليوم على أنها جميع السمات المادية الروحية الفكرية العاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان وتنظم القيم والتقاليد والمعتقدات<sup>3</sup>.

وقريب من التعريف الأخير التعريف الذي قدمه المفكر العربي الإسلامي مالك بن نبي فقد عرف الثقافة بأنها الدستور الأخلاقي والفكري والجمالي والذوقي والمدادي لأمة من الأمم.

<sup>1</sup> - د. عدنان أبو عسمة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص33.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، 35.

<sup>3</sup> - المؤتمر العالمي بشأن السياسات الثقافية، اعلان مكسيكو بشأن الثقافة، المجلة العربية للثقافة، السنة 2، العدد الثاني.

إذاً فالثقافة بالمعنيين الأخيرين هي السمات الروحية والأخلاقية والقيمية والعقلية والمنطقية لمجتمع ما فهي الروح الجماعي وصور الحياة المجتمع المشكلة لشخصيته وهويته القومية فهي وجوده ذاته وسماته<sup>1</sup>.

### أهمية الثقافة

لا بدّ من التأكيد بادئ ذي بدء بأن الإنسان كائن ثقافي بالطبع<sup>2</sup>، فهو قد فتح عينيه على هذه الحياة وهو يحاول فهمها وعلى مكوناتها وغيتها وإعطاءها معنى ثم إدراك جوهرها.

فالثقافة هي قوام وجود الإنسان، وهي مساوية له، وإن وضعه على هذا الكوكب لم يتحدد إلا بها، فهي فاصل نوعي بين الإنسان وبين سائر الأحياء، وهي فاصل درجي بين المجتمعات والأفراد<sup>3</sup>.

وعلى هذا الأساس فإن أكثر ما يميز الإنسان عن سائر الأحياء وعن اختراعات الذكاء الاصطناعي تقدماً، مثل الحاسوب (الكمبيوتر) والإنسان الآلي (الربوت) هو المستوى الرفيع من حيث النوعية التي يتفرد به الإنسان في عالم الرموز<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - د. عدنان أبو عشمه: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 84.

<sup>2</sup> - د. محمود الذواذي: الرموز الثقافية، مفهوم عالم الرموز، مجلة المستقبل العربي، العدد 156 - 1992/2، ص 22.

<sup>3</sup> - د. محي الدين صابر: نحو استراتيجية للثقافة العربية، مجلة الشؤون العربية، العدد 15، لعام 1982، ص 16.

<sup>4</sup> - د. محمود الذواذي: الرموز الثقافية وتطبيقاتها على الوطن العربي، مجلة شؤون عربية، عدد 82، لعام 1995، ص 184.

وبيان ذلك أن محاولة تغيير عالم الرموز الثقافية بهذا الغزو، أو ذلك تعني أنها عملية تمسّ عمق ذات الغزو، وباطن الأشياء منه لا سطحها أو ظاهرها، فلا غرابة إذاً أن تظهر الرموز الثقافية مقاومة عنيدة في غالب الأحيان إزاء عوامل التغيير<sup>1</sup>. ويصف علماء الاجتماع الرموز الثقافية بأنها تتسم بالدلالات المتعالية، تدليلاً بقدرتها على تجاوز الواقع المحسوس والآني لحياة الإنسان، ففكر ابن خلدون أو أرسطو لم يندثر بوقا صاحبه وبالتالي فعمر الرموز الثقافية يتسم بالامتداد الذي قد يصل إلى الأزلية، حيث تتشابه الرموز الثقافية بظاهرة الروح عند الكثير من الديانات وفلسفات المفكرين، وإن اتصافها بطول العطاء عبر الزمان والمكان، يجعل من محاولة تغييرها عملية صعبة وبطيئة، إذا ما قورن الأمر بتغيير العناصر المادية<sup>2</sup>.

لكن لماذا يصعب تغيير هذه الرموز...يجيب عن ذلك "الدكتور الذوادي" بأنها تمثل صلب جوهر كينونة الإنسان، وتحتل موقعاً مركزياً ومتجذراً في بنية شخصية الفرد، وعمق كينونته وروحه<sup>3</sup>.

ويمكننا أن نضرب مثلاً على ذلك في بقاء اللغة الفرنسية وثقافتها مهيمنة في المغرب العربي على بعد أكثر من ثلث قرن على استقلالها. ويؤكد "الدكتور الذوادي" أن عناصر العقيدة قد تقاوم التغيير أكثر من مقاومة اللغة، ومجتمعات المغرب العربي المعاصر أكبر مثال على ذلك، ضمن جهة لا تزال اللغة الفرنسية وثقافتها مهيمنة إلى حدّ كبير على ساحات المجتمعات المغاربية،

---

<sup>1</sup> - د. محمود الذوادي: الرموز الثقافية وتطبيعها على الوطن العربي، ص183.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص183.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص183.

وبالمقابل فقد فشل الاستعمار الفرنسي فشلاً كاملاً في التأثير في الخريطة الدينية الإسلامية<sup>1</sup>.

وهذا الدور الذي لعبته العقيدة الإسلامية بين ظهراي الشعب العربي في المغرب يؤكد وصلابتها ودورها كامل وصائغ للقيم العربية وصورها والذود عنها .  
وحقيقة الأمر أن التاريخ لما يطلق عليه اليوم بالوطن العربي، لا يمكن إلا أن يرجع إلى الدور الحاسم للرموز الثقافية، وبالطبع فقد جاء انتشار تلك الرموز مع ما يسمى بالفتوحات العربية الإسلامية، حيث عمد الفاتحون إلى نشر العقيدة الجديدة في البلاد المفتوحة، الأمر الذي أدى إلى تعريب ثقافتها، وكانت النتيجة تبلور قضاء ثقافي متجانس إلى حد كبير من المحيط إلى الخليج، ومن ثم فتجذر الرموز الدينية الإسلامية ورموز اللغة العربية وثقافتها على الشخصية القاعدة لإنسان ما بين الخليج والمحيط هو الشرط الأساس لإمكانية تحقق عملية الانصهار الثقافي الكامل أو شبه الكامل بين المجتمع العربي الإسلامي الأم في الجزيرة العربية من ناحية والمجتمعات الأخرى المحيطة أو البعيدة عنه من ناحية أخرى والتي أسلمت وعرب لسانها وثقافتها<sup>2</sup>.

وليس من المبالغة القول إن الوطن العربي كظاهرة ثقافية متجانسة فريدة من نوعها في القديم والحديث لجهة العوامل التي أدت إلى تجسيماها، فالدعوة المسيحية مثلاً نشرت رموز رسالتها، وهي اليوم أكثر الديانات انتشاراً في العالم، ومجتمعات أوروبا هي مجتمعات مسيحية في أغليبتها، ولكن وحدتها الثقافية تبقى بعيدة عن متانة وحدة التضامن الثقافي الموجود في المجتمعات العربية، والسبب في ذلك واضح، إذ أنه بينما انتشر الإسلام كرموز دينية ولغوية وثقافية، وأنشأ قضاء

---

<sup>1</sup> - د . محمود الذواذي: الرموز الثقافية وتطبيعاها على الوطن العربي، ص184.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص186.

ثقافياً متجانساً، وأصبحت لغة التعامل اليومي ولغة الثقافة، وهكذا تمّ تجذر الرموز الدينية ورموز اللغة العربية وثقافتها الشخصية العربية في حين أن المسيحية خرجت كدعوة دينية فقط، فقد اعتنقت أوروبا المسيحية مبقية على لغاتها ولهجاتها وثقافتها المختلفة، إذ لم تكن للمسيحية لغة وحي، وتعبير العلوم الاجتماعية الحديثة يعتبر نشر الإسلام للغة الضاد متغيراً variable عاملاً حاسماً في فهم وتفسير الفرق بين درجة قوة التضامن الثقافي العضوي بين أقطار الوطن العربي من ناحية، وتنوع وانقسامات الفضاءات الثقافية الأوروبية من ناحية ثانية.

ففي الأول وفر شرط الرموز الدينية والرموز اللغوية الثقافية حصول ما يمكن أن نطلق عليه بالتطابق الكامل على مستوى الخريطة الثقافية العامة. أمّا في حال أوروبا فلا يوجد إلا شرط يتيم يتمثل في اعتناق رموز الديانة المسيحية، وهذه الرموز الأخيرة تسمح بالحديث عن التشابه الثقافي بين المجتمعات الأوروبية أكثر من الحديث عن التطابق الثقافي الكامل وشبهه الكامل. وهكذا توصف التجربة الثقافية الشاملة للعرب المسلمين بأنها فريدة من نوعها في تاريخ التلاقحات الثقافية بين الشعوب، فقد تمكن العرب المسلمون في تحقيق عملية انصهار ثقافي كامل، أو شبه كامل للآخر في الحضارة العربية الإسلامية. لقد تصارح الحكام العرب لأسباب سياسية واقتصادية وحدوية في الماضي والحاضر، ووصل الأمر بأن تصارعت الجيوش العربية فوق الأرض العربية، ورغم ذلك فإن الروابط الثقافية منطقتها الخاص، فهي لا تعبأ كثيراً بمثل تلك الأحداث العارضة بين نبي البشر، أنها ذات قدرة شبه ميتافيزيقية في تجاوز الأحداث مهما كانت ذات طبيعية مأساوية، والروابط الثقافية العربية الإسلامية المتجانسة (الرموز الدينية الإسلامية والرموز اللغوية والثقافية العربية)، مكنت العرب والمسلمين من التواصل والتضامن شعوراً وممارسة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً،

وإن وشائج الرموز الثقافية الرابطة بين الشعوب تتمتع هي الأخرى بما اسميناه باللمسات الميتافيزيقية، ومن ثمّ فهي أكثر ترسخاً من غيرها لضمان استمرارية اللحمة، حيث إن عواهن الدهر لا تكاد تؤثر في خفقات ونبضات روحها، ومن ثمّ فالروابط الثقافية بين الأفراد والجماعات تطبع حتى التواصل بطابع الأزلية التي لا تعرفها الأحلاف العسكرية، ولا التجمعات الاقتصادية.

ويؤكد "الدكتور محمد شيجا" أنه ما من أمة تكاملت فيها مقومات الأمة بالقدر الذي تكاملت فيه بالنسبة للأمة العربية ذلك بأنه إذا اعتبرنا القومي بأنه مجموع المادي والروحي والماضي والحاضر مشدوداً إلى المستقبل ثم قادننا التجارب القومية من منظور هذه العوامل لا تضح لنا فرادة أمتنا<sup>1</sup>.

### ظاهرة العزلتين في المجتمع الكندي

من المعلوم أن المجتمع الكندي يتكون من عشر مقاطعات، وتعد مقاطعة "كيبك" المقاطعة الوحيدة في الفيدرالية الكندية التي تستعمل فيها أغلبية سكانها اللغة الفرنسية بينما تستعمل بقية المقاطعات التسع الأخرى اللغة الإنكليزية.

إن تاريخ الفيدرالية الكندية يؤكد بأن عملية دمج "كيبك" في المجتمع الكندي ليست بالأمر الهين، والمجتمع الكندي الكبير يتكون من هويتين ثقافيتين منعزلتين، ووسائل الإعلام الكندي المكتوبة تحفل بالمعاملات التي تثبت أن المجموعتين الفرنسية والإنكليزية والمقيمتين في مدينة مونتريال يشكون مما أصبح يطلق عليه ظاهرة العزلتين، إذ أن هاتين المجموعتين لا تقرأ الصحف ولا المجالات نفسها ولا يستمع معظم هاتين الفئتين إلى المحطات الإذاعية نفسها، ومظاهر انعزال المجموعتين لا تنتهي عند هذا الحد، والبحوث الاجتماعية تدلّ على أن زبائن المطاعم من الجانبين لا يقصدون المطاعم نفسها، وكأن المجموعتين تنتمي إلى

<sup>1</sup> - د. الذوادي: الرموز الثقافية وتطبيعها على الوطن العربي، ص 186.

مرجعيتين مختلفتين وإلى خريطتين معرفيتين (وهويتين) وبالتالي فليس لها الروح الثقافية المركزية نفسها وحقيقة الانعزال بين المجموعتين الكنديتين الرئيسيتين موحدة على (عرض وطول) المجتمع الكندي الكبير<sup>1</sup>.

إن الرموز الثقافية cultural symbols تمثل -كما قلنا- جوهر كينونة الإنسان، لذلك، فلا عجب أن تبرز في كندا روحان ثقافيتان رمزيتان في مجتمع واحد تسود فيه لغتان وثقافتان رئيسيتان، فالكنديون الإنكليز والفرنسيون قد يسكنون القارة نفسها، ومع ذلك يظلون في ظاهرة العزلة فيما بينهم، وهكذا الصعوبة في التخاطب والتفاهم، وهناك قطيعة كاملة بين روحين ثقافيتين رمزيتين<sup>2</sup>.

وينتهي "الدكتور الذوادي" للتأكيد بأن غزو الثقافات أخطر من غزو الجيوش<sup>3</sup>.  
على هذا الأساس ينتقد "الدكتور الذوادي" العبارات الآتية:

○ الاستلاب الثقافي.

○ الغزو الثقافي الصهيوني.

○ الإمبريالية الثقافية.

فهذه التسميات تقتصر على تسجيل وجود ظاهرة تفشي الرموز الثقافية للآخر، دون أن تكشف عن تلك التأثيرات العميقة والمديدة وعن تفشي ثقافة الغير

---

<sup>1</sup> - محاضرة بعنوان:

Rocher: les deux solitudes les sociologies consdions.

ألقيت في الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس الجمعية الكندية لعلمي الاجتماع والأنثروبولوجيا بتاريخ 1990/5/27، بجامعة فكتوريا بمقاطعة British colomia بكندا.

<sup>2</sup> - Jerome G. Manis: symbolic interaction. Publisher: Allyn & Bacon; 3rd edition (January 1. 1978).

<sup>3</sup> - د. محمود الذوادي: الرموز الثقافية وتطبيعها على الوطن العربي، ص 189.



وبالتالي فإن انتشار لغة الغير لا يمثل فقط افتقاراً لتلك اللغات بل أن الجهاد من أجل الحصول على الاستقلال اللغوي والثقافي ليس هيناً التخلص منه لا سيما إذا تجذرت ثقافة الغير.

إن نشر اللغة والقيم والعقائد الدينية في مجتمعات وحضارات أخرى أهم تخطيط محكم يمكن أن يقوم به أي مجتمع من المجتمعات لتأمين إقامة علاقات دائمة مع الأمم الأخرى.

إن التبعية الثقافية تعني تبعية الروح للآخر وقد يكون هو العدو وتمثل هذه التبعية السمات بأهم عناصر تكوين هوية الفرد والجماعة ومن هذه الحقيقة تتجلى مصداقية القول بأن غزو الثقافات أخطر من غزو العساكر.

### التغيير الثقافي

كل شيء في هذا الوجود آيل للتغيير والتطور والفناء، قال تعالى: ﴿وَيَبِّقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن/27.

وقال "هيراقليط": ((إنك لا تستطيع أن تستحم في مياه النهر مرتين، فماء النهر يتغير))، وأنت تتغير والثقافة سنة من سنن الحياة فهي تخضع لهذه السنن تمداً وتقلصاً وانتكاساً، وحقيقة الأمر فالتغيير الثقافي وحقيقته وجوهره هو تغيير في الإنسان نفسه، إذ التغيير سمة من سمات الثقافة وخصيصة من خصائصها يستهدف تغيير الإنسان بتغيير ثقافته والتغيير الثقافي مرتبط بالنمو الثقافي أي بالتغيير في مظهره الكمي، وعن هذا النمو الذي هو تراكم وتجمع تتأني الحركة والاستمرار اللذان يؤديان بدورهما إلى تصفية وتنقية وتأليف العناصر الثقافية المتراكمة باتجاه الخلق والابتكار.

وغني عن البيان أن الثقافة قائمة على عناصر مادية وروحية ولكن السؤال المطروح هو: أن العناصر أكثر تأثيراً بالآخر، ما هو خارج عن نطاق الجدل أن

العوامل الروحية هي الأكثر جذرية وحسماً في مجال التأثير والتغيير في حياة المجتمع وكيانه.

ومع ذلك فنحن لا نستهن أو نضعف من أهمية المصلحة في حياة الجماعات الإنسانية، بل لا نخجل منها كرابط قوي يضاف إلى بقية الروابط.

والتغيير الثقافي مرتبط بالنمو الثقافي، أي بالمظهر الكمي له، وعن هذا النمو الذي هو تراكم وتجمع تتأتى الحركة والاستمرار اللذان يؤديان بدورهما إلى تصفية وتنقية وتأليف العناصر الثقافية المتراكمة باتجاه الخلق والابتكار.

وغني عن البيان أن الثقافة قائمة على عناصر مادية وأخرى وروحية، وإن كانت العناصر الأخيرة الأكثر جذرية وحسماً في حياة المجتمع وكيانه، ومع ذلك فنحن لا نستهن أو نضعف من شأنه وأهمية المصلحة في حياة الجماعات الإنسانية، بل لا على أحد أن يخجل من لأهميتها كرابطة قوية إلى جانب الروابط الأخرى، وهو الأمر الذي يحدونا لتأييد حديث الدكتور غسان سلامة عن عروبة المصلحة<sup>1</sup>، وإن كان ذلك ينسبنا أن مقومات الأمة الروحية ودستورها الأخلاقي والقيمي والنفسي هي القلعة الحصينة للدفاع عنها، ونرى وجود مجتمعات متعددة قامت على المصلحة - كالاتحاد السوفيتي، ولكنها سرعان ما انهارت بسبب زوال تلك المصلحة.

---

<sup>1</sup> - د. غسان سلامة: نحو عقد اجتماعي عربي جديد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 99.

## التكامل الثقافي

لا حاجة للتدليل بأن الثقافة الواحدة تقوم على اتساق وعلى منظومات متميزة متحدة مترابطة متكاملة ومتوازية في عناصرها ووحدتها، وبذلك فإذا انتقلت كما ذكرنا- مفردة من هذه المفردات إلى ثقافة أخرى، فهذه المفردة تحاول «لتحافظ على نقائها وقوتها» أن تنقل معها عناصر منظومتها التي تنتسب إليها . ومن جهة أخرى فالثقافة لا تقتبس عنصراً ثقافياً معيناً بصورة ميكانيكية، وإنما يتم ذلك بعد أن تتمثلها وتصب عليه عصارتها الهاضمة وإلا كان عليها أن تبذل مجهوداً كبيراً لإعادة التوازن إلى قوامه المفقود<sup>1</sup> .

ذلك أن كل خاصية ثقافية حتى وإن كانت شيئاً بسيطاً للغاية، هي في الحقيقة مركب من عدد من العناصر والأفكار والارتباطات والقيم المختلفة، ولا يمكن للمجتمع المستعير أن يعي إلا ذلك القدر من المركب الذي يمكن تزويده به عن طريق الأعمال المحسوسة أو التعبيرات الكلامية، حتى في هذه الحال يحتمل ألا يقتبس المجتمع إلا تلك الأجزاء التي تكون واقعية ومحسوسة والتي يسهل على المجتمع تقليدها، بحيث تصبح النواة المقتبسة في البيئة الثقافية الجديدة مركزاً لمركب جديد من الارتباطات والاستعمالات وبعبارة أخرى، فالمجتمع المستعير يطور تأملات جديدة، ويكيفها لتخدم غايات جديدة<sup>2</sup> .

---

<sup>1</sup> - رالف لينتون: دراسة الإنسان، ترجمة عبد الملك الناشف، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1964، ص457.

<sup>2</sup> - د . عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص56.

وكما قلنا سابقاً فإن أية استعارة لعنصر ثقافي إنما تؤدي إلى سلسلة من التعديلات في التوازن المنظومي والنسقي للثقافة المستعرة، وهذا ما يطلق عليه التكامل الثقافي<sup>1</sup>.

وبالطبع فلا يقصد من هذا التوازن جانبه الاستاتيكي الساكن، بل جوهره المتحرك، أي ذلك التطور التقدمي لتحقيق المزيد من الكمال في التكييفات بين مختلف العناصر التي يتألف منها جملة الثقافة، أما درجة التكامل فلا يقصد منها إلا المدى الذي تلعبه هذه التكييفات من الكمال في نقطة معينة من المحيط الثقافي المتصل الأجزاء.

هكذا يصبح التكامل أمراً نسبياً لأنه ما من ثقافة تستطيع أن تحقق التكامل التام في أية لحظة من تاريخها.

وإذا ما توقف التكامل عند نقطة معينة، فهو يشل الثقافة، ويؤدي إلى دمار المجتمع ككيان وظيفي، وإن كان يندر أن يقف التكامل الثقافي عند هذه اللحظة إذ الثقافات جميعها تملك قابلية مدهشة للتغيير والتكيف، وبالتالي فهي قادرة في النهاية على دمج أي عنصر ثقافي جديد، أو مجموعة من العناصر، إذا كانت هذه العناصر لا تتعارض تعارضاً مباشراً و كلياً مع النسق الثقافي العام<sup>2</sup>.

ومما لا شك فيه أن الثقافة ظاهرة اجتماعية، لا طبيعية، ودرجة التكامل اللازمة لأداء الثقافة لوظيفتها أداءً ناجحاً لا يشبه بأيّة حال ذلك التكامل اللازم لنجاح الحي في أداء وظيفته<sup>3</sup>... والتي تجدر الإشارة إليه أن الثقافات كالأشخاص قادرة على ضم

---

<sup>1</sup> - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 57.

<sup>2</sup> - رالف لينتون: دراسة الإنسان، ص 458.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 57.

عناصر متعارضة، وتناقضات منطقية إلا أنه وإن كان لا يوجد في النسق العام للثقافة بأسرها إلا نقطتان يمكن أن يكون لها أثر يخل الثقافة وهاتان النقطتان هما :

**النقطة الأولى :** هي سلب الثقافة وكيانها، ويقصد من ذلك تلك المجموعة من القيم التي تدخل على الأعم الأغلب في نطاق الحي الباطن والعلاقات والاستجابات العاطفية التي تزود الثقافة بحيويتها، والفرد بدوافعه الشخصية لممارسة نماذجها والتقيدها بها .

**النقطة الثانية :** وهذه تقع في مجال أكثر قطاعات الثقافة سطحية وهي تتناول النماذج العادية للسلوك الظاهر، فأما سوء التكيف في الحال الأولى، فيؤدي إلى صراع عاطفي مستمر داخل الفرد وإلى صراع بين الأطراف الذين اختاروا لأنفسهم قيماً مختلفة مما يؤدي إلى تبديل روح التعاون لدى الجماعة، وأما سوء التكيف في الحال الثانية، فيؤدي إلى تداخلات مستمرة وإلى تعطيل الحرية، هذا بالإضافة إلى نشوء حالات انفعالية مزمنة ومما لا شك فيه أن صلب الثقافة يتمتع بمناعة قوية ضد أي ارتباط مباشر يحدثه إدخال عناصر جديدة في الثقافة التي اكتمل تطورها<sup>1</sup> .

وهناك ملاحظة جديرة بالتويه هي أن أية ثقافة تتمتع في أعلي الأحيان بحصانة ضد أي ارتباك مباشر قد يحدثه إقحام عناصر جديدة من الثقافة التي اكتمل بناؤها<sup>2</sup> .

والتغييرات في القيم الأساسية لجماعة ما تكاد تأتي من الداخل، وبالتالي فهي غير ناتجة عن المنافسة بين العناصر الجديدة والعناصر القائمة بقدر ما هي ناتجة

---

<sup>1</sup> - رالف لينتون: دراسة الإنسان، ص472.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص472.

عن الصراع بين العناصر القائمة والوضع الخارجي الذي يعجز كل من المجتمع والثقافة عن تعديله<sup>1</sup>.

ولما كان التغيير بطيئاً في لباب الثقافة لذلك فقلما يوقع هذا التغيير المجتمع في تعارض خطير، إذ العناصر القديمة تهجر رويداً رويداً، ويجري تطوير عناصر ذات علاقة وثيقة ومستمرة بالنسق الثقافي القائم، وإذا تعارضت العناصر المتطورة تعارضاً خطيراً مع أجزاء قوية وطيدة من هذا النسق، فغن ذلك سيحد من استمرار نموها، وهكذا يتمكن لباب الثقافة من الاحتفاظ بدرجة عالية من التماسك خلال أية عملية تنطوي على تغيير ثقافي عادي، فهو يستطيع أن يكيف نفسه باطّراد مع الظروف الجديدة، وأن يحافظ في الوقت نفسه على وحدته، وذلك باستقلال العناصر التي تم قبولها على الصعيد السطحي من الثقافة في توطيد القيم القديمة<sup>2</sup>.

والخلاصة فالمجتمع يستطيع أن يحتفظ بتماسكه بفعل لباب ثقافته الذي يفلت من خطر التفكك الناجم عن دخول عناصر جديدة بصورة مفاجئة، وإن كان من الممكن لهذا التفكك أن يحدث عندما تندمج مجتمعات فيما بينهما.

ومن المؤكد في مثل هذه الحالات أن تمر فترة يتعرض خلالها الأفراد ممن هم في طور النمو إلى مجموعتين من القيم قد تكونان منسجمتين، وكثيراً ما ينعكس مثل هذا التعارض في الصراع الذي ينشأ داخل شخصيات الأفراد الذين شاء سوء طالعهم أن يعانون من هذا الوضع، كما ينعكس في ازدياد شعور اللامبالاة بالقيم الاجتماعية، ومهما يكن من أمره فأن القيم المشتركة تنزع إلى البقاء حتى في مثل هذه الحالات وتشكل بالتالي أساساً لتطوير لباب جديد يقيم هذا ويتفرع عن فكرة التكامل الثقافي للظاهرتان الآتيتان:

---

1 - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 58.

2 - رالف لينتون: دراسة الإنسان، ص 472.

## المجتمعية

هي مجموع عمليات دمج الفرد في مجتمعه، وتحدث عندما يتعلم الفرد طرق التفكير والعمل التي تؤلف ثقافة أمته المميزة لها من غيرها من المجتمعات الإنسانية.

على هذا الأساس، فالمسألة الأولى والأخيرة في مشروعنا النهضوي هو خلق هذه المجتمعية، أي ذلك الضمير الجمعي والروح العامة للأمة العربية، وذلك بألية مد الشرايين وعروق الاتصال بين أمتنا، وذلك من خلال توطين الإنسان العربي وتوطيده، وتعميق جذوره في الحياة، وتأسيس شخصيته وترصين حقوقه، وخلق كموطن حر أساساً للمجتمع العربي الحر استناداً لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ المائدة/32.

## التثقيف

يمكن تبسيط التعريف بالتثقيف بأنه أحد مظاهر المجتمعية، فكما أن هذه المجتمعية تنزع إلى عملية صهر الفرد في الجماعة، كذلك فالتثقيف هو آلية صهر الفرد بثقافة أمته، وذلك بغرس الأنظمة التثقيفية الضرورية في الفرد لكي يقوم بوظيفته كعضو يساهم في استقرار المجتمع، وفي ديمومة الثقافة، ويصبح هذا التشريط الباكر مع تقدم الإنسان في العمر حصيناً منيعاً حتى أنه ينظم سير الحياة اليومية، أمّا التشريط المستمر الذي يخضع له فيما بعد، فهو تشريط جديد يتم على مستوى الشعوب يفرض على كل من الرجل والمرأة طرق السلوك التي يتقبلها جماعته، وهو يتقن ذلك إلى درجة ينذر فيها أن تصطدم أفكاره وقيمه وأعماله بأفكار وقيم وأعمال الأعضاء الآخرين في مجتمعه، وبالتالي يمكن تحسين

حياة الجماعة الإنسانية من خلال مجموعة من النظم يمكن وصفها وصفاً موضوعياً كما لو كانت توجد مستقلة عن الناس الذين يعيشون طبقاً لها<sup>1</sup>. هكذا ينزع الفرد إلى تبني الشخصية النموذجية التي ترغب فيها جماعته خلال عملية التثقيف، ولا يتحقق النجاح الكامل في ذلك أبداً، لأن بعض الأشخاص أكثر مرونة من غيرهم في حين أن البعض الآخر أكثر صلابة في مواجهة ذلك ولكن بوجه عام يصبح الجميع متشابهين إلى حدٍ يكفي لأن يجد المرء إذا ما طاف في حول الأرض أن الناس يختلفون بعضهم عن بعض من مجتمع إلى آخر باختلافات الثقافة الواحدة عن الأخرى<sup>2</sup>. وهكذا ومن خلال أهمية الكشف عن ظاهرة المجتمعية والتثقيف نكون قد وضعنا يدنا على الفكرة المفتاح La notion cley في مقاومة الغزو، وذلك يخلق المواطن العربي وعياً وسياسة وثقافة.

## التكيف الثقافي

ذكرنا أن الثقافة ليست قدرأً ومعطى فوقياً وقومياً (أي موقوف على السماء) جوهرانياً نزل إلينا من الملأ الأعلى، فهو بهذا الوصف لا يتحول ويزول، بل الثقافة فعل اجتماعي يستجيب لسنن الحياة تمدداً وتقليصاً. ويمكن القول إن هنالك عاملين أساسيين يلعبان دوراً هاماً في عملية التكيف الثقافي ألا وهما العامل التعليمي، ثم الديناميات الشخصية<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 61.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 61.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 74.



وبيان ذلك أنه إذا كان الطفل يخضع لاستجابات عملية ورمزية وعقلية من المجتمع، فالفرد الكبير التي له رصيده الثقافي الخاص يخضع لتجربة جديدة في عملية الاتصال الثقافي، وهنا يظهر دور الشخصية ودينامياتها وفعاليتها .  
ومما لا شك فيه إن هنالك اتساقاً في أشخاص يخضعون لثقافة واحدة، لسبب بسيط هو أن الشخصية تنظم داخلي للمواقف والاتجاهات والعواطف وأنماط الأفكار والميول.

وهناك ملاحظة هامة هي أن شخصية الإنسان تتكون في السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل وعلى أساس هذه المقومات تتطور الشخصية فيما بعد، وأن خبرات الطفل تقوم على نشاط وسلوك أبويه أولاً، ثم المحيطين به<sup>1</sup>.

وبطبيعة الحال فإن الكلام عن تغيير الثقافة يعني الكلام عن تغيير الشخصية، لأن هذه الشخصية مجموعة من الأنماط الفكرية والاتجاهات والميول التي يتلقاها الفرد عن ثقافة مجتمعية.

وجدير بالذكر أن الثقافة قد تتغير في جيل واحد إذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية قد تغيرت بسرعة تغيراً جوهرياً وهذا الأمر ممكن في مجتمع في حال الحرب، كما حدث في تنشئة الانكشارية.

وبصورة عامّة فالتغيير الثقافي لا يتم في جيل واحد لأن كثيراً من الجوانب الأساسية في الشخصية يتكون في وقت مبكر وإن التغيير الشامل لها أمر صعب التحقق.

ومن جهة أخرى فعندما يحتك عنصر ثقافي في منظومة ثقافية أخرى، تأتي عملية القبول أو الرفض، وفي حال الرفض يحدث صراع قد ينتهي بالهروب أو يتخذ صورة الثورة المفتوحة الواضحة، ومن جهة أخرى ففي استعمال المصطلحات التي

---

<sup>1</sup> - د . عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص76.

لا تخلو أحياناً من الغموض تحدث عمليات التعديل والتكامل في المنظومة الثقافية المنقول إليها .

حيث عن طريق ذلك يتم التعايش بين العنصر الجديد والعناصر القديمة، وقد تبدأ عملية التخلص من العنصر أو العناصر القديمة حيث ترث العناصر الجديدة وظيفتها، وبالطبع فهذا التخلص لا يتم دفعة واحدة إذ قد يصعب على العنصر الجديد تحمل كافة مسؤوليات العناصر القديمة .

وفي مرحلة التعديل والتلاؤم يتم تفسير السمات الجديدة على أساس منطق الثقافات القديمة، إذ على ضوء ذلك يمكن للعناصر الجديدة أن تتلاءم وتتعايش مع الثقافات القديمة، والمثال على ذلك يظهر في التفسيرات الدينية، إذ أن قسماً كبيراً من الثقافة القديمة ومفاهيمها يدخل في تكوين المفهوم الجديد للدين<sup>1</sup> .

ودخول العنصر الثقافي إلى منظومة ثقافية يتم أولاً عن طريق شكله الخارجي، بمعنى أن المجتمع المستقبل يستقبله على أساس فهمه وتأويله الخارجي، وليس كما هي مضامينها في الثقافة الأولى، أي أن النقل يتم أولاً في مستوى موضوعي للشكل الخارجي للعنصر الثقافي ثم يتعضدون بعد ذلك في الثقافة المستقبلية منفصلاً عن معظم ارتباطاته ومعانيه التي كان يحملها مضمونه الأصلي، ذلك أن تلك المعاني والارتباطات إنما تستمد مميزاتها وخصائصها من النسق الثقافي العام، ومن النمط الفريد لنوع العلاقات القائمة بين عناصر الثقافة وطريقة عملها، ومعنى هذا أنه لا يوجد هنالك مطابقة كاملة في معنى سمة ثقافية معينة من ثقافتين مختلفتين، فإن معناها إنما يتحدد من خلال الإطار العام والمنطق الكلي للثقافة<sup>2</sup> .

---

<sup>1</sup> - د . عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص78 .

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص79 .

وتحدث من حالة التلاؤم والتوافق ظاهرة التهجين والمشاركة بين ثقافتين، فتتسأ ثقافة هجينة فتعادل قيمها العناصر الثقافية المختلفة، ويعمل مع وجود طابعي الثقافتين<sup>1</sup>.

والمرحلة الأخيرة هي مرحلة التمثل، ويحدث هذا عندما تذوب إحدى الثقافتين وتختفي وتحل محلها الثقافة الغالبة، ولا يتحقق هذا في كل جوانب الثقافة، فكثير من عناصرها يستمر عبر صور وأشكال مختلفة<sup>2</sup>، بيد أن نكسة ثقافية يمكن أن تقع حين لا يتم التوافق، أو يبدو مؤلماً في جانب من الجوانب، وحينئذ يعود لأنساق الثقافة القديمة، تحت مسميات متعددة، منها نقض التكيف أو العودة إلى إحياء التراث، أو البحث في الأصالة<sup>3</sup>.

## الانتشار الثقافي

والانتشار الثقافي أيضاً ظاهرة حيّة وحتمية ولا يمكن تصور الثبات إلا في الجهاد، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ المسك/15. فالانتشار في أعماق الأرض ضارباً ظهورها مستخلصاً خيراتها ناقلاً تصوراته وأفكاره وقيمه ورؤاه، هذا الأمر سنة من سنن الله في الاجتماع والحياة.

<sup>1</sup> - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 79.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 79.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 79.

ويمكن التأكيد بأن المجتمعات الإنسانية على اختلاف أطوارها ودرجة تطورها ونضجها، ما فتئت عبر التاريخ تحتك وتتفاعل، تلتقي، تتواصل، تأخذ وتعطي، تتبادل التأثير والتأثر الثقافى وغيره.

وتبسيطاً للأمر، فلنسم هذا التفاعل الطبيعى، وما يتبعه من نقل الثقافة، نسمي ذلك بالانتشار الثقافى تمييزاً له من الغزو الذي هو ظاهرة قسرية لنقل الثقافة، وبهذا الوصف فالانتشار الثقافى ظاهرة اجتماعية سليمة وصحيحة خلافاً لظاهرة الغزو.

وحقيقة الأمر أن الانتشار الثقافى أساس جوهري من أسس التقدم الثقافى فبواسطته وآلياته تتمكن المجتمعات الإنسانية من استقطاب قدراتها الإبداعية، والنهل من المعين المشترك، وعن طريقه يمكن لإبداع ظهر فى مجتمع ما أن ينتقل إلى مجموعة من الثقافات وقد يعم هذا الإبداع ليس فى كافة أرجاء المعمورة.

ونظرة بسيطة إلى حقائق التاريخ ترينا أن كافة الحضارات الرائعة إنما بزغت نتيجة استقطاب: coalition، فالحضارة اليونانية مثلاً استقطبت ثقافات الشرق القديم، والثقافة العربية الإسلامية استقطبت الحضارات اليونانية والهندوسية والفارسية وغيرها وبهذا الوصف فلانتشار الثقافى فضل مزدوج على تقدم المجتمعات البشرية، فقد ساعدت الثقافة على النمو ككل، وأغنى فى الوقت نفسه

الثقافات الفردية، ودفع المجتمعات التي حملتها فى طريقها نحو الرقى والتقدم<sup>1</sup>. وبالطبع فالثقافات تنتقل وتنتشر باليات ومظاهر متعددة تبعاً لطبيعة الاحتكاك بين الشعوب فقد يكون الانتقال على شكل علاقات وثيقة بين ثقافتين وأكثر، وقد يقتصر الأمر على علاقات تجارية متباعدة أو متقاربة.

---

<sup>1</sup> - رالف لينتون: دراسة الإنسان، ترجمة عبد الملك الناشف، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1964، ص428.

ومن الثابت أن الاحتكاك الدائم نادر الوقوع إلا في الحالات التي تستبد فيها فئات قائمة وسط فئات مغلوبة، أو بالنسبة للجماعات المهاجرة. ولا حاجة للتدليل بأن تلك الظاهرة تتم بين المجتمعات المتقاربة أو المجتمعات التي يكون احتكاكها المباشر بالمجتمع الأصلي<sup>1</sup>.

وهناك قاعدة أخرى تقول بالبقاء الهامشي للثقافة، ولتوضيح ذلك يفترض أن مجتمعاً ما ابتكر جهازاً ما، ثم أحدث هذا المجتمع بعض التحسينات عليه، فالجهاز المحسن يحلّ محلّ الجهاز الأصلي في المجتمع الأول والمجتمعات المجاورة، لكن الجهاز القديم يستمر استعماله في الأطراف المحيطة بمنطقة الانتشار. ومن جهة أخرى فالتردد في قبول عناصر ثقافية جديدة يخفض من معدل سرعة انتشارها، وإن كان لا يحول دون تعميمها في جهات معينة، والجماعات التي تتردد في تبني خاصية جديدة تشكل حاجزاً معترضاً بين منبعها الأصلي وبين الجماعات التي ترغب في اقتنائها إذا سنحت الفرصة بذلك.

وتجدر الإشارة إلى أنه بسبب تغير معامل القبول، فالعناصر الثقافية تنتشر دائماً من منابعها الأصلية بصورة غير منتظمة فقد تنتشر بعضها بسرعة فائقة، بينما ينتشر بعضها الآخر ببطء. وهناك احتمال قوي أن تنتشر الثقافة على شكل مجموعات من العناصر التي يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وظيفياً، وإن كان ذلك لا يحول دون انتشار كل عنصر على حدته.

وتتطلب عملية الانتشار الثقافي وجود مستقبل للعناصر الثقافية إضافة إلى وجود مصدر لها، ومن المؤكد أن دور المستقبل أكثر أهمية من دور المصدر، وهذا يعني أن استعمالنا للثقافة الغربية أمر ذاتي يتعلق بجوهر ثقافتنا واستعدادها للتقبل، أي أن مرد الأمور العنصر الداخلي في الثقافة.

---

<sup>1</sup> - د . عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص63.

وهناك عناصر يمكن نقلها بشكل أو بآخر كالمفاهيم الدينية والفلسفية، لكن دون تحقيق نجاح كلي في نقلها بصورة كاملة، ومثلها في ذلك نقل نماذج السلوك الاجتماعي.

ويمكن القول إن الأساليب المادية ومنتجاتها أكثر قبولاً ونقلأً كاملاً لا يختلف عما هو عليه في البلد المصدر، هذا فضلاً عن أن للمجتمعات حرية مطلقة في قبول هذه العناصر أو رفضها، اللهم إلا إذا فرضت عليها بالقوة، ويندر أن توجد فئة من الفئات المسيطرة تستطيع فرض كامل ثقافتها، بل تختار فرص بعض العناصر<sup>1</sup>. ومن الواضح أنه مهما تفننت الفئة المسيطرة في استخدام أساليب القسر، فلن تستطيع إدخال أي عنصر لا يمكن التعبير عنه من قبل الثقافة الأخرى بصورة دائمة ومباشرة وبسلوك علني وطوعي، إذ من البدهاء أنه لا توجد قوة تستطيع أن ترغم جماعة أخرى على قبول ثقافتها، هذا فضلاً عن أن اللجوء إلى القوة من شأنه أن يحول العناصر الملحوظة من ثقافة السكان الأصليين إلى رموز تستقطب الاتجاهات الثورية.

ويعتمد قبول العناصر من الدرجة الأولى على صفتين هما:

1- تقع هذه العناصر، ثم قابليتها للانسجام مع النسق الثقافي للجماعة المنقول إليها، وكما أكد ابن خلدون إن إعجاب جماعة معينة بأخرى يسهل نقل ثقافة الجماعة المعجب بها، حيث يتم التقليد من الأسفل إلى الأعلى. والاتصال قد يكون مباشراً بوساطة عنصر عضوي، وبالمقابل فقد يكون غير مباشر في صورة رموز وأفكار وسوى ذلك، وقد يكون عن طريق البر أو البحر، وقد يكون عن طريق الحروب أو قد يكون عن طريق أفراد ممثلين لثقافات معينة كالمبشرين والتجار...إلخ.

<sup>1</sup> - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 65.

وقد يتم الاتصال في البلاد المغلوبة، كما هو الحال في المستعمرات أو العكس قد يكون عن طريق انتقال بعض سكان البلاد المغلوبة إلى البلد الغالبة وغالباً ما يتم الاتصال لأغراض اقتصادية أو دينية، إذ في الدول القومية التي تنهض بالتزامات اجتماعية وخدمات علمية، ترى من واجبها الاتصال الخارجي كجزء من واجباتها .

ومن جهة أخرى، فالتماس الثقايف قد يولد مقاومة، وبالعكس فقد يخلق الثقة والألفة والتفاعل .

والعداء الثقايف يأخذ أشكالاً متنوعة، من ذلك الإفتاء الجماعي لأشخاص الثقافة بالوسائل الحربية إفتاءً تاماً أو جزئياً، كما حدث في تجارة الرقيق، وقد يأخذ مظهر الإفقار السكاني بالعزل أو الاستيلاء على الأراضي والتشريد، كما حدث للهنود الحمر في أمريكا أو لسكان استراليا الأصليين، أو ما تحاوله الحركة الصهيونية في فلسطين.

وقد يأخذ العداء مظهراً أخلاقياً، كما فعل الإنكليز في نشر الأفيون في الصين والهند أو في نشر الأمراض أو في تفكيك الحياة العاطفية، وإنهاء التنظيمات التقليدية وإباحة الحروب والاستهانة بالمقدسات .

وقد يكون الاتصال اقتصادياً أو علمياً أو فنياً أو سياسياً، أو قد يعتمد الإقناع القانوني أو الدبلوماسي، أو يستهدف تكوين رأي عام أو منطلق جمعي أو بلورة اتجاه حول سلطة معينة أو نشاط انتخابي .

ويبقى الاحتكاك الذي يجعل تمثل الثقافات ممكناً، فينشأ من طريق الفتح واستيطان الغالبين بين الجماعات المغلوبة، وهنا يقابل تفوق الفاتحين بالقوة التفوق العددي للمغلوبين أو تفوقهم الثقايف مع ملاحظة أن انصهار ثقافتين يظهر في صيغ أقرب إلى المزيج الكيميائي منه إلى الخلط الآلي الفيزيائي .

ومما لا ريب فيه أن الانتشار يعتبر ظاهرة سليمة إذا ما بقي في حدود التفاعل والتلاقح الطبيعي للأموح دون أن يقتصر بمظهر متسري أو مرضي يخرج الأمور عن طبيعتها، ويتعارض مع النسب المركزة فيها .

وبهذا المعنى فنحن نميز الانفتاح من التفتح، فالفتح يقوم على الندية والاعتماد المتبادل والمساواة خلافاً للانفتاح الذي يعطل حركة الجدال ويعبر عن ظاهرة خطية غير متبادلة الأثر والتأثير .

على هذا الأساس، فنحن مع "الأستاذ علي حرب" في مقولته المدللة بأن الحقيقة هي حقيقة الكائن عينه إنها فاعلية الكينونة، وكينونة الشيء هي قوته ومداه الوجودي إنها قدرته على الانفتاح والتوسع والانتشار<sup>1</sup> .

ومع ذلك فلسنا مع الأستاذ حرب إذا كان المقصود «وهو كذلك» تبرير الغزو

الثقافي وتأكيد على علوية سؤال الوجود على سؤال العروبة والإسلام<sup>2</sup> .

وقوله إنه لا يجوز الاحتجاج على غواية المرأة الجميلة أو تدليله بأن للثقافة وجهها السلطوي مقابل وجهها التنويري .

وبيان ذلك أنه لا يجوز قياس الظواهر الإنسانية على الظواهر الطبيعية، وبذلك - من وجهة نظر العلوم الإنسانية- لا يكفي القول إن المرأة الجميلة لها غوايتها، بل يجب وضع القانون التقويمي على تلك الغواية، حيث إن العلوم الاجتماعية والطبيعية تقرر فقط وجود الظاهرة دون أن يقومها تقويماً على أساس المعيار المختار، ومن ثم لا يكفي وصف كينونة الفكر ومداه بأنهما فتوحات فكرية، بل

---

<sup>1</sup> - علي حرب: مقاله الموسوم بعنوان غزو ثقافي أم فتوحات فكرية، مجلة الفكر العربي العدد

74 لعام 1993، ص66، ص78 .

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص78 .



يجب تلمس ومعاينة القانون الثاني للفكر من الوجهة المعيارية التقويمية، ألا وهو الغزو الفكري.

ثمّ لنا أن نطرح السؤال التالي على الأستاذ حرب:

ما هو قيمة هذا السؤال للوجود الذي هو موضع أرجحية على سؤال العروبة والإسلام.

إن العروبة والإسلام هما بالنسبة لنا شعار أخضر، فهما الحي والبيت والأهل والأقرباء والوطن والاقتصاد والحياة والوجود الحقيقي الذي أعيشه والهواء الذي أتنفسه والنسغ الذي يسري في عروقي.

لكن هل إن سؤال الوجود له مضمون محدد، وما هو هذا المضمون والنطاق والمحددات؟

إن المبدأ يجب أن يكون واضحاً حتى يصبح محلاً للالتزام والالتزام والا فهو مجرد شعار فضفاض لا يصلح محلاً للتجذر حوله والتأسيس عليه.

والخلاصة أن نظرية الانتشار الطبيعي تتفق مع الواقع المعاش ولا تصلح معياراً لأية نظرية ثقافية إنسانية تقوم على الاعتماد المتبادل والثقافة الحيّة بين الشعوب.

ولعلنا نجد مصداقاً لقولنا في الإعلام الغربي، فهذا الإعلام يصل بالموجات الضوئية والصوتية إلى 90 بالمائة من أصقاع العالم، وهو الآن نفسه يتناول مختلف الشؤون السياسية والثقافية والاقتصادية والرياضية والتاريخية، ويحوّلها إلى معلومات مختصرة ومكثفة، وتحمل ووجهة نظره الخاصة<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - بسام ضو: قوة الإعلام- الغزو المقنع، مجلة الفكر العربي، عدد 74، لعام 1993، ص21 وما بعدها.

هكذا اختار "الأستاذ بسام ضو" «على سبيل المثال والتدليل» مصطلح الإرهاب ومصطلح العرب واليهود وكشف النقاب عن الخلفيات الثقافية والسياسية والاقتصادية وراء هذين الجهازين، فمصطلح الإرهاب واضح في الفكر الغربي ويستخدم بوسائل الإعلام المرتبطة بالدول الرأسمالية الكبرى ضد كل من يعترض سياستها الخارجية ومخططاتها الاستعمارية الحديثة<sup>1</sup>.

والأمر نفسه لمادة عرب ويهود «على سبيل المثال» وكالة رويتر البريطانية ووكالة الصحافة الفرنسية، إذ أن كل خبر يتعلق بالعرب يقدم على مرتبط بدول وشعوب وثقافات لا جذور لها، ولا خلفية حضارية وثقافية واحدة، فالعرب في المفهوم الخبري لدى الوكالتين هم مجموعة شعوب لا ينتمون إلى أمة واحدة، ولهذا فالخبر العربي العام غائب، ويحلّ محلّه الخبر اللبناني والخبر السوري، والخبر المصري، والخبر العراقي... إلخ<sup>2</sup>.

والخلاصة فالوكالتان الأنفتا الذكر يسعيان لخلق رأي عام تغيب عنه الخصائص القومية والحضارية، ويكرس واقع التجزئة الاستعمارية بين العرب، ويضرب مفهوم الأمة وشخصيتها الحضارية المتكونة تاريخياً، وبالطبع فالكارثة أشد عندما لا نجد وكالة عربية رسمية تبلغ مستوى الوكالتين السالفتي الذكر<sup>3</sup>.

وتركز الحملة الإعلامية الغربية الرأسمالية على إعطاء بُعد تاريخي، المسألة الديمقراطية والحرية لدى دول العالم الثالث، وهكذا، فهذه الحملة لا تعني تركيز

---

<sup>1</sup> - بسام ضو: قوة الإعلام - الغزو المقنع، ص25.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص26.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص26.

على أن مرد غياب ذلك إلى كون العرب وغيرهم من شعوب الدول النامية لا يتلاءمون بطبيعتهم وتكوينهم التاريخي مع الحياة الديمقراطية المعاصرة<sup>1</sup>.

هكذا فالحديقة الإعلامية التي ينفذها الإعلام الغربي الرأسمالي تقوم على إعطاء الصفة المطلقة لما هو نسبي، وتصف الناس والتاريخ والحضارة بما كان يجب أن تصف به أنظمة السلطة فقد، وذلك بقصد تضليل الرأي العام والإيحاء بأنه تاريخياً في موقع الدونية<sup>2</sup>.

هكذا يؤكد "الأستاذ ضو" بأن الساحة أصبحت مفتوحة تماماً أمام الدول الرأسمالية الغربية كي تكون لنفسها الإمبريالية المتممة أي الإمبريالية الإعلامية التي ستقع على عاتقها تنفيذ الغزو الإعلامي الممهد للغزو الرأسمالي الحديث<sup>3</sup>. ويؤكد "الأستاذ ضو" على حقيقة حرص الغرب على إدخال الإعلام كعنصر عضوي أساسي في استراتيجية الصراع في الساحة الدولية وقد وضع له الأهداف التالية:

• الترويج للاقتصاد الحر.

• كبح الاشتراكية.

• كبح حركات التحرر في العالم<sup>4</sup>.

وإذا كانت الدول النامية تتلقى 90 بالمائة من إعلام الغرب فهي لا تستطيع

أن ترسل إلا الغزو اليسير الذي لا تأثير له في الرأي العام لدى الدول الرأسمالية<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - بسام ضو: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص27.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص27.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص28.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص28.

ولقد أثير هذا الخلل الإعلامي أكثر من مرة في المؤسسات والهيئات الدولية، ولكن تلك الاحتجاجات لم ترَ النور، كما حصل في المؤتمر العام الذي عقدته منظمة الأونيسكو في بلغراد عام 1980، أو كما حصل عام 1986 عندما انسحبت الولايات المتحدة من منظمة الأونيسكو، وامتنعت عن المساهمة المالية في نشاطاتها بسبب ما واجهته من معارضة شديدة لسياسة التدفق الحر للمعلومات وفقاً للمصطلح الأمريكي الذي يعكس ويبرر التدفق الحر للمراسيل إلى البنوك والمؤسسات الاقتصادية الأمريكية.

وتؤكد الإحصاءات أن أربع وكالات في العالم تحتكر 80 بالمائة من التدفق الإخباري وهي:

أسوشيتد برس، واليونايتد برس، ورويتر، ووكالة الصحافة الفرنسية، وهي تخضع جميعها لسياسات دولها المعادية للدول النامية، وحركات التحرر في العالم، وإذا أضفنا إليها القدرة العالمية في الالتقاط والتوجيه بواسطة الأقمار الصناعية ظهرت أكثر فأكثر الصفة الاحتكارية للإمبريالية الإعلامية والتي هي الموازي الدعائي للاحتكارية الرأسمالية<sup>2</sup>.

هذه صورة مبسطة تدحض بقوة مقولة الانتشار الثقافي الطبيعي وتؤكد ظاهرة الإبتسار والهيمنة والقسر وعدم التناقص الحرب بين الشعوب لصالح الغربية وهذا ما يحتم علينا بحث ظاهرة الغزو الثقافي واعتبارها حالة قائمة وجديرة بالبحث والتنقيب على قاعدة أنه لا يمكن تجنب الخير إلا في حدود سيره ومعرفة أسبابه<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - بسام ضو: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص28.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص29.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص31.

## الغزو الثقافي

يشن الغرب على أمتنا اختراقاً وتطويقاً وغزواً متعدد الجوانب والسمات الفكرية والنفسية والخلقية وغيرها، ونحن بدورنا سننبري لدراسة معلم واحد من معالم هذا الغزو، ألا وهو الغزو الموجه ضد ثقافتنا .

ولا مرأى بأن هذه الظاهرة الثقافية كثيرة الالتباس والاختلاط والاشتباه بغيرها من الأجهزة المفاهيمية الأخرى، إذ أنها «على حدّ رأي الأستاذ كمال عبد اللطيف» تخفي مضمرات متعددة، وتكتنفها دلالات صراعية وهمية لا سيما على مستوى توصيفات الجدل السياسي والإعلامي، وعلى مستوى التحليل السياسي الطريف، وهكذا تنهض الحاجة الماسة للكشف عن مضمون تلك الظاهرة، وتشريح جتتها، والحفر على مكوناتها وطبقاتها كشفاً يظهر ماهيتها، وطبيعتها الذاتية .

ومن الطبيعي بمكان أنه لا بد من منهج معتمد للوصول إلى تلك الغاية، على اعتبار أن لكل رؤية وظاهرة منهجها الخاص والمحدد النابع من طبيعتها، إذ الرؤية تطرح المنهج، وبالمقابل فالمنهج يبلور الرؤية والعلاقة بينها جدلية تفاعلية متبادلة الأثر والتأثير، تبادل تأثير الروح والجسد والعكس، أنهما ظاهرتان متميزتان يتمفصلان، وإن كانتا غير منفصلتين، لا الرؤية تسبق المنهج، ولا المنهج يسبق الرؤية، وكل في فلك يسبحون .

هكذا فهذا المنهج الخاص يفرض علينا التعامل -كمدخل وإرهاص- مع محل الغزو ووعائه، ألا وهو الثقافة كظاهرة إنسانية لها سماتها المميزة وما يتفرع على ذلك

أمور مثل طبيعة الظاهرة الثقافية، آلية عملها، تكوينها، مضمونها، أهميتها، وغير ذلك من الأمور<sup>1</sup>.

ومن جهة أخرى، فالمنهج المتبع يدفعنا للتعامل مع الظاهرة الثقافية كظاهرة حضارية إنشائية تاريخية بعيداً عن أوهام الإيديولوجيا وتشنجها وهوسها، مع التدليل بأن إقصائنا الظاهرة الثقافية عن هوة الإيديولوجيا لا يعني أنها لا تتأثر وتتفاعل بالظاهرة السياسية، وتتأثر بها.

وفي نظرنا إن معالجة الغزو الثقافي يجب ألا تخفي الإشكالية الكبرى التي هي الظاهرة الثقافية كإشكالية فلسفية وحضارية وتاريخية نفهم من منظور ضرورة رنو وتشوف وطموح الإنسان العربي «من خلال مشروع نهضوي كبير» للقبض على حقوقه الإنسانية وممارسة دوره الوجودي وفعله التاريخي الخلاق.

وكما يتضح من نقطة الغزو فهذه الظاهرة قسرية اختراقية، ولهذا السبب فالغزو الثقافي كثيراً ما يقترن بالغزو العسكري.

وإذا كان الاستعمار القديم قد غير سجيته وجلده، فقد ظهر هذا التغيير جلياً من خلال القسر الثقافي، وهكذا فقد طالعنا الأدب الفكري بجهاز مفاهيمي جديد يتفق مع هذه الظاهرة، هذا الجهاز هو الإزاحة أو الإبدال displacement الثقافي الذي لا يختلف عن الغزو الثقافي إلا في المظهر دون الجوهر، بسبب ارتباطه بمفاهيم التطور والتمدن والرمز<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: في التجديد الثقافي، ملاحظات أولية حول مفهوم الغزو الثقافي، مركز دراسات الوحدة العربية، مجموعة مقالات بعنوان الثقافة والمتحف في الوطن العربي 1992، ص 139.

<sup>2</sup> - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 81.

وهكذا يتضح أن هذا المصطلح مدمج بالتقنية الحديثة المعقدة من سمعية وبصرية، غايته تقديم ثقافة جديدة لتحل محل ثقافة محلية تظهر ذاتها في صور وأشكال جديدة غير مألوفة ومتعددة متغلغلة في نسيج الحياة اليومية لتلك المجتمعات المتلقية، كما هو ملاحظ في وسائل الإعلان وأساليبه مسموعاً أو مقروءاً مستخدماً مصطلحات المجتمع المنتج وكيفية استخدامه استهلاكاً وتشغياً<sup>1</sup>.

وليس بعيداً القول إن الدول الأكثر تقدماً تسعى راهنياً وعن طريق امتلاك وسائل الاتصال المتقدم إلى تعميم ثقافة عالمية تتخطى وتجبُ الثقافات المحليّة، أو حتى ثقافات المحليّة، أو حتى ثقافات ذات بعد عالمي لا تمتلك شعوبها مثل هذه التقنية. ولقد اتضح لنا سابقاً أن الغرب يملك 90 بالمائة من قوة الإعلام العالمي، ومع ذلك يرى بعضهم أن هذا الغزو غير مخطط له ولا وجود لمجتمع يخطط لغزو مجتمع آخر ثقافياً، أو لإبدال ثقافته، لأن مثل هذه الخطط يتكلف تنفيذها مبالغ طائلة لا تستطيع أغنى الدول تحمل نفقته<sup>2</sup>.

وهكذا يتضح أن الرأي الأخير نفي وجود غزو ثقافي مخطط له في حين يؤكد الأستاذ ضو «كما سبق توضيحه» ذلك التخطيط، وبذلك تصبح الضرورة ماسة لتلمس تلك الظاهرة ومعالجة جوانبها، وذلك «بالطبع» من الجانب المتصل بالثقافة العربية.

وإذا رجعنا إلى نظرية الأستاذ حرب في الكينونة ومدى الشيء وقوة الوجود، أمكننا القول إن الغزو الثقافي يقوم على الحقيقتين الآتيتين:

■ خواء ثقافي.

■ ملاء ثقافي.

<sup>1</sup> - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 81.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 82.

فهل يتحقق الشرطان على صعيد واقع ثقافتنا؟.

### الغزو الثقافي الممارس على الثقافة العربية:

لقد خرجت الأمة العربية من مخاض العصر المظلم الصعب في نهاية القرن الماضي، وهي أشبه ما تكون سفينة مضعضة تكاد تقوى على الإمساك بأجزائها الرئيسية، ولكن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عما كانت عليه أحوال الأمم المستلبة الأخرى.

وعلى الرغم من ذلك فثمة خصوصية عربية تتلخص بأن هذه السفينة تطفو على محيط يصعب أن تحتويه الحسابات التقليدية<sup>1</sup>.

ولقد لعب الاستيلاء على النقط دور كبير في هذا المضمار، إذ أن هذا السيف الاقتصادي الاستراتيجي جعل الأمة العربية المركز الأول للغزو والتسلل والعدوان الثقافي العالمي<sup>2</sup>.

والسبب الثاني في موضوع غزو أمتنا ثقافياً هو أن هذه الأمة تقبع على تراث ثقافي في عميق وفي غاية من القدم، مما يجعلها غير سهلة الانصياع والانقياد للبدائل الثقافية الدخيلة، وبتعبير أدق فأمتنا أمة لا تتركن إلى تراث ثقافي هش أو رخو غير قادر على النهوض بتأملاتها وأفاقها المستقبلية، لذلك كانت ثقافتها القديمة المتراكمة التي كانت تحتل حضارة متفوقة لقرون عدة كانت تنطوي على

---

<sup>1</sup> - د. محمد الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، مجلة شؤون عربية عدد 80، لعام 1994، ص 169.

<sup>2</sup> - د. عزيز الحاج: الغزو الثقافي ومقاومته، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لعام 1982، ص 11.



عناصر مقاومة وضوابط حواسية تتحسس الطارئ برغم بهرجته وجاذبيته<sup>1</sup>،  
ومما لا شك فيه أن وعي المثقف العربي المعاصر بوجود غزو ثقافي هو شكل من  
أشكال المقاومة.

إن هذا الوعي درجة من الذكاء والدقة التي يستحق بها المراجعة، ذلك أن  
إلقاء الضوء على جوانب هذا الوعي المتنوعة يخدمنا في إعادة تركيبه في صورة  
الغزو الثقافي، كما نتحسسها نحن، وكما نتكهن بأبعادها الكاملة، ومن جهة ثانية،  
فهي تساعدنا على الاضطلاع بمهمة المقارنة بتأملات الثقافة المقابلة، وهي هنا  
الثقافة الغربية، وبالتالي إذا أردنا أن ندرس إشكالية الغزو الثقافي لا ينبغي علينا  
أن نكتفي بآراء المثقفين العرب فحسب، بل علينا أن نرصد أفكار الثقافة الغربية،  
أي علينا أن نتحسس من ما قلنا حافاته كما تطل علينا، إضافة إلى النظر إليها  
من موقع آخر على هذا الأساس سنعرض لوجهة النظر العربية في شقيها المؤكد  
لوجود الغزو، ثم نعقب على ذلك بوجهة النظر المعاكسة.

---

<sup>1</sup> - د. محمد الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص 170.

## وجهة النظر العربية المؤكدة لوجود الغزو الثقافي

في كتابه الغزو الثقافي تحدث الدكتور "عزيز الحاج" عن حرب ثقافية مضادة للعرب ميدانها الصحف والإعلام بجميع أشكاله، أنماط التفكير وأساليب التصرف والحياة، والقيم والمثل والتعليم، أي كل ما يكون التراث والتكوين الفكري والروحي والنفسي للشعب وسلوكه وتقاليده، وطرز حياته، أي كل ما<sup>1</sup> يتعلق بالشخصية الثقافية الوطنية والقومية والهوية الذاتية للمواطن، والغاية من ذلك سلخ المواطن عن عروبوته وطمس قوميته وفرض الغربة والشعور باقتلاع الأصول والجدور<sup>2</sup>.

على هذا الأساس تكلم أحد الباحثين القوميين عما أسماه باستراتيجية الإجهاض العربي<sup>3</sup>.

ويتعمق مخطط الغزو التركيز على حقول هامة هي: انتحال الفولكلور تشجيع اللغة الأجنبية حجرة الأدمغة العربية، الأخذ بنمط السلوك الغربي، نسيان الممتلكات الثقافية المنهوبة، تغليب المصالح الفطرية على القومية وتشجيع الأمية، التسامح في التغريب<sup>4</sup>.

---

<sup>1</sup> - عزيز الحاج: الغزو الثقافي، ص12.

<sup>2</sup> - عزيز الحاج: الغزو الثقافي، ص12.

<sup>3</sup> - مجلة الفكر العربي عدد/70 لعام 1992، مقال بعنوان الشباب العربي وغزو الحضارات، ص64.

<sup>4</sup> - - عزيز الحاج: الغزو الثقافي، ص21.

أمّا "الأستاذ علي فهمي" فقد تناول بعض آثار الغزو المتمثلة في التبعية والتغريب من خلال استقراء أزمة التنشئة الثقافية في الوطن العربي باعتبارها واحدة من أهم أبعاد أشكال الغزو الثقافي<sup>1</sup>.

ولقد نوّه "علم الدين دياب" بالدراسات الاجتماعية الأمريكية ومخاطرها على الأمن الثقافي العربي، فهذه الدراسات لم تترك صغيرة ولا كبيرة في الحياة الاجتماعية العربية، إلا وقامت بدراستها وتحليلها ومعرفة جوانبها المباشرة وغير المباشرة الآنية والمستقبلية، ثم تعمد إلى برمجة نتائجها على شكل آراء ونصائح للمخابرات الأمريكية لتقديمها كوصفات جاهزة وسريعة للحكومات الوطنية لتقوم هذه الأخيرة بالتعامل معها<sup>2</sup>.

وفي هذا الإطار قال العالم الأمريكي "ألفريد دي جراز" رئيس تحرير مجلة العلم السلوكي الأمريكي: من حقّ أمريكا التي ترسل جيشها إلى فيتنام ولبنان وكوريا وغيرها من البلدان، مما يؤدي إلى قتل أبنائها، أن تجمع البيانات اللازمة من هذه البلاد التي تدخل إليها أمريكا لقمع التوترات فيها<sup>3</sup>.

ويشير الأستاذ علم الدين دياب إلى مشروع "فولبرايت" الرئيس الأسبق للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ وغايته إعداد علماء عرب للقيام بالدراسات اللازمة لصالح الولايات المتحدة<sup>4</sup>.

---

<sup>1</sup> - مقاله الموسوم بعنوان الجامعة العربية وإعادة التسمية، شؤون عربية عدد 37، لعام 1984، ص168.

<sup>2</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: الدراسات الاجتماعية الأمريكية ومخاطرها على الأمن الثقافي العربي، مجلة الفكر العربي، عدد 70، لعام 1992، ص59.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص59.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص61.

ولقد ألقى "الدكتور عبد العزيز شرف" الضوء على دور الضخ الإعلامي بقنواته المتعددة في تحقيق أغراض الغزو الثقافي<sup>1</sup>.  
وركز الدكتور "عبد العزيز محمد" على مستقبل الشباب العربي وأظهر مخاطر استقباله للغرب المستورد، ثم تغريبه، وذلك من خلال رصده لأزمة الشبيبة العربية، ومعاناتهم في عصر التغييرات الاجتماعية الجذرية<sup>2</sup>.  
وحاول "الأستاذ أحمد صادق سعيد بلورة" أبعاد جدل الغزو الثقافي مركزاً على ما شهدته الساحة العربية من تصاعد الوعي إزاء الهجوم الثقافي الغربي إبان السبعينات نتيجة التمادي في الانفتاح<sup>3</sup>.  
ولقد تناول "د. نواف عدوان" إمكانيات تحسين وتطوير طبيعة الفخ والاستلاب الإعلامي العربي على سبيل الاعتزاز بالهوية والثقافة القومية، ومن أجل التصدي للتشويه المضاد لتراثنا<sup>4</sup>.

ولقد أكد "د. محمد جلوب فرحان" على أن الاحتكاك الثقافي مع الغرب كان من طرف واحد، حيث العرب مستمعون والغرب هو المتكلم، زد على ذلك فقد تحدث عن مخطط غزو ثقافي يهدف إلى إلغاء وجود الأمة العربية وتخريب ثقافتها، وإلى

---

<sup>1</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: وسائل الإعلام والغزو الفكري في ضوء وثائق الجامعة، مجلة شؤون عربية عدد 37، لعام، 1984، ص179.

<sup>2</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: جامعة الدول العربية ومستقبل الشباب العربي، مجلة شؤون عربية عدد 37، لعام 1984، ص210.

<sup>3</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: وسائل الإعلام والغزو الفكري في ضوء وثائق الجامعة، مجلة شؤون عربية عدد 37، لعام، 1984، ص179.

<sup>4</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: الثقافة المضادة ودور المثقف العربي في الدفاع الوطني العدد 2، لعام 1984، ص192.

توجيه أعلام عربية للكلام عن كل ما هو سلبي في ثقافتنا والغاية من كل ذلك تهشيم الشخصية العربية<sup>1</sup>.

بيد أن هنالك من يؤكد أن هذا الغزو إن لم يكن مدبراً فهو نتيجة إفراس تلقائي للغزو الثقافي الغربي، إنه نتاج عفوي غير مدروس لارتطام حضارة مع حضارة لم تعد تتفوق<sup>2</sup>.

هذه الهشاشة والرخاوة في حياتنا حدت البعض إلى إلقاء اللوم على تلك الهشاشة، والغزو الثقافي عند بعضهم نتيجة طبيعية للتشبع بالثقافة الغربية، وبالتالي فالسعي إلى مواكبة العصر بنقل أفخم ناطحات السحاب ليس سوى إقرار بالانتماء إلى عصور متخلفة، وفي الوقت نفسه فهو تعبير عن عقد النقص والانبهار بمظاهر حضارية عقيمة لا يفهم علاقتها العضوية بأرضها وتراثها، ولعلنا نجد في تركيا المثل الحي لهذه الاستكانة السوداوية<sup>3</sup>.

ويؤكد الرئيس الجزائري الأسبق "أحمد بن بله" على النتائج الوخيمة للاستيراد والاستلاب الثقافي والقضية لديه ليست في امتلاك السيارة، وإنما في صنعها، وإن الإنتاج الاقتصادي هو بالضرورة نتاج ثقافي.

ولا يمكننا أن نتصور عملاً معزولاً عن المحيط الثقافي، وعن فلسفة وتاريخ تطوره، وتبعاً لذلك فالتكنولوجيا تنقل معها تقاليدھا الثقافية الأصلية<sup>4</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. أبو عمشة: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص174.

<sup>2</sup> - الإعلام العربي دوره في التصدي لمخططات المعادية لقضايا القومية، شؤون عربية، عدد3، لعام 1984، ص121.

<sup>3</sup> - د. فكتور سحاب: التراث وأزمة الحضارة العربية، مجلة قضايا عربية، عدد2، لعام 1983، ص171.

<sup>4</sup> - مذكرات أحمد بن بله، جريدة السفير، 1982/2/8، ص11.

ويؤكد الأستاذ علم الدين دياب أنه ابتداءً من عام 1948 أصبح علم الدعاية واغتصاب العقول علماً معترفاً به، وذا أصول وفروع، وهو العلم الذي اكتمل فيه علم السوبر نطيقاً (التأثير غير المباشر) وهي السنة التي تحول فيها الاستعمار القديم إلى استعمار جديد حيث تحولت الدعاية إلى استعمار خفي لتدمير العقول بالمخدرات وغيرها، وفي هذا الصدد يقول "فيكتور بالدريبرج" عالم الاجتماع الأمريكي: ((إن غزو الإمبراطوريات الأوروبية للهند وأفريقيا وجنوب شرق آسيا، كان يستند لستر شفاف من البواعث المعقولة، ولكنه في الحقيقة لم يكن إلا اغتصاباً اقتصادياً وقحاً واسع النطاق))<sup>1</sup>.

ويؤكد "الأستاذ عبد الله العروي" بأن الغرب لا يفرض ثقافته وقوانينه بل آلهته<sup>2</sup>. ويشير "الأستاذ بسام ضو" إلى أن الإمبريالية الإعلامية (الأميركية- الفرنسية- البريطانية) حددت أهداف غزوها الثقافي بما يلي<sup>3</sup>:

- ✓ القضاء على نقطة الاتصال الجغرافي الاستراتيجي (فكرة التجزئة).
- ✓ المداخل والامتدادات البحرية يجب أن تكون خطراً على العرب لا نقاط انطلاق وتقدم.
- ✓ الثروة العربية يجب أن تنتزع من أيدي العرب.
- ✓ القضاء على فكرة الوحدة وعلى جذورها، وتصوير العرب بأنهم شعوباً وليسوا أمة، وتعزيز الكيانية القطرية.

---

<sup>1</sup> - مقاله السابق، ص 77.

<sup>2</sup> - كتابه أزمة الفكر العربي، لوس أنجلس، 971.

<sup>3</sup> - مقاله: قوة الإعلام- الغزو المنقح، ص 32.

والأساليب التي تستند إليها الإعلامية الغربية «وهي متأثرة بنظرية يوزف غوبلز النازي» هذه الأساليب هي<sup>1</sup> :

### 1- التأثير التراكمي اليومي وهو يقسم إلى قسمين:

أ- **الدعاية الموجهة إلى الداخل العربي** : وتقوم بها وكالات الأنباء وشركات التلفزيون والإذاعات الموجهة للعرب وذلك على مدى أربع وعشرين ساعة، وإذا علمنا أن العالم العربي محاصر بثلاث إذاعات رئيسية متكاملة الأدوار هي: الإذاعة البريطانية- إذاعة صوت أمريكا المرتبطة مباشرة بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، إذاعة إسرائيل، ندرك مدى خطورة المادة الإعلامية الموجهة ضد الوطن العربي.

ب- **الدعاية الموجهة إلى الخارج ضد العرب** : وهي مكملة للأولى، وتهدف إلى تشويه صورة أمتنا وتصنيفها في قائمة التخلف، وإذا علمنا أن حوالي ستين مليون أمريكي يقرؤون الصحف في اليوم وبصورة منتظمة، أدركنا مدى خطورة هذه الصحف التي لا تفتأ تنشر الأخبار ضد حياتنا وقيمنا .

### 2- التأثير الآني والتأثير التكويني:

يختار دور الإعلام الغربي إثارة القضايا الاجتماعية والسياسية في المجتمع العربي (المرأة- الزواج- الأسرة- الحرية- الجنس- المرض) وذلك بقصد زرع الوهم كأن المجتمع العربي بتكوينه لا يستطيع الخروج من التخلف ويقصد إبقاء الغرب مثلاً حياً في نظرنا، وبذلك فالإعلام الغربي يقوم على ما يلي:

▪ التأثير الآني لصناعة رأي عام من خلال قضية معينة.

<sup>1</sup> - مقاله: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص32 وما بعدها .

■ والتأثير التكويني في السلوك والذهنية من أجل تحويل هذا الرأي العام إلى

عجينة طيبة بيد الغرب والصهيونية<sup>1</sup>.

ويطرح "الدكتور محمد عابد الجابري" مسألة الغزو الثقافي من خلال ظاهرة العولمة، وفي هذا الصدد يميز بين العولمة والعالمية، فالعالمية تفتح على العالم، على الثقافات الأخرى، مع الاحتفاظ بالخلافات الإيديولوجية، أما العولمة فهي نفي للآخر، وإحلال للاختلاف الثقافي محل الصراع الإيديولوجي.

العولمة globalization إرادة للهيمنة، إنها قمع وإقصاء، أما العالمية universality، فهي الطموح إلى ارتقاء بالخصوصية إلى مستوى عالمي، العولمة احتواء للعالم، والعالمية نضح على ما هو عالمي وكوني<sup>2</sup>.

نشدان العالمية في المجال الثقافي في طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء في التعاون والحوار والتلاقح، إنها طريق الآن للتعامل مع الآخر بوصفه "أناية" طريقها إلى جعل الإيثار محل الأثرة، إما العولمة من إرادة اختراق للآخر وسلبه خصوصيته وبالتالي نفيه من العالم<sup>3</sup>.

وقريب من ذلك رأي الدكتور "عبد الإله بلقزيز"، فالعولمة لديه ليست انتقالاً من حقبة الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عالمية جديدة، بل إنها تظل "اغتصاب ثقافي وعدواني رمزي" وهنا يجب التمييز بين المثاقفة التي تعني الحوار بين الثقافات والاعتراف المتبادل بحق الاختلاف، باعتباره من أقدم حقوق الإنسان

---

<sup>1</sup> - بسام ضو: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص33.

<sup>2</sup> - د. محمد عابد الجابري مقالته الموسوم بعنوان: العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، عدد 228، لعام 1998، ص170.

<sup>3</sup> - مقالته الموسوم بعنوان: العولمة والهوية الثقافية، ص170.



من ناحية، والعنف الثقيل الذي ينطوي على الإنكار والإقصاء لثقافة الغير وعلى الاستعلاء والمركزية الذاتية في رؤية ثقافته<sup>1</sup>.

وفي مقالها الموسوم بعنوان: الوطن العربي وأجنحة الغزو الإعلامي الجديد<sup>2</sup>، تحدثت "ماجدة موريس" عما يسعى بحرية الإعلام أو حرية التدفق الإعلامي بين دول العالم لتؤكد أن تلك الحرية خرافة وأن ترك الأمور على اعتقها بالنسبة للحرية الإعلامية هو نوع من الانتحار البطيء في أعز ما نملك من رصيد القيم الأصيلة والتراث والمقومات الحضارية. وكشفت عن نقطة هامة هي أنه اتضح للأمم المتحدة الأخطار الفاحشة الناجمة عن تطبيق مبدأ حرية التدفق الإعلامي في العالم، حيث تراجعت عن موقعها من ذلك المبدأ.

لكن لماذا سقط مبدأ حرية التدفق الإعلامي، ومن ثم انعدام العدالة الإعلامية؟؟ تجيب عن ذلك "ماجدة موريس" بتأكيداتها الحقائق الآتية:

- 1- سيطرة الدول المتقدمة على 80 بالمائة من حجم الأنباء المتداولة في العالم.
- 2- سيطرة تلك الدول المتقدمة على وكالات الأنباء العالمية الكبرى.
- 3- سيطرة الدول المتقدمة على أقمار الاتصالات الفضائية.
- 4- سيطرتها على 90 بالمائة من الترددات الإذاعية.

على هذا الأساس فقد قرر الاجتماع الذي عقده اليونسكو عام 1968 لخبراء استخدام الاتصالات الفضائية للأغراض الإذاعية: فقد قرر ما يلي:

---

<sup>1</sup> - عرض لهذا الرأي: مجدي حماد في مقاله الموسوم بعنوان: ندوة العرب والعمولة، مجلة المستقبل العربي، العدد 228، لعام 1998، ص 175.

<sup>2</sup> - مجلة قضايا عربية، أيار، 1980، ص 142.

الحاجة إلى حماية حقوق المشاهدين سواء على المستوى الفردي، أم على المستوى الجماعي، ومراعاة تراثهم الثقافي<sup>1</sup>.

وفي عام 1972 أصدرت الجمعية العامة المبدأ الآتي: يجب على الدول التي تأخذ في اعتبارها حرية تدفق الإعلام أن تعمل على توقيع اتفاقيات تهتم بالإذاعة عبر الأقمار الصناعية لسكان دول أخرى عبر الدول التي تبث الإرسال المباشر<sup>2</sup>.  
ولقد أوضح رئيس اتحاد الإذاعات العربية عام 1972 حاجة العالم العربي إلى هذه المعرفة، وهي الحاجة التي تستدعي بالضرورة استعمال الأقمار الصناعية، ولكن هذه الأقمار ملك الدول المتقدمة وهذا ما يحول دون معرفة العالم العربي لنفسه<sup>3</sup>.

ولقد حذر رئيس الاتحاد المذكور من أمركة العالم ويتساءل قائلاً: ((لماذا يقف العالم العربي صامتاً إزاء ما هو موجود في الحاضر من غزو إعلامي؟ إننا بالفعل قلقون تماماً من أن يؤدي التهاافت على الإذاعة عبر الأقمار الصناعية إلى طغيان أقلام رعاة البقر، وبرامج مثل أحب لوسي، إننا لو نظرنا إلى الحاضر نظرة متأنية لروعنا من مظاهر الغزو الإعلامي المتدفق على شاشاتنا كل ساعة))<sup>4</sup>.  
وكنموذج تفصيلي حول تدفق البرامج الأجنبية بالتلفزيون العربي فإن مصر تستورد سنوياً 2500 ساعة من البرامج تلقتها من الولايات المتحدة، وتتابع "ماجدة موريس" حديثها عن الجناح الأول للغزو الإعلامي المتمثل في الغزو

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 144.

<sup>2</sup> - مجلة قضايا عربية، أيار، ص 145.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، 1980، ص 142.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 148.

الإخباري وآليات التي يقوم عليها، من ذلك على سبيل المثال مجاهد الأحداث الإيجابية المؤثرة في حياة الشعوب والعكس بالنسبة للأحداث المتعلقة بالدول المتقدمة<sup>1</sup>.

وتكشف "ماجدة موريس" عن المادة الدرامية التي يبثها الغرب متمثلة في الإنسان الغربي الخارق (سوبر مان) أو خلق حالة الانبهار والإثارة في الإنسان العربي البسيط<sup>2</sup>.

وفي إحصاء لعدد المسلسلات التي عرضت بالتلفزيون المصري لعام 1979 اتضح أن هذه المسلسلات تدول حول الدراما ورعاية البقر والخوارق والأعمال البوليسية<sup>3</sup>.

وتتهي "ماجدة موريس" حديثها بالتأكيد على أن هذا الغزو الإعلامي يهدد بتحول خطير يرسخ أفكار التخلف عن العالم النامي في هذا العالم نفسه، كما يصل إلى درجة التشجيع التام لأفكار الغزو الإعلامي لدرجة التأثير على الكتاب المحليين في أفكار البرامج وأشكالها في بلدانهم، ومن هنا يتضح السيطرة الثقافية مباشرة من خلال الحلقات المصدرة إلى العالم النامي وغير مباشرة من خلال الحلقات المصنوعة بأيدي أبناء العالم النامي<sup>4</sup>.

ولقد أدلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو العربي) دلوها في هذا الموضوع، فأصدرت عدّة قرارات وتوصيات بشأن الغزو الفكري، حيث أكّدت على لسان رئيسها الدكتور "محي الدين ضياء" ما يلي: ((الغزو الفكري عن طريق

---

<sup>1</sup> - مجلة قضايا عربية، أيار، ص 149.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، 1980، ص 150.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 150.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 154.

الحلقات التلفزيونية موضوع ليس عاجلاً واتخذنا عدّة قرارات وتوصيات بشأنه بشكل عام، ولكن الموضوع متوقف على التنفيذ، وهي في اعتقادي مسألة إمكانياته، ودولة فقيرة لا تسمح إمكانياتها بالإنتاج، ولكن الرجل السوبر مان أو الخارق هذا لا يتم سوبرنته «جعله سوبرمان»، ولكنها مع ذلك مشكلة بلا حل، نوع من قصور الإدراك لمدى خطورتها، وهي عملية معقدة وتحتاج إلى ترشيد<sup>1</sup>. ولقد كشف "الأستاذ محمد سعيد" الفناع عن وثائق العقد الدولي للتنمية الثقافية/1988-1997/ وربط هذه الوثائق عن الغزو الثقافي بعوامل استيراد الخدمات والسلع المادية والأنماط الاستهلاكية<sup>2</sup>.

ولقد تحدث "الأستاذ مضية" كثيراً عن ثقافة الإمبريالية وحرصها على نشر قيم الاستهلاك والقيم المتبدلة والساقطة، وتسفيه الأذواق والقيم الاجتماعية من أجل بلورة شرائح طفيلية تابعة، ثم السعي الدؤوب لخلخلة عناصر الكتاب القومي من خلال تصدير الأذواق والعادات الاستهلاكية<sup>3</sup>.

ويشير "الدكتور عبد الرحمن منيف" إلى النتائج المترتبة على تزايد الاتصال في العالم، وذلك في تزايد واتساع التعامل مع الإعلام والثقافة من منظور يعزز السيطرة والفرص وخلق النموذج الذي يجب أن يسود، وبالتالي فإن الطرف المتقدم والمسيطر اقتصادياً وسياسياً يمارس هيمنة في الجانب الإعلامي إلى حد كبير في الجانب الثاني، إذ منه تضخ الأخبار والأفكار والنماذج في شتى المجالات، ويتحول الطرف المتخلف مجرد متلق ومستهلك، الأمر الذي يجد له يوماً بعد يوم

---

<sup>1</sup> - مجلة قضايا عربية، أيار، 1980، ص155.

<sup>2</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني، مجلة الطريق، عدد4، لعام 993، ص45.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص54.

امتداداً ووعاء لما يريده الطرف المتقدم وبالتالي نجد أن الاتجاه نحو إلغاء التعددية وفرض النموذج الأمريكي وإلغاء كل ما عداه<sup>1</sup>.

ويحاول الدكتور "حامد خليل" إبراز أهم الاتجاهات السائدة بين بعض المفكرين السياسيين في المجتمع السوري فيحددّها فيما يلي:

**1- اتجاه شكلائي:** وقد تنكر المتأثرين به لعاداتنا وتقاليدينا المتوارثة وانجرف في تقليد الغرب في أنماط السلوك اليومية ذات الصلة بحياة الفرد الشخصية، وكذلك تعامله الشكلائي مع الآخرين.

**2- اتجاه أيديولوجي:** وقد تمحور الغزو عند أصحاب هذا الاتجاه في نقطة أساسية هي استيراد الأفكار تحديداً الأفكار الاشتراكية، وما تحمله من منظومة قيمية جديدة تمس بقيم العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة في الصميم.

**3- اتجاه ديني:** يرى أن ثمة غزواً ثقافياً يخطط له بإتقان، وهو يهدف إلى تدمير الإسلام<sup>2</sup>.

وفي نظر الدكتور "مصطفى عمر التير" أن الثقافة العربية تقف أمام تحدٍّ كبير هو في حد ذاته صراع وجود متأت من غزو ثقافي كاسح تشنه الثقافة الغربية<sup>3</sup>.

أما الأستاذ "جلال أمين" فيتعامل مع هذا الغزو من زاوية العولة حيث يصفها بأنها ظاهرة تفكيكية تهدف إلى انتزاع الفرد من وطنه وأسرته وبيئته ناظرة إليه كمقولة

---

<sup>1</sup> - صحيفة البعث السورية، تاريخ 1996/5/28، عدد 10033.

<sup>2</sup> - المرجع السابق.

<sup>3</sup> - مقاله الموسوم بعنوان: الثقافة العربية والغزو الثقافي في صراع وجود، مجلة شؤون عربية، عدد 15، لعام 1996، ص 46.

اقتصادية Momo- économique ليس إلا، وفي الوقت نفسه يؤكد الأستاذ جلال أمين بأن مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي تطرحه إسرائيل ما هو إلا عوامة مصغرة<sup>1</sup>.

## 2- ضرورات التعامل من منظور الأمر:

"الرأي المنكر لوجود الغزو"، السؤال المطروح هو: هل هنالك غزو ثقافي مخطط ومدروس، أم أنه مجرد ابتكار وإدعاء ثقافة تريد أن تبرر تدينها، وتراجعها أمام متغيرات العصر؟

هل إن هذا الغزو ناتج عرضي وتلقائي متأت من الضخ الثقافي والحضاري والتجاري المرافق لآليات هيمنة كيان غربي سبقنا علمياً وحضارياً؟

إذا استثنينا عدداً قليلاً من الكتابات العربية ومنها كتاب "إدوار سعيد" الاستشراق- تغطية الإسلام لا يجد المرء بحثاً عربياً كافياً يلامس موضوع الغزو من حافته الغربية، كما هي موجودة في قعر الذهن العربي، وليس من المبالغة القول إن الموضوع أشبه ما يكون بجبل الجليد الطافي في المحيط، إذ لا يظهر أمام الناظر إلا الجزء الصغير منه، بينما يكون الجزء المغمور أكبر بكثير جداً من المرئي، ولهذا نحتاج إلى من قادر على أن يغوص في أعماق الثقافة الغربية للتقريب فيها، ومن ثم فإذا ما تكهنا بوجود غزو ثقافي مدبر في مؤسسات غربية ذات مصالح معينة، فهذا يعني أن هنالك عملية غزو يتم تخطيطها في الكتمان وفي مختبرات سرية، وهي تحتاج إلى نفس طويل وعمل شاق، ومتابعة مرضية<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - مقاله العوامة والدولة: مجلة المستقبل، العدد 228، لعام 1998، ص 35 و 36.

<sup>2</sup> - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 176.

وبالطبع فنحن لا نقدم وجود أكثر من رأي، ويبقى التخطيط لمسألة هذا الوعي، ونحن سنكتفي في مواجهة هذه الكثرة الكاثرة من الآراء بعرض رأينا الخاص.

### 3- موقف الغرب من الثقافة العربية:

وحقيقة الأمر أن أي فهم للغزو الثقافي يجب أن لا يغفل الأوليات التي ظهرت أثناء العصر الذهبي لحركة الاستعمار وبالتالي فالغزو الثقافي والتجاري هما البوابة الرئيسية للغزو الثقافي، ذلك أن الغاية التي اضطلعت بها الثقافة الغربية أدركت العلاقة بين العروبة والإسلام، والمسألة التي شغلت بال بناء الإمبراطوريات الغربية هي محاولة نسف الإسلام باعتباره عمود الثقافة العربية ومرتكز فاعليتها<sup>1</sup>. هكذا دار الجدل في الغرب حول ما إذا كان الغزو يجب أن يقتصر على مظهره العسكري، أم يجب أن يسبقه تبشير ديني<sup>2</sup>.

على هذا الأساس ذهب المبشرون إلى ضرورة استثمار الاحتلال على سبيل نشر دين أوروبي لا يحل محل الإسلام ويلغي دوره الحضاري للاحتلال الأجنبي فحسب، بل يضمن للمحتل أجواء فكرية ومعتقدات روحية تجعل من عملية ضم المستعمرات عملية مرتكزة إلى ضرورة تاريخية لا مناص منها<sup>3</sup>. وفي نظر الكثير من الغرب أن العقل العربي تأسس على الشعوذة والخرافة والغيبيات وهو عقل ينزع إلى اللا علمية وإلى أفكار النصب والتجسيم والقدرية، وبعبارة أخرى فهو غير قادر على العقلنة والتمنطق الجدلي<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - د. محمد الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص 176.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 177.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 179.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 179.

وهذا هو رأي المستشرق "رينان" و"الكونت غوبينو" وغيرهما من أتباع الأسطورة الآرية كما يتضح من قول "غوتة": ((إن ممتلكات العرب الخاصة هي الخيمة والعمامة والكيف، ولقد اقتبس الكاتب الانكليزي "ميو" هذه المقولة مضيفاً إلى ذلك ثالوث غوتة (الحكاية) كنوع من الكرم والإسداء))<sup>1</sup>. ولا يبتعد أبو الاستشراق الأمريكي "رالف أوستون" عن هذه الأفكار بقوله: ((إن الدين والشعر هما حضارة العرب))<sup>2</sup>. وذهب "ميو" إلى أن الخرافات والخيال حولت أرض العرب إلى جنسيتان (أرض الجن)<sup>3</sup>.

لقد تمادى الغرب في تشويه التراث العربي الإسلامي، وتبعه الاستعمار الاقتصادي في ذلك، كما هبّ تلامذة هؤلاء وهم من العرب إلى ذلك، وهذا ما أكده رجل الأدب المفكر البريطاني اللورد ماكوللي في خطابه الافتتاحي في كلية غلاسكو، قال المذكور: ((لقد تمّ تأسيس مجتمعكم قبيل اضمحلال إمبراطورية الشرق «بالخلافة العربية» تلك الإمبراطورية التي ربطت بين عصري الاستتارة العظمى، فقد حافظت وسط البربرية على تلك الأعمال العظمى للعنصرية الأوروبية، تلك الأعمال التي لم تزل موقع تأمل أسمى العقول))<sup>4</sup>.

وتأخذ عملية الغزو على التراث العربي معالجتها في خطاب "اللورد ماكوللي" التي كان موظفاً في الإدارة الإمبراطورية في الهند، وبالطبع فغاية هؤلاء الذين يعملون في

---

<sup>1</sup> - د. محمد الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص 179.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 179.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 180.

<sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 180.



الإدارة الإمبراطورية هي مخاطبة أبناء الأمم المغلوبة لتثبيط همهم، وفك ارتباطهم بثقافة أمتهم بإيجاد بديل ثقافي.

ولا يقتصر الأمر على إضعاف الثقة بلغتنا، بل يتعداه إلى إلغائها، وذلك بإعداد وتنمية من سكان البلاد تعتنق الثقافة الغربية ويتضح مما سبق أن هذه الآلية في التفكير ترنو إلى نقض ثقافتنا عروة عروة، وهدمها لبنة لبنة، وهي آلية لا تزال قائمة وقابضة في قعر الضمير الغربي.

في كتابه الذائع الصيت التاريخ مستنكراً مستعاداً مخترعاً يقدم "برنارد لويس" البيئة على استمرار الفكر الغربي الاستعلائي، وهكذا فهو لا يكتفي بتسفيه تراثنا، بل التأكيد على أننا لا نملك ثقافة قومية ذات أصول ثابتة تؤهلنا لامتلاك هوية<sup>1</sup>.

وأبعد من ذلك فالمذكور يذهب إلى أن الأمم الآسيوية والإفريقية لا يملكون أي وعي بوجودهم وبالتالي فأوروبا فقط بين القارات الثلاث هي التي تمتلك نوعاً من كيان تاريخي، وهو كيان يقوم على ثقافة مشتركة مستقاة من جذور إغريقية رومانية يهودية، وهذه الثقافة تقوم على كيان في شعور مشترك يهودية متفردة وتختلف عن هويات بقية العالم<sup>2</sup>.

وهكذا «والقول لـ "برنارد لويس"» فأوروبا ذات الهوية الثقافية هي الكيان الذي يمتلك عقلاً... إذاً فالطريق سالكة لغزو الثقافة الغربية لثقافتنا.

وهكذا فهناك-فالرأي للدكتور الدغمي- غزو ثقافي محسوس من ناحية ثقافتنا، ونصف مدبر ونصف تلقائي من ناحية ثقافة الغرب التي تحيا أوج تأثيرها بسبب التقدم التقني والمادي، وإن كان يجب عدم التماذي في كيل الاتهامات جزافاً للثقافة

---

<sup>1</sup>-Bernard Lewis: History remembered, recovered, invented, Princeton University Press, 1973, p1100.

<sup>2</sup>- د. محمد الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص182.

الغربية، بل الأرجح أن تدبير الغزو الثقافي وتخطيطه حقيقة موجودة، ولكنها من ناحية أخرى ليست بهذه الدرجة التامة التي يصورها بعض الكتاب العرب<sup>1</sup>.

وقريب من الرأي السابق، رأي "الدكتور عدنان أبو عمشة" بأن الدول المتقدمة تعمم ثقافتها عبر وسائل الاتصال الهائلة التي تمتلكها، وهذا التعميم يحدث بصورة تلقائية وبإفراز طبيعي لتقدمها وليس إعمالاً لتخطيط مسبق مصمم عليه ومدبر له<sup>2</sup>.

وفي إطار هذا السياق ينتقد "الدكتور أبو عمشة رأي الدكتور عبد الرحمن منيف" السابق الإشارة إليه مؤكداً:

((إن الدكتور منيف يتعامل مع عناصر الثقافة التي تكتسب عن طريق التعلم الحاصل بالوسائل السمعية والبصرية، لا سيما الجماهيرية منها، وهي بعض مظاهر الثقافة، وليس المهم فيها، والتي هي روح الجماعة وصورة حياة المجتمع المشكلة لشخصيته وهويته القومية التي يصعب إعادة بنائها من بعيد وعلى نحو مقصور ومخطط له))<sup>3</sup>.

ويضيف "الدكتور أبو عمشة" أن نسبة حصة حالي السمع والبصر لا تبلغ الخمسين بالمائة عند المهتمين بموضوع التعليم، وهؤلاء يشكلون نسبة قليلة من مجموع السكان.

---

<sup>1</sup> - د. محمد الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي ص 182.

<sup>2</sup> - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 182.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 84.

وفي نظر "الدكتور كمال عبد اللطيف" إن هنالك تهويلاً في أمر الغزو الثقافي وأنه كلما قرأ الدراسات العربية حول ذلك كلما ازداد تصوره أن هنالك مؤامرة كبرى، وغالباً لا نستطيع تبين ضد من تحاك تلك المؤامرة<sup>1</sup>.

ويتابع "الدكتور عبد اللطيف": ((إننا عندما نستعمل مفهوم الغزو في هذا المستوى نحول الموضوع من قضية تتعلق بجبروت إرادة تاريخية مادية إلى شعار فارغ... لنبحث بدل هذا الشعار عن شروط وملابسات هذا الفعل التاريخي لنفكر في الضمانات وفي الغزو وفي موضوع الغزو، وقبل ذلك لنقول إن مفهوم الغزو الثقافي هنا بالذات لا يعبر في نظرنا عن حرب داخل دائرة الصراع السياسي الثقافي العالمي. إننا عندما نتحدث عن هذا الغزو الثقافي تعلق المشاكل الثقافية فوق مشجب الآخر وليس أنفسنا)).

بحقيقة الأمر فهذا الغزو يشبه إلى حد بعيد الحركة الشعبية التي برزت إبان العصر ذهبي ولكن الشعبية رغم أساليبها لم تتمكن من نسف ثقافتنا وقدرتها التولدية والإنتاجية وبالمقابل فثقافتنا نادرة على الصمود ومواجهة الصعاب وإن مسببات الغزو الثقافي هي حد بعيد تنتمي إلى الأساليب الاستهلاكية والأنماط السلوكية التي يضخها الغرب إضافة إلى إهمال توعية شبابنا بالجوانب المشرقة من ثقافتنا.

إن تيار الشخصية الثقافية رهين بترصين المناعة الأخلاقية والروحية والسلوكية لدى شبابنا وترصين الذات يقتضي حمايتها من الأخطار الخارجية ومن هنا نشأ مفهوم جديد قديم هو الأمن الثقافي فما هو هذا المفهوم.

---

<sup>1</sup> - مقاله المنشور في كتاب الثقافة والمتقف، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لعام 1992،

## الأمن الثقافي

إن أية حماية للمجتمع في أساسياته الاجتماعية والاقتصادية والخلقية، إنما تقتضي الحديث عن مقومه الثقافي الذي هو النظام العام الثقافي، وإن حماية هذا النظام العام هو موضوع الأمن الثقافي مع التنويه بأنه ما من جماعة اجتماعية إلا ولها أساسيات ومقومات، وبالتالي عليها أن تقبض على المضادات الحيوية (الأنثوييك) وتضع الاستراتيجية الثقافية العليا لمواجهة أية صورة من صور العداء<sup>1</sup>.

وبالطبع فظاهرة الأمن الثقافي تقود إلى ظاهرة القسر الثقافي لأن الطرف الآخر يملك القوة بشتى ضروبها، كل ذلك من أجل نشر قيمه وأفكاره، هذا فضلاً عن أن الثقافة أصبحت سلطة أو صناعة تستدعي الربح<sup>2</sup>.

ويرى أحد المفكرين أن الأمن الثقافي العربي يقوم على عدة مطالب تتمحور كلها حول الإنسان العربي، باعتباره المبتدأ والمنتهي وقاعدة كل عمل ثقافي<sup>3</sup>.

ومع ذلك فهناك أمور تتعلق بالظروف الموضوعية الملائمة لتجسيد هذا الأمن، على ضوء ذلك تتحدد مفردات ومقومات الأمن الثقافي في الأمور الآتية:  
مطالب الأمن الثقافي: هذه المطالب تدور حول الإنسان العربي باعتباره المفتاح وقاعدة الأساس لأي هدف.

---

<sup>1</sup> - لهذه المهمة على صعيد الوطن المجزأ تضطلع بها جامعة الدول العربية، وأبرز ما حققه في هذا المضمار.

<sup>2</sup> - الخطة الشاملة للثقافة العربية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ط2، 1990، ص140.

<sup>3</sup> - - المرجع السابق، ط2، 1990، ص140.

والغزو الثقافي شل فاعلية الإنسان العربي وقدرته على المقاومة: بوساطة القيم الاستهلاكية وغيرها التي استجيب لرغباته وحواسه وامتعه البهيمية والآلية والسطحية، مبعدة إياه عن هويته وإبداعه وقدراته الذاتية، ولهذا السبب كان الإنسان العربي هدفاً رئيسياً للأمن الثقافي بحيث يتجه هذا الأمن للحفاظ على هويته وجعله يعتز بها، ويحافظ عليها وينطلق، كما يعني إعداده للانسجام في الإنسانية، والمحاور التي تتعلق بعملاقة الإنسان وتجزيره هي<sup>1</sup>:

أ- منظومة الحقوق: الوطن الحر يقوم على المواطن الحر، ومن ثمّ فإحياء الغزو هو إحياء الأمة وقتله يعني قتلها، قال تعالى: ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ المائدة/32.

وهكذا فالإنسان العربي لا يمكن أن يتعمق ويتجوهر إلا إذا تمتع بمنظومة الحقوق والحريات العامة التي تجعله آمناً في سرية وحياته متحلياً بأنساق الحقوق قاصدين من منظومة الحقوق كافة الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية وغيرها على هذا الأساس فإن أي حديث عن التنمية الاقتصادية لا يمكن أن يتم إلا من خلال تنمية كافة مواهب الإنسان بما في ذلك البناء الحقوقي. وهذا الحديث عن مقومات الإنسان يقودنا إلى مقومه الثقافي، وهذا المقوم لا يمكن أن يوضع ويؤتي أكله إلا بترشيد المواطن وعقلنته، ومنحه كافة حقوقه العقلية بما في ذلك حق النقد وإعطاء الرأي بكل صراحة ووضوح وجرأة، مبعدة إياه عن الاستلاب والاعتراب والتبعية والمديح.

---

<sup>1</sup> - سمير روجي الفيصل: العمل الثقافي العربي المشترك، شؤون عربية، عدد 82، لعام 1995، ص46.

والشيء المؤسف له أن هنالك فراغاً كبيراً في مقومات الإنسان العربي وروحه وعقله الذي لا يملأه إلا الخواء والفراغ، فهو مهزوم من الداخل، فكيف نطالبه إذاً أن يهزم ذلك الغزو الثقافى الذي يحيط به كقطع الظلام<sup>1</sup>. والمطلب العاجل للملح لمعالجة هذا الخواء هو الملاء، أي توفير الحقوق المعنوية له من أجل إحيائه وربطه بأمتّه، وهذا الأمر يتم من خلال بناء رأي عام مستتير حول أخطار الغزو الثقافى.

ب- تأهيل الإنسان العربي: والمقصود من ذلك إعداده لمواجهة متغيرات العصر التقني من خلال هويته وخياره وتجده الحضاري، ولقد حددت الخطة الشاملة للثقافة العربية المعدة من قبل الجامعة العربية، هذه المهمة بقولها: استيفاء القدرة الذاتية، وإبراز الخصائص الحضارية والاستعانة على ذلك بقومية المعرفة وتكاملها بين الأقطار العربية<sup>2</sup>.

ولا يمكن استيفاء القدرة الذاتية، وإبراز الخصوصية الحضارية إذا لم تنجح التربية في تحديث مناهجها بحيث تضع لنفسها هدفين: تربية التفكير العقلاني والمبادرة الذاتية<sup>3</sup>.

ولا شك أن القهر سبب رئيس في دفع الإنسان العربي إلى التشبث بالتفكير اللاعقلاني بغية المحافظة على أمنه وسيطرته على حاضره<sup>4</sup>.

---

<sup>1</sup> - مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط2، لعام 1980، ص116.

<sup>2</sup> - الخطة الشاملة للثقافة العربية، ص142.

<sup>3</sup> - د. سمير روجي الفيصل: العمل الثقافى العربي المشترك، ص49.

<sup>4</sup> - مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المقهور، ص143، وقد قدم تحليلاً جيداً لمحاولات الإنسان العربي السيطرة على حاضره.

ولا شك أن هنالك أموراً كامنة وراء التخطيط للقهر هي الرغبة المدروسة في القضاء على الإنسان العربي من خلال إبعاده عن التعامل العقلاني في أموره وأمور الآخرين في مجتمعه.

وحيال هذه السلوكيات اللاعقلانية، فالإنسان العربي لا يمكن أن يواجه روح العصر الحديث بأفاهه الفنية إلا بالعقلانية، وآلية تحقيق ذلك بالتربية السليمة، إذ الواجب أن تقترن الخطة الشاملة للثقافة العربية التي أعدتها الجامعة العربية باستراتيجية تربوية عربية يكون عمادها إعداد العقل وترشيده وترصينه لمواجهة النهج العصري، أي دخول العصر الحديث من أوسع الأبواب.

ج- إرادة التغيير: المطلب الثالث للأمن الثقافي هو إرادة التغيير لدى الإنسان العربي، من أجل الانخراط بأفاق العصر الحديث وصدى الإرادة لا يتمثل بالتصرفات التي تذاع أو بالقرارات التي تتخذ وتنتشر، وإنما بالصدق والالتزام والعزم على التنفيذ، وهذه الإرادة جزء أساسي من الشخصية العربية الجديدة لأنها صادقة في النهوض من التردّي وحافز على العمل والسلوك الحضاري، وتوق للخلاص من القهر والذل والحياة على هامش العصر والإحساس بالخطر الذي يهدد الذات العربية، والوعي بمصدر هذا الخطر داخلياً وخارجياً والتصميم على مواجهته.

وإرادة التغيير ليست أمنية ولا شعاراً ولا قراراً ينتظر من السلطة أن تتخذه بل هو موقف ذاتي جماعي قد لا ترضى عنه السلطة، وكيف ترضى عنه والموقف الذاتي الفردي قد يتحول بسرعة إلى موقف جماعي.

ولقد انطوت الخطة الشاملة الصادرة عن الجامعة العربية على هذا الموقف من إرادة التغيير بقولها: إغناء شخصية المواطن العربي لتأكيد وعيه بعقيدته وبيئاته وبحريته وكرامته وقدرته على مواكبة التطور الإنساني المعاصر والمشاركة الفعالة فيه<sup>1</sup>.

### الظروف الموضوعية للأمن الثقافي

هناك معايير متعددة توفر الظروف الموضوعية للأمن الثقافي، ولكن هذه المعايير هي: الإبداع - تخليص المواطن من التبعية والغزو والعمل على تماسك وعيه بهويته وعقيدته وحريته على تنمية الثقافة العربية<sup>2</sup>.

وتتحقق هذه الغايات بالآليات الآتية:

1- الأجهزة الثقافية الاختصاصية: يمكن القول إن الأمن الثقافي العربي يحتاج إلى بنوك للمعلومات يتوافر فيها المعارف، بحيث تجلب المعرفة وتخزنها ثم توزعها على المحتاجين إليها من أفراد ومؤسسات، ومن هذه الأجهزة على سبيل التعداد: المركز القومي للمعاجم - المركز القومي للتراث - المركز القومي للتحديث الثقافي - المركز القومي للإبداعية العملية - المركز القومي للصناعات الثقافية<sup>3</sup>.

2- الصناعات الثقافية: يقصد من ذلك الصناعات الخاصة بوسائل نشر الثقافة وإنتاجها كالإذاعة والتلفاز وآلات الصناعة والورق والحبر وآلات الموسيقى والأدوات الهندسية، وغير ذلك.

---

<sup>1</sup> - د. قسطنطين زريق: مطالب المستقبل العربي، ص 11.

<sup>2</sup> - سمير روجي الفيصل: العمل الثقافي العربي المشترك، ص 5.

<sup>3</sup> - الخطة الشاملة للثقافة العربية، ص 73.



ذلك أن هذه الصناعات الثقافية أصبحت «وستصبح في المستقبل القريب» أداة فعالة من أدوات الحصار الثقافي لأمتنا، وسلاحاً جديداً فعالاً لإخضاعها لمآرب الدول الكبرى وهيمنتها الثقافية، إذ أن هذه الدول «كما هو معلوم» تنتج ورق الصحف والكتب وآلات التنفيذ، وفي إمكانها رفع أثمانها، وحجب بيعها عنا، والأمر نفسه بالنسبة إلى أجهزة الإذاعة والتلفاز والموسيقى والهندسة وغير ذلك، إذ التبعية تقاس بمقدار ما تستورده من الأجهزة التي تنشر الثقافة وتنتجها .

3- الحوار الثقافي: وبالطبع فالأمن الثقافي لا يعني أن تنعزل ثقافتنا عن العالم، وأن تتخلى عن مضمونها الإنساني النبيل، بل «وانطلاقاً من الهوية» يجب الإسهام في الحضارة العالمية وتحويلها من اتجاهها المادي إلى اتجاهها الإنساني السامي. ومن البديهي أن تتجه أنظار العرب إلى الحوار الثقافي مع إفريقيا وآسيا ودراسة استيعاب تجاربهما الغنية كالتجربة الصينية واليابانية وغيرهما، وأن نخص بالاهتمام الدول التي ترتبط معنا بروابط إنسانية، ولقد أسهمت جامعة الدول العربية إسهاماً واضحاً في الحوار الثقافي مع إفريقيا، وهكذا فقد أنشأت معهد الخرطوم الدولي للغة العربية عام 1974 بغية إعداد الاختصاصيين في تعليم اللغة العربية، كما أنشأت صندوق تنمية الثقافة العربية في الخارج عام 1970 . وحقيقة الأمر أن الحوار الثقافي العربي الإفريقي ضرورة ملحة لتكوين قاعدة متينة للأمن الثقافي ذلك أن الثقافة العربية لا تهدف إلى السيطرة على الثقافة الإفريقية لسبب بسيط هو نزوع ثقافتنا الإنساني، وهذا ما يهيب بالمتقنين الحوار والتماسك أمام الزحف الثقافي المتدفق من الغرب.

## تقديرنا لموضوع الغزو الثقافي

إن انكشاف الجذور وانهارها أمام ثورة الاتصالات ووسائل الإعلام والمعلوماتية، دعم هيمنة الدراسات الأمنية، وسع مدى استثمارها، وأصبح التعلق المرافق للخوف من الهيمنة والاستلاب والتهمجين وحتى الاضمحلال تزداد حدة بقدر ما تزداد هيمنة الأنماط مجددة من السلوك والقيم، تتسم بالعالمية، ولكنها تشير في نهاية المطاف إلى غلبة نموذج محدد هو نمط الحياة الذي أنتجته الثقافة الغربية.

وعلى ضوء ذلك يغدو التعامل مع مفهوم الهيمنة يتجاوز الصراع الإيديولوجي، إذا الهيمنة «باعتبارها مؤسسة على جملة من الشروط الموضوعية والوقائع المادية» ليست مفهوماً فورياً، بل هي ممارسة فعلية للنتائج التي ترسبها مسارات الصراع السياسي والعسكري والثقافي.

أما الرفض الذي تمارسه الجماعات لمفهوم الهيمنة، فهو موقف أولي دفاعي يستطيع أن يستفز أوليات الذات وفعاليتها، ولكنه يحتاج إلى العقلانية والموضوعية ليؤسس على هذه الأوليات مواقف فاعلة تتجاوز حدود ردود الفعل نحو إنجاز الفعل، وتتيح للذات أن تتعامل مع الآخر من موقع يعي جيداً التطور اللا متكافئ ما بين الذات والآخره ولكنه يستتير هذا الوعي لإيجاد تقاطع مستمر ما بين الذات والآخره على قاعدة الثبات والحركة التي تتصف بها عناصر الثقافة المحلية<sup>1</sup>.

وفي زمن عربي يتسم بالتراجع الحاد أمام الهجوم الساحق للنظام العالمي بكل أبنيته السياسية والاجتماعية والثقافية يبدو الارتباط العضوي ما بين البناء الوطني ومفهوم الأمن بمعناه الواسع أشد وأعمق مما يجعل الثاني شرطاً للأول

---

<sup>1</sup> - د. فهمية شرف الدين: الأمن الثقافي للوطن العربي، مجلة الفكر العربي، عدد 70، لعام

بكلّ المعايير، إذ لا يمكن للبناء الوطني والقومي أن يستقر ويتمتع بالاستقلال والسيادة الحقيقية إلا بتوفير شروط الاستقلال العسكري والسياسي والغذائي والاجتماعي والثقافي كعناصر ضرورية ولازمة لجعل الشعوب حرة<sup>1</sup>.

لقد بدأت هذه الشروط متوفرة بعد الحرب العالمية الثانية، وتولي الموقف الإيديولوجي الذي انبنى في سياق الاستغلالات السياسية الشكلية إلى إشاعة الاسترخاء الثقافي المتعامل مع مفهوم الاستلاب وكأنه خطر ينتمي إلى الماضي، ولم يلحظ تغلغل هذا المفهوم عبر الأفكار والقيم التي أهملت كلياً الحدود التاريخية للشخصية العربية، وعندما ابتدأ العد التنازلي للانكسار، تفككت أو هام الإيديولوجيا وانكشفت الأخطار الحقيقية التي تتهدد الشخصية العربية، إذ الاستلاب والتهمين وحتى الاضمحلال هي تحديات حقيقية تتزايد أخطارها بتزايد الهزائم في المستويات الأمنية كافة<sup>2</sup>.

وإذا كانت الذات العربية تندفع إلى داخل بنائها التاريخي تستجير بالثوابت لمقاومة الهجوم، فإن هذا الاندماج نحو الذات لا يتعامل مع مفهوم الزمن بشكل إيجابي، إذ لا يعير أهمية للتغييرات البنوية التي طرأت على المجتمع العربي، فبدلت الشروط التاريخية وأنماط الحياة فيه، وبالتالي فإن ما نعتبره ثوابت ليس في حقيقة الأمر ثوابت في الزمن والتاريخ، ومن ثمّ فإن إهمال المتغيرات في العلوم الطبيعية والإنسانية التي جعلت من العالم مدنية مفتوحة، هذا الإهمال يحول دون الفهم السليم لمفهوم الخصوصية وعلاقة الذات بالآخر، إن اللجوء إلى التاريخ كموقع دفاعي يجب أن يترافق مع رؤية متحركة له تستطيع توظيف الثوابت بشكل دياكتيكي، ضمن معايير تسمح للشخصية العربية بإنماء كيانها الخاص المحدد

---

1 - د. فهمية شرف الدين: الأمن الثقافي للوطن العربي، ص 9.

2 - المرجع السابق، ص 9.

بالتاريخ، ولكن ليس فقط بما هو ماضٍ جاهز لاستعادة ضمن حركة دائرية لا تسمح بالتعديل والإلغاء والإضافة، بل بما هو أيضاً حاضر يؤسس للمستقبل ضمن أفق التقدم يحمل قسمه العصر ومؤسساته<sup>1</sup>، ومن ثمّ فالمعمول عليه هو الموقف الاختياري الانتقائي الذي يستخدم بشكل إيجابي عناصر الثبات والخصوصية في علاقة فعلية مع سمات العصر ومميزاته.

ما هي هذه السمات والمميزات للعصر، وكيف بنى راهنياً أفق العالمية؟ وما هي عناصر الثبات والحركة؟ وكيف تبنى أفق الخصوصية؟

تجيب عن ذلك الدكتورة شرف الدين مؤكدة أن تأصيل ثقافة عربية مواجهة يعتمد بالدرجة الأولى على محاولة فهم وإضاءة هذه الزوايا لإيجاد معادلات رياضية تسمح ببناء شخصية مواجهة، تتعامل مع الرفض والقبول على أساس عقلائي وواقعي وإيجابي<sup>2</sup>.

ولعل الملاحظة التجريبية الأولية تشير إلى وجود هيمنة عالمية على جميع المستويات:

**على المستوى العسكري:** حيث يرتدي النظام العام بزة الشرطي الأميركي الذي يراقب من ثقب الإبرة جميع زوايا الكون، معتبراً المساس بالتوازن العسكري القائم عملاً عدائياً "حرب الثالثة".

**على المستوى الاقتصادي:** تتخذ مسائل المساعدات والديون ودوارة الاقتصاد العالمي تسميات مختلفة للمؤسسات العالمية، ولكنها تؤكد على وحدانية الرجعية الاقتصادية التي تجعل من مفهوم السوق الذي يريجاه النظام الرأسمالي العالمي مفهوماً جوهرياً لتحديد المسافة من الازدهار والتقدم ولا يتأكد الدور السابق إذا

---

<sup>1</sup> - د . فهمية شرف الدين: الأمن الثقافي للوطن العربي، ص9.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص9.

لم تتوج بوحدانية النمط الثقافى، حيث يستخدم من أجل ذلك كل الوسائل التي أنتجتها ثورة الاتصالات التي تضخم بألية الأقمار الصناعية نمط الحياة الأميركية الرغيدة في التنافس على السلطة والمال، وحيث يسوغ مفهوم الاستغلال ويصبح متكافئاً مع النجاح.

فالعلاقات الاجتماعية التي يعززها هذا النظام ودرجة العدوانية التي تتسبب بين الأطراف المتنازعة المتناظرة على الدوام، تقررهما مفاهيم النجاح والفشل في ثنائية أبدية ترتكز على مفهوم الاصطفاء الطبيعي الذي عدل من غلوائه التراث الإنساني منذ عصر الأنوار، هذا وتبنى من زاوية العالمية مجموعة من الأوهام والهجوم الذي يخترق حصون الخصوصية في محاولة لإقامة تجانس قومي يؤمن هيمنة كاملة للنمط الثقافى الواحد، فلا يظهر من هذه الصورة وجه العملة الآخر الذي يشير إلى المهمشين والفقراء بوصفهم النتاج الطبيعي للاصطفاء والنتاج الحقيقي للاستقلال ويغيب التنافس بين المستغلين والمستغلين والحكام والمحكومين<sup>1</sup>.

هذه العلاقة غير المتكافئة بين عالم مزدهر وآخر لا يبنى يجتر تخلفه منذ قرنين من الزمان تتجلى في جميع مستويات الحياة، وتستتفر المطلوب في اتجاه رفض الواقع باعتبار الرفض نقطة بدء أولية لتحس المشكلة ملاحظتها ومحاولة فهمها وتفكيكها، وإن كان هذا الرفض يجب أن يكون باتجاه إيجابي يحول دون انتقاله إلى المجال الإيديولوجي المهووس الأعمى بين الذات والآخر، ذلك أنه ليس الغرض إقامة السجال بين الذات والطرف الآخر، لأن صفحات كثيرة امتلأت بالدفاع والتحرير واستخدمت في كل مقومات التراث وجميع الحجج الإيديولوجية، وإن الهدف الأساسي يجب أن يتجلى في تفكيك عناصر المشكلة مع الآخر وعزل العناصر الإيديولوجية الوافدة والصاعدة في محاولة لإفراد مساحة للعقل

<sup>1</sup> - د . فهمية شرف الدين: الأمن الثقافى للوطن العربي، ص 10.

والعقلانية في إعادة صياغة وتأصيل حدود للثقافة العربية تساعد على التعامل الإيجابي مع الثقافة العالمية وعلى أن تقيم هامشاً للنظر في العلاقة ما بين الوافد والخاص على أسس موضوعية<sup>1</sup>.

ذلك أنه إذا كانت العالمية تحاول أن تسطح تضاريس الخصوصيات المحلية، وتتنزع عنها الصفات المميزة للشخصية القومية، فإن الخصوصية بدورها تحاول أن تتغلق على ذاتها في موقف دفاعي لا يلبث أن يدفع بها خارج التاريخ. هذه الصورة مؤسسة على منهج الواقعية السياسية، التي لا تريد الدخول في رهان إيديولوجي حول ما يجب أن يكون انطلاقةً مما كان قائماً في الماضي، ولكنها لا تريد الاستسلام إلى الأمر الواقع المخزي والمهين.

إن قراءة الواقع والتسليم به كنقطة انطلاق للتحليل لا يعني اعتباره واقعاً لا يتغير، إذ أن قراءة التاريخ تؤكد سيادة مفهوم التغيير، وبالتالي فإن قراءة الواقع كما هو يعني محاولة التعرف عليه من داخله لاستتفار العناصر الإيجابية التي يمكن تركيبها لبناء بديل نظري آخر يستطيع أن يستلهم الشخصية التاريخية العربية وخصوصيات الوطن العربي من أجل المساهمة في رفع سيف التخلف وإعادة التقدم إلى الدوران ليأخذ الوطن العربي مكانته الطبيعية في الحضارة العالمية.

أما المنهج المستخدم من أجل ذلك فيتأسس على تلك القراءة الواقعية عبر آلية (التفكيك والتركيب) التفكيك في محاولة تفهم عناصر المشكلة فهماً حقيقياً بالدرجة الأولى، ثم إعادة تركيب هذه العناصر بشكل آخر يخرجها من إطار المشكلة ويوظفها في صورة أخرى تصلح لأن يكون إطاراً للتفاعل الإيجابي إذ ليس المطلوب إقامة سور منيع حول الثقافة العربية للحول دون اختراقها وتفتيتها، بل المطلوب تحسين تلك الثقافة بالتركيز على العناصر الأساسية والإيجابية فيها والتي تسمح بأن يكون لها دور في ثقافة العصر، وإذا كانت العناصر السياسية

---

<sup>1</sup> - د . فهمية شرف الدين: الأمن الثقافي للوطن العربي، ص 111 .

والعسكرية قد عمقت مفهوم الإحباط لدى الشعب العربي، فغن قوة العامل الروحي وثقله في الثقافة العربية يمكن أن يكون نقطة الانطلاق الوثابة.

ومما لا شك فيه أن خطر الاستلاب والتهمين يزداد ويتعمق في ظل التقوقع والانغلاق لأنه يتوقف عند حدود الرفض بينما تتضاءل الأخطار إذا تجاوزنا الرفض باتجاه تأصيل ثقافة عربية ديموقراطية تتعامل مع الرفض والقبول بشكل دياكتيكي يعي المخاطر الحقيقية في إطار عالمية ووحداية القطب وهذا ما يدفع موضوع الأمن الثقافى إلى حيز الصدارة، ويكسبه صفة الضرورة وسط هيمنة الصورة الحالية للثقافة العالمية الطابع، ويزداد إلحاح الضرورة هذه بقدر ما تتضاءل صورة الذات في مواجهة الانكسارات والإحباطات العسكرية والسياسية والتنمية في الوطن العربي، وهو الأمر الذي يطرح ثقافة عربية مواجهة تأخذ بعين الاعتبار الخصوصية كمفهوم تاريخي دون الانغلاق على الذات في عملية دورانية أو حلزونية.

وحقيقة الأمر فالثقافة العربية تشكل العنصر الأساسي الجوهرى في هويتنا الوطنية والقومية، وإلا كيف يمكن الحديث عن ثقافة عربية، وهو الأمر الذي يظهر عنصر استقلال هذه الثقافة وتميزها وعدم تبعيتها، وإن كان هذا الاستقلال لا يعني الإطلاق في الوصف إذ النسبية هي حقيقة وجوه الحياة الإنسانية، وبالتالي فلنا أن نتساءل: كيف يمكن الحديث عن استقلال مطلق للثقافة بالنسبة لثقافة عربية حية متطورة وقادرة على مواكبة التقدم<sup>1</sup>.

والاستغلال الثقافى بهذا الوصف يشبه إلى حد بعيد الاستغلال السياسي والاقتصادي، إذ كما يمكن الحديث عن الاستغلال في هذين المجالين، يمكن

---

<sup>1</sup> - د. محمد عابد الجابري: الثقافة العربية اليوم، مسألة الانتقال الثقافى، مجلة المستقبل العربي، عدد 172، لعام 1993، ص4.

بالمقابل الحديث عن الاستغلال الثقافي، ومن جهة أخرى فكما أن الاستقلال السياسي والاقتصادي يعني التبادل والتواصل دون التبعية فالأمر نفسه بالنسبة للمجال الثقافي. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو ما المقصود من التبعية النفسية ومتى تكون خطيرة؟.

أول ما يجب تقريره، انه لا مجال للقول بالتبعية بالنسبة لاستيراد العلم والتكنولوجيا، فهذان الفاعلان لا وطن لهما، وبالتالي فهما لا يدخلان في الهوية الوطنية والقومية، اللهم إلا عندما يوظفان في عملية اختراق أو غزو، وهذا هو عين ما يحصل الآن بالنسبة للغرب الذي لا يسمح بنقل التكنولوجيا إلى الشعوب الأخرى إلا بما يتفق مع سياساته وأيديولوجيته.

وهذا ما هو حاصل فعلاً في عالم اليوم إذ الهيمنة الثقافية أصبحت استراتيجية ضرورية لتكريس وتعميق الهيمنة الاقتصادية والسياسية وبالتالي فالاختراق الثقافي ليس خطراً على الهوية فحسب بل إنه يستهدف أيضاً فرض التبعية الاقتصادية والسياسية، وهذا ما نجده فيما تتعرض له دول الجنوب من قبل دول الشمال.

وأبعد من ذلك فدول الشمال لم تنج هي نفسها من الاختراق الأمريكي من خلال الأفلام والوسائل السمعية والبصرية الأخرى التي تغزو الأذواق والسلوك، تكرر أنماط من القيم الاستهلاكية والحضارية.

وفي هذا الصدد أصدر السيد "كارلو بيادي مينا" الكومسيرا الأوروبي في الثقافة (وزير الثقافة في المجموعة الأوروبية) تحذيراً شديداً للهجة ضد الغزو الثقافي الأمريكي للثقافات الأوروبية<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - Barry Buzan; New pattern of global security in the Twenty-first century; intentional Affairs, vol 67, No 3, 1991.



زد على ذلك فالقضاء على الاتحاد السوفياتي حوّل الصراع من صراع إيديولوجي اقتصادي إلى صراع ثقافي تقوده الدول القوية ضد الثقافات الوطنية، وهذا ما يضعف هذه الثقافات كما أنه بدوره يؤدي إلى انبعاث الثقافات الفرعية<sup>1</sup>. وهناك ملاحظة هامة هي أن الإسلام مرشح حالياً من قبل الغرب ليكون الآخر الخطر على الثقافة الغربية، وهذا الاتجاه الذي يزداد انتشاراً في الغرب بفضل ما تروجه الصهيونية العالمية والدوائر الإمبريالية المرتبطة بها. ذلك لأن الإمبريالية لا تستطيع أن تنمي شرها واستكبارها وابتزازها إلا بوجود خطر، وقد قضي على الاتحاد السوفياتي، وهكذا فقد رشحت تلك الإمبريالية أكثر من خطر: الخطر الأصفر الذي يرمز إلى النهضة الاقتصادية في شرق آسيا، الإرهاب الموجه ضد المصالح الأمريكية، انتشار الأسلحة النووية في عالم الجنوب. والشريبر الأكبر هو الإسلام أو الخطر الأخضر الذي هو الشيطان الأكبر لأنه - في نظرهم - ضخم ومخيف ومعادٍ للغرب ويتغذى مع الفقر والسخط، وهو ينتشر في بقاع عديدة في العالم، مما يسمح بإظهار خطر العالم الإسلامي على شاشة التلفزيون باللون الأخضر، كما كانت الدول الشيوعية تظهر باللون الأحمر، ويبدو أن هنالك أكثر من سبب للتعارض بين الإمبريالية والإسلام من ذلك التناقض بين القيم العلمانية والقيم الدينية وبسبب التناقض التاريخي بين المسيحية والإسلام وبسبب المرارة والمهانة الناشئين من المقارنة بين إنجاز الحضارتين الإسلامية والغربية، إضافة إلى الجوار الجغرافي والعداء التاريخي، وكذلك الدور السياسي الصريح الذي يلعبه الإسلام في حياة أتباعه، وكونه ما زال هوية جماعية قوية آخذة في الانتشار، وهكذا إذا اجتمع خطر الهجرة العربية إلى أوروبا وخطر تصادم

---

<sup>1</sup> - د. الجابري: الثقافة العربية اليوم أو مسألة الاستقلال الثقافي، ص 7.

الثقافات يصبح من السهل وضع تصور لنوع من الحرب الباردة الاجتماعية بين المركز وجزء من الأطراف لا سيما بين الغرب والإسلام<sup>1</sup>.

وليست العوامل الآتية الذكر وحدها السبب في هذا الصراع، بل إن ذلك الصراع، مرغوباً فيه عربياً كتوظيف إيديولوجي، إذ أن من شأن حرب باردة اجتماعية مع الإسلام أن تعزز الهوية الأوروبية في جميع نواصيها في هذا الوقت الحاسم في عملية الوحدة الأوروبية<sup>2</sup>.

يرى "الدكتور الجابري" أن هذه الحرب الحضارية الباردة مع الإسلام قد بدأت بالفعل ومن مظاهر ذلك تلك الحملة الإعلامية الواسعة النطاق على الإسلام، وتلك الصورة الحاقدة التي ترسمها تلك الوسائل الإعلامية الغربية لذلك العربي مالك النفط، وفي ربط الإرهاب الدولي بالإسلام والعرب، وما يترتب على ذلك من نتائج أهمها: عدم نقل التكنولوجيا إلينا واستنزاف موارد أمتنا، ومنعنا من امتلاك الأسلحة المتطورة، وتكليف أذواقنا بواسطة الغزو الإعلامي الإيجباري وإغراقنا بالسلع الاستهلاكية<sup>3</sup>.

ولا يخفى على كل ذي عينين أن تلك الحرب التي تشن على الإسلام هي في جوهرها حرب على الثقافة العربية التي يحتل الإسلام مكانة مرموقة، وهذا ما يؤدي إلى ردود فعل تنتهي بانكماش وتسور الذات بكهوفها المظلمة دفاعاً عن النفس.

ما هو الحل للنجاة من هذا الخانق؟

---

<sup>1</sup> - د. محمد عابد الجابري: الثقافة العربية اليوم أو مسألة الاستقلال الثقافي، ص 8.

<sup>2</sup> - Barry Buzan; New pattern of global security in the Twenty-first century; intentional Affairs, vol 67, No 3, 1991.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص 8.

يجب على ذلك الدكتور الجابري بالاتفاق حول استراتيجية ثقافية عربية إسلامية قوامها الأبعاد الآتية:

1- بعد سياسي: يتحرر فيه الثقافي من السياسي بآلية الحرمة التي هي الحامل للإبداع الثقافي.

2- بعد اقتصادي اجتماعي: قوامه تنمية وطنية مستقلة تقوم على استراتيجية للتحديث في كافة المجالات لتلبي الحاجات الضرورية للمواطن، وأخيراً التفتح لا الانفتاح باعتبار هذا الأخير يقوم على الانفعال أو الانغماس لا الفعل (الاستجابة الخلاقة الفاعلة)<sup>1</sup>.

3- بعد ثقافي: قوامه بناء بيداغوجية التعليم بكافة مستوياته وتخصصاته، مع إقصاء الإيديولوجيا من عالم المعرفة واتسامه بالروح النقدية وتعزيز الوحدة الثقافية وذلك برفع القيود عن السيولة الثقافية بين الأقطار العربية<sup>2</sup>.

وإذا كان الدكتور "كمال عبد اللطيف" لا يسلم بوجود ثقافي إلا أنه يعيش هاجس وهم الإنهاض العربي أو يرسم أفقه ويحدد نواضحه، هكذا يرى المذكور أننا لا نزال نستهلك في أعمالنا الثقافية، لأننا نساكن أمواتنا وننطلق بأفكارهم دون أن نجتهد، وبذلك فمفكرنا يدلل بمغامرة إبداع ثقافي عربي متفتح بعيد عن حضور ثقافي عربي إسلامي، وهذا الحضور لا يكون بالتهليل بأمجاد الماضي، بل بملاء فراغات المعرفة العلمية، ومن ثم لا يجوز باسم موقف سياسي ظريفي الحديث عن غزو ثقافي دون أن نفكر في ابتكار المفاهيم المناسبة للمشاكل المستجدة في صراعاتنا الثقافية والسياسية والاقتصادية، وعلى منطلق العقل أن يعلمنا مراعاة العلاقة بين التاريخ والمصلحة قبل صياغة المفاهيم، كما أن منطلق التاريخ يعطينا الرؤية

<sup>1</sup> - د. الجابري: الثقافة العربية اليوم أو مسألة الاستقلال الثقافي، ص 13.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 13.

البعيدة التي تهبنا التمييز بين مستلزمات الاختيار الثقافي الاستراتيجي والمواقف الثقافية العارضة والمؤقتة هذا فضلاً عن أنه ليس من حق الغرب أن ينعم وحده بمكتسبات دروس المعاصرة وبخاصة في المستويات المعرفية الثقافية<sup>1</sup>.

وينتهي "الدكتور عبد اللطيف" للدعوة إلى رسم حدود الذات وحدود الآخر وبالمقابل التخلي عن الحديث عن الهوية المضادة والكلام عن هوية متفتحة ومفتوحة ضمن دائرة التاريخ الشامل.

ومن هنا يجب البحث عن استراتيجية التجديد الثقافي العربي، ولكن ليس ضمن دائرة ردود الفعل وجدلية غاز ومغزو، وليس ضمن دائرة الاقتداء الثقافي الأعمى، إذ لم يعد أحد يتصور أن معارف الآخر كونية شاملة في ذاتها، ولم يعد الغرب أنموذجاً مطلقاً صالحاً للاقتداء، إننا نحن الذين نضفي على معارفه الشمولية، وذلك بامتحانها والمشاركة في إعادة إنتاجها، بتشريحها ونقدها، ثم إعادة إنتاجها من جديد، وبشكل مستقل، ومتكامل مع ما يجري في محيطنا التاريخي، كل ذلك ضمن دائرة وعي الإنسان بالوجود وبالتاريخ وبصراع الإنسان المتواصل في الوجود وفي التاريخ... الاقتداء الثقافي الأعمى لم ينجز ثقافة مبدعة بقدر ما أنجزه نسيج ثقافة بلا أرواح أو أجساد<sup>2</sup>.

إن الإبداع، النقد، الابتكار، التجديد، الاستقلال الفكري، هي بالحوار، بالامتحان الخلاق دون نقص أو استعلاء، بمحاورة الذات ومحاورة الآخر، ثم تركيب ما يسمح بتطعيم وتدعيم الكونية الثقافية، وهذه الأمور مطالبة كونية بلا حدود للعرب كما للبشرية... لا جدال بأن الحضارة الغربية ما زالت تملك زمام المبادرة في مجال الكشوف العلمية والحدوس الثقافية، وبناء النماذج المعرفية إلا أن الأوروبيين بدأوا

---

<sup>1</sup> - مقاله المنشور في كتاب الثقافة والمنقف، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لعام 1992، ص139، ص144.

<sup>2</sup> - مقاله الأنف الذكر، ص144.

اليوم أكثر من أي وقت مضى يمارسون توسيع الكونية الغربية، وذلك عن طريق التمثل النقدي لخلاصات هذه الحضارة، ومحاولة مواصلة الابتكار الثقافى داخل دائرتها .

يقول "د . هشام جعيط" : ((وما هو مطلوب من الإنسانية العربية اليوم ليس بعث أنموذج للثورة العالمية يمنحها موقع الصدارة في عصرنا، كما فعلته سابقاً، فهذا النوع من المعجزات التاريخية لا يتكرر، بل إنه لن يتكرر... إن المطلوب منها هو أن تجمع تجربتها، وتجربة البشرية، وأن تبقى كما هي... إن النهضة الحق هي أخلد لبعض اللحظات من الماضي واندفاع نحو المجهول في الآن نفسه يفرض علينا نسيان جزء من كياننا))<sup>1</sup>.

المحامي الدكتور برهان زريق

---

<sup>1</sup> - د . هشام جعيط: الشخصية العربية الإسلامية- المصير العربي، ص133.



## البث /المقال الثالث والثلاثون

### حدث العزة في غزة<sup>1</sup> ذروة سنام الصمود فالمجد

**كلمات** عدة تتردد في أدبيات علم الاجتماع: الحس العام - الضمير الجمعي - المخيال العام - الشعور الجمعي - روح الجماعة - وجدان الأمة... إلخ.

هل هذه الكلمات مترادفة أم أن لها مدلولاً واحداً، وإذا كان الأمر بالإيجاب، فما المقصود من ذلك؟... وهل يمكننا تحديد «وبشكل علمي قاطع» الضمير الجمعي العربي - وجدان الأمة، بوصفه ذلك العامل الروحي الإنساني الحضاري؟.

يقول أحد المفكرين: ((والواقع أنه «أي الفعل الاجتماعي» يفترض من أجل إنجازه أن يندمج كل سلوك فردي في عمل يحمل طابع الاستمرارية وأن تنتظم التصرفات وتتجاوب بعضها مع بعض طبقاً لقواعد ضمنية مستضمرة، حسب ما ينتظره كل

---

<sup>1</sup> - قام الدكتور برهان زريق يرحمه الله بإعادة صياغة البحث ليصبح جزءاً من كتاب الرأي العام وحضائنه لذروة سنام المجد في غزة بلد العزة الذي يحمل الرقم/19/ضمن سلسلة الكتب المنشورة بعد الرحيل، على موقعه الإلكتروني: [WWW.Zraik.info](http://WWW.Zraik.info).

منها من الأخرى، وبعبارة أخرى فإن الممارسة الاجتماعية، بوصفها تنتظم شتات تصرف الأفراد وتوجهه نحو أهداف مشتركة، تفترض وجود بنية معقدة من القيم وعمليات التعيين والاندماج المحمل بمعان ودلالات كما تفترض لغة رمزية - شيفرة - اجتماعية ومستضمة)).

ليست هناك أية ممارسة اجتماعية يمكن إرجاعها فقط إلى عناصرها الفيزيقية والمادية، ذلك لأنه لما يشكل جوهر الممارسة الاجتماعية أنها تسارع إلى التحقق في شبكة من الدلالات يتم فيها استيعاب وتجاوز الطابع الجزئي للتصرفات والأفراد واللحظات، ومن هنا فإن كل مجتمع ينشئ لنفسه مجموعة منظمة من التصورات والتمثلات، أي مخيلاً، من خلاله يعيد المجتمع إنتاج نفسه، مخيلاً يقوم، بالخصوص، يجعل الجماعة تتعرف بواسطته على نفسها، ويوزع الهويات والأدوار ويعبر عن الحاجات الجماعية والأهداف المنشودة.

والمجتمعات الحديثة مثلها، مثل المجتمعات التي لا تعرف الكتابة، تنتج هذه المخاييل الاجتماعية، هذه المنظومات من التمثلات، ومن خلالها تقوم بعملية التعيين الذاتي، تعين نفسها بنفسها وتثبت على شكل رموز معاييرها وقيمتها<sup>1</sup>.

ويقول باحث آخر: ((بقيام الجماعات البشرية بإنشاء معانٍ ودلالات مخيالية اجتماعية، تتمكن من إعطاء معنى لكل ما هو موجود، لكل ما يمكن أن يقوم فيها

---

<sup>1</sup>-Pierre Ansart: Ideologies, Conflits et Pouvoirs, Paris, Presses Universitaires de France, 1977,p21.



أو يقوم خارجها، وأيضاً فبفضل هذه المعاني والدلالات الخيالية الاجتماعية تقوم الجماعات البشرية بتدشين العمل التاريخي وتنشيطه.

إن كل مجتمع يقدم نفسه للرؤية، لرؤية الآخرين له، من خلال الصورة التي يكونها عن نفسه، فمن خلال هذا الموشور يرى الآخر ويصدر عليه حكماً، سواء أكان هذا الآخر وحشياً أم متحضراً، كافراً أم مؤمناً، وهذه التمثلات والتصورات الخيالية تمارس سلطتها ليس في ميدان التصور وحسب، بل أيضاً في مجال الفعل الاجتماعي الذي تقوم به كل جماعة بشرية قائمة تعرف نفسها من خلال المقارنة مع الآخرين))<sup>1</sup>.

وإذا أردنا تبيئة هذا الموضوع في نظام قيمنا قلنا: إن مخيالنا الاجتماعي العربي هو الصرح الخيالي المليء برأس مالنا من المآثر والبطولات وأنواع المعاناة، الصرح الذي يسكنه عدد كبير من رموز الماضي مثل "الشنفري وامرئ القيس وعمرو بن كلثوم وحاتم الطائي وآل ياسر وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والحسين وعمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد وصلاح الدين والأولياء الصالحين وأبي زيد الهلالي وجمال عبد الناصر" إضافة إلى رموز الحاضر والمآرد العربي والغد المنشود... إلخ، وإلى جانب هذا المخيال العربي الإسلامي المشترك تقوم مخايل متفرعة عنه كالمخيال الشيعي الذي يشكل الحسين بن علي الرمز المركزي فيه،

---

<sup>1</sup> –Claude Gillet: Les lectures Cours social et écriture révéle”, Studia Islamica, LXII, MLMLXXXI, p 49-50.

والمخيال السني الذي يسكنه "السلف الصالح" خاصة، والمخيال العشائري والطائفي والحزبي... الخ<sup>1</sup>.

هكذا يتضح أن هذا الضمير يتألف من عنصرين: شكلي - رسمي - عضوي، وآخر وظيفي fonctionnelle داخلي، هو هذه العناصر التي أشرنا إليها سابقاً: ألف ليلة وليلة - الرجل الصالح - عنترة بن شداد - الحسين - عبد الناصر... الخ.

وبالطبع فهذا العنصر الداخلي الوظيفي دينامي متحرك وتاريخي يتمثل ويتجسد بين الحين والآخر في تجليات وتموضعات مثل انتفاضة 9 و10 يونيو في مصر عام 1967 ثم صمود شعبنا العربي في غزة، وقبل ذلك مواقف شعبنا العربي في لبنان الشقيق ضد العدو الصهيوني وخاصة مقاومته الباسلة عام 2006 م.

وفي الواقع لو شممنا رائحة 9 و10 يونيو ورائحة مؤتمر الخرطوم ورائحة رحيل عبد الناصر إلى ربه ورائحة الاعتداء الأخير على غزة، لأدركنا العروة التي تربط بين هذه الأحداث، وشممنا في الوقت نفسه رائحة الشعب العربي وعطره الفواح وأريج المنعش.

---

<sup>1</sup> - د محمد عايد الجابري: العقل السياسي العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، 1999، ص16.

لقد انفجرت المشاعر الوطنية والقومية عقب نكسة حزيران 1967 طالبة الثأر والكرامة، كما شممنا تلك الرائحة المأفونة المقيتة التي كانت تخرج من الجحور لتعرقل المد الشعبي وروح القتال، ولتضع العصي في دواليب الانطلاق، ونحن نسمع ونشتم حالياً تلك الرائحة المأفونة نفسها التي تنال من صمود أهلنا في غزة بلد الكرامة والعزة، وفي كل ذلك لا يني أو يتوانى المعوقون المرجفون القعدة أن يتذرعوا «نفاقاً» بمنطق الحكمة والمناورة والنفس الطويل والمراوغة والأسلوب غير المباشر بديلاً عن الصمود والتحدي والمواجهة، انطلاقاً من بعض رواسب التخلف والاستكانة والقيود في تاريخنا .

إن الجماهير العربية في مصر صرخت ونادت معلنة في يوم 9 و10 يونيو المواجهة والتحدي، وأدركت مغزى العدوان على الثورة وتركيبها الشعبي والقيادي، ومن هذا المنطق بدأ التفكير، وفي قلبه وروحه ولبه أشرقت الحلول الصحيحة، وانبثق التفكير السليم.

والجماهير العربية في مصر لم تخف عليها السلبيات التي تجرعتها، لكنها استمسكت بالإيجابيات، وتشبثت بها حتى الموت.

هذا وذنوه بأنه حين يتعالى المفكر عن إرادة الجماهير وانفعالية الجماهير يظن أنه ينشد صفاء الرؤيا والتفكير الهادئ، وهذا هو عين الخطأ لأن انفعالية الجماهير

وغضبها ليس كانفعالية الأفراد، إنها انفعالية من نوع خاص ترقى إلى أعلى درجات التفكير الموضوعي والعلمي والحساب الدقيق.

ولا يخفى أن هؤلاء المعوقين ضنوا على شعبنا العربي في غزوة بأبسط الأشياء، ألا وهو عقد قمة للملوك والرؤساء العرب، كما سدوا آذانهم «كما فعل أوديسيوس» بمصهور الرصاص، لكي يشيحوا وجههم عن كل خبر يتعلق بغزة، كل ذلك مقابل حركة الجماهير الهادرة المزمجرة، وانفعالها الصاخب وألمها الممض.

ولا يمكننا فهم فكرة الانفعال العام للجماهير العربية، إلا بربطها بفكرة الشعب العربي، فالشعب هو ذلك الكائن الحقيقي الزاخر بالحركة الذي ينبع منه الرأي العام، وأن ما يفضى على تيار ما من الأفكار أو المعتقدات أو على حركة مبنية على تصارع المصالح صفة الرأي العام، ليس هو فحسب مصدرها بل أيضاً موضوعها. فالرأي العام إرادة شعبية تحافظ على ما هو مرغوب فيه في الحدود الممكنة، ومن ثم كان الرأي العام قبل كل شيء إرادة شعبية مدركة لمسئولياتها، فاهمة لوظيفتها الاجتماعية، ولذا فهي تواجه المشكلات الاجتماعية والاقتصادية السياسية مواجهة السياسي المحنك الأريب الذي يفهم أن المطالب والاحتياجات الشعبية إنما ترتكن على الإمكان المنطقي لإيفائها أكثر من ارتكانها على القوة الغاشمة أو على الصيغ الأيديولوجية البراقة.

وهكذا يحجم الرأي العام عن تعريض الصالح المشترك الذي يقوم عليه النظام الاجتماعي للخطر أو الزعزعة، فهو رأي تكون من انضمام مواطنين أحرار في نيتهم ممارسة حريتهم الفكرية على خير وجه لتوجيه النشاط الحكومي التوجيه الصائب السليم، وليس لزعزعة النظام الذي يربط به صالحهم المشترك كل الارتباط، ولهذا فالرأي العام وهو مدرك تماماً لقوته يضع نصب عينيه ألا يعرض المصالح الدائمة للجماعة للخطر بانتصار رنان عابر مؤقت.

فالرأي العام القويم إرادة شعبية حكيمة مستتيرة قادرة على أن تقود وتهدى، وفي الوقت ذاته تقنع ولا تتهجم، تعاون وتعاضد الحكومة في أدائها لمهامها مدركة لمشاق الحكم وصعوبته<sup>1</sup>.

وبيان ذلك أنه في حميِّ المعارك يصلب عود الشعب وإرادته وروحه وتصميمه على أخذ الثأر، وإذا كان رسول الله ﷺ قد علّمنا، ألا نتمنى الموت، فقد علّمنا أيضاً أن ننشده جهاداً عادلاً ودفاعاً عن الأرض والعرض.

إن انتخابات العدو الأخيرة تؤكد بما لا يقبل الشك أن العدو يزداد توجهاً نحو الاعتداء والقتال، وها نحن نسمع يوماً بعد يوم ولادة حزب جديد عدواني مبالغ في عدوانيته (حزب إسرائيل بيتنا).

---

<sup>1</sup> - جورج بوردو: المطول في علم السياسة، باريس، جزء 4 ص 113.

لقد أفصح الشعب العربي عن إرادته وانفعاله تجاه حدث غزة مستشعراً  
آفاق هذه التجربة وروحها وأبعادها ونتائجها، مصمماً على القتال مدركاً إدراكاً  
بعيداً وعميقاً أن لا فائدة ترجى إلا بكسر إرادة العدو وعتوه واستكباره مشيحاً  
وجهه عن أراجيف المرجفين والقعدة والمعوقين والمتخاذلين.

إن صمود شعبنا في غزة وانتصاره يجب أن لا يورثنا الكسل والخمول والدعة  
والخلود إلى الراحة والسكينة، بل يدفعنا إلى مزيد من رباطة الجأش والاعتزاز  
بالنفس والقوة والصبر وروح التمسك بالحق.

إن الواقعية التي يتمسك بها عرب الإرجاف والتعويق والفرملة، هي في الحقيقة  
واقعية وقوع، إذ الفرق كبير جداً في أدب الصمود بين الواقعية والوقوع، بين السلم  
والاستسلام.

إننا نشتم الرائحة العطرة تبوح وتفوح من حدث غزة المجيد، كما سبق أن شممنا  
رائحة 9 يونيو ورائحة مؤتمر الخرطوم ورائحة يوم الرحيل والوداع للقائد الأب،  
ونحن ندرك تماماً أن رأينا هذا ليس نتيجة انفعال حماسي أو نتيجة مخاطرة  
بلهاء اختارت الاصطدام المباشر دون الحلول الأخرى الممكنة والمحسوبة حساباً  
دقيقاً.

إننا ندرك جميع الجوانب المعقدة للصورة، وندرك أنه إذا وجد هذا الإحساس على  
المستوى الجماهيري، فينبغي الوقوف عنده وتأمله، فالانفعال الجماهيري شيء

والانفعال الفردي شيء آخر، الانفعال الجماهيري العام شيء هام، فهو لا يتكون بقصيدة شعر ولا بخطبة حماسية ولا بعامل وقتي ولا بحادث عارض كالهزيمة العسكرية، بل هو ينشأ نتيجة تراكمات موضوعية على مسار تاريخ الأمة يتخطى العديد من المراحل الفكرية والانفعالية حتى يتبلور في شكله النهائي كقوة جماهيرية انفعالية، لكنها واعية ومنطقية وموضوعية.

إننا نؤكد بمحض وعينا أن الانفعال العام في المجتمع هو الثورة بعينها، والولادة بحقيقتها وذاتها، وهذا الانفعال لا يتحقق بمجرد وجود العوامل الداعية للثورة كال فقر والتخلف والمظالم الاجتماعية، بل حين تصبح الثورة ممكنة، أي حين يعي المجتمع مشكلته، وحين تصمم الإرادة الشعبية العامة على التغيير، أي حين تجمع الجماهير العريضة صاحبة المصلحة في الثورة على إحداث التغيير الاجتماعي.

وإجماع الجماهير الكاسح على إحداث التغيير الاجتماعي لا يتم إلا نتيجة تفاعلات اجتماعية مختلفة، هي الفكر الثوري والتنظيم الثوري والمخطط الثوري، وفي النهاية النضج الثوري، وهذا النضج هو ما يسمى بالانفعال الجماهيري، أي تلك الحركة المنفصلة التي تقدم على العمل الثوري وتحدث التغيير.

فالانفعال الجماهيري إذاً ليس هبة عاطفية كالتى تتوافر في الحياة الفردية، وبالتالي فحين نعتة بالحماسة ونضعه في مرتبة الحماسة نقع في سذاجة مفرطة وجهالة مطلقة، لأننا نقوم بقياس خاطئ للحياة الفردية على الحياة الجماهيرية. وعلم الثورة الحديث ليس له دور أو وظيفة إلا تحقيق هذه الانفعالية على المستوى الجماهيري.

وكما أن للثورة الحديثة نظريتها العلمية، كذلك فالثورة المضادة لها نظريتها، وهي مقلوب نظرية الثورة، أي أنها تستعمل نفس أدوات التحليل، وتسلم بنفس القوانين الاجتماعية، وتختار الطبقة المضادة للثورة وتستهملها، وفي الوقت نفسه تسخر كل جهودها لتحقيق غاية مضادة، أي لتفتيت الانفعال الجماهيري بصرفه في اتجاهات غير صحيحة.

وعمل الثورة المضادة ليس سهلاً، ولا يمكن أن يتم في يوم وليلة ولا نتيجة لحادث عارض، بل بنفس الطريقة التي تتم بها الثورة عملها من التراكمات الفكرية والانفعالية، إلا أن عمل الثورة المضادة فيه - مثل كل ما في كل عمل زائف - عدم القدرة على الصمود طويلاً، لأنه مضاد لمقومات الواقع الاجتماعي ولطبيعة القوانين الاجتماعية ومسارها التاريخي، فهي في أحسن نجاحاتها تأجيل للثورة الاجتماعية.



والثورة المضادة شيء كامن وملازم للثورة، فهي في جدل ديالككتيكي متصل مع الثورة، وحين يتم الانفعال الجماهيري تنتصر الثورة، ويبقى للثورة المضادة المقاومة، ولا يمكن أن يتم انتصار للثورة المضادة حين يتم هذا الانفعال الجماهيري إلا إذا كانت الثورة مجرد تغيير في مواقع السلطة.

فإذا وجد انفعال جماهيري عام بالمواجهة العسكرية، فهذه هي الثورة في تمام نضجها، وينبغي على قيادة الجماهير أن تطيع الجماهير وتلتجم بها وتزحف معها وتسير إلى جنبها.

وحين تحاول القيادة السياسية تفتيت هذا الانفعال الجماهيري تساعد «دون أن تدري» عمل الثورة المضادة أي تفتيت الثورة وتفتيسها، وتصريفها في اتجاهات مغايرة.

وهذا غير ممكن لأن أقصى ما تستطيعه الثورة المضادة هي فرملة الثورة مؤقتاً وتعويقها وتبطئ حركتها، وكثيراً ما يحدث في الثورات أن يتجه انفعالها الاجتماعي وجهة تراها القيادة الثورية غير صحيحة، ولكن علم الثورة يطلب من هذه القيادة أن تخضع لهذا الميل وتسير معه وتحاول تصحيح الاتجاه في المسيرة ذاتها، وليس هناك أكثر من التحذيرات التي أطلقت في هذا الصدد للقيادات الثورية بالألا تتجه وجهة مضادة لاتجاه الجماهير حتى لو كانت هذه الوجهة المضادة هي الصحيحة،

فالرسول الكريم ﷺ نزل عند إرادة الشباب، وذلك بخوض معركة أحد وقرر القتال مع أنه بالأصل كان لا يرغب ذلك.

ومن الناحية العملية والتاريخية لم يحدث أن كان الانفعال الجماهيري العام في الاتجاه الخطأ في خطوطه العريضة والأساسية، لأن هذا الانفعال لا يتحقق إلا بشروط موضوعية، وبعديد من التراكمات المتبادلة بين الفكر والعاطفة بين الحساب الدقيق ودوافع الحركة.

لذلك تحتقر الثورة المضادة الجماهير وتزديريها، وتعتقد أن قوة الضغط العسكرية أو البوليسية هي العامل الحاسم مادام الانفعال الجماهيري لم يتحقق، فإذا تحقق فإن جميع القوى تنهار أمامه، وأعظم ما تستطيع أن تحققه الثورة المضادة من انتصار هو المزيد من الحديث عن الحكمة، وظهور العشرات من الحكماء المحنكين، وترديد كلمة العلم والحساب الدقيق والتعقل وما إلى ذلك، كأن انفعال الجماهير حماقة فردية تترد إلى نزق شخصي.

إن الحكمة الحقيقية والعلم الحقيقي هو الإدراك بأن الوعي الجماعي مشروط بشروط حاسمة ويتحرك بميكانيزم غاية في الدقة يتضاءل أمامه أي حساب دقيق لعشرات من الحكماء الفرديين، وهذا كله حقيقة ماثلة ومستقرأة من دراسة الثورات، وتزخر به تجارب واكتشافات علم الثورة العالمية.

لقد أطلقت الجماهير الرأي الوحيد الصحيح واستمرار النضال، وبالمقابل للحكماء أن يفسروا ظاهرة الانفعال الجماهيري العربي كما يشاؤون، ولكن هذه الظاهرة هي الثورة ذاتها، والحكماء يعلمون بأن هذه الجماهير ستتحرك بتلقائية تفوق كل حساب عندما يحتاج الأمر إلى ذلك، وبالفعل كان مخاض الأمة وكانت الولادة السليمة، وكان يوم العزة يوم حدث غزة، يوم الكرامة والصمود والتضحية.. إن تحرك الجماهير العربية دعماً لأهلنا في غزة ليس تصرفاً عاطفياً محضاً، بل هو إرادة الصمود والدفاع عن النفس والكرامة، وعن الأرض والعرض، إنه عمل طبيعي جداً لأنه الثورة بعينها .

إن هذا التحرك الواسع والعميق لشعبنا العربي هو من قبيل تلك الظواهر الكونية العظمى التي تحرك الأفلاك وتنظم ملايين الحيوانات في الكون بتلك النفحة المقدسة الكامنة التي من بعض مظاهرها أن تتفق نتائجها وتفصيلاتها مع الحساب الدقيق.

إن الثورة ظاهرة كونية مثلما هو انفلاق وانبلاج نور الصبح، فهي في الحياة على مختلف درجاتها وأنواعها، وهي في البشر وفي الكون، ذلك القانون الأعظم الذي يرتقي بالحياة، والذي يتخذ سبيله لتلك الحركة الراقية بالمناقضات، ومن الظلام الكئيب والألم الممض واليأس المطلق تحدث الطفرة، ويولد شيء جديد هو خطوة عظمى إلى الأمام، وهذا هو مغزى القول بحق إن إرادة الشعب من إرادة الله .

ولنا الآن أن نتساءل هل أراد الشعب في 9 يونيو أو في صمود غزوة أن يدفع بلاء حل به؟، ليس هذا صحيحاً، بل هو جانب من المشكلة، والقضية الأساسية هي كرامة هذا الشعب، فما هو المقصود بكرامة الشعب، وما هو دلالتها ومغزاها ومبتغاها، ومقتضى أمرها ومرتهاها؟.

هنالك ذرى عديدة لسنام المجد في تاريخنا: اليرموك -حطين - عين جالوت - ميسلون- عدوان 56 على مصر، وهناك خط واضح يربط هذه الذرى بعضها ببعض ليجمعها في وحدة تؤلف بينها وهي الدفاع عن المصير عن الشرف والكرامة.

إن الشعب العربي في مصر تمكن في وثبة من وثباته، حين تكاملت عناصر ثورته أن ينفذ عن نفسه التبعية التي جثمت على أنفاسه قروناً، وبقدر ثقل هذه القرون ووطأتها كانت انتفاضته، فلم تستطع كل القوى الاستعمارية والقوى المضادة الأخرى بالأشكال القديمة والأشكال الحديثة أن تزحزحه عن هذه الانتفاضة، ورغم خمسة عشر عاماً من التركيز الشديد والتواطؤ المبيت وتطبيق اكتشافات علم الثورة المضادة اخترق الشعب بثورته كل العقبات وخرج من كل المآزق وسخر من كل الغربان الناعقة والحكماء الذين يزنون الكلمات، وفي الوقت نفسه كانوا يفرعون من تلك الكلمات الصاعقة التي كان يلقيها عبد الناصر في وجه القيادة العالمية للثورة المضادة، والذين قالوا ما قالوا من أقاويل كان تخرس بعد كل

انتصار، فتسبب نجاحات الثورة إلى الحظ أو الخوارق أو القدر الأعمى لقد تقدم الشعب المصري في 9 يونيو وقال قولته الحاسمة بأن الكلمات التي خرجت من القيادات والقرارات التي صدرت عنها هي كلمات الشعب وقراراته، وإن المعركة لم تنته ولن تنتهي إلاً بمزيد من حق هذا الشعب في الوجود الحر الكريم وما حدث لغزة رد على أعقابه بكل طاقة الثورة الكامنة، حتى آخر قطرة، حتى الموت الشامل، وهكذا كانت غزة وقفة صمود واستبسال وتمسكاً بالحق وبالأرض والشرف.

والعدوان الامبريالي الإسرائيلي على غزة لم يمس الأرض والمصالح العربية بقدر ما مس هذا المعنى الإنساني، ولذلك فصدده هو العمل الحاسم، والمواجهة هي الشيء الوحيد الجوهرى هي السبيل لتأكيد الذات، ولإطلاق طاقات الشعب إلى مالا نهاية في البناء والتقدم والارتقاء، والثورة هي مواجهة التحديات هي فناء حتى الموت حتى يتحقق الوجود الإنساني، ولذلك لا تتم الثورة إلاً بأعلى مستوى للوعي الاجتماعى، لأنها قدمت في غزة الروح فدية للمعنى الإنساني، وثنماً لكيان جديد يتبلور فيه معنى كرامة الإنسان، وهذا هو مدلول ذلك التأييد العالمى لصمود شعبنا في غزة.

وهذه الكرامة التي مات في سبيلها ثوار العالم، دون أن تدفعهم حكومة أو تكرههم قوة هي التي قدمت من أجلها الأرواح في غزة، وهنا يتحدد المعنى الحقيقي لحياة الإنسان وموته وشرفه ونبله.

وإذا كانت الثورة كظاهرة كونية تقدم الحياة البشرية فدية لحياة أرقى ومعاني أرقى، فكيف نحرص على منشآت مهما عظمت، إن الحياة البشرية هي التي تبني، والكرامة البشرية هي التي تبتكر وتبدع، فإذا جرحت الكرامة فكيف تقوم مؤسسة، وكيف يبتكر مجتمع، بل كيف يمكن أن يحافظ على بعض ما أنشأه في لحظة الحياة الحقيقية، مع أن العدو الصهيوني يدمر كل مؤسسة ويطمس إرادة كل فرد حي فلسطينية.

إن دعاة التعقل والحكمة يقتلون روح الشعب ليحتفظوا ببعض الجدران وبعض من قطع الحديد والحياة أعلى من ذلك بكثير، فهي ليست خبزاً مأموماً بالمذلة، إذ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

والذي يتأمر على روح هذه الأمة عليه بأن يتوقع أمة من الحشاشين والسكري والمنحليين، كما عليه أن يتوقع في هذه الأمة الكآبة والتخلف والدمامة.

ولكن قبل أن ترفع الأقلام فلنذكر هؤلاء المتأمرين بقولة المناضل "الكواكبي" بعد تعديلها قليلاً: ((إن صيحة وغضب وانفعال الشعب العربي «ومظهرها الغضب من أجل غزة» ليست صيحة في واد، وإنما صيحة ستطيح حتماً بذي الأوتاد)).

✍️ الدكتور برهان زريق

## البحث /المفاز الرابع والثلاثون

### خطاب موجه إلى المؤتمر القومي العربي المنعقد في الجزائر<sup>1</sup>

**إنه لأمر هام** أن يرصد المؤتمر، ويقراً إشكالياً في كل دورة " حال الأمة" والأهم السير جدياً في تأصيل وعي استراتيجي حضاري للأمة، وهو ما يتصدى له المؤتمر، وإن كنا نسجل ما يلي:

- 1- هنالك حالة استصحاب في إشكالات تتكرر حلولها سنوياً (الديموقراطية - التنمية - العلاقات العربية - العربية... الخ)، والأجدى اعتمادها دون مناقشة في كل بيان ختامي كمبادئ عامة ومشروعية عليا، على اعتبار أنه سبق اعتمادها وتقريرها ومناقشتها، ثم التصدي لإشكالات أخرى تموج بها ساحة الأمة: الثقافة الفرعية - الصحة التربوية - الصحة السلوكية - الصحة الفكرية (معرفة المواطن حقائق أمته) - القطرية المستأسدة... الخ.
- 2- ضرورة التشريع لحق الأمة في الدفاع عن حقوقها وقيمها ودستور حياتها ومقومات وجودها، وذلك بإصدار نص يلزم المؤتمر سلفاً ومسبقاً بالذود عن هذه الحقوق، وبحيث يكون هذا النص قاطعاً وحاسماً ودقيقاً لا يسمح لأي تأويل أو تعطيل.

---

<sup>1</sup> - ورقة مقدمة إلى المؤتمر القومي العربي في دورته السادسة عشرة المنعقدة في الجزائر العاصمة عام 2000.

3- الاهتمام بالشرط البشري والرأسمال الرمزي والقيمي، ثم بلورة حركة أنوار تغمر الضمائر والإرادات والعقول، لأن الإنسان هو المقدمة الكبرى في كل تغيير.

4- الانطلاق من النزعات العميقة والحقائق الموضوعية في الذات العربية والمخزون الثقافي الشعبي، وصوغ ذلك في منظومة ثقافية وطنية قومية معبئة وحاشدة.

5- قراءة القيم السلبية في دروب حياتنا: التواكل - الهرب - الطاعة - الفتنة - التضليل - التفكك - التلقين - الاغتراب، ثم طرح البديل القيمي: المسؤولية الأخلاقية - روح العمل - التعاون - العقلانية - إرادة الالتزام والتنفيذ - الصدق مع النفس - الإبداع - احترام الغير - الحفاظ على المال العام... الخ.

6- الملاحظ أن البيان الختامي يصاغ بصورة وصفية ومحمول على فقرات مستقل بعضها عن بعض، وكأن المؤتمر لا يمتلك مناهج للتقدم والوحدة والعدل والأنسنة، بحيث لا يشعر القارئ أن البيان محكوم في كليته وروحه العامة بهذه المناهج، وبحيث لا ينضح برؤيويه ومطامح وأهداف.

لهذا يجب أن يصاغ البيان بروح تنضح بالرسالات والمقاصد والأهداف والمناهج لاسيما أن العدو الصهيوني يجهد- وهو الذي لا يملك حضارة - لأن يظهر نفسه أمام العالم بأنه ذو رسالة وحضارة، وأن صراعنا معه هو صراع مناهج قبل أن يكون صراع إرادات ومصالح، هذا فضلاً عن أن التأصيل النظري والسؤال الفلسفي والبعد الكوني والوجودي يحميننا من الخضوع لردود الفعل، ويبعدنا عن الوقوع في الأدوات والإيديولوجيا والمنهج الوضعي الصارم.

7- بلورة الخبرة الكلية المكتسبة للمؤتمر في عقد اجتماعي عربي أو ميثاق تاريخي مبسط واعد وذي طموح ورنو وثقة بالنفس ورسالة تبلور فلسفة حياتنا ورؤيتنا للغير وقراءتنا للحياة والتاريخ والحاضر والمستقبل.

المحامي الدكتور برهان زريق

اللاذقية - سوريا



## نظرية الأمن القومي العربي

### ومسألة دور المؤتمر القومي العربي في بلورة ذلك

**يلاحظ** القارئ أنني وسمت هذا البحث بعنوان الأمن القومي العربي ولم أسمه بعنوان "أمن النظام العربي" لسبب بسيط هو ضرورة التمييز- دون الفصل بين منظومة الأمة community system كحقيقة اجتماعية حضارية - وبين نظام الدولة القطرية the system of stale، أو النظام الدولي العربي (منظومة الدول العربية)<sup>1</sup>.

ما هي نظرية الأمن القومي العربي، ماهيتها، آلية عملها؟<sup>2</sup>. مما لا شك فيه أن تحديد تلك النظرية = كنظرية خاصة يرتبط مفهوماً بتحديد المقصود «كمفهوم عام» من الأمن الوضعي، قاصدين من هذا الأمن ذلك المدلول العام للأمن الذي تواضع الفكر الاستراتيجي العالمي على بلورة ملامحه واتجاهاته العامة.

وفضلاً عن ذلك فتحديد المفهوم الوضعي للأمن يدفعنا للحفر على الطبقات البعيدة منه، إلا وهي الجذور اللغوية - المفهوم اللغوي.

---

<sup>1</sup> - محمد الصويغ: البناء الحقوقي للنظام العربي، عناصر من أجل بلورة الأمن القومي العربي، مجلة الوحدة، عدد 2، لعام 1987، ص 145.

فما المقصود من الأمن لغة ٥.

الأمن -لغة- يعني عدم الخوف<sup>1</sup>، وقد عبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل/112.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ البقرة/126، هكذا يكون القرآن الكريم قد ربط ربطاً محكماً بين جناحي الأمن، وهما التنمية والطمأنينة، ثم الاستقرار.

وإذا كان الأمن يعني الدفاع عن الأمة وعقيدتها ومثلها ومبادئها وقيمها وتراثها وأرضها، فهذا الدفاع له أداة وآلية هي -من المنظور الإسلامي- القوة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الأنفال/60، ذلك أن مدرك القوة في الإسلام متعدد الجوانب، ويذهب إلى ما هو أبعد من الجانب العسكري لينطوي على كافة المقومات العقيدية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية<sup>2</sup> بصفتها مقومات ضرورية لإقامة دار الإسلام التي هي دار السلام.

وهذا التحديد القرآني لفكرة الأمن هو تحديد استراتيجي، بدليل ما وجدناه من تحديدات لفكرة الأمن من قبل مفكرين استراتيجيين، وفيما يلي بعض هذه التعاريف الاستراتيجية:

<sup>1</sup> - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الفكر، بيروت، 1980.

<sup>2</sup> - حسن محمد الظاهر محمد: الأمن القومي العربي، مدخل نظري، مجلة الشؤون العربية، العدد 24، لعام 1999، ص 97.

تعريف "فيرنون":

الأمن أن تعيش الدولة بدون تهديد خارجي لمصالحها وقيمها الهامة الحيوية<sup>1</sup>.

تعريف "والترمان":

هو الحال التي لا يجب على الدولة التضحية بمصالحها المشروعة لتجنب حرب ما، وأن تكون قادرة على حماية هذه المصالح باللجوء إلى الحرب<sup>2</sup>.

تعريف "مكنمارا" (وزير الدفاع الأمريكي الأسبق):

ليس هو المعدات العسكرية، وإن كان يتضمنها، وليس النشاط العسكري، وإن كان قد يشملها، الأمن هو التنمية<sup>3</sup>.

تعريف "علي الدين هلال":

الأمن هو تأمين كيان الدولة من الأخطار التي تهددها من الداخل ومن الخارج، وتأمين مصالحها القومية، وخلق الأوضاع الملائمة لتحقيق أهدافها وغاياتها القومية.

تعريف "أمين الهويدي":

هو الإجراءات التي تتخذها الدولة للحفاظ على كيانها ومصالحها في الحاضر والمستقبل<sup>1</sup>.

---

1- Vernon Van Dyke: international policies Publisher. Nelson-Hall. 1996. p36.

2- Walter Lippman: U. S. Foreign Policy, Shield of the Republic. Boston. Little Brown and Company, 1943.

3- أورد هذا التعريف د. عبد الإله بلقزيز في مقاله: الأمن القومي العربي، مجلة المستقبل العربي، عدد 35 لعام 1990، ص147.

تعريف وزير الدفاع الأسبق "هارود براون":

هو القدرة على صيانة وجود الأمة الطبيعية ووحدة أراضيها والاحتفاظ بعلاقاتها مع سائر العالم بشروط معقولة ووحدة طبيعتها ومؤسساتها وسلطاتها<sup>٢</sup>. وإذا كان المجال لا يتسع لمناقشة هذه التعاريف إلا أنه يمكننا تسجيل الملاحظتين الآتيتين:

1- إن تعريف براون: تعرض إلى سمة خاصة في الأمن الأمريكي هو رنوه لتحقيق العلاقات الاقتصادية المعقولة، وهذا ما يؤكد أن لكل دولة أو جماعة بشرية فلسفتها الخاصة في الأمن إضافة إلى المفهوم العام، وهذا أمر جد طبيعي، فهذه الدولة حققت مشروعها الاجتماعي والسياسي، وليس أمامها إلا المزيد من تحقيق البناء الاقتصادي، وهكذا اعتبر هذا الهدف الكبير مدركا من مدركات الأمن العام.

الأمر على علاقة بالنسبة للأمة العربية، فهي معنية في المقام الأول، بإعادة الروح إلى وحدة جسمها الممزق، ومن ثم فهذا المطلوب هو الركن الركين في تحقيق الأمن العربي، ويجب أن يدخل بصورة واضحة في كل تعريف بالأمن.

2- طرحت هذه التعاريف مفهومي للأمن، أولهما ضيق وثانيهما موسع ذو مضمون اقتصادي ثقافي اجتماعي، بل ذو مضمون حركي (دينامي) يحيط بأساسيات الحياة، وبهذا الوصف فهو يقترب من فكرة النظام العام في القانون كفكرة تعبر عن المعدل الثابت المتناسك في المجتمع، وهو بذلك، يتجاوز «وبسبب حركيته» النصوص، وإن كان ينطوي على معظمها، ليغدو المضاد الحيوي (انتيبيوتيك) الذي يدافع عن فكرة الحياة في ثباتها وتطورها على هذا الأساس

---

<sup>1</sup> - أمين هويدي: الأمن العربي في مواجهة الأمن الإسرائيلي، دار الطليعة، نيسان، 1975،

ص42.

<sup>2</sup> - Brown Marrollthinking of about national security. west. neoprene Boulder. color 1983. p. 4

الموسع، فالأمن القومي العربي موجود في قلب ويد ولسان ووجدان، كل مواطن عربي (المدلول الشعبي للأمن)، وهذا ما أكدته أحداث عام 1948 و 1956 و1973<sup>1</sup>.

ثم أحداث اعتداء على شعبنا في العراق وفي لبنان (قانا) وإن كان المطلوب الحديث عن إمكان الارتقاء بهذا الإحساس، بهذا المفهوم الواقعي إلى درجة النظرية المتكاملة، إلى درجة الوعي الذي يضح في وجدان وشرايين وعروق الأمة ليصبح حقيقة ووعي مطابق «وبيولوجياً» خاصة بالأمة.

والنقطة الثانية الجديرة بالاهتمام، هي أن قوانين الصيرورة الايجابية (التقدم) كان من المفروض بها أن ترقى بنظام الأمن القومي العربي، ونظريته بسبب أهمية أمتنا موقعاً واقتصاداً ومخزوناً روحياً وحضارياً، ولكننا مع السف نلحظ، تراجعاً ملموساً وارتكاساً في الخط البياني لهذا النظام.

هكذا يؤكد المقدم "الهيثم الأيوبي" «في دراسته التاريخية» أن مشروع الأمن القومي العربي الذي تبلور عام 1947، واستمر حتى هدنة رورس 1947، كان أول وآخر مشروع أمن عربي مشترك توافرت الظروف الموضوعية لتحقيقه سواء في مجال تطابق السياسات الخارجية للدول العربية، أي في مجال وضوح هوية العدو المحلي<sup>2</sup>.

والأشد إيلاماً من ذلك أنه في ظل القطرية المتعاقبة والعمياء وجدنا المفهوم الأمني اللبناني يعتمد على الضمانات الأجنبية لدرء الخطر الإسرائيلي، وذلك لعدم بناء

---

<sup>1</sup> - هيثم الكيلاني: حديثه في ندوة الأمن القومي العربي مفهوماً وواقعاً، مجلة الوحدة، العدد 28 لعام 1987، ص 197.

<sup>2</sup> - مقالة: بعنوان اشكاليات بناء الأمن القومي العربي، مجلة الوحدة العدد 28 لعام 1987، ص 8.

القوة العسكرية الذاتية، والأمر نفسه بالنسبة لمفهوم الأمن العراقي في الخمسينيات، فقد اعتمد على الضمانات البريطانية والدخول في حلف بغداد<sup>1</sup>.

وأبعد من ذلك فقد اعتبرت بعض الدول العربية الوحدة بين مصر وسوريا خطراً على أمنها كما أن الدول العربية البعيدة عن خط المواجهة مع إسرائيل أقامت مفاهيمها الأمنية على أساس مواجهة الأخطار المحلية الخاصة بها دون أن تضع مواجهة الخطر الإسرائيلي في مقدمة اهتماماتها الأمنية<sup>2</sup>.

والأنكى من ذلك فالاعتداء على الأمن القومي العربي لم يتغير مصدره منذ الحرب العالمية الأولى، إذ منذ ذلك الوقت والغرب جاهد في الاعتداء على المقومات الوطن العربي من الداخل والخارج، بما يشمل تدمير مقوماته العسكرية وأبعاده الأخرى من حرية الاختيار السياسي وتقرير المصير والاستقرار اللازم للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتعاون والوفاق الاقليمي والدولي<sup>3</sup>.

والأعجب من ذلك فهذا الأمن لم يستطع أن يحدد عدوه كأبسط شكل من أشكال نظرية الأمن، بل لقد وجدنا من يرتأى أن إخراجنا من هذا الخانق الأمني يكون بأن ترتمي بصورة كاملة في مستنقع التبعية الأمريكية رغماً بأن 99 بالمائة من أوراق المنطقة بيدها.

وإذا كان المفهوم السابق انغماسي تهافتي انبطاحي أمام الغرب، فهناك مفهوم انكماشى يقلص الأمن إلى حدود الايديولوجيا المرتبطة بالجماهير الكادحة<sup>4</sup>.

---

1 - مقالة: بعنوان اشكاليات بناء الأمن القومي العربي، ص 8.

2 - هيئة تحرير مجلة الوحدة، عدد 28، لعام 1987، ص 8.

3 - الهيثم الايويي: إشكاليات بناء الأمن القومي، ص 8.

4 - قاسم العثمة: الأمن القومي العربي والوحدة القومية، مجلة، الوحدة عدد 28 لعام 1987، ص4.

5 - ناجي علوش: العرب والأمن المفقود، مجلة الوحدة، عدد 28، لعام 1987، ص 9.

وبالطبع فهذا الرأي يطرح مفهوم وحدة الهدف كمضمون للتعريف بالأمن القومي على حساب وحدة العمل ونعتقد - انسجاماً مع الواقع الراهن لأمتنا أن مسألة الأمن القومي العربي مسؤولية كل عربي، وأداة ذلك تجييش كافة طاقات الأمة وقدراتها .

كل إرادة لكل مواطن على تراب هذا الوطن من أجل تحقيق معادلة القدرة/الخطر<sup>1</sup> وأن تحول الحراب العربية إلى الصدور الصهيونية، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار جسامة الخطر الصهيوني، والتحامه الاستراتيجي بالغرب بقيادة الولايات المتحدة، الدولة العظمى في العالم .

وقد تكون القوى الشعبية النواة النووية في نظام الأمن القومي، ولكن هذه القوة لا تعدم حرصها الوطيد على التفاف كافة طبقات الأمة حولها والدليل على ذلك أن انتصاراتنا الكبرى في التاريخ المعاصر (حرب 1956 و1973) حملت على هذه القاعدة الاجتماعية الفذة، بل إن التاريخ نفسه يعلمنا أنه ما من انعطاف تاريخي أكبر إلا وورائه الالتفاف<sup>2</sup> .

وعلى ضوء ما تقدم، فليس عجباً أن نرى شعار وحدة العمل العربي يقدم من قبل رائد القومية العربية الراحل جمال عبد الناصر تكاملاً مع شعار وحدة الهدف، ومن خلال مؤتمرات القمة .

وحقيقة الأمر أن الأمن القومي مسألة سياسية في المقام الأول، إذ من السياسة تتبع طموحات الأمة وأهدافها العليا، وعلى ضوء السياسة تتخذ المساعدين ونحوهم إلى أصدقاء وتحديد الخصوم، وتحدد القوى المادية والمعنوية الكفيلة بالنصر، وعلى ضوء هذا المضمون السياسي للأمن القومي الإشكاليات الآتية:  
الإشكالية الأولى: وتتعلق بالدور المركزي للسياسة في صياغة الأمن القومي وتحديد عناصره ومقوماته وأولياته .

<sup>1</sup> - تكلم عن هذه المعادلة: الهيثم الأيوبي، مقالة السابق بعنوان إشكاليات بناء الأمن القومي .

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص7، وما بعدها .

ولما كان الأمن القومي هو الأمن المشترك للأمة، لذلك فمسؤولياته تقع على كاهل الجميع، إن اقتتال العرب كما حدث في حرب الخليج هو المأساة الكبرى والخسران الأعظم، والمطلب الأكبر للخروج من هذا المأزق المتري والخائق القاتل هو ترميم وترتيب البيت العربي وإنشاء الإرادة السياسية الجماعية وإقامة السلام القومي<sup>1</sup>.

الإشكالية الثانية: وتعلق بتحقيق التوازن في معادلة الخطر/القدرة بارتقاء القدرة إلى مستوى الخطر.

وبالطبع فنحن نفسر هذه القدرة بالمعنى الموسع بحيث تشمل مطلق القدرة، وعلى سبيل التذليل فقد اعتبر تحقيق الطاقة على صعيد المتكون الطبيعي، وتحقيق القدرة على صعيد المتكون الاجتماعي هو الهدف الأول للسياسة<sup>2</sup>.

وعلى هذا الأساس فالقدرة تعنى استنفار كافة مقدرات الأمة المادية والمعنوية والخلقية والقيمية وزجها وتجييشها في عروق الأمة دون أن يعني ذلك المدلول العسكري السلطوي الرسمي العربي<sup>3</sup> وبيان ذلك أن المتغير الذي يرجح ميزان القوى بصورة حاسمة يتمثل في بناء الإنسان والمجتمع من خلال خوض المعركة الحضارية لتحديث البنية المجتمعية وأشكالها المؤسسية للأمة العربية<sup>4</sup>.

وحقيقة الأمر أن الوطن العربي يشكل الآن أكبر سوق للسلاح العالمي، وأن العقود الماضية شهدت أعظم وتأثر التطور في استيراد السلاح وتضخم الميزانيات العسكرية وازدياد عدد القوات المسلحة النظامية وشبه النظامية، بل أن المنطقة

---

<sup>1</sup> - المقدم هيثم الكيلاني: الأمن القومي وجامعة الدول العربية، مجلة الوحدة، العدد 28، لعام 1987، ص120.

<sup>2</sup> - حسن صعب: مقدمة لدراسة علم السياسة، بيروت، دار العلم للملايين، ص286، لعام 1981.

<sup>3</sup> - هيئة تحرير مجلة الوحدة، عدد 8، لعام 1987، ص6.

<sup>4</sup> - غالب عامر: الأمن القومي العربي وتحديات الأحداث، مجلة الوحدة، عدد 28 لعام 1987.



العربية تحظى بنسبة 32 بالمائة من مجموع المساعدات الأمريكية العسكرية للعالم<sup>1</sup>.

وإذا أضفنا إلى ذلك وجود الخبراء العسكريين والمدنيين، والتسهيلات العسكرية المقدمة من واشنطن، أدركنا أهمية الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة في تنظيم الأمن العربي، بل في تحطيم هذا الأمن، وضرب محاولة ومساعي العرب لتكوين مجموعة إقليمية - أمن إقليمي موحد ومنسجم<sup>2</sup>.

الإشكالية الثالثة: وتعلق ببناء القوة العسكرية التي تشكل القدرة في معادلة الخطر/القدرة.

وتوضيح ذلك أن الدول العربية محرومة حتى الآن من صناعة الأسلحة ولا تمتلك سوى صناعات حربية محدودة، لسبب بسيط هو أن صناعة الأسلحة مسألة محكومة بالسياسة الخارجية، وبالتالي، فالأحداث تؤكد أن واشنطن المتحالفة استراتيجياً مع إسرائيل لا تسمح بأي شكل ببناء القوة العسكرية القادرة على تبديل موازين القوى لصالح الأمن القومي العربي، وهنا المأساة الكبرى في السياسة العربية، إذ كيف تقول أن 99 بالمائة من حل الإشكالية مع العدو في يد العرابة أمريكا، ثم ندرج في المنظمة الأمريكية سواء بسواء مع العدو الإسرائيلي الذي هو الصديق الاستراتيجي الأوفى لواشنطن.

الإشكالية الرابعة: وتعلق بالخيار بين القوة المسلحة النظامية القادرة على خوض الحرب التقليدية والقوة المسلحة الشعبية المؤهلة لخوض الحرب الشعبية طويل الأمد.

وبيان ذلك أن الأمن القومي العربي مهدد بقوى تقليدية متفوقة في قوات الدول الكبرى لقهر الإرادة العربية بالإضافة إلى القوات العسكرية الصهيونية ولمواجهة هذه التهديدات المتفوقة تهض الحرب الشعبية طويلة الأمد كوسيلة تستهدف

<sup>1</sup> - هيئة تحرير مجلة الوحدة عدد 28 لعام 1987، ص 6.

<sup>2</sup> - المرجع السابق.

تعديل الخلل في موازين القوى المادية من خلال حشد الجماهير الشعبية، وتعبئتها معنوياً وزجها في قتال طويل الأمد .

**الإشكالية الخامسة:** وتتعلق بالقدرة النووية كعامل حاسم في الصراع قادر على قلب موازين القوة بشكل جذري وعميق، ولهذا فنظرية الأمن تفترض وجود ردع نووي مماثل يفرض حالة العدم النووي من خلال الرعب المتبادل، والشيء المؤلم أن الدول الكبرى التي لها استراتيجيات عليا ذات بعد دولي والطامحة في ثروات أمتنا، هذه الدول حريصة على افتقارنا إلى هذا العماد الأمني، بل على امتلاكنا لتلك المظلة النووية الراقية، كل ذلك حتى تبقى إسرائيل الممثلة لناصية الأمر في هذا المجال .

**الإشكالية السادسة:** وتتبع من الواقع الجيو استراتيجي للوطن العربي المتمثل في كبر مساحته وافتقاره إلى البنية التحتية لشبكة المواصلات التي تربط أجزاءه، الأمر الذي يقود إلى الخلل في معادلة المساحة/الحركة، وهو خلل استراتيجي يتعارض مع متطلبات التحشد وحرية العمل، ويعيق تحول الجيوش العربية من قوى كامنة إلى قدرة فاعلة ذات طابع عملياتي وقابلة لتحقيق الدعم العسكري المتبادل الذي يشكل إحدى دعائم الأمن القومي العربي .

وأن نظر الأستاذ "قاسم العثمة" إن هذه الإشكاليات المزمعة لا يمكن أن تحل بصورة جذرية وحاسمة إلا إذا تمكنا من تحقيق التوازن بين الأمن العسكري والأمن الاقتصادي والاجتماعي بدلالة الأمن العلمي الذي سيكون الوسيط والقابلة لتحقيق الأطروحة القومية العربية وبعدها التقدمي الإنساني<sup>1</sup> .

ذلك أنه في ظل الواقع حيث تتعدد الإرادات السياسية، في توجيهاتها الاجتماعية والاقتصادية مع معطيات الثورة العقلية والعلمية المعاصرة، ومع المعطيات الثورة الاجتماعية بل مع معطيات الحرية الفردية والديمقراطية، إلى حد الذي يظهر به الوجود القومي العربي وكأنه عالم من القوى العبثية والقوى المغتربة عن الواقعية العالمية، وعن بعضها بعضاً .

<sup>1</sup> - مقالة المرسوم بعنوان: الأمن القومي العربي والوحدة القومية .

إن مشكلة المواطن العربي في حريته ومعاشه وتقدمه، وإن كانت تظل مطروحة على السلطة العربية، إلا أنها تظل تفتقر إلى أي جواب لأنها قضية تائهة بين ادعاءات هذا النظام وذاك، ولا يستطيع أي قطر أن يحلها على سبيل الانفراد. وفي ظل هذا التشطي والشتات والتشرد لمفهوم الأمن القومي العربي بتأثير السياسة الاستعمارية وقوى الاستقطاب الدولي في هذا الإطار يحد هذا المفهوم المتخبط تربته الخصبة في القطرية المتعاضمة ليتحول في النهاية إلى مشروع سياسي غايته أمن النظام وأمن السلطة، وليس أمن المجتمع والأمة، وهنا تصبح الأمة مركز السلطة تدوب فيها وتتوقف على إرادتها ومصالحها ونزواتها، وليس العكس، أي ليست السلطة جهاز في خدمة فكرة هي المشروع التاريخي الحضاري المجتمعي الذي يحشد مصالح الأمة وصبواتها ورنوها لتحقيق دولة الوحدة المحمولة على الحضارة العربية الإسلامية.

والنتيجة المترتبة على اندماج الأمة في السلطة قمع المعارضة والرأس المخالف، والتغول على حقوق المواطن، وقمع قوى التغيير الأساسية من البنية الاقتصادية والثقافية العربية وبقاء الوجود العربي حيث هو في الركود والتخلف والتبعية، أي الحيلولة دون تحقيق مشروع اجتماعي للأمن يقوم على خلق قوة الحي وقوة الحياة بكافة تجلياتها تكويناتها (القدرة الذاتية للمجتمع)<sup>1</sup>.

على هذا الأساس فالقوى الامبريالية على اختلاف مواقعها ونظرتها تجد في الوطن العربي كافة الإمكانيات المناسبة لتحول مرتقب يسمح بدخول العرب حلبة المنافسة الدولية عبر تولد الدولة العربية القومية، لذلك تؤكد تلك القوى الامبريالية الابقاء على وطننا كنقطة ارتكاز عسكرية وسياسية تنقل إليه نشاطاتها التنفيسية الحربية الساخنة والباردة بينما تبقى بعيدة عن (الصدام) هذا فضلاً عن حرص هذه الدول الكبرى على تشييد الوطن العربي، أي تحول إلى مجرد

---

<sup>1</sup> - علي الدين هلال: الأمن القومي، دراسة الأصول، شؤون عربية 35، لعام، ص 11.

معطى، سوق الاستيراد، دون السماح له بالاندراج في حركة التاريخ والتقدم والازدهار.

**والخلاصة أن:** الأمن بمفهومه الموسع كمنظومة متواشحة العري محكمة البنيان تقوم على ركن الثقافة والاقتصاد والأخلاق والقيم والاجتماع وغير ذلك من النواهي والروافع والديناميات وفي القلب من كل ذلك الشرط الإنساني، تعزيز الإنسان وتعلية قيمه وتنميته في كل مواهبه وأحاسيسه وطاقاته.

لقد عرف "ريمون بولان" الدولة بأنها حضارة بأسرها وقد استجمعن قواها وأصبحت عن نفسها في مؤسسة أو مؤسسات<sup>1</sup>، ولقد أكد "زفتز" بأن السلام هو الحرب بطريقة أخرى، وثمره ذلك فرض الإرادة، ومن ثم فالذي يستطيع فرض إرادته هم المنتصر، وفرض الإرادة قد يتم حرباً أو سلماً أو ايهاً أو إحياء<sup>2</sup>.

ومما لاشك فيه أن الأولوية الوحيدة للإيهاً أو الإحياء والزلزلة والتطويع هي الثقافة باعتبارها قوام الحياة وصلب جوهر الذات الإنسانية.

ونحن مع الدكتور "محمد الذواذي" بأنه ما من أمة فريدة من نوعها كالأمة العربية لجهة دور الثقافة في خلق شرايين وعروق ووشائح الصهر والدمج والتوحيد<sup>3</sup>، وهنا ينهض الكبير للمثقف لجهة الجغرافية التي يقف عليها خلافاً فالجغرافيا السلطة، فالسلطة تتعامل مع الواقع أي مع ما هو كائن وممكن أو المثقف، فمناطق أمره ومنتهى حقيقته وهدفه ما ينبغي أن يكون من خلال سدائته لقيم الأمة ومثلها ونظرتها إلى الوجود ولعمري واستطراداً ألبست حضارتنا هي حضارة الكلمة خصوصاً عندما هتف لسان أمين السماء في إذاً أمين الأرض لسان أمين السماء

---

<sup>1</sup> - ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، ترجمة الدكتور عادل العوار، دمشق، دار طلاس، 1986، ص 301.

<sup>2</sup> - حديث الدكتور حسن حنفي لصحيفة المجد الاردنية، بتاريخ 1997/8/25، ص 4.

<sup>3</sup> - الرموز الثقافية وتطبيقية على الوطن العربي، مجلة شؤون عربية، عدد 82، لعام 1995، ص 194.

جبريل في إذا أمين الأرض محمد ﷺ ايذاناً لولادة حضارة الكلمة التي ستبقى إلى يوم الدين.

والثقافة لا تونغ وتؤتي أكلها وثمارها إلا إذا استقلت عن هيمنة القوة، بل إن التاريخ الإنساني في جوهر، صراع دائم بين هيمنة القوة، وإنجاز المعنى القيمة. هكذا تؤكد سيرة حياة مفكرنا الفذ ابن خلدون أن هذا المفكر لم ينجز مقدمته الرائعة إلا عندما استقل عن السياسة.

واستقلال المثقف لا يعني الانفصال المطلق عن السياسة بل بمعنى التمييز دون الفصل، وهذا ما لحظناه في الفترات المزدهرة من تاريخ أمتنا كما نلاحظ حالياً في الدول المتقدمة التي تحرص على أن نستمع بإصغاء إلى إنجاز المعنى من فم مثقف الأمة لا المثقفين الرماديين الذين يسبحون بحمد السلطان والمرتهنين لخطأه.

وتأكيد ذلك أن الرثة التي يتنفس منها المثقف هي المجتمع المدني بتضاعيفه ونسجه، وخلق عروقه وشرائبه وألوياته المختلفة وهذا ما تؤكد حضارتنا الوارفة الظلال ودور مؤسسة المجتمع المدني وخاصة الأوقاف في الحركة العلمية وفي إقامة المؤسسات اللازمة لذلك.

وإذا كنا ولأسباب عدة مقر بأن حركة المجتمع المدني على ربوع وطننا لما تتوطد ونتوطن وتترصن وتتمحض عن بناء مؤسسات الأمة كصروح تحية تحمل الصرح القومي -السياسة إذا كان الأمر كذلك مجتمعا المدني بعدم وجود مؤسسات ترنو إلى مستوى التعبير عن الهوية والأصالة والرنو والطموح لتشوف المعاصرة والاحتياج من روح التقدم، تحقيقاً للتثوير بألية التنوير، وفي مطلع هذه المؤسسات إن لم نقل أثراها وأكثرها حصانة، مركز دراسات الوحدة العربية الذي يعانق نهجاً عصرياً متكاملأ إدراكاً منه بالتداعيات الآتية: استشراف -معرفة قدرة - إرادة - تنفيذ .

لقد أدرك هذا المركز «وليسمح لي بهذا التحليل المتواضع» أن امتلاك القدرة هو موضوع علم السياسة، وهذا الأمر لا يتم إلا بالمعرفة، لكن المعرفة ذاتها لا بد لها من إطار أوسع هو الاستشراف -العمق الفلسفي والعلمي وغيرهما .

وفي نظرنا أنها مهما حاولنا أن نصف جهد هذا المركز بالأكاديمية والمعرفة  
الصرف، فنحن لا نستطيع أن ننكر البعد السياسي غير المباشر على قاعدة أن  
التطوير هو طريق التثوير وعلى قاعدة أن الأمن هو التنمية بكافة إبعادها .  
ومع ذلك فهذه المؤسسة العظمى الفذة لا بد لها أن ترفد بمؤسسات شعبية تجعل  
مبضع المعرفة أكثر حفاً وتماساً ومعانقة وتفاعلاً وتواشجاً مع الروح الشعبية،  
وهذا والهاجس والهم العميق الذي ينبثق عنه المؤتمر القومي العربي، والذي يحكم  
استراتيجية الوعي التي أبدعها ويرسخها وينمي أكلها وهكذا تتضح الجدلية  
التاريخية بين المركز والمؤتمر، فالمركز هو الظهير والذراع المعروف للمؤتمر .  
في حين أن المؤتمر هو: المؤسسة الشعبية التي وجهتها وهدفها ومبتغى أمرها  
ترصين وتوطين وتوطد الإرادة الشعبية والوجدان الشعبي والقلب الشعبي والروح  
الشعبية والذاكرة الجمعية والضمير العام لأننا بألية مشروع نهضوي يستفز  
الشعب ويعبئه في معركة التثوير فهي الدخل الأول والقلعة الحصينة للتثوير وبناء  
الأمة والذود عن حياضها .

ولكن أليست هذه الوظيفة التي يضطلع بها المؤتمر تتسم بنوع من الايديولوجيا؟  
في رأينا أن الجواب بالإيجاب .

لكن ايديولوجياً لها ماهيتها الخاصة وطبيعتها الذاتية .  
ذلك أن ايديولوجيا المؤتمر «إن صح هذا التعبير» لا تنطلق من هذه السياسة أو  
تلك ولا من أجل هذا النظام أو ذلك، ولكنها الايديولوجيا الكبرى التي تتعامل  
وتعانق نواب الأمة، ومن هنا فهذه الايديولوجيا لا تعدم خلق البناء العام أو  
السقف الأكبر والبوصلة أو نجم القطب الذي يمثل سمت الأمة وطريقها العام .  
وفي إطار هذا السقف العام تتكامل كافة الايديولوجيات والتنظيم والأفكار  
والمصالح على قاعدة الديمقراطية: دع الزهور تتفتح ولتتبار .  
إن ايديولوجيا المؤتمر هي الهوية التاريخية الحضارية للأمة العربية وتراثها الخالد  
ومستقبلها الزاهر، ومن هذه الزاوية، فالمؤتمر «وعلى ما أعتقد» مفتوح الرحاب  
لكل عربي يعمل من أجل وحدة الأمة وأهدافها ويزود عن شرفها وحقوقها .

وفي نظرنا أن هذه الصيغة للمؤتمر تقترب في ماهيتها الذاتية من الحركة العربية الواحدة التي طرحنا في الستينات في قمة المد القومي والتي تعذر تحقيقها بسبب الصراع بين القوى التقدمية آنذاك.

وعلى هذا الأساس فالمؤتمر «كإحدى صيغ الحركة العربية الواحدة» مرشح لأن يلعب دوره الكبير في التعبير عن الإرادة العامة العربية، إضافة إلى سلطته المعرفية في بلورة أهداف الأمة في الوحدة والازدهار والتقدم والدفاع عن الهوية.

وإذا كان من الخطأ الفاحش الخضوع إلى رد الفعل الانعكاسي، إذا كان الأمر كذلك فإننا نذكر بأن معهد (جاي) في إسرائيل قدم خدمات معرفية كبيرة للسلطة السياسية في أمهات القضايا، وقد أعطى رأيه في قضية هامة مثل أوسلو والتطبيع وغير ذلك.

إذاً فالسؤال هو: لماذا لا يتم هذا التكامل من مواقع الاختصاص والاستقلال - بين السلطة السياسية وسلطة المعرفة، بين المؤتمر والسياسة، بأن تستمع السياسة لدقات قلب المؤتمر وتوجيهاته وتصويباته لقضايا الأمة، ولماذا تتولد الثقة الوطيدة والترتيب المنسجم.

بأن يأخذ كل موقعة على ربوع وطننا وتتبارى الزهور وتتخلق المؤتمر في هذا الاتجاه.

مثال بسيط نضربه للتدليل على أهمية المعرفة في رقد السياسة يتمثل في موضوع التطبيع مع العدو الصهيوني، فهذا التطبيع موضوع مراهنات سياسية، تعتبرها إسرائيل من عناصر ومدركات التفاوض ومن أجل الوصول إلى غايات أخرى في حين أن إسرائيل نفسها لا ترغب في التطبيع، كما يتضح من الإحصاءات التي أجريت بهذا الخصوص، وإن المجتمع الإسرائيلي يخوض حرباً ثقافية بين العلمانيين والمتطرفين، وبالتالي فإن وتأثر التطور ومسيرة الصيرورة في إسرائيل تكشف بما لا يقبل الجدل توجه هذا المجتمع نحو الاستكبار والعتو والتعصب والكراهية، بل أن قطاعات كبيرة من العلمانيين تتخلى عن صف حزب العمال لتأخذ لها مواقع جديدة في صفوف حزب الليكود.

هكذا إذاً يفهم السياسي في الوطن العربي الأمور مغلوطة، ولا من قيام مؤسسات معرفية تقوم في الحضر المعرفي للكشف عن طبقات الوعي ثم تقديمها للسياسي، وهو عين الدور الذي يلعبه المؤتمر القومي، ويمكن أن يلعبه بصورة أكثر، كمالات وتصميمات.

وإذا كان المؤتمر المذكور يلعب الدور الكبير في تجديد معالم المشروع الحضاري النهوضي للأمة وتنمية الحس الاستراتيجي الأعلى للوعي العربي، فهذا الدور يمكن له أن يحتل موقعاً جديداً في مجال الأمن إذا ما سعى المؤتمر إلى ضخ هذا الوعي في عروق الأمة وشرائبيها ليحولها إلى حالة عامة، ورأى عام فاتح يعرض نفسه وحضوره وإراداته.

المحامي برهان زريق  
اللاذقية - سوريا



### العنف الاجتماعي والطائفي والسياسي<sup>1</sup>

**عديدة** هي العلوم وأدوات المعرفة التي تعانق بحثنا وتتعامل معه، تفككه وتشرح جثته، وإن كانت هذه الحافات والمعانقات والتقنيات «في هذا المقام» لا تقدم إلا بعض الأفكار المفتاحية Notion cley الآتية:

- إن نسبة علم الاجتماع إلى علم السياسة، كنسبة العلم إلى التقنية، المعرفة من أجل الاستشراف، والاستشراف من أجل القدرة<sup>٢</sup>.
- سنتعامل مع بعض المسائل الحضارية، ولهذا سنعالجها على ضوء المبادئ الحضارية: ((فالدولة حضارة بأسرها، وقد استجمعت قواها وأفصحت عن نفسها في مؤسسات))<sup>٣</sup>.
- التماسك -المعتصم والملاذ من العنف- قسمة راسخة في حضارتنا، وهذا ما أكده الأنثربولوجي المرموق "لويس دومون" بقوله: ((الحضارة العربية

---

<sup>1</sup> - قام الدكتور برهان زريق يرحمه الله بإعادة صياغة البحث ليصبح جزءاً من كتاب العنف الفطري والمكتسب الذي يحمل الرقم/54/ضمن سلسلة الكتب المنشورة بعد الرحيل، على موقعه الإلكتروني: [WWW.Zraik.info](http://WWW.Zraik.info).

<sup>2</sup> -جان لابييار: السلطة السياسية، بيروت، باريس، منشورات عويدات، ط3، 1983، ص81.

<sup>3</sup> - ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، دمشق، دار طلاس، ط1، 1986، ص301.

الإسلامية تضع التماسك الاجتماعي في الصدارة، مقابل إعطاء موقع أساسي للفرد في الحضارة الغربية والهندوسية))<sup>1</sup>.

ولا عجب، فمبدأ "السواء" والتعددية سمة راسخة في عمراننا الحضاري، وهذا ما عرفه الإمام الأعظم "أبو حنيفة" بقوله: ((لقد بعث الله رسوله ليجمع به الفرقة وليزيد به الإلفة، ولم يبعثه ليفرق الكلمة، ويحرض الناس بعضهم على بعض، فالرسل لم يكونوا على أديان مختلفة، ولم يكن كل رسول يأمر قومه بترك دين الرسول الذي قبله، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ المائدة/48، فالاختلاف مع أهل الكتاب في المنهاج "الشريعة"، وليس في الدين "كلمة السواء"))<sup>2</sup>.

وهذا ما أكده الفيلسوف "الفارابي" بقوله: ((الدين الإسلامي هو الدين المسيحي، وقد نقل -معدلاً- إلى الأمة العربية، والدين المسيحي هو النواميس النظرية والعملية التي استتبعت من الفلسفة اليونانية لتأديب الجمهور، والمنقول إلى الأمة العربية هو أصل للدين المسيحي))<sup>3</sup>.

في حوار جرى بين سيدنا خالد بن الوليد وأمير الحيرة، قال خالد: ((كم عليك من السنين، قال: مئة من سنين، قال خالد: فما أعجب ما رأيت؟، قال: رأيت القرى منظومة بين دمشق والحيرة، تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا برغيف، فحسبه خالد خرقاً، فلما حاوره وجده حين فره واختبره عضا داهية))<sup>4</sup>، ويا للعجب

<sup>1</sup> - د. غسان سلامة: نحو عقد اجتماعي عربي جديد، بحث في الشرعية الدستورية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1987، ص101.

<sup>2</sup> - الإمام أبو حنيفة: العالم والمتعلم، نشر الكوثراني، القاهرة، 1368هـ، ص9.

<sup>3</sup> - د. محمد عابد الجابري: نحن والتراث، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006، ص126.

<sup>4</sup> - ظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، بيروت، دار النفائس، ط5، 1985، ص10.

فالمواطن العربي حديثاً لا يقوى على التنقل «في بعض الدول العربية» بين الحي والذي يجاوره.

والأمر السداد القول إن تاريخنا تزينه القيم السامقة التي خالطتها بعض الوهاد<sup>1</sup>، فعلى سبيل المثال، نرى البغدادي يسلط سلاح البدعة في وجه الكثير من الفرق الإسلامية، وليس هنالك في رأيه إلا فرقة ناجية واحدة هي الفرقة السنية، فإن المرء على الباطنية أو البيانية أو الخطابية الذين يهتدون بالهية الأئمة، أو كان على مذاهب الحلول والتناسخ، فليس هو من أمة الإسلام ولا كرامة له، وإن كانت بدعته من جنس بدعة المعتزلة أو الخوارج أو الرافضة الإمامية أو الزيدية، فهو من الأمة في بعض الأحكام.

ونحن مع "الدكتور حنفي" فإذا كان هدف القدماء إثبات عقائد الفرقة الناجية، ضد الفرق الضالة، فهدفنا الدفاع عن اجتهادات الأمة كلها، وإذا كان هدف القدماء هو بيان (الفرق بين الفرق) فهدفنا الجمع بين الفرق، وإذا كان هدف القدماء بيان (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)، فهدفنا بيان (مقال المسلمين واتفاق المصلين)، وإذا كان هدف القدماء عرض (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) فهدفنا هو الكشف عن عقيدة الأمة وكيفية استعمالها من كافة قواها الاجتماعية والسياسية<sup>2</sup>.

فالمعجزة العربية زينت «حسب ترداد بعض المفكرين» تجربتنا الحضارية المنطوية على الفكر الإيماني، وباستعراض تفاصيل هذا الفكر نسجل ما يلي<sup>3</sup>:

---

<sup>1</sup> - د. شاكر مصطفى: ميزات التاريخ العربي، قراءات في الفكر القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الكتاب الثالث، مجموعة المؤلفين، ط1، 1994، ص102.

<sup>2</sup> - د. حسن حنفي: العقيدة إلى الثورة المقدمات النظرية، بيروت دار التنوير، ط1، 1988، ص32.

<sup>3</sup> - د. محمد جابر الأنصاري: الفكر العربي وصراع الأضداد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1999، ص91.

أهل الشرك	مخففة المنكر	أهل التأويل الباطني	أهل التأويل العقلي	أهل الرأي	لزوم الحد
الزندقة	الحلولية	الإسماعيلية وفروعها	المعتزلة	الحنفية	أهل الحديث
الردة	التقمص	الصوفية المغالية	الفلاسفة الإسلاميون	الأشعرية	الحنابلة
الكفر	الناسخ		معتزلة الشيعة	الماتريدية	المالكية
الإلحاد	تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم		الشيعة الإمامية	الغزالي	الصفاتية
الدهرية			الصوفية العقلية	الشيعة الزيدية	الظاهرية
إنكار النبوة					ابن تيمية

والملاحظ أن أياً من الفرق والمذاهب السابقة لم يصنف في دائرة البدعة وأهل الكفر، فأين نحن إذاً من مقولة الفرقة الناجية لا سيما في هذا العصر؟ علماً أن تاريخ الفكر الإسلامي خلف لنا -على سبيل المثال- مناظرات بين الرازي المنكر للنبوة، وبين أعلام المذهب الإسماعيلي، وأن الرافد الإيماني الباطني للمذهب تصدى من موقعه ضمن دائرة الإيمان للتيار الإلحادي الصريح<sup>1</sup>.

وإذا كانت الصخرة التي تسد باب الكهف (الانسداد التاريخي)، انزاحت لصالح الإسماعيلية، فالانزياح الثاني تم لصالح الإباضية في الحوار الذي جرى عام 1986 في مؤتمر الفقه الإسلامي<sup>2</sup>، كما أن الرسول الكريم ﷺ في حوار مع النصراني -خبر المباهلة- لم ينعتهم بالكفر، وإنما أحال الأمر إلى الملك الديان والإسلام لم يقدم نفسه كتجاوز للمحاولات العقيمة بين اليهود والمسيحيين. بل بين مختلف التصورات اللاهوتية المسيحية المنغلقة، خصوصاً بطبيعة المسيح الإلهية

<sup>1</sup> - د. الأنصاري: الفكر العربي وصراع الأضداد، ص32.

<sup>2</sup> - فهمي الهويدي: أزمة الوعي الديني، دار الحكمة، صنعاء، 1988، ص34.

والبشرية، الأمر الذي أمكن تفسير نجاحه الصاعق في منطقة الشرق الممزق بالمحاورات حول طبيعة المسيح<sup>1</sup>.

وإذا كان آباؤنا أشادوا عمراننا الحضاري على قرار مكين هو المحبة والتسامح والانفتاح، فلنهد بتجربتهم في: (بذل السلام للعالم) واقتضاء برسولنا الكريم ﷺ وجواباً لسؤال وجه إليه: ما هو أحسن عمل يعمله الإنسان، منوهين بأن الفرص لاتزال مفتوحة أمام مختلف الأصوليات الدينية في دارنا العربية لإجراء الحوار مصداقاً للحوارية التي جرت بمبادرة initiative من شيخ الأزهر موجهة للفريق الشيعي.

وإذا كانت أوروبا قد استغرقت ثلاثة قرون (من 1648 حتى 1948) لبناء مجتمعا المدني، فإن بدايات مجتمعا المدني كانت موجودة إبان الحوار الذي جرى بين سيدنا خالد وأمير الحيرة، وإن العنف الذي تعيشه حالياً أمتنا العربية لا يقارن بما حدث في أوروبا، مشيرين إلى أن الولايات المتحدة تضم حالياً تسعمائة طائفة بروتستانتية<sup>2</sup>، وهذا العدد لم يحل دون هذه الدولة وبناء أقوى وأزهى مجتمع في التاريخ، ومن ثم فالانقسامات في أمتنا العربية لن تحول دون انطلاقنا إذا صحت عزيمة المستقبل.

هذا وسنقسم الموضوع إلى الأبحاث الآتية:

---

<sup>1</sup> - جورج قرم: المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007، ص72.

<sup>2</sup> - د. هوستن سميث: أديان العالم، دار الجسور الثقافية، حلب، ط3، 2007، ص459.

## البحث الأول

### مفهوم العنف

المفهوم هو الإطار العريض الذي يقوم بالتحديد الأول للظاهرة، والفكرة المفتاح التي يتم بها افتتاح الموضوع فهو بمثابة قطرات الدم التي تسري في العروق والمفاصل، ودورها كدور النقود في الاقتصاد، فهو أقرب ما يكون إلى المحاكمات الفكرية ذات الطابع الفلسفي، ومن ثم فالعنف «مفهوماً» قوة مادية أو فكرية أو سلوك يلحق الأذى والدمار بالأفراد والممتلكات، والتعريف غير المفهوم، إذ قد يكون للمفهوم الواحد عدة تعاريف، وكل تعريف يسعى لتحديد المفهوم<sup>1</sup>، وسنفرع على ذلك الأبحاث الآتية:

- تمييز العنف.
- أنماط العنف.
- معاني العنف.
- معنية العنف: تكييفه وتوصيفه.
- التعريف بالعنف.
- أنواع العنف.

---

<sup>1</sup> -تيد هندريش: العنف السياسي فلسفته، أصوله، أبعاده، بيروت ترجمة عيسى طنوس، وعبد الكريم محفوض، ط1، 1986، ص8.

### الفرع الأول- تمييز العنف "اشتباهاه واختلاطه ببعض الظواهر:

ونميز هنا بين الجهد الخلاق أو المنشئ للظاهرة، ثم جهد الممانعة<sup>1</sup>، أي تحديد ما علق بها من شوائب، بمعنى أننا سنحاول التماس ما اختلط وما اشتبه بموضوعنا من أكار وشوائب، ونحن هنا سنكتفي بتعداد هذه المفاهيم<sup>2</sup> المقاربة لموضوعنا بما يتناسب مع رقعة البحث:

- العدوان.
- القهر.
- القوة.
- الإرهاب "استراتيجية تقوم على القهر والتهديد بالعنف كأداة رئيسية لها".

### الفرع الثاني- أنماط العنف:

- العنف المباشر.
- العنف غير المباشر "الموجه إلى أحد رموز الموضوع الأصلي"<sup>3</sup>.

### الفرع الثالث- معاني العنف:

- المعنى اللغوي.
- المعنى القانوني.
- المعنى السياسي.
- السيكولوجي.

---

<sup>1</sup>- د. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الباسط شاهين، القاهرة، دار الفكر العربي، 1987، ص52.

<sup>2</sup>- د. هيثم أحمد زيبيدي: ثقافة العنف في المجتمع العراقي، تموز للطباعة، دمشق، ط1، 2011، ص16.

<sup>3</sup>- المرجع السابق، ص30.

هكذا تتعدد وسائل وأدوات المعرفة التي سكبنا وأفرغنا فيها مادة العنف وأنواعه وأنماطه ومعانيه، كل ذلك دليل على سعة رقعة العنف وتعدد أشكاله وأضرابه، وهذا ما يفتح أمامنا الباب واسعاً لمعنية العنف والتعريف به.

#### الفرع الرابع- معنية الهدف تكييفه وتوصيفه:

ونعتقد أن تكييف العنف وتوصيفه، وتحديد أركانه -مثله مثل العرف- يقوم على ركنين: الركن المادي والركن المعنوي "النفسي"، فالركن المادي في العنف قد يكون تنفيذاً لكتلة الشرعية bloc of legality، بالمعنى الواسع، الذي يشمل الشرعية الأخلاقية أو الدينية أو القانونية، وهذا هو الوعي القرآني، فالحدود يخضع للرسول والأنبياء والكتب، وليس العكس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ الحديد/25. ولهذا فلا يصح وصف العنف بأنه "قابلية التاريخ"<sup>1</sup> إلا إذا افترضنا أن المولود كان - شرعياً حسب التكييف القرآني- وبالتالي فما العنف "القوة المحض" إلا هبوط إلى حضيض العمل المادي، المجرد من أية قيمة أو معنى إنساني أو ديني أو أخلاقي.

#### الفرع الخامس- التعريف بالعنف:

هنالك اتجاه فكري يأتي بالتعريف في نهاية الدراسة بعد أن يكتمل جنى قطافها وتونع ثمراتها، حيث يقوم التعريف بغربة ما تم التوصل إليه ونخلها وجمع شتاتها من خلال الحد التام حسب قول المناطقة العرب. بيد أنه قد تدفع الاعتبارات العملية للتضحية بالاعتبارات المنطقية، فتحدو الباحث إلى أن يستهل عمله بتعريف يوظف الموضوع ويوجه الدراسة وجوانبها المتعددة.

<sup>1</sup> - حسن إبراهيم حسن: العنف من الطبيعة إلى الثقافة، ص9.



والتعريف ليس شرحاً مفصلاً، وإنما هو محاولة لضبط مقومات الشيء المعرف وإسقاط كل ما هو عرضي وطارئ<sup>1</sup>. وصياغة التعريف من أشق الأمور، وقد أثر عن الرومان القول: ((التعريف أمر خطير))، والعنف ظاهرة معقدة متشعبة ومتشابكة، وإذا ما حاولنا صياغة جزئياته بدت أمامنا صورة مشتتة العناصر، متشابكة البنيان، ولهذا فسنتكفي ببعض التعاريف:

### 1 - التعاريف النظرية:

- العنف هو الاستخدام غير العادي للقوة من قبل مجموعة من الأفراد لإلحاق الأذى بالآخرين والضرر بممتلكاتهم<sup>2</sup>.
- ضغط جسدي أو معنوي ذي طابع فردي أو جماعي يوقعه الإنسان بالإنسان<sup>3</sup>.
- استعمال قوة محظورة من قبل القانون وموجهة لإحراز تغيير في المناهج السياسية وفي أشخاص الحكومة أو نظامها أو لإحداث تغيير في المجتمع<sup>4</sup>.
- غياب التكامل الوطني والعدالة الاجتماعية وحرمان فئات معينة من بعض الحقوق، وعدم إشباع الحاجات الأساسية لقطاعات عريضة من المواطنين والتبعية على الصعيد الخارجي<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - د. سليمان مرقص: المدخل للعلوم القانونية، القاهرة، المطبعة العالمية، 1967، ص14.

<sup>2</sup> - د. بكر القباني: ثورة 23 يوليو وأصول العمل الثوري المصري، القاهرة، دار النهضة العربية، 1970، ص109.

<sup>3</sup> - بيير ثيو: العنف والوضع الإنساني في المجتمع - مجموعة من المؤلفين، 1988، ص5.

<sup>4</sup> - تيد هندريش: العنف السياسي فلسفته، أصوله، أبعاده، ص140.

## 2 - التعاريف الإجرائية:

- تحدد مؤشرات العنف السياسي الداخلي بالمظاهرات وإحداث الشغب والإضرابات والاعتقالات والأزمات الحكومية والثورات وحروب العصابات وأعمال التطهير والانقلابات وعدد القتلى<sup>٢</sup>.
- الأعمال المتمثلة في استعمال القوة والعنف والقسر والإكراه وأعمال الهدم والإتلاف والتدمير والتخريب وأعمال الفتك والتقتيل والتعذيب<sup>٣</sup>.

### الفرع السادس- أنواع العنف:

وهنا أيضاً سنكتفي بتعداد هذه الأنواع ونترك تقدير التفاصيل للقارئ:

- العنف البدني أو الجسدي.
- العنف اللفظي.
- العنف اللين<sup>٤</sup>.
- العنف الرمزي<sup>٥</sup>: وهو استخدام وسائل رمزية تحدث نتائج نفسية وعقلية واجتماعية.
- العنف الهيكلية أو البنائي " ويؤدي إلى صراعات شاملة.

---

<sup>1</sup> - محمد عبد الرحمن حسن: المجلة العربية للدراسات والنشر، السنة الأولى، العدد 12، 1988، ص5.

<sup>2</sup> -R.J. Rummel: Dimensions of Conflict Behavior Within Nation. 194. 1959. Journal of conflict Resolution, Vol 10, 1966, p7.

<sup>3</sup> - حسين توفيق إبراهيم: ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، ص95.

<sup>4</sup> - حسن إبراهيم حسن: العنف من الطبيعة إلى الثقافة، ص43.

<sup>5</sup> - د. مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المهذور، بيروت، معهد الإنماء العربية، 1976، ص40.

○ العنف المقتنع وينشأ من شعور الإنسان بالعجز جراء الضغوط<sup>1</sup>.

وهكذا نكون قد أرهصنا للموضوع وتلمسنا حافاته، بقي أن نقترح عليه ملاذ ودياره في ثلاثة مستتقات ومآزق، كما يتجلى من بؤرته، اخطبوطه، الثالوث الأكبر، الأذرع الوحشية فيه، مراعين في المعالجة التدرج الصاعد في العنف، وكما يلي:

## البحث الثاني

### العنف الاجتماعي

المجتمع هو العروة الوثقى والقرار المكين وحلقة اللباب في الحياة، وأي اضطراب فيه زلزال لانبثاق العنف، وعلى ضوء هذه الأهمية للمجتمع نهضت حوله الآراء الآتية:

- اجتماع اليوم هو سياسة الغد<sup>2</sup>.
- السياسة إبرة مغناطيسية تحركها الساحة المغناطيسية التي هي المجتمع<sup>3</sup>، فالسوسيولوجيا بهذا الوصف هي التاريخ.
- إذا أردنا أن نفهم السياسة التمسناها في الإيديولوجيا، وإذا أردنا أن نفهم الإيديولوجيا التمسناها في الدين، وإذا أردنا أن نفهم الدين وجدناه في الفيزياء الاجتماعية<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - د. هيثم أحمد زبيدي: ثقافة العنف في المجتمع العراقي، ص30.

<sup>2</sup> - غاستون بوتول: سوسيولوجيا السياسة، بيروت، باريس، منشورات عويدات، ترجمة نسيم مضر، ط3، 1982، ص152.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص150.

<sup>4</sup> - ريجيس دوبريه: نقد العقل السياسي، دار الآداب، بيروت، ط1، 1986، ص173.

## ▪ السياسة تقنية الاجتماع<sup>1</sup>.

فالمجتمع هو الأوقيانوس الأكبر الذي يموج ويمور بتلايف وآليات العنف، وقد استطاعت الحياة خلال مرقاتها وصعودها أن تجرف الكثير من الانسدادات الاجتماعية ومستنقعات العنف.

▪ نودي عنتره من أبيه «على إثر غزو القبيلة»: ((كرّياً عنتره، فأجاب الابن بامتعاض: العبد لا يكر، ولكن يحسن الحلب والصر، فبادره الأب: كر وأنت حر))، وهنا كانت البطولة، الملحمة من العبد المحرر.

وإذا كان الإله جانوس استعاد نضارة وجهه الطافح بالنور، فوجهه الثاني لا يزال مظلماً داكناً يرسف بغسق الدجى ويؤر التوتر والعنف.

أجل لقد صيغت تجربة الوجه المضيء لجانوس في التاريخ ومنعرجاته وكانت في المجتمع المدني الذي استطاع محاصرة «إلى حد ما» أسباب ويؤر التوتر والعنف، فما هو هذا المجتمع؟

إنه مجموع اجتماعي يتميز بنوع خاص متعدد ومتنوع من البنى والمسالك والمواقف الجماعية وبنماذج ثقافية ورموز ومعتقدات وقيم خاصة وبتنظيم وذهنية مشتركين، وهو حاصل اجتماع عدد كبير من الجماعات التي تختلط دون أن تذوب، وتطور المدنية يسير أكثر، فأكثر نحو الاتساع والتعقيد، والمشاركة تتسع قاعدتها باستمرار<sup>2</sup>.

وعرفه "الدكتور حامد خليل" بقوله: ((المجتمع المدني نسيج متشابك من العلاقات التي تقوم بين الأفراد من جهة والدولة من جهة أخرى، وهي علاقات تستدعي تبادل المصالح والمنافع والتعاقد والتراضي والتفاهم والاختلاف والواجبات والمسؤوليات)).

<sup>1</sup> - جان لابييار: السلطة السياسية، ص52.

<sup>2</sup> - المرجع السابق ص52.

ومن الناحية الإجرائية، فهذا النسيج من العلاقات يستدعي أن يتجسد في مؤسسات طوعية سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وحقوقية متعددة تشكل في مجموعها القاعدة الأساسية التي تركز عليها مشروعية الدولة ووسيلة الضغط عليها ومحاسبتها .

ويضاف إلى ذلك حق المواطنة بما ينطوي عليه من حق التعبير والقول والكتابة والاعتقاد والحياة، ومن الحاجات والنوازع الكامنة في النفوس، وكل ما يؤدي إلى تفتح قوى الشخص العقلية والمعرفية والفنية والعاطفية وإروائها والارتقاء بها بوصفها ذاتاً فردية إنسانية، مع تفكك العلاقات العضوية القائمة على الفرد أو القبيلة أو المذهب، إلى مواطنين لهم شخصياتهم الحقوقية والسياسية والاجتماعية والثقافية وبوصفهم كائنات إنسانية مستقلة<sup>1</sup> .

ويموج المجتمع المدني في دارنا العربية بمختلف أنواع الانسداد المفضي إلى التوتر، رغم توفر كل مقومات الوفرة والسعة والجذور الحضارية، ورغم أن هذا المجتمع فرّ عن أعظم تجربة فذة في نسيج التماسك الاجتماعي: شواهد الوقف، الزكاة، التعليم، الحسبة، الجهاد، التكامل، الاجتماعي والتضامن<sup>2</sup> . ولا حاجة للتأكيد بأن الفكر الإسلامي، وفر لنا الكثير من المظان لإبداع صور التماسك والشفافية:

- الله هو المسعر "حديث نبوي ينهي عن الاحتكار والانسداد الاقتصادي".
- أرسل تاجر إلى وكيله صفقة قمح وأوصاه أن يبيعها فور الوصول، لكن الوكيل أجل البيع طمعاً في (الريح) وسمع التاجر الخبر، فأمر الوكيل أن ينفق الزيادة على الفقراء.

<sup>1</sup> - د . حامد خليل: الحوار والصدام في الثقافة العربية المعاصرة، ص173 .

<sup>2</sup> - د . برهان زريق: المجتمع المدني العربي والإسلامي، الكتاب الذي يحمل الرقم/31/ضمن سلسلة الكتب المنشورة بعد الرحيل، على موقعه الإلكتروني: [WWW.Zraik.info](http://WWW.Zraik.info) .

■ حضر أحدهم إلى الإمام أبي حنيفة طالباً أن يبيعه قطعة من الحرير، فطلب الإمام من ابنه أن يريه الحرير فامتثل الابن، مقرناً إراءة الثوب بدهشته وقوله متعجباً: ما شاء الله، هنا انبرى الإمام رافضاً البيع بسبب التهويل الذي قام به الابن.

■ حالات عدة في القرآن الكريم للشفافية، من ذلك حال الحرية حيث جعلها الله قصداً نهائياً للإنسان المالك لقوى الوعي سمعاً وبصراً وفؤاداً: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ النحل/79، والله تعالى لم يجعل قاعدة السلم كافة معلقة في الفراغ، بل شدّها إلى ضوابط اقتصادية واجتماعية، إذ أوضح خصائص العبودية الطبقية وآثارها الضارة، وحض على تملك البشر لإنتاجيتهم لينتقلوا من حال السيطرة الطبقية<sup>1</sup>، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ النحل/76.

هذا وتتعدد مظاهر وأدوات العنف الاجتماعي<sup>2</sup>:

• المشاحنات والتنافسات وشحناتها الانفعالية إذا امتدت وتغلغلت في المجتمع، وتحولت إلى ظاهرة اجتماعية وتفاعلات ثقافية أو عرقية أو عقدية.

<sup>1</sup> - محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، العالمية الإسلامية الثانية، بيروت، دار الهادي، ط1، 2004، ص511.

<sup>2</sup> - حسن ابراهيم حسن: العنف من الطبيعة إلى الثقافة، ص182 وما بعدها.

• الخوف الاجتماعي، وقد ضرب المفكر جورج قرم مثلاً على ذلك في تخوف الجماعات اللبنانية المتصارعة والمتصادمة، فكان ذلك يدفعها إلى مزيد من العنف الناتج عن الخوف، فالجماعات الطائفية خائفة والجماعات الإثنية خائفة والتنظيمات السياسية خائفة، والكل خائف من كل، والمهرب هو عنف الكل تجاه الكل<sup>1</sup>.

• والعنصرية لاتزال أحد أهم أشكال العنف، فهي النرجسيات، التي تجعل جماعة معينة تشعر بتفوقها على جماعات أخرى، كما كان سائداً في جنوب أفريقيا بتفوق البيض على السود، أو في فلسطين المحتلة كما يتجلى بعنصرية اليهود الممارسة تجاه أهلنا، وما يفعله النازيون الجدد ومحلّق الرؤوس في ألمانيا، والاعتداء على المهاجرين في روسيا، وكذلك العنف الذي اندلع على أساس مذهبي في البلقان وإيرلندا.

• العبودية، وهي أحد أشكال العنف التي مورست في التاريخ لاسيما نتيجة الحروب أو بسبب الفقر أو حال المداينات، وتلك النزاعات التي حرّضها وأيقظها الاحتلال الأمريكي في العراق.

• العنف الذي مورس تاريخياً ضد المرأة والذي بقيت بعض آثار مترسبة عالقة حتى الآن وبصفتها زوجة أو عضواً في الأسرة، أو في مجال العمل وغير ذلك، إذ المرأة في الهند كانت تحرق عند وفاة زوجها، وكان لا يحق لها الزواج بعده<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - جورج قرم: انفجار المشرق العربي من تأميم قناة السويس إلى غزو العراق، دار الفارابي، ط1، 2006، ص320.

<sup>2</sup> - تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2005 وما جاء على لسان كمال درويش.

وفي بلد متقدم كبريطانيا يتحدث تقرير التنمية عن أن 1700 امرأة تعرضن للعنف عام 2007 من أجل ارغامهن على الزواج<sup>1</sup>.

ويمكن الرجوع إلى تقرير التنمية لعام 2005 والذي وسم بعنوان: نحو نهوض المرأة العربية، حيث يتضح منه مدى ما يمارس ضد المرأة<sup>2</sup>.

وفي مؤتمر عقد في باريس في آذار 2001 حول الختان ذكرت سيدة سنغالية أن المرأة غير المختونة لا يجوز لها أن تصلي أو تستحم<sup>3</sup>، أضف إلى كل ذلك تجارة الجنس وما يتفرع عليها وما ترتبه من مضاعفات.

• الفتنة وما أدراك ما الفتنة، إنها صراع عمودي في المجتمع برمته قد يصل إلى درجة الانقسام.

• والحديث عن العنف يذكرنا بالحديث عن وسائل الإعلام التي تدخل العنف إلى بيوتنا وعقول أطفالنا والتي تكمل عمل آلة الحرب الهمجية الجبارة، في إحداث الأثر وتوليد الردود التي قد تكون كارثية على جميع النواحي النفسية والاجتماعية والأخلاقية.

• المخدرات والآمها الوخيمة وويلاتها ومضاعفاتها وشؤونها وشجونها .

• وإن ننسى فلا ننسى تكنولوجيا السجون وما تخلفه من دموع ومآسي وآلام، وكذلك سحب الاعتراف من المتهمين بالقوة.

• وعالم الاقتصاد مجال رحب للابتزاز والعنف والتفنز في التلاعب بأوضاع السوق، مثل عدم شراء المحاصيل من المنتجين أو شرائها بثمن بخس دراهم

---

<sup>1</sup> - فضائية الجزيرة، 2008/3/8.

<sup>2</sup> - حسن ابراهيم حسن: العنف من الطبيعة إلى الثقافة، ص188.

<sup>3</sup> - الشيخ علي داوود: فتاوى الإمام الشعراوي عن المرأة، دمشق، مؤسسة الدين للطباعة والتوزيع ط1، 2006 ص15.



معدودة، بل قد تتلف المحاصيل للضغط على المنتجين والسوق والتحكم بهما، والأمر نفسه ما يحدث في مجال الصناعة، فقد تلجأ الشركات الكبرى بإغراق الأسواق بالمنتجات رخيصة الثمن، وكثيراً ما تتحكم الشركات بمصائر العمال ودفع أجورهم.

وقد يوجه العنف الاجتماعي إلى المستهلك، والمثال الأكثر بروزاً هو ذلك الزلزال الذي أصاب أسواق المال في بلدان جنوب آسيا، وما نوهنا به كان على سبيل المثال والذكر للتدليل على فنون وألاعيب الوحش البربري الأكبر شيطان شجرة الزقوم التي طلعتها كرؤوس الشياطين.

وفي تقديرنا فالقاع الاجتماعي العربي<sup>1</sup> يموج ويمور بالقيم الانقسامية السلبية المترسبة، والتخلص من هذه الرواسب يكون بإجراء حضر معرفي نقدي استيعابي، ولكن هذا العلاج لا يضعنا حيال قشة اجتماعية ولا حيال أزمة أبدية مزمنة، والعلاج يتم بالتعامل مع كل قضية على حدها وطبيعتها الذاتية، ويرى "الدكتور بلقرين" أنه ليس هنالك مجال لتبرير عنف الجماعات الأهلية ولو كان من باب الدفاع عن النفس، ولكن لا مبرر أيضاً لإغفال مسؤولية السلطة القاهرة المنطلقة قوتها من كل عقال ومسؤوليتها مضاعفة لأنها البادية بالعنف والمحتكرة له<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - مجموعة مؤلفين: النزاعات الأهلية العربية- العوامل الداخلية والخارجية، ص9 وما بعدها والرأي للدكتور الأنصاري وانظر د. حامد خليل: الحوار والصدام في الثقافة العربية المعاصرة، ص59.

<sup>2</sup> - د. بلقرين: الدولة والمجتمع- جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر، ص68.

## البحث الثالث

### العنف الطائفي

وسنتعامل هنا مع كلمة طائفة تعاملاً موسعاً بحيث يشمل كل انقسام على الأمة ورموزها ومصالحها، وبالطبع يدخل في الحسابان التنوع والتعدد الذي يفيد المواقف ووجهات النظر ويقود إلى الحوار والتفاعل والتفاوض والإبداع. ولقد عرفت الطائفة بأنها مجموعة متميزة ثقافياً أو اثنيّاً أو عرقياً<sup>1</sup>: Ethnic group.

- بنية اجتماعية قائمة بذاتها<sup>2</sup>.
- سهولة الاتصال لدى الجماعة<sup>3</sup>.

كما عرفت الطائفة بأنها التسبب في القيام بعمل بدافع الانتماء إلى مجموعة دينية، وعلى هذا الأساس عرفت الإقليمية بأنها التصرف أو التسبب في القيام بعمل بدافع الانتماء إلى إقليم، والأمر نفسه بالنسبة للتعريف بالعشائرية<sup>4</sup>. وبالطبع لا يصبح المجتمع عصبياً إلا حين تتحول الجماعات إلى كيانات ذات طبيعة مؤسسية مغلقة.

---

<sup>1</sup> - الأقليات في الوطن العربي والمجتمع، ص21.

<sup>2</sup> - مجموعة من الباحثين: النزاعات الأهلية العربية- العوامل الداخلية والخارجية، مركز دراسات الوحدة العربية، ص54.

<sup>3</sup> -Karl. W. Deutch: Nationalism and Communication, Cambridge mass Massachusetts institute of technology, 1953, P 62.

<sup>4</sup> - د. عبد الإله بلقزيز: الدولة والمجتمع- جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر، ص62.

لقد أتى الإسلام ليندد ويهدد وينعي ويهمش الجاهلية الانقسامية وتفاخرها بالأجداد، قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الفتح/26، فإذا كانت المحبة هي الكلمة الأساسية في المسيحية، فالتوحيد جوهر الإسلام<sup>1</sup>، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة/24،، والقرآن الكريم قرن وحدة الأمة بوحداية الله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء/92.

وينطلق "سيد قطب" من فكرة "الوحدة المتكاملة" لسائر أجزاء الكون من حيث صدوره عن الإرادة المباشرة لله، وبذلك فالإسلام لا يعني توحيد الله، وإنما يعني الوحدة بين القوى الكونية والوحدة بين العبادة والمعاملة، وبين العقيدة والسلوك، وبين الروحيات والماديات، وبين القيم الاقتصادية والقيم المعنوية<sup>2</sup>.

ولقد تغلغل المبدأ السابق في وعينا العام (رأي "دومون" في وعي حضارتنا بالتماسك"، ومع ذلك فأممتنا لا تزال موحدة في المعنويات دون "الماديات")<sup>3</sup>، مما أتاح لفيروس الانقسام وجرثومة التميز «درامياً وتراجيدياً» أن ينشأ الأظافر في جسدنا، ولم يتسع مجتمعنا للفتنة والعنف والتوتر والانسداد مثلما اتسع له

<sup>1</sup> - د. محمد عمارة: دراسات في الوعي بالتاريخ، دار الوحدة، بيروت، 1984، ص34.

<sup>2</sup> - د. فهمي الجدهان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الجديد، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص517.

<sup>3</sup> - مجموعة مؤلفين: النزاعات الأهلية العربية، بيروت، 1997، ص43.

راهنياً، وحيال هذا التخندق والتشردم راح ضميرنا يحلل ويكشف طبيعة الطائفية العصبوية، ويشرح جثتها ويفضح بنياتها<sup>٢</sup>.

1 - عشيرة الاندماج، تتسم بالتفوق والانكفاء والتكلس والاغتراب والانسداد وعدم الانطلاق والبعد عن الفضاء المعنوي للأمة، أي عن الانقسام والتواشج والتعاون والتبادل الثقافى<sup>٣</sup>.

2 - تقوم على إجماع سياسي، والحديث عنها (حديث عن الأمة) التي لا تنتج الأقليات إلا أنها تعجز عن إنتاج الأغلبية السياسية كأغلبية اجتماعية لا دينية ولا أقوامية<sup>٤</sup>، وكما قال ابن خلدون، فالجماعة الكثيرة العصائب لا تستحكم فيها دولة، أو كما أكده "الدكتور محمد جابر الأنصاري": ((كثيرة الانقسام في القاع الاجتماعي السسيولوجي، ويتعذر أن تحظى بالقوة الحاسمة أو الكتلة الحرجة التي تشد الجماعة وتجمعها))<sup>٥</sup>.

3 - مشوهة الخلقة، لا تتأسس على قواعد السياسة -التنافس السلمي لاكتساب السلطة- بل على التداخل بين بني السياسة وبني الاجتماع الأهلي، بما يمنع من تحول القبائل والعشائر إلى قوى سياسية وانفلات الصراع من كل ضابط وطني، والطائفية أكثر ما تنغرس في الميدان الثقافى، فكل طائفة تنسب نفسها إلى مبدأ ثقافى والانتماء إلى عقيدة وجد مشترك<sup>٦</sup>.

<sup>1</sup> - النزاعات الأهلية، ص20، وانظر د. بلقزيز: الدولة والمجتمع، ص9.

<sup>2</sup> - د. برهان غليون: نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة، ص32.

<sup>3</sup> - مجموعة مؤلفين: أزمة الأقليات في الوطن العربي والنزاعات الأهلية العربية، ص20، دمشق، دار الفكر، ص16.

<sup>4</sup> - د. برهان غليون: نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة، ص22.

<sup>5</sup> - النزاعات الأهلية العربية، ص43، والرأي للدكتور بلقزيز.

<sup>6</sup> - مجموعة مؤلفين: النزاعات الأهلية العربية، ص22، والرأي للدكتور بلقزيز.

ولقد برز في ميدان العلم الاجتماعي مصطلح الوشائجية، فهي ظاهرة نفسية انبثقت من معطيات المكان واللسان والدم وطريقة الحياة: على تشكيل فكرة الفرد عن ماهية قرارة نفسه وإلى من ينتمي ارتباطه بالطائفة دون فكاك، وهذه الفكرة دقيقة في أعماق النفس البشرية وفي الأسس غير العقلانية للشخصية<sup>1</sup>.

مع التنويه بأن الذرائعيين يؤكدون على تنوع الإثنية وليونتها بالمقارنة مع الوشائجيين الذين يتمسكون بسكونها وأحاديتها<sup>2</sup>.

هذه الصورة الشائهة المسخ للطائفة، وهذا التفسير الفسيفسائي الانقسامي لها، يحدونا لأن نشمر عن السواعد كي نسبر هذه الظاهرة ونفكك لفائفها نشدانا لمعالجتها وإيجاد الحلول لها، عوضاً عن كبتها وإضمارها في اللاشعور القومي سنداً لقاعدة: معرفة «استشراف» قدرة<sup>3</sup>، والأمر أولى وأصرح في التفكير بتدمير الطائفة والإلحاق القسريين<sup>4</sup>، وفي ذلك نسجل الملاحظات الآتية:

1. إن كبت الفاعلية يفاقم بها ويضخمها بشكل مخيف، ويخرج بها عن دائرة السيطرة، وإن كنا نلاحظ ازدياد وعي الطائفة بذاتها نتيجة تطور الحياة وتقدمها<sup>5</sup>، ومع التنويه بأننا تعاملنا سلبياً في بداية الاستقلال الوطني مع

---

<sup>1</sup> - مجموعة مؤلفين دانيال برومبورغ ورفاقه: التعدد وتحديات الاختلاف، ط1، 1997، دار الساقى، ص9.

<sup>2</sup> - مجموعة مؤلفين دانيال برومبورغ ورفاقه: التعدد وتحديات الاختلاف، ط1، 1997.

<sup>3</sup> - جان لابييار: السلطة السياسية، ص53.

<sup>4</sup> - د. بلقزيز: الدولة والمجتمع- جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر، ص116.

<sup>5</sup> - هاشم صالح: الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ، دار الساقى، بيروت، ط1، 2013، ص21.

الظاهرة وأمسكنا عن البحث عنها تجنباً لإثارة الحساسيات<sup>1</sup>، مما قاد بها إلى الاستعصاء والتفاقم.

2. إذا كان في الوحدة قوة، ففي التعدد والتنوع قوة أخرى تضاف إلى قوة الوحدة.

3. يجب تحقيق نقطة التوازن الدقيق بين حقوق الأقليات وحقوق الأمة دون إفراط أو تفريط.  
وهنا نسجل ما يلي:

1. إن فيروس العنف يستشري في بنية وبؤرة العصبية، إذ يجد في ذلك قراراً مكيناً لوبائة الذي يستعمل في حروب الهوية والتقنيات العرقية والإثنية، وقد يرتد وبأوه إلى الداخل في "أجنحة العصبية" الواحدة<sup>2</sup>، ولا ننسى التدين السقيم ودوره في ازكاء التفتت والانقسام، هذا فضلاً عن أن العنصر الجغرافي يغلي بالانكفاء والتوتر.

2. لقد أخضعت التعدديات العصبية في وطننا العربي للتوظيف السياسي واستشرى التقوقع والانغلاق، وتدعم ذلك بالشك والحذر وتبادل الغش وراحت الدولة توظف سياسيا الانقسام، فأنحدرت إلى مستوى الدولة العصبوية، والنتيجة المفجعة تأكلها وعجزها عن القيام بدورها<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - د. برهان غليون: نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة، ص7.

<sup>2</sup> - د. مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكلوجيا الإنسان المهذور، ص57، وانظر مجموعة مؤلفين دانيال برومبورغ ورفاقه: التعدد وتحديات الاختلاف، ص279.

<sup>3</sup> - مجموعة مؤلفين: النزاعات الأهلية العربية، ص197.

3. يرى بعضهم أن العصبية لا تولد في رحم المجتمع، وإنما هي قشرة خادعة وكاذبة تظهر عند عدم توفر الأمن الغذائي والاجتماعي والاقتصادي والديموقراطي، وبالتالي فالعصبية لا تقوم على الاندماج الاجتماعي الذي يقيم الولاء الكلي ويحرك المجتمع باتجاه الارتقاء، لا باتجاه التمايز القاطع الذي يشق المجتمع ويمزقه<sup>1</sup>.

ونحن نسجل على هذا الرأي ما يلي:

1. لدينا طوائف وعصبيات متعددة ومختلفة طبيعة وجوهرًا وغايات ومنطلقات مذهبية وإثنية وأقوامية وقطرية وعشائرية، وهناك أقليات قومية كبرى تتمتع بلغة وتاريخ وثقافة كالبربر والأكراد، ومن ثم يجب تحليل وفهم كل طائفة على حدها ومراعاة مشاكلها الخاصة بها<sup>2</sup>، والتعامل معها من جهة مراعاة طبائع الأشياء والنسب المركوزة في الظاهرة.

صحيح أن بعض هذه الأقليات، تبرز كالحزب السياسي للدفاع عن مصالح الفرد، فهي ليست مغروسة للأبد<sup>3</sup>، لكن بعضها الآخر لازالت قائمة منذ عصور طويلة، ونحن لا نستطيع أن نعفي هذه الطوائف من أية مسؤولية، كما لا يجوز تحميلها كل شيء، وفي النهاية ليست لدينا جماعة ناجية وأخرى ضالة، والناجي الوحيد هو الأمة التي امتلأت حياتها ضياعاً وفواتاً ومواتاً.

---

<sup>1</sup> - د. حامد خليل: الحوار والصدام في الثقافة العربية، ص25، ود. عبد الإله بلقزيز: الدولة والمجتمع- جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر، ص78.

<sup>2</sup> - د. برهان غليون: المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، ص77.

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص79، ود. حامد خليل: الحوار والصدام في الثقافة العربية، ص23.

2. إن بعض النخب ينفخون في أوار وأتون الفتنة والتمييز، بدلا من إغناء الهوية وتحسينها، ولقد أظهرت دراسة جرت في الجامعة الأمريكية ببيروت أن الولاء للحزب، والنظام والدستور كان له الحظوة الأخيرة في سلم الولاءات<sup>1</sup>، ولعلنا لا ننسى العولة ودورها في تأجيج العصبوية والانقسام والطائفية في وطننا.

3. لقد قرأ الفكر العربي الحديث «الخطاب البسماركي العربي والقراءة الغيبية» الأمة بأنها مؤلفة من أشخاص متساوين ومتجانسين ومتحدين بالنعرة القومية<sup>2</sup>، والتناقض أمر عارض يزال بيقظة الوجدان<sup>3</sup>، وهذا يعني السلبية في مواجهة الأمور وعدم التصدي لها تصدياً إيجابياً وعدم دراستها دراسة علمية بغية حلها وتجاوزها<sup>4</sup>.

4. قد لا يكون هنالك تمايز بالأصل، بل يكون مصدر التمايز نزاعات تتشب بين مناطق ريفية وحضرية، وكثيراً ما تستغل السلطة ذلك وتغلق الأبواب بينها وبين قنوات التفاعل الاجتماعي، فتمهد بذلك لإيقاظ العصبوية التقليدية الميكروسكوبية الموازية للدولة المركزية.

5. أطلق مصطلح "مربع الحصار" على الأبهاظ والخوانق التي تفترس الإنسان العربي وهي:

---

<sup>1</sup> - مجموعة مؤلفين دانيال برومبورغ ورفاقه: التعدد وتحديات الاختلاف، ص284.

<sup>2</sup> - د. ثروت بدوي: النظم السياسية، ج1، النظرية العامة للنظم السياسية، القاهرة، 1967، (دار النهضة العربية).

<sup>3</sup> - دستور حزب البعث.

<sup>4</sup> - د. برهان غليون: المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، ص17، وانظر د. حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكلوجيا الإنسان المهذور، ص58.



- حصار المخابرات.
- العصبيات.
- الأصوليات.
- تهمة الإرهاب.

وهذا هو الحصار الخارجي الذي يقودنا للحصار الداخلي النفسي، المفرخ للسلبيات الآتية:

- الهدر الوجداني.
- التقوقع في المدى الكوني الوجودي.
- التآزر بين العصبية والجماعات الدينية.
- هوية الولاء لا الأداء.
- أخلاق الطاعة والمراوغة.
- الفرقة الناجية.
- فيروس العنف ينخر ويؤجج الصراع<sup>1</sup>.

حيال ما تقدم نتساءل ما العمل؟

هنا تثور أمامنا الحلول الآتية:

العمل المضاد للعنف يناقضه طبيعة وجوهراً، وهنا يبرز المبرر الأخلاقي وضرورة دفع الأخلاق أقصى ما يمكن إلى منطقة العنف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت/34.

<sup>1</sup> - راجع تفاصيل ذلك د. مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المهذور، ص52-63.

سنعاقق هنا الديمقراطية بما يتصل بموضوعنا، وهنا نسجل بعض الملاحظات التي جاءت على لسان "تورين".

أ. كيف نعيش رغم الاختلاف ونبني عالماً دائماً الانفتاح والتفاعل، وقيم أكبر قسط من التنوع دون تضحية بالوحدة التي يستحيل التواصل دونها، ولا بالتنوع الذي يؤدي غيابه إلى الموت، والخيار هنا للديموقراطية لا بوصفها تغلب الجامع على الخصوصيات، بل باعتبارها مجمل الضمانات المؤسساتية الجامعة لوحدة العقل، العقل المؤسساتي وتنوع الذاكرات، بين التبادل والحرية.

ب. تزكو الديمقراطية كلما ازداد عدد الأشخاص الذين يشاركون باتخاذ القرار.

ت. تستبدل الديمقراطية الفهم العضوي للمجتمع برؤية فردية وسياسة الذات القائمة على العقد، أي الاستعاضة عن الكائن السياسي بالإنساني الاقتصادي.

ث. اختفاء الديمقراطية الشعبية القائمة على الحزب الواحد.

ج. تواجه الديمقراطية التهديد في السلطة الشعبية التي تستخدم العقلانية للإحاطة بالانتماءات المجتمعية والثقافية، وتحس بالانحطاط جراء اختزال النظام السياسي إلى سوق سياسية، وأخيراً ترفض من قبل نزعة ثقافية تحترم الأقليات على حساب الأغلبية.

ح. لا تختذل الديمقراطية إلى سلطة العقل ولا إلى حرية الجماعات ذات المصالح ولا إلى القومية الطائفية، فهي تمزج بين عناصر تتجه دوماً نحو الانفصال، فإذا آل بها الاتجاه للانعزال، انحطت نحو مبادئ الحكم

السلطوي، وبالتالي فالأمة التي كانت تحررية تتحط إلى طوائف ثقافية معادية لنفسها وللغير، والعقل الذي انبرى لمهاجمة التفاوت والإجحاف الموروث، ينحط إلى اشتراكية علمية، والفردوية التي لا فكاك لها من الحرية، تختزل الفرد إلى مستهلك سياسي.

خ. الديمقراطية هي المزج بين الفكر العقلاني والحرية الشخصية والهوية الثقافية، فالفرد (ذات) إذا هو جمع بين الرغبة بالحرية والانتماء إلى ثقافة والدعوة إلى العقل، أي إذا جمع بين المبادئ الآتية:

• مبدأ التفرد.

• مبدأ الخصوصية.

• مبدأ الجامعة.

ولعل أهم من طور البحث عن الديمقراطية «الأكثر ملاءمة لتراثنا» عالم السياسة الهولندي "آرندت ايبهارت" المؤسس لمدرسة هي مدرسة الديمقراطية التوافقية<sup>1</sup>، وهنا تبرز الحاجة للبحث في مجال الشرعية الجديدة عن حقوق المواطنين كأفراد وحقوقهم كأعضاء في جماعات<sup>2</sup>، وقريب من ذلك التمييز بين الديمقراطية الجذرية التي تفترض أن الديمقراطية حقيقة تاريخية تجاوزية طبيعية، وبين الديمقراطية التعددية، وهي ديموقراطية تسلك طرق المفاوضات والتسويات.

---

<sup>1</sup> - آلان تورين: ماهي الديمقراطية، حكم الأكثرية أم ضمانات الأقلية، بيروت، دار الساقى، ط1، 1995، ص8-26.

<sup>2</sup> - د. غسان سلامة: نحو عقد اجتماعي عربي جديد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ط1، ص104، وانظر مجموعة مؤلفين دانيال برومبورغ ورفاقه: التعدد وتحديات الاختلاف، ص14.

د. طالعنا "الفقيه بوردو" «في بحثه عن التكامل الوطني» بالمصطلح: تأهيل الإقليم، ويقصد بذلك مجموعة التدابير المتخذة لصالح الإقليم بقصد نموه وتكامله مع بقية الأقاليم<sup>1</sup>.

ولقد أصبح تحقيق الاندماج والتكامل أحد الأبعاد الأساسية للاستقرار والتنمية السياسية<sup>2</sup>، مقارنة بأشكال عدم التكامل الأخرى: عدم التكامل القيمي والسلوكي<sup>3</sup>.  
وثمة مؤشرات لعدم التكامل منها<sup>4</sup>:

1- عدد الجماعات السلالية واللغوية والدينية والطائفية.

2- حجم التفاعلات الصراعية التعاونية بين هذه الجماعات.

3- حجم العنف المتبادل بين النظام السياسي والأقليات.

4- التمثيل السياسي المختلف للجماعات في الحكم.

---

<sup>1</sup> - جورج بوردو: الدولة، ترجمة سليم حداد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، ص26.

<sup>2</sup> - William Peterson: Ethnicity in the world to day in international journal of comparative sociology, Vol 20, 1979, P13.

<sup>3</sup> - د. برهان زريق: العنف السياسي، الكتاب الذي يحمل الرقم/26/ضمن سلسلة الكتب المنشورة بعد الرحيل، على موقعه الإلكتروني: [WWW.Zraik.info](http://WWW.Zraik.info).

<sup>4</sup> - د. هيثم أحمد زبيدي: ثقافة العنف في المجتمع العراقي، ص 13، وانظر مجموعة مؤلفين دانيال برومبورغ ورفاقه: التعدد وتحديات الاختلاف، ص50 وانظر:

Anthony D. Smith: The Ethnic Revival in the Modern World, Cambridge, Cambridge University Press, 1981, P56.

5- وجود علاقة طردية بين عدم التفاعل والعنف، فالعنف له مقدمات اجتماعية وسياسية واقتصادية ويستعمل عندما تتمتع جماعة بامتيازات خاصة.

6- التكامل يؤدي إلى الاستقرار على المدى الطويل، ويقيم القواعد التواصلية ويشيد الاندماج والمحبة والمصالح المشتركة.

7- ليست التعددية في ذاتها سببا للعنف، بل مرد ذلك الحصول على معدل غير عادل في الثروة.

8- السخط الاقتصادي والفكري يهددان بالثورة، أما الأسباب العرقية واللغوية والثقافية، فتهدد بالانقسام، وأخيرا فالسخط الوشائجي له عمق اكبر، وإن كان ليس ناشطا في أكثر الأحيان<sup>1</sup>.

هذا ونلخص جماع ما قلناه في الآتي:

1- إن الفهم العقلاني «اللاطائفي» المستنير لا يمكن أن يتحقق إلا بالاعتماد على قاعدة عقلية صلبة تسبق كل عمل سياسي، بما في ذلك فهم ومعالجة المسألة الوطنية.

2- إن التقسيم الاستيعابي الثقافى الاقتصادي «لا التقسيم العمودي العصبوي الهامشي الانحطاطي»، هذا التقسيم، يقوم فيما يقوم على القيم الآتية:

- الحرية.
- الأخلاق.
- العمل.
- الثقافة.

---

<sup>1</sup> - د. غسان سلامة: نحو عقد اجتماعي عربي جديد، بحث في الشرعية الدستورية.

• التواصل... الخ.

وباختصار فهنا المجتمع تعمره قيم الاندماج والتفاعل والتواصل والتواشج والحميمية والانتشار والانفتاح والامتداد، وعلى العكس من الهويات الوشائية في المجتمع الطائفي العصبوي الدغمائي الانحطاطي الانقسامي التشنجي الانسدادي النرجسي، وعلى ضوء ذلك فالمجتمع الطائفي مستنقع عصبوي وحشي يغلي بالتوتر يتسلب من قيم التقدم والحدثة والنهضة والعمران، يحمي نفسه بسياج دغمائي انكفائي، وهو مستنقع لقيم البربرية ومثلنتها<sup>1</sup>، آسن لفيروس التوتر والقلق والعدوان والعنف وإنتاج قيم الذات ومثلنتها، والانشطار النفسي وعدم الاعتراف بالآخر<sup>2</sup>.

3- يجب أن لا نخلط بين الأقليات الدينية، والأقليات القومية الكبرى التي تتمتع بلغة وتاريخ وثقافة.

4- إن تأسيس القضاء المعنوي الوطني المؤسسي البنيوي العلمي، عليه أن يتجاوز كل سمة طائفية ويسحب البساط من تحتها، وذلك بأن تقوم الهوية الوطنية بالوظائف الطائفية وتمنح عضو الطائفة كل أمان وثقة وكفاية مادية ومعنوية.

5- يجب فهم ومعالجة مسألة الطائفية وحلها وتأصيلها من خلال تجربتنا الحضارية التاريخية «حسب شهادة دومون» هذه التجربة تعطي الضمانات الأساسية للفرد وتضع تماسك الجماعة في الصدارة، وتفسر استمرار الجماعات الطائفية والمذهبية والاثنية في أمتنا.

<sup>1</sup> - مثلثة الذات: تمجيدها .

<sup>2</sup> - مجموعة مؤلفين دانيال برومبورغ ورفاقه: التعدد وتحديات الاختلاف.

6- كثيراً ما تكون الجغرافيا ملاذا ومعتصماً للهوية الوشائعية، والإثنية، والدينية بل مجالاً للتمزق والانقسام والإقصاء exclusion لا الاشتراك inclusion كما في الديمقراطية<sup>1</sup>.

هذا الاستمرار الذي يزعج المتطرفين من إسلاميين يرون في ذلك نوعاً من الجاهلية إلى وطنيين يسعون إلى الاندماج الداخلي بين جماعات الدولة حتى ولو اضطروا إلى استعمال السيف والقهر والترحيل ونقل السكان القسري، إلى قوميين متعصبين لا يرون إلا العروبة في كل مكان. وبهذا المضمار فقد كانت السلطة العثمانية ارقى تعاملًا من الدول المعاصرة، صحيح أن نظام الملل والحفاظ على الزعامات التقليدية (كردستان - جبل لبنان) لم يكن الحل الأفضل لتوطيد بناء السلطة، ولكنه كان أفضل بكثير من محاولات الأدماج الذي مارسته الدول العربية المعاصرة<sup>2</sup>.

7- تذويب «لا إذابة» البنى العصبوية التي لما يكتمل بناؤها الوطني من خلال فضاء وطني وقومي مؤسس للفضاء المدني، بعيداً عن التجاذب التصعيدي المزمّن القائم على العنف والعنف المضاد، ويسهم في تقارب الوحدات الوطنية على أساس علاقات حرة ومتكافئة.

<sup>1</sup> - د. حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المهذور، ص 47.

<sup>2</sup> - د. غسان سلامة: نحو عقد اجتماعي عربي جديد، ص 102.

8- العنف التاريخي العربي الذي حدث «أو الذي يمكن أن يحدث» كان ثمرة الخلل في البنية الاجتماعية<sup>1</sup>، وهذا الخلل هو البؤرة العميقة لكل انقسام وتوتر وعنف وتشردم وحروب الهوية، وفي آخر المطاف الاستبداد.

9- هنالك شعبتا اواني مستطرفة، ترتفع احدهما فتنخفض الأخرى، وهذه هي جدلية الوحدة والانقسام، فكلما تماسكت الروابط الاثنية ارتخت النسج الجامعة الضامة<sup>2</sup>.

10- المجتمع العصبوي يؤسس على قبول مشروط بين الفرد والجماعة: تحميه وتوفر له الأمان مقابل إطاعته للجماعة وذويانها بها وخضوعه لها خضوعاً ميكانيكياً دون تفكير، قال الشاعر:

لا يسألوه أخاهم حيه يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

---

<sup>1</sup> - د. الزبيدي: ثقافة العنف في المجتمع العراقي، ص32.

<sup>2</sup> - د. بلقزيز: الدولة والمجتمع- جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر، ص13.



## البحث الرابع

### العنف السياسي

تنتمي السياسة إلى الاجتماع، فهي تتميز منه دون انفصال، تنزل منه منزلة الخاص من العام، وهذا ما يفرد العنف السياسي بخصائص تميزه من العنف العام.

فالسياسة إطار الجماعة، وهي المكوك الذي ينسج المشترك الاجتماعي، إذ قد يكون العنف الاجتماعي طفح جلدي هنا وهناك، وإذا بالعنف السياسي يغزو ويسد المنافذ الكلية للجلد.

والشدة هي الخصيصة الثانية للعنف السياسي، ألم يماثل "هوبز" الحاكم "باللويثانا" ذلك الوحش الذي اصطرع مع داوود في القصة التاريخية، هذا فضلاً عن سماته اللا أخلاقية: الغدر والخديعة والمكر والفتك، وهي ما أبرزها "ميكيافيللي" في شخص الحاكم ودلل به "هورست بريختر" بقوله: ((من يتولى الحكم عليه أن يفسد، فالتفاعل تبادل بين الافساد والفاسد ومن يخلق الانضباط ويدعمه، ولا محل للوجدان في السياسة، فذلك لأنه يعني العجز عن التصرف))<sup>1</sup>.

وحال القوة، كحال الضغط الجوي، فقد ينفلت في أي اتجاه، فيكتسح ما في طريقه، وهذا هو شان فاعلي العنف في التاريخ، كثيراً ما يلجؤون إلى العنف وإشعال الحرب وترويع الشعب وتخويله من المؤامرات، بحيث يظهر الطاغية هو المنقذ<sup>2</sup>، بل كثيراً ما تغدو الدولة دولة (أمنية) مع ان هدف الدولة "بذل السلام" ورزق الثمرات قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ البقرة/126.

<sup>1</sup> - روجيه غارودي: الارهاب الغربي، ترجمة سليمان حروفوش، دمشق، دار كنعان طبعة 2007، 1، ص 243.

<sup>2</sup> - حسن ابراهيم حسن: العنف من الطبيعة إلى الثقافة، ص 147.

وإذا ما حال الطاغية بين الجماعة وبين مصيرها تفككت وتحولت إلى بؤرة مستتعية للعنف، يفترس المجتمع من هيئات ومؤسسات، فهو لا يطيق ما هو خارج عن إرادته، يكرس الناس على الضحك في أفراحه والبكاء في أحزانه والرقص في أعياده<sup>1</sup>.

وقد بلغ الأمر في السلطان محمد خان الثالث أن قتل يوم اعتلائه العرش أربعين أميراً وعدداً من إخوته وعشر جوار حاملات من أبيه واثنين من أولاده، كل ذلك مؤثر على العنف في السياسة يتسبب ذروة سنام العنف واصل الجحيم فيه<sup>2</sup>. والعنف ليس (بمقابلة التاريخ) بل الحرية هي التي أبدعت الوجه المضيء وآيات وقطاف التقدم الإنساني، وإذا كان قابيل قد قتل أخاه هابيل فالنعمة الممنوحة لهابيل منعت من أن يفعل السوء بأخيه، وهذا دليل على أن الخير موجود في التاريخ منذ أيامه الأولى، وهكذا صبغت الحياة من جدلية الحق والباطل بين وجهي جانوس، يتسع مستتق العنف ويمور بحرانه، فتهدب الحرية ذاتها لتحقيق مآلاتها: وتتطاير شرر العنف ويشتعلم لمواجهة ما سبق قوله، وهكذا دواليك، وهذا ما حدا أبا تمام للقول:

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب العود

وقول المتنبي:

كلما أنبت الرماح قنّاة كذب المرء في القنّاة سنّانا

وبالطبع فهذه النار التي اشتعلت في التاريخ أتت بالضياء والاحتراق والدخان.

<sup>1</sup> - د. مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي - مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المهدور.

<sup>2</sup> - حسن ابراهيم حسن: العنف من الطبيعة على الثقافة، ص4، و د. فاضل الأنصاري: العبودية، الرق والمرأة بين الاسلام الرسولي والاسلام التاريخي، دار الأهالي، دمشق، ط1، 2001، ص446.

فقد كتب على بلاطة كشفت في سورية تتضمن تقديم الطعام للعدو، كذلك فالتعاليم الهندية القديمة، حرمت قتل العدو الأعزل أو المستسلم<sup>1</sup>، وعامل الاسكندر أعداءه معاملة إنسانية، كما أعلن فلاسفة الرومان أن الحرب يجب أن لا تحطم روابط القانون، واستعاضوا عن الحكمة المأثورة (الانسان ذئب الانسان) بالقول: ((الإنسان شيء مقدس للإنسان))<sup>2</sup>، وفي كلمات ملؤها الدفاء قال السيد المسيح عليه السلام: ((طوبى لصناع السلام))، وتقاليد الفروسية العربية قضت بعدم قتل الفارس الذي يقع عن فرسه، واحترام الشخصية الانسانية للخصم، سواء أكان مقاتلاً ومسلحاً أم أعزل أم أسيراً أم مريضاً، ولقد كرس الرسول الكريم ﷺ هذه الأصول والمبادئ الانسانية مخاطباً الجنود: ﴿انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا قَانِيًا، وَلَا طِفْلًا، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغْلُوا، وَضَمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلَحُوا وَأَحْسَنُوا، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله: ﴿لِرِزْوَالِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ دَمِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يُسْفَكُ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾. وهذا القول أصبح نهجاً شاملاً نجد ثمراته عند الخليفة أبي بكر بقوله لجنده: ((لا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقطعوا نخلاً، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيراً إلا لمأكلها، وسوف تمررون على قوم في الصوامع فدعوهم، وما أفرغوا أنفسهم له)).

ولقد صدر عن الفرعون المصري سنوسرت الثاني مرسوم يمنح الأمان وحق اللجوء لمجموعة من الأجانب، كما جاء في قرار صدر عن عمرو بن العاص منح بموجبه الأمان لأهل مصر وأموالهم وأملاكهم ومنشأتهم الدينية: ((هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم،

<sup>1</sup> - حسن ابراهيم حسن: العنف من الطبيعة على الثقافة، ص 14.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 14.

برهم وبحرهم، ألا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص، على ما في هذا الكتاب من عهد الله وذمته ورسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين)).  
ولقد منح السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الأمان ملك الصرب لأداء فريضة الحج بصحبة زوجته<sup>1</sup>،

وكما أحسن صلاح الدين الأيوبي معاملة الأسرى، وخص البارزين منهم بحسن المعيشة، وخلع عليهم، أكرم المتقدمين منهم، وأخلع على مقدمي العسكر الفرنسيين فروة خاصة، وأمر للباقيين بفروة خرجية، وحين يدفع الأسرى فداءهم كان يرسل من يحرسهم حتى يصلوا إلى مأمنهم<sup>2</sup>.

ولقد روى البخاري في صحيح مسنده عن ابن عمر قال: ﴿وَجَدَتِ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَغَازِي، فَتَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ﴾، وفي حديث آخر قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً، وَلَا عَسِيفاً﴾.

يقول "البارون دوتوب": ((إن العالم الإسلامي ساهم في تشكيل بعض نظم قانون الحرب وعاداته بين شعوب أوروبا، حيث وجدت هذه الشعوب لدى أعدائها الذين ناصبتهم العداة أثناء الحروب الصليبية قواعد جاهزة تتعلق بإعلان الحرب والتمييز بين المقاتلين ومعاملة المرضى والجرحى وأسرى الحرب وتقسيم الغنائم، ومنع بعض وسائل الاضرار بالعدو))<sup>3</sup>.

وقد استثمرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر هذا المصدر الثري من مصادر القانون الدولي الانساني، فأصدرت منشوراً مصوراً بعنوان من ذاكرة التاريخ

<sup>1</sup> - حسن ابراهيم حسن: العنف من الطبيعة على الثقافة، ص 19.

<sup>2</sup> - بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.

<sup>3</sup> - مقال د. أنطون رباط:

la theorie du droit International Musulman, Revue Egyptienne de Droit International.

العربي الإسلامي ضمنته أقوالاً وأحداثاً عربية مشهورة في مجال تطبيق التعاليم الإنسانية في السلم والحرب، كما كرست تقويماً لاثنتي عشرة منظومة تشكل أهم معطيات القانون الدولي الإسلامي، وصاغت هذه المنظومات في أشكال وخطوط عربية رائعة، وهذه بعض المنظومات الشعرية والنثرية حسب ورودها في التقويم:

1. أغث من إغاثك "محي الدين بن عربي".
  2. لا غدر في غدر "أبو حيان التوحيدي".
  3. هم أسارى في منايهم، فما لهم إذا آتاهم أسير لا يفكونه "أبو علاء المعري".
  4. الصلح من ذي قدرة أصلح "الشيخ الشعراوي".
  5. إذا دان العدى وجب الأمان "ولي الدين يكن".
  6. فهلا تركنا النبت ما كان أخضرا "الحنظلة بن عرادة".
  7. عالج عدوك كما تعالج صديقك "الطبيب علي بن رضوان".
  8. إني أمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعتكم وسور مدينتكم "حبيب بن مسلمة الفهري".
  9. وكتب أحد القادة الفرنسيين يقول: ((إن الجنود في ستراسبورغ يعاملون الأسرى كأخوة، يتقاسمون معهم الخبز والمؤن))، فعزة الله في الإنسان الحي وخاصة صاحب القرار<sup>1</sup>.
- هذه بعض القبسات التي حاولت الإنسانية أن تمتطي بها الشجرة الملعونة "السياسة"، لكن هذه المعطيات بقيت في حدود الوميض دون الإشراق والسطوع،

---

<sup>1</sup> - بسام العسلي: الحرب والحضارة، مجلة الفكر العسكري السورية، عدد تموز 1977.

بيد أن الإنسانية في وثوبها الأخير استطاعت أن تقطع أشواطاً واسعة في تحقيق الشرط الإنساني، بما يحاصر العنف ويحد من غلوائه.

وفي النتيجة فالرهان الإنساني لافتراس العنف وخنقه وتجفيف منابعه هو إقامة الدولة المنتمية إلى المجتمع والمتعالية على تناقضاته، حيث أطراف العقد هم المواطنون لا الطوائف، والدولة توحد التراب الوطني، وتقيم مجتمع الحق وتبرز الشخصية الوطنية، وذلك بالانتماء إلى كيان وطني يتسع بالمساواة لمواطنيه، وتبلور النخبة السياسية، وتوصل الديمقراطية وتداول السلطة، وتفك حال الاحتقان العصبي، وتونع حال التقدم التي ترسي العقلانية والروح النقدية والابداع والبحث العلمي والثقافة والاجتماعي، وازدهار الحوار والحرية والمؤسساتية، وتفتح آفاق التفتح للفرد ورقيه وتطور المصلحة العامة، بما يسمح للاندماج الطوعي في المتحد القومي، وتتيح للفرد أن يتبوأ الموقع الذي تؤهله قدراته، وتصون كرامته، ولا نقصد بالكرامة هنا المعنى اللغوي وإنما التتموي والاجتماعي والديمقراطي والغذائي.

هكذا نكون قد أبرزنا أهم أنواع العرف وأضرابه (الجانب المفرط فيه، أو ذروة سنامه)، وأسبابه، ثم منهج علاجه: الديني، الأخلاقي، الاجتماعي، الاقتصادي، وأخيراً إطار المجتمع ومكوكه: السياسة الرشيدة الديمقراطية الحرة، والله الموفق والمستعان.

✍️ المحامي الدكتور برهان زريق

<sup>1</sup> - د. حامد خليل: الحوار والصدام في الثقافة العربية المعاصرة، ص 60.

<sup>2</sup> - د. بلقزيز: الدولة والمجتمع- جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر، ص 37.

## نقاط ومرتكزات مقترحة من أجل النهوض والديمقراطية

1- إن مطلب الديمقراطية أصبح ضرورة أساسية لحياة البشرية كلها دون استثناء، سواءً من أجل ممارسة حياتها بصورة سليمة، أو من أجل تحقيق طموحاتها ونيل حقوقها المغتصبة، أو من أجل مواجهة اتجاهات العنف والتوحش والهجية على اختلاف مظاهرها وأشكالها .

2- إن المطلب الأساسي في وضعنا العربي، هو إنهاض المجتمع والحياة واتجاهات المجتمع المختلفة، بما في ذلك الشخصية الفردية نفسها، من كبوة خطيرة تهدد بأوخم العواقب.. ومنها التحلل والتفكك والفناء، وهذا الإنهاض لا يتم إلا في مجرى النهوض في قضية الحرية والديمقراطية، الالتفاف من حولها باعتبارها قضية عمومية ومركزية.

3- إن الأخطار والتحديات التي تفرضها الأوضاع المعاصرة، تحمل طبيعة متفاقمة ومتعاطمة تتخطى مختلف المستويات التي كانت تغطيها وظائف الممارسة السياسية وحقوقها العائدة للمجتمعات في الماضي، وذلك بدءاً من تحديات الأخطار البيئية والوراثية التي تمس سلامة الحياة وأهدافها وانتهاءً بتحديات العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية.. التي تمس بتأثيرها مصير المجتمع وحياته وصفته الاعتبارية كلها دون استثناء أجزاءه التي يتكون منها جميعاً، مما يستدل حقولاً لحقوق الممارسة السياسية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً من قبل من حيث نوعيتها ودرجة اتساعها، التي تتطلب انخراط المجتمعات

بأسرها في تحمل المسؤولية عن مصيرها، واستنفار جميع مقدراتها ومقوماتها المادية والروحية.. على الوجه الذي يتعدى إمكانية أي جزء بمفرده، بما في ذلك كيان الدولة القائمة فيها مهما تضخم شأنها، بل إن هذا التضخم نفسه يحمل وجهاً أخ يضاعف المجتمعات في هذه المواجهة.. الأمر الذي يتطلب (وضعية خاصة) لا يطبقها أو يتسع لها أقل من الديمقراطية التامة والحقيقية، والمهياة لتطويرات عميقة أيضاً.

4- إن إنهاض المجتمع من خلال الالتفاف حول قضية الديمقراطية، وجعلها قضية عامة مركزية، ليس هدفاً من أجل حسن سير الحياة فقط، بل إنه وسيلة أيضاً من أجل الدفاع عن الحياة نفسها ووضع أهداف عمومية تكفل استمرارها، مثلما أنه وسيلة الشعوب لتحقيق طموحاتها المشروعة ونيل حقوقها المغتصبة.. وفي طبيعتها دون استثناء الحقوق العامة والحريات السياسية.

5- إن حق الدفاع عن المصالح والبرامج والأهداف والمعتقدات الخاصة على اختلافها، هو حق أساسي وجوهري من حقوق الديمقراطية. ولئن كان جائزاً تماماً لهذا الحق أن يحظى بأولوية الاهتمام بالنسبة لأصحابه في ظل حياة ديمقراطية سليمة... فإن الأمر يختلف على نحو أساسي في ظل أوضاع يئن فيها المجتمع بأسره تحت وطأة استبداد شمولي يفتقر افتقاراً عميقاً إلى الديمقراطية، ويتعرض من جراء ذلك إلى الضعف والتفكك والانحلال الخطير أمام التحديات والأخطار المتعاضمة من حوله. ففي مواجهة هذه الحالة يقتضي اعتبار الدعوة من أجل الديمقراطية والالتفاف حولها والنهوض بواسطتها، هو المطلب الأساسي الذي يجب أن يحتل أولوية الاهتمام دون منازع، حتى من زاوية الإخلاص والجدية تجاه (المعتقدات السياسية والإيديولوجية الخاصة).. التي يقتضي نقلها إلى مرتبة تالية من الأهمية، وهذا يقتضي ارتقاء النهوض الديمقراطي إلى معيار عمومي يطلالات الاتجاهات المختلفة دون استثناء، ويحدد مقدار الجدية والمصادقية والنفع الذي تتوخى تحقيقه لصالح أمته وحياة شعبها.. حتى من وراء أهدافها وبرامجها ومعتقداتها الخاصة بالذات...).



6- كذلك إن الحاجة إلى تحقيق التماسك والالتفاف وترميم البيت الداخلي لأي من الاتجاهات المختلفة، إذا كان يشكل ضرورة لا غنى عنها في ظل الأوضاع الديمقراطية السليمة، بهدف الدفاع عن حقوقها ومصالحها ومعتقداتها الخاصة والسعي لتحقيقها بالوسائل الديمقراطية... فإن الأمر يختلف على نحو أساسي أيضاً في ظل الأوضاع السلبية المشار إليها. ففي هذه الحالة يقتضي اعتبار النهوض بقضية الديمقراطية وتحقيق الالتفاف والتعبئة من حولها هدفاً يطال المجتمع بأسره، ومهمة تحظى بأولوية الاهتمام دون منازع. وهذا لا ينفي إطلاقاً الحاجة الأنفة لتحقيق التماسك والالتفاف و(ترميم البيوت الداخلية) جميعاً.. شريطة التزام الأولوية السابقة والسعي للنهوض بها ومعها. وهذا يقتضي اعتبار هذه الأولوية شأناً داخلياً أيضاً، لا ينفصل عن مهمة التماسك والترميم وبناء الوحدة الداخلية نفسها، بل بالأحرى جزءاً لا يتجزأ من أسباب قيام هذه الوحدة، وشد أزرها وإزاحة العوائق التي تحرر انطلاقاً خطابها الخارجي والداخلي على السواء...!.

7- إن قضية الديمقراطية هي قضية تخص الجميع، وتعود بملكيته والنفع المرتجى من ورائها لصالح الجميع، وهذا (النفع) يتعدى دائرة (الحقوق الخاصة) التي ينشد هذا الاتجاه أو ذاك نيلها بواسطتها.. إلى مستوى الحق البدئي والجوهري الذي ينبع من جوهر الوجود الإنساني (أفراداً ومجتمعات)، بصفته (أصل) تتفرع عنه مختلف الحقوق والمصالح والمطالب الخاصة والمختلفة، مما يجعله يرفض التفريط والانتقاص، أو التنازل أو المساومة، كي يحصر هذه المساومة نفسها في دائرة المصالح الخاصة والفرعية على الأكثر، وفي الحدود التي تصون التوازن الاجتماعي، وعبر قواعد الديمقراطية التي تتسم بالصفة الآمرة والملكية العامة والمساواتية للجميع.

...وهذا يقتضي حفظ اعتبار المسافة القائمة بين الحقوق والمصالح الخاصة على اختلافها (بما فيها الحق الفكري) التي ننشد نيلها من وراء الديمقراطية.. وبين حق الديمقراطية نفسها الذي ينبع من جوهر وجود الحياة للأفراد والمجتمعات

على السواء، باعتباره مصدر شرعية الحقوق الأولى التي تتفرع عنه، ومن باب أولى لا يجوز أن تكون نقيضاً له أو بديلاً عنه أو منشودة من ورائه وعلى حسابه.

8- إن قضية الديمقراطية هي شأن مستقل في حد ذاته من ناحية اتصاله بحسن سير الحياة الإنسانية، وقيمة هذه الحياة نفسها. أي إنها شأن غير مشروط بأية زاوية أو نظرة أو رؤية فلسفية أو دينية أو إيديولوجية خاصة من النوع الذي ينشد تحقيقه هذا الاتجاه أو ذاك من وراء حياته الإنسانية كلها، أو حتى من رؤيته لـ (مصطلح الديمقراطية) نفسها. بتعبير آخر إن اتصال الشأن الديمقراطي بحسن سير الحياة يتعدى مضمون فكرتنا الخاصة التي نرغب في إملائها على الديمقراطية وعلى الحياة نفسها، ولكن دون أن ينفىها ..

وينفس القدر فإن هذا (الشأن) يتعدى حتى حرفية مصطلح (الديمقراطية)، نفسه، طالما أن المقصود به أولاً وآخرأ وضع القواعد والمرتكزات الصحيحة التي تصون حقوق محددة للحياة المدنية والأدمية وفي مقدمتها حقوق التعبير والاعتقاد والمعارضة والاختلاف والتعددية وسيادة القانون وتداول السلطة سلمياً ومشاركة المجتمع مع أفرادهِ وفئاتهِ جميعاً في تقرير مصيره وتوجيه حياته الوطنية والقومية.

9- بهذا المعنى فإن الديمقراطية ليست قالباً جاهزاً نستورده من التجارب الأخرى، خصوصاً من ناحية العيوب والانحرافات أو قيود المؤثرات البيئية والسياسة والطبقية والثقافية الخاصة التي صاحبت هذه التجربة أو تلك وأملت عليها هذه الوجهة أو تلك. وليست بالأحرى قالباً نستورده مع بضاعته الجاهزة من المذاهب والطرائق والمعتقدات الثقافية أو الإيديولوجية التي أفرغتها فيه التجارب المختلفة خلال الممارسة العملية. على العكس فإن الديمقراطية هي طريقة أبدعتها حاجات البشرية وكفاحها الطويل من أجل حسن سير حياتها، وبالتالي فإنها تتعدى عناصر التجربة الخاصة وإملائها نفسها، كما تتعدى قيود الحظر والتحریم، لأنها وسيلة الشعوب لتفجير طاقاتها الخلاقة التي تغني تجربتها بما تشاء وتملك من قيم وإبداعات وخيارات تتماشى مع شخصيتها وحياتها ومواريتها

الحضارية والروحية، مثلما تحفظ بنفس القدر تواصلها المستقل والإيجابي مع بقية الإنسانية.

10- من ثم فإن الجانب الذي ندعو إلى نبذ استيراده (أو على الأقل التعامل معه بطريقة نقدية) لا يجب أن يقبل الخلط مع قضية الديمقراطية نفسها، وتبرير الدعوات لاستبعاد الأخيرة وتشجيعها بذريعة (رفض العقائد المستوردة التي لا تتفق مع تقاليدنا المحلية ١٩)، لأن الديمقراطية شأن يتصل بجوهر الحياة المدنية والآدمية، وطريقة تليق بحسن سيرها بحيث تتعدى نطاق الخصوصيات القومية والجغرافية والعرقية.

وبالمقابل فإن الديمقراطية لا تقبل التحول إلى مجرد شعار أجوف أو مسرحيات تحوي من الهزلية قدر ما تحويه من الفضاظة واحتقار عقل الشعوب وضميرها، لأنها منظومة من مرتكزات وقواعد وأسس كرستها البشرية عبر كفاها الطويل وأصبحت ميراثاً مشتركاً لحياتها مثلما هو الماء والهواء والكهرباء.. وقد أشرنا إلى هذه المرتكزات سابقاً.

11- إن العملية الديمقراطية هي مسار كامل يشتمل على مراحل وخطوات عديدة التي يجب أن تتماشى مع هدف الديمقراطية وتحقق لها مصداقية النمو والاستمرار، ابتداءً من الاعتماد على وسيلة النهوض السلمي للشعوب وتحقيق الانتقال إلى الديمقراطية بالوسائل السلمية أيضاً التي تنبذ العنف والتأمر والإرهاب بكافة أشكاله. وهذا يقتضي صوغ (الخطاب الديمقراطية) الواضح والصريح الذي يكرس هذه العملية ويتضمن أيضاً نبذ واستبعاد آلية الصراع على السلطة، والارتباط الخارجي، وقيم الثأر والانتقام وتصفية الحسابات السياسية... والاستعاضة عنها بقيم المصالحة الاجتماعية وتحقيق السلام والوئام الوطني وطبي الصفحات الأليمة، مع تكريس قيم العلانية والشفافية الاجتماعية والسياسية والثقافية التي (تشرعن) المكبوت والمسكوت عنه وتنقله من دوائر البغضاء والعدوانية إلى دائرة الظواهر الواقعية والحوار العقلاني.

12- والخطاب الديمقراطي ينبغي أن يغطي الموقف من قضية السلطة على نحو مبدئي يتفق مع رسالة الديمقراطية نصاً وروحاً، انطلاقاً من أن الديمقراطية تؤلف عملية تاريخية بكب معنى الكلمة. وأن الخصم الذي تسعى إلى تفكيكه ونزع سطوته عن الحياة يتخطى دائرة السلطة بحد ذاتها ممتداً إلى مخزون العلاقات التسلطية والإقصائية التي أفقرت - وما تزال - روح المواطنة ووقفت حائلاً دون تبلور المجتمع والدولة المدنيين. وأن السلطة التي تفتقر إلى الديمقراطية وتقف حائلاً دونها متبعة سبل التعسف المختلفة على امتداد الوطن العربي.. هي نتاج هذا المخزون، أكثر مما هي سبب له، وأن النظام الديمقراطي ينبغي أن يكون منتجاً طبيعياً لعلاقات وموازين قوى تقررهما حركة النهوض بالمجتمع واتجاهاته الحية من خلال العملية الديمقراطية نفسها، وليس مجرد سلطة يجرب إحلالها مكان سلطة أخرى بوسائل العنف والتآمر والانقلابية التي تجعلها مجرد حلقة متكررة في مسلسل الاستبداد، وإن كل هذا يملئ على الديمقراطية أن تكون عملية تاريخية وسياسية وثقافية كاملة، وأن تجعل الانتقال الديمقراطي نفسه تدريجاً، بل وانعكاساً أميناً لتنامي أهمية الخطاب الديمقراطي وتعبيراته الحية بين صفوف الجماهير واتجاهاتها المختلفة، وتعاضم التفافها من حوله بحيث يتم هذا الانتقال في إطار من التغيرات التراكمية والعميقة التي تقطع طريق العنف والتشنجات المختلفة وتجعلها مجرد (حوادث عرضية) تترد بالمسؤولية على أصحابها، مثلما تجعل إجراءات التعسف ضد العمل الديمقراطي تترد بالمسؤولية على أصحابها أيضاً دون أن تنال من زحمه ومصداقيته بين صفوف الجماهير.

وبالتالي فإن هذا المنهج لبلوغ الديمقراطية لا يتناقض، بل ويستطيع أن يتقبل أيضاً استجابات لتحقيق هذه العملية التدريجية نفسها في إطار أية سلطة قائمة، طالما أن هذا يتم في إطار الاستجابة لعملية وطنية عمومية موضحة الأهداف وتتصف بالتاريخية..!

13- إن الديمقراطية ليست عقيدة أو إيديولوجيا تقف بمقابل العقائد والإيديولوجيات الأخرى، سواء الدينية أو الوضعية، بل هي طريقة حياة ونظام

عام يليق بكرامة الإنسان والمجتمعات البشرية. وهي وسيلة الناس جميعاً للنضال من أجل حقوقهم ومعتقداتهم بوسائل الديمقراطية نفسها التي تعود ملكيتها للأجيال الحاضرة والقادمة.

بالتالي إن التأكيد على هذا الوجه غير الإيديولوجي (أو فوق - الإيديولوجي) غايته حفظ مكانة (لوجه الإنساني) يجب أن تصاحب مختلف النشاطات والتناقضات والمعتقدات البشرية، بل وتقوم بتوجيهها، وهذه المكانة إنما تستمدتها الديمقراطية من ينبوع الحقوق الإنسانية التي قررتها الطبيعة والنواميس الإلهية للحياة الإنسانية. فضلاً عن ضرورة تصحيح المفاهيم الخاطئة التي دفعت الكثيرين للتضحية بهذا الوجه الإنساني على مذبح الإيديولوجية معادية، أو اعتبارتها مجرد (قضية مستأخرة) أو (سابقة لأوانها) أو (حاجة ترفيحية) يتوقف منحها أو منعها عن الشعوب على تحقيق برامج هذه الجماعة أو تلك... وفي مقدمتها «بامتياز» الظفر بمقاليد السلطة العتيدة طبعاً...!

14- إن إقرار هذه الثوابت والمرتكزات لا يتعارض مع وجود هوية أو اتجاه فكري وسياسي لأصحاب هذه (الورقة)... أو سواهم لأن كلاً من الأمرين مستقل عن الآخر. أكثر من هذا فهو لا يتعارض مع اعتبار هذه الثوابت أرضية مشتركة ينطلق منها الجميع، أو وجهة نهائية يتجهون إليها، وقد لا يتعارض أيضاً مع اعتقاد هذا أو ذاك أن هويته الفكرية الخاصة تحتوي على المشروع الديمقراطي كاملاً... أو تتطابق وتتماهى معه... أو تحتل هذه المماهة مستقبلاً، كل ذلك شريطة عدم الانزلاق في وهم احتكار الديمقراطية نفسها أو اعتبارها (فرعاً) لهذه الهوية وأصحابها عوضاً عن العكس. من ثم فإن معيار الالتزام بالديمقراطية يجب أن لا يشوبه التناقض وازدواج المعايير عند المطابقة، أو المقاربة، بينها وبين أية هوية إيديولوجية بما في ذلك تلك التي تخص أصحاب هذه (الورقة) أنفسهم.

ومثل هذا التقريظ بين الديمقراطية والانتماءات الأخرى لا ينتقص شيئاً من أولئك الذين يملكون من عمق النظرة وروح المسؤولية ما يجعلهم يسوقون انتماءاتهم نفسها في الاتجاه الصحيح الذي يخدم مصلحة المجتمعات والحياة الإنسانية،

ويسمو على المهاترات والمنازعات المذهبية والسقيمة، ويقتدر أصحابه على التقدم إلى الآخرين جميعاً بخطاب ديمقراطي صريح لا يعرف الالتواء والازدواجية لأنه لا يحمل ما يجعله يخاف مغبة الاعتداء على حقائق التاريخ وحاجات المجتمع والإنسانية...!

15- إن قضية الديمقراطية، في اتصالها العميق بنهوض الحياة والمجتمع والمواطنة، فإنها تتصل أيضاً اتصالاً رحيماً مع تجربة (النهضة العربية) التي غطت أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وأطلقت مشروعاً واسعاً لأمتنا لم يتسنى له الاكتمال، بل إن الديمقراطية هي الاستكمال الصحيح لهذه النهضة، وهي الحاضنة لبعثها من جديد والمضي بها إلى أبعادها كاملة من خلال خطاب يتماشى مع الآفاق التاريخية الراهنة، من ثم إن الديمقراطية مطلب استراتيجي لنهضة الأمة ونهوضها من جديد، الذي يغطي العقود والمراحل السابقة والحاضرة كلها. وليس فقط من أجل لحظة أو فترة ضيقة بعينها...!

وهذا التأكيد ضروري لتصحيح النظرة القاصرة التي تعتبر أن الأساليب والحركات والتجارب الحزبية والسلطوية التي قامت سابقاً على أسس غير ديمقراطية، أو تجانب المشروع الديمقراطي، كانت صحيحة من معيار ظروفها آنذاك.

أو التي تنظر إلى الديمقراطية الآن من معيار الضرورة العملية والتكنيكية التي يقتضيتها ظرف قاهر...ومن ثم يمكن التخلي عنها أو التضحية بها إذا تبدل هذا الظرف فيما بعد...!

على العكس، إن تأكيد ضرورة الديمقراطية الآن يعكس تطوراً في الإدراك والوعي الاجتماعي والسياسي الذي يستجيب لمتطلبات وضرورات ملحة تمس المجتمع والمصير العربي. وهذا التطور لم يأت من الفراغ بل كان حصيلة وعي نقدي عام للوسائل والحركات والأساليب السابقة التي أفضت بالفعل إلى مختلف الهزائم والإخفاقات والارتكاسات الوخيمة، وهو وعي قاده، ودفع ثمنه جيداً، رواد أوائل ظهوروا من صفوف هذه التجارب نفسها أو من خارجها. وينبغي أن تتعاطم درجته وتتسع دائرته الآن بعد أن تولت (العواقب الوخيمة الحاضرة) ما قصر عنه

كثيرون. ومثل هذا الحس النقدي والمراجعة العامة هي شرط ضروري لكي يحقق خطاب الديمقراطية المصدقية والأداء الحقيقي الذي ينطلق من أساس صحيح ويكرس قيماً مشتركة لا تعرف الازدواجية والتهاون.. وهو ما تعجز عنه أصلاً المفاهيم التي ما تزال تتناول الديمقراطية من منطلقات سابقة تبين إفلاسها، أو منطلقات ظرفية وتعويضية تتوخى مواجهة إحباطات الحاضر بصورة مفصلة عن الأسباب البعيدة التي أدت إليها..!.

16- إن قضية الديمقراطية في الوطن العربي هي قضية مركبة ذات وجهين. أحدهما داخلي يخص الحريات العامة والأساسية للمجتمع وأفراده واتجاهاته المختلفة...الخ، والثاني خارجي يخص متطلبات التحرر والاستقلال والوحدة والسيادة والخروج من دوائر التبعية والهيمنة الإمبريالية والصهيونية. هذا الطابع المزدوج للديمقراطية لم يعد يقبل إطلاقاً التضحية، تحت أي سبب أو ذريعة، بأي من وجهيها المذكورين، ولو تحت ذريعة الدفاع عن الآخر، على العكس فإن الحفاظ على تلازم هذين الوجهين، دائماً ومعاً، هو الضمانة الحقيقية لكل منهما بمفرده، وإن القضاء على الحريات العامة والأساسية بحجة مواجهة (العدو الخارجي) لم يعد صادقاً من أساسه، وهو غير قادر «أيضاً» على تحقيق هدفه المعلن هذا حتى لو افترضنا له من الصدق وحسن النية مقداراً كالذي يفرض الطريق إلى جهنم، كذلك فإن إرادة الخنوع للتبعية والاستحقاقات المعادية على اختلافها بحجة الانصراف لتحقيق الحريات الداخلية.. ليس صادقاً بدوره، ولا قادراً على تحقيق هدفه المعلن أصلاً، وهو لا يتعدى الرشوة المكشوفة التي يقدمها الطغاة باليد اليمنى كي يختلسونها من اليسار، وقد أثبت النموذج الساداتي هذه الحقيقة بجلاء ما زال يؤكد اللاحقون دون استثناء.

إن تأكيد هذا التلازم يتعدى غاية الدفاع عن الديمقراطية من جانبها النظري، إلى تأكيد قيمتها العملية التي تحصنها من تلاعبات والتفافات كثيرة تتم تحت عباءة الشعارات والتضليل النظري، لأن حقوق المواطنة والأوطان، الداخلية والخارجية، هي وجوه لقضية ديمقراطية واحدة لا تتجزأ. والتلازم بينها ليس ميكانيكياً بل

يرقى إلى مستوى (العضوية) الواحدة. وهذا يعني عدم اشتراط أي من هذين الوجهين لقضية الديمقراطية كأولوية دائمة وثابتة ونهائية، بل اشتراط أن يكون النضال من أجل أي منهما موجهاً في سياق يؤدي إلى تفعيل الآخر والنهوض به.

17- إن قضية الديمقراطية لا تنطلق من صورة مثالية لمجتمع ملائكي، أو أفراد وجماعات مبرأين من أية عيوب أو تناقضات ومصالح وأهواء وحتى نقائص بشرية، لا تنطلق من صورة سحرية لحياة خالية من النزاعات والاختلافات والصراعات التي تنشأ عن قوة المصالح...أو الإيديولوجيات...أو حتى الأهواء والعيوب البشرية. على العكس فإن ما تنطلق منه هو وجود إمكانية واقعية تطبيقها الحياة نفسها لوضع هذه المظاهر والتناقضات جميعاً في إطار يحقق أفضل مستوى ممكن من الأداء، أو أقل مستوى ممكن من السوء والضرر، وفي الحدود التي تحفظ للمجتمعات نفسها قوة تكفي للتوازن والاستمرار، مع قدر مواز من الكرامة الأدمية!.

ومن ثم إن تناقض الديمقراطية ليس قائماً مع ظواهر الحياة الواقعية أو عيوب البشر وتناقضاتهم وفروقهم واختلافاتهم في حد ذاتها... بل هو قائم ضد السعي لصبغ هذا التناقض أو ذاك بطابع الصراع الرئيسي الذي يراد توجيهه للتحكم بالمجتمع بل والعصف به من جذوره. ومن ثم فهو التناقض الذي تحمله الديمقراطية لصالح الحياة نفسها ضد اتجاهات التخريب والتطرف والتعصب والهمجية والفتنة...التي اعتبرها النص الديني "أشد من القتل" لأنها تقوض الحياة وغايتها معاً..!٩.

18- إن اعتبار الديمقراطية شيئاً مساوياً للعلمانية فقط. واعتبار العلمانية شيئاً مساوياً للمادية والديوية فقط. واعتبار الأخيرة شيئاً مساوياً للكفر والإلحاد والتحلل الأخلاقي فقط... وبالمقابل اعتبار أن التدين والمشاركة الدينية في توجيه الحياة العامة إجمالاً شيئاً ظلامياً معادياً للديمقراطية والعقلنة ونظام الحياة المدنية...الخ.



نقول إن كل ذلك هو مجرد سلسلة من مغالطات إيديولوجية واختلالات معرفية، وحتى اعتداءات مفرضة أحياناً، توجه ضد هذه (المفاهيم والموضوعات الكبيرة) بهدف إفسادها والإساءة من خلال ذلك إلى الأغراض والوظائف الحقيقية التي تعبر عنها داخل المجتمعات البشرية والحياة الإنسانية ذاتها. هذه المغالطات تنشأ عادة نتيجة القسر والانحياز الإيديولوجي الذي يحشر هذه (الموضوعات) في قوالب مذهبية وحديدية تأتيها من تحت عباءة دينية.. أو دنيوية على السوء... ٩.

وهذه (الورقة) لا تتسع لتنفيذ هذه المغالطات جميعاً، لأن وضوح هدفها المعلن، وانشغالها به يملي عليها استبعاد المؤثرات العرضية المختلفة التي كرسست هذه المغالطات (وهي مؤثرات من صنع البيئية - أو المصالح.. أو حدود التجربة التاريخية الخاصة هنا وهناك... الخ)، وعليه سوف نقصر اهتمامنا على التقاط (العنصر الجوهرية) وراء هذه المفاهيم جميعاً، التي كرسست هذه المغالطات (وهي مؤثرات من صنع البيئية... أو المصالح... أو حدود التجربة التاريخية الخاصة هنا وهناك... الخ، وعليه سوف نقصر اهتمامنا على التقاط (العنصر الجوهرية) وراء هذه المفاهيم جميعاً، التي تعكس من خلاله حقائق الواقع الإنساني وحاجاته وتطلعاته الفعلية.

ضمن هذه الحدود نقول أن الديمقراطية ليست شيئاً إيديولوجياً دينياً أو غير ديني، بل هي (الطريقة الأفضل لحسن سير الحياة العامة نفسها داخل المجتمع البشري)، أي أن قيمتها الأساسية تتأتى لها من هذه الجهة على الأقل بمعزل عن المعتقدات المختلفة التي ينشد أصحابها توجيه الحياة من خلالها. وبهذا المعنى فهي ليست طريقة تتناهى مع جدية هذه الأهداف والقيم، أو جدية أصحابها والمتطحنين لها، خصوصاً إذا بلغت المعتقدات والأهداف شأناً من القيمة يسمو إلى الإيمان بعناية إلهية تشمل البشرية كلها وتشد لها سبلاً صالحة تخرج بها من الهمجية والتوحش وتجعلها تليق بحياتها ورسالتها الإنسانية. من ثم فإن الطريقة الديمقراطية ليست شأناً قليل القيمة والأهمية من زاوية الأهداف الصالحة لحياة البشرية، أو زاوية دعواتها الحقيقيين أنفسهم، بل إنها (طريقة) تتصل

بالحق...والعدل.. والحقيقة نفسها، وهو ما حدا بالطغاة وأشباههم من العبيد إلى الاتصال منها جميعاً، ومعاداتها على الدوام، تماشياً مع سياساتهم المعادية لقضية الحياة نفسها. كما دفع «بالمقابل» عظماء البشرية جميعاً إلى الكفاح من أجل تأكيد وتوضيح الطرائق التي تهدف لترقية حياة البشرية ومنهم أحد أئمة تاريخنا الإسلامي الذي قال: ((إن في قضية الطريقة... تتمثل قضية الحقيقة))، أو الآخر الذي قال: ((إن الحقيقة هي سلسلة طويلة من حلقات المعرفة الشريفة... التي تتصل باللانهايي))، وعليه يمكن القول إن الخائفين من الديمقراطية ليسوا أوفياء لمعتقداتهم قبل سواها... وإن قيمة الديمقراطية خليقة أن نحيطها بعنصر من الإيمان والاعتقاد الذاتي الذي يؤلف عنصراً أخلاقياً في شخص طالبها، دون أن يترع عنها طابع الموضوعية الذي يجعلها وسيلة وطريقة صائبة للحياة، مما يرد واحدة من مزاعم أعدائها الساعية لتصويرها (كعقيدة ايدلوجية) بهدف تشنيعها وإثارة الفتن والخصومات الأيديولوجية في مواجهتها...!.

أما العلمانية، فإنها ضمن هذه الحدود أيضاً، وبمعزل حتى عن قيود المصطلح...أو مصدر نشأته الغربية وتأثيراتها، فإنها لا تتعدى حق المواطنة الجوهري والعالمي الذي يتصل بجوهر الوجود الإنساني، ويتحدر من قوانين الطبيعة والناموس الإلهي مباشرة. ومن هذا الحق تنفرح حقوق أساسية أخرى التي أسميت (مدنية) نتيجة الحاجة إليها التي أملتتها - بكل بساطة - ضرورات الاجتماع البشري، وفي مقدمتها حرية الضمير وحق الاعتقاد والتعبير...الاختلاف والاتفاق. المعارضة والاحتجاج، المشاركة في توجيه الحياة العامة بما في ذلك تقرير نظام الدولة ورسم سياستها...الخ، هذه الحقوق تعني أن المجتمع البشري (المدني) هو المسؤول عن إنتاج دولته (المدنية) وتوجيهها. وإن الدولة ليست دولة مطلقة بحد ذاتها (على الإطلاق!).

أي ليست مرجعاً بحد ذاتها فوق «بشري» أو ينوب عن الله في الأرض ويستولي على الصلاحيات التي يتمتع بها الله وحده، بل إنها تستمد كيانها...وشرعيتها...وسياستها من مرجع آخر هو المجتمع والأمة نفسها. وهذا هو الوجه الجوهري لفكرة العلمانية في تناقضاتها مع فكرة (الدولة الدينية) الذي

جاء في معرض التناقض مع خصائص (الدولة المطلقة) بحد ذاتها، وليس التناقض مع الله أو الاعتقاد الديني أو القوانين الكلية المستمدة من الطبيعة والناموس الإلهي.

ومن الطريف أن هذا التناقض (مع الدولة الدينية) جاء «حتى في نطاق تجربته الغربية» ضمن السياق الذي جهله أو تجاهله كثيرون من دعاة العلمانية أو خصومها على السواء، وهو سياق الصراع مع الحكومات والملوك المطلقين الذين انتزعوا لأنفسهم السلطات المركزية، المطلقة، حتى من الكنيسة الدينية نفسها، وجعلوا أنفسهم (ظل الله في الأرض) وعمموا عقيدة (أن الناس على دين ملوكهم) معتبرين أن الصلة بالسماء والمباركة الإلهية شأن يستطيعون وضعه في خدمتهم مباشرة دون وساطة من أحد... وكل هذا في إطار مساعيهم الدنيوية لإقامة دول مركزية تحقق الوحدة القومية والسيادة والسلطة المطلقة على السواء. وقد ظهرت دعوات العلمنة والتتوير والإصلاح الديني والنهضة والجمهورية... والحرية والإخاء والمساواة في إطار المواجهة مع هذه الخصائص... بل والأعيب الدينية المطلقة (الدنيوية جداً!) بعد أن دب الفساد إليها من كل جهة، واتسعت بنفس القدر مدارك الحياة والحريات والحاجات الإنسانية. وهي تذكرنا «على أي حال» بالمحاجة البليغة التي تمت بين معاوية وأبي ذر الغفاري قبل ألف عام في دمشق حول موضوع السلطة والمال والحقوق كلها. التي زعم الأول «لأغراض معروفة» أنها تعود لله (ومن ثم لولاته) ! بينما أعلن الثاني أنها تعود لعامة المسلمين... وأكثر من هذا فقد أوشك معاوية على اتهام أبي ذر بالكفر والزندقة لولا بقية استحياء، ولكن آخرين من بعده لم يتورعوا عن إتباع هذا التفكير مع سواه... ٩!

إن أساس القوة الموجهة لدعوة العلمانية هو أساس دنيوي مستمد من العلم والعالم، ومن الدعوة إلى فهم ظواهر الطبيعة والمجتمع والحياة انطلاقاً من أسبابها الداخلية، على الوجه الذي يحقق غاية أساسية من غايات المعرفة التي ترتد بالنفع على تحسين الحياة وتحقيق السعادة البشرية. وهذا كله لا يشكل نقیصة في حد ذاته إطلاقاً، بل يشكل حاجة عميقة للبشرية تتعدى الحواجز.. والفروق وقيود التجارب الثقافية والحضارية الخاصة. وقد سبقتها تعليمات

الدين الإسلامي بمئات السنين في الدعوة إلى طلب العلم.. ونشدان الحقيقة التي هي ضالة المؤمن، والنفاذ إلى أقطار السماوات والأرض بالمعرفة والعلم واكتناه الأسباب والعلاقات الداخلية التي أوجد الله لها كياناً ضرورياً وموضوعياً يقوم على الانتظام والاستقلال ويقبل العقل والتعقل ويتناهى مع العبثية والعرضية التي يترفع عنها وجه الله..!

أما الإملاءات المختلفة التي أرادت وضع العلمانية في اتجاهات أحادية متطرفة تؤدي إلى إقصاء الدين أو التدين من الدولة والمجتمع والحياة نفسها، أو تجريده من أية وظائف سامية.. الخ، فهي مجرد إملاءات من نوع إيديولوجي، وتتسم بالانحياز، وناشئة عن مؤثرات عرضية خاصة تفرضها قيود البيئة.. أو موازين القوى والمصالح.. أو حدود التجربة الثقافية والسياسة.. الخ وبالتالي فإن تقييمها يتعدى هذه (الورقة).

ولكن يكفي القول أن أمرها لا يختلف عن إملاءات أخرى أصابت الثورة العلمية والتقنية نفسها، بل وإملاءات أصابت التجارب الإنسانية والرسالات السماوية نفسها.. دون استثناء الرسالة الإسلامية، ومن ثم فإن هذه الإملاءات.. والانحيازات والانحرافات كلها، حري بها إذاً أن تشدنا أكثر للتحرر من قيود المغالطة والتضليل والسفاهة على اختلافها، وأن ترقى بنا فوق قيود الحرف والمصطلح، وأن تشدنا أكثر للتمسك بالقضايا الجوهرية التي حملتها هذه الدعوات جميعاً من أجل صالح البشرية... بل وكانت استجابة لها..!

انطلاقاً من هذا نقول إن الديمقراطية هي ديمقراطية المجتمع والأمة وخياراتها على كافة مستويات الحياة الدنيوية، والدينية، وعبر مساحة الحريات الواسعة والحقيقية التي تشكل ملكية مشتركة ينعم بها الجميع بدرجة متساوية، ومرجعاً يحدده ويكفله القانون للجميع دون تمييز: سواء بين الأكثرية أو الأقلية، الفرد أو الجماعة، الرأي أو الرأي المخالف، الحكومة أو المعارضة.. الخ.

في مثل هذه الديمقراطية تتحرر الإرادة الحقيقية لاتجاهات المجتمع وأبعاده المختلفة، دون أن تؤدي إلى تسطيح اختلافاتها وتعددتها وتناقضاتها الواقعية، وإنما تبدل اتجاهها من عمودي إلى أفقي، ومن رئيسي إلى فرعي. أي توجهها نحو

(التعقلن) والتقابل وجهاً لوجه، أو كتفاً لكتف، أمام أسئلة وأجوبة تقتضيها مشكلات حقيقية، وتغتني بها حياة المجتمع، وتكون لاثقة بمصير أمة يفترض أن تنال من أبنائها ما تستحقه من احترام وأن تقيم لحياتها طريقة تكون عصية عن الامتثال أو الاقتلاع..١.

في مثل هذه الديمقراطية ينسحب البساط الذي تتغذى عليه مشكلات زائفة (لا تفتقر إلى بعض الأفواه..١) التي تستهدف، أو تؤدي إلى، اقتلاع الأمة نفسها من الحياة بواسطة الصراعات الانتحارية، وخصوصاً بين كتلتين وهميتين تسعى إحداها لإقصاء الدين عن الحياة والمجتمع والدولة تحت عباءة (النظام العلماني).. وتسعى الثانية لإقصاء الحريات الإنسانية والحقوق المدنية والديمقراطية عن الحياة والمجتمع والدولة تحت عباءة الحكومة الدينية والنظام الإلهي وسوف نخصص كلاً من هذين النظامين العتيدين في بحث مفصل مسترشدين على الأقل بنظام الطعمة الطورانية أو الجزائرية من جهة... أو النظام الطالباني من جهة ثانية..١.

19- أخيراً، وكما أنه يقتضي أن ترقى الديمقراطية إلى خطاب صريح يشتمل المرتكزات السابقة جميعاً، أو يضيق عليها فإنها - في نفس الوقت - هي (عقد) أيضاً..١.

بل لعلها أكرم العقود التي تليق بعقل الإنسان، وأدميته.. ومواطنيته.. والتزاماته تجاه الأمة والمجتمع والإنسانية كلها. وهذا لا ينفي أن الديمقراطية هي (عقد) على مستوى الأمة كلها... وعلى مستوى الإنسانية أيضاً.

- ✓ وهذا العقد يشمل الديمقراطية في مختلف مراحلها... وخطواتها.
- ✓ ولعل أول خطواتها على الإطلاق هو.. الحوار. الحوار حول الديمقراطية نفسها، وفي سبيلها. وهو ما تبتغيه هذه الورقة في رأس أولوياتها..١.
- ✓ بل لعل هذا (الحوار) هو الخطوة اللازمة والملازمة دوماً لكافة مراحل الديمقراطية.. وللحياة على سواء..١.

✓ ولأن الحوار نفسه هو حق التعبير أولاً، وهو حقوق التعبير جميعاً. فإنه يبدو لي أنه (عقد) أيضاً. بل لعله ألزم العقود جميعاً. ومن ثم لي أنه ينبغي أن يتصف بآلية، وقواعد، ومقتضيات، تليق بقيمته كأساس تستند إليه مختلف المراحل..والآفاق...التي يتحقق بها صرح الديمقراطية كلها.....وانها لقضية (لطريقة) إذا...!.

ولهذا يستحسن أن نبحث هذا (العقد) في ورقة أخرى.

المحامي الدكتور برهان زريق

## نحو مشروع ثقافي إنهاضي ومسألة ثقافة الموت وثقافة الحياة

قال أحدهم: ((لو أردت قرض الشعر لما تمكنت لأنني لم أعد أرى من ألوان الحياة إلا لوناً واحداً... من رأى السلاسل تمزق أجساد العبيد لم يفكر إلا في الحرية الحمراء)).

وقال ماوتسي تونغ: ((أن يكون المرء أحمر خير من أن يكون خبيراً)). المستضعفون هم عماد أمتي، والهاجس الكبير، والزخم الوهاج، والسؤال الملقق الملح الكثيف حضوره، أمتي نفسها مستضعفة وبروليتاريه، ومحاولات التهميش والإقصاء والطمس لاتي تبرز مشروعاً بعد مشروع لتسحق عظامها.

ثقافة الحرية الحمراء هي الخطة الأولى من أجل تكسير السلاسل، وزخرفة الصخرات العاتية على صدر المستضعفين في دارنا المحبوبة من أجل بلسمة العاهات والجراح التي زلزلت المواطن، حيث اهتزت بوصلة حياته، واختل توازنه، وانخلع عن محوريته وتاريخه وتراثه، وثقافة الحرية الحمراء ضرورية في جدلية أمتنا حيال محاولات الاختراق والغزو من قبل الشعوبية المعاصرة والامبريالية والصهيونية ومن قبل أجهزة السلطة العربية التي أريد لها أن تخون الأمانة. لكن هل يمكن تبسيط الثقافة بالأيديولوجيا واختزالها من جانب واحد من جوانبها ألا وهو ثقافة الحرية الحمراء؟<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - فيصل دراج: انهيار الثقافة إلى ثقافة الانهيار، مجلة النهج، خريف 1994.

الثقافة في نظرنا كل ما يحيط بمبادرات الإنسان وأبعاده وخياراته وشوقه للحياة، وتصميمه على اكتناه أسرار الطبيعة ومعاينته المطلق واندراجه في التاريخ وانخراطه في صميم الحياة.

على هذا الأساس تعددت الرؤى حول هذه الظاهرة، وحسبنا تحديد مالك بن نبي بأنها فلسفة الإنسان والمجتمع، أما عناصرها فهي: الدستور الخلفي - الذوق الجمالي - المنطق العملي - الصناعة.

وهذا ما ذهب إليه "بارسوز" بأنها مجموعة الرموز التي توجه العقل وتدفع العناصر الذاتية في الشخصية، وتسوس الأنظمة الاجتماعية، وتحكم الأفكار والمعتقدات والرموز التعبيرية والمعايير العلمية وآليات ضبط الاجتماعي.

وإذا انتقلنا إلى الدائرة التقييمية أمكننا القول إن الثقافة هي أساس كل بناء، والحامل الذي يقوم عليه صرح المجتمع، وإن الثقافة الحية أهم من النظم السياسية والمناهج الاقتصادية والخطط الدستورية والقوانين القانونية، وإنه لا انبثاق ولا انطلاق إلى بالشخصية الحضارية للأمة.

بهذا الشرط الإنساني القائم على تصور متكامل للحياة ومنظومة متكاملة للقيم، نفهم وثبة أمتنا في صدر الإسلام كما نفهم انطلاقة ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أحييت اليابان ثقافة الشنتو ورجعت الصين إلى الكونفوشية<sup>1</sup>. ويمكن التأكيد على أن أي مشروع اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي محمول على الشرط الإنساني، أو أن ملحمة النهوض ومغامرة الانطلاق والعملاقة والتجوهر، إنما تزكو ويصلب عودها بهذا الناهض وبالتالي فالأمم بالثقافات والجامعات قبل أن تكون بالثكنات والمدافع والتقنيات.

القيم للأمة الدواء والهواء، والثقافة هي المضاد الحيوي "الأنثيبوتك" والجنة التي تحمي الأمة في الشدائد والملمات، والتنمية وما أدراك ما التنمية دون مشروع ثقافي، والديمقراطية ما الديمقراطية إذا لم تحمل على ثقافة ديمقراطية، تكفل

<sup>1</sup> - الهوية والتراث، مجموعة مؤلفين، بيروت، دار الكلمة للنشر، 1984، ط1.



حرية التعبير، وإذا لم يتم الالتفاف حولها كقيمة إنسانية تسمو لحياة وتمجدها وتفضل مسيرة التقدم.

امتلاك العقول والقلوب أشد مراساً وتمرساً ومنعة في وجه العدو ومن الدبابات والمدافع، لقد سيطرت فرنسا على الشيء الكثير من الجزائر الشقيق، ولكنها ارتدت على أعقابها أمام مملكة الروح وعملقتها، وهذا ما وجدناه في شموخ شعبنا في مصر والأردن في مواجهة التطبيع وأخطبوطه.

تاريخنا العربي حافل بتخاذل السياسة وأعطابها وعاهاتها، بالمقارنة مع الرواسي الشامخات للروح الشعبية أمام عاديات التفتيت والطمس والتهميش والإقصاء. أية ثقافة هي التي نعتبرها رافعة لحياتنا؟<sup>1</sup>

الثقافة كأية ظاهرة إنسانية تخضع لما تخضع له سنن الحياة من التمدد والتقلص، الموت والحياة.

على هذا الأساس، فالثقافة التي تشق عن روح أمتنا وتستشرق آفاق تطورها هي ثقافة الإبداع - العمل والإنجاز والعقلانية وترشيد الحياة وترسيخ الروح العلمية، وتجذير الشعور بالمواجهة ومقاومة التطبيع والاختراق والعدوان والغزو.

على هذا الأساس نقول لا لثقافة اليأس والتشاؤم والانتظار، ثقافة المنفعة والذيلية والسمسرة للإمبريالية، ثقافة الخواء والزمن الضائع والاستلاب ولاغتراب، ثقافة الوعي الزيف غير المطابق، المتعثر والمنخلع.

والحديث عن الثقافة يقودنا إلى تلمس جدلية الثقافة/السلطة، بل إلى إشكالية هذه المزدوجة، وحقيقة الأمر أن الصراع سرمدى بين هاتين المقولتين، وهو ما تفترضه طبائع الأشياء، إذ الثقافة حرية والسلطة قوة، الثقافة إنتاج المعنى وإسباغه على الحياة، والسلطة هي الهيمنة على المعنى والقيمة، وهذا ما عبرت عنه أسطورة جالينوس في صورة رأس ذي وجهين، الأول يفيض بالنور، والآخر تملوه قسماات القترة والكدرة.

---

<sup>1</sup> - د. محمود الذوايدي: مفهوم عالم الرموز عند الإنسان، مجلة المستقبل، العدد 6، عام 1992، ص 32.

لقد استطاعت مغامرة الروح الإنسانية الخالدة أن تروض السلطة، فإذا هي لعبة الشطرنج التي تقوم على مبادئ العقل والمعنى لا على شحنات الغرائز، ومع ذلك فنحن في دارنا العربية لما نرق إلى مرحلة تأسيس السلطة، حيث تذوب في المشروع المجتمعي التاريخي، وحيث هي جهاز في خدمة فكرة ليس إلا، وحيث تصغي إلى قول الثقافة وتشارك معها في صنع القرار وبالعكس، فالحاصل لدينا أن المشروع يذوب في إرادة السلطة، ويتوقف على نزواتها العارضة، لاسيما في حقل اغتيال الثقافة وتدجينها وإخضاعها لدواعي السلطة، وفي حقل حشر المثقفين في اقفاص من ذهب وفي حظائر الصمت، وفي أجهزة الإعلام والدواوين من أجل ثقافة التسويغ والتسييح بحمد السلطان.

وبيان ذلك أن الثقافة هي المقدمة الأولى للحرية، وبالمقابل فالحرية هي المقدمة الطبيعية لروح الأمة والطريق الذات الفردية والجماعية الخلاقة، إنها الكريات الحمراء، والحرية هي الكريات البيضاء ولا معافاة الأمة بدون دمها ونسغها. والثقافة العربية الحقّة المعبرة عن شخصيتنا الحضارية هي التي تضعنا أمام وقفة دقيقة حيال جدلية العروبة والإسلام، على قاعدة الإسلام في العروبة، والعروبة في الإسلام، العروبة انتماء وإطار، والإسلام والروح والصورة التي تزين وتزين بالإطار، العروبة هي الغمد العربي من أجل العطاء والكرامة الإنسانية<sup>1</sup> وعلى هذا فإن أية محاولة لضرب العروبة بالإسلام أو الإسلام بالعروبة، إنما هي ثقافة الخواء والاستلاب والاغتراب عن مبادئ الحياة التي صاغت العروبة والإسلام على أرضنا، حيث يتمهى لإسلام في العروبة والعروبة في الإسلام، وحيث تعاوننا على صياغة ذوقنا الجمالي وأريجنا الروحي وزفيرنا المقموع، ومنطقنا العام وقصصنا الشعبية وحماسنا الوطني وموسوعتنا العلمية ونظرتنا في الوجود وتصورنا للحياة.

---

<sup>1</sup> - د. محمد عماره: أزمة الثقافة العربية الإسلامية، مجلة الاجتهاد ودار الاجتهاد، العددان 10 و 11، لعام 1991، ص 51.

لتأصيل الثقافى الحي هو الذي يربط بين وحدات الزمن الثلاث: حيث الماضي «حافزاً لا عبئاً والماضي» نقطة انطلاق، أما المستقبل فهو المرتجى والهدف المنشود، ويترتب على ذلك نتيجة هامة، أن الثقافة عملية إبداع لا نقل، ولا يمكن لثقافة أن تثري الحياة على أساس النقل الميكانيكي الصرف.

وهذه هي جدلية الأصالة والمعاصرة، وهي جدلية تنفس هواءها اليومي، ونعيشها في دقائق حياتنا، على هذا فهناك عملية فصل ووصل ضرورية لقراءة التراث، فصل نقرأ فيه التراث «حقيقة موضوعية» وصل حيث تتم القراءة المعاصرة من أجل توظيفه ناهضاً ورافعة - لحركة الحياة على أرضنا، دون أن نعني حركة التراث لذاتها من أجل التراث، ومع لتتويبه بأن هذا التراث لا يخلو من السلبيات الداكنة والظلامية قدرة إلينا من العصر الوسيط، والنظر النقدي والمنهجي هو الذي يقوم بعملية الغريلة والتمحيص وفرز القمح الذؤان.

الحديث عن الثقافة يقودنا إلى العلاقة الجدلية، بين الثقافة والتنمية، إذ الاستلاب الاقتصادي،-إلى الاستلاب الثقافى، وبالمقابل فالتنمية الحية، لا تنطلق إلا من ثقافة حية، كذلك فالثقافة تزكو وتسمو إلا بتنمية اقتصادية تحقق إشباع الحاجات العامة لكل مواطن، إضافة إلى تحقيق التراكم حريفي الذي لا يتحقق في عصر الكمبيوتر، وهندسة العلوم، إلا بمأسسة المجتمع العربي على قاعدة - المعرفة وقومية المؤسسات، وقومية السوق، وقومية المناهج التربوية والقيم التعليمية.

إننا نعيش ولا شك حالة نهضة واستثمار حضاري في الوقت الذي نطرح فيه سؤال الوجود والهوية، وحدائث لا التحديث، قبل أن نطرح التنمية بالمفهوم الاقتصادي الضيق، حسب رأي فلاسفة التغريب لما سرتته، وهذه النهضة لا تتم إلا بالخيار الحضاري، والشرط الإنساني بمضمونه الشامل.

في ذلك الإصلاح الديني تماماً كما حدث في أوروبا، حيث أرهص عصر التنوير والنهضة للثورة الصناعية حيث كان إصلاح العقيدة على يد اللوثرية، هو الدخل الطبيعي ورافعة الانطلاق ودينامية الاندفاع ثورة الصناعية، حيث مقولة عالم الاجتماع " فيبر" الذائع صيتها.

بالطبع فليس المقصود من إصلاح العقيدة قس المقدس الإسلامي بقدر ما تقصد النعي على بعض نوائب والحشويات وروح الجمود والتكلس والجبرية والغيبيات والشعوذات التي علقت على تراثنا الديني منها براء.

استطراداً فالالاقتصاد هو عنوان الحضارة الشيئية، في حين أن الثقافة هي عنوان حضارة الضمير، والشعوب فهي لا تملك ثقافة حية، تعورها عقد الأمراض النفسية، فينخفض توترها الروحي، وتركن إلى الخنوع لتمزق والتواكل واليأس، وتضعف لديها روح المبادرة والعمل والإقدام على الحياة والشوق إلى بهجتها، هذا فضلاً على أن أي تأسيس اقتصادي لا يقوم على تأصيل الهوية، لا يعني إلا الاغتراب والخواء والاستلاب.

الحديث عن الثقافة يقودنا إلى سمة أساسية في ثقافة أمتنا ألا وهي بُعدها الإنساني، وقدرتها على استيعاب المناقشة والحوار، ومن البدهة أن أمتنا هي وريثة ثقافات الحضارات القديمة لاسيما الحضارات وزعزعت على تراب أمتنا، حيث صهرت هذه الثقافات، وصبت عليها عصارتها الهاضمة، لتنتج لنا الحضارة العربية الإسلامية، تلك الحضارة التي تمتلك مخزوناً تراثياً إنسانياً ضخماً، وتعتبر من أهم الحضارات في العالم، ومرشحة لأن تلعب أعظم دور في هذه المسكونة، وما لصراع الحضارات الذي يطرحه الغرب حالياً، حيولة دون أن تلعب تلك الحضارة دورها المنشود.

هذه القاعدة الرصينة تفهم كيف تتعامل مع النظام العالمي الجديد، على قاعدة "دع الزهور تتفتح ولنتبار"، ليس على قاعدة المركزية الأطلنطية، مع التنويه بأن هذا النظام الجديد ليس إلا صورة جديدة للرأسمالية، رحلة ما بعد الحداثة، وهذا النظام يفتقر إلى أدب الحوار ومقوماته، وبذلك فالقضية بيننا وبينه ليست قضية ثقافية بقدر ما هي سياسة، مع العلم بأن الخيارات الحضارية تثري الحياة الدولية، وتزيدها غناءً خلافاً لموقف النظام العالمي الذي يقتصر على المفهوم الاقتصادي الاستغلالي، وما يتصل به من أنساق قيمية، وأنماط سلوكية وحياتية رخيصة ومبتذلة وركيكة في الفن والحب وروابط الأسرة والمجتمع والدين، منها ثقافة الكوكاكولا والجينز، التي لا ترقى إلى صعيد الشخصية القومية، التي أبدعت

تاريخياً روائع الحياة والارتقاء بها وتعزيزها، وهذا ما أكده المفكر القومي الراحل "د. عصمت سيف الدولة"، بتدليله بأن الغرب تحول على صعيد المجتمع إلى الفردية وعلى صعيد الاقتصاد إلى الرأسمالية وعلى صعيد الدين إلى العلمانية. والمشروع الثقافى العربى، لا يمكن أن يكون محمولاً إلا على عبقرية اللغة العربية وفقاً لجدلية لغة/فكر، ليس على المشروع القائم على التفرس والتمغرب، لما في ذلك من ارتباط وشيخ بين اللغة والأمة، بين مشروع الاجتماعى والسياسى ومشروع اللغة/الفكر.

والثقافة العربية هي التي تحيط بكافة مبادرات وأبعاد الإنسان، العلم، الفلسفة، الدين، العلم ومملكته لأسباب، الفلسفة ومناطها الغايات، الدين ووجهته إعطاء روح الثقافة العربية هي التي تحترم حق الروح وحق العقل في معانقة الطبيعة واكتشاف أسرارها بمنهج التجربة والملاحظة والنقد ورسالة العقل وأسننته، وهذا هو مغزى تسخير السماوات والأرض للإنسان واستخلافه لعمران الحياة.

والمشروع الثقافى العربى لا يتعارض مع الثقافات الفرعية التي تعيش في كتف وطننا إذا ما التزمت بمبدأ الأمة وحقوقها وقيمها ومصيرها على قاعدة إذا كان في الوحدة قوة فإن في التنوع قوة أخرى تزيد القوة قوة ومضاءً وعلى قاعدة التنوع في التشابه، والتشابه في التنوع، والأمر نفسه بالنسبة للإيديولوجيا إذا كانت هذه الإيديولوجيا تعانق معنى من معاني الأمة، وتبقى الأمة وقيمها وضميرها ومستقبلها معنى المعاني والمشروعية العليا التي تسوس وتحكم وتوجه كل إيديولوجيا خلافاً للطائفية والقبلية والفئوية التي تتعارض قيمها وثقافتها مع تحقيق المواطنة «كرباطة» سياسية وحقوقية وحيدة بين الفرد والدولة.

والثقافة العربية لا تترسخ و تتوطن إلى على آلية المشروع القومي واستراتيجية العليا، وفقاً لجدلية ارتباط الوظيفة بالعضو، أي لا تترسخ إلا على أساس استراتيجية ثقافية وقيمية وتربوية، تستهدف أهداف الأمة العربية وتتمى القيم الضرورية لتحقيق هذه الأهداف، مثل حب العمل والإنجاز واتخاذ القرار والتفاوض

والإقبال على الحياة، والحرص على الأموال العامة وعدم الهدر، ودفع الضرائب، وغير ذلك من القيم التي تعطي بهجة الحياة.

والحديث عن الثقافة العربية يقودنا إلى التعرّيج على المثقفين قاصدين من ذلك المثقفين العضويين المبدعين لا القوالين، أي صانعي الكلمة الحية ومهندسيها وحراس قيم الأمة والممتلكين لرأس المال الرمزي للأمة، وبالتالي فالثقافة ليست مسألة أكاديمية بقدر ما هي انتماء وفعل جماعي واندماج في روح الأمة والانخراط بين ظهراي جماهيرها والتعبير عن مطالبهم، وليس تعالياً على هذه الجماهير، كما تفعل النخب المغترية التي تجيد الهرولة وتغسيل الأقدام، مشيرين إلى أن الاختلاف بين المثقفين يجب أن لا يؤدي إلى الانشطار في الثقافة، وهكذا فمعنى المثقفين العضويين أن يحسموا فكراً قضايا الأمة على قاعدة الإيلاف والحشد والوعي الوطني مع التأكيد بأن حوار المثقفين مقدمة للحوار السياسي.

أجل، لقد تكلمنا حتى الآن عن الثقافة العامة وعلينا الآن أن نتكلم عن الثقافة الشعبية التي تمثل النسيج الحضاري لأمتنا وعمادها وقوامها ومادتها. وإذا أمكن القول إن ثقافة المرايا والبلاط والقصر والثقافة المخملية مثلت نقطة الاختراق في تاريخنا، فإن الثقافة الشعبية هي الحصن الحصين لأمتنا والمخزون الرمزي الاحتياطي الذي يقف منيعاً ضد محاولات الاختراق والإقصاء والطمس. لذلك فالمشروع الثقافي العربي هو الذي يعانق حركة الجماهير ويجيش أفكارها، ويعبئ طاقاتها، ويستفز حماسها ويحرك كوامنها، وعبقرية الثقافة الشعبية يجب أن تكون موضع اهتمام وترسيخ، لأن القيم الشعبية، هي الفلسفة الأخلاقية والوطنية للجماهير، لذلك فإن تفجير برميل الثقافة الشعبية هي الأساس لكل انطلاقة سياسية واجتماعية واقتصادية.

كم هي المرات «في تاريخنا» التي سقط فيها العسكري والسياسي وبقي الشعبي بإرادته وقيمه ٩.

تجد مصداق ذلك في هبة الجماهير الشعبية في قطرنا المصري، عقب نكبة حزيران عام سبعة وستين، وتصميمها على الثأر والكرامة بقيادة عبد الناصر، كما تجد مصداق ذلك في وقعة الشعب اللبناني الشقيق في قانا، وأخيراً تجد هذا المثل

الحي في وقفة الباقورة من فعل الجندي الأردني الذي وعى بضميره صحيفة السوابق الإجرامية الصهيونية فثار البركان مدمراً كل شيء.

وعلى هذا فالتحصين السوسولوجي الثقافي يتم من خلال العضّ بالنواجز على منطلقنا الشعبي وما أنتجته روح الجماهير من أهازيج وأفراح وتقاليد وأساطير ورموز وحماس وشهامة وثقة بالنفس والاعتزاز بالكرامة وغير ذلك من القيم وأساليب الحياة الشعبية.

والخلاصة أن الثقافة ماضٍ وحاضر ومستقبل وزحف يفجر ثورة ثقافية عربية، تقوم على ثقافة الوحدة، ثقافة حرية التعبير، ثقافة الديمقراطية والمواطنة وتداول السلطة، ثقافة المجتمع المدني بحراكه واندماجه وتوحدّه، ثقافة حقوق الإنسان وأنسنته، ثقافة الشرارة الإلهية والقيم الروحية، ثقافة تحرير المرأة، وتعلية كرامتها وذوقها باعتبارها صانعة الحياة.

تكلم أحد المفكرين عن ثقافة الموت وثقافة الحياة، وضرب مثلاً على الثقافة الأولى بتلك القيم التي كانت سائدة في إحدى القبائل المتوحشة والتي كانت تقضي بانتحار الزوجة إذا توفيت زوجها، أو التي كانت تحرم تحريماً قاطعاً، الاعتداء على أموال رئيس القبيلة، وحدث أن اعتدى أحدهم على تلك الأموال فاعتورته الأمراض الكثيرة، والغريب في الأمر أن السلطة في بلدي على العكس من ثقافة القبيلة المتوحشة تسمح بأن تتغول على كل شيء، دون أن يعتورها أي إحساس أو وخزة ضمير.

ثقافة الحياة هي ثقافة ذلك الصحابي الذي لم ينتظر أن يأكل بعض الثمرات، فرماها وقاتل في معركة أحد حتى استشهد.

المسألة أولاً وأخيراً في الثقافة، فالثقافة العربية الواحدة هي الطريق للوحدة (تويني)، ورحم الله "ساطع الحصري" الذي قال: ((اضمنوا لي الثقافة أضمن لكم الوحدة)).

المحامي الدكتور برهان زريق





## النهضة العربية المرتجاة في ظل الثنائيات المتصارعة<sup>1</sup>

**الجدل** بين هذه الثنائيات قائم منذ قرن وبأشكال صريحة أو كامنة، عالية أو خافتة، جسور أو خجولة، لم يعد يمثل حالة من حالات الحوار المثمر والمفيد، لأنه يضيع جهد الأمة في أقتية غير موصلة إلى الأهداف المنشودة، ويفوت عليها فرص النهوض والانصراف إلى العمل، لهذا فقد وسمنا بحثنا بالقول متصارعة وليست متحاورة.

**1- ثنائية القطرية والوحدوية:** فالقطرية والوحدوية في الوطن العربي والعالم الإسلامي، يمكن أن يلتقيا على أكثر من صعيد، وتجربة المجموعة الأوروبية خير دليل، بل هي أفضل نموذج للدراسة والاستدلال على إمكانية قيام وحدات اقتصادية وجمركية وثقافية ومواطنية دون المس بالقطريات، أو حتى بالقوميات. وإذا كان لا بد من مثل صارخ ينتقى من وضعنا العربي والإسلامي، فمثل طرق المواصلات ووسائل الاتصال (وهي الهيكل الأساسي الذي يشكل شرطاً أولياً لأي وحدة أو اتحاد أو تعاون)، يشكل مرآة لما نحن عليه من تجزئة وتفرقة وتنابد،

<sup>1</sup> - نشر هذا المقال على موقع الحضارية التابع لمعهد الأبحاث والتنمية الحضارية Research and Civilization Institute Development، على الشبكة العنكبوتية - الانترنت.

فالجميع يعرف أن الاتصال ما بين المدن العربية والإسلامية، يمر عبر عواصم أوروبا.

والسؤال: لم لا تبدأ مشاريع الوحدة وأشكالها بتطوير طرق المواصلات وأساليب الاتصال والانتقال بين العواصم العربية والإسلامية، أليس في هذه البداية محاولة جدية لتحقيق سمة حضارية أساسية من سمات المشروع الحضاري العربي الإسلامي المنشود.

2- ثنائية الثورة والدولة: وأما الثورة والدولة في الوطن العربي والعالم الإسلامي، فيمكن أن يردم الهوة بينهما أكثر من جسر، وشرط ذلك إدراك الطبقات الحاكمة أن الشعوب لا تساس بالقوة، والتفرد والاستئثار وعن طريق الأجهزة السرية، بل ثمة مؤسسات ديمقراطية، وأقنية شعبية ونقابات وأحزاب وتعبيرات أهلية ومدنية مختلفة، ينبغي أن تقوم وتتمى لتشكّل وسائل من السلطة الفعلية بين المجتمع والدولة.

وبالمقابل ينبغي لطلاب الإصلاح والتغيير أن يستوعبوا جيداً المبدأ الفقهي الإسلامي الداعي لتجنب الفتنة - وهي المرادفة في العصر الحالي للحرب الأهلية - وأن يدركوا تماماً الحد الفاصل بين الثورة والفتنة، بين مصلحة الأمة وسفك دماء أبنائها، فتفهم الثورة على أنها تغيير في النفس وتغيير في القوم، تريبواً وأخلاقياً واجتماعياً، إنه الاستعداد النفسي والقيمي أو القبلية «على حد تعبير الأستاذ مالك بن نبي»، فكما أن ثمة قبلية للاستعمار فثمة قبلية أيضاً للتححرر.

وليس من قبيل قصر النظر أو التخاذل أو المهانة أن يؤجل المصلح الإمام محمد عبده في أيامه الدعوة إلى استقلال مصر، وان يقف موقف الحذر من أي تهيج ثوري في حينه، فقد كان يرى عدم الاستعداد الكافي لدى الأمة لتحمل نتائج الثورة الشعبية، وتحمل مهمات الاستقلال الكبرى، فأعطى الأولوية آنذاك لإصلاح النفس والمؤسسات ومراكز التعليم ولإنتاج فقه معاصر ومجدد<sup>1</sup>. ومهما يكن من أمر تقويم هذه التجربة، فإن المسألة التي تطرح الآن في عملية

<sup>1</sup> - د. وجيه كوثراني: مجلة المستقبل العربي، عدد 137/1990، ص32.

البحث عن سمات حضارية للمشروع العربي الإسلامي، هي كيف نوازن بين الدولة والمجتمع كي لا يطفئ أهل الدولة على المجتمع طغياناً استبدادياً، ولا يطفئ أهل الثورة على النظام العام للجماعة، فيؤدي ذلك إلى الفتنة والعنف. إن قيمة أساسية من قيم الإسلام غابت عن الثوار والحكام معاً، هي قيمة الحوار المجنب للعنف، قيمة إيصال الرسالة بالقول اللين حتى في مواجهة فرعون كما غابت قيمة الخشية والتذكير ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿43﴾ فقولاً له قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ طه/ 43 - 44.

3- ثنائية الإسلامية والعلمانية: وأما بالنسبة للإسلامية والعلمانية، فإن الجدل بين أهلها قد اتخذ أشكالاً من الاستنزاف الفكري والسياسي، لا سيما بعد أن رفع بعض القوميين واليساريين الاشتراكيين شعار علمنة الدولة، أو فصل الدين عن الدولة، وبعد أن رفع بعض الإسلاميين شعار تطبيق الشرعية، في عملية استعجال للوصول إلى السلطة، فبدأ الجدل معزولاً عن سياقه الفكري وجذوره التاريخية وخارج حقله الصراع الفعلي.

كان حقل الاستخدام المفاهيمي في أوروبا هو التالي، العلمانية Laicism بالنسبة إلى العالم مقابل الكهنوت/الدهرية secularism (نسبة إلى الدهر أو الزمن أو الدنيا) مقابل اللاهوتي أو الغيبي، وكانت هذه الأفكار تعبيراً عن صراع قوى اجتماعية ومؤسسات واتجاهات: الليبرالية مقابل التحريم الكنسي، الديمقراطية مقابل نظام تحالف الإقطاع والكنيسة، البرلمانية مقابل النظام الملكي الاستبدادي<sup>1</sup>... إلخ.

وبهذا المعنى يمكن أن نفهم موقف إسلاميي النهضة من الاتجاه الإصلاحية الإسلامي "الأفغاني، عبده، الكواكبي، رضا، النائيني.."، لماذا خاضوا المعركة الدستورية في كل من إيران والدولة العثمانية جنباً إلى جنب مع الليبراليين والديمقراطيين والبرلمانيين المحليين، معتبرين إن كل هذه الأفكار والمؤسسات هي

<sup>1</sup> - د. وجيه كوثراني: مجلة المستقبل العربي، عدد 137/1990، ص33.

أفكار ومؤسسات إسلامية الأصل، وإن المؤسسات السلطانية الاستبدادية وإن توسلت الدين، هي مؤسسات غير إسلامية.

فمشيخة الإسلام في الدولة السلطانية وآخر تجلياتها الدولة العثمانية والدولة الصفوية القاجارية، أضحت شبه مؤسسة اكليركية، رغم التأكيد العام أن لا كنيسة في الإسلام، وأن لا دولة دينية فيه "محمد عبده"، لهذا أيضاً رأينا "الكواكبي" يتحدث عن الاستبداد السياسي والاستبداد الديني في الدولة العثمانية، ورأينا "حسين نائيني" يتحدث عن شعبي الاستبداد في الدولة القاجارية: الشعبية الدينية المتمثلة بعلماء السوء والشعبة السياسية المتمثلة بالسلطين.

كان ذلك حقل صراع في التجربة التاريخية داخل الإسلام نفسه، صراع بين اتجاه إسلامي سلطاني وبين اتجاه إسلامي شوروي. وأما حقل الصراع الراهن إسلام/علمانية، فإنه إلى جانب الاستعارة اللا تاريخية فيه، فإنه يترجم في الراهن حالة صراع سياسي بين نخب تستعجل الوصول إلى السلطة: هذه باسم تطبيق الشريعة، وتلك باسم فصل مموه للدين عن الدولة، وفي الحالتين تستعيد الدولة العربية (الحديثة) أنموذجاً السلطاني القديم، فتعود إلى الدين لاستخدامه إيديولوجيا سلطانية أو فقهاً سلطانياً.

لقد سلبت الدولة السلطانية عبر نمط علاقتها بالدين المعاني السامية والنبيلة التي كان يمكن للقيمة الدينية أن تزخر بها، كذلك فعلت بعض الأحزاب الإسلامية المعارضة، مهمة ما بدأتها الدولة السلطانية القديمة، من قبر ما تبقى من القيمة الدينية في المجتمع المدني، حتى انعدام الحد الفاصل الضروري بين الدين والسياسة، فغرق الفقيه في حق السياسة حتى أضحى سلطاناً أو مشروع سلطان، وابتذل الحاكم الدين حتى أضحى ممثلاً فولكلورياً للتراث الديني. والمفارقة اللافتة للنظر أن حاملي خطاب العلمانية لا يدركون أن السلطين المسلمين كانوا أكثر «علمانية» منهم «بالمعنى المدني والديني والزميني»، كما أنهم لا يدركون أنه في حال وصولهم إلى السلطة، سيكتشفون أهمية الاستخدام الديني في تثبيت السلطان الزميني، ولو كان ذلك عن طريق الارتضاء بتطبيق الشريعة،

وبالمقابل ينكشف العمل الإسلامي الحزبي انكشافاً سريعاً عندما يرتضي مخالفة الحاكم على أساس هذا الشعار، وبمعزل عن السياق العلائقي بين المجتمع والدولة، وبغض النظر عن القيم الدينية والأخلاقية والسلوكية التي يزخر بها الإسلام، فلا يسأل أين هي في مسلكيات العمل الإسلامي وأخلاقياته توجهاً وممارسة<sup>1</sup>.

في زمننا المعاصر، يتحدث الكتاب والمفكرون كثيراً عن سمات المشروع الحضاري الإسلامي، في مجال الفلسفة والاقتصاد والأخلاق والإنسانيات والتنمية، وعبر مئات من الكتب الجديدة، ومع ذلك لا نلمس تأثيراً لهذا الفكر في السياسة الإسلامية.

وقد يقول قائل: إنه لا بد من الوقت والجهد المثابر والعمل التربوي الطويل النفس حتى يثمر هذا الفكر تربية وسلوكاً وسياسة، إنه قول محق من حيث المبدأ، ولكن يبقى التساؤل مطروحاً من داخل التجربة التاريخية المعاصرة، لاسيما عندما نتذكر مفكراً كمالك بن نبي.

فالكثير من الأطروحات «الحضارية» التي ننتبه لها اليوم كمشكلات، ملاحظة في الفكر والعمل الإسلاميين هي أطروحات سبق وبحثها وعالجها هذا المفكر في كتابه، فلا أثرت في الفكر القومي السائد آنذاك وفي مشروعه السياسي رغم قرب الكاتب من الناصرية ورهانه عليها، ولا أثرت في الفكر والعمل الإسلاميين السياسي وبرامجه، رغم منطلقات الكاتب الفكرية والعقائدية الإسلامية، لقد ظلت أفكاره النقدية حول «القضية الحضارية» في المشروع الإسلامي خارج دائرة التداول في أوساط الفعل والقرار السياسيين، واقتصرت على قلة من النخبة المفكرة<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - د. وجيه كوثراني: مجلة المستقبل العربي، عدد 137/1990، ص34.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص35.

يخلص "مالك بن بني" في مقدمة الطبعة الثانية/عام 1971م/من كتابة فكرة الإفريقية الآسيوية على ضوء مؤتمر باندونغ الموضوع عام 1955م، إلى أن الفكرة الإفريقية - الآسيوية التي كان يمكن أن تنشأ عن توليف حضاري لثقافات العالم الثالث، وفي مقدمتها الثقافة الإسلامية كانت تستدعي تحويل الحدث السياسي الكبير (مؤتمر باندونغ) إلى فكرة حضارية، إلا أن هذا لم يحصل كما يستتج في العام 1971م، إذ يقول: «إن مؤتمر القاهرة سنة 1957م، ومؤتمر باندونغ قد جمعاً فعلاً كل شروط ثورة العالم الثالث، إلا شرطاً واحداً، وهو شرط إطلاق الشرارة الفكرية لإضرامها»<sup>1</sup>، والسبب كما يقول: إن احتياطات قد اتخذت داخل العالم الثالث وخارجه حتى لا تتطلق هذه الشرارة، وهذه الاحتياطات، كمنت آنذاك في سياسات الدول المحلية والإقليمية والدولية، فأنحصرت القرارات في حدود إمكانها السياسي المباشر.

ويدل على ذلك من خلال مثل ذي دلالة كبرى في مسار مشروعنا العربي - الإسلامي ومآل أزمته الراهنة في مجال الفكرة والثقافة والإبداع، يقول: ((إن أحد قرارات مؤتمر القاهرة عام 1957م هو إنشاء جائزة أفريقية - آسيوية على غرار جائزة نوبل وجائزة لينين لم ير النور، والواقع يضطرنا أن نقول إن جائزة نوبل وزعت منذ مؤتمر القاهرة، سبع عشرة مرة دون أن توزع الجائزة الإفريقية - الآسيوية مرة واحدة))<sup>2</sup>.

ومنذ كتب مالك بن بني هذا الكلام وحتى اليوم، توزعت هذه الجائزة أيضاً سبع عشرة مرة أخرى، إلا أنه في هذه المرة الأخيرة نالها أديب عربي مبدع هو نجيب محفوظ.

والمقارنة هنا مزدوجة: كان مالك بن بني ينتظر أن يكون للإبداع الحضاري الإفريقي - الآسيوي وفي قلبه الحضارة الإسلامية، جائزته العالمية الخاصة، وهو

<sup>1</sup> - د. وجيه كوثراني: مجلة المستقبل العربي، عدد 137/1990، ص35.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص35.

أمل له شروطه الاستقلالية السياسية والاقتصادية والثقافية التي لم تتحقق، ولعل عدم تحقيق هذه الشروط خلال كل تلك الفترة الطويلة من الانتظار «منذ مؤتمر باندونغ وحتى الآن» أدى إلى تحقق شروط سياسية أخرى حققت بدورها المزيد من الاستتباع للمركز الحضاري الغربي.

ويضطرنا الواقع أن نقول بأسلوب مالك بن نبي مرة أخرى، إننا نلنا جائزة نوبل بعد اثنين وثلاثين عاماً من تفكير مشروعنا العربي - الإسلامي (الذي كان قلب المشروع الأفريقي - الآسيوي بجائزة خاصة به) فلا نال أحد من المبدعين «ونجيب محفوظ في مقدمتهم» الجائزة الخاصة بحضارته أو عالمه أو وطنه، ولا نال أحد منهم كطه حسين وعباس محمود العقاد، في زمن الاستحقاق الفعلي، جائزة نوبل العتيقة، وعندما نال نجيب محفوظ الجائزة التي استحقها قبل ذلك، جاءت متأخرة عن زمن استحقاقها الفعلي<sup>1</sup>.

وهكذا بين غياب الجائزة الخاصة بالمشروع العربي الإسلامي، وانتظار الاعتراف الغربي بإنجازنا الحضاري ينكشف واقعنا انكشافاً محزناً ومأساوياً، يكشف مزيداً من الابتعاد عن معايير الاستقلالية الثقافية والإنسانية، ومزيداً من الاستتباع والاستقطاب لأحد المركزين، ويجهد مالك بن نبي في البحث عن بديل غير «نوبل وغير لينين» ذي دلالة حاضرة في تمييز السمات الحضارية للمشروع العربي الإسلامي<sup>2</sup>.

المحامي الدكتور برهان زريق

<sup>1</sup> - د. وجيه كوثراني: مجلة المستقبل العربي، عدد 137/1990، ص35.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص36، المصدر: إمكانات ومكانة الحرية والديمقراطية في المشروع النهضوي العربي الراهن، برهان زريق، دار علاء الدين، دمشق، 2008م.





## تقويمنا وضميرنا ووعينا للمسألة اللبنانية الراهنة

**سنجدزي** الكلام في هذا المقام كي لا نفتق الجراح وننكها، وسيكون وكدنا وكد المسآح برصد الرؤوس ويتلمس المفاصل.

ولا عجب فكل منشط وفاعل عربي يجب أن يتعامل مع المسألة اللبنانية الراهنة كوسيط كيمياوي، أو كالممرضة تسهل الولادة، دوره في ذلك دور الحياض الايجابي يحتضن ويساعد دون أن يبتسر ويعيق، ورحمة الله على الزعيم العربي روح هذا المبدأ وضميره وإرادته.

جوهر مسألتنا اللبنانية ولبها ولبابها مثنويتها، هي مسألة نعمة «بقدر ما هي نقمة» إذا أحسننا فهم جوهرها المركز فيها، وتعاملنا معها على هذا الأساس، وكأني بالقائل يقول: ((إذا كان في الوحدة قوة أخرى تضاف إلى الوحدة فتكسبها العصمة والمنعة)).

لقد كانت في حالة قبرص نقمة لأن إرادة الحياة لا زالت عطالة في ربوعها، وبالعكس كانت في كندا «المسماة ذات العزلتين» نعمة لأنها إرادة الحياة جمعت فوعت وجشأت فجاشت، دون أن ننسى أن قياسنا السابق «مع الفارق» لأننا في لبنان شعب واحد عرقاً وجنساً وثقافة ومستقبلاً.

هل إن الحضارة العربية ترجمان للقدر الإلهي اختارت لبنانا للتفاعل الحضاري (لب أنان تعني قلب الله) ليكون مشكاة العروبة تبعث منها وإليها الحياة، وكأني اسمع صيحات المطران جورج خضر تتردد: ((هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية ونحن جزء منها)).

وكأني بالمفكر العربي أمين نخلة يعلن: ((الإسلام إسلامان، إسلام بالدين، وإسلام بالحضارة، وكأنتنا مسلمون إذا كان الأمر حياً بمحمد وكلفاً بلغته)).

فقانون المشكاة - المصباح وناموسه في الضياء، في الحركة والسكون، في القبض والبسط يرنو إلى الحركة فلا تتن، والحركة ترنو إلى السكون فتستقر، وهكذا دواليك كالنحلة تمتطي السماء سعياً إلى الرحيق، لكنها لا تنسى منتهى أمرها... الخلية.

### إن تفصل القطرة عن بحرهما ففي مياه منتهى أمرها

يقول فوكو: ((حذار أن يخلو من الأمة المكوك الذي ينسج باستمرار الشيء المشترك))، لكن هل صحيح أن أفراد الأمة متساوون متجانسون متحدون تجمعهم النعرة القومية، التي يعبر عنها بـ نظرية سيادة الأمة، ألا يخفي هذا القول ما يemor به الشعب من حركة وتنوع ومصالح واختلاف أي مذهب نظرية سيادة الشعب.

لقد اجاب على هذا السؤال ومنطقه الفقيه الكبير "هوريو" حيث قال: ((لعبة الشطرنج كناية عن الرصانة والحلم والعصمة والأناة في كل عمل وطني)).

قريب من هذا رأي "ألان توين" في فعاليات الأمة حيث قال: ((السوق يقابلها الجماعية وكلا الأمرين في يد النظام، عنصر الاتساق، النظام المازن المعقلن.

حذار من السكون فهو صنو الموت، وكل يوم يأتي يقول أنا خلق جديد، فالحركة المطلوبة هي الحركة الرصينة الوئيدة الأكيدة «قانون النحلة تلجأ إلى الخلية»، وليست الحركة التي تقتلع الأشجار عند سفح الجبل.

سئل الفيلسوف "برتراند راسل" عن سر تفوق البريطانيين فأجاب: ((جدي اللورد قدّم مشروع لصالح العمال بينما الدوق الفرنسي آنذاك لم يتراجع قيد أنملة عن موقفه فقتل)).

ولتهب الحرية المطلوبة في لبنان بشرى بين يدي الله ولمصلحة الأمة وئيدة أكيدة، لا عواصف عند السفح تدمر وتقتلع، وليتنافس المتنافسون كما قال الله تعالى في قرآنه، وندع الزهور تتفتح ولنتبار.

كم هنالك خلط بين السلطة ومظاهرها، فالسلطة هي الارادة العامة للشعب، ومظاهرها الأجهزة المسماة مجازاً السلطة (الأجهزة القضائية - التشريعية - التنفيذية). فهذه الارادة العامة هي لبنان، جوهر لبنان، إرادة الله في لبنان، ناموس لبنان.

مجرد سؤال...كيف نطلب تنحي رئيس الجمهورية والارادة العامة غائبة لما تتكون، اليس ذلك انقلاب بالمفهوم الدستوري لا السياسي الجامح؟؟.

تجولت مرة في شوارع لبنان فإذا بها تمتلئ بتأييد حزب الله، وقيل لي هذا هو موقف الشعب بكامله، فهل انتهى دور المقاومة في لبنان وإسرائيل شارون في أوج عربدتها وطفغيانها .

عذراً إن عنّ لأحد أني مع الاستقرار المطلق أو مع التغيير المطلق، بل مع الحركة المعقلنة الرصينة الأكيدة، بل قريب من روحها وعقلها وضميرها، والله يحمي لبنان

ليحمي سوريا، توأمة لبنان ويحمي العروبة أمنا الكبرى تحقيقاً للحياة والقوة  
والسؤدد.

المحامي الدكتور برهان زريق



## السيرة الذاتية

### الدكتور برهان خليل زريق

ولد في محافظة اللاذقية - قضاء الحفة- قرية الجنكيل (القادسية حالياً)، 1933. المؤهلات العلمية:

- الثانوية العامة الفرع العلمي - ثانوية البنين (جول جمال) اللاذقية عام 1951.
- إجازة في الآداب - قسم اللغة العربية وعلومها - جامعة دمشق عام 1958.
- إجازة في الحقوق - جامعة حلب عام 1965.
- ماجستير في القانون الإداري من كلية الحقوق جامعة القاهرة عام 1970.
- دكتوراه في الحقوق - جامعة المنصورة عام 1984.

### العمل المهني:

- التدريس في ثانويات محافظة اللاذقية عامي 1952-1953.
- العمل في المديرية العامة للتبغ والتبناك حتى عام 1975.
- العمل في مهنة المحاماة من بداية عام 1976 حتى آذار 2007.

### النشاط المجتمعي:

- عضو في الاتحاد الاشتراكي فرع سوريا حتى عام 1975.
- عضو نقابة المحامين حتى عام 2007.
- عضو المؤتمر القومي العربي حتى وفاته 2015.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات أبرزها ندوة الوقف التي أقامها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام 2002.
- ✓ تم الاستعانة بخدمات محرك البحث Google لتدقيق وتصويب أسماء المراجع والمؤلفين، وبعض محتويات هذا المؤلف بسبب رحيل الكاتب قبل النشر، فالشكر كل الشكر للقائمين على هذا المحرك للخدمات الجليلة التي تقدم للإنسانية.



## محتوى الكتاب

- البحث/المقال الأول: الأصالة والمعاصرة بين المحاكاة والتقليد.....7
- البحث/المقال الثاني: العنف السياسي.....15
- البحث/المقال الثالث: السلطة السياسية في الوطن العربي.....55
- البحث/المقال الرابع: عبد الناصر ومشروع الأمة.....105
- البحث/المقال الخامس: حول نظرية عامة تقديمية للدين قراءة في الفكر الناصري.....115
- البحث/المقال السادس: هل يصلح النسق الديمقراطي المنشود لتأسيس غدنا المنشود.....155
- البحث/المقال السابع: الفاعلية الاستراتيجية للديمقراطية في المشروع النهضوي.....169
- البحث/المقال الثامن: إرادة الحياة أم إرادة بوش.....187
- البحث/المقال التاسع: حي على الكفاح حي على الصلاح حي على خير العمل.....193
- البحث/المقال العاشر: خطرات على غزو العدو الأمريكي للعراق.....197
- البحث/المقال الحادي عشر: الحياة وقفه عز فقط خطاب نوجهه للشعب العربي في ليبيا. 211
- البحث/المقال الثاني عشر: ما وراء الحملة ضد الجماهيرية.....217
- البحث/المقال الثالث عشر: صراع الأقدار بين الأمة العربية والنظام العالمي الجديد.....223
- البحث/المقال الرابع عشر: يا أحرار العالم اتحدوا.....227
- البحث/المقال الخامس عشر: ميثولوجيا الفيل المدلل ومسألة الكارزما الأمريكية.....233

- البحث/المقال السادس عشر: خطاب موجه للمؤتمر القومي العربي المنعقد في الخرطوم 259
- البحث/المقال السابع عشر: حوار مع الباحث العربي د. برهان زريق..... 261
- البحث/المقال الثامن عشر: حي على الصلاح على الفلاح حي على النضال..... 271
- البحث/المقال التاسع عشر: العربي جذر العربي فهل من مدكر..... 273
- البحث/المقال العشرون: قراءة سريعة للمحنة الكبرى – أحداث العراق الشقيق..... 281
- البحث/المقال الحادي والعشرون: رهان الاندماج العربي..... 287
- البحث/المقال الثاني والعشرون: في ذكرى الوحدة – نزول الجبال ولا نزول أمتنا..... 305
- البحث/المقال الثالث والعشرون: جدلية الدائرة العربية مع الدائرة الإسلامية..... 311
- البحث/المقال الرابع والعشرون: شخصية إقليم الجزيرة العربية – مسألة عبقرية المكان. 341
- البحث/المقال الخامس والعشرون: قراءة فلسفية لشخصية الجزيرة العربية..... 359
- البحث/المقال السادس والعشرون: خطرات على تاريخ أم القرى..... 369
- البحث/المقال السابع والعشرون: عمران المدر والوبر في الجاهلية..... 401
- البحث/المقال الثامن والعشرون: لغتنا العربية مسألة وجود وتقدم..... 427
- البحث/المقال التاسع والعشرون: التطبيع مع إسرائيل منحة أم محنة..... 441
- البحث/المقال الثلاثون: التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني..... 449
- البحث/المقال الحادي والثلاثون: التطبيع يتمه مع التطويع والتغريب والتفريق..... 507
- البحث/المقال الثاني والثلاثون: الغزو الثقافي في محيط الثقافة العربية الإسلامية..... 525
- البحث/المقال الثالث والثلاثون: حدث العزة في غزة- ذروة سنام الصمود فالمجد..... 599
- البحث/المقال الرابع والثلاثون: خطاب موجه للمؤتمر القومي العربي المنعقد في الجزائر. 615



- البحث/المقال الخامس والثلاثون: نظرية الأمن القومي العربي.....617
- البحث/المقال السادس والثلاثون: العنف الاجتماعي والطائفي والسياسي.....633
- البحث/المقال السابع والثلاثون: نقاط مقترحة من أجل النهوض والديمقراطية.....671
- البحث/المقال الثامن والثلاثون: نحو مشروع ثقافي إنهاضي ومسألة ثقافة الموت والحياة. 687
- البحث/المقال التاسع والثلاثون: النهضة العربية المرتجاة في ظل الثنائيات المتصارعة...697
- البحث/المقال التاسع والثلاثون: تقويمنا وضميرنا ووعينا للمسألة اللبنانية الراهنة.....705